

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي



كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية

شعبة: التاريخ

رقم التسجيل: 07/PG/LMD/HIS/20

جامعة محمد خيضر-بسكرة-

قسم العلوم الانسانية

الرقم التسلسلي:

الصراع بين دول المغرب الإسلامي وأثره على الجانب العمراني

(ق07هـ - ق09هـ)

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه (ل. م. د) في التاريخ

تخصص: تاريخ وحضارة المغرب الإسلامي

إشراف الدكتورة:

فتيحة شلوق

من إعداد الطالبة:

وسام لعرافة

أعضاء لجنة المناقشة

الرقم	الأستاذ	الجامعة	الرتبة العلمية	الصفة
01	مسعود كربوع	جامعة محمد خيضر بسكرة	أستاذ التعليم عالي	رئيسا
02	فتيحة شلوق	جامعة محمد خيضر بسكرة	أستاذ محاضر أ	مشرفا ومقررا
03	مغنية غرداين	جامعة محمد خيضر بسكرة	أستاذ التعليم عالي	عضوا مناقشا
04	سالم كربوعة	جامعة محمد خيضر بسكرة	أستاذ محاضر أ	عضوا مناقشا
05	عمار غرايسة	جامعة حمة لخضر الوادي	أستاذ التعليم عالي	عضوا مناقشا
06	كريم الطيب	جامعة باتنة 1	أستاذ محاضر أ	عضوا مناقشا

السنة الجامعية: (1445-1446هـ / 2024-2025م)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى:

{ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا
الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }

صدق الله العظيم

سورة آل عمران/ الآية

إهداء

إلى طلبة قسم التاريخ

الساعين إلى دراسة الماضي بمنهج علمي دقيق

أهدي هذه الأطروحة

راجية أن تكون إضافة متواضعة للبحث التاريخي

شكر وتقدير

أتقدم بأسمى آيات العرفان والامتنان إلى كل من ساهم بصورة مباشرة أو غير مباشرة، في إنجاز هذا البحث وإخراجه إلى حيز الوجود.

أخص ببالغ التقدير لأستاذتي المشرفة الدكتورة **فتيحة شلوق**، التي كانت مثالا للعلم والتوجيه الرصين، إذ لم تدخر جهدا في تقديم توجيهاتها السديدة فكان لإشرافها أثر جوهري في تقويم هذا العمل وضبط منهجيته.

كما أعرب عن خالص امتناني لأستاذتي الأفاضل: الدكتور **فريد فوغالية**، الدكتور **بلال زيتوني** الدكتور **سالم كربوعة** والدكتور **مسعود كربوع**، لما قدموه من دعم أكاديمي وإثراء معرفي أسهم في صقل رؤيتي البحثية.

كما أتوجه بوافر التقدير والاعتزاز إلى ركيزة دعمي الأولى عائلتي العزيزة إذ كان لصبرهم وتشجيعهم المستمر الأثر البالغ في إتمام هذه الأطروحة، وعلى رأسهم والدي الكريمين وأخواتي الفضيلات: **هدى**، **بسمة**، **إيناس**، و**فراشاتي شهد**، **شمس شذى وجودي**، وأميري آدم الذين مثلوا لي مصدر إلهام ودافعا متجددا للمضي قدما في مساري العلمي.

ولا يفوتني أن أعبر عن عميق الامتنان لزملائي الأعزاء: **محمد مامي**، **أمانى سعدالي ونسرين بومزراق**، على ما قدموه من دعم فكري وتفاعل أكاديمي خلاق كان له دور في إثراء النقاشات العلمية أثناء مراحل البحث.

وختاما أرفع أسمى عبارات الشكر والتقدير إلى لجنة المناقشة الموقرة، تشمينا لمجهوداتهم القيمة في مراجعة هذا العمل وتقويمه وما قدموه من ملاحظات بناءة تسهم في تعزيز قيمته العلمية وترسيخ منهجيته البحثية.

مقدمة

مقدمة:

للوصول إلى دراسة دقيقة وشاملة لأوضاع بلاد المغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط ينبغي السعي نحو تحقيق فهم عميق للحقائق التاريخية، من خلال تحليل وتفسير الظواهر المختلفة وربطها بعوامل نشوئها وتكرارها، مع الاهتمام بأدق التفاصيل وعدم إغفالها وبذلك يمكن سد الثغرات التي عانت منها بعض الدراسات السابقة نتيجة النقص أو الإهمال، وقد تطور تفسير الأحداث التاريخية بفضل توسع المعارف وتنوع الوثائق وتقدم مناهج البحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، كما تعددت آراء المؤرخين حول قيام الدول وسقوطها وأبرزها ما قدمه المؤرخ وعالم الاجتماع عبد الرحمان ابن خلدون، حيث طرح أسبابا تؤدي إلى انهيار الدول منها:

الفساد الأخلاقي والإهمال في الالتزام بتعاليم الدين مما يسهم تدريجيا في فقدان الأمة لمقوماتها السياسية حتى يتبدل الحكم عنها إلى غيرها فيؤول ذلك إلى زوالها الحتمي، والظلم الذي يؤدي إلى خراب العمران المؤثر سلبا على استمرار الدولة وصولا إلى التدهور التدريجي وسقوطها، وتقليد الأمم غير المسلمة في العادات والمذاهب المخالفة للشريعة، بالإضافة إلى العوامل الاقتصادية، وأخيرا الترف المبالغ فيه الذي يؤدي إلى الفساد الأخلاقي ويؤول تدريجيا إلى تدهور الفضائل السياسية اللازمة لاستمرار الحكم، فتحل مكانها صفات الشر مما يعرض الدولة للانحدار والانقراض.¹

بغض النظر عن محتوى هذه النظريات يبقى العنصر البشري هو المحرك الأساسي لمسارات التاريخ من خلال نشاطه العسكري وسعيه لتحقيق النصر، مما دفعه إلى تطوير الجوانب العسكرية وتأسيس أجهزة أمنية دائمة تقوم على تنوع الأساليب والخطط الحربية سواء في مرحلة التخطيط أو التنفيذ، إلى جانب إتقان التدبير الحربي أثناء المعارك والقدرة على التكيف مع متطلبات الظروف التاريخية المتغيرة، هذا وقد شهد المغرب الإسلامي تحولات هامة في مختلف المجالات

¹ عبد الرحمان بن محمد ابن خلدون (ت808هـ)، المقدمة، ض وفه خليل شحادة، مر سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2001، ص ص 180-354.

بالنظر إلى اتساعه الجغرافي الممتد من برقة شرقا إلى بحر الظلمات غربا، ومن بحر الروم شمالا إلى الصحراء الكبرى جنوبا.

قامت على هذا النطاق دول متعددة بتوجهات مذهبية مختلفة وأبعاد سياسية متنوعة سادها التوتر والتنافس الدائم لتحقيق الهيمنة والسيطرة ونشر المذاهب العقائدية، في محاولة منهم السعي إلى الريادة، من أبرز هذه الدويلات: الدولة الرستمية، الأغلبية، الإدريسية والمدارية، وقد استمر هذا الصراع حتى بعد استقلال الزييريين والحماديين عن الشيعة الفاطمية، ثم مع المرابطين والدولة الموحدية لاحقا، وصولا إلى الدول الثلاث التي انفصلت عن هذه الأخيرة: الدولة الحفصية في إفريقيا، الزيانية في المغرب الأوسط والمرينية في المغرب الأقصى.

تفاقم الصراع بين هاتين الدول الثلاث مما أفرز عنه سلسلة من الحروب المتواصلة تاركة بصمات حاسمة في مسار تاريخ المغرب الإسلامي، وأدى هذا الوضع إلى تشكيل تاريخ المنطقة وفق منظور تفضيلي انتقائي يتفاوت حسب درجات التأثير والتأثر بين هذه الدول، مما ربط تاريخ كل من الدولة الحفصية، الزيانية والمرينية بالنشاط العسكري المكثف إلى جانب الأوضاع الداخلية المضطربة والغير مستقرة التي ميزت كل دولة، حيث نشبت نزاعات قبلية وحدثت انقسامات داخل البلاط كما تصاعدت حركات الانفصال للولاة، فضلا عن تهديدت النصارى الدائم على السواحل.

ساهمت هذه الصراعات السياسية والعسكرية في بلورة واقع سياسي معقد اعتمد على الحروب والحركات العسكرية كأداة رئيسية، ومع غياب قاعدة بيانات إحصائية دقيقة لتحديد حجم المواجهات العنيفة بين القوى المتنازعة سواء بين بني حفص ومرين أو بين بني زيان وجارتيها شرقا وغربا تأتي دراستنا لمحاولة الاسهام في تقديم الإضافة من خلال تتبع كرونولوجيا الصراع، كما وقد أشارت المعطيات التاريخية المدونة والدراسات الحديثة إلى انعكاسات ملحوظة لهذه الصراعات على المظاهر الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، باعتبار العامل العسكري مرجعا أساسيا في دراسة هذه المظاهر بما في ذلك العمران الذي تأثر بدوره بالظروف السياسية والعسكرية السائدة، من هذا المنطلق كانت كل هذه الأحداث مادة تاريخية جاذبة لانتباهنا ومحركا لاختيارنا موضوع: "الصراع بين دول المغرب الإسلامي وأثره على الجانب العمراني (ق7هـ - ق9هـ)"، لتحليل

هذا التأثير العميق على مجمل الحياة العمرانية، واستعراض آثار النزاعات التي جعلت من العمران مرتبطا بمنظومة الصراع الدائم.

1. أهمية الموضوع:

تعد دراسة الصراع بين دول المغرب الإسلامي وما خلفه من آثار على الجانب العمراني مدخلا أساسيا لفهم العلاقة بين التحولات العسكرية والتغيرات المادية التي طالت المدن، وتبرز أهمية هذا الموضوع في كونه يكشف الأثر المباشر للنزاع من خلال ما تعرضت له المنشآت من تخريب وما شهده المجال العمراني من تراجع واضطراب، فهذه الشواهد الملموسة تمثل دليلا واضحا على مستوى العنف وطبيعة السيطرة وتمنح الباحث إمكانية قراءة التاريخ من خلال المعطى الميداني لا النص فقط.

كما تتيح الدراسة رصد التوجهات التي اعتمدها القادة في إعادة توجيه النشاط العمراني لخدمة الأهداف الدفاعية وتأمين المواقع الحساسة ضمن سياق مضطرب، ويكشف عن الكيفيات التي تم بها تعمير المناطق المستولى عليها باعتبار ذلك إثباتا ماديا وشاهدا ميدانيا يدل على عملية الإلحاق وبسط النفوذ، وبهذا يتجاوز تحليل العمران كونه مسألة معمارية ليصبح أداة لفهم الصراع ومرآة تعكس واقع السلطة وتقلب موازين القوة في الفضاء السياسي للمغرب الإسلامي.

2. أسباب اختيار الموضوع:

استند اختيار موضوع: "الصراع بين دول المغرب الإسلامي وأثره على الجانب العمراني (ق07- ق09 هـ)"، إلى عدة اعتبارات أساسية يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

– الرغبة العميقة في دراسة الصراع بين دول المغرب الإسلامي في الفترة الممتدة من القرن السابع إلى القرن التاسع للهجريين، وتحليل أبرز المواجهات العسكرية التي أسهمت في تشكيل الأوضاع السياسية في المنطقة، إذ يهدف هذا البحث إلى استكشاف الدوافع والأسباب الجوهرية الكامنة وراء هذه الصراعات مع تتبع انعكاساتها على المنشآت العمرانية، باعتبارها شاهدة على حقبة اتسمت بالتحويلات والتقلبات.

– السعي إلى تقديم قراءة تحليلية جديدة للتاريخ العسكري للمغرب الإسلامي من منظور علمي حديث تتماشى مع المناهج الأكاديمية المتقدمة، وتأتي هذه الدراسة استجابة للاتجاهات البحثية

الراهنة التي شهدت تطورا ملحوظا في دراسة الموضوعات التاريخية، عبر تبني مناهج تحليلية عميقة تعتمد على التفسير واستنتاج الوقائع التاريخية، بهدف استنباط حقائق جديدة وإثراء الفهم التاريخي من خلال مقارنة وتحليل المعطيات واستقراء مدلولاتها، هذا التحليل العلمي يعد استجابة لتكرار ظاهرة الصراعات وامتداد تأثيراتها، مما يثير التساؤل حول قوانينها الحاكمة وسبل استخلاص العبر منها.

– نظرا لأن الفترات الأخيرة من تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط لا تزال تحتاج إلى دراسات معمقة، فقد تم اختيار الحقبة الممتدة بين القرنين السابع والتاسع للهجري كموضوع للدراسة، إذ تقدم هذه الفترة إطارا مهما لدراسة تداعيات الصراعات العسكرية على النسيج العمراني من خلال التركيز على تفاعل ثنائية البناء والتخريب.

– الطموح إلى إنتاج دراسة أكاديمية متميزة تحمل بعدا علميا وإضافة نوعية تسهم في تسليط الضوء على تأثيرات الصراعات بين دول المغرب الإسلامي على عمران المدن، سواء كانت إيجابية أم سلبية، وتأمل هذه الدراسة في تقديم استنتاجات رفيعة تدعم الأبحاث المستقبلية حول تاريخ المغرب الإسلامي، وتؤسس قاعدة معرفية يمكن أن يعتمد عليها الباحثون في هذا المجال.

3. إشكالية البحث:

تسعى هذه الدراسة إلى تجاوز الرؤية التقليدية التي تقتصر على فهم الصراع بين دول المغرب الإسلامي بوصفه مجرد سعي لتحقيق الريادة السياسية والسيطرة الإقليمية، لتنتقل إلى استكشاف تأثيرات هذه العلاقات المتوترة وما صاحبها من مواجهات عسكرية على البنية العمرانية في المنطقة، مع التركيز على تجليات التأثير المتبادل بين هذه الصراعات والمشهد الحضري ضمن الإطار الزمني الممتد من القرن السابع حتى القرن التاسع الهجري، من خلال تسليط الضوء على ثنائية الهدم وتوظيف البناء في خدمة الأغراض الدفاعية بوصفهما جزءا من إستراتيجية عسكرية استنادا إلى تحليل واستقراء للمصادر التاريخية التي وثقت هذه الحقبة، بغية الوصول إلى استنتاجات معرفية تسهم في بناء مرجعية تاريخية ذات مصداقية، وفي إطار هذا الطرح تنبثق إشكالية الدراسة المركزية: ما مدى تأثير الصراع بين دول المغرب الإسلامي خلال الفترة الممتدة من القرن السابع إلى القرن التاسع هجريين على المشهد العمراني للمنطقة؟

تتفرع عن هذه الإشكالية الأساسية مجموعة من الأسئلة الفرعية التي تضيء على أبعاد مختلفة من أبرزها:

- ما هي الأسباب والدوافع الكامنة وراء نشوب الصراع بين دول المغرب الإسلامي؟
- ما هي السمات الرئيسية التي ميزت هذا الصراع؟
- إلى أي مدى حققت هذه الحروب غاياتها في التوسع الإقليمي؟
- ما هي المناطق الأكثر تعرضا للتدمير بفعل النزاعات؟
- كيف أعيد توجيه التخطيط العمراني في مدن المغرب الإسلامي خلال الفترة الممتدة من القرن السابع إلى التاسع الهجري لخدمة الأهداف العسكرية وتلبية المتطلبات الدفاعية؟
- ما دور القوى الحاكمة في تعزيز أو زعزعة الاستقرار العمراني في ظل هذه الصراعات؟
- هل أطلقت مبادرات لإعادة الاعمار والترميم بعد انتهاء النزاعات؟

4. الدراسات السابقة:

يعد موضوع الصراع بين دول المغرب الإسلامي وتأثيره على البنى العمرانية خلال الفترة المحددة للدراسة من المجالات الحديثة التي لا تزال بحاجة إلى بحث أكاديمي تاريخي عميق، ومع ذلك لا يمكن إنكار وجود بعض الدراسات التي تناولت جوانب مرتبطة به، لكنها لم تتطرق بشكل خاص إلى التأثيرات العمرانية لصراع دول المغرب الإسلامي خلال الفترة الممتدة من القرن السابع إلى التاسع للهجريين، حيث ركزت في الغالب على الحرب ضمن إطار زمني وجغرافي محددين.

غير أن الدراسات التي تناولت بشكل مباشر تأثير الحروب على البنى العمرانية ولامست موضوع بحثنا تبقى نادرة باستثناء بعض الإشارات العرضية في بعض الدراسات، وما يميز دراستنا الحالية هو أنها تتناول تأثير الصراعات العسكرية على عامة عمران بلاد المغرب من خلال تحليل منهجي للتدمير الذي طال المدن والمنشآت، وكذلك جهود إعادة البناء والترميم التي أعقبت تلك الصراعات باعتماد مقاربة شاملة تستند إلى مصادر تاريخية ومعطيات أثرية سعياً لتسليط الضوء على التداخل المعقد بين الديناميكيات السياسية والنتائج العمرانية، مما يساهم في تقديم رؤية جديدة لفهم تاريخ المغرب الإسلامي في تلك الفترة.

ومن أجل عدم ادعاء السبق في تناول موضوع الصراع بين دول المغرب الإسلامي وأثره العمراني، نستعرض فيما يلي بعض الدراسات التي مهدت لنا طريق البحث، ومنها:

- من أبرز الأبحاث التي تناولت جانباً من موضوع بحثنا في مجال المغرب الإسلامي والتي تمت الاستفادة منها بدرجات متفاوتة في طرح المادة التاريخية وتحليلها بما يتماشى مع موضوعنا، الدراسة المعنونة بـ: "الحرب في المغرب الأوسط وانعكاساتها على الأوضاع الاقتصادية والعمرانية خلال العهد الزياني (962/633هـ)"¹ للباحث بلال زيتوني.

تعد هذه الدراسة من الأعمال التي تقاطعت مع جزء من جوانب بحثنا، حيث تناولت تأثير الصراع والحروب على المشهد العمراني في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني مركزة على تأثيراتها في جوانب التخريب دون البناء، وقد ساهمت هذه الدراسة في إثراء بحثنا، حيث كشفت عن أثر الحروب على مختلف النماذج العمرانية الزيانية سواء المدنية أو الدينية، وأظهرت طبيعة المنشآت الدفاعية والأدوات الحربية المستخدمة لعمليات الخراب، وأضفى الباحث أهمية على دراسته من خلال دعمها بلغة الأرقام والإحصاءات مما أضفى عليها صبغة الأبحاث التاريخية الجادة.

أما عن القيمة العلمية المضافة في الدراسة الحالية فتتمثل في كون المجال الجغرافي أوسع إذ ضم مجالات المغرب الثلاث الأوسط، الأدنى والأقصى، فضلاً عن تسليط الضوء على مختلف الجهود المبذولة من قبل سلاطين الدول والتمثلة في توجيه التخطيط العمراني لمدن المغرب الإسلامي خلال الفترة الممتدة من القرن السابع إلى التاسع الهجري لخدمة الأهداف العسكرية وتلبية المتطلبات الدفاعية، بالإضافة إلى تعزيز الاستقرار الأمني في ظل هذه الصراعات كما أنها تفردت عن الدراسة السابقة بتعداد مبادرات السلطة -المحاصرة أو المهيمنة- في إعادة الاعمار والترميم بعد انتهاء النزاعات.

¹ أطروحة لنيل شهادة دكتوراه في تاريخ المغرب السياسي والحضاري في العصر الوسيط، إش بوسف عابد، جامعة قسنطينة، الجزائر، (2023/2022).

- الدراسة الموسومة بـ: "خطة الحصار العسكري في بلاد المغرب الإسلامي بين القرنين الرابع والثامن الهجريين (10-14م)"¹ للباحث البشير بوقاعدة.

تستعرض هذه الأطروحة استراتيجيات وتقنيات الحصار الحربي ودور المؤسسات العسكرية المغربية في تطوير وتنفيذ هذه الخطط مع تسليط الضوء على التفاوت في الجهود المبذولة، ورغم أن الدراسة لا تتناول موضوعنا مباشرة إلا أنها تتقاطع مع بعض محاوره، إذ ساعدت في فهم الأساليب المعتمدة لتخريب البنى العمرانية.

وتتجاوز الدراسة الحالية الإطار الزمني الذي عالجته أطروحة بوقاعدة، إذ تمتد إلى القرن التاسع الهجري -إنطلاقاً من القرن السابع للهجري- كما أن القيمة العلمية المضافة في هذه الدراسة تتجلى في تقديم رؤية شاملة حول تأثير النزاعات بين القوى السياسية الكبرى ليس فقط من خلال استعراض استراتيجيات الحصار، بل عبر تحليل إفرازات هذا الصراع على البنية العمرانية، إذ تسلط الدراسة الضوء على ثنائية التخريب والتعمير من خلال توثيق آثار الدمار الناجم عن العمليات العسكرية مع تقديم أمثلة دقيقة عن ذلك، بالإضافة إلى إبراز جهود التشييد والترميم التي رافقت فترات الصراع.

وبذلك تقدم الدراسة الحالية بعداً أوسع يجمع بين الجانب العسكري والانعكاسات العمرانية مما يسهم في تعميق الفهم التاريخي للعلاقة بين الحروب والبنية العمرانية في بلاد المغرب الإسلامي.

- الدراسة الموسومة بـ: "الصراع العسكري وخراب المدن بالمغرب الأوسط والأدنى، (بين 296هـ/909م -547هـ/1152م)، للباحث بشير بوقاعدة.²

على الرغم من أن الفترة التي عنيت بها هذه الدراسة سبقت الفترة الممتدة من القرن السابع إلى غاية القرن التاسع للهجري -المجال الزمني لموضوعنا- إلا أنها أفادتنا من ناحية أسلوب

¹ أطروحة دكتوراه في تاريخ المغرب والمشرق الإسلامي، إش جميلة بن موسى، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، الجزائر، (2016/2017).

² ميم للنشر، الجزائر، 2015،

الكاتب الرصين الذي يتسم بالموضوعية وتحليله النقدي وطريقة عرضه للمعلومات ومقارباته المنهجية لدراسة أثر الصراعات العسكرية في المغرب الأوسط والأدنى (خاصة خلال العصور الوسطى) على النسيج العمراني والاقتصادي للمدن.

وركزت الدراسة على العلاقة بين الحروب الداخلية والخارجية وخراب المدن، وإبراز دور الصراعات بين الدول الإسلامية والاستراتيجيات المتبعة التي أدت إلى تدمير المدن أو تحويلها إلى مراكز ثانوية، حيث يقوم الباحث بوقادة بتفسير الأحداث من خلال الربط بين العوامل السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية، موظفا مصادر متنوعة بحيث يجمع بين المصادر النصية والتحليل الأثري والأنثروبولوجي.

- دراسة الباحثة هوارية بكاي بعنوان: "العلاقات الزبانية الميرنية سياسيا وثقافيا".¹

تناولت هذه الدراسة طبيعة العلاقات السياسية بين الدولتين الزبانية والميرنية وجذور الخلاف بينهما، وقد تم الاستئناس ببعض النقاط من هذه الدراسة نظرا لتناولها بعض من جوانب موضوع بحثنا بما في ذلك المواجهات العسكرية التي جمعت الطرفين.

أما فيما يخص الدراسة الحالية يمكن القول أنها قدمت إضافة علمية نوعية، من خلال توسيع نطاق البحث ليشمل العلاقة الثلاثية بين الدول الثلاث: الزبانية، الميرنية والحفصية، إذ لم تقتصر الدراسة على تحليل الصراعات السياسية والعسكرية بين هذه الكيانات، بل سعت إلى استكشاف العوامل التي دفعت إلى المواجهات العسكرية، مما يتيح فهم أعمق للدوافع الاستراتيجية والسياسية التي حكمت تلك المرحلة، بالإضافة إلى إبراز تأثير هاته النزاعات على البنى العمرانية وهو جانب لم يكن محوريا في دراسة بكاي، بل عنية بدراسة العلاقات الثقافية التي جمعت بني مرين ببني زيان من خلال ربط الديناميكيات السياسية والعسكرية بالتحويلات العمرانية.

وأسهمت الدراسة الحالية في تقديم مقارنة متعددة الأبعاد تجمع بين التاريخ السياسي والتاريخ العمراني في بلاد المغرب خلال الفترة الممتدة من القرن السابع إلى القرن التاسع للهجريين.

¹ مذكرة ماجستير في تاريخ المغرب الإسلامي، إش مبخوت بوداوية، جامعة تلمسان، الجزائر، (2007/2008).

5. خطة البحث:

لتحليل إشكالية بحثنا بعمق وشمولية وتقديم إجابات دقيقة وشفافية على السؤال المحوري والأسئلة الفرعية المطروحة، تم بناء الدراسة وفق هيكل منهجي منظم يتماشى مع المعايير الأكاديمية يتكون من العناصر الآتية:

مقدمة توضح الإشكالية المطروحة في الدراسة والمنهجية المتبعة في تحليلها وتمد القارئ بخلفية موجزة عن أهم الدراسات السابقة في هذا المجال، بالإضافة إلى جرد وتحليل المصادر والمراجع الرئيسية التي بنيت عليها هذه الدراسة، مستعرضة مضمون الدراسة التي جاءت في أربعة فصول، تهدف جميعها إلى تفكيك الإشكالية الرئيسية وتحليلها ضمن أطرها التاريخية المتعددة، وصولاً إلى خاتمة تستعرض النتائج الأساسية المتوصل إليها.

العرض يتضمن: الفصل الأول المعنون بـ: "الوضع السياسية للمغرب الإسلامي (ق7-9هـ)"، الإطار التاريخي الذي يمهد لباقي فصول الدراسة، حيث يستعرض آثار سقوط دولة الموحدين والظروف المحيطة التي أسهمت في نشأة الدول الثلاث: الحفصية، الزيانية والمربينية، كما يبحث في استراتيجيات كل دولة لتثبيت سلطتها وحماية حدودها الجغرافية والسياسية، ويتناول أيضاً النظام العسكري لكل من هذه الدول برا وبحرا، بالإضافة إلى تعداد أسباب سقوط هذه الدول لاحقاً.

أما الفصل الثاني الذي يحمل عنوان: "الصراع بين دول المغرب الإسلامي خلال (ق7-9هـ)"، يسعى إلى تحليل عوامل نشوب الحروب وأبعادها مستعرضاً مجمل المواجهات العسكرية التي وقعت ضمن النطاق الزمني المحدد من القرن السابع إلى القرن التاسع الهجري، ويعتمد هذا الفصل على المقاربة الكرونولوجية لرصد هذه المواجهات، ويهتم الفصل بتصنيف فترات الحصار وتحديد نوعه (طويل، متوسط، قصير المدى) مع توثيق المجال الجغرافي لمسرح العمليات العسكرية ومسارات حركة الجيوش (نقطة الانطلاق، الطريق المتبع، والموقع النهائي للمعركة) وأعداد المشاركين فيها، كما يقدم الفصل تحليلاً لنتائج هذه الحملات موضحة آثارها على الدول المحاصرة والمحاصرة.

الفصل الثالث الموسوم بـ: "العمارة المدنية والدينية في المغرب الإسلامي (ق07-09هـ)"، يستعرض دراسة لمختلف المنشآت العمرانية في كل من الدولة الحفصية، الزيانية والمرينية ويشمل تحليلاً لأنواع المنشآت المدنية مثل العمارة السكنية (المنازل والقصور)، والمنشآت التجارية والفضاءات العامة (الفنادق، الأسواق، القيصريات، الحمامات، والبيمارستانات)، بالإضافة إلى المنشآت الدينية والثقافية كالمدارس والمساجد مع توضيح أسلوب بنائها وخصائصها الفنية.

يتناول الفصل الرابع، الذي هو بعنوان: "انعكاسات الصراع على العمران: دراسة ثنائية الخراب والتشييد"، تأثيرات الصراع على العمارة مع التركيز على آثار التدمير والتخريب العمراني كجزء من استراتيجيات الحروب، ويناقش الفصل أيضاً الآليات والتقنيات المستعملة في التخريب وأسباب استخدامها، كما يدرس التوجيه العسكري للعمارة إذ سعى حكام المغرب إلى استخدام المنشآت في تحقيق الأمن والاستقرار، ما جعل الحصون والأسوار العالية تعبيراً عن رمزية القوة والسيطرة حيث شيدت وفق أحدث التقنيات المتاحة آنذاك، ويعرض الفصل أيضاً جهود السلاطين في الترميم والصيانة، مع الإشارة إلى أبرز المنشآت التي تم تشييدها أو ترميمها خلال فترات الحصار من قبل القادة المحاصرين.

وفي الأخير أنهيت الدراسة بخاتمة تضمنتها أهم النتائج المتوصل إليها، وذيلت بمجموعة من الملاحق الموضحة للمتن وفهارس وقائمة الببليوغرافيا المعتمدة وقائمة الموضوعات.

6. صعوبات الدراسة:

لا تخلو أي دراسة أكاديمية من تحديات تعترض سبيل إعداد موضوع محدد خاصة إذا كان الموضوع متعلقاً بالحروب، التي تعد ميداناً واسعاً ومعقداً للدراسة، وفي هذا السياق يمكن تلخيص أبرز الصعوبات فيما يلي:

- يبرز شح المعلومات التاريخية التي تربط بين الظاهرة الحربية وآثارها على البنى العمرانية خلال فترة الدراسة، فغالبا ما ترد هذه المعلومات في شكل سردي يركز على مسببات المعارك ونتائجها من منظور سياسي واستقراري للدولة، بالإضافة إلى التركيز على جهود السلاطين في استعادة نفوذهم وإقرار الأمن في المنطقة.

فضلا عن استعراض بطولاتهم العسكرية، الأمر الذي يتطلب تحليلا دقيقا واستقراء للمعطيات التاريخية بهدف استخلاص استنتاجات تخدم موضوع الدراسة بشكل تحليلي معمق.

- تتجلى مشكلة أخرى في تضارب الروايات التاريخية وتناقضها، وذلك نتيجة لتأثر المؤرخين بانتماءاتهم الإيديولوجية والسياسية، فمثلا وجد بعض المؤرخين يمجدون إنجازات أبو الحسن المريني في مجالات البناء والترميم العمراني ضمن نطاق الأراضي الخاضعة لسلطته، متغاضين عن الفوضى والأضرار التي تسببت بها حروبه، سواء كانت ضد دولتي بني زيان وبني حفص أو ضد الولاة الذين انفصلوا عن حكمه في مجالات المغرب الأقصى.

- صعوبة التنقل إلى المغرب الأقصى.

7. منهج الدراسة:

للوصول إلى تحليل منهجي للإشكالية البحثية تم الاعتماد على **المنهج التاريخي** والذي تم اعتماده نظرا لتعذر إعادة إنتاج الأحداث التاريخية بشكل مباشر، مما يتيح فرصة استحضار الوقائع بطريقة غير مباشرة عبر استنطاق المصادر الأساسية والثانوية، وتم توظيف أساليب التحليل التاريخي والمقارنة والتركيب لملء الثغرات المعلوماتية، وذلك بناء على الاستنتاجات المستخلصة من دراسة معمقة للمصادر بهدف تحقيق تمثيل أقرب للحقيقة التاريخية، ويعد المنهج التاريخي أساسيا لدراسة التاريخ العسكري والسياسي وتحليل تأثير تلك الأحداث على النسيج العمراني في المنطقة المدروسة خلال الفترة الممتدة من القرن السابع إلى القرن التاسع الهجري.

بالإضافة إلى **المنهج الوصفي** لتوثيق المنشآت العمرانية بدقة من خلال وصف العناصر المعمارية، وتحديد خصائصها البنيوية والجمالية ضمن الإطار الزمني والمكاني للدراسة، شمل هذا التوثيق وصفا دقيقا للمواد المستخدمة، وتصاميم البناء، وأساليب الزخرفة مما يساعد في تحليل التطور العمراني وتأثير الأحداث التاريخية على الهندسة المعمارية.

8. عرض وتحليل لأهم مصادر ومراجع الدراسة:

رغم أهمية موضوع تأثير الصراع بين دول المغرب الإسلامي على البنى العمرانية، إلا أنه لم ينل من الدراسة بما فيه الكفاية خاصة في ظل الحياد النسبي الذي مورس من طرف أصحاب

النصوص المصدريّة والكتابات التاريخيّة الحديثة، لهذا تمت المحاولة في توسيع رقعة المادة الخبريّة والانفتاح على مصنفات عديدة ومتنوعة ترتبط في أحد نقاطها بهذه الدراسة، وأسهمت في تطعيمها وتتصدرها:

8. 1 المصادر:

8. 1. 1 كتب التاريخ العام:

- الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية¹ لأبو العباس أحمد بن حسين بن علي ابن قنفذ القسنطيني (ت810هـ/1407م)

يعد هذا الكتاب من المصادر الأساسية لدراسة نشأة وتطور الدولة الحفصية ومعرفة علاقاتها الخارجية، يتميز هذا الكتاب بدقة السرد التاريخي والتحليل السياسي والاجتماعي، حيث يتناول فيه ابن قنفذ أصول الدولة الحفصية ودور مؤسسها أبي زكريا الحفصي في ترسيخ دعائمها ودور الحفصيين في دعم المراكز العلمية والدينية، مما أسهم في ازدهار الفكر الإسلامي في المنطقة.

كما ساعد هذا المصدر في إستنباط التحديات الخارجية التي واجهتها الدولة مع المرينيين وبني زيان وتأثيراته على البنى العمرانية، فضلا عن تقديمه مادة خبرية عن بعض المشاهد العمرانية التي شاهدها سلاطين بني حفص، مما يجعل هذا الكتاب مصدرا ثميناً يرتبط ارتباطاً وثيقاً بموضوع البحث.

- تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية² لأبي عبد الله محمد بن إبراهيم الزركشي (ت بعد 894هـ/1488م)

يتميز هذا الكتاب بدقة السرد والتوثيق الزمني المنهجي للأحداث التاريخية مع اهتمام واضح بالسياقات السياسية والاجتماعية المحيطة بها، يتبنى الزركشي في كتابه لغة فصيحة وواضحة

¹ تق وتح محمد الشادلي النيفر وعبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1968.

² تح وتح محمد ماضور، المكتبة العتيقة، ط 2، تونس، 1966.

تتماشى مع الأسلوب الأدبي للعصر الوسيط، مميزا إياها بموضوعية واضحة في عرض الوقائع مع تجنبه للانحياز الصريح لأي طرف.

ولقد استقينا من هذا الكتاب ظروف النزاعات والأزمات التي عصفت بالمنطقة سواء بين الحفصيين والزيبانيين من جهة والحفصيين والمرينيين من جهة أخرى، مظهرًا ما تسببت به هذه الصراعات من اضطرابات وفوضى مما أسفر عن ذلك دمارًا واسعًا للبنية العمرانية، لا سيما في مدينتي قسنطينة وبجاية.

كما وثق السياسة التي اتبعتها السلطة الحفصية -تدمير بعض الحصون والمنشآت التي أنشأها الزيبانيون في بجاية بهدف تسهيل الوصول إلى مناطق إفريقية- بالإضافة إلى تقديمه وصفًا دقيقًا للشخصيات القيادية وأدوارها وتأثيراتها في تلك الأحداث، مما يمنحنا فهما معمقًا للتعقيدات المحيطة بالصراع السياسي العسكري لا سيما في الفترة المتأخرة من القرن التاسع الهجري أي على عهد السلطان أبو فارس.

وبهذا يعتبر الزركشي إلى جانب التنسي من الرواد القلائل الموثقين لهذه الحقبة التاريخية بتميز وموضوعية علمية.

- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد¹ لأبي زكريا يحيى ابن أبي بكر محمد بن محمد بن محمد بن الحسن ابن خلدون المتوفى سنة (780هـ/1378م)²

ألف هذا الكتاب بناءً على توجيه من السلطان أبو حمو موسى الزياني الثاني، يعد من المصادر التاريخية المهمة إذ هدف صاحبه إلى توثيق أمجاد سلاطين بني زيان السابقين وتسجيل أبرز الأحداث والوقائع التي شهدتها عصره، وقد أشار المؤلف إلى التزامه بأمر السلطان حيث قال:

¹ مطبعة بيبير فونتانا الشرقية، ج 1، الجزائر، 1903،

² قتل يحيى ابن خلدون بتحريض من أبو تاشفين ابن أبو حمو موسى الثاني طعنا بالخناجر. **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ض خليل شهادة، مر سهيل زكار، دار الفكر، ج 7، بيروت، لبنان، 2000، ص 187.

"وكنتم ممن بأمره أعلى الله مقامه بذلك، ثم رأيتم امتثال أمره العزيز علي فرض، وأن طاعته من طاعة الله على بعض، فاقنيت لإملاء هذا الكتاب راكبا فيه لرجاه الأخطار".¹

اعتمد يحيى ابن خلدون في ترتيب كتابه على التسلسل الكرونولوجي، مقسما إياه إلى ثلاثة أقسام تنتهي حوادثه في أواخر سنة (776هـ/1374م) وقد ساعدته مكانته ككاتب للسلطان،² على التقرب من مصادر القرار السياسي ومتابعة أحداث الصراع عن كثب، خاصة مع خدمته السابقة في بلاط الأمير أبي عبد الله الحفصي والأمير عبد العزيز المريني.

يمثل الكتاب مصدرا قيما لتوثيق العديد من الأحداث التاريخية خاصة تلك المتعلقة بأسباب الصراع وأشكاله، كما يعد مصدرا موثوقا لبعض الأحداث المرتبطة بأعمال التخريب التي طالت عمران حاضرة تلمسان وبعض أعمالها.

– العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، لعبد الرحمان بن محمد بن محمد ابن خلدون (ت808هـ/1405م)

هو أحد أهم المؤلفات في الفكر الإسلامي والتاريخي، يتكون الكتاب من عدة مجلدات ويمثل محاولة شاملة لتدوين تاريخ الأمم والشعوب المختلفة من العرب والعجم والروم والبربر بما في ذلك الأحداث الكبرى والوقائع التاريخية البارزة، وأهم ما يميز هذا الكتاب هو منهج عبد الرحمان ابن خلدون المبتكر، الذي لم يقتصر فيه على سرد الأحداث فحسب بل ذهب إلى تحليل الأسباب الكامنة وراء التغيرات التاريخية من منظور اجتماعي واقتصادي وسياسي، وقد قدم في مقدمته الشهيرة، أسسا لنظرية علمية تعنى بدراسة المجتمعات البشرية أسماها علم العمران البشري، وتعتبر اليوم الأساس لعلم الاجتماع الحديث.

في المقدمة يطرح عبد الرحمان ابن خلدون مفاهيم مثل العصبية التي اعتبرها عاملا رئيسيا في صعود الدول وانهارها، كما يقدم تحليلات حول تطور المجتمعات من البداوة إلى الحضر، وتأثير الاقتصاد والسياسة والدين في تشكيل مصائر الدول والحضارات، وكتاب العبر لا

¹ يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 4

² عبد الرحمان ابن خلدون، ج 7، مصدر سابق، ص 187.

يقتصر على كونه مؤلفا للتاريخ الإسلامي بل هو عمل فكري شامل يتناول حركة التاريخ بشكل عام، ويعبر عن رؤية ابن خلدون في تفسير العلاقات بين الإنسان والمجتمع والحكم من خلال تحليله النقدي للمصادر التاريخية ورصده لظواهر التغيير الاجتماعي.

الأجزاء التي تم الاعتماد عليها لتطعيم بحثنا إلى جانب المقدمة هو الجزء السادس والسابع، لاحتوائهم على العديد من الحوادث والحروب التي جمعت الدول الثلاث: الزيانية، الحفصية، والمرينية، إذ صور عن كثب غمارها وآثارها على الدول وما ساعده على ضلوعه ومعاينته للوقائع، أن ربطته مع كل من السلطان أبو حمو موسى الثاني، والسلطان المريني عبد العزيز، والسلطان الحفصي أبي إسحاق وابنه خالد من بعده مراسلات سرية تتعلق بأمور الحرب ومجرياتها، فضلا على نقله للعديد من الروايات الشفوية عن بعض الشيوخ كالأبلي (نقل عنه أخبار الحصار الطويل ووصايا يغمراسن).

- تاريخ بني زيان ملوك تلمسان المقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بنو زيان وذكر ملوكهم الأعيان ومن ملك من أسلافهم فيما مضى من الزمان¹ لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي (ت899هـ/1494م)

من خلال قراءة هذا الكتاب تم العثور على اختلافات في بعض التواريخ إذا ما قورنت بالمصادر التاريخية المؤرخة لتلك الفترات ومثال ذلك : تحديد فترة دخول السلطان الحفصي أبو زكريا إلى تلمسان واستيلائه عليها سنة (645هـ/1248م)، في حين أورد صاحب البغية أن التاريخ كان سنة (640هـ/1243م)،² وأيده في هذا كل من ابن أبي زرع الفاسي وابن قنفذ القسنطيني،³ والزركشي،⁴ كما أورد عبد الرحمان ابن خلدون أن دخوله كان سنة (639هـ/1242م)،⁵ والاختلاف بين تاريخ هذا الأخير والأول سنة واحدة لكن تاريخ التنسي أبعد وانفرد به هو فقط.

¹ تح محمود بوعباد، منشورات ANEP، الجزائر، 2010،

² يحي ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 112.

³ ابن قنفذ القسنطيني، مصدر سابق، ص 109.

⁴ الزركشي، مصدر سابق، ص 29.

⁵ عبد الرحمان ابن خلدون، ج 7، مصدر سابق، ص 107.

وتكرر الاختلاف في العديد من المواضع والوقائع ومن ذلك أيضا ذكر الباب الذي خرج منه يغمراسن فارا أثناء الاستيلاء سالف الذكر: باب علي،¹ لكن عبد الرحمان ابن خلدون،² وأخاه يحي،³ أوردا الباب باسم باب العقبة، والاختلاف في ذكر الوقائع والتواريخ كثير لا يتسع المقام لذكرها، بل تحتاج إلى دراسة منفردة ومعمقة.

وعلى الرغم من الاختلاف الطفيف في المادة التاريخية في بعض النقاط إلا أن هذا الكتاب يعتبر الدعامة الأساسية لدراسة تاريخ المغرب الأوسط خلال العهد الزياني، فعلى الرغم من طابعه الأدبي ومقصده السلطاني وميله لاختصار الحدث التاريخي (عسكري وعمراني) إلا أنه من المصادر المنفردة التي حفظت الموجهات الزيانية مع جارتها لمدة تتيف عن سبعين سنة وفق الترتيب الكرونولوجي -خصص لكل سلطان مواجهاته العسكرية وانجازاته العمرانية- والتي توقفت إلى سنة (868هـ/1463م).

- زهر البستان في دولة بني زيان، لمؤلف مجهول (كان حيا خلال ق8هـ/14م)⁴

أورد بوزياني الدراجي أن صاحبه خدم البلاط الزياني في عهد أبو حمو موسى الثاني وما يؤكد ذلك هو استناده إلى روايات شفوية مباشرة الأمر الذي يدل على قربه من الحوادث الموثقة في كتابه، ويظهر ذلك جليا في استشاده بحوارات جرت داخل البلاط الزياني بين أبو حمو وعامة الناس.

ويظهر الحياد النسبي لصاحب زهر البستان اتجاه سلطان بني زيان في تأييدها لبعض قرارات أبو حمو العسكرية في حروبه ضد بني مرين، والتي تتقاطع مع أحد جوانب موضوع الدراسة بما في ذلك المواجهات الزيانية العسكرية في السنوات الأربع الأولى لأبو حمو وصور بعض العناصر المعمارية التي شادها هذا الأخير بما في ذلك المدرسة اليعقوبية.

قام بتأليفه في ثلاث أجزاء الأول تتناول شواهد ونصوص أدبية وشعرية هامة كما وجدت نصوص أهمل صاحب البغية ذكرها، أما الجزء الثاني يتناول الفترة الزمنية المحصورة بين

¹ التنسي، مصدر سابق، ص 127.

² عبد الرحمان ابن خلدون، ج 7، مصدر سابق، ص 108.

³ يحي ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 112.

⁴ تح وتق بوزياني الدراجي، مؤسسة بوزياني للنشر، ج 2، الجزائر، 2012.

(760/785هـ-1358/1363م) ويشتمل على أخبار الدولة الزيانية وما جاورها من دول المغرب والأندلس خلال تلك الفترة، بالإضافة إلى بعض من أخبار القبائل والنصوص النثرية والشعرية ووصف أجواء الاحتفالات على عهد أبو حمو.¹

- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس² لابن أبي زرع علي الفاسي (كان حيا سنة 726هـ/1325م)

يتميز هذا الكتاب بأسلوب سردي مباشر يوثق الأحداث التاريخية بترتيب زمني على طريقة الحوليات مع تركيز خاص على مدينة فاس، كما يتناول أخبار حكام المغرب وسلالات الأدارسة والمرابطين والموحدين والمرينيين مع توضيح إنجازاتهم السياسية والعسكرية، ويهتم المؤلف بوصف العمران والحياة الحضارية في فاس بما في ذلك المساجد، المدارس والأسواق مما يعكس مكانة المدينة كمركز حضاري.

كما يبرز الكتاب العلاقات الخارجية للمغرب مع الأندلس والدول المجاورة (الدولة الزيانية والحفصية) ويولي أهمية لتوثيق سير الشخصيات البارزة وحروبها مع الدولة الزيانية مما يجعله يتقاطع مع موضوع بحثنا والأمر الذي ساعدنا على مقارنة الحروب والوقائع التي جمعت الطرفان مع المصادر الزيانية، ورصد مواطن الاختلاف والتوافق للوقوف إلى مقاربات وتحليلات تقربنا للحقيقة التاريخية.

8. 1. 2 كتب المناقب:

- المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا الحسن³ لصاحبه: محمد بن أحمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجسي التلمساني أبو عبد الله (ت 781هـ/1379م)

يتحدث هذا الكتاب عن وصف حياة البلاط المريني خلال عهد أبو الحسن المريني الذي تمكن من توسيع دائرة نفوذه خارج مجال المغرب الأقصى وضم المغربين الأوسط والأدنى، مقدما مادة خبرية عن الحروب التي خاضها هذا السلطان فضلا عن إنجازاته المعمارية التي شاهدها خاصة المنصورة وملحقاتها، والخراب الذي طالها في المرة الأولى والثانية بعد أن أعاد أحيائها.

¹ مؤلف مجهول، زهر البستان...، مصدر سابق، ص ص 8-9.

² دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، المغرب، 1972.

³ در وتح ماریا خیسوس بیغیرا، تقديم محمود بوعیاد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.

كل هاته المعلومات كانت مادة أساسية ساعدت على معالجة بعض المحاور من موضوع بحثنا لاسيما في دراسة المنشآت المرينية في المغرب الأوسط، وما ساعد ابن مرزوق على توثيق هاته الأحداث والوقائع التاريخية هو قربيه من البلاط المريني مما يعطي أخباره بعدا قيميا، كما كان ممن ساهموا في الصلح بين أبو الحسن وابنه أبو عنان، فضلا عن كونه سفيرا للأمير أبو سعيد الزياني الذي أرسله للصلح مع أبو الحسن المريني.

8. 1. 3 كتب الأدب السلطانية:

- واسطة السلوك في سياسة الملوك لأبو حمو موسى الثاني (760-791هـ/1359-1389م)

تضمن هذا الكتاب جملة من الوصايا المتعلقة بتدابير الملك والأخلاق والأداب لولي عهده أبو تاشفين الثاني، اعتمد الكاتب في هذا التأليف على خبرته العسكرية التي حولها إلى وصايا وقواعد وتنظيرات خاصة بالاستراتيجيات العسكرية الناجحة كتحريق الأراضي الزراعية ومواقيت شن الحملات الموسمية مستشهدا بحروب خاضها بنفسه. لم نستند إلى هذا الكتاب بشكل كبير إنما استشهدنا به فقط عند دراسة الاستراتيجية العسكرية للجيش الزياني، وترجمته لمفهوم الحصن.

8. 1. 4 كتب الرحلة والجغرافيا:

- المسالك والممالك¹ لأبي عبيد الله البكري (ت487هـ/1094م)

يعد الكتاب من أبرز الأعمال الجغرافية في التراث العربي الإسلامي، حيث يقدم وصفا شاملا للطرق والمدن والمناطق الجغرافية في العالم الإسلامي وما حوله خلال القرن الخامس الهجري، يعتمد البكري في أسلوبه على لغة عربية فصحة وثرية بالمفردات، ويغلب على كتابته الوصف التفصيلي المستند إلى الروايات الشفهية والمصادر المكتوبة التي توفرت له، مما يعكس حرصه على توثيق المعلومات بدقة، كما يتسم أسلوبه بال تكرار الذي يعزز من تصويره للأماكن وتقديمه لتفاصيل دقيقة عن الشعوب، الموارد، والمسالك ويستخدم البكري أحيانا التشبيهات والاستعارات، مما يضفي طابعا أدبيا على نصه الجغرافي، يظهر الكتاب تأثيرا واضحا على

¹ تح وفه جمال طلبة، دار الكتاب العلمية، ج 1، ط 1، بيروت، لبنان، 2004.

الجغرافيين اللاحقين الذين اعتمدوا على وصفه، مما جعله مصدرا موثوقا وشائعا في الدراسات الجغرافية.

على الرغم من أن هذا المصدر سبق المجال الزمني لدراستنا إلا أنه رصد العديد من المعطيات التاريخية والجغرافيا لمجالات المغرب الإسلامي، وتحديد مجالات كل إقليم، لاسيما أنه أولى المصادر التي أوردت ذكر مصطلح المغرب الأوسط، فضلا عن الاحصاءات التي قدمها لمختلف المظاهر العمرانية المشادة في فترات سابقة.

- رحلة العبدري¹ لأبي عبد الله محمد العبدري البنسي (ت 720هـ/1320م)

من أهم مصادر الرحلات الجغرافية في القرن السابع الهجري الثالث عشر ميلادي، إذ يقدم وصفا دقيقا للأوضاع العامة في المغرب لا سيما في تونس، وتلمسان وفاس، عواصم دول المغرب الإسلامي وحصانتهم الطبيعية والمعمارية، والتي تتقاطع مباشرة ونطاق دراستنا، كما يتناول الكتاب موضوعات عدة، منها تطور العمران وبنية الأسواق والمرافق العامة، ويرصد التقاليد الاجتماعية والثقافية وأحوال السلطة المحلية.

ويتميز أسلوب العبدري بالدقة والموضوعية، والوصف التفصيلي الذي يعكس المشاهد التي جاءت على مرأى عينه، ويغلب عليه الطابع التوثيقي، مما يضفي على عمله قيمة كمصدر تاريخي يعكس الواقع الحضري والثقافي والسياسي في عصره، ويظهر تأثير المدن بتغيرات السلطة والصراعات القبلية في ذلك الوقت.

وما يميز العبدري عن باقي الرحالة والجغرافيين نقده الصريح للأوضاع الاجتماعية والسياسية في البلاد التي زارها، وغالبا ما تكون أحكامه صارمة ومتأثرة بالقيم والمعايير الثقافية لوطنه، من ذلك انتقاده لانعدام الأمن في طرق تلمسان ووصفه الصريح لصفات سكان طرابلس.

فأسلوبه يعكس شعورا بالمسؤولية الأدبية حيث يسعى إلى تحذير مجتمعه من الفوضى والظلم الذي رآه، ومع ذلك يمكن تفسير بعض هذه الأحكام كاستجابة لتجارب شخصية قد تكون

¹ تح علي إبراهيم كروي، تق شاكرو الفحام، دار سعد الدين، ط 2، دمشق، سوريا، 2005.

سلبية، ما يجعل قراءة الكتاب تتطلب تمييزاً بين انطباعاته الخاصة وواقع المجتمعات التي وصفها، والنظر إليها ضمن السياق الثقافي لعصره.

– مسالك الأبصار في ممالك الأمصار¹ للعمري شهاب الدين أحمد (ت 749هـ/1348م)

عاصر عهد أبو الحسن المريني، تمت الاستفادة منه في معرفة جغرافية عواصم الدول الثلاث: الدولة الحفصية، الدولة الزيانية والدولة المرينية، فضلاً عن بعض المعالم العمرانية ومواد البناء، على الرغم من اعتماده في كتابته على وصف موجز وغير تفصيلي للعمارة في المدن مثل فاس وتونس وتلمسان، فهو يكتفي بتعداد العناصر الأساسية، كالمساجد والمدارس والقصور والحمامات، ويشير أحياناً إلى المواد المستخدمة في البناء دون الخوض في تفاصيل دقيقة حول العمارة أو التخطيط الحضري.

وعليه فإن أسلوب العمري يتسم بالإيجاز، والتركيز على العناصر البارزة دون الدخول في وصف معمق، ويبدو أن هدفه الأساسي هو إعطاء صورة عامة عن مكونات المدينة الأساسية دون استكشاف الطابع الجمالي أو التقني لكل عنصر، يعتمد هذا الأسلوب على التعريف العام، حيث يذكر فقط العناصر المميزة مثل المواد الإنشائية (كالطوب أو الحجر) مع أسماء المباني، وذلك ربما بغرض تقديم نظرة شاملة للمدن دون إسهاب وتقديم تحليلات معمارية أو اجتماعية مفصلة، ما يجعل أسلوبه أقرب إلى التعداد أو الوصف المباشر العام، ويبعد عن الأسلوب الوصفي أو التحليلي العميق.

– وصف إفريقيا² لحسن بن محمد الوزان الفاسي (ت ب 957هـ/1550م)

يمتاز أسلوبه بالدقة والموضوعية حيث يعتمد على ملاحظاته الشخصية خلال رحلاته مما يضيف مصداقية على وصفه للتفاصيل الجغرافية والاجتماعية، يتناول الكتاب الأقاليم والمدن الإفريقية بأسلوب منطقي، حيث يقسمها ويعرض معلومات عن الحياة اليومية لسكانها، بما في ذلك عاداتهم وتقاليدهم وأنشطتهم الاقتصادية.

¹ تح كامل سلمان الجبوري ومهدي النجم، دار الكتاب العلمية DKI، ج 4، لبنان، 2010.

² تر محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ط 2، بيروت، لبنان، 1983.

كما يتميز الوزن بأسلوب وصفي غني، حيث يقدم مقارنات مع المجتمعات الأوروبية، مما يساعد القارئ على فهم التباينات الثقافية، يغطي الكتاب موضوعات متنوعة تشمل الجغرافيا والتاريخ والدين والتجارة، مما يجعله مصدرا شاملا.

يرتبط هذا المصدر (في جزئيه الأول والثاني) بشكل مباشر مع موضوع الدراسة، إذ لأمس العديد من جوانبها لاسيما عن الصراع بين دول المغرب الثلاث، كما قدم وصفا دقيقا للعديد من المنشآت المعمارية في عواصم الدول: الحفصية الزيانية، والمرينية، سواء كانت مدنية كالمساكن والأسواق وغيرها، أو دينية وثقافية كالمساجد والمدارس، بالإضافة إلى تقديم وصف دقيقا للتحصينات العسكرية التي منت بها كل عاصمة من العواصم الثلاث سالفه الذكر.

8. 2 المراجع:

– تلمسان في العهد الزياني (دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية)¹ لعبد العزيز فيلالي

يتميز أسلوبه في هذا الكتاب بطابع أكاديمي دقيق، حيث يستند إلى مصادر موثوقة ويقدمها بتحليل منهجي، معتمدا على لغة رصينة، باستخدام مصطلحات دقيقة تتناسب والبحث التاريخي، مع حرصه على توثيق المعلومات والمصادر، مما يعطي الكتاب مصداقية عالية ويجعله مرجعا مهما للباحثين، فضلا عن تنظيمه الواضح الذي يسهل على القارئ متابعة الأفكار، حيث يقسم المواضيع بشكل يسهل الوصول إلى المعلومات، وحرصه على تقديم تفاصيل معمقة عن الأحداث والشخصيات والمعالم، وتحليله لمختلف الظواهر الاجتماعية والثقافية بطريقة منهجية.

تعد دراسة عبد العزيز فيلالي من الدراسات المهمة نظرا لتغطيته بشكل شامل تاريخ العهد الزياني، متاولا محاور عديدة تتقاطع مع موضوع البحث، فقد زدنا بتفاصيل عن التحولات السياسية في تلمسان، بما في ذلك استقلال الدولة الزيانية بالحكم، وعلاقاتها بالدولتين المرينية والحفصية، والصراعات التي خاضتها السلطة مع هاتين الدولتين للحفاظ على استقلالها بالإضافة

¹ موقف للنشر والتوزيع، ج 1، الجزائر، 2002.

إلى أهم المرافق العامة للعاصمة تلمسان، واستعراضه لمعالمها المعمارية، مثل المساجد والمدارس والمباني التاريخية، مبرزا الطراز المعماري الفريد الذي ميز المدينة ويعكس تنوعها الثقافي والتاريخي.

– كتاب تاريخ إفريقية في العهد الحفصي (من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م)¹ لروبار برونشفيك:

يمثل الكتاب في جزئيه الأول والثاني مرجعا أساسيا للباحثين باعتباره من أبرز الدراسات الكلاسيكية التي تناولت تاريخ الدولة الحفصية بأسلوب أكاديمي تحليلي، معتمدا على منهجية دقيقة تمزج بين المصادر العربية والوثائق الأوروبية، مما يضيف على البحث منظورا مقارنا وشاملا. كما تميز أسلوبه بالتنظيم والتوثيق، مع تحليل معمق للأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية، فلقد عالج الكتاب عدة محاور رئيسية منها: نشأة الدولة الحفصية، الصراعات الداخلية والخارجية، تطور الاقتصاد والمجتمع ودور الدين والثقافة في تعزيز السلطة، كما يقدم رؤية شاملة للصراعات بين الحفصيين والزيانيين والمرينيين، موضحا تعقيداتها وأبعادها السياسية والاقتصادية، ودور القبائل العربية والتدخلات الخارجية في تشكيل ملامح هذه النزاعات، وهذا الشرط الذي تم تبنيه والاستناد إليه لدراسة موضوعنا.

– السلطنة الحفصية (تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي)² لمحمد لعروسي المطوي

يتسم أسلوب محمد العروسي المطوي بالدقة والتحليل العميق، حيث يعتمد على استخدام منهج علمي، مستندا على المصادر التاريخية الأصلية، مثل كتب المؤرخين القدامى كعبد الرحمان ابن خلدون وغيره من مؤرخي المغرب، كما يتميز أسلوبه بالسلاسة في العرض والوضوح في التسلسل الزمني للأحداث، مما يسهل على القارئ متابعة تطور السلطنة الحفصية وأبرز الأحداث السياسية والاجتماعية والثقافية التي أثرت في نشأتها وتطورها، إذ يركز الكتاب على دراسة شاملة

¹ تر حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، ج 1، ط 1، بيروت، لبنان، 1988.

² دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1986.

للتاريخ الحفصي، ويتناول عدة نقاط رئيسية، منها نشأة الدولة الحفصية، والتحديات والأزمات التي واجهتها، مثل الانقسامات الداخلية، والتمردات القبلية، والصراع على السلطة، كما يتناول التأثير الكبير للقبائل العربية، وخاصة بني هلال وبني سليم، ودورها في إضعاف الدولة الحفصية.

تناول الكتاب العلاقات الخارجية خاصة مع الدولة الزيانية والمرينية، فضلا عن علاقاتها مع القوى الأوروبية مثل مملكة أراغون، إذ يبرز المطوي مدى تأثير العلاقات الزيانية والمرينية مع بني حفص في السياسة الخارجية لهم، ودورها في استقرار أو تراجع الدول، لهذا يعتبر مرجعا هاما للتعرف على تاريخ الدولة الحفصية وأهم ملامحها، يتميز بأسلوبه التحليلي العميق ومصادره العلمية الموثوقة، مما يجعله مصدرا غنيا للباحثين والمهتمين بالتاريخ الإسلامي في المغرب العربي، وقد شكل هذا المرجع قاعدة أساسية في معالجة محاور دراستنا، حيث استقينا منه أسباب دخول بني حفص مع الدولتين الزيانية والمرينية في صراع، نهايك عن وقائع الحروب التي جمعت هاته القوى.

– الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (الدولة المرينية)¹ لأبو العباس أحمد الناصري:

اعتمد مؤلف الكتاب على منهج علمي شامل جمع بين السرد والتحليل، وتوثيق دقيق للأحداث وفق التسلسل الزمني، كما تميز أسلوبه بالبساطة الممزوجة بالبلاغة، مع اهتمامه بالشمولية والموضوعية، وربط الوثائق التاريخية بالسياقات الاجتماعية والاقتصادية، مما يوفر منظورا متكاملًا لدراسة العلاقة بين الصراع والعمران في عصر المرينيين.

أفادنا هذا الكتاب في ترجمة تأثير الصراعات العسكرية التي كانت للدولة المرينية اليد فيها، وتداعياتها على عمران المناطق التي دارت فيها المعارك، وجهود إعادة الإعمار التي قادها المرينيون لتعزيز شرعيتهم السياسية في المناطق التي تم الاستحواذ عليها، عبر إنشاء مدارس ومساجد كبرى وازدهار القوة الثقافية والسياسية للدولة، كما وثق هذا المرجع الأولي دور الهجرات السكانية، التي فرضتها النزاعات، في إعادة تشكيل المشهد العمراني، خاصة من خلال النزوح إلى المدن أو المناطق الأكثر أمنا، كما تناول الناصري تأثير التحالفات القبلية على العمران، موضحا

¹ تح وتغ جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، ج 3، ج 4، دار البيضاء، المغرب، 1955.

كيف أدت بعض التحالفات إلى استقرار نسبي ساعد في تطوير البنى الدفاعية، مثل القلاع والحصون، بينما ساهمت الخلافات القبلية في زعزعة استقرار المدن.

– تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس (610هـ-1213م/869هـ-1245م)¹ لمحمد عيسى الحريري

يقدم المؤلف في هذا الكتاب تحليلاً موضوعياً ومنهجياً لأحداث الصراعات بين المرينيين وبنو حفص وبنو زيان، يستخدم أسلوباً أكاديمياً يركز على تسلسل الأحداث وأسبابها، معتمداً على مصادر تاريخية، يبرز الكاتب أن هذه الصراعات كانت مدفوعة بالرغبة في السيطرة الإقليمية على مناطق حيوية، مثل تونس وتلمسان، ويشير إلى دور القبائل العربية التي تحالفت مع الأطراف المختلفة لتعزيز نفوذها.

كذلك يناقش الحريري التأثير الاقتصادي السلبي للنزاعات، حيث أدى انعدام الاستقرار إلى تدهور الأسواق والحرف، بالإضافة إلى ذلك يلفت النظر إلى أن هذه الصراعات أضعفت الأطراف المتنازعة، مما فتح المجال لتدخلات خارجية وزعزع استقرار المنطقة، ونظراً لما قدمه هذا الكتاب من مادة غنية، استعنا به بشكل مباشر في تقصي أحداث النشاط الحربي الذي جمع الدولة المرينية بكل من الدولة الزيانية والحفصية.

– الحرب والمجتمع بالمغرب الأقصى خلال العصر المريني لحميد تيتاو

أسلوب الكاتب أكاديمي تحليلي يستند إلى مصادر تاريخية متنوعة، مما يعكس شمولية منهجه ودقته في تناول العلاقة بين الحرب وتحولات المجتمع، يناقش الكتاب تأثير الحروب على البنية العمرانية، مثل تدمير المدن أو إعادة تشكيلها، مع التركيز على تأثيرات الحروب في توزيع الموارد والهجرات القسرية، ودورها في تفكيك أو إعادة بناء المناطق الحضرية، يوفر هذا المرجع أدوات مفاهيمية مثل اقتصاد الحرب لفهم عمليات تخريب العمران.

¹ دار القلم، ط 2، الكويت، 1987.

ساعد هذا الكتاب في معرفة تأثير الحروب على عمران المغرب الأقصى خلال العهد المريني، من خلال النماذج التي قام بطرحها إذ طرأت على البنية العمرانية تحولات عظمت بما في ذلك تدمير المدن وإعادة تشكيلها وهي موضوعات تتقاطع مباشرة مع جزئية من موضوع بحثنا، بهذا يشكل الكتاب مرجعا أساسيا لفهم الآليات التاريخية لتخريب العمران في مجالات المغرب الأقصى.

Willaim marçais et Georges Marçais, Monuments arabes de –
.Tlemcen, Ancienne librairie thorin et Fils, Paris, La France, 1903

يتناول هذا الكتاب دراسة شاملة للتراث المعماري الإسلامي في مدينة تلمسان، إذ يقدم المؤلفان وصفا دقيقا وتحليلا معمقا للمباني التاريخية، بما في ذلك المساجد مثل الجامع الكبير وجامع سيدي بومدين والمدارس والأضرحة، مع التركيز على الزخارف الهندسية والخط العربي. يتميز الكتاب بأسلوب أكاديمي يعتمد على الوصف التفصيلي، مدعوما بالرسوم والصور التوضيحية التي تبرز جماليات العمارة التلمسانية.

كما يعكس أسلوب الكاتبان تأثرهما بالمنهجية الاستشراقية التي كانت سائدة في مطلع القرن العشرين، حيث ينظر إلى التراث الإسلامي من منظور توثيقي غربي، ورغم ذلك يعد الكتاب مرجعا هاما لدراسة الطرز المعمارية الإسلامية وتأثيراتها الأندلسية والمحلية، خاصة أنه يوثق معالم قد تكون تعرضت للتغير أو الضياع مع الزمن، وبالتالي فهذا المرجع ساعدنا في توثيق أبرز المعالم المعمارية لحاضرة تلمسان عاصمة الدولة الزيانية.

الفصل الأول: الوضعية السياسية للمغرب الإسلامي (ق07-09هـ)

أولاً: سقوط دولة الموحدين دراسة في الأسباب

1. أسباب سياسية
2. أسباب عسكرية
3. أسباب دينية (نبد العقيدة التومرتية)
4. أسباب اقتصادية
5. الأطماع الانفصالية

ثانياً: انعكاسات سقوط دولة الموحدين

1. قيام الدولة الحفصية
2. قيام الدولة الزيانية
3. قيام الدولة المرينية

تمهيد:

تعد دولة الموحدين من أبرز القوى السياسية والعسكرية في التاريخ الوسيط، والتي برزت في فترة كان فيها العالم الإسلامي يواجه تحديات كبرى: الحروب الصليبية، الهجمات المغولية، وحركة الاسترداد الإسباني، ولعبت خلال هذه الفترة دورا محوريا يتمثل في الدفاع عن الغرب الإسلامي، والمساهمة في ردع العدوان الصليبي على بيت المقدس في المشرق بجيوشها البرية وأساطيلها البحرية.

كما تمكنت دولة الموحدين أيضا من توحيد المغرب الإسلامي، الممتد من برقة شرقا إلى بحر الظلمات غربا، ومن بحر الروم شمالا إلى مشارف إفريقيا المدارية جنوبا، بالإضافة إلى أجزاء من بلاد الأندلس، تحت نظام إداري مركزي محكم، ومع بداية القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) ظهرت عوامل الضعف والتفكك بعد هزيمة الموحدين في معركة العقاب سنة (609هـ/1212م).

في هذا الفصل سيتم معالجة أسباب انهيار دولة الموحدين وتأثيره على الغرب الإسلامي، إنطلاقا من التساؤلات التالية: ما هي الأسباب التي أدت إلى سقوط دولة الموحدين؟ وهل تمكنت القبائل المنفصلة عنها من تأسيس دولة لها كيان سياسي مستقل اعتمادا على بنيتها القبلية؟

أولاً: سقوط دولة الموحدين، دراسة في الأسباب

تأسست دولة الموحدين بالمغرب الأقصى بين أحضان قبائل مصمودة،¹ متبينة مبادئ محمد بن عبد الله بن تومرت،² أخذ هذا الأخير العلم بالمغرب ثم واصل دراسته بقرطبة فالإسكندرية ومن بعدها العراق، تتلمذ على يد الإمام المازري والغمام أبي بكر الطرطوشي، وعلي بن المبارك وأبو بكر الشاشي، وقد تأثر الإمام المهدي بشيخه الإمام الغزالي،³ الذي لازمة ثلاثة سنوات تعلم

¹ قبائل مصمودة : هم من ولد مصمود بن يونس بربر أكثر قبائل البربر وأوفرهم من بطونهم برغواطة، وغامرة، وأهل جيل دون مواطنهم بالمغرب الأقصى جنوب واد السوس إلى الشرق من مدينة ودانة. **ينظر**: أبي بكر بن علي البيهقي (كان حيا في منتصف ق 6هـ)، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، المغرب، 1971، ص 33. - عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 275.

² المهدي بن تومرت: ولد سنة (485هـ/1085م)، وهو محمد بن عبد الله بن عبد الرحمان بن هود بن خالدين علم بن عدنان بن شعبان بن صفوان بن جابر بن يحيى بن عطا بن رياح بن يسار بن العباس بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه". شكك المؤرخين القدامى في نسبه العلوي وفندوه، أمثال الذهبي من ذلك قوله: "كان يدعي أنه حسني علوي"، وعبد الواحد المراكشي: "قلما قرر في نفوسهم فضيلة المهدي ونسبه ونعته، ادعى ذلك لنفسه، وقال أنا محمد بن عبد الله... ورفع نسبه إلى النبي صلى الله عليه وسلم". يتضح أن المهدي ادعى هذا النسب الشريف ليضيف لشخصيته هالة من القداسة، وربط دعواه بالعصمة، المهدوية والإمامة. **ينظر**: محي الدين عبد الواحد المراكشي (عاش في ق 7هـ)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ض وتصح محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة، ط 1، القاهرة، مصر، 1949، ص 187. - محمد ابن أبي القاسم ابن أبي دينار (كان حيا سنة 1100هـ)، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس مطبعة الدولة التونسية بحاضرتها المحمية، ط 1، تونس 1870، ص 107. - عبد المجيد نجار، المهدي بن تومرت حياته وأرائه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب، دار الغرب الإسلامي، ط 1، بيروت، لبنان، 1983، ص 26.

³ الإمام الغزالي: أبو حامد محمد بن محمد بن محمد أحمد الغزالي، فقيه وفيلسوف وصوفي ومصلح ديني واجتماعي، لقب بحجة الإسلام. ولد سنة (450هـ/1058م) بمدينة طوس من أعمال خراسان، تلقى الفقه بطوس على أحمد بن محمد الزانكابي، ثم انتقل إلى جرجان ودرس على أبي القاسم إسماعيل بن مسعدة الإسماعيلي الجرجاني بعدئذ ارتحل إلى نيسابور ودرس الفقه والأصول والجدل والمنطق والكلام والفلسفة على إمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك الجويني، ولم يدرس على أستاذ غيره فيما بعد. **ينظر**: أبو العباس أحمد ابن قنفذ القسنطيني، الوفيات، تح وتصح عادل نويهض، دار الأفاق الجديدة، ط 4، بيروت، لبنان، 1983، ص 266.

خلالها أصول الدين والحديث وعلم الكلام، واطلع على العديد من مؤلفاته الدينية والفلسفية، على رأسها كتاب إحياء علوم الدين.¹

تضاربت الروايات حول حقيقة لقاء المهدي بن تومرت بالإمام الغزالي، فعبد الواحد المراكشي أورد ذكر هذا اللقاء مستعملاً كلمة (قيل) في بداية كلامه وهي دلالة على أن الخبر غير متفق عليه، وأنهاها بعبارة (الله أعلم)، يقول في هذا الصدد: "قيل أنه لقي أبي حامد الغزالي بالشام أيام تزده فإله أعلم"،² أما عبد الرحمان ابن خلدون استعمل عبارة (زعموا) في ذكر هذه الرواية وهي دلالة على أن هذه الرواية غير مؤكدة وقابلة لتفنيد: "ولقي فما زعموا بأبي حامد الغزالي"،³ لكن الزركشي اختلف مع عبد الواحد في المكان الذي اجتمع فيه المهدي بالإمام الغزالي حيث يقول: "ثم انتقل إلى بغداد وأخذ عن الإمام الغزالي"،⁴ وأيده في ذلك ابن أبي دينار: "فرحل إلى المشرق ولازم أبي حامد الغزالي ثلاث سنين".⁵

غرض المهدي بن تومرت من إدعائه لهذا اللقاء هو تشريع دعوته التومرتية، فضلاً على أنه إثر لقائه بالإمام الغزالي، قيل أنه قام بالدعاء لزوال ملك المرابطين وقيام دولة المهدي بعد إحراقهم لكتاب إحياء علوم الدين، من ذلك قول الزركشي: "لما وصل كتاب الإحياء إلى المغرب أشار من أشار على الملك المتولي على المتونة بتمزيقه فبلغ ذلك الغزالي فقال اللهم مزق ملكهم فقال المهدي له: على يدي يا سيدي فقال: على يدك، فأكدت الدعوة مما في علم المهدي من ذلك".⁶

قامت دولة الموحدين وفق أسس إصلاحية دينية ارتكزت على الوعظ والإرشاد والنهي عن المنكر، ولقد تمكن الخلفاء الموحدين من حماية دولتهم والحفاظ على وحدة ترابها، لكن مع مطلع

¹ ينظر: الزركشي، مصدر سابق، ص 04. - عمار عمورة، موجز في التاريخ الجزائري، دار ربحانة، ط 1، الجزائر، 2002، ص 69.

² عبد الواحد المراكشي، مصدر سابق، ص 178.

³ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 302.

⁴ الزركشي، مصدر سابق، ص 04.

⁵ ابن أبي دينار، مصدر سابق، ص 107.

⁶ الزركشي، مصدر سابق، ص 04.

القرن السابع للهجري الثالث عشر ميلادي بدأت الأوضاع داخل الدولة تتغير بسبب عوامل الضعف والتفكك تحت واقع الفوضى السياسية، والنكسات الاقتصادية، والاجتماعية، من أسباب ذلك نذكر:

1. أسباب سياسية

أدت الاضطرابات السياسية إلى انهيار الدولة الموحدية نتيجة لتفكك النظام الإداري المركزي وتراجع شرعية السلطة الحاكمة، بعد أن فقدت قدرتها على التمسك بالمبادئ العقائدية التي كانت أساساً لقيامها، كما أسهمت الصراعات الداخلية بين النخب الحاكمة في تعميق هذا التدهور وعدم قدرة هاته النخب على إدارة شؤون الدولة بشكل فعال، مما أفرز عنه حالة من الفوضى السياسية والإدارية، تجلت هذه الأزمات في عدة صور أبرزها:

1. 1 الصراع الأسري على السلطة:

خلف هذا الصراع تداعيات جسيمة على استقرار الدولة فمنذ وفاة الخليفة المستنصر أصبحت ظاهرة تعدد الخلفاء أمراً شائعاً في هيكل السلطة، مما أدى إلى نشوب مواجهات عسكرية بين الأطراف المتنازعة، إذ لجأ كل طرف إلى الاستعانة بمجموعات مختلفة من بينها قبائل الموحدين، العرب، المهاجرون وبعض الولاة الذين استقلوا بولاياتهم، بالإضافة إلى القوى النصرانية ونتيجة للتوترات الداخلية استغلت القوى الخارجية هذه الأوضاع للتأثير على مسار الخلافة من خلال وضع على السلطة وفق ما يتماشى مع مصالحها، ليسفر هذا عن تقويض هيبة الدولة وتدهورها نحو السقوط من أمثلة ذلك:

في سنة (558هـ/1163م) قام الخليفة عبد المؤمن بن علي بعزل ولي عهده أبي عبد الله نتيجة سوء سلوكه، وعقب وفاة عبد المؤمن في نفس العام تسارعت وتيرة الصراع بين الإخوة على السلطة الأمر الذي أدى إلى استنزاف خزينة الدولة وسفك الدماء،¹ وفي عهد عبد الواحد أيضاً برز مدع جديد للخلافة في الأندلس وهو ابن أخيه عبد الله الملقب بالعادل والي مرسية حظي

¹ أبو العباس أحمد ابن عذاري المراكشي (ت 695هـ)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين، تح محمد إبراهيم الكتاني، محمد بن تاويت، محمد زنيبر، عبد القادر رزمامة، دار الغرب الإسلامي، دار الثقافة، ط 1، بيروت، لبنان، دار البيضاء، المغرب، 1985، ص ص 78-83.

هذا الأخير بمبايعة سكان الأندلس، مراكش، وبلاد المغرب،¹ بعد أن أشهد عبد الواحد على نفسه بالتنازل عن الخلافة في شعبان سنة (621هـ/1224م)،² فهذا الصراع الداخلي أسهم في تفكك الدولة وزوال سلطتها بشكل تدريجي، اختصر صاحب نظم السلوك دولة عبد الواحد في رجزه قائلاً:³

قد قام بالملك أحو المنصور	وخلعه من أعظم الأمور
قد قتلوه بعد ما قد خلعا	ولم يخافوا القتل والسبي معا
في قتل عبد الواحد بن يوسف	قد ركبوا أمرا لهم لم يعرف
ورجع الأشياخ كالأتراك	مع بني عباس في الأملاك
قد دبـروا لجهلهم تدبيرا	كان على ملكهم تدميرا
بفعلهم كان خراب الدولة	وقتلهم في الأرض شر قتلة

ساهم الصراع على السلطة في إسقاط هيبة الخلفاء الموحدين واستنزاف بيت المال والقوى العسكرية مما عجل في اضمحلال وزوال دولة الموحدين.

1. 2 ضعف الخلفاء المتأخرين:

في المرحلة التي كانت فيها الدولة بأمس الحاجة إلى استعادة نفوذها وهيبتها، تولى الخلافة خلفاء صغار السن من بينهم يوسف المنتصر بالله ابن محمد الناصر الذي تسلم زمام الحكم قبل أن يصل إلى سن الرشد، وقد أدى ذلك إلى حالة من الفوضى داخل الدولة حيث تصدى له بعض كبار الموحدين وأشياخ من أعمامه، مما أدى إلى تراجع سلطة الدولة وعدم امتثال الأوامر الصادرة عنه، كما وقد انشغل يوسف عن إدارة شؤون الحكم وتدبير أمور الدولة إلى أن وافته المنية سنة

¹ ينظر: ابن أبي زرع، مصدر سابق، ص244. -ابن عذاري المراكشي، مصدر سابق، قسم الموحدين، ص270. -مبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، نقد ونص محمد الميلي، ج 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ص311.

² مؤلف مجهول (عاش خلال ق8هـ)، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تح سهيل زكار، عبد القادر نمامة، دار الرشاد الحديثة، ط 1، دار البيضاء، المغرب، 1979، ص162.

³ ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص245.

(620هـ/1224م) وهو ما ساهم في إضعاف دولة الموحدين وتصدع بنيانها السياسي،¹ وفي سياق آخر شهد المغرب الأقصى توغل بني مرين الذين تسببوا في اضطرابات كبيرة وأحدثوا أضرارا جسيمة في البلاد حيث سعوا إلى توسيع نطاق نفوذهم.²

تزامن هذا الوضع مع تهاون بعض الخلفاء في تحمل مسؤوليات الحكم حيث غرقوا في الملذات الشخصية وانصرفوا عن إدارة شؤون الدولة، ومن الأمثلة البارزة على ذلك محمد الناصر الذي انسحب من الحياة السياسية بعد هزيمته في معركة العقاب وانغمس في الشهوات إلى أن توفي سنة (610هـ/1211م) إثر تعرضه للتسمم بتدبير من بعض وزرائه،³ كما يعد المرتضى مثالا آخر لهذا التراجع إذ عرف بابتعاده عن ممارسة أي نشاط سياسي يذكر عدا زيارته لقبر المهدي، حيث كان ميالا إلى حياة الراحة والدعة، ومولعا بالسماع والأدب،⁴ مما أثر سلبا على تماسك الدولة واستقرارها.

1. 3 تسلط الأشياخ الموحدين على السلطة:

بعد تولي عبد المؤمن قيادة الدولة أسس نظاما إداريا جديدا يعرف بمجلس أشياخ الموحدين تألف من النخبة الأولى التي بادرت في نشر الدعوة الموحدية، ثم انضمت إلى هذا المجلس مجموعات جديدة من قبائل كومية، هسكورة وصنهاجة، كما لعب أشياخ الموحدين دورا محوريا في الإدارة السياسية للدولة، حيث كان رضاهم شرطا جوهريا لإتمام بيعة أي خليفة علاوة على ذلك

¹ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 376. -ابن أبي زرع، مصدر سابق، ص 242. -أبي العباس أحمد الشماخ، (ت833هـ)، مطالع التمام ونصائح الأنام ومنجاة الخواص والعوام في رد القول بإباحة إغرام ذوي الجنايات والإجرام زيادة على ما شرع الله من الحدود والأحكام، تح عبد الخالق أحمدون، منشورات وزارة الأفاق والشؤون الإسلامية، المغرب، 2003، ص 22. -مبارك بن محمد الملي، ج 2، مرجع سابق، ص 311.

² ابن أبي زرع، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، المغرب، 1972، ص 27.

³ ابن عذاري المراكشي، قسم الموحدين، مصدر سابق، ص 241.

⁴ مؤلف مجهول، الحلل الموشية...، مصدر سابق، ص 168.

كانت لهم المساهمة في تسيير شؤون الحكم وتميزت علاقتهم بولاء شديد للخلفاء الأوائل،¹ ومع وفاة الخليفة المستنصر أصبح من المألوف أن تتشارك السلطة بين أكثر من خليفة مما أدى إلى لجوء بعض الخلفاء إلى دعم هؤلاء المشايخ مما منحهم نفوذا أكبر للتدخل في إدارة شؤون البلاد، وبهذا تمكنوا من توجيه سياسة الدولة بما يتناسب مع مصالحهم الشخصية، لذلك قاموا بعزل وتعيين الخلفاء وفقا لأهوائهم من ذلك اغتيال الخليفة عبد الواحد بعد ثمانية أشهر فقط من توليه الحكم وتعيين الخليفة العادل بدلا منه لاحقا،² وعندما فقدوا الثقة في العادل اقتحموا قصره وطالبوه بالتنازل عن الخلافة لكنه رفض مفضلا الموت وهو أمير للمؤمنين فخنقوه بعمامته سنة (624هـ/1228م)، ثم قاموا بتعيين الخليفة أبي العلاء المأمون إلا أنه لم يسلم بدوره من تمردهم حيث عزلوه وولوا أخاه المأمون بن المنصور.³

ولم يقف نفوذ مشايخ الموحدين عند حد التدخل في الخلافة بل تجاوز ذلك إلى إشعال مؤامرات ودسائس بينهم سعيا للسيطرة على السلطة، وبلغ الصراع ذروته إلى أن أصبح التنافس داخليا أي داخل القبيلة الواحدة، ليؤدي هذا التنافس إلى استبداد ولاية الأقاليم بولاياتهم واستقلال بعضهم بشكل تام عن السلطة المركزية، وهكذا تراقق الانهيار السياسي الناتج عن تدخل مشايخ الموحدين مع ضعف إداري شديد مما جعل الحفاظ على استقرار الدولة أمرا بالغ الصعوبة إن لم يكن مستحيلا.⁴

1. 4 ضعف الإدارة المركزية والاستبداد السياسي:

اتسمت السلطة الموحدية بقوة تنظيمها الإداري وكفاءة جهازها، نتيجة الإشراف المباشر والمتابعة المستمرة من الخلفاء على شؤون دولتهم، وقد اقتصر دور الولاة والوزراء على التنفيذ

¹ عز الدين عمر موسى، الموحدون في الغرب الإسلامي، (تنظيماتهم ونظمهم)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ص ص 144 - 145.

² ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 244.

³ الناصري، ج 2، مرجع سابق، ص ص 206 - 208.

⁴ علوه رفاعي عبد الوهاب سليمان، أحمد إبراهيم الشعراوي عفيفي محمود إبراهيم، "موقعة العقاب وبداية النهاية للحكم الإسلامي بالأندلس (609هـ/1212م)"، مجلة بحوث - العلوم الإنسانية والاجتماعية -، ع 4، (من ص 38 إلى 56)، مصر، أبريل 2021، ص ص 45 - 46.

والتبليغ دون تجاوز صلاحياتهم، ولضمان الانضباط كان الخلفاء يعاقبون بشدة من تظهر منه بوادر الاستبداد أو التهاون في أداء مهامه، من الأمثلة البارزة على ذلك ما جرى مع عبد المؤمن أبي جعفر عطية حيث تم القضاء عليه، وكذلك عبد السلام الكومي الذي تم تصريفه ثم تسميمه، إضافة إلى ذلك ما قاموا به إزاء أبي يعقوب يوسف بعد عزل أبي العلاء إدريس ابن جامع.¹

رغم الحرص الشديد على الانضباط إلا أن الأمور لم تظل على هذا النحو فمع مرور الوقت أدت الأزمات السياسية التي واجهتها الدولة الموحدية في فترة الانحلال إلى تصاعد نفوذ الولاة واستبدادهم بأقاليمهم مما أدى إلى انفصال بعضهم بشكل نهائي، من بين هؤلاء البياسي والي بلنسية وشاطبة الذي أعلن تمرده بعد تأكده من عبور الخليفة العادل إلى المغرب،² حيث قام بمحاصرة إشبيلية لكنه تعرض للهزيمة بسبب ضعف قواته مما أفقده السيطرة على حصن القصر وعدة حصون في منطقة الشرق، وفي قرطبة رفض عبد الله البياسي مبايعة الخليفة العادل فقام بالتمرد في بياسة، قرطبة، جيان وقيجاطة واستولى على حصون الثغر الأوسط وأطلق على نفسه لقب الظافر.³

كذلك شهدت الدولة الموحدية تمرد الحفصيين بقيادة شيخهم أبي محمد بن أبي حفص الذي كان شخصية بارزة في السلطة المركزية بسبب صغر سن الخليفة المستنصر،⁴ ومع وصول أبي العلاء إدريس المأمون إلى الحكم منح ولاية إفريقية لأبي زكريا تزامنا مع فترة كانت الدولة فيها قد استنزفت قواها واقتربت من الانهيار، ولم يمر وقت طويل حتى أعلن أبو زكريا استقلاله عن السلطة المركزية وأسس الدولة الحفصية، متخذاً من تونس عاصمة له.⁵

¹ عز الدين موسى، مرجع سابق، ص 159.

² ينظر: الناصري، ج 2، مرجع سابق، ص 206. -أمبروسيو هويثي ميراندا، التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية، تر عبد الواحد أكميز، منشورات الزمن، ط 1، دار البيضاء، المغرب، 2004، ص 449.

³ الناصري، ج 2، مرجع سابق، ص 206.

⁴ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، 337. -الناصر، ج 2، مرجع سابق، مرجع سابق، ص 203.

⁵ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 380 -381. -أبي عبد الله أحمد ابن الشماخ (833هـ)، الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تح وتقا الطاهر بن محمد المعموري، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ليبيا، تونس، 1984، ص 53.

من مظاهر الفساد الإداري الأخرى في تلك الفترة تسلط الوزراء وعمال الإدارة على شؤون الحكم واستمر هذا الفساد في عهد الناصر، حيث لعب الوزراء دورا محوريا في تعيين الخلفاء وعزلهم وتوجيه السياسة العسكرية، وإدارة الموارد المالية، وعقد الهدن، وإبرام معاهدات السلام،¹ من بين هؤلاء الوزراء: الوزير المستبد أبو السعيد عثمان بن عبد الله بن إبراهيم بن جامع،² الذي يعتبر السبب الرئيس وراء هزيمة الناصر في معركة العقاب (609هـ/1212م)،³ حيث أدار شؤون الدولة دون استشارة القادة العسكريين مما أدى إلى ضعف التواصل بين القيادة العامة والقوات المقاتلة،⁴ في هذا الصدد يلحح الملزوزي الى فساد بعض الوزراء في قوله:⁵

وكان يخفى النصح بعض الوزرا	فلا يريه من مكان خبرا
أغواه حتى قتل ابن قادس	وكان للإسلام خير فارس
وكان ما يأتي من البلاد	من خبر يخفونه في النادي
لو كانت الآراء مستقيمة	ما كان هذا سبب الهزيمة
أو ظهرت في ملكهم نجابة	أو نجدة ما غلطوا حبابه.

على الرغم من أن السلطة المركزية لم تشهد من قبل تدخل النساء في شؤونها لفترة زمنية غير أنه في أواخر عهد الدولة دخلت حبابة الرومية في الخط وهي جارية نصرانية تعتبر من أذكى النساء وعقلائهن، إذ عملت على تثبيت بيعة ولدها عبد الواحد الرشيد الابن البكر للمأمون من خلال دفع أموال جمة للجيش، وهي من سير أمور الدولة على عهد ابنها لأنه كان صغير السن إذ لم يتجاوز عمره الأربعة عشر سنة عندما تولى الخلافة.⁶

¹ عز الدين موسى، مرجع سابق، ص ص 159 - 160.

² ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 231.

³ مبارك الملي، ج 2، مرجع سابق، ص 350.

⁴ عز الدين موسى، مرجع سابق، ص 262.

⁵ أبي فارس عبد العزيز الملزوزي (ت 668هـ)، نظم السلوك في الأنبياء والخلفاء والملوك، المطبعة الملكية، الرباط، المغرب، 1963، ص 58.

⁶ ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 254.

2. أسباب عسكرية

امتاز الجيش الموحي بالقوة والتنظيم المحكم، ولقد اعتمد إلى جانب قبائل مصمودة التي تكونت منها النواة الأولى للجيش على عناصر بشرية مختلفة منها: بربرية، عربية، أندلسية، الأغزاز، النصاري والزنوج... ساهمت هذه العناصر في تثبيت ملك الموحدين في بلاد المغرب وبعض جهات الأندلس، لكن الجيش تعرض لانتكاسة نتيجة للفتن والتمردات المتكررة، فضلا عن حروب الموحدين برسم الجهاد في الأندلس، فمن بين الأسباب العسكرية المتسبب في زوال الموحدين:

2. 1 الثورات والتمردات الداخلية:

تعود جذور الثورات والتمردات التي عصفت بالدولة الموحدية إلى السياسات الصارمة التي انتهجها الموحدون لترسيخ دعائم حكمهم، اتسمت هذه السياسات بالقمع المفرط والاعتداء على الحريات والكرامات، مما أثار حنق قطاعات واسعة من المجتمع، وأدى إلى اندلاع عدة ثورات من أبرزها ثورة محمد بن عبد الله بن هود الماسي سنة (541هـ/1147م) مدعي المهدي على نهج المهدي بن تومرت، ما جعله يجتذب العديد من الأنصار من مختلف الجهات.¹

وفي سنة (543هـ/1148م) قاد القاضي عياض انتفاضة في مدينة سبتة ضد سلطة الموحدين وتمكن الثوار من قتل عدد كبير من الجنود الموحدين ووكلائهم،² كما أن ثورة ابن غانية كانت من أكثر الثورات شراسة وتأثيرا، حيث تمكنت قواته من السيطرة على جزء كبير من المغرب الأوسط سنة (581هـ/1186م)، وقد ساعد على نجاح هذه الثورة انشغال الخليفة الموحدي بالحروب ضد الممالك المسيحية في الأندلس، واستمرت هذه الثورة قرابة أربعين سنة،³ مما شكل تحديا خطيرا لاستقرار الدولة.

كانت لهذه الثورات تداعيات كبيرة على الاقتصاد الموحدي حيث استنزفت الدولة موارد مالية ضخمة، وفقدت العديد من قواتها العسكرية، وهو ما أدى في النهاية إلى زعزعة استقرار

¹ مؤلف مجهول، الحل الموشية...، مصدر سابق، ص 146.

² ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص 191.

³ إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، من عصر ما قبل التاريخ الى نهاية دولة الموحدين، ج 1، دار الرشاد الحديثة، دار البيضاء، المغرب، 2000، ص 294.

الدولة وتفككها، كما لعبت القبائل العربية التي استوطنت بلاد المغرب دورا مزدوجا في زعزعة استقرار الدولة، حيث كانت تغير ولايتها بناء على مصالحها فتارة تتحالف مع بني غانية، وتارة أخرى تضع نفسها تحت حكم الموحيدين، ومنذ وفاة الخليفة المستنصر سنة (620هـ/1223م) أصبحت تلك القبائل مثل بني معقل وبني جابر تتدخل بشكل مباشر في الشؤون السياسية للدولة وبلغ تدخلها حد التأثير في تعيين وعزل بعض خلفاء الموحيدين، أما في الأندلس فقد شهدت المنطقة سلسلة من التمردات أبرزها التمرد الذي قاده محمد بن مرنديش بتحالفه مع القوى المسيحية، واستمر التمرد لربع قرن ملحقا بالدولة الموحدية خسائر اقتصادية وعسكرية جسيمة، كذلك شهدت بلنسية ثورة بقيادة عاملها ابن هود الذي لجأ إلى ملك ليون بعد فشل تمرده.¹

2. 1 موقعه العقاب:

استغل ألفونسو الثامن ملك قشتالة الأوضاع التي آلت إليها دولة الموحيدين في عهد الناصر،² وخرج بجيشه من قشتالة فأحرق الحقول، وخرب الضياع، وقتل وسبى وتمكن من الاستيلاء على حصون عدة، وخرج مرة ثانية في السنة الموالية إلى الأندلس فعاث في أراضيها فسادا ثم عاد إلى طليطلة متقلبا بالغنائم،³ وعندما بلغ الناصر ما حدث بالأندلس خرج من حضرته سنة (607هـ/1210م) بعدما تكاملت إليه الجيوش والحشود من سائر الأقطار،⁴ وبعد عبوره للأندلس اشتبك سنة (609هـ/1212م) مع نصيره النصراني في معركة دامية تسمت بموقعة حصن العقاب وانتهت بهزيمة الموحيدين،⁵ فمات فيها من أهل المغرب عدد لا يحصى إذ لم ينجوا منهم سوى مئة ألف من أصل ستمائة ألف مقاتل.⁶

¹ أمبروسيو هيويتي ميرندا، مرجع سابق، ص 284.

² فتحي زغروت، النوازل الكبرى في التاريخ الإسلامي (من ذخائر التراث الإسلامي)، الأندلس الجديدة، ط 1، مصر، 2009، ص 454.

³ محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس (عصر الموحيدين)، مكتبة الخانجي، ج 5، القاهرة، مصر، 2001، ص 284.

⁴ الناصري، ج 2، مرجع سابق، ص ص 196-197.

⁵ إبراهيم حركات، ج 1، مرجع سابق، ص 296.

⁶ يوسف أشياخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحيدين، تر وتعد محمد عبد الله عنان، تق سليمان العطار، المركز القومي للترجمة، ج 2، القاهرة، مصر، 2011، ص 121.

2. 1 أسباب الهزيمة:¹

- ضعف شخصية الناصر وتولي أبي السعيد عثمان بن جامع تصريف أمور الجيش دون إستشارة القيادات مما أدى الى ضعف الصلة بين القيادة العامة والجنود.
- محاولة النصارى رفع وصمة العار التي طالت صفوفهم إثر موقعه الإرك (591هـ/1194م).
- التجهيز الجيد لصفوف النصارى فاجتهدوا في توحيد الجبهة الداخلية فجاء ألفونسو ملك قشتالة بإمدادات من الباب ومن ملوك أوروبا وجعل الحرب مقدسة لأجل العقيدة.
- استهانة الناصر ببعده وعدم الحيطة من لقاء الجيشان وهذا راجع الى إعجابه الشديد بكثرة جنوده.
- طول فترة الحصار والتي دامت ثمانى شهور الأمر الذي أدى الى اختلال نظام تمويل الجيش.

2. 1 نتائج معركة حصن العقاب:

أثرت هزيمة العقاب على مستقبل الدولة والضعف الذي أصاب الجيش الموحي البري والبحري وتراجعته وتغير أهدافه وأصبحت سياسة الموحدين الحربية تكتسي طابع الدفاع فقط، وكثرة الحروب والتمردات خاصة بني غانية، كما كان لهذه الهزيمة أثر معنوي على نفس الناصر فصب غضبه على شيوخ الموحدين وانغمس في الملذات والشهوات لينسى هزيمته،² ولم يرقم بأي أعمال للدولة سوى أنه عين لولاية عهده ولده أبي يعقوب المستنصر دون البلوغ.³

2. 3 تراجع القوى العسكرية وتغير أهداف الجيش:

تمكنت دولة الموحدين من بناء جيش متين ومحكم التنظيم استطاع تحقيق انتصارات كبيرة والحفاظ على استقرار دولتهم ومع استمرار حروبهم وتطورها، أدت الضرورات العسكرية إلى تعزيز تنظيماتهم بإضافة قوات جديدة إلى جانب الجيش الموحي الأساسي الذي كان يتكون في بادئ

¹ ينظر: عز الدين موسى، مرجع سابق، ص262. -فتحى زغروت، مرجع سابق، ص 452- 457. -عبد العزيز سالم، مرجع سابق، ص 283.

² الناصري، ج 2، مرجع سابق، ص200.

³ ينظر: مؤلف مجهول، الحل الموشية...، مصدر السابق، ص161. -الناصري، ج 2، مرجع سابق، ص200. -إبراهيم حركات، ج 1، مرجع سابق، ص 296.

الأمر من هذه القبائل فقط وهو العنصر الأساسي للجيش ويتكون من هرغة، كدميوة وقبائل أهل تنميل وهنتاتة، حيث ضمت هذه القوات عناصر متنوعة مثل العبيد السودانيين، القبائل البربرية، العرب، الترك، الأغزاز والروم،¹ لكنها أخذت في التراجع للتسبب لاحقا في إسقاط الدولة.

2. 3. 1 القوى البرية:

بدأت القوة العسكرية للموحدين بالتراجع في عهد الخليفة الناصر، وظهر هذا الضعف بوضوح بعد هزيمتهم في معركة العقاب التي شكلت نقطة تحول مفصلية أدت إلى انتقال الجيش من موقع الهجوم إلى الدفاع.²

لم يتمكن الموحدون بعد ذلك من استعادة قدراتهم العسكرية السابقة مثال ذلك ما حدث في المهديّة، حيث تمكن محمد بن عبد الكريم من الاستقلال بها لفترة زمنية في أواخر حكم المنصور وبداية حكم الناصر، في وقت شهدت فيه الجيوش زيادة في عدد المرتزقة من الروم والقبائل العربي، وكان إدماج هذه الأخيرة في الجيش خطوة سلبية أثرت على هيكله وأهدافه حيث تميز العرب بعدم الانضباط ورفضهم الامتثال للأوامر العسكرية واشتهروا بإثارة الفتن والخيانة، إذ لم يترددوا في قتل قادتهم مقابل الأموال فقد خان الخلط الخليفة الرشيد ثم السعيد، بينما تحالفت قبيلة المعقل مع يحيى بن ناصر.³

أما المرتزقة الروم فقد تخلوا عن ولائهم للخليفة المرتضى وانضموا إلى أبي دبوس عندما عجز عن تلبية احتياجاتهم.⁴

¹ عز الدين موسى، مرجع سابق، ص ص 216 - 221.

² ابن عذاري المراكشي، قسم الموحدين، مصدر سابق، ص 263.

³ عز الدين موسى، مرجع سابق، ص 264.

⁴ ابن عذاري مراكشي، قسم الموحدين، مصدر سابق، ص 438.

2. 3. 2 القوى البحرية (الأسطول الموحي):

امتلكت الدولة الموحدية قوة بحرية لا يستهان بها،¹ ساهمت بنصيب كبير في عمليات التوسع في المغرب والأندلس، فضلا عن مجابهة نصارى إسبانيا،² ودخولهم معهم في معارك وتعرضهم لهزائم متتالية منها هزيمة جيش المسلمين بقصر أبي دانس سنة (614هـ/1217م)، وهي من الهزائم الكبرى -تقارب هزيمتهم في العقاب- التي طالت صفوف المسلمين على عهد يوسف المنتصر.³

كما وقد فشل الجيش أيضا في القضاء على الثورات الداخلية مثل ثورة بني غانية التي استنزفت كل قوته،⁴ ولما ثار أبو دبوس على المرتضى مدعيًا للخلافة لم يجد هذا الأخير حينها من يسانده في صد هذا العدوان، فتمكن أبو دبوس دخول مراكش دون مقاومة من أهلها وجيشها سنة (665هـ/1266م).⁵

ما ساهم في تراجع وإنحلال الجيش هو انشغالهم في كيفية جمع الغنائم لا القتال في سبيل المعتقد والمبدأ الموحي، وما ساعد على اتساع نطاق هذه الظاهرة هو تغير أهداف القادة المتمثلة في ردع الثوار، وأصبحت مقتصرة على استغلال الجيش للاستعلاء وفرض النفوذ لحسابهم الشخصي، كما قاموا بدور حاسم في سيطرة الموحدين على طيبة وقصر أبي دانس وشلب إلى

¹ بلغ الأسطول البحري من الهيبة ما لم تبلغه أي دولة بالمغرب وهذا نتيجة لحرص الخلفاء الموحدين على دعم قوتهم البحرية ولقد استجد صلاح الدين الأيوبي بالأسطول الموحي لعرقلة السفن الأوروبية ليتمكن من فك الحصار البحري المفروض على أحد مدنه. **ينظر:** ابتسام مرعي خلف الله، العلاقات بين الموحدين والمشرق الإسلامي (564هـ-936هـ/1130م-1529م) دار المعارف، مصر، 1985، ص 161، - محمد المنوني، حضارة الموحدين، دار توبقال للنشر، ط 1، المغرب، 1989، ص 06.

² **ينظر:** عز الدين موسى، مرجع سابق، ص 272. - شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، (تونس الجزائر، المغرب الأقصى من الفتح الإسلامي إلى سنة 1830)، تع: محمد مزالي، البشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، ج 2، ط 2، تونس، 1983، ص 162.

³ ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 242.

⁴ الزركشي، مصدر سابق، ص 18.

⁵ ابن عذاري المراكشي، قسم الموحدين، مصدر سابق، ص 438.

جانب استخدامهم كوسيلة نقل أساسية في حملات الموحدين في الأندلس -نقل المؤن إلى الحصون الأندلسية-¹.

يبدو أن بداية انهيار الأسطول الموحي كانت سنة (607هـ/1210م) ببرشلونة بعد أن تعرض للتحطيم وتم الاستيلاء على حصون بلنسية،² وتبعها ذلك هزيمة المسلمين في العقاب وانهيار الروح العسكرية، ووفاة الناصر وتسلط الأشياخ الموحدين، وانشغال السلطة في نزاعاتها على العرش، فلم يعد هناك من يهتم بالنظم والمؤسسات بما فيها القوى الحربية فانهار الأسطول فمن مظاهر ضعف الأسطول تعرض الشواطئ المغربية لهجمات الأعداء دون مقاومة فقد حاصر النصارى سبتة عام (632هـ/1235م) لتنفذ الدولة أسطولها البحري بصفة عامة أيام السعيد.³ وعليه فإن الانهيار العسكري الذي أصاب دولة الموحدين أفقدها الكثير من مقوماتها، وأصبح من الصعب الحفاظ على كيان الدولة، وحمايتها من الأخطار الخارجية، والفتن الداخلية وهذا يؤدي بالضرورة الى تهاوي الدولة وسقوطها.

3. أسباب دينية (نبذ العقيدة التومرتية):

اتصفت عقيدة ابن تومرت بالانتقائية لارتكازها على عقائد ونظريات تتنافى مع الشريعة الإسلامية وكانت له وراء ذلك غاية واحدة هي القضاء على دولة المرابطين، لهذا بقيت عملية تركيب هذا المذهب مبنية على الحشد والانتقاء،⁴ إذ استغل المهدي المعطيات التي ابتنت عليها عقيدته، بما يخدم أهدافه السياسية التي تسمو إلى القضاء على المرابطين، وتكوين دولة جديدة والتفاف أتباعه حوله واستقطاب المزيد من القبائل والأنصار، وبهذا تضاعفت قوة عصبيتهم المذهبية.⁵

¹ عز الدين موسى، مرجع سابق، ص ص 272 - 273.

² محمد عنان، ج 5، مرجع سابق، ص 284.

³ عز الدين موسى، مرجع سابق، ص ص 273 - 276.

⁴ ينظر: حسن جلاب، الدولة الموحدية (أثر العقيدة في الأدب) المطبعة والوراقة الوطنية، ط 3، مراكش، المغرب، 1995، ص 31. - عبد المجيد نجار، تجربة الإصلاح، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط 2، هيرند فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، 1995، ص 125.

⁵ عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة...، مصدر سابق، ص 199.

على الرغم من تحقيق هذه العقيدة أهدافهم السياسية إلا أن عقيدتهم وما يتفرع عنها لم تجد سبيلا في عقول أهل المغرب، بل لقيت صدودا ورفضاً واحتفظوا بمذهبهم الأصلي وسايروا عقيدته خوفاً، كما استنكرها علماء وفقهاء المالكية وراح بعضهم يشن الثورات كالقاضي عياض الذي قضى حياته وهو يضطهد المذهب الجديد.¹

والخلفاء أنفسهم فقدوا الإيمان بالفكرة فالمنصور لم يؤمن بعقيدة المهدي نتيجة لتأثره بأدباء الأندلس وفلاسفتها وإعجابه الشديد بالمذهب الظاهري الرافض للتقليد واللجوء مباشرة لكلام الله، وعلى الرغم من قناعته إلا أنه كان حريصاً على إبقاء شعائر الموحدين وطقوسهم،² إذا المنصور لم يصرح بذلك فإن المأمون عمل على محو أثارها وجاهر بنكرانه للمهدية، العصمة، الإمامة وتصدى لكل من يعارض رأيه بالاضطهاد وكتب بخط يده إلى بلاده كلها بزوال اسم المهدي من السكة والخطبة.³ امتدحه الملزوزي قائلاً:⁴

وفعل المأمون فعل ما جد	فيهم وأفنى كل طاغ مار
ولعن المهدي فوق المنبر	وعاد دهرنا بالثنا لم يتكر
ثم محاً من الدراهم إسمه	كما أمات في البلاد رسمه
ودور الدراهم المركة	ورد فيها كتبها وأتقنه
وقال كل ما فعلنا بدع	مهدينا وأمره لا يتبع
خلوه، لا مهدي إلا عيسى	فقد سئمنا أمره التحسب
وقال: لا تدعوه بالمعصوم	وأدعوه طول الدهر بالمدوم
وغير هذا من قبيح القول	يرجوا الغفران من ذي الطول.

لم يعد لدعوة المهدي بن تومرت ما كان لها من سلطان ونفوذ أيام مؤسسها، فشوكة الأشيخ كسرت في أواخر عهد دولة الموحدين ونظريات المهدي زالت وكثر الثوار والخارجين عن

¹ حسن جلاب، مرجع سابق، ص 41.

² أمير وسيو هويثي ميرندا، مرجع سابق، ص 378.

³ ابن عذاري المراكشي، قسم الموحدين، مصدر سابق، ص ص 286-287.

⁴ الملزوزي، مصدر سابق، ص 61.

هذا الاتجاه العقائدي، ليعود المذهب المالكي الى سيطرة مرة أخرى على بلاد المغرب نتيجة لإبقاء الفقهاء على هذا المذهب سرا، فالمذهب التومرتي فرض على الناس بالقوة وتجرد من الإسلام الحق والعقيدة الصحيحة، وما جعل أهل المغرب يتجردون من هذه المنظومة العقدية في محاولة منهم للبحث عن مذهب صحيح ينسجم والفهم الصحيح للإسلام.¹

وبانقراض عقيدة ابن تومرت تزول الدولة التي قامت على أساس إصلاح ديني عقائدي، من ذلك قول عبد الرحمان ابن خلدون: "وكان للمصامدة الدعوة الدينية بإتباع المهدي فلبسوا صبغتها وتضاعفت قوة عصبيتهم بها... فلما خلوا من تلك الصبغة الدينية انتفضت عليهم زناتة من كل جانب وغلبوهم على الأمر وانتزعوه منهم".²

4. أسباب اقتصادية:

قامت نهضة اقتصادية عظيمة في عهد الموحدين سواء في الميدان الصناعي أو الفلاحي أو التجاري،³ ولقد أشار عبد الواحد المراكشي الى مدى الرخاء والازدهار الذي كانت تتعم به البلاد في عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بقوله: "ولم تزل أيام أبي يعقوب هذا أعياد وأعراس ومواسم كثيرة خصب، وانتشار أمن، ودرور أرزاق، واتساع معاش لم يرى أهل المغرب أياما قط مثلها، واستمر هذا صدرا من إمارة أبي يوسف".⁴

استمرت مرحلة الانتعاش الاقتصادي في البلاد في عهد المنصور الموحدي نتيجة للأمن والاستقرار الذي عاشته المنطقة في أيام خلافته، وما دل على ذلك تأسيس مصانع الورق التي كانت منتشرة في فاس، وسبتة، وقسنطينة، بالإضافة الى القيروان أما فما يخص النشاط التجاري كانتا الرباط وطنجة تشكلان أهم موانئ المغرب وكانت طنجة تصدر الصوف، الجلود، الفواكه المجففة، الشمع والعسل بينما يرد الى مينائها الثياب والأسلحة والخردوات،⁵ ومدينة فاس على الرغم من كونها ليست عاصمة الدولة -كانت منتعشة اقتصاديا بفضل موقعها الجغرافي، وامتلاكها للعديد

¹ أمبروسيو هويثي ميرندا، مرجع سابق، ص 47.

² عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة...، مصدر سابق، ص 199.

³ **ينظر:** إبراهيم حركات، ج 1، مرجع سابق، ص 337. -حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، (عصر المرابطين والموحدين)، مكتبة الخانجي، ط 1، مصر، 1980، ص 182.

⁴ عبد الواحد المراكشي، مصدر سابق، ص 256.

⁵ إبراهيم حركات، ج 1، مرجع سابق، ص ص 338 - 339.

من الأسواق بلغ عدد دكاكينها خلال هذا العهد تسعة آلاف ومائتين وثمانين حانوتا،¹ بالإضافة إلى القيساريات والفنادق، التي سنستعرضها في الفصول القادمة، كما شجع الخلفاء الموحدين على الزراعة في الأندلس - في بلاد البركة - وكانت التجارة نشيطة واشتهرت المرية وقرطبة بأسواقها، ولم تقتصر الأندلس على تزويد المغرب الأقصى بما تنتجه غاباتها من خشب بل كانت تصدر إليها الحبوب والمصنوعات والكتان والمنتجات الشرقية.²

4. 1 عسكرية الاقتصاد:

شهدت فترة حكم الخلفاء المتأخرين تأزم في الأوضاع الاقتصادية نتيجة للحروب والتمردات خاصة الثورة التي شنّها بنو غانية،³ وكانت موقعة العقاب هي الفارقة التي رفعت من وتيرة التدهور الاقتصادي على عهد الخليفة الناصر (ت609هـ/1212م)،⁴ وعليه فقد وجهت الدولة اقتصادها نحو الاحتياجات العسكرية، وبناء على ذلك لقيت الصناعات المرتبطة بالحرب تشجيعا من طرف السلطة فازدهرت الصناعات المعدنية لحاجة الدولة إلى الأسلحة، كما ازدهرت صناعة المنسوجات لحاجتها للبنود، الأعلام، الخلع والكسوات التي كانت تدخل ضمن رواتب الجيش، وفي الوقت نفسه ازدهرت صناعة السفن والأجفان الحربية،⁵ كما توجه الموحدين إلى إقامة المنشآت العسكرية من هذه الأعمال سور مليلة التذي أمر الناصر بتشييده سنة (601هـ/1204م)،⁶ وأمر كذلك بإقامة بعض الأبراج للمراقبة.⁷

بعد هزيمة العقاب عانت الدولة من عجز مالي كبير وأصاب المجتمع الموحي المجاعات، فتناهى الغلاء على عهد المرتضى وكان بيت المال فارغا في أغلب الأوقات إلى درجة أنه لم يجد

¹ علي الجزنائي (ت807هـ)، جنى زهرة الأس في بناء مدينة فاس، تح عبد الوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية، ط2، الرباط، المغرب، 1991، ص 44.

² شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص 160.

³ الزركشي، مصدر سابق، ص 18.

⁴ الناصري، ج 2، المرجع السابق، ص 200.

⁵ الحسين بولقطيب، جوائح وأوبئة مغرب العهد الموحدين، منشورات الزمن، الرباط، المغرب، ص 104.

⁶ حسين علي حسن، مرجع سابق، ص 396.

⁷ ابن عذاري المراكشي، قسم الموحدين، مصدر سابق، ص 244.

مصدرا ليدفع به رواتب الجيش،¹ وللخروج من هذا المأزق كان يأمرهم بالخروج في وجه المتمردين، وبهذا الإجراء كان يحقق هدفين اثنين: أولهما استرجاع بعض الأقاليم إلى دائرة نفوذ الدولة، وثانيهما حصول الجنود على رواتبهم من عمليات النهب والتغريم المصاحب للغزو،² ولجأ أيضا الخليفة المرتضى وعمال الولايات إلى فرض ضرائب جديدة مخالفة للشرع،³ حتى أن الواثق بالله بن أبي عبد الله بن أبي حفص عندما أراد الخلافة لنفسه كان شعاره رفع المغارم عن الناس والاقتصار على الفروض الشرعية فقط.⁴

ونتيجة للتأزم الاقتصادي الشديد خلال هذه المرحلة برزت ظاهرة الإقطاع الجبائي، وهي ظاهرة ذات الطابع القبلي تم العمل بها بفعل الاضطرابات السياسية واستفحال التجزئة إلى إقطاع فردي، وللحفاظ على الحكم اضطر الخلفاء المتأخرين إلى التنازل عن بعض المناطق للاستفادة من عائداتها الضريبية،⁵ وهذا ما لجأ إليه الرشيد لاستمالة ابن وقاريط الهسكوري،⁶ يقول في هذا الصدد ابن عذاري المراكشي: "وأن ينعم عليه بمجتبى هزرجة وأغمات وريكة وكتب له بذلك ظهائر ولم يزد مع ذلك إلا تنافرا، وألقى يداه على هاتين الجهتين، وكأنه في لظى وهو ما بين جنتين، فخرج ذات يوم يريد تفقد إخوانه، وإصلاح أمره وشأنه، فكان آخر العهد وبه بعيانة، وعند انفصال وقرباط وعناده، أخذ ابن وين الخير في اللحاق به لاستصلاحه واسترداده، فأعوز الداء والدواء، وتمكنت في نفسه الشحنة، وكان هذا آخر سنة ثلاثين".⁷

حاجة الدولة خلال هذه المرحلة إلى الدعم العسكري جعلها تلجأ إلى إقطاع جبائي للحفاظ على استقرارها وهذا ما جعل البعض يغير تحالفاتهم تبعا لمصالحهم الظرفية، ولأن الدولة أولت

¹ كانت الدولة تتكفل بسكن عساكرها ومؤونهم ومعداتهم ولباسهم وكانت تغدق عليهم برواتب دائمة ولقد بدأ هذا الأجراء مع غزوة تادلا سنة (530هـ/1136م). ينظر: عز الدين موسى، مرجع سابق، ص 286.

² الحسن بولقطيب، مرجع سابق، ص 104.

³ عز الدين موسى، مرجع سابق، ص 286.

⁴ ابن عذاري المراكشي، قسم الموحدين، مصدر سابق، ص 448.

⁵ الحسن بولقطيب، مرجع سابق، ص 108.

⁶ كان منحرفا عن المأمون وأخذ البيعة للرشيد من الناس طوعا وكرها وخوفا من سيوفهم بطلب من والدته. ينظر: الناصري، ج 2، مرجع سابق، ص 216.

⁷ ابن عذاري المراكشي، قسم الموحدين، مصدر سابق، ص 305.

عناية بالقضايا العسكرية قامت بتوجيه المنتج الاقتصادي لتمويل حملاتها العسكرية وتسديد الرواتب للجيش.¹

4 . 2 دور القبائل العربية في تخريب الاقتصاد:

تم استغلال قبائل بني هلال كقوات عسكرية منذ العهد المرابطي ولم يكن لهم تأثير كبير نظرا لقلّة أعدادهم،² إلا أن قوتهم تعاظمت في فترة الموحدين حيث بدأوا في ممارسة أعمال النهب والتخريب، وقد ترتب على ذلك تدهور كبير في الزراعة المحيطة بالمدن، حتى أن الفلاحة حول المدن أوشكت على الانقراض بسببهم فتقلص النشاط التجاري بشكل ملحوظ، مما أدى إلى فرار السكان من بعض المناطق الساحلية مثل برقة نتيجة خطر القبائل العربية.³

أدرك الخليفة عبد المؤمن خطر هاته القبائل العربية رغم انتصاره عليهم في سطيف عام (548هـ/1153م) وقد أقدم على استدعاء عدد من شيوخهم إلى المغرب، وبعد فتح إفريقية في سنة (555هـ/1160م) قام بدمجهم في جيشه بهدف الحد من نفوذ أشياخ الموحدين ومواجهة التهديدات المسيحية في الأندلس، مما أسهم في تخفيف الضغط الهلالي على إفريقية التي عانت كثيرا من فسادهم.⁴

لاحقا في عهد المنصور استدعى عرب بني هلال وبني جشم إلى المغرب الأقصى كعقاب لهم بعد أن قاتلوه سنة (584هـ/1189م) وأسكن قبيلة ريان بني هلال في منطقة الهبط، وقبيلة جشم في تامسنا، مع ضعف الخلفاء الموحدين وتراجع هيمنتهم،⁵ وتدخلت القبائل الهلالية بشكل متزايد في شؤون الدولة مما أثقل كاهلها بمطالبها المستمرة، وقد كان لبني جابر والخلط دور بارز في عزل الخلفاء وتعيينهم،⁶ كما لجأت هذه القبائل إلى أعمال اللصوصية وقطع الطرق، حيث

¹ الحسن بولقطيب، مرجع سابق، ص 108.

² عز الدين موسى، مرجع سابق، ص ص 128 - 222

³ شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص 140.

⁴ ينظر: الناصري، ج 2، مرجع سابق، ص 151، - عز الدين موسى، رجع سابق، ص 223.

⁵ ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص 35.

⁶ إبراهيم حركات، ج 1، مرجع سابق، ص 295.

مارسوا النهب والتخريب في المناطق الزراعية، مما أدى إلى تراجع الإنتاج الزراعي وارتفاع الأسعار "فانقطع الحرث واشتد الغلاء".¹

أثرت التدخلات الهلالية على الوضع الاقتصادي مما أدى إلى تراجعته حيث ألحقوا أضراراً جسيمة بمدينة مراكش، وإقليم الحوز بعد مقتل زعيمهم مسعود بن حمدان على يد الخليفة الرشيد،² وفقاً لما ذكره ابن عذاري: "وشرعوا في تدمير البحائر وقطع مياهها وشجراتها، وقد خلت أمامهم المداشر والقرى إلا من كان لهم عليه سلطان من الرعية، فإنه استقر بمكانة. وعظم انتقامهم وعيئهم في الحوز، فضاقت الأرض بما رحبت على الناس لانقطاع المرافق والمواد وارتفعت الأسعار وعمت الأقوات، حيث قل كل مرفق وأعوز وجدان ما ينتفع به الناس من الحطب والتين والفواكه والخضر وما يجلب من البوادي، واقتشعرت الجلود من هول المكيدة في طلب شيء من أنواع الحنطة".³

4. 3 الجوائح والأوبئة:

شهدت مجالات المغرب سلسلة من موجات الجفاف والمجاعات المتعاقبة عقب هزيمة العقاب، وكانت الفواصل الزمنية بين كل مجاعة وأخرى قصيرة جداً، وأحياناً لا تتجاوز السنة الواحدة، ففي غضون سبعة وثلاثين سنة تعرض المغرب لعشر مجاعات،⁴ من أبرزها مجاعة سنة (616هـ/1220م) ومجاعة سنة (631هـ/1233م) اللتان كانتا نتيجة مباشرة لتمردات القبائل الهلالية، وما نجم عنها من تدمير للمحاصيل الزراعية، وتخريب للبنى التحتية الزراعية مثل البحيرات إضافة إلى تعطل الحياة الاقتصادية، وفي سنة (634هـ/1237م) ضرب مدينة مراكش وباء أدى إلى وفاة أعداد كبيرة من سكانها كان من ضمن الضحايا الشيوخ الوافدين من الأندلس،⁵ وفي هذا السياق يشير المؤرخ ابن عذاري إلى أن شدة الوباء أثرت بشكل خاص على الشيوخ

¹ ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص 36.

² الحسين بولقطيب، مرجع سابق، ص ص 97-98.

³ ابن عذاري المراكشي، قسم الموحدين، مصدر سابق، ص 319.

⁴ الحسين بولقطيب، مرجع سابق، ص 47.

⁵ ابن عذاري المراكشي، قسم الموحدين، مصدر سابق، ص ص 319-266.

القادمين من سبتة وإشبيلية حيث اضطر العديد من السبتيين بمن فيهم شيخ سبتة إلى الفرار خوفا من الموت لكنهم لقوا حتفهم وهم في طريقهم إلى الحضرة.¹

شهد النشاط التجاري تدهورا ملحوظا خلال فترة تفشي وباء الطاعون وذلك نتيجة لفرض قيود صارمة على دخول الأفراد المصابين إلى المناطق غير المتأثرة بالوباء خشية انتقال العدوى وكان من أكثر الأوبئة فتكا في المغرب والأندلس وباء سنة (610هـ/1213م).²

ساهمت الجوائح والأوبئة إلى جانب الأخطار الهلالية في إغلاق العديد من الورشات الحرفية حيث ترك العاملون تلك الورشات خشية الإصابة بالأمراض، إلى جانب ذلك تسبب توجيه الموارد الاقتصادية نحو الجهود العسكرية في استنزاف الخزينة العامة للدولة، ونتيجة لتراكم هذه العوامل شهد الاقتصاد المغربي خلال العهد الموحي تدهورا حادا أسهم في سقوط الدولة الموحدية.

5. الأطماع الانفصالية:

نتيجة لضعف السلطة المركزية وتناحر عناصرها انتهزت المراكز البعيدة الفرصة وانفصلت، فخرجت الأندلس عن طاعة الموحدين بقيادة ابن هود أبي عبد الله محمد بن يوسف الجذامي من أحفاد بني هود الذين حكموا سرقسطة، وتمكن هذا العامل من الاستيلاء على شرق الأندلس وإشبيلية،³ وثار محمد ابن يوسف بن الأحمر بولايته أين تمت مبايعته سنة (630هـ/1233م) واتسع نفوذه في الأندلس وتسمى بأمير المسلمين.⁴

وفي المغرب الأدنى انفصل بني حفص سنة (627هـ/1230م) بقيادة أبي زكريا وبالمغرب الأوسط انفصلت تلمسان بقيادة يغمراسن سنة (633هـ/1236م)، وتزامنا مع انفصال الأندلس، إفريقية وتلمسان بدأت أحوال الخلفاء بالمغرب تضطرب والولايات تستقل فسيطرت قبائل بني مريـ

¹ نفس المصدر، ص ص 318 - 345.

² الحسن بولقطيب، مرجع سابق، ص ص 51 - 53.

³ ينظر: ابن عذاري المراكشي، قسم الموحدين، مصدر سابق، ص 278. - إبراهيم حركات، ج 1، مرجع سابق، ص 297.

⁴ ابن أبي زرع، الأنيس...، المصدر السابق، ص 275.

على بوداي المغرب، كما أسهمت في القضاء على الدولة نهائيا سنة (668هـ/1269م) واستولوا على كرسيهم بمراكش.¹

ثانيا: إنعكاسات سقوط دولة الموحدين

نتج عن سقوط الدولة الموحدية قيام ثلاث كيانات سياسية بالمغرب الإسلامي انفردت كل واحد بإقليم: الدولة الحفصية بالمغرب الأدنى، الزيانية بالمغرب الأوسط، والمرينية بالمغرب الأقصى، وتستعرض ورقات البحث القادمة ظروف تأسيس هاته الدول ومحاولاتها في تثبيت ملكها بمجالاتها.

1. قيام الدولة الحفصية

يدرس هذا العنصر نسب بني حفص والظروف التي ساعدت على قيام هاته الدولة والسبل التي تم انتهاجها لتثبيت ملكهم والحفاظ عليه بإفريقية، والأسباب التي أدت إلى نقيض ذلك لاحقا (تدعيات السقوط).

1.1 نسب بني حفص:

بني حفص فرع من فروع الدولة الموحدية،² ينتسبون إلى جدهم الشيخ أبي حفص عمر أحد أعوان المهدي بن تومرت،³ وأصحابه (أهل العشرة)،⁴ يقول المهدي بن تومرت في مدحه عنه:

¹ عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة...، مصدر سابق، ص 357.

² ينظر: الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 28. - حسن حسني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، (مختصر مدرسي يشمل ذكر حوادث القطر التونسي من أقدم العصور إلى الزمان الحاضر)، دارا لكتب العربية الشرقية، ط 3، تونس، ص 105.

³ Amel Bensalim, Mztamorphosis in the Ifriqiyan Cocoon: Hafsid State Formation, Diplomacy, and transformation, 1220-1450, Athesis submitted to the graduate program in History in conformity with the requirments for the degree of master of Arts, Queen's University, Kingston, Ontario, Canada, August 2021, p 10.

⁴ أخذ المهدي بن تومرت يرتب أنصاره طبقات بحسب إخلاصهم له، وأسبقية انضمامهم إلى الدعوة محاولة منه السير على خطى الرسول صلى الله عليه وسلم. معتبرا تتميل هي دار هجرته، وقسم أصحابه إلى طائفتين: مهاجرين، وأنصار من الصحابة، وصحابة المهدي يسمون أهل العشرة أو (أيت العشرة) وهم المهاجرون الأولون والسباقون الذين أسرعوا إلى مبايعة المهدي يسمون بالجماعة، والنصارى يسمون (أيت خمسين) وهم الطبقة الثانية وهذه الطبقة من قبائل شتى سماهم بالمؤمنين، يقول لهم: "ما على وجه الأرض من يؤمن إيمانكم المعينون".

"لا يزالون بخير ما بقي فيهم هذا الرجل أو أحد من ولده"،¹ تولى أبو حفص عمر عقد البيعة لعبد المؤمن بن علي،² كما شارك في تأسيس الدولة الموحدية وتوسيع رقعتها في مجالات المغرب والأندلس، إذ أخذ على عاتقه فتح الجزيرة الخضراء، رندة، إشبيلية، قرطبة وغرناطة،³ يذكر عبد الرحمان ابن خلدون أن اسم جدهم بلسان المصامدة (فاصكة) وفي نسخة أخرى ذكرها باسم (فارصكات)، أما اسم أبي حفص عمر أطلقه عليه المهدي بن تومرت واسمه الحقيقي الكامل هو فصكة بن مزال.⁴

ينتمي بني حفص إلى البربر،⁵ نسبة إلى جدهم أبي حفص عمر الهنتاتي وهنتاتة أحد أعظم قبائل مصمودة جمعا وقوة،⁶ ينسب عبد الرحمان ابن خلدون المصامدة: الى ولد مصمود بن يونس ويقول عنهم أنهم أكثر قبائل البربر وأوفرهم.⁷

رفعت بعض المصادر التاريخية نسب أبو محمد عبد الواحد أول من تملك من بني حفص إلى الخليفة الراشد وأحد صحابة الرسول عمر ابن الخطاب، من هؤلاء ابن الشماع الذي يقول في هذا الصدد: "هو المولى أبو محمد ابن الشيخ أبي حفص عمر ابن يحيى بن محمد بن والد بن علي بن أحمد بن ولال بن إدريس بن خالد بن اليسع بن إلياس بن عمر بن واقتن بن محمد بن محمد بن محبة بن كعب بن محمد بن سالم بن عبد الله بن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه".⁸

ينظر: عبد الواحد المراكشي، مصدر سابق، ص 162. -ابن الشماع، مصدر سابق، ص 48. الزركشي، مصدر سابق، ص 6. -حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار راشد، 2004، ص 207.

¹ عبد الواحد المراكشي، مصدر سابق، ص 275.

² **ينظر:** البيدق، مصدر سابق، ص 37. -عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق 370. -ابن الشماع، مصدر سابق، ص 48-49. -روبار برونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص 45.

³ البيدق، مصدر سابق، ص 37.

⁴ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر، ص 370.

⁵ يؤكد لنا عبد الواحد المراكشي جنسهم البربري في قوله: "...صنهاجة، دكالة... وهنتاتة... فهؤلاء الذين يجمعهم اسم المصامدة، ثم يجمع الكل جنس البربر". **ينظر:** عبد الواحد المراكشي، مصدر سابق، ص 277.

⁶ البيدق، مصدر سابق، ص 37. - عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 370. -ابن الشماع، مصدر سابق، ص 48-49. -عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، 1999، ص 779.

⁷ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 275.

⁸ ابن الشماع، مصدر سابق، ص 48.

أثار هذا النسب حفيظة بعض المؤرخين أمثال عبد الرحمان ابن خلدون، حيث يقول: "ويظهر منه أن هذا النسب القرشي وقع في المصادمة والتحم به، واشتملت عليه عصبية شأن الأنساب التي تقع من قوم إلى قوم وتلتحم بهم"¹، ويذكر صاحب المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس أن: "هذا النسب غارق في أنساب البربر والعرب كانت تأنف عن التزويج منهم وخصوصا قريشا والله أعلم بحقيقة ذلك"².

الواضح من خلال استخدام ابن أبي دينار عبارة (الله أعلم) في آخر الخبر الذي قام بنقله عن المؤرخين السابقين دلالة واضحة على عدم وجود اتفاق حول هذا النسب الشريف، وعليه فإن المقصود من رفع نسب الحفصيين إلى عمر ابن الخطاب هو إضفاء هالة من الشرعية على حكم بني حفص وأحقيتهم في وراثة ملك بني عبد المؤمن.

وسواء ثبت انتمائهم الشريف هذا أو لا فإن هذا الإدعاء أكسب ملكهم الوقار والتقدير وساعدهم على تثبيت دولتهم في المغرب الأدنى، ويتجلى ذلك من خلال البيعات التي أرسلت لهم من جميع أنحاء العالم، وأصبحوا بعدها حماة للأندلس - في أول مرحلة من عمر الدولة - حتى بني مرين استغلوا مكانة بني حفص واسمهم لتثبيت أقدامهم في مجالات المغرب الأقصى (سنستعرض ذلك في الفصول اللاحقة).

بالنسبة لمواطن بني حفص الأصلية فهي جبل درن،³ وتنتهي ديارهم من هذا الجبل إلى ثنية المعدن المعروفة ببني فازان من حيث تبتدئ مواطن صنهاجة ويحفون بهم كذلك من ناحية القبلة إلى بلاد السوس،⁴ ودرن من جبال البربر المعروفة بالمغرب الأقصى،⁵ فيها عدة قبائل

¹ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 371.

² ابن أبي دينار، مصدر سابق، ص 124.

³ ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 48.

⁴ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 298.

⁵ يقول عبد الرحمان ابن خلدون عن هذا الجبل: "من أعظم جبال المعمور ربما أعرق في الثرى أصلها وذهبت في السماء فروعها... تبتدئ من ساحل البحر المحيط عند أسفى وما إليها، وتذهب في المشرق إلى غير نهاية. ويقال أنها تنتهي إلى قبلة برنيق من أرض برقة، وهي في الجانب ما يلي مراكش إلى بلاد السوس ودرعة من القبلة ثمان مراحل وأزيد". ينظر: العبر...، ج 6، نفس المصدر، ص 298.

وبلدان وقرى،¹ وبعد تغلب عبد الواحد على ابن غانية أوكله الخليفة الناصر ولاية إفريقية،² وتعتبر هذه الخطوة أول مرحلة من مراحل نشأة الدولة الحفصية وأولى بدايات الوجود الحفصي في ساحة الأحداث بالمغرب الأدنى.

وعليه فإن بني حفص ليسوا السكان الأصليين لإفريقية بل هم قبائل نزحت من أحواز المغرب الأقصى بأوامر من الخليفة الموحي على عكس قبيلة بني عبد الواد التي كانت تتوطن في مجالات المغرب الأوسط، وربما لأن بني حفص دخلاء على إقليم المغرب الأدنى تسبب فيما بعد في استنفار القبائل المتوطنة بهذا الأخير وانشقاقها عنهم، مما أدى إلى تقسيم الدولة فيما بعد إلى حفصيتين شرقية وغربية، وأصبح للدولة ثلاث عواصم: بجاية، قسنطينة وتونس، لتساهم هذه التقسيمات لاحقاً في إضعاف كاهل الدولة وجعلها مطمعا لمناوئها في المغربين الأوسط والأقصى وهذا ما سنقوم بمعالجته لاحقاً.

1. 2 ظروف تأسيس الدولة الحفصية:

يتناول هذا العنصر ولاية بني حفص على إفريقية وتثبيت حكمهم فيها، مستعرضاً الظروف التي مكنتهم من الاستقلال عن الدولة الموحدية والأساليب التي انتهجوها لترسيخ سلطتهم، كما سيتم تحليل العوامل التي ساعدت على تعزيز نفوذهم، بالإضافة إلى ذكر أبرز التحديات التي واجهوها في سبيل تثبيت سيادتهم ومدى نجاحهم في بناء كيان سياسي مستقر في المنطقة.

1. 2. 1 ولاية بني حفص على إفريقية:

رأينا فيما سبق المكانة التي كان يشغلها أبو حفص عمر الهنتاتي لذا المهدي بني تومرت وبني عبد المؤمن من بعده، لهذا اكتسب أولاده من بعده مكانة سامية، وتقلدوا مناصب الإمارة في المغرب والأندلس،³ من ذلك عبد الواحد أبو محمد وزير الخليفة الموحي وعميد الشيوخ الموحدين

¹ شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي (ت 626هـ)، معجم البلدان، دار صادر، مج 2، بيروت، لبنان، 1977، ص 552.

² ابن عذاري المراكشي، قسم الموحدين، مصدر سابق، ص 248.

³ عبد العزيز سالم، مرجع سابق، ص 789.

وأعلامهم مكانة ونفوذا لذا صهره الخليفة الناصر - تزوج بأخته ابنة يعقوب المنصور - وازدادت قيمته أكثر بعد انتصاره على يحيى بن غانية في معركة تاجرا.¹

لما فرغ الناصر من جميع الأشغال قرر تعيين عبد الواحد أبو محمد واليا على إفريقية بصلاحيات واسعة،² قبل عودته إلى مراكش بمشورة وإجماع من أشياخه ومدبري دولته، أمر خلالها الخليفة الناصر بعض أعيانه للحديث معه استحياء منه فاعتذر له عن قبول ذلك ولم يجد الناصر بعدها شخصية جديرة بالمنصب عوضا منه، وفي المقابل لم يرد إجباره على ذلك فعرض عليه الأمر مرة ثالثة وقبل هذه المرة الولاية على إفريقية مقابل شروط معينة، من هذه الشروط: "أن لا يتولى إفريقية إلا بقدر ما تصلح أحوالها وينقطع طمع الميروقي عنها ويتخير الناصر من رجاله من يوجهه عوضا عنه وجعل النهاية في ذلك ثلاث سنين، وأنه يعرض عليه الجيش فيبقى معه من يقع اختياره عليه، وأنه إن فعل فعلا كائنا ما كان لا يسأل عنه ولا يعاتب فيه، وأن من بقي بعد انفصال الناصر واليا على بلد من بلاد إفريقية فهو فيه بخير الناظرين إن شاء أبقاه وإن شاء عزله".³

من المؤكد أن سبب إلحاح الناصر على أبي حفص هو كفاءته وقناعاته التامة أن سبيل استقرار إفريقية والقضاء النهائي على ابن غانية لا يتم إلا بوجود شخصية مثل شخصية عبد الواحد، أما سبب عدم قبول شيوخ الموحدين على ولاية إفريقية وإصرارهم على إبقاء عبد الواحد واليا على إفريقية هو إبعاده عن البلاط الموحيدي في سبيل تحقيق أهدافهم الخفية،⁴ وهذا ما يؤكد قول التجاني: "أرادوا بعده عن الخلافة ليجدوا السبيل إلى أغراضهم"،⁵ ولقد كان يحيى ابن غانية

¹ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 372. - محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 85.

² ينظر: ابن عذاري المراكشي، قسم الموحدين، مصدر سابق، ص 248.

-Pascal Buresi et Mehdi Ghourigate, Le Maghreb XIe- XVe siècle, Armand Colin, Le concours du Centre national de recherche scientifique dans le cadre et avec le soutien du projet IGAMWI, 2013, p 59.

³ أبو محمد عبد الله التجاني (ت 721)، رحلة التجاني، تق حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1981، ص 360-362.

⁴ محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 87.

⁵ التجاني، مصدر سابق، ص 360.

على دراية بما يعده الموحيدين له من استعدادات، فما أن بلغته مسيرة الوالي الجديد إليه انسحب من تاهرت،¹ وخرج بجيوشه وأتباعه شرق ملك الموحيدين أين يوجد عبد الواحد أبي حفص، ويعد انتقال ابن غانية من المغرب الأوسط إلى إفريقية تأكيدا على الرغبة القصوى في معاودة الحرب معهم ظنا منه أنه على كفاءة عالية تمكنه من مجابهة عبد الواحد قياسا على تحقيقه لانتصارات بتلمسان واكتساب تحالف زناتة من جهة، وتخوفه من أن يبقى محاصرا بين الموحيدين في المغربين الأوسط والأدنى من جهة أخرى.²

عند محاولة ابن غانية العبور إلى إفريقية اعترضه عبد الواحد بجيشه وهزمه كعادته وحرر الأسرى من قبضته، كما استولى أيضا على الكثير من غنائمه وقتل الكثير من أتباعه، فلم يجد ابن غانية حينها حلا سوى الفرار إلى جبال طرابلس، وفي سنة (606هـ/1210م) التقى الفريقان مجددا، بلغت الحرب بينهما أوجها انتصر فيها الموحيدين،³ ومات من الملتئمين (المرابطين) عدد كبير ومن زناتة والعرب أيضا وغنم حينها الموحيدين كعادتهم كل ممتلكاتهم.⁴

نتيجة لذلك بعث عبد الواحد بشرى هذا النصر الجديد إلى الناصر في مراكش ففرح لذلك وجلس في حضرته يستقبل التهاني، كما تمكن عبد الواحد من ضمان السلم في المنطقة بفضل مساعدة كاتبه محمد بن أحمد بن نخيل واكتسب ثقة الرعية بفضل سياسته الحسنة اتجاههم، وعلى الرغم من تمتع عبد الواحد بالحرية المطلقة بإفريقية إلا أنه ظل تابعا للسلطة المركزية بمراكش ولم

¹ يقول عبد الرحمان ابن خلدون عن وقعة تاهرت: " لما أفلت من وقعة أشير، قصد بلاد زناتة بنواحي تلمسان، ودارن ذلك وصول الشيخ أبي عمر بن موسى بن يوسف بن عبد المؤمن واليا عليها من مراكش، وخروجه إلى بلاد زناتة لتمهيد أنحائه وجباية مغارمهم، وكتب إلى الشيخ أبي محمد نذيرا بشأنه فأبى من ذلك وارتحل إلى تاهرت وصبحه بها ابن غانية فانفض معسكره وفرت زناتة إلى حصن بها، وقتل السيد أبو عمران واستبيحت تاهرت، فكان آخر العهد بعمرانها، وامتألت أيديهم من الغنائم والسبي، وانقلبوا إلى إفريقية فاعترضه الشيخ أبو محمد في موضع فأوقع بعم واستنفذ الأسرى من أيديهم، واكتسح سائر مغانمهم، وقتل فيها كثير من الملتئمين ولحق فلهم بناحية طرابلس". **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 375.

² **ينظر:** ابن عذاري المراكشي، قسم الموحيدين، مصدر سابق، ص 254. -محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 89.

³ نتيجة لهذه الانتصارات المتتالية نعمت إفريقية بعشر سنوات من السلم. **ينظر:** روبر بارونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص 46.

⁴ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص ص 375-376.

تكن له أية نية في شق طاعتهم، يتضح ذلك جليا من خلال طلبه العودة إلى مراكش من الخليفة بعد إنهاء ما جاء من أجله، لكن طلبه قبول بالرفض بل وأصر على إبقائه هناك،¹ لحماية ملك الموحدين بالجهة الشرقية من غارات ابن غانية لأنه قادر على مجابهته وتقريب جمعه في كل مرة يتردد فيها إلى البلاد.²

لم يحدث بين بني حفص والسلطة المركزية بمراكش ما يعكر صفو العلاقات نهائيا إلا أن موقفه المعارض من خلافة المستنصر وحجته في ذلك صغر سنه، لذلك امتنع عن مبايعته لبعض الوقت بعد وفاة الناصر سنة (610هـ/1213م)، فالخليفة الجديد آنذاك كان تحت قبضة وتسلط المشايخ الموحدين،³ وكان لهذا الموقف الآثار الوخيمة على أسرته بعد وفاته فيما بعد،⁴ وخلال عهد المستنصر بدأ ظهور بني مرين في ساحة الأحداث بالمغرب الأقصى وما مكنهم من ذلك هو سوء تسيير الخليفة الجديد، فعاثوا في أرضه فسادا واجتمعوا في حرب سميت بعام المشعلة،⁵ وليست هذه المواجهة الأولى بين هذه القبيلة والموحدين.

بتتبع الاستغرافيا التاريخية التي سبق ذكرها وتعداد محاسن عبد الواحد مع أهالي إفريقية وخليفته الذي لم يلتزم بما تعهد له به (العودة إلى مراكش بعد استكمال أعماله) نستنتج أن تواجده بإفريقية ليس تكليف من الناصر لصد حركات بني غانية فقط بل لتخوف هذا الخليفة من قوة شخصية عبد الواحد، الأمر الذي جعله يستجيب للمشايخ الموحدين وتوليته أمر إفريقية وكذا يبعده عن البلاط الموحيدي.

¹ محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 91.

² ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية...، مصدر سابق، ص 105.

³ **ينظر:** ابن عذاري المراكشي، مصدر سابق، قسم الموحدين، ص 265. -عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 376. - الشماع، مصدر سابق، ص 21-22. -روبار برونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص 46.

⁴ توفي الشيخ عبد الواحد، يوم الخميس أول يوم من سنة (618هـ/1221م)، وكانت مدته بتونس أربعة عشرة عاما وشهرين وعشرين يوما. دفن بالقصبة. **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 376. -ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية....، مصدر سابق، ص 105. -الزركشي، مصدر سابق، ص 19.

⁵ **ينظر:** ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص 27-28. -ابن عذاري المراكشي، مصدر سابق، قسم الموحدين، ص 266. -عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 225.

لكن الأحوال تغيرت بعد وفاة الشيخ عبد الواحد وتفرق أمر بني عبد المؤمن إلى قسمين: الأول مال إلى ابن الشيخ أبي زيد، والثاني إلى ابن أخيه إبراهيم بن إسماعيل ابن الشيخ أبي حفص ثم وقع الاختيار على أبي يزيد،¹ لكنه سرعان ما تم عزله عن السلطة بعد ثلاثة أشهر وولوا مكانه أحد أبناء عمومته بصفة مؤقتة حتى وصول الوالي الفعلي لإفريقية: أبي العلاء إدريس بن يوسف أخو يعقوب، فبعد وصوله في مدة قصيرة أساء التصرف مع أسرة أبو محمد عبد الواحد الحفصي وكتبه علي محمد بن نخيل وأخويه أبي بكر ويحي وأودعهم السجن، وبعد شهر قام بقتل الكاتب وأخوه يحي، كما قام بترحيل أبي بكر إلى سجن المهدي واستولى على جميع ممتلكاتهم.²

لا يختلف إبراهيم بن إسماعيل عن والي إفريقية الجديد فهو الآخر رغم مدته القصيرة التي تولى فيها زمام الأمور بإفريقية قام بالإساءة لعائلة الشيخ عبد الواحد وأنصاره،³ والمسؤول الأول عن هذه الأحداث السيئة التي أصابت الأسرة الحفصية هو البيت الموحي بمراكش (الوالي الجديد) ومن تولى من قبله مؤقت، ولقد شجعت هذه الأحداث ظهور يحي ابن غانية من جديد على مسرح الأحداث المضطربة بإفريقية، فأسرع أبو العلاء إلى مواجهته بعساكره بنواحي قابس من سنة (619هـ/1222م) لكنه لم يتمكن من إيقاف التمردات في منطقة وادن الطرابلسية، فأرسل إليها جيش آخر وبعث ولده بجيش عظيم إلى غدامس في حين توجه ابن غانية نحو الزاب وتمكن من إدخال أهل بسكرة في طاعته، فرجع على إثر هذا ابن أبي العلاء إليها لتهديب أهلها بالتهيب والتخريب، في تلك الأثناء بلغه رجوع ابن غانية إلى جوانب إفريقية، فسرّح إليه العساكر ونزل بالقيروان وتمكن أبي زيد من هزيمة ابن غانية بمساعدة قبيلة هواره في معركة دارت رحاها قرب

¹ ينظر: ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية...، مصدر سابق، ص 106. - عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 377.

² ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 378. - روبر بارونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص 47.

³ ينظر: محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 104. - روبر بارونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص 47.

قرية مجدول الواقعة بين قفصة والقيروان، أفرز عنها فرار ابن غانية إلى الصحراء ولم يرغب أبي زيد الحاق به،¹ بسبب وفاة والده (620هـ/1223م).²

تولى أبي زيد أمر إفريقية بعد أبيه بأمر من الخليفة الموحي عبد الواحد المخلوع بمدة سنتين لكنه أساء السيرة وقام الخليفة الجديد العادل بعزله،³ ونصب الشيخ أبي محمد عبد الله المعروف بعيو ابن الشيخ عبد الواحد،⁴ وابتداء من سنة (623هـ/1227م) أصبحت إفريقية في قبضة بني حفص، غير أن القسم الغربي منها كان خارجا عن سلطتهم تماما.⁵

1. 2. تثبيت بني حفص بإفريقية:

بعد تعيين عيو واليا على إفريقية بعث إلى ابن عمه موسى بن إبراهيم الحفصي ليتولى أمر حضرته بالنيابة عنه مؤقتا ريثما يهذب أموره في البلاط الموحي بمراكش، وظل ينوبه لقربة ثمانى أشهر حتى وصل الوالي الجديد في ذي القعدة سنة (623هـ/1226م) واجه في طريقه قبائل أولاد شداد بناحية بونة، فبعث لأخيه أبي زكريا لتأديبهم من جهة وتهيأ الجموع لاستقباله في شهر رمضان أين خرج أبي زكريا مع مختلف الطبقات من الناس، فالتقوا بسطيف ووصل إلى حضرته في الشهر المذكور سلفا، وعقد لأخيه أبي إبراهيم في صفر سنة (624هـ/1227م) على قسنطينة وأبي زكريا على قابس وما وراءها.⁶

لم تكن حركة أولاد شداد هي الوحيدة فبعد استقراره بحضرته بلغته فتنة ابن غانية وتغلبه على منطقتي بجاية وتدلس، ومطاردة الوالي أبي محمد أين لحق به إلى ما وراء بجاية، ثم بلغه توغله بسجلماسة، ففقل راجعا إلى حضرته ودخلها في رمضان من سنة (624هـ/1227م).⁷

¹ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، 278. -روبار برونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص 48. -محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 107.

² ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية....، مصدر سابق، ص 106.

³ عبد الرحمان ابن خلدون، ج 6، العبر...، مصدر سابق، ص 379.

⁴ الزركشي، مصدر سابق، ص 21.

⁵ روبار برونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص 49.

⁶ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 379 - 380. -محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 112.

⁷ روبار برونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص 49.

في خضم هذه الأحداث قام أبي العلاء إدريس بأخذ البيعة لنفسه بإشبيلية بعد أن تمكن من خلع أخيه المتواجد بمراكش (سمى نفسه بالمأمون)، وبعث إلى الشيخ أبي محمد بإفريقية ليأخذ له البيعة فأبى عن ذلك،¹ باعتبار الخليفة المقتول وليا لنعمته إذ هو من قام بتعيينه واليا على إفريقية،² على عكس أبو زكريا الذي وافق على مبايعته مقابل ولاية إفريقية، ومناصبه العداء مع أخيه عيو.³

توجه أبي زكريا يحيى إلى تونس للقاء أخيه رفقة كبير الشيوخ في قابس ابن مكي واستعد الأخوان للمواجهة، وكانت مختلف طبقات الناس في صف أبي زكريا مستكرين لنهوض أبي محمد عليه فقاموا بعزله عن إفريقية وبعثوا إليه يعلموه،⁴ وبذلك أصبح أبي زكريا والي الجديد على إفريقية سنة (625هـ/1228م)، وأول ما قام به هو نفي أخيه المخلوع وأعدم كاتبه أبي عمر وأستوزر ميمون بن موسى الهنتاتي.⁵

ظن الخليفة المأمون أنه بتعيينه لأبي زكريا واليا جديد سوف يخلص له الطاعة فبعث إليه من مراكش عمالا ليعينهم على مختلف جهات إفريقية، لكن صاحب إفريقية استكر لذلك وردهم من حيث قدموا،⁶ فكانت هذه أول خطوة يقوم بها أبو زكريا للتخلص من تبعية الموحدين، وأخذ يستغل الوهن الذي أصاب السلطة المركزية بمراكش لكثرة الفتن والتمردات وتغلب الأشياخ على البلاط الموحيدي، بالإضافة إلى الأخطار الخارجية التي تحقق ببني عبد المؤمن من الجهة الغربية من طرف بني مرين.⁷

¹ ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية...، مصدر سابق، ص 107

² الزركشي، مصدر سابق، ص 21.

³ **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 280. -ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية...، مصدر سابق، ص 107.

⁴ **ينظر:** ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 53. -ابن أبي دينار، مصدر سابق، ص 125. -روبار برونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص 49.

⁵ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 381.

⁶ **ينظر:** الزركشي، مصدر سابق، ص 23. -روبار برونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص 150. -محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 117.

⁷ روبار برونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص 150.

يعود السبب الرئيسي وراء شق أبو زكريا الطاعة للمأمون إلى الاختلاف المذهبي والعقائدي، نتيجة لتنكر المأمون لعقيدة المهدي بن تومرت (مذهب الموحدين)، وقتله للكثير منهم في مراكش خصوصا هنتاتة وتنميل من ضمنهم أبي محمد المخلوع، ونظرا لانتفاء أبي زكريا لهذا القبيل انحاز إلى أبناء قبيلته وكتب إلى جميع إفريقية بخلع أبي العلاء ومبايعة ابن أخيه يحيى بن ناصر، وظل أبي زكريا يتقرب سير الأحداث داخل البلاط الموحد.¹

عندما وردت أبو زكريا أخبار عدم تمكن يحيى من الانتصار على المأمون أسقط اسمه من الخطبة في بلاد إفريقية، واكتفى بالدعاء للمهدي بن تومرت والخلفاء الراشدين سنة (627هـ/1230م) مسميا نفسه بالأمير دون أمير المؤمنين وظل على ذلك الحال حتى سنة (634هـ/1237م)، وتمت له البيعة العامة وتثبت ذكره في الخطبة بعد ذكر الإمام المهدي.²

¹ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 381. -الزركشي، مصدر سابق، ص 23- 24. -شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص 178. -روبار برونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص 50.

² ينظر: الزركشي، نفس المصدر، ص 24. -شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص 178.

اتخذ أبو زكريا تونس عاصمة لدولته،¹ بناء على مكانتها الاقتصادية،² وأدوارها التاريخية إذ كانت خلال عهد الأغالبة مقرا لبعض الأمراء وقاعدة عسكرية سكنتها العديد من العساكر وظلت

¹ تونس: تقع مدينة تونس جغرافيا في الجزء الثاني من الإقليم الثالث على سفح جبل يعرف بجبل أم عمر، أما فلكيا فهي تقع أما فلكيا فهي تقع بين خطي طول اثنان وثلاثين درجة (32°) وثلاث وثلاثون ونصف درجة عرضا (33.31°). ولقد أورد عاطف عيد أنها تقع فلكيا بين خطي عرض ثلاثين وسبع وثلاثين درجة شمالي خط الاستواء (30° و 37°)، وبين خطي طول سبعة عشر ونصف وأحد عشر درجة شرقي خط غرينتش (7.5° و 11.6°). أطلق اللاتينيون على هذه المدينة اسم تونيوتوم، وباللغة العربية تونس: بالضم ثم السكون والنون تضم وتفتح وتكسر، وهي مدينة قديمة عمرت على أنقاد مدينة قرطاجنة، وعليه فإن اسم مدينة تونس سابقا قرطاجنة وكان يطلق عليها أيضا اسم ترشيش، وعندما افتتحها العرب استحدثوا بناءها سنة (80هـ/699م) وسموها تونس لأن المسلمين لما افتتحوا إفريقية كانوا ينزلون بالقرب من صومعة الراهب بترشيش ويأمنون بصومعته فيقولون هذه الصومعة تونس، فلقبوها بهذا الاسم. **ينظر:** أبي عبد الله محمد الإدريسي (ع ق 6هـ)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، مج 1، القاهرة، مصر، 2002، ص 276. - مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، نش وتع سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، دار البيضاء، المغرب، 1985، ص 120. - أبي القاسم عبيد الله ابن خرداذبة (300هـ)، المسالك والممالك، مطبعة بريل، ليدن، هولندا، 1889، ص 87. - علي أبو الحسن ابن سعيد المغربي (ت 685هـ)، كتاب الجغرافيا، تح وتويع إسماعيل العربي، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، بيروت، لبنان، 1970، ص 143. - ياقوت الحموي، مصدر سابق، مج 2، ص 60. - عبد المنعم الحميري (ت 900هـ)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح إحسان عباس، مكتبة لبنان، ط 2، بيروت، لبنان، 1984، ص 144. - حسن الوزان، مصدر سابق، ج 2، ص 70. - ابن الشماخ، مصدر سابق، 37. - ابن أبي دينار، مصدر سابق، ص 7. - عاطف عيد، قصة وتاريخ الحضارات العربية بين الأمس واليوم (تونس، الجزائر)، Editio Creps. INT، ج 21-22، بيروت لبنان، (1998/1999)، ص 7.

² تمتلك مدينة تونس موقع جغرافي وسطي جعل منها معبرا بشريا وجسرا تجاريا، فلم تفرغ طرقاتها من القوافل التجارية من جميع الأقطار من بر الإسلام وجميع بلاد النصرى، معتمدة في نشاطها التجاري على شبكة واسعة من الطرق البحرية والبرية التي تكاد تكون جميعها غير معبدة وغير آمنة، لكنه وبعد تولي أبي العباس أحمد السلطة سنة (772هـ/1370م) قام بتأمين هذه الطرق، ولقد أقامت السلطة الحفصية علاقات تجارية مع السودان لتزدهر تجارة الحبوب والتمور والماشية والصوف بفضل القوافل التي كانت تسير بشكل دائم بين المغرب الأوسط والسودان. **ينظر:** العبدري، مصدر سابق، ص 109. - ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 109. - روبر بارونشفيك، مرجع سابق، ج 2، ص 246-247. - شارل أندري جوليان، مرجع سابق، ج 2، ص 196-197. - نجيب زينب، الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، تق أحمد بن سودة، دار الأمير، ج 2، ط 1، بيروت، لبنان، 1995، ص 413.

كذلك إلى غاية عهد المرابطين، الذين استخدموها لحراسة ثغورهم بالرباطات الكثيرة مثل رباط الجراح بالمرسى ورباط جبل المنار، واهتموا بعمرانها فأصبحت بذلك مصرا عظيما ولما ضعفت الدولة اللمتونية أصبحت إمارة لبني خرسان، فعظم عمرانها وواصلت على هذا التطور، حتى اتخذها بني عبد المؤمن مقرا لولاتهم، فازدادت منشآتها العمرانية واتسع نطاقها وعمرت أسواقها وكثر صناعها،¹ فكانت كل هذه المراحل التاريخية تمهيدا لاختيار تونس عاصمة لبني حفص، وقاعدة للمغرب الأدنى.²

بعد إعلان أبو زكريا إستقلاله بالحكم أخذ بالعمل على استرجاع نفوذ إفريقية، فدخل قسنطينة وتقبض على واليها أبي عبد الله الخرصاني بن يوسف العشري سنة (626هـ/1228م) وفتح بجاية من نفس السنة وأخرج واليها أبي عبد الله بن يعقوب المنصور،³ وبعثهما إلى تونس "وأسكنهما دارين حليتين وجعل بركتهما ألف دينار ذهباً، وانقطعت الكلمة المؤمنية من البلاد الإفريقية"،⁴ والواضح من هذا السلوك أن أبي زكريا يسعى إلى كسب مودة الناس ومحبتهم لضمان ولائهم.

كما ألقى القبض على رؤساء العرب في قسنطينة وبجاية: شيوخ مرداس، والذواودة، وتغلب على يحيى ابن غانية بعد مطاردات عديدة له ولأنصاره من الأعراب من غرب طرابلس إلى ورقلة بالجنوب، سنة (631هـ/1234م)، وهكذا ضمن أنه لن يشاركه أحد في ملك إفريقية،⁵ ولقد تمكن أبو زكريا من جمع أشلاء إفريقية تحت سلطته المطلقة في فترة وجيزة وتسمت باسم جدهم أبي

¹ أحمد بن عامر، الدولة الحفصية، (صفحات خالدة من تاريخنا المجيد)، دار الكتب الشرقية، تونس، 1974، ص ص 28-29.

² ينظر: العبدري، مصدر سابق، ص 112. - ابن أبي دينار، مصدر سابق، ص 6. - محمود بن سعد مقديش، نزهة الأنتظار في عجائب التواريخ والأخبار، تح علي الزواري ومحمود محفوظ، دار الغرب الإسلامي، مج 1، ط 1، بيروت، لبنان، 1988، ص 117.

³ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 382.

⁴ ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية...، مصدر سابق، ص 108.

⁵ ينظر: روبر بارونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص 51. - عبد الفتاح مقلد الغنيمي، موسوعة تاريخ المغرب العربي (بني حفص وبني زيان وبني مرين وبني وطاس والسعديين وظهور الأشراف العلويين) دراسة في التاريخ الإسلامي، ج 5، مكتبة مدبولي، ط 1، القاهرة، مصر، 1994، ص ص 28-29. - حسن حسني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس دار الكتب العربية الشرقية، ط 3، تونس، 1953، ص 107.

حفص عمر: الدولة الحفصية، وأخذ يوسع رقعتها تزامنا مع وصول المبايعات من المغربين الأوسط والأقصى والبعض من جهات عدوة الأندلس، وقد أشاد ابن قنفذ القسنطيني بظهور هذه الدولة العظيمة قائلا: "ومن الله بالدولة الحفصية العمرية، وأنار الآفاق الإفريقية وحرك لانتشار كلمتها الملك أبا محمد عبد الواحد ابن الشيخ المقدس من المجاهد أبي حفص فنشر ذكرها، وأظهر أمرها وخلفه إنه الأمير أبي زكرياء فزاد في محاسنها".¹

بعد وفاة أبي يحيى زكريا خلفه ابنه المنتصر،² ومن أهم الأحداث التي تمت فترة حكمه هو دخول شريف مكة وأهلها في الدعوة الحفصية وذلك بعد هجمات الططر (التتار) واستيلاءها على بغداد، ومحو الدعوة العباسية،³ ويقول في هذا الصدد الزركشي: "...وصلت بيعة مكة شرفها الله على يد الشيخ أبي محمد عبد الحق ابن سبعين وكان الواصل بها المحدث الرواية أبو محمد"،⁴ وفي سنة (669هـ/1270م) كانت الحملة الصليبية التي قادها ملك الفرنجة، وظل محاصرا لمدة ثلاثة أشهر ونصف شهر وانتهت بعقد الصلح بين الطرفين بعد وقائع كثيرة، ودفع لهم من المال الكثير.⁵

بعد وفاة المستنصر ساءت الأوضاع ودخلت السلطنة في صراعات داخلية وخارجية ولم تنفج الأحوال إلا بتولي أبي العباس أحمد السلطة سنة (772هـ/1370م)، فبفضل شجاعته تمكن من استرجاع الأمن ونفوذ إفريقية، فأمن الطرقات والبلاد وتغلب على العرب، واسترجع ما كان تحت قبضتها من المناطق وافتتح قفصة وعقد عليها لابنه المولى أبي بكر وافتتح توزر واستولى على ذخائرها وعقد عليها لابنه المنتصر وهزم النصاري سنة (792هـ/1390م).⁶

¹ ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية...، مصدر سابق، ص 108.

² بعد وفاة أبي زكريا اجتمع الناس لبيعة ابنه المنتصر، وأخذ له عمه محمد اللحياني البيعة الخاصة، تم له البيعة العامة يوم وصوله إلى حضرة تونس في رجب سنة (646هـ/1249م) وتلقب بالمستنصر. **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 400.

³ عبد الفتاح مقلد الغنيمي، ج 5، مرجع سابق، ص 35.

⁴ الزركشي، مصدر سابق، ص 37.

⁵ ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية...، مصدر سابق، ص 131.

⁶ ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 109 - 111.

على الرغم من الأخطار الخارجية والاضطرابات الداخلية تمكن سلاطين الدولة الحفصية الأوائل من الحفاظ على سيطرتهم المباشرة على إفريقيا،¹ ولم يتم اختراق العاصمة الحفصية تونس من قبل القيادات المغربية إلا ثلاث مرات على مر الثلاث قرون، أي على عهد أبو تاشفين الأول والذي تمكن من إلحاقها لمدة أربعين يوما والسلطان المريني أبو الحسن وأخيرا ابنه أبو عنان، وسيتم في الفصل الموالي معرفة أسباب وظروف ذلك.

كما وقد بلغت الدولة الحفصية أقصى اتساع لها خلال عهد أبو فارس عبد العزيز، إذ زحرت الدولة خلالها بالعمائر الدينية والعلمية، والتي سنتقوم باستعراضها في الفصول اللاحقة.

1. 3 الجيش الحفصي:

تألف الجيش الحفصي من عدة مكونات رئيسية، أبرزها الجيش الموحد الذي شكل النواة الأساسية للدولة الحفصية واستمر لفترة طويلة يمثل القوة العسكرية الأساسية للدولة،² ومع مرور الزمن تشكل الجيش الحفصي من عناصر متعددة ومتباينة العدد، وذلك نتيجة لعوامل سياسية واجتماعية المرتبطة بالتفاعل المعقد بين السلطة الحفصية والقبائل المحلية، ولقد كانت القبائل التي تعترف بالسلطة المركزية تساهم في تقديم الدعم العسكري سواء كان ذلك بالقوة أو بالتراضي مقابل الحصول على امتيازات مادية، ومع ذلك كان حجم هذا الدعم متغيرا من حيث عدد الجنود ومدة الخدمة العسكرية، بناء على الظروف السياسية والاجتماعية المحيطة فلم يكن عدد القبائل التابعة للمخزن ثابتة، حيث كانت تتغير تشكيلاتها باستمرار تبعا للمتغيرات السائدة خلال فترات السلم والحرب.³

¹ Dominique Valérien, Frontières et territoire dans le maghreb de la fin du Moyen Age: Les marches occidentales du sultanat hafside, Correspondances, (pp 3-8), tunis, 2003, p 6.

² ينظر: العمري، ج 4، مصدر سابق، ص 79. - العيد غزالة، "مساهمة العنصر الأندلسي في الجيش الحفصي"، مجلة قيس للدراسات الإنسانية والاجتماعية، مج 3، ع 1، (من ص 53 إلى ص 75)، الجزائر، جوان 2019، ص 57.

³ روبر بارونشفيك، ج 2، مرجع سابق، ص 75.

1. 3. 1 عناصر الجيش الحفصي:

تألف الجيش الحفصي من جند ملكي وهو حرس خاص بالسلطان تضم فرقا من الفرسان (الخيالة)،¹ كانوا في الغالب من العناصر النصرانية ومعظم هؤلاء الجنود جاؤوا من شبه الجزيرة الإيبيرية أو إيطاليا، واستقروا في منطقة ربض النصارى إلى جانب التجار الجنوبيين والبنادقة والقطلونيين،² مهمتهم الأساسية هي "حراسة السلطان يقال لهم (العلوج) لا يطمئن إلا إليهم"،³ يرافقون السلطان في جميع تحركاته سواء داخل المدينة أو خارجها، وقد بلغ عددهم في نهاية القرن التاسع الهجري حوالي ألف وخمسمائة فارس (1500 فارس).⁴

أشار روبر بارونشفيك إلى وجود نوعين من الجنود النصارى: نوع من المرتزقة وآخر يشكل فئة خاصة من الأحرار الذين تمسكوا بعقيدتهم، وعليه كان معظمهم من المعتنقين الجدد للإسلام أو من الرقيق المحررين، كما اعتمد السلطان أبو زكريا على عدد من العبيد القدامى من أصول أوروبية كان لهم دور بارز في الحراسة الملكية،⁵ أما فرقة المشاة، فقد كانت متنوعة في عناصرها وشهدت تغييرات على مدار الزمن، وكانت تتألف بشكل أساسي من الزنوج -أعدادهم كانت قليلة- إلى جانب سكان العاصمة، والجدير بالذكر أن القبائل المستقرة في المناطق الطرابلسية والتونسية غالبا ما كانت تؤدي أدوارا ثانوية في الجيش الحفصي،⁶ ضمت فرقة المشاة أيضا مهاجرين أندلسيين،⁷ تنوعت أدوارهم بين فرسان ومقاتلين ورماة وكان لهؤلاء مشاركة فعالة في

¹ أحمد بن عامر، مرجع سابق، ص 38.

² **ينظر:** حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 74. - روبر بارونشفيك، ج 2، مرجع سابق، ص 81.

³ العمري، ج 4، مصدر سابق، ص 75.

⁴ **ينظر:** حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 80. Mikel de Epalz. Attitudes politiques du tunis. 80. dans le conflit entre Aragonais et français en Sicile de 1282.(Estratto da : XI congresso di storia della corona d aragona sul tema). Palermo -Trapaon- Erice. Accademia di scienze lettere e arti Palermo 1983. P 590.

⁵ روبر بارونشفيك، ج 2، مرجع سابق، ص 81.

⁶ **ينظر:** روبر بارونشفيك، ج 2، نفس المرجع سابق، ص ص 75-80. - أحمد بن عامر، مرجع سابق، ص 38.

⁷ **ينظر:** العمري، ج 4، مصدر سابق، ص 75. - أحمد بن عامر، مرجع سابق، ص 38.

الحملة العسكرية بما في ذلك الحملة الصليبية التي قادها الفرنسيون على تونس سنة (668هـ/1270م).¹

إلى جانب هؤلاء كان هناك جنود من الأغزاز والأتراك،² إلا أن تأثيرهم في إفريقية ظل غير واضح، ويرجح برونشفيك أن ذلك يعود إلى اندماجهم مع الجنود الشرقيين الذين تم استقدامهم من قبل السلاطين،³ ولقد تم شراء نحو ألف فارس من المماليك الأتراك من مصر كما وقد وصلت إلى إفريقية أيضا فرق من الجنود المصريين نتيجة لفرارهم من بلادهم،⁴ في الفترة الأخيرة من الدولة الحفصية، اعتمد الجنود الأتراك على استخدام البنادق وكانوا دائما يرافقون السلطان أثناء ركوبه سواء داخل المدينة أو خارجها مسلحين بأقواس أو بنادق،⁵ وجميع هؤلاء مأجرون وكانت لهم حظوة خاصة في البلاط ويرتدون زيا خاصا يعرفون بعبيد المخزن، يقطنون بمحلات متجمعة.⁶

تألف الجيش النظامي في الدولة الحفصية من وحدات المشاة والفرسان والرماة،⁷ ضمت الموحيدين وعناصر عربية وبربرية، تم تجنيد هؤلاء من طرف قبائلهم مقابل الإعفاء من الضرائب أو منحها أراضي بنظام الإقطاع أو مقابل أجور محددة لبعض القبائل مثل المرنجسية أجبرت على التجنيد الإجباري،⁸ وقد لجأ أبو زكريا يحيى إلى استدعاء قبيلة هواة المستوطنة في تونس الوسطى

¹ ينظر: ابن الشماخ، مصدر سابق، ص ص 72 - 73. - العيد غزالة، مرجع سابق، ص 57.

² العمري، ج 4، مصدر سابق، ص 79.

³ روبر برونشفيك، ج 2، مرجع سابق، ص 80.

⁴ العمري، ج 4، مصدر سابق، ص ص 75 - 79.

⁵ حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص ص 80 - 81.

⁶ أحمد بن عامر، مرجع سابق، ص 38.

⁷ ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 73.

⁸ أحمد بن عامر، مرجع سابق، ص ص 38 - 39.

لتقديم وحدات عسكرية في إطار استراتيجية لاحتواء نفوذهم بعد صعوبة إخضاعهم في البداية،¹ اندمجت هذه القبيلة في النظام العسكري للدولة وساهمت في حروب أبي زكريا ضد بني زيان.²

فيما يتعلق بحفصي بجاية كانت العناصر البربرية تشكل جزءا جوهريا من التكوين العسكري وهذه العناصر المنضافة إليهم مشهورين بالفروسية،³ خاصة من قبائل سدويكش وصنهاجة إذ أصبحت هاته الأخيرة عماد الجيش الحفصي في بجاية خلال القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)، إضافة إلى ذلك انضمت عناصر من قبائل زنانة الجزائرية إلى بني حفص نتيجة عدائها للزيانيين وتمت هذه التحالفات مقابل امتيازات منحها لهم الحفصيون.⁴

وفي عام (640هـ/1243م) انضمت قبيلة توجين بقيادة محمد بن عبد القوي التوجيني إلى أبي زكريا الحفصي،⁵ منحت خلالها القبيلة هدايا وإقطاعات في مناطق مثل الحضنة والزاب مما عزز مكانتها داخل النظام الحفصي، وبعد خمسة عشر عاما انتقلت القبيلة إلى قسنطينة حيث حصلت على إقطاعات إضافية واستمرت في تقديم الخدمات العسكرية حتى تم إجلاؤها مما دفعها للانتقال إلى تونس والانخراط كقوة رئيسية في الجيش الحفصي.⁶

تعد قبيلة مغراوة إحدى قبائل زناتة التي تم اعتقالها من قبل الداعي الفضل عند دخوله تونس في (681هـ/1283م)،⁷ بعد ذلك انضم راشد بن محمد بن علي من بني زيان إلى جيش أبي البقاء في بجاية عام (706هـ/1307م)، مما عزز التحالف بين القبائل البربرية وصنهاجة

¹ كانت تدفع مال معلوم للسلطة الحفصية. **ينظر:** ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 76.

² **ينظر:** يحيى ابن خلدون، مصدر سابق، مج 1، ص 112. - زهيرة لكحل، قادة سبع، "دور قبائل المغرب الأوسط في الصراع بين دول المغرب خلال القرنين (7-8هـ/ 13م-14م) قبيلة بني توجين أنموذجا"، مجلة عصور جديدة، مج 10، ع 1، (من ص 140 إلى 153)، الجزائر، مارس 2020، ص ص 144-145.

³ العمري، ج 4، مصدر سابق، ص 79.

⁴ روبر بارونشفيك، ج 2، مرجع سابق، ص 77.

⁵ **ينظر:** التتسي، مصدر سابق، ص 127. - محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 142.

⁶ روبر بارونشفيك، ج 2، مرجع سابق، ص 77.

⁷ ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 77.

وساهمت هذه القوات في انتصارات أبي البقاء بما في ذلك السيطرة على تونس، ورغم ذلك تصاعدت التوترات بين الجند مما أدى إلى انسحاب بعض القبائل.¹

أثناء حملة أبي زكريا على تلمسان انضمت قبائل مغراوة إلى القوات الحفصية،² كما انضمت شخصيات بارزة من الأسر الزيانية إلى الحفصيين مثل أبو عبد الله بن قندوز الذي التحق بأبي زكريا مع أنصاره من بني قمي، أيضا انضم عمر بن رحو من فاس إلى الجيش الحفصي بعد طرده من الأندلس وأثبت كفاءته العسكرية واستمرت ذريته في الخدمة،³ ومن ضمن المشاركات المرينية في الجيش الحفصي إرسال أبو الحسن المريني قواته بحرا لدعم صهره في حربه ضد أبي تاشفين.⁴

لعبت العناصر العربية دورا فعالا في الجيش الحفصي خاصة بعد تراجع سلطة الموحدين في إفريقية خلال أواخر القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، ومن أبرز القبائل التي ساهمت عسكريا: الذواودة، الكعوب وبني حكيم، ورغم تمرد بعض القبائل حافظت هذه الفصائل على دورها المحوري في حماية الدولة من التهديدات،⁵ ومن القبائل العربية التي شاركت أبو زكريا في حربه ضد يغمراسن سنة (640هـ/1243م): عرب رياح وسليم،⁶ وانخرطت قبائل: عرب السويد، بنو يعقوب، الذواودة وبنو عامر المتوطنين بالمغرب الأوسط سنة (866هـ/1462م) ضمن جيش بني حفص للمشاركة معهم في حربهم ضد بني زيان،⁷ وكررت عرب بني عامر وبني سويد

¹ روبر بارونشفيك، ج 2، مرجع سابق، ص 77.

² **ينظر:** التتسي، مصدر سابق، ص 127. -عبد العزيز فيلاي، ج 1، مرجع سابق، ص 17.

³ روبر بارونشفيك، ج 2، مرجع سابق، ص 78.

⁴ **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 147. -التتسي، مصدر سابق، ص 155. - عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى الزياني (حياته واثاره)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974، ص ص 20-21.

⁵ **ينظر:** روبر بارونشفيك، ج 2، مرجع سابق، ص 78. -شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص 188.

⁶ محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 142.

⁷ **ينظر:** الزركشي، مصدر سابق، ص 153. -روبار برونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص 291.

ذلك سنة (870هـ/1466م)، وواصلت عرب ذواودة تواجدها ضمن الجيوش الحفصية وشاركتها في شن الغارات على الدولة الزيانية من ذلك حملة سنة (871هـ/1467م).¹

كان لكل فئة من الجيش مزوار يتولى إدارة شؤونهم كما قسم الجيش إلى طبقات تشمل: أشياخ كبار، أشياخ صغار، الوقافين، عامة الجند والوقافون بدورهم ينقسمون إلى وقافين كبار وصغار يسكنون القلعة ويقفون بجوار السلطان، وقد رجحت الدراسات أن الجيش الحفصي ضعف أمام التهديدات الخارجية في مراحل لاحقة يعود إلى عدم تجانس عناصره البشرية واختلاف خصائصهم العرقية والجغرافية والدينية والاجتماعية.²

1. 3. 2 أسلحة الجيش الحفصي ومعداته:

كانت أسلحة الجيش الحفصي عديدة ومتنوعة لكنها تقليدية على عكس المعدات الحربية التي ملكتها الجيوش المرينية، من هذه الأسلحة: السيوف، الرماح، النبال والخناجر (أقدم سلاح مستعمل) والصفائح والدبابيس،³ وكان بعض القواد يحملون الدروع المعدنية والبيضات المصنوعة من المعدن وهي كلها أسلحة مستوردة في أغلب الأحيان، والدرع في الغالب يكون مصنوع من الجلد يدعى الدرعة.⁴

أما المكاحل والمدافع لم تظهر إلا في الفترات الأخيرة،⁵ على الرغم من أنه تم استعمالها أثناء حصار بني مرين لسجلماسة خلال القرن السابع للهجري،⁶ كما استعملوا الحجارة الثقيلة كتقنية

¹ الزركشي، مصدر سابق، ص 157.

² ينظر: روبر برونشفيك، ج 2، مرجع سابق، ص 82. - أحمد بن عامر، مرجع سابق، ص 37.

³ أحمد بن عامر، مرجع سابق، ص 37.

⁴ روبر برونشفيك، ج 2، مرجع سابق، ص 84.

⁵ أحمد بن عامر، مرجع سابق، ص 37.

⁶ روبر برونشفيك، ج 2، مرجع سابق، ص 84.

لإعاقة حركة العدو نحو المدينة،¹ وكان للجيش الحفصي فرقة تعرف بأصحاب النفير مهمتهم دق الطبول، والنفخ في الأبواق.²

1. 3. البحرية:

كانا شكل سواحل إفريقية وموقعها الجغرافي ملائمين مبدئياً لظهور واستعمال الأسطول الحربي، وقد كانت أهم الموانئ مثل تونس وبجاية مجهزة بترسخانات لصنع السفن ودور الصناعة،³ من ذلك قول حسن الوزان عن ميناء بجاية: "يسلحون العديد من السفن الحربية المختلفة ويرسلونها لغزو شواطئ إسبانيا".⁴

على الرغم من مكانة قائد البحر المهمة في إفريقية إلا أن رتبته أقل من رتبة قائد الجيش البري، ولقد كان استعمال الأسطول موجه للهجوم على بعض موانئ المغرب لاسترجاعها مثل استرجاع مدينة جربة،⁵ أو التصدي لهجمات الأوربيين من ذلك هجمات الفرنسيين على مدينة تونس سنة (647هـ/1250) أو ضم بعض المدن إلى نطاق ملكهم مثل الهجمات الموجهة ضد الجزائر،⁶ فبعد الحاق حفصبي بجاية هذه المدينة إلى نطاق ملكهم تحول أهالي هذه المدينة إلى قراصنة بعد صناعتهم للسفن وتسليحها.⁷

¹ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، ج 6، العبر...، مصدر سابق، ص 529. -ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية...، مصدر سابق، ص 162.

² أحمد بن عامر، مرجع سابق، ص 39.

³ روبر بارونشفيك، ج 2، مرجع سابق، ص 94.

⁴ حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 50.

⁵ ينظر: علي بن داوود الصيرفي (ت 900هـ)، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان (825/842هـ)، تح وتع حسن حبشي، مطبعة دار الكتب والوثائق التاريخية، ج 3، مصر، 1973، ص 179. -حسام صلاح، "الجيش الزياني ودوره في مواجهة التحديات الداخلية والخارجية، (633 - 962هـ/1235 - 1555م)"، مجلة الدراسات التاريخية العسكرية، مج 2، ع 4، (من ص 51 إلى ص 67)، الجزائر، جويلية 2020، ص 55.

⁶ روبر بارونشفيك، ج 2، مرجع سابق، ص 95.

⁷ حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 38.

إلى جانب ذلك توجهت خدمات الاسطول الحفصي إلى تقديم الإمدادات للأندلس، من ذلك ما قام به أبو زكريا الحفصي إزاء مسلمي الأندلس ومساعدات أبي بكر الحفصي للمرينين بغية صد هجمات النصارى الإسبانيين.¹

وعليه فقد امتلكت الدولة الحفصية أسطولاً بحرياً قوياً تمكن من حماية البلاد وحراسة ثغورها من المخاطر الخارجية لاسيما الفرنسيين، وبفضل ذلك عظم شأن الدولة وحظي أمرائها وولاةها الأولين بعز ونفوذ لم يتسنى للمتأخرين.²

1. 4 أسباب سقوط الدولة الحفصية:

أدت جملة من الأسباب إلى سقوط دولة بني حفص، من بين هاته الأسباب:

1. 4. 1 النزاع على السلطة:

واجهت الدولة الحفصية صراعاً مريراً على السلطة بين أفراد الأسرة الحاكمة، مما فتح الباب للتدخلات الخارجية في الشؤون الداخلية، فأدى هذا النزاع إلى تقسيم الدولة وانهيار بعض أجزائها ودخولهم تحت سيطرة القوى الأوروبية،³ من أبرز أمثلة هذا الانقسام ما حدث خلال حكم أبي حفص عمر بن أبي زكريا،⁴ حيث تمرد عليه ابن عمه يحيى بن إبراهيم في الجزائر معتمداً على دعم القبائل العربية التي التفت حوله في مناطق بجاية، قسنطينة وبسكرة،⁵ ونتيجة لهذا التمرد انقسمت الدولة إلى قسمين: شرقي وغربي، حيث استقر أبو حفص في تونس، بينما سيطر ابن عمه على بجاية، وظل هذا الانقسام قائماً حتى وفاة أبي حفص عمر في عام (694هـ/1295م).⁶

¹ روبر بارونشفيك، ج 2، مرجع سابق، ص 95.

² أحمد بن عامر، مرجع سابق، ص ص 39 - 40.

³ عبد الفتاح مقلد الغنيمي، ج 5، مرجع سابق، ص 78.

⁴ يلقب بالمستنصر الثاني، انتصب سلطاناً على الدولة سنة (683هـ/1285م). ينظر: ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية...، مصدر سابق، ص 146.

⁵ حسن حسني عبد الوهاب، مرجع سابق، ص 111.

⁶ ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 82.

وعندما تولى أبي البقاء خالد الحكم حاول إعادة توحيد الدولة بالقوة العسكرية بعد فشله في تحقيق ذلك بالطرق السلمية،¹ غير أن عهده لم يدم طويلا بسبب تغلغله في الملذات وممارسته القمع الشديد على السكان، إلى جانب اغتياله لعدد من زعماء القبائل مثل عدوان بن المهدي من رجال سدويكش ودعار بن حريز من رجال الأثباج.²

في ظل هذه الظروف برز منافسون على الحكم من بينهم يحي بن خالد ابن السلطان أبي إسحاق إبراهيم، الذي تمرد على أبي البقاء وأعلن نفسه خليفة للدولة تحت لقب المتوكل على الله ستة (1311هـ/711م)،³ وسعى يحي لفرض سيطرته على بجاية باعتبارها مركز القوة الحفصية الغربية في فترة الانقسام، لكن والي بجاية عبد الرحمان بن يعقوب بن مخلوف الصنهاجي رفض الخضوع له بفضل نفوذه وقوة شخصيته.⁴

في خضم النزاع على العرش بين الأخوين ظهر زكريا بن أحمد بن اللحياني كمنافس آخر يطمح إلى السلطة في القسم الشرقي من إفريقية، واستطاع زكريا شيخ الموحدين السابق في عهد الخليفة أبي عصيدة أن يجتذب ولاء القبائل وعلى رأسهم أولاد أبي الليل، وبعد عودته من الحج واستقراره في طرابلس التف حوله عدد من القبائل وقاد جيشا نحو تونس حيث بعث قوات أولاد أبي الليل بقيادة الشيخ أبي عبد الله المزديوي وحاصروا العاصمة في جمادى الأولى من سنة (1312هـ/711م)، وفي مواجهة هذا الحصار تخلى أبي البقاء عن الدفاع مدعيا المرض،⁵ وخلع

¹ روبر بارونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص 158.

² عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 471.

³ محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 314.

⁴ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 473.

⁵ ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 85. ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص

475. -محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص ص 316 - 318.

نفسه عن الحكم مما سمح لأبي عبد الله المزديوي بالدخول إلى القصر وانتهى الأمر بقتل أبي البقاء،¹ وتولى أبو يحيى الحكم بعد مبايعة الناس له.²

وفي سنة (747هـ/1347م) اندلعت من جديد اضطرابات داخل الأسرة الحفصية بعد وفاة السلطان أبي بكر الحفصي، حيث خطط أبناءه للانقلاب على أخيه ولي العهد أبي العباس أحمد، مما أدى إلى تفاقم الصراعات الداخلية وتدهور أوضاع الدولة.³

¹ أورد الزركشي أنه بعد حصار حضرته فر هو وأصحابه من باب الجزيرة لكن جنود اللحياني تمكنوا منه، وقبضوا عليه ثم وجه به وأخيه في البحر فصفت بهما الريح وغرقا وكانت مدته سنة وتسعة أشهر. **ينظر:** الزركشي، مصدر سابق، ص 124.

² ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 85. **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 475. -روبار برونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص ص 159 - 160، -محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص ص 316 - 318.

³ الشماخ، مصدر سابق، ص 24.

1. 4. 2 الفتن والتمردات:

ظهرت هذه النزعة بأشكال مختلفة خاصة في الفترات التي كان السلاطين يعانون فيها من اضطرابات داخل نطاق المناطق الخاضعة للسلطة الحفصية، وبدأت بوادر الضعف تظهر على الدولة، حيث شهدت هذه المرحلة محاولات عدة قام بها الولاة بغية الانفصال بأقاليمهم عن السلطة المركزية وما رافق ذلك من تمردات داخلية قادتها بعض القبائل المناوئة للحكم، منها حركات التمرد التي طالت عهد السلطان أبي بكر الحفصي في السنوات الأربع الأولى بسبب الاضطراب الداخلي والغزوات الخارجية، وتحصلت المناطق الجنوبية على درجة كبيرة من الاستقلالية ففي بسكرة عاصمة الزاب خضع بني مزني في الأمر لسلطة أبي بكر، ولكن سرعان ما توجه زعيمهم نحو بني زيان للاعتراف بتبعية لهم حقدا على وزراء بني حفص، وسار على منواله ابنه عبد الواحد الذي خلفه سنة (729هـ / 1329م).¹

كانت تتمتع المدن الواقعة في الجنوب التونسي وفي الجنوب الشرقي لقسنطينة باستقلال على نطاق أوسع كلما أتاحت لهم الفرصة، أما توزر أقام بني يملول أحمد وولده يحيى ومحمد الواحد تلو الآخر نظاما شبه إستبدادي في كنف المؤامرات والاغتيالات.²

كانت طرابلس ساحة للعديد من الثورات والتمردات،³ والانتفاضات ضد الحكم الحفصي حيث تعاضم نفوذ شيوخ وقضاة ورجال الدين بمنطقة طرابلس خاصة بعد الاستيلاء المريني الأخير، ففي سنة (833هـ / 1429م) بعث قائد طرابلس نبيل بن أبي قطابة برأس الوالي ابن سانونة، ومن نفس السنة توفي محمد المنصور ابن السلطان الحفصي ونقل نعشه إلى حاضرة تونس، وهنا يذكر إيتوري روسي أن طرابلس خلال القرن التاسع للهجري أصبحت تخضع لحكم ذاتي وأصبح لها مجلس شورى يترأسه شيخ.⁴

¹ روبر بارونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص ص 180-182.

² نفس المرجع، نفس الصفحة.

³ على الرغم من هذه الثورات والانتفاضات إلا أنها ظلت تابعة لبني حفص ولم تتفصل عنهم إلا خلال حصار أبو الحسن المريني لإفريقية، وابنه أبو العنان من بعده. ينظر: حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص ص 99-100.

⁴ إيتوري روسي، ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911م، ترج وتق خليفة محمد التليسي، الدار العربية للكتاب، ط2، الإسكندرية، مصر، 1991، ص ص 145-146.

في سنة (861هـ/1456م) قام المنتصر بإرسال جيش لإزاحة القائد ظافر بعد إنتفاضة أهل طرابلس وتتصيب رضوان محله وفي آخر سنة (862هـ/1457م) أقدم السلطان أبو النصر ابن جاء الخير قائدا على طرابلس،¹ وفي سنة (864هـ/1460م) عرفت المدينة إحدى أخطر الثورات المحلية ضد السلطنة الحفصية، إذ قام أهالي طرابلس بالتمرد على الوالي الحفصي وطرده من المدينة التي أعلن أهلها انفصالهم نهائيا عن الدولة الحفصية وعينوا الشيخ سيدي منصور واليا عليها مقدمين له جميع خراج طرابلس وبيت مالها²

وجه السلطان الحفصي عساكره إليهم مجددا لكن تمكن من هزيمتهم سيدي منصور،³ وآخر محاولة قام بها سلاطين بني حفص لاستعادة النفوذ بطرابلس هي التي قام بها السلطان أبي زكريا الثالث بن مسعود،⁴ وانتهى المطاف بمدينة طرابلس تحت قبضة الملك الكاثوليكي فريناند وكننت هذه المدينة قد خربت إثر احتلال المسيحيين لها.⁵

من أكثر القبائل التي كانت دائما ما تثير الشغب وتعت فسادا وتتمرد عن سلاطين بني حفص وتساعد المنافسين للسلطة هي القبائل العربية، ومثال ذلك تمرد بعض القبائل العربية في عهد السلطان أبو العباس أحمد لأنه انتزع ما بأيديهم من الأمصار،⁶ كما وقد جمعت بين القبائل العربية وسلاطين بني حفص حروب عدة ففي سنة (839هـ/1435م) خرج السلطان أبي عمر عثمان بعساكره لحربه مع عرب أولاد أبي الليل، وحين تمكن منهم ثار عليه أولاد مهلهل، وجمعت

¹ الزركشي، مصدر سابق، ص ص 150 - 151.

² حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 100.

³ ترجع تفاصيل هاته التمردات التي قام بها أهالي طرابلس إلى خلاف عائلتين نبيلتين ففي سنة (684هـ/1286م) شهدت طرابلس حفل زفاف لم يسجله التاريخ من قبل حيث زفت ابنة مامي شريف إلى ابن مصطفى بن أحمد أحد التجار الكبار بالمدينة ولم يدم الفرح طويلا لأن العريس رد العروسة، بدعوى منه أنها ليست بكر وردها لبيت أبيها وبتصرفه هذا جر البلاد كلها إلى فتنة إشتعلت نيرانها في الحضرة وإنقسمت البلاد إلى طائفتين ورفع سكان البلاد السلاح وتكبد الطرفان خسائر جسام في الأرواح وكان هذا مبدأ القلق وقام أعيان طرابلس بمبايعة الشيخ سيدي منصور لأنه سعى في إخماد هاته الفتنة. ينظر: عمر محمد الباروني، الإسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس، مطبعة ماجي، طرابلس، ليبيا، 1952. ص ص 10 - 11.

⁴ إيتوري روسي، مرجع سابق، ص 148.

⁵ حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 101.

⁶ ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 110.

بينهم أيضا معركة ففي سنة (1482/886م) قاموا بالحرب عليه عرب أولاد مسكين، أولاد يعقوب والشنانفة من أولاد مهلهل ومن انضم إليهم من قبائل العرب لمحاربته، وكانت حجة تلك الحركة أنه لم يهبهم بما وعدهم به من أموال وعطايا ومساعدات، ونتيجة لذلك عزم على مجابتهم لكنهم فروا قبل أن يتم ذلك خوفا.¹

1. 4. 3 الأخطار الخارجية (الخطر الإسباني والعثماني):

شهدت الدولة الحفصية في أواخر عهدها تدهورا ملحوظا نتيجة لضعف الإدارة وانشغال الخلفاء المتأخرين بملذاتهم الشخصية مما أدى إلى تفكك السلطة المركزية، إضافة إلى ذلك امتنعت القبائل البربرية والعربية من دفع المغارم، مما أسهم في إضعاف الخزينة وعدم القدرة على مواجهة التحديات الداخلية والخارجية، وهذا الفراغ في السلطة جعل الدولة تواجه تهديدات من القوى الأوروبية وخاصة إسبانيا من الغرب وكذلك العثمانيين من الشرق.²

استولت القوات الإسبانية على مدينة وهران سنة (916هـ/1509م)³ ثم توالى سيطرتهم على بجاية وطرابلس، وبقيت تلك المدن تحت الاحتلال حتى سنة (958هـ/1551م) وعندما تمكن العثمانيون من استعادتها،⁴ بعد وفاة السلطان محمد بن الحسن خلفه ابنه الحسن الذي كان مكروها من شعبه بسبب سوء سمعته (متطرف مع أسرته)،⁵ مما دفع بعضهم إلى الدعوة لتصيب أخيه الرشيد بدلا منه فاستغل خير الدين باشا هذا الصراع الداخلي لصالحه وتحايل على الوضع السياسي المضطرب، وفي محاولة لمواجهة خير الدين تحالف الحسن مع بعض القبائل العربية لكنه باء بقتل نحو ألف وثلاثمائة عثماني مقيم بتونس (1300 عثماني) ثم فر إلى إسبانيا، ردا على ذلك

¹ ينظر: الزركشي، مصدر سابق، ص 137 - 153. محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 637 - 638.

² مبارك بن محمد الملي، ج 2، مرجع سابق، ص 413.

³ حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 31.

⁴ حسن حسني عبد الوهاب، مرجع سابق، ص 126.

⁵ مارمول كربخال، إفريقيا، تر محمد حجي، محمد زبير، محمد الأخضر، أحمد توفيق، أحمد بنجلون، دار النشر والمعرفة، ج 3، الرباط، المغرب، 1998، ص 39.

قاد خير الدين حملة عسكرية ضد المدينة وألحق بها دمارا كبيرا باستخدام المدافع، وعندما شاهد أهل تونس الخراب الذي حل بمدينتهم استسلموا ودخلوا تحت حكم العثمانيين.¹

بعد سيطرته على تونس غادرها خير الدين لمواصلة حملاته ضد الإسبان وترك إدارة القلعة لقائده جعفر آغا، في تلك الأثناء كان بالقلعة عدد من الأسرى الأوروبيين الذين استغلوا الفرصة للتمرد والسيطرة عليها مما مهد الطريق للقوات الإسبانية لدخول المدينة.²

وفي سنة (940هـ/1533م) قام الإسبان ببناء معقل في حلق الوادي، كما أنشأوا مدينة مسورة هناك ومن أبرز الجرائم التي ارتكبها الإسبان خلال احتلالهم لتونس كانت مهاجمتهم لجامع الزيتونة، حيث نهبوا المكتبة العبدلية واستولوا على العديد من المخطوطات النفيسة.³

لم يدم الاحتلال الإسباني دون مقاومة حيث قاد رجل يدعى حميدة تمردا ضدهم واستطاع هو ومن معه من زعماء العرب إلحاق الضرر بالقوات الإسبانية، في هذا السياق تم القبض على السلطان الحسن، وفي مرحلة لاحقة نصب الإسبان أخاه محمد بن الحسن حاكما مكانه، لكنه لم يستطع الحفاظ على السلطة طويلا، ففي عام (982هـ/1575م) استعاد السلطان العثماني سليم خان تونس من الإسبان وتمكن من قتل الجنود المحتلين وأسر مولاي محمد بن الحسن، الذي كان آخر حكام بني حفص.⁴

بموته انتهت الدولة الحفصية التي حكمت المغرب الأدنى لأكثر من ثلاثة قرون ونصف.⁵

¹ ينظر: أحمد بن يوسف القرماني (ت1019هـ)، أخبار الدول وأثار الأول في التاريخ، در ونح أحمد حطيط وفهمي سعد، عالم الكتب، مج 2، ط 1، بيروت، لبنان، 1996، ص ص 414-415. -حسن حسني عبد الوهاب، مرجع سابق، ص 126.

² القرماني، مصدر سابق، ص 416.

³ مارمول كريخال، ج 3، مصدر سابق، ص 33.

⁴ القرماني، مصدر سابق، ص ص 416-418.

⁵ حسن حسني عبد الوهاب، مرجع سابق، ص 131.

2. قيام الدولة الزيانية

لم يكن لتراجع دولة الموحدين الأثر السلبي على قبائل بني عبد الواد بل شكل نقطة تحول في تاريخهم السياسي، حيث استطاعوا بفضل قائد ذو رؤية وحنكة سياسية استغلال حالة الفراغ السياسي وتأسيس دولة مستقلة، كما تمكنت هذه الدولة التي عرفت بدولة بني عبد الواد في بادئ الأمر ثم الدولة الزيانية لاحقا من البقاء لمدة من ثلاثة قرون مستفيدة من موقعها الاستراتيجي وعناصر قوتها العسكرية والتنظيمية، ومع ذلك لم تكن هذه الدولة بمنأى عن التحديات الداخلية والخارجية التي أدت لاحقا إلى سقوطها.

وفيما يلي سيتم استعراض الأصول القبلية لبني عبد الواد والظروف التي ساعدت على قيام دولتهم المستقلة، ضف إلى ذلك تقديم صورة عامة عن التنظيمات العسكرية لهاته الدولة، وعرض أسباب سقوطها لاحقا.

2. 1 أصل بني عبد الواد:¹

بني عبد الواد فرع من فروع الطبقة الثانية من قبيلة زناتة البربرية،² أرجعت بعض المصادر أصلهم إلى العرب من ذلك مؤرخ البلاط الزياني يحيى ابن خلدون: "من ولد شجيج بن واسين بنت يصلتين بن مسرى بن زاكيا بن ورسيج بن مادغيس الأبتري ابن بر بن قيس عيلان بن

¹ بني عبد الواد أصلها عابد الوادي، وهي صفة لجدهم عرف بها لتعبده بواد، بقيت دولة بني عبد الواد تعرف بهذا الاسم إلى أن غيرها السلطان أبو حمو موسى الثاني إلى: الدولة الزيانية (632هـ - 962هـ/1230م - 1555م)، نسبة إلى زيان والد يغمراسن، اعتنق بني عبد الواد الإسلام مبكرا وهذا لمشاركتهم مع جيش عقبة بن نافع الفهري سنة (62هـ/682م) أثناء حملته الثانية بالمغرب الأوسط والأقصى. ينظر: يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص ص 95-96. -حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 7. -عبد الفتاح مقلد الغنيمي، ج 5، مرجع سابق، ص 107.

² البربر: أطلقها الرومان على السكان الأوائل لبلاد المغرب، بعد أن ورثوا معناها على اليونان، يقال إن مصدرها الأول هي الكلمة اليونانية فارافاروس varavaros وتعني اللغظ وتداخل الأصوات في الكلام وبهذا هم ينعتون بها كل اللذين لا يتكلمون لغتهم واخلف النسابون في ذكر أصل البربر. ينظر: بوزياني الدراجي، القبائل الأمازيغية، (أدوارها - مواطنها - أعيانها)، دار الكتاب العربي، ج 1، الجزائر، 2007، ص ص 15-16.

مضر بن نزار بن معد بن عدنان فيما نهى إلى علمه... يجتمع نسبهم ونسب فرعاتهم بني مريـن وشعبهم".¹

وبر بن قيس بن عيلان جد زناتة عربي تزوج ابنة عمه البهاء بنت دهمان بن عيلان أنجبت له ولدان مادغيس وعلوان مات هذا الأخير صغيراً، ومادغيس كان يلقب بالأبتر وهو أبو البتر من زناتة وإليه يرفعون أنسابهم ومن ولده جميع قبائل زناتة،² وفي ذلك يقول أحد أبناء مادغيس:³

أيها السائل عن أنسابنا قيس عيلان بنى العز الأول
نحن ها نحن بنو بر الندى طارد الأزمت نحر الإبل
على النقيض نفى علي ابن حزم الأندلسي (ت 456هـ/1063م) صحة هذا الادعاء حيث أكد أنهم: "من بقايا ولد حام بن نوح عليه السلام، وادعت طوائف منهم إلى اليمن إلى حمير، وبعضهم إلى بر بن قيس عيلان، وهذا باطل، لا شك فيه، وما علم النسابون لقيس عيلان ابناً اسمه بر أصلاً، ولا كان لحمير طريق إلى بلاد البربر إلا من تكاذيب مؤرخي اليمن".⁴

بينما ربط بعض المؤرخين نسب بني عبد الواد وأجدادهم مع بنو قاسم بآل إدريس العلويين الذين حكموا المغرب الأوسط وحجتهم هو أن بعد هزيمة الحسن بن فنون بن محمد بن القاسم بن إدريس آخر ملوك الأدارسة أمام جيش المنصور بن أبي عامر وقتله سنة (375هـ/985م) تفرق بناؤه انتقل القاسم إلى قبيلة بني عبد الواد واستقر بينهم حيث تزوج منهم وأنجب ذرية، يقول يحي ابن خلدون في هذا الشأن: "فتزوج فيهم ونسل بينهم ذرية صالحة كثيرة واستشعروا زيهـم وتخلفوا بشجاعتهم ثم اختاروا إمارتهم بتوارثها خلفهم عن سلفهم ويتناص بهم القبيل وعرفوا بركتهم فلم ينازعهم في ذلك أحد منهم وما زالوا ينتمون عدداً ويفترقون فصائل وبطونا وكانت شيعتهم

¹ يحي ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 95.

² ينظر: ابن أبي زرع الفاسي، الذخيرة...، مصدر سابق، 16- إسماعيل ابن الأحمر (807هـ)، روضة النسرین في دولة بني مريـن، المطبعة الملكية، الرباط، المغرب، 1962، ص 9.

³ ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 280.

⁴ ابن حزم الأندلسي (ت 456هـ)، جمهرة أنساب العرب، تح عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، ط 5، القاهرة، مصر، ص 495.

شتى¹، وقد أيدته في ذلك المؤرخ التنسي²، إلا أن عبد الرحمان ابن خلدون رفض هذا النسب، مشيراً إلى أنه "زعماء لا مستند له"³، كما أكد أن رفع نسب بني زيان إلى إدريس لا يستند إلى أساس قوي وقد نقل عن يغمراسن بن زيان مؤسس الدولة، قوله: "إن كان هذا صحيحاً فينفعنا عند الله. وأما الدنيا فإنما نلناها بسيوفنا"⁴.

يبدو أن سلاطين بني زيان لم يولوا اهتماماً كبيراً لهذا النسب في بداية حكمهم، إلا أنهم لجأوا لاحقاً إلى توظيفه لتعزيز شرعيتهم السياسية في الأوقات الحرجة وخاصة خلال فترة حكم أبو حمو موسى الثاني معتمدين على دعم بعض الفقهاء والنسابة⁵، ولم يقتصر بنو عبد الواد على الادعاء بالنسب إلى آل إدريس بل سعت قياداتهم إلى توطيد علاقتهم بالعلويين إذ كانت لهم قرية قرب تلمسان تعرف بقرية العلويين، كما عززوا هذه الصلة من خلال الزواج بين سلالاتهم وسلالة الشريف العلوي⁶.

من الناحية القبلية انضمت قبيلة بني عبد الواد إلى عدة تحالفات وذكر عبد الرحمان ابن خلدون ست قبائل رئيسة تحالفت مع بني عبد الواد وهي: بنو باتكين، بنو أرلو، بنو رهطف، نصوحة، بنو تومرت وبنو القاسم، وقد قسم بني القاسم إلى عدة بطون من بينها: بنو طاع الله، بنو دلول، بنو كمين، بنو معطي وبنو جوهر⁷.

2. 2 نشأة الدولة الزيانية:

تعتبر قبيلة بني عبد الواد من القبائل البدوية التي كانت تجوب الصحراء في مناطق المغرب الأوسط منتقلة بين المراعي الخصبة في مناطق فجيح، مديونة وجبل راشد، وفي عهد المرابطين اضطرت القبيلة إلى الانتقال نحو غرب المغرب الأوسط نتيجة ضغط القبائل الهلالية

¹ يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 101-102.

² التنسي، مصدر سابق، ص 120.

³ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 97.

⁴ نفس المصدر، نفس الصفحة.

⁵ عبد الوهاب بن منصور، قبائل المغرب، المطبعة الملكية، ج 1، الرباط، المغرب، 1968، ص 150.

⁶ عبد الفتاح مقلد الغنيمي، ج 5، مرجع سابق، ص 10.

⁷ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 98.

وعندما وصل الخليفة الموحي عبد المؤمن بن علي بجيشه إلى تلك المناطق واجه مقاومة من قبائل زناتة وعلى رأسها بني عبد الواد،¹ إلا أن بني عبد الواد أدركوا أنهم غير قادرين على مواجهة القوة الموحدية فخرج شيخهم حمامة بن مظهر مع وفد إلى عبد المؤمن أثناء حصاره لمدينة وهران (540هـ/1145م) مقدمين له الطاعة.²

منذ تلك الفترة أصبح بني عبد الواد من أكثر قبائل زناتة ولاء لهم، من صور ذلك استنجد عبد المؤمن بن علي بشيخ بني عبد الواد أبو محمد عبد الحق بن منغفاد لاسترجاع الغنائم التي استولى عليها جيش بني مرين فلبى عبد الحق النداء وتمكن من استعادة الغنائم لبني عبد المؤمن،³ وتقديرا لهذه المساعدة منحهم الموحدون أراضي في منطقة بني يلومي وبني أومانو في نواحي شلف مما مكنهم من الاستقرار في أحواز تلمسان.⁴

وطد بني عبد الواد أقدامهم تدريجيا ومدوا نفوذهم على بلاد المغرب الأوسط، ومع تراجع السلطة المركزية في مراكش وتقلص نفوذ الدولة الموحدية ضعفت سيطرتهم على أقاليم المغرب خاصة المغرب الأوسط، وأسفر عنه ضعف كفاءة الولاة الذين فرضوا ضرائب جديدة غير مشروعة على القبائل، من بين هؤلاء الولاة كان أبو السعيد عثمان والي تلمسان وأخ الخليفة الموحي المأمون، وقد أساء الأول التعامل مع بني عبد الواد.⁵

اعتقل أبو السعيد عثمان بعض مشايخ بني عبد الواد في دار النارج، وتدخل حينها إبراهيم بن إسماعيل ابن علان الصنهاجي اللمتوني طالبا شفاعتهم ولكن أبو السعيد رفض شفاعته، فأتار هذا الرفض غضب إبراهيم الذي قام باعتقال أبي السعيد وأطلق سراح مشايخ بني عبد الواد، كما

¹ عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص ص 14-15.

² **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 74. -مبارك بن محمد الملي، ج 2، مرجع سابق، ص 327.

³ يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 105.

⁴ **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 98. -العزير فيلالي، ج 1، المرجع السابق، ص 15. -عبد الرحمان بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، دار الأمة، ج 2، الجزائر، 2009، ص 205.

⁵ عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 15.

خلع طاعته للموحدين طامحا في إحياء الدولة الممتونية، في محاولة من أبو السعيد للقضاء على جابر بن يوسف ومشايخ بني عبد الواد دعاهم لحضور وليمة في تلمسان بهدف اغتيالهم ولكن الخطة تم كشفها مما أدى إلى اعتقاله، بعد ذلك دخل جابر إلى تلمسان وأعلن ولاءه للموحدين فكتب له الخليفة المأمون ولاية تلمسان والمناطق المحيطة بها، خلالها بادر جابر بجمع قبيلته وتمكن من السيطرة على أحواز تلمسان وبني راشد لكن ندرومة استعصت عليه،¹ فحاصرها سنة (629هـ/1232م) لكنه قتل بسهم خلال الحصار فخلفه بعد ذلك ابنه الحسن الذي سرعان ما تنازل عن ولاية تلمسان لعمه عثمان بن يوسف، وتم عزل عثمان في عام (631هـ/1233م) بسبب سوء حكمه، وتولى مكانه أبو عزة زيدان الذي أطاعه قومه ما عدا بني مطهر وأحلافهم بني راشد وكانت بينهم حروب انتهت بمقتله في معركة خارج تلمسان عام (633هـ/1235م) ليخلفه أخوه يغمراسن.²

بعد وفاة أبي عزة زيدان تراجع نفوذ بني عبد المؤمن على إقليم تلمسان، حيث تمكن يغمراسن بن زيان من تثبيت سيطرته على المنطقة، بعد مبايعته عام (633هـ/1236م) كحاكم مستقل متخذا لقب بالسلطان.³

¹ ينظر: يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 106. -مبارك بن محمد الميلي، ج 2، مرجع سابق، ص 329.

² ينظر: التنسي، مصدر سابق، ص 123. -مبارك بن محمد الميلي، ج 2، مرجع سابق، ص 329. -عبد الرحمان بن محمد الجيلالي، ج 2، مرجع سابق، ص 206.

³ قيل أن زوجة أخيه تولت أمر تلمسان قبله لفترة قصيرة. ينظر: لسان الدين ابن الخطيب (ت776هـ)، اللوحة البدرية في الدولة النصرانية، تص محب الدين الخطيب، المطبعة السلطانية، القاهرة، مصر، 1928، ص 34.

فكانت هذه البداية الأولى لظهور بني عبد الواد كقوة سياسية في المغرب الأوسط،¹ متخذين تلمسان عاصمة لدولتهم،² فأرسل بعد ذلك يغمراسن وفدا إلى الخليفة الموحيدي عبد الواحد الرشيد بن المأمون ليقدم له الطاعة،³ وتأكيدا منه على مساندته في حروبه ضد منافئيه.⁴

¹ ينظر: يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 186. -التتسي، مصدر سابق، ص 123. -عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 16.

² تلمسان: "بكرتين، وسكون الميم، وسين مهملة، وبعضهم يقول تلمسان، بالنون عوض اللام: بالمغرب وهما مدينتان متجاورتان مسورتان، بينهما رمية حجر، أحدهما قديمة والأخرى حديثة، والحديثة اختطها المملثمون ملوك المغرب واسمها تافرزت...." ويقال فيها أيضا (تشان) وهو أيضا مركب من تل ومعناها بال وشان أي لها شأن عظيم، تعتبر أقادير نواة مدينة تلمسان أسسها بنو يفرن الزناتيون في العصور القديمة. أورد حسن الوزان أن مسافة مملكة تلمسان تمتد على نحو ثلاثمائة وثلاثين ميلا من الشرق إلى الغرب، ولا تتعدى خمسة وعشرين ميلا من الشمال إلى الجنوب، وعليه فإن المسافة من الشرق إلى الغرب تبلغ (731500 متر) ومن الشمال إلى الجنوب تبلغ (4125 متر)، وتقع تلمسان فلكيا على خط طول 14.4° ، ودائرة عرض 33.42° ، على ارتفاع 830 متر من سطح البحر. ينظر: ياقوت الحموي، مصدر سابق، مج 2، ص 44. -يحيى ابن خلدون، مصدر سابق، مج 1، ص 9. -عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، مصدر سابق، ج 7، ص 102. -ابن سعيد المغربي، مصدر سابق، ص 140. -حسن الوزان، مصدر سابق، ج 2، ص 7. -حسين تواتي، الوظائف السلطانية في الدولة الزيانية -الكتابة أنموذجا- (633-791هـ/1236-1389م)، إش مبخوت بوداوية، مذكرة ماجستير في التاريخ الحضاري للمغرب الإسلامي، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، (2013-2014)، ص 40-41.

³ أورد التتسي أن الخليفة الموحيدي عبد الواحد الراشيد بعث بهدية ثمينة إلى يغمراسن يطمح من خلالها إبقاءه على طاعة بني عبدالمؤمن لكنه رفض هذا وقطع علاقته بالسلطة المركزية بمراكش، فهم الراشيد بالتحرك نحوه لتأديبه لكن موته كان أسبق وخلفه أخاه السعيد، ولقد استبعد عبد العزيز فيلالي صحة هذا الخبر نتيجة سكوت عبد الرحمان ابن خلدون عن ذكر خبر رفض يغمراسن طاعة الراشيد، بل كان " متحيزا لهم سلما لولاهم وحربا على عدوهم". إضافة إلى ذلك استحالة اتخاذ يغمراسن مثل هذا القرار في بداية حكمه والحاكم الشرعي في تلك الفترة هو الراشيد. ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 107. -التتسي، مصدر سابق، ص 126. -عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 31.

⁴ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 107.

اعتبر أبو زكريا يحيى الحفصي هذا التوجه تهديدا له فقام بمحاولة القضاء على بني عبد الواد سنة (639هـ/1241م)¹، لكنه لم ينجح في تثبيت حكمه في تلمسان مما أدى إلى إعادة تنصيب يغمراسن كوالي عليها بعد توسط والدته سوط النساء.²

في سنة (646هـ/1248م) تحرك الخليفة الموحي أبو السعيد بجيشه نحو تلمسان لتأديب يغمراسن الذي لجأ إلى قلعة تامجزرت، فحاصره أبو السعيد لمدة ثلاثة أيام قبل أن يقتل على يد أحد حراس يغمراسن يوسف بن عبد المؤمن، بعد هذا الانتصار استولى يغمراسن على غنائم أبي السعيد بما في ذلك المصحف العثماني والعديد من المغانم.³

أدى هذا الانتصار إلى تعزيز مكانة يغمراسن وتطلعه للتوسع خارج نطاق المغرب الأوسط ووفقا لرواية عبد الرحمان ابن خلدون أنه نصح ابنه عثمان بعدم مواجهة بني مرين مباشرة بسبب قوة جيوشهم وتفوقهم العددي، مشيرا إلى ضرورة التركيز على توسيع نفوذهم في ممتلكات الموحيين.⁴

كما عزز يغمراسن علاقاته السياسية مع الدولة الحفصية من خلال زواج ابنه أبي السعيد عثمان من ابنة السلطان أبي إسحاق إبراهيم، وخرج موكب العروس بقيادة الأمير أبي عامر إبراهيم بن يغمراسن واستقبله يغمراسن بنفسه عند مليانة إلا أنه توفي في نفس السنة (681هـ/1282م)

¹ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص ص 107-108. -الحميري، مصدر سابق، ص 136.

² ينظر: الزركشي، مصدر سابق، ص 29. -عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، مصدر سابق، ج 7، ص 108. -يحيى ابن خلدون، مصدر سابق، مج 1، ص ص 112-113. -التنسي، مصدر سابق، ص ص 127-128. -عبد العزيز فيلالي، مرجع سابق، ج 1، ص 22.

³ ينظر: ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص ص 256-257. -عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 110. -الزركشي، مصدر سابق، ص 31.

⁴ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 123. -عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 23.

بمنطقة رحيو من وادي الشلف، ودفن في الجامع الأعظم بتلمسان وتولى ابنه أبي السعيد عثمان زمام الحكم.¹

بتولي أبو السعيد عثمان الحكم ومن جاء من بعده استمر بني عبد الواد في بسط نفوذهم في عاصمتهم تلمسان وباقي أحواز المغرب الأوسط مما جعلهم قوة محورية في المنطقة، مشكلين منافسا قويا لبني مرين في المغرب الأوسط وبني حفص في المغرب الأدنى فجمعت بينهم حروبا سجال طول مدة الدولة الزيانية، ولم تنتهي تلك الحروب إلا بالتغلب العثماني والإسباني على بلاد المغرب، وفي الفصول القادمة سنقوم باستعراض مسببات هذه الحروب وأثارها على البنى العمرانية في مجالات المغرب.

2. 3 الجيش الزياني:

تتجلى مهمة الجيش في حراسة الدولة والتصدي للأخطار الخارجية، إضافة إلى دوره في الفتوح وتأمين الأمن الداخلي، وبالتالي فإن مهمة الجيش تتميز بطابع مزدوج (داخلي وخارجي) مما يجعله الركيزة الأساسية للدولة خصوصا تلك التي فرضت سلطتها بقوة السلاح،² إذ بالجيش " تدفع الأعداء وتؤخذ المدن"،³ وهذا ما ينطبق بشكل واضح على دولة بني عبد الواد التي نشأت في ظل القوة العسكرية.⁴

¹ ينظر: التتسي، مصدر سابق، ص ص 138 - 139. - عبد العزيز فيلاي، ج 1، مرجع سابق، ص 24. - عبد الرحمان بن محمد الجيلالي، مرجع سابق، ج 2، ص 218.

² أبو حمو موسى الزياني الثاني (ت791هـ)، واسطة السلوك في سياسة الملوك، تح وتبع محمود بوترة، دار الشيماء للنشر والتوزيع، دار النعمان للطباعة والنشر، الجزائر، 2012، ص 200.

³ شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبي الربيع (ت272هـ)، سلوك المالك في تدبير الممالك، تح عبد العزيز بن فهد بن عبد العزيز آل سعود، دار العاذرية للطباعة والنشر، الدار العربية للموسوعات، الرياض، بيروت، السعودية، لبنان. 2010، ص 171.

⁴ قويدر عباس، الجيش في العهد الزياني، (633-962هـ/1235-1554م)، إش خالد بلعربي، أطروحة دكتوراه في التاريخ الإسلامي، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، (2015/2016)، ص 26.

ولأن القتال أكرم وأسلم،¹ تبنوا الجيش مكانة عالية لذا سلاطين ابني عبد الواد خاصة السلطان أبو حمو موسى الأول الذي عمل على تطوير الجيش وتقويته، باعتباره أداة القوة والسيادة وزاد في عدته وعدده،² ويظهر اهتمام السلاطين المتأخرين بالقوة العسكرية جليا من خلال وصية أبو حمو موسى لابنه: "اعلم يا بني أن الجيش أنصار، وأن بهم تستفح الأمصار، فاحرز جيشك بمالك، فهو أصلح لأحوالك... فبالجيش تنال المقاصد، وتستجلب الفوائد، ويكبت العدو والمعاند، والجيش أبهة الخلافة".³

اعتمدت دولة بني زيان على القوة العسكرية للحد من الحروب الداخلية خاصة مع قبيلتي توجين،⁴ ومغراوة،⁵ اللتين لطالما جمعت بينهما حروب،⁶ ولقد نشأت هذه الحروب الداخلية نتيجة

¹ أبي بكر محمد بن الحسن المرادي (ت 489هـ)، الإشارة في تدبير الإمارة، تح محمد حسن محمد إسماعيل وأحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت، لبنان، 2002، ص 60.

² عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 40.

³ أبو حمو موسى الثاني، مصدر سابق، ص 200.

⁴ **توجين**: موطن بنو توجين بين الصحراء والتل من بلد المرية إلى جبل الونشريس، أي شرقي بني عبد الواد وجنوب مغراوة، ولقد كانت على مشاقة لبني عبد الواد، فأخذت بالدعوة الحفصية لأبو زكريا، وولى عليها عبد القوي ابن العباس من بني منكوش أثنا الاستيلاء الحفصي على ملك بني زيان، وامتنعت توجين على بني زيان طيلة مدة هذا الأخير فكانت بينهما حروبا طوال. **ينظر**: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 116-117. -مبارك بن محمد الملي، ج 2، مرجع سابق، ص ص 472-474.

⁵ **مغراوة**: موطنها بنواحي شلف، استقل سلطانها منذ بن عبد الرحمان بتلك الناحية وملك مليانة، وتتن وشرشال، وما جاورها وتوسعت إلى متيجة ثم إلى جبل الونشريس، فشملت الكثير من بلاده فأزاحهم عنها بنو عطية الحيو وقومه من بني توجين المجاورين لهم في أعلى منطقة الشلف، أما بني عبد الواد فلقد أحكموا سيطرتهم على نواحي تلمسان بينما توطنت بنو توجين في المنطقة الممتدة من التل والصحراء في بلاد المرية إلى جبل الونشريس. كانت مغراوة تابعة للموحدين، إلى غاية اخضاعها من قبل أبو زكريا الحفصي سنة (632هـ/1235م)، فبايعته لتخالف بذلك سياسة بني عبد الواد. وتم منح رئيسها الاستقلال الداخلي، واتخذ بحضرته شارة الملك. لكن يغمراسن نهض لاسترجاعها، من خلال خلق الفتنة بين بني منديل، فقتل ثابت وعابد أبي منديل أخاهما محمد سنة (662هـ/1263م). توغل بعدها يغمراسن إلى مغراوة سنة (666هـ/1267م)، إلى أن بلغ متيجة وساعده عمر بن منديل على مليانة، بشرط تعيينه على رئاسة قومه سنة (668هـ/1269م). خرج لإعانتته سنة (672هـ/1273م)، واسترجع عابد مليانة وتتن، ثم تمكن عثمان بن يغمراسن من الاستيلاء عليها. **ينظر**: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 116. -مبارك بن محمد الملي، مرجع سابق، ج 2، ص ص 468-469.

⁶ **ينظر**: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص ص 117-118. -مبارك بن محمد الملي، ج 2، مرجع سابق، ص ص 469-474.

للتغيرات المستمرة في المواقف وتطور العلاقات بسبب الفتن التي تبدل في المواقف وتطور في العلاقات، إذ يحل القتال محل السلم وتنتهك الحرمات وتسفك الدماء.¹

أما على صعيد الحروب الخارجية فقد واجهت الدولة تهديدات من دولتي بني حفص ومرين اللتين لم تتوانا عن توجيه قواتها العسكرية نحو المملكة للسيطرة عليها وإخضاعها لنفوذهما، لذا سعت الدولة الزيانية إلى تطوير جيوشها بشكل يتماشى مع تلك القوى الخارجية، مما منحها القدرة على الدفاع والهجوم عند توفر الفرص.²

الجدير بالذكر أن جيوش المغرب الإسلامي بما في ذلك الجيوش الزيانية تميزت بتشكيلات تعود أصولها إلى الموحدين، وذلك في فترة تلاشت فيها الدولة الموحدية، ومع ذلك كانت قوة هذه الجيوش أقل بكثير من قوة الجيش الموحيدي.³

2. 3. 1 التركيبة القبلية للجيش الزياني:

اعتمد تقسيم الجيش الزياني على النظام التقليدي المعتمد من قبل الدول الإسلامية، والذي يتضمن جيشاً نظامياً يتكون من أفراد يتفرغون للجندي ويعيشون الحياة العسكرية مدى الحياة أو لمدة معينة وفق الأنظمة المتبعة، إلى جانب ذلك كان هناك جيش احتياطي يتم استدعاؤه للجهاد عند الحاجة، حيث يتم استقبال المتطوعين التي لهم رغبة المشاركة في الأعمال العسكرية ضد الأعداء، وتحدد السلطات المعنية حجم هذا الجيش وحدوده وغاياته مثلما كان الحال في الجيوش الإسلامية الأخرى.⁴

اتسم الجيش الزياني بتنوع بنيته البشرية إذ ضم عناصر مختلفة ومتباينة الأصول حيث يمكن تمييز عدة مجموعات بشرية شكلت البنية العرقية للجيش الزياني، وكان لكل مجموعة علم أو راية تميزها ووظيفة خاصة بها، وقد استقادت السلطة الزيانية من تنوع العناصر المقاتلة في جيشها، حيث شملت هذه العناصر مختلف الفئات العرقية والدينية والقبلية دون أي اعتبارات

¹ محمد خير هيكل، الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، دار البيارق، دار ابن حزم، سوريا، لبنان، ص 144.

² عبد الفتاح مقلد الغنيمي، ج 5، مرجع سابق، ص ص 116 - 126.

³ حسام صلاح، مرجع سابق، ص 52.

⁴ محمد خير هيكل، مرجع سابق، ص 1003.

تميزية، إذ اعتمدت بشكل كبير على المغاربة الذين اشتهروا بالشجاعة والفروسية والخبرة القتالية والذين كانوا يشكلون فرق الخيالة على الخصوص،¹ من بين هذه القبائل كانت قبائل زناتة التي تعتبر الأبرز من حيث القوة والعدد نظرا لأن المغرب الأوسط يعد موطنها لهذه القبائل.²

لم يقتصر الانخراط في الجيش الزياني على قبائل بني عبد الواد فقط بل شمل أيضا مجموعة متنوعة من القبائل الزناتية الأخرى، وذلك بسبب قلة تعداد بني عبد الواد ومن بين القبائل الأخرى التي انضمت للجيش نجد: بني توجين، مغراوة، بني راشد، بني زردال، بني عصاب، وجماعات من أولاد منديل وغيرهم.³

وكانت الغالبية العظمى التي يتكون منها الجيش النظامي هي العناصر العبد الوادية بينما كانت العناصر الأخرى تعتبر احتياطية،⁴ بما في ذلك قبيلة هواره التي أسكنها أبو حمو موسى الأول بقصبتها.⁵

تشكل القبائل العربية كتلة عسكرية هامة ضمن الجيش الزياني حيث تميزت بمهاراتها القتالية التي تعتمد على "الكر والفر"،⁶ مما مكنها من القيام بهجمات سريعة والانسحاب الفوري عند الحاجة، وساهمت هذه القبائل بنحو ستة آلاف فارس (6000 فارس) في الجيش وتحالفت قبيلة بني عبد الواد مع القبائل العربية، مما ساعدهم في تعزيز أركان دولتهم والتصدي لهجمات

¹ علي خلاصي، الجيش الجزائري في العصر الحديث، دار الحضارة، ط 1، الجزائر، 2007، ص 73.

² إلياس حاج عيسى، "زناتة المغرب الأوسط: القبية والمجال"، مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية، مج 3، ع 1، (من ص 173 إلى ص 195)، الجزائر، جانفي، 2020، ص 183.

³ خالد بلعربي، ورقات زيانية، (دراسات وأبحاث في تاريخ المغرب الأوسط في العهد الزياني)، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2014، ص 17.

⁴ قويدر عباس، مرجع سابق، ص 36.

⁵ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 139.

⁶ عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة...، مصدر سابق، ص 335.

المرينيين والحفصيين،¹ من بين هذه القبائل: بني عامر، بني يزيد، بني مالك، المعقل، وقبائل بني زغبة،² وذوي منصور.³

يعتبر السلطان أبو حمو موسى الثاني من السلاطين الزيانيين الذين استندوا إلى دعم العرب حماة وأنصارا،⁴ بينما كانت هناك قبائل عربية أخرى على عداء مع بني عبد الواد مثل قبيلة حصين، ذوي عبيد الله، سويد والشعالبة وقد اعتمد بني عبد الواد على هؤلاء في إقامة دولتهم وتوسيع نفوذها مقابل تقديم تحصيل مالي وتوزيع الأراضي الخصبة مع الأخذ بالاعتبار أن ظاهرة الإقطاع انتشرت بشكل أكبر خلال مرحلة الضعف.⁵

تعتبر العناصر الأندلسية من الفرق النظامية الهامة حيث انضمت إلى الجيوش الزيانية بعد سقوط دولة الموحدين، وقد استفاد بني زيان من خبرتهم العسكرية الواسعة واستخدموهم كجنود

¹ ينظر: خالد بلعربي، مرجع سابق، ص 16. - عبد العزيز فيلالي، مرجع سابق، ج 1، ص 20.

² بني زغبة: ينتسبون إلى زغبة بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر. استوطنوا في بادئ الأمر نواحي طرابلس وقابس، تحالفت زغبة مع الموحدين ضد بني غانية وصاروا يدا واحدة مع بربر المغرب الأوسط، كانت مجالاتهم بين المسيلة، وتلمسان، واستقرت قبائل زناتة بالمدن، في حين دخلت زغبة إلى التل وتغلبت على أهله، وتشتمل زغبة على خمس قبائل كبرى هي: حصين، وبني مالك ومن بطونها بني سويد، وبني عامر، وعروة، وبنو يزيد. وكان بني زغبة سنداً ليغمراسن في حروبه واسند في بعض الأحيان هذا السلطان على عمر بن مهدي شيخ عرب سويد بن مالك بن زغبة ولاية تلمسان وما يتبعها شرقاً عند خروجه لقتال أعدائه، واعتمدت قوته العسكرية على قبائل بني سويد وصاروا مخزناً لبني زيان وضم بني عامر وبني حميان رغم بعد دارهم لمزيد القدرة والاحتماء، من بني عبيد الله الذين كانوا يسلطون ضغطاً على حدوده. ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص ص 55-61. - ابن الأحمر، تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان، تح وتق وتغ هاني سلامة، مكتبة الثقافة الدينية، ط 1، بورسعيد، مصر، 2001، ص ص 39-40. - شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص 203. - مصطفى أبو ضياف أحمد، أثر القبائل العربية في الحياة المغربية- خلال عصري الموحدين وبني مرين- (524-876هـ/1130-1472م)، دار النشر المغربية، ط 1، دار البيضاء، المغرب، 1982، ص 147. - عبد الوهاب بن منصور، ج 1، مرجع سابق، ص ص 422-423.

³ عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 20.

⁴ مؤلف مجهول، زهر البستان...، ج 2، مصدر سابق، ص 83.

⁵ عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 20.

وضباط في القوات العسكرية،¹ من ذلك تعيين إبراهيم الأبلبي وأخيه محمد في سلك الجندية على يد أبو يحيى يغمراسن حتى أصبح إبراهيم قائدا عاما لمدينة هنين.²

إلى جانب هؤلاء انضمت إلى جيش يغمراسن مجموعة من الأغزاز بدءا من عام (633هـ/1235م)، وقد اختلف الأخوين ابنا خلدون حول انتمائهم العرقي حيث اعتبرهم البعض أنهم أغزاز،³ بينما اعتبرهم آخرون أنهم أكرادا،⁴ كان لقائدهم الغزي موسى بن علي دور بارز في مواجهة المناوئين للسلطة الزيانية وقد كلفه أبو حمو موسى الأول بقيادة الجيوش الزيانية خلال التصدي لهجمات بني مرين من الغرب و ضرب حدود بني حفص من الشرق ولقد حقق هذا القائد عدة انتصارات في سجلماسة عام (722هـ/1322م)، وفي بجاية وقسنطينة على عهد أبو تاشفين الأول.⁵

بالإضافة إلى الجند النظامي كان هناك حرس خاص يتألف من الوصفان ذوي الأصول السودانية يعيشون حول قصر السلطان وينزلون بجواره أثناء السفر وكان هؤلاء الخصيان الحرس الخاص للسلطان أبو حمو موسى الأول، ولقد أوصى السلطان أبو حمو موسى الثاني ابنه بضرورة توفر هذه الفئة بقصره، من ذلك قوله: "وليكن قصرك يا بني محفوقا بالفتيان والحجاب ولتكن فتيانك على باب قصرك من خارج".⁶

كما يعتبر الصقالبة (خدم من جنسيات الأوروبية) فرقا خاصة لحراسة السلطان حيث شغل البعض منهم وظائف في القصر لخدمة الحريم،⁷ وقد كان للبعض منهم مكانة اجتماعية مرموقة

¹ خالد بلعربي، مرجع سابق، ص 19.

² عبد الرحمان ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، دار الكتاب اللبناني، لبنان، 1979، ص 33-34.

³ يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 129

⁴ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، مصدر سابق، ج 7، ص 149.

⁵ ينظر: يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 129. -خالد بلعربي، مرجع سابق، ص 18. - عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 42-43.

⁶ أبو حمو موسى، مصدر سابق، ص 201.

⁷ حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 22.

في المجتمع الزياني، إذ تولى بعضهم مناصب سامية كضباط مثل القائد مسامح وفرج بن عبد الله وظافر مهدي وعلي بن تآكرارت وفرج الملقب بشقورة.¹

كانت ضمن الجيش الزياني العناصر المسيحية (المرتزقة)، ولقد تم اختيارهم للانخراط في الجيش الزياني لاختلاف استراتيجيتهم القتالية فهم لا يعرفون غير الثبات لأن عادتهم في القتال الزحف،² من هؤلاء: القطالونيين، الأراغونيين والقسثاليين وكان عددهم على عهد السلطان يغمراسن خمسمائة ألف فارس (500000 فارس) على رأس هذه الفئة العسكرية سنة (670هـ/1280م) القائد جوم بيريز، كما ترأس الفرقة الأراغونية القطالونية التي تخدم سلاطين بني زيان الفارس روديفو سانشير دي فيرغاس، وقدم أيضا رئيس الفرقة الميورقية ما بين سنتي (725/730هـ-1330/1325م) الفارس قيوم أستريس الذي أدى دورا حربيا هاما للسلطان أبو تاشفين الأول.³ كما استخدم أبو حمو موسى الثاني أيضا المرتزقة المسيحيين في جيشه وصنفهم ضمن الممالك الخاصة بالحراسة، كانوا يسكنون في حي منفصل خاص بهم يسمى ربح النصارى ولهم الحرية في أداء شعائرهم الدينية ويتمتعون بإدارة شؤونهم الخاصة بأنفسهم، كما تم اعفائهم من الاتاوات والرسوم.⁴

2. 3. 2 البحرية:

تظل القوة البحرية للزيانيين محاطة بقدر كبير من الغموض، حيث لم تكن سفنهم تمتلك القدرة على مجابهة الأساطيل الأوروبية أو حتى المغربية، ومع ذلك توجد بعض المؤشرات القليلة التي تؤكد على لجوء الزيانيين إلى استخدام الأسطول البحري في بعض عملياتهم، ومن أبرز الدلالات التاريخية التي تشير على مشاركة أهل تلمسان في معارك بحرية، ما وقع في الثامن عشر من محرم سنة (839هـ/1429م) عندما أطلق الأمير الحفصي أبو فارس عبد العزيز حملة بحرية ضخمة ضمت مقاتلين من إفريقية وتلمسان، حيث بلغ عدد المشاركين فيها نحو خمسة عشر ألف جندي ومتطوع (5000 جندي ومتطوع) كما تم حشد مائتي فارس للمشاركة في هجوم على جزيرة

¹ خالد بلعربي، مرجع سابق، ص 19.

² علي خلاصي، مرجع سابق، ص 75.

³ خالد بلعربي، مرجع سابق، ص 20.

⁴ عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 189.

صقلية بغية أخذها،¹ "فنازلوا مدينة ماذر حتى أخذوها عنوة وتوجهوا إلى ملاطه وحصروها، حتى لم يبقى إلا أخذها، فانهزم من حملتهم أحد الأمراء من العلوج فانهزم المسلمون لهزيمته فركب الفرنج أفقيتهم، فاستشهد منهم في الهزيمة خمسون رجلا من الأعيان".² ومهما كانت نتائج هذه الحملة فإنها تقدم دليلا قاطعا على مشاركة القوات الزيانية تحت راية الحفصيين في هذه العمليات البحرية.

من ناحية أخرى لا يمكن إنكار التفوق الواضح للأساطيل المرينية مقارنة بالقوة البحرية الزيانية خاصة عهد السلطان المريني أبو عنان أين بلغ الأسطول غاية من القوى والضبط،³ ومن الإشارات التاريخية الدالة على ذلك لما أرسلت حملة بحرية انطلقت من السواحل المغربية وصلت إلى تونس ونجحت في السيطرة على قسنطينة وبجاية، مما أجبر الأمير الحفصي أبو إسحاق على الفرار إلى منطقة الجريد في عام (758هـ / 1356م).⁴

2. 3. 3 أسلحة الجيش الزياني ومعداته:

تمتع الجيش الزياني عامة بتجهيزات عسكرية متنوعة تضمنت أسلحة ومعدات، بعضها منتج محليا بينما تم استيراد بعضها الآخر من الخارج، من أبرز الأسلحة التي استخدمها الجيش الزياني: السيوف أهم أنواعه السيف المستقيم، ثم حل محله السيف المقوس ذي النصل الواحد،⁵ والرمح،⁶ والحسام،⁷ مع الاعتماد الكبير على الخيول في المعارك، ولقد أشار يحيى ابن خلدون على استعمال الأحصنة للركوب من ذلك عند حديثه عن أبو حمو موسى الثاني الذي: "استركب منهم في يوم واحد ألف فارس، يكسي الرجل منهم بقدره، ويدفع إليه فرس مسرج ملجم..."⁸

¹ حسام صلاح، مرجع سابق، ص 53.

² الصيرفي، مصدر سابق، ص 179.

³ النميري، مصدر سابق، ص 108.

⁴ **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 539. - محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 429.

⁵ علي خلاصي، مرجع سابق، ص 78.

⁶ **ينظر:** يحيى ابن خلدون، ج 2، مصدر سابق، ص 39. - حسام صلاح، مرجع سابق، ص 55.

⁷ أبو حمو موسى، مصر سابق، ص 14.

⁸ يحيى ابن خلدون، ج 2، مصدر سابق، ص 38.

بالإضافة إلى استخدام الدروع كوسيلة للحماية، كما امتلك الجيش الزياني عدد كبير من الطبول والرايات وهو ما يتضح من طلب الأمير المريني أبو ثابت بن أبي عامر من الأمير الزياني أبو حمو أن يمدّه بالطبول والرايات فضلا عن الجنود خلال مواجهاته ضد بن سالم بن يوسف بن يعقوب.¹

أما فما يخص لباس الجنود الزيانيين فهي عبارة عن قمصان فضفاضة تغطيها أردية واسعة وفي الشتاء كانوا يضيفون إليها سترات من الجلد، بينما كان قادة الجيش وأصحاب الرتب العليا يرتدون الجوخ والمعاطف الثقيلة في فصل الشتاء، أما فيما يتعلق بالرتب والألقاب العسكرية والمدنية فقد كانت نادرة في الدولة الزيانية، ويعزى هذا النقص إلى الطابع البدوي الذي هيمن على النظام السياسي والاجتماعي للدولة.²

2. 3. 4 الاستراتيجية العسكرية للجيش الزياني:

اعتمدت الاستراتيجية الحربية للجيش الزياني بالدرجة الأولى على الاحتماء من العدو خلف الأسوار امتثالا لوصية يغمراسن بن زيان،³ ولقد أصبح الجيش الزياني بعد الاستحواذ على البعض من العمالات بالناحية الشرقية قوة معتبرة خاصة على عهد السلطان أبو حمو موسى الأول وابنه أبو تاشفين من بعد،⁴ ومع ذلك لم يتجنبا هذان السلطانين وصية سلفهم وكانا دائما ما يلتجئان

¹ ينظر: عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 29. -حسام صلاح، مرجع سابق، ص 55.

² ينظر: خالد بلعربي، مصدر سابق، ص 25. - علي خلاصي، مرجع سابق، ص 80. -حسام صلاح، مرجع سابق، ص 55.

³ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 123.

⁴ ينظر: يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 129. -التنسي، مصدر سابق، ص 146. -يحيى بوعزيز، تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007، ص 62. -محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 292. -عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 29. -محمد أحمد إسماعيل، الوزارة في إفريقيا في عهد الدولة الحفصية، (626-986هـ/1227-1574م)، مكتبة الثقافة الدينية، ط 1، القاهرة، مصر، 2015، ص 174.

خلف الاسوار إثر حركة الجيوش المرينية،¹ في حين انتهج السلطان أبو حمو موسى الثاني سياسة الانسحاب كلما تقدمت الجيوش المرينية نحو تلمسان من خلال الإرتحال من العاصمة والإلتجاء باتجاه الجنوب.²

يمكن تفسير سياسة الانسحاب التي انتهجها أبو حمو موسى الثاني ضمن أحد الإحتمالين:

- **الإحتمال الأول:** انسحاب أبو حمو يعكس قصورا في البنية العسكرية لدولته وضعفا في قدرات جيشه النظامي على خوض مواجهة ميدانية مباشرة مع قوة مرينية راجحة تفوقه تنظيما وتسليحا.
- **الإحتمال الثاني:** يشير انسحاب أبو حمو موسى إلى مقاربة إستراتيجية متروية، إرتكزت على نقادي المواجهة المفتوحة حفاظا على القوى القتالية مع اعتماد مبدأ التحوط العسكري والانكماش المرحلي إلى ثغور أحلافه في إنتظار الظروف الملائمة لتوجيه ضربات مرتدة.

وقد برهنت الوقائع اللاحقة على نجاعة أسلوب الانسحاب هذا، إذ تمكن السلطان من شن هجمات مباغطة على الثغور الشرقية التابعة للنفوذ المريني والحق بها أضرارا جسيمة، مما يدل على امتلاكه لرؤية سياسية عسكرية متقدمة تراعي موازين القوى وتحسن توظيف عنصر المبادأة، وهو ما سيتم طرحه لاحقا عند دراسة موضوع الصراع السياسي العسكري بين الدولتين الزيانية والمرينية.

¹ **ينظر:** ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 399. - عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 148. - يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 141. - ابن الأحمر، روضة النسر...، مصدر سابق، ص 52. - أبي العباس أحمد القلقشندي (ت 821هـ)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب الخديوية، ج 8، القاهرة، مصر، 1915، ص 96. - الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 105 - 126. - أحمد جبرون، تاريخ المغرب الوسيط والحديث، (من الفتح الإسلامي إلى الاحتلال)، دار الأحياء للنشر والتوزيع، طنجة، المغرب، 2023، ص 268.

² **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 164. - عبد الرحمان ابن خلدون، التعريف...، مصدر سابق، ص 143 - 144. - يحيى ابن خلدون، ج 2، مصدر سابق، ص 47. - مؤلف مجهول، زهر البستان، ج 2، مصدر سابق، ص 81. - ابن الأحمر، روضة النسر...، مصدر سابق، ص 56. - عبد الحميد حاجيات، مرجع سابق، ص 94.

وكان السلطان الزياني يجمع وزرائه وشيوخ القبائل والوجهاء والقادة قبل إعلان الحرب في ساحة المعركة المعروفة بالمنية حيث يستشيرهم بشأن الاستعدادات والتخطيط اللازم للحرب، وعندما تنتهي عملية الحشد تعرض القوات من فرسان ومشاة ورماة أمام السلطان الذي يصدر أوامره بتحريك الجيش نحو ميدان القتال.¹

يتم تنظيم الجيش الزياني في يوم الحرب إلى أربعة أقسام: الميمنة، الميسرة، المقدمة والساقة، ويعين قائدا شجاعا على كل من الميمنة والميسرة بينما يتولى فرسان من القبائل الشجعان قيادة المقدمة لمواجهة العدو والتي تضم أيضا قائدا، أما الساقة فتعتبر قلب الجيش حيث يتم اختيار أبطال الشجاعة والكفاءة فيها ويعين السلطان قائدا على الساقة لضمان الانضباط ويكون مسؤولا عن الحفاظ على تماسك الجيش حتى في حال انكسار الميمنة والميسرة.²

تعتمد أساليب القتال لدى الجيش الزياني على الكر والفر وهو نمط معروف بين العرب والبربر، إذ يتقدم الفرسان في الصفوف ويقومون بإرسال الإشارات للسلطان حول مواقع العدو،³ ومن العادات المتبعة أن يرافق الجيش هودج تحمل النساء والرجال من قادة الجيش، كما تجلى ذلك في معركة تلاغ (666هـ/1268م)،⁴ حيث كانت النساء تشجع المحاربين من خلال رفع معنوياتهم.⁵

يستخدم الجيش الزياني أسلوب الزحف لتنظيم الصفوف ثم التقدم نحو العدو لأنه يساعد في إحداث الرعب في صفوفهم، كما اعتمد سلاطين بني زيان أسلوب العصابات وهو ما كان

¹ خالد بلعربي، مرجع سابق، ص 25.

² علي خلاصي، مرجع سابق، ص 77.

³ خالد بلعربي، مرجع سابق، ص 26.

⁴ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، مصدر سابق، ج 7، ص 118. -ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص 115.

⁵ ينظر: الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 26. -مبارك بن محمد الملي، ج 2، مرجع سابق، ص 422.

ضروريا للحفاظ على الدولة،¹ خصوصا في الهجمات السريعة،² ضد أبي زكريا الحفصي بعد إخضاعه لتلمسان.³

كما اعتمد الزيانيون التحصين كخطة عسكرية استراتيجية من خلال بناء القلاع والحصون وتوظيفها في المهام الدفاعية والهجومية، حيث مثلت هذه المنشآت نقاطا محصنة تتيح للقوات فرصة الاحتماء أو المبادرة بالهجوم، ويتجلى هذا الأسلوب في لجوء السلطان يغمراسن إلى حصن تامزديكت أثناء مواجهته لأعداء يتمتعون بتفوق عسكري.⁴

لم يكن الوضع المتوتر بين بني زيان وأعدائهم إلا دافعا للاهتمام بجيوشهم، حيث كانوا يستعرضون قواتهم ويتفقدون عتادهم الحربي ومن صور ذلك احتفال السلطان أبو حمو موسى الثاني بجيشه من خلال إقامة حفلا كبيرا عبارة عن استعراض عسكري يعكس قوة الجيش وأهميته في الحفاظ على أمن واستقرار الدولة.⁵

2. 4 سقوط الدولة الزيانية:

اجتمعت جملة من الأسباب والعوامل أودت بسقوط الدولة الزيانية التي صمدت لثلاثة قرون من الزمن، من بين هاته الأسباب نذكر:

2. 4. 1 أسباب اقتصادية:

أثرت كل من الأمراض والأوبئة والحروب بشكل حاد على الاقتصاد الزياني حيث شهدت الدولة سنة (749هـ/1348م)،⁶ تفشي وباء الطاعون الذي اجتاح مناطق المغرب والمشرق، وفي

¹ خالد بلعربي، مرجع سابق، ص ص 26 - 27.

² محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 143.

³ **ينظر:** ابن عذاري المراكشي، مصدر سابق، قسم الموحدين، ص 362 - ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص 61. - الحميري، مصدر سابق، ص 136.

⁴ **ينظر:** ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 293. - يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص ص 113 - 114.

⁵ خالد بلعربي، مرجع سابق، ص 27.

⁶ **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة...، ص 27. - عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 170.

سنة (776هـ/1374م) ضربت المغرب عموما مجاعة كبرى خاصة مدينة تلمسان مما أدى إلى انهيار اقتصادي وارتفاع هائل في الأسعار.¹

قدم يحيى ابن خلدون وصفا دقيقا لهذه المجاعة حيث يقول: "واشتملت هذه السنة، أجمل الله خاتمتها، على مجاعة شديدة، حيث بلغ الأمر بالناس أن أكل بعضهم بعضا بسبب إعصار قضى على محاصيل الصيف ومواشيها. فافتقر الناس إلى ما لدى الخليفة من موارد".²

لمواجهة هذه الكارثة بذل السلطان جهودا جبارة لتخفيف حدة الأزمة حيث خصص نصف الجباية لمساعدة الفقراء والمحتاجين من رعاياه، كما أنشأ مراكز إيواء (بيمارستانات) في المدينة لتوفير الغذاء للفئات المحتاجة خلال فصلي الشتاء والربيع، وفتح السلطان مخازن الحبوب العامة وأتاح بيعها بأسعار مخفضة لتخفيف الأعباء عن الشعب.³

هذا التدبير الإنساني يعكس قيادة تتسم بالمسؤولية والحرص على حماية رعاياها بخلاف ما وصفه ابن الأحمر له: "أما بخله فقد كان مضرب المثل"،⁴ إذ يعزى موقفه السلبي إلى ولاءه لسلطين بني مرين خاصة أبي عنان المريني الذي كان مقربا منه حيث كان ضمن نخبة العلماء والأدباء.⁵

تفاقم الأوضاع في تلمسان جراء الحصار الطويل الذي فرضه بنو مرين،⁶ مما أدى إلى انهيار اقتصادي حاد حيث ارتفعت الأسعار بشكل غير مسبوق وعم الجوع لدرجة أنه اضطر

¹ ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقيير، نش وتوص محمد الفاسي، أدولف فور، مطبعة أندال، الرباط، المغرب، 1965، ص 105.

² يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 288.

³ ينظر: يحيى ابن خلدون، ج 2، نفس المصدر، ص 288. -عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 255.

⁴ ابن الأحمر، تاريخ الدولة الزيانية...، مصدر سابق، ص 80.

⁵ ابن الأحمر، أعلام المغرب والأندلس، (من كتاب نثير الجمان في شعر من نظمنا وإياه الزمان)، تح وتوق محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، ط 1، بيروت، لبنان، 1976، ص ص 7- 8.

⁶ التنسي، مصدر سابق، ص 143.

السكان إلى تناول الجيف والحيوانات المحرم أكلها، وأشار عبد الرحمان ابن خلدون إلى أن الوضع تقاوم لدرجة أكل السكان بقايا الموتى وقد كان الهلاك بالجوع أعظم من الهلاك بالحرب.¹

وعليه فلقد ساهمت كل من الأوبئة والمجاعات والصراعات العسكرية في انهيار اقتصاد الدولة الزيانية بشكل كبير، حيث أدى تفشي الطاعون والمجاعات إلى ارتفاع حاد في الأسعار وشلل الأنشطة الاقتصادية.

2. 4. 2 أسباب سياسية وعسكرية:

نتج سقوط الدولة الزيانية عن تراكمات سياسية وعسكرية معقدة إذ واجهت هذه الدولة على مدار القرون الثلاث تحديات داخلية تمثلت في النزاعات المستمرة بين قبائل المغرب الأوسط، فضلا عن الصراعات الداخلية بين أفراد البيت الزياني على الحكم، بالإضافة إلى تعرض الدولة لعدد من تهديدات الخارجية سواء من القوى الإقليمية المجاورة -المرينيين والحفصيين- أو التوسعات النصرانية في سواحل بحر الروم، من صور ذلك:

2. 4. 2 1 تمردات القبائل البربرية والعربية المستمر:

قامت الدولة الزيانية على أساس قبلي إذ شكلت القبيلة عصب كيان دولتها، وإستمر بنو زيان طوال ثلاث قرون في صراع مستمر مع القبائل المغرب الأوسط، لاسيما القبائل البربرية من توجين ومغراوة وكانت الفتنة والحروب فيما بينهم منذ أول عمر الدولة (633هـ/1235م)،² فضلا على أن هذه القبائل وقفت إلى جانب القوى الخارجية بغرض الإطاحة بالدولة الزيانية، ونتيجة للعلاقات المتوتر مع قبائل المغرب الأوسط لجأت السلطة الزيانية إلى إتباع أسلوب الإغراء من خلال تقديم الهدايا، فضلا عن بذل الأموال وإقطاع الأراضي لكسب ود قبائل المغرب الأوسط، سواء كانت بربرية أو عربية للحد من العصبية القبلية إذ كانت ترى هاته القبائل نفسها هي الأحق بملك المغرب الأوسط.³

¹ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 128. -عبد العزيز فيلاي، ج 1، مرجع سابق، ص 256.

² عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 116.

³ عبد الفتاح مقلد الغنيمي، ج 5، مرجع سابق، ص 131.

استمرت هاته العلاقات على وضعها خلال فترات متفاوتة تستحكم فيها الصراعات والفتن التي أفقدت الدولة نفوذها وقامت هاته القبائل وخاصة قبيلتي توجين ومغراوة في العديد من المرات بشق الطاعة لبني زيان أثناء فترات إلتحامها مع بني مرين، وساندت أعدائها خلال فترات الصراع العسكري.¹

في سنة (670هـ/1271م) قدمت قبائل مصمودة والعرب وتوجين الدعم لحصار تلمسان، واستغلت توجين هذا وضيق عليها بجيوشها بقيادة محمد ابن عبد القوي التجيني وخربت الزرع والقرى والضياع،² ولقد أعاد بنو توجين الكرة وآزروا بني مرين في حربهم مع بني زيان سنة (697هـ/1298م)،³ وثورة راشد بن محمد المغراوي بالشلف على أبي حمو موسى الأول الذي نهض إليه بنفسه وحاصره، وكانت بين أبي ثابت ومغراوة حروبا بسبب قتلهم للعديد من بني عبد الواد، ولقد ضيق عليهم أشد تضيق ولم يستجب حتى لطلب السلطان ابي عنان في الكف عنهم.⁴

2. 2. 4. الصراع الحدودي:

أفقد الضغط الحفصي والمريني الدولة الزيانية القوة المادية والعسكرية وتوازنها على الرغم من نجاحها في العديد من المرات للتصدي لهم، ولم ينتهي هذا الصراع إلى أن ضعفت الدولة،⁵ على الرغم من محاولات سلاطين بني زيان المتكررة في إعادة إحياء دولتهم كلما تتعرض للاستيلاء أو الحصار من قبل جارتها الحفصية والمرينية، كما هو الحال سنة (760هـ/1359م) على عهد السلطان أبي حمو موسى الثاني الذي خاض معارك طويلة مع بني مرين طيلة ثلاثون سنة من حكمه/ كانت أولها سنة (760هـ/1359م) والأخيرة قتل خلالها على يد ابنه أبو تاشفين الذي

¹ التنسي، مصدر سابق، ص 146.

² ابن ابي زرع ، الأنيس...، مصدر سابق، ص ص 310 - 311.

³ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 126.

⁴ التنسي، مصدر سابق، ص ص 146 - 163.

⁵ مبارك بن محمد المليي، ج 2، مرجع سابق، ص 436.

وضع يده بيد أعداء أبيه من مرين، ولم يكتفي بذلك بل أرسل رأسه إلى سلطان بني مرين أبي العباس سنة (791هـ/1390م).¹

2. 4. 3 الصراع بين أفراد الأسرة:

تجسد هذا الصراع داخل البيت الزياني في محاولة الإنفراد بالحكم فاشتد التنافس على السلطة والتي بدأت تظهر بشكل واضح أواخر عهد السلطان أبي حمو موسى الزياني الثاني،² إذ قام ابنه باللجوء إلى السلطة المرينية ضد أبيه ابو حمو موسى،³ وقتله سنة (791هـ/1390م)،⁴ وقام أبي محمد عبد الله بخلع أخيه أبي زيان محمد بن أبي حمو بمساعدة من بني مرين سنة (801/1400م).⁵

وصراع أبي عبد الله محمد ابن تاشفين المكنى بابن الحمراء وعمه أبي مالك الذي إنتهى بقتل هذا الأخير سنة (833هـ/1427م)، وقتل ابن الحمراء هو الآخر على يد بني حفص ونصبوا محله أبي العباس أحمد العاقل،⁶ الذي حكم نحو إثنتين وثلاثين سنة وهي فترة زمنية طويلة حيث

¹ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 481. -التنسي، مصدر سابق، ص ص 190- 191. -الناصري، مرجع سابق، ج 4، مرجع سابق، 76. -شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص 207. -عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص ص 54- 58.

² عبد الفتاح مقلد الغنيمي، ج 5، مرجع سابق، ص 187.

³ يذكر عبد الرحمان ابن خلدون أن التنافس على السلطة كان خفيا في بادئ الأمر عن الناس بين أبي حمو وأبناءه إلى أن انشق أبي تاشفين عنه، وقام بمعاداته وخلعه عن السلطة وسجنه، ثم أمر باعتقال كل من حضر إلى تلمسان من إخوته من سنة (788هـ/1386م) كما تحالف مع العرب من بني سويد وبني عامر، وضيق على إخوته بجبل تيطري، وقام بإعتقال أبيه مرة أخرى عندما تمكن من الفرار فتره تغيبه عن حاضرة تلمسان ونفيه إلى المشرق. تمكن أبو حمو من الفرار مرة أخرى ونزل في طريق ببجاية ثم نهض لاسترجاع ملكه بتلمسان بعد أن استجمع قواه من جديد لكن أهل تلمسان أبوا عن ذلك ونبذوا طاعته. فخرج إلى الصحراء ثم إلى جبال الشلف وصولا إلى تازا من ناحية المغرب. ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص ص 191-194.

⁴ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، نفس المصدر، ص 481. -التنسي، مصدر سابق، ص ص 190- 191. -الناصري، مرجع سابق، ج 4، مرجع سابق، 76. -شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص 207. -عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص ص 54- 58.

⁵ ينظر: التنسي، مصدر سابق، ص ص 256- 257. -ابن الأحمر، تاريخ الدولة الزيانية...، مصدر سابق، ص 83. -ابن الأحمر، روضة النسر...، مصدر سابق، ص 59.

⁶ التنسي، مصدر سابق، ص ص 251- 257.

في عهده الطويل تعرض لمحاولات إنقلابية وثورات قام بها منافسيه من البيت الزياني فأخذوا يتسابقون على السلطة باستعمال شتى الوسائل الممكنة للوصول إلى مبتغاهم،¹ ففي سنة (838هـ/1436م) خرج عنه أبو يحيى بن أبي حمو واستولى على وهران وانفرد بحكمها إلى أن طرده منها السلطان، ففر متوجها إلى الشرق وعند نزوله ببجاية توجه إلى تونس أين توفي بها سنة (855هـ/1453م)، وثار عليه سنة (841هـ/1439م) أبو زيان محمد المستعين بالله ابن أبي ثابت بالناحية الشرقية، فاحتل بلاد حمزة والجزائر وبلاد مليكش وأراضي الثعالبية، واستولى على سهل متيجة والمدية ومليانة وتنس ابنه أبو عبد الله المتوكل على الله، وحصل على الدعم من بني عبد الواد -بتلمسان- لكن أهل الجزائر ثاروا عليه وقتلوه سنة (843هـ/1441م).²

كما خرج على السلطان أحمد العاقل الأمير أحمد بن الناصر بن أبي حمو الثاني فتصدى له وقضى على ثورته سنة (850هـ/1446م)، ونهض ضده أبو عبد الله محمد المتوكل على الله في مليانة سنة (866هـ/1461م) واستولى على قلعة بني راشد وهوارة ومستغانم ووهران، ثم حاصر تلمسان لمدة يومين من نفس السنة وتقبض على سلطانها أحمد العاقل ثم نفاه إلى الأندلس بعد أن سجنه.³

2. 4. 2. التحرشات الإسبانية:

بعد سقوط الأندلس أصبحت شواطئ المغرب تحت وطأة تهديدات الإسبان الذين عزموا على الانتقام من سلاطين المغرب لاستقبالهم الأندلسيين الفارين إليهم، وصراع الدول الثلاث فيما بينهم وتسابق البيت الحاكم على السلطة سهل لهم غاياتهم العسكرية، إذ تمكن الإسبان بقيادة الماركي توماس من الاستيلاء على المرسى الكبير سنة (911هـ/1506م) بمباركة ودعم من الكنيسة المسيحية،⁴ ودخلوا وهران سنة (915هـ/1509م) بعد مقاومة شديدة منها بواسطة أحد

¹ عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 72.

² ينظر: التنسي، مصدر سابق، ص 259-261. -عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 72. -مبارك بن محمد الملي، ج 2، مرجع سابق، ص 478.

³ ينظر: عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 72. -روبار برونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص 290.

⁴ عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 75.

مهاجري الأندلس يدعى سطورا، ثم أخذت تستولي شيء فشيء على سواحل المغرب الأوسط لضعف الحكومات عن حمايتها في حين كانت السلطة الزيانية في صراع شديد على الحكم.¹ كما وقع أبو حمو الثالث تحت قبضة الإسبان وأصبح يدفع لهم إتاوة سنوية الأمر الذي أغضب الرعية وخاصة أعيان تلمسان ورأوا أنه من الضرورة الاستجداء بالأتراك للحد من الزحف الإسباني،² فتقدم عروج سنة (923هـ/1518م) وأخرج منها أبو حمو ونصب أبو زيان المسعود مكانه الذي لم يكن راضيا على هيمنة الأتراك فقام بخلع طاعتهم، وفي المقابل قام عروج بقتله هو ومن معه، وفي سنة (924هـ/1518م) قام أبو حمو باستعادة عرشه بإعانة من الحامية الإسبانية.³ طال الصراع واشتد بين الأتراك والإسبان في ساحة الأحداث بالمغرب الأوسط من ثم إستجد أهل المغرب الأوسط بالسعديين في المغرب الأقصى ودارت بينهم والأتراك معركة إنهمز فيها السعديون وعادوا إلى مغربهم الأقصى، ودخل الأتراك تلمسان وعزلوا أبو زيان وولوا مكانه الحسن بن عبد الله سنة (962هـ/1550م) لكن السلطة الفعلية كانت في يدهم ثم قاموا بخلعه سنة (962هـ/1554م) وضموا تلمسان إلى حكومتهم في مدينة الجزائر وانقرضت بعدها دولة بني زيان،⁴

وعليه فلقد ساهم تداخل كل من العوامل الإقتصادية، الإضطرابات الداخلية وتضاعف التهديدات الخارجية من الجارتين الحفصية والمرينية، بالإضافة إلى الأخطار النصرانية في إضعاف الدولة الزيانية، وقد أدت كل هذه الظروف المركبة إلى انهيار منظومة سياسية امتدت لأكثر من ثلاثة قرون، ورغم هذا الأقول فقد أثبتت الدولة الزيانية جدارتها التاريخية في إدارة المغرب الأوسط وصمودها اللافت لمدة ثلاث مائة وأربع وعشرين سنة في وجه الأزمات والتحويلات السياسية وكذلك المواجهات العسكرية التي وسمت هذه المرحلة من تاريخ المغرب الوسيط، وبذلك خلفت نموذجا سياسيا له دلالاته في تاريخ المغرب الإسلامي من حيث القدرة على التكيف وإدارة التوازنات الإقليمية في محيط مضطرب.

¹ مبارك محمد الملي، ج 2، مرجع سابق، ص 489.

² عبد الفتاح مقلد الغنيمي، ج 5، مرجع سابق، ص 191.

³ عبد العزيز فيلاي، ج 1، مرجع سابق، ص ص 76 - 77.

⁴ عبد الفتاح مقلد الغنيمي، ج 5، مرجع سابق، ص 192.

3. قيام الدولة المرينية

لم يتوفر لبني مرين القوى والحظوظ التي كانت تمن بها الدولة الموحدية وهذه من الأسباب التي لم تمكن بني مرين من بسط سلطانها على عامة بلاد الغرب الإسلامي، رغم محاولاتها المتكررة ونجاحها أحيانا في الاستيلاء على ملك الحفصيين بإفريقية - على عهد أبو الحسن المريني وابنه أبو عنان - وبني عبد الواد (بني زيان) في المغرب الأوسط وبعض أشلاء الأندلس في فترات متفاوتة، وبهذا لم يبقى لبني مرين إلا الالتزام بمجالاتهم داخل المغرب الأقصى الذي كان دخولهم إليه عبر محطات عديدة وحروب كثيرة.

3. 1 أصل بني مرين ومواطنهم:

بنو مرين فخذ من بطون قبيلة زناتة البربرية،¹ أرجع بعض المؤرخين والنسابين أصل بني مرين إلى العرب كغيرهم من القبائل البربرية الأخرى، يقول في هذا الشأن ابن أبي زرع: "ولد مرين بن ورتاجين بن ماخوخ بن وجديج بن فاتن بن يدر بن يجفت بن يصلتين بن عبد الله بن ورتيب بن المعز بن إبراهيم بن شجيج بن واسين بن يصلتين بن مسرى بن زاكيا بن وسيد بن زانات بن جانا بن يحيى بن تمزيت بن ضريس، وهو جالوت ملك البربر، ابن رجيج بن مادغيس الأبر، بن بر، بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. فهم عرب الأصل".²

يؤكد صاحب الحل الموشية انتمائهم الى العرب عن طريق جدهم الأعلى زناتة من ذلك قول ابن رشيق: "أصل زناتة من الشام وكانت دارهم فلسطين وملكها جالوت فلما قتله داود عليه السلام جاءت البربر الى المغرب فانتشروا الى السوس الأقصى"، ويقول أيضا: "إن البربر بأجمعهم من ولد جالوت، إلا قبيلتي صنهاجة وزناتة، فإنهما ينتسبان إلى حمير".³

كان لبعض المؤرخين محاولات للإضفاء على النسب المريني هالة من التكريم لذلك رفعوا نسب جدهم الأمير عبد الحق إلى علي رضي الله عنه وقيل أنهم شرفاء، كما ذهب بعض المؤرخين في شأن هذا النسب بعيدا واعتبروهم من أعلى القبائل حسبا وأشرفهم نسبا فأروا أن بني مرين من زناتة وزناتة عرب في الأصل من مضر يجتمع نسبهم بنسب الرسول صلى الله عليه وسلم في

¹ عبد الرحمان بن محمد الجبالي، ج 2، مرجع سابق، ص 151.

² ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص 14.

³ مؤلف مجهول، الحل الموشية...، مصدر سابق، ص ص 185 - 186.

مضر،¹ وكان لهذا الأخير ولدان إلياس جد الرسول، ومن نسله جميع قبائل قريش وعيلان والد قيس ودهمان اللذان تفرقت منهما جميع قبائل قيس.²

يروى في شأن هذا النسب الشريف أن أبو القاسم الملاحى قدم الى السلطان أبو يعقوب المريني فترة حصاره لتلمسان يحمل إليه شجرة نسب بني مرين إلى رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، وبعد الانتهاء من قراءتها قال: "أما هذا فقد شكرنا تهمك به وحمدنا لك مسعاك وهذا الشيء إن كان على حق ما قلته، فترجوا النفع به عند الله في العقبى، وإن كان غير ذلك، فلا خير لنا في التمسك بما فيه مطعن علينا".³

بينما أرجع عبد الرحمان ابن خلدون نسب بني مرين إلى قبيل زناتة البربرية الأمازيغية ووجودهم بأرض المغرب كان قبل دخول أي عربي ذو نسب شريف أو غيره: "إنهم بنو مرين بن ورتاجين بن ماخوخ بن جديج بن فاتن بن يدر بن يخفت ابن عبد الله بن ورتنيص بن المعز بن إبراهيم بن سجيح بن واسين، وأنهم إخوة بن يلومي ومديونة".⁴

وبهذا فإن بني مرين هم قبائل زناتية بربرية أبناء عمومة بني عبد الواد، تشاركت في إدعاء نسبها الشريف مع جارتها في المغربين الأوسط والأدنى من أجل تشريع وراثتهم لملك بني عبد المؤمن بالمغرب الإسلامي أولا والأندلس فيما بعد.

أما فيما يخص مواطن بني مرين قبل دخولهم الى المغرب الأقصى فلم تتفق المصادر التاريخية على أماكن معينة لمواطنهم، لأنها كانت متعددة وغير ثابتة نظرا لنمط حياتهم البدوي القائم على الترحال بحثا عن الزاد، الماء والمراعي الخصبة لأنعامهم التي ينزلون بها في القفار والصحاري الممتدة من جنوب القيروان الى صحراء بلاد السودان.⁵

والجدير بالذكر أن بني مرين لا يدخلون تحت لواء أي سلطان ولا يرضون دفع الضرائب قط، يجهلون الحرث ولا يمتهنون التجارة و"شغلهم الصيد وطراد الخيال والغارات على أطراف

¹ ابن الأحمر، روضة النسرین...، مصدر سابق، ص 9.

² ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص 15.

³ ابن مرزوق التلمساني، مصدر سابق، ص 109.

⁴ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 221.

⁵ ينظر: ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص 25. -محمد عيسى الحبري، مرجع سابق، ص 4.

البلاد"،¹ وكانت طائفة من بني مرين تدخل بلاد المغرب بغية الرعي في فصل الصيف وعند بلوغ فصل الخريف تنزل ببلد كرسيف.²

قام ابن مرزوق التلمساني في تعداد مواطن ملكهم قبل دخولهم للمغرب الأقصى إذ تملكوا مساحات شاسعة تمتد من بلاد الجريد الى ناحية المغرب، وبهذا يمتد نفوذهم من بلاد الزاب إلى تاهرت وأحواز من تلمسان،³ أما القلقشندي فقد حدد مواطنهم قبل الملك ما بين فكيك وصا وملوية،⁴ وجبل صا كان الحد الطبيعي الفاصل بين ملك بني عبد الواد وأبناء عمومتهم من بني مرين قبل عبور هاته الأخيرة الى المغرب الأقصى ومزاحمة بني عبد المؤمن في عرشهم ومواطن ملكهم أولاً ومن ثم تعديهم على حدود جيرانهم سالفى الذكر من الشرق، بعد أن تمكنوا من إقامة دولتهم فيما بعد، يقول صاحب الحل الموشية عن مواطن بني عبد الحق: "أصل بني مرين من أحواز تلمسان، قاعدة المغرب الأوسط، ودار مملكة زناتة على قديم الزمان، وكان وطنهم ما بينها وبين تاهرت من شرقها، يجاورهم في السكنى من زناتة يغمراسن، وبنو توجين، وبنو مغراوة، وبنو راشد، وغيرهم"،⁵ وفي سنة (601هـ/1204م) وقعت الفتنة بينهم وبني واسين وبني عبد الواد فبقي بني مرين بمجالات القفر من فكيك الى سجلماسة.⁶

3. 2 دخول بني مرين الى المغرب الأقصى وبداية نشأة دولتهم:

شهد القرن السابع للهجري تحولات جوهرية في الاستراتيجيات القبلية والسياسية لبني مرين إذ سرعان من تحولت مطامحهم البدوية -التنقل بحثاً عن الأراضي الخصبة والمراعي- إلى أهداف سياسية تسمو إلى تثبيت وجودهم في مجالات المغرب الأقصى، وتشكيل كيان سياسي جديد وكان

¹ الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 5. -مسعود كربوع، "المريونيون من الطور القبلي إلى الطور السياسي- دراسة في الأبعاد التاريخية لهذا التحول"، مجلة دقاتر المخبر، مج 19، ع 1، (من ص 126 إلى ص 141)، الجزائر، ماي 2024، ص 130.

² ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص 25.

³ ابن مرزوق التلمساني، مصدر سابق، ص 110.

⁴ القلقشندي، ج 5، مصدر سابق، ص 194.

⁵ مؤلف مجهول، الحل الموشية...، مصدر سابق، ص 186.

⁶ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 221. -عبد الرحمان بن محمد الجيلالي، ج 2، مرجع سابق، ص 151.

للظروف السائدة في المنطقة آنذاك دورا مهما في تسريع هذه العملية، إذ استغلوا الفراغات السياسية والاقتصادية لفرض سلطانهم. في هذا السياق سيتم تقديم مادة تاريخية تشرح كيفية دخول بني مرين إلى المغرب الأقصى، والسياسة التي تم اتباعها للتمكن من تشكيل دولة ذات نظام سياسي مستقل وتثبيت أقدامهم في هذه المنطقة.

3. 2. 1 دخولهم إلى المغرب الأقصى:

كان البيت المريني من أعرق البيوت في قبيلة زناتة وماخوخ هو الجد الأكبر لهم، تفرقت من نسله قبائل بني مرين وعشائرها إذ تولى أمرهم في فترة مبكرة بفضل شخصيته التي تجمع بين الكرم والشجاعة وتفوقه في المجالس على مشايخ زناتة،¹ في بيئة الرياسة هذه نشأ مرين وأبنائه وكان من بينهم جرماط بن مرين وكان له ولدان يجوس ويابان، ومن هذا الأخير تشعبت جميع قبائل بني يابان، أما يجوس فكان له ثلاثة أولاد هم: وطاس ومنه تكونت جميع شعوب بني وطاس، وتناقلت تشكلت منه شعوب بني تنالفت، ووزير أنجب ينجاسن ومحمد الذي انحدرت منه شعوب بني ينجاسن وتفرعت منها العديد من العشائر.²

أما محمد بن وزيرين³ فكانت رياسته بني مرين في تلك الفترة له، ثم انتقلت إلى ابنه الأكبر حمامة، ثم انتقلت إلى أخوه عسكر من بعده ولما هلك عسكر قام بالأمر من بعده المخضب،⁴ الذي كان من أكثر الرجال قوة وأشدّهم بأسا وأكثرهم شجاعة إذ قاد جيوشه إلى انتصارات جمة مكنته من السيطرة على بلاد لمتونة وبسط نفوذه على ما يليها من إقليم تلمسان وبجاية والقلعة، فاضطر أصحاب هاته الأقاليم إلى مهادنته،⁵ إلى أن توفي سنة (540هـ/1145م) أثناء الحروب التي كانت قائمة بين المرابطيين وبني عبد المؤمن.⁶

¹ محمد عيسى الحريري، مرجع سابق، ص 5.

² **ينظر:** ابن الأحمر، روضة النسر...، ص 10. -محمد عيسى الحريري، مرجع سابق، ص 5.

³ أورد عبد الرحمان ابن خلدون اسمه: محمد بن وزيرين، وفي نسخة أخرى ابن وزير. **ينظر:** العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 221.

⁴ **المخضب:** هو الأعذر بن العافية بن عسكر بن محمد بن وزير بن فجوس بن جرماط بن مرين ويعرف بالمخضب. **ينظر:** ابن الأحمر، روضة النسر...، مصدر سابق، ص 13.

⁵ ابن الأحمر، روضة النسر...، نفس المصدر، ص 13.

⁶ الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 4.

تمكن بني عبد الواد إثر هاته الحادثة من الحلول محل بني مرين، بعد أن أقطعهم الموحدون هاته الأعمال جزاء الولاء والطاعة لهم فلم يكن لبني مرين خيار سوى الرجوع الى موطنهم الأصلي، وتولى رئاسة بني مرين من بعد المخضب ابن عم حمام أبي بكر ثم ابنه محيو بن أبي بكر بعد هلاكه،¹ شهدت فترة تولي هذا الأخير رئاسة بني مرين أحداث مهمة على المستوى العسكري والسياسي أبرزها مشاركته مع الخليفة المنصور في معركة الأرك التي دارت أحداثها بالأندلس سنة (591هـ/1195م)،² تولى خلالها قيادة المتطوعين من قبائل زناتة كلها وأبلى محيو ومن معه من رجال بني مرين بلاء حسنا في هاته المعركة،³ أصيب على إثرها بجروح خطيرة زادت من شدتها في طريق عودته إلى موطنه مما أدت إلى وفاته بصحراء الزاب ليتولى أمر بني مرين من بعده ابنه الأكبر أبي محمد عبد الحق.⁴

نستخلص من خلال ما تم تقديمه أن بني مرين كانوا عنصرا من العناصر التي آزرت بني عبد المؤمن في حروبهم خارج بلاد المغرب برسم الجهاد ضد النصارى في بادئ الأمر، على الرغم من سلبهم مناطق إقامتهم في مجالات المغرب الأوسط، إذ قاد أبو محمد طائفة من قبيلته إلى المغرب الأقصى وكان دخولهم إليها من صحراء الزاب سنة (610هـ/1213م) فوجدوها خالية من أهلها ورجالها الذين استشهدوا بالأندلس، وما شجعهم على هذا الجواز هو ضعف الموحدون وعدم قدرتهم على حماية ملكهم نتيجة الوهن الذي أصابهم إثر العقاب ثم التحقت بقية القبيلة به فيما بعد ودخلوا المغرب الأقصى من واد تلاغ بأنعامهم ومراكبهم وقبابهم وجيوشهم.⁵ بدأ بني مرين عقب دخولهم إلى المغرب الأقصى حركة انتشار واسعة شملت منطقة الريف القبلي من إقليم تازا، فاستقروا في المناطق المرتفعة بغية الإشراف على سائر الأرجاء المحيطة بهم

¹ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 122.

² الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 5.

³ محمد عيسى الحريزي، مرجع سابق، ص 7.

⁴ **ينظر:** ابن الأحمر، روضة النسر...، مصدر سابق، ص 14. -الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 5.

⁵ محمد عيسى الحريزي، مرجع سابق، ص 10.

لتنقادي الغارات المفاجئة وبهذا تتوفر لهم حماية طبيعية.¹ من الأسباب التي دفعت بني مرين الدخول إلى مجالات المغرب الأقصى:²

– توفره على مساحات المراعي الشاسعة.

– نقاء هوائه واكتسابه للعديد من منابع المياه العذبة فأرادوا الاستحواذ عليها.

لكنه سرعان ما غيروا رغباتهم البدوية وأصبحت مطامحهم تسمو للإطاحة بملك الموحدين ووراثته عرشهم بمراكش، ومن خلالها تتسنى لهم فرصة ملك عامة بلاد المغرب وما كان لهم في الأندلس، وليتم لهم هذا عملوا على استقطاب جماعات أهل المغرب من خلال تنصيب أنفسهم حماة لهم، فركزت سياستهم على الإمساك بزمام الأمور في أقصى المغرب، من خلال استئصال نفوذ الأعراب الذين عاثوا بأراضيهم فسادا بعد وهن دولة الموحدين.³

3. 2. 2 بداية نشأة دولتهم:

قام بني مرين بعد دخولهم المغرب الأقصى بتوسيع رقعة نفوذهم بها، وما ساعدتهم في هذا هو سوء تدبير وتسيير الخليفة الموحي يوسف المستنصر لصغر سنه فعاثوا في أرضه فساد وكثر ضررهم وتضاعف بلائهم على الرعية، لهذا لجئوا إلى رفع الشكايات لخليفته بمراكش الذي استجاب لها وراح يوجه جيوشه نحوهم (بلغ عددهم نحو عشرون ألف مقاتل) بقيادة أبي علي بن وانودين/ ورافقه إسحاق بن يوسف مع جموع من قبائل العرب ومكناسة وتسول والبرانس وسدراتة وهوارة وصنهاجة وقشتالة ولمطة... وغيرهم من قبائل فاس ورباط وتازا.⁴ ولما وصل الخبر لبني مرين المتواجدين في جهات الريف من بلاد بطوية، سارعوا إلى ترك كل من أثقالهم وأمتعتهم وعيّلهم بحصن تازوطا ليسهل عليهم مقاومة الموحدين.⁵

التقا الفريقان بالقرب من واد نكور وتمكن خلالها بني مرين من التغلب على الموحدين في حرب دامت لأكثر من أربع أيام، وسلبوا منهم جميع غنائمهم وذخائرهم وبالغوا في التنكيل بهم

¹ ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص 26.

² ينظر: ياقوت الحموي، مج 4، مصدر سابق، ص 230. - الحميري، مصدر سابق، ص 434. - محمد عيسى الحريري، مرجع سابق، ص 9.

³ مسعود كربوع، مرجع سابق، ص 130.

⁴ ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص ص 27-28.

⁵ ينظر: الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 6. - محمد عيسى الحريري، مرجع سابق، ص ص 11-12.

إذ جردوهم من ملابسهم، وقيل أنه من نجا منهم فر وهو مستتر بأوراق نبات معروف عند أهل المغرب باسم المشعلة، فسميت السنة التي حدثت فيها المعركة بعام المشعلة.¹ يروى أنه عند وصول إسحاق إلى فاس مهزوما وقف عند باب الفتوح فأقبل عليه أهل من عسكره وهم متسترين بالمشعلة فسألهم عن ذلك فقالوا له: "في مدتك المباركة يا سيدنا وتحت لوائكم المنصور".²

بعدما جمع عبد الحق الغنائم قسمها على قبائل بني مرين ولم يمك منها لنفسه وبنيه شيء، وقال لهم: "إياكم أن تأخذوا من هذه الغنائم شيء فإنه يكفيكم منها الثناء والظهور على أعدائكم"،³ فقويت بذلك شوكته واشتهر ذكره وارتفع شأنه وقبيلته في بلاد المغرب الأقصى وما يليها، فتحركت بعد ذلك مشاعر الغيرة في نفوس بني عسكر، وسرعان ما أعلنوا لمرين الشقاق واجتمعوا بحربهم ضدهم رفقة عرب رياح، وعليه فلقد قتل إثر هذه المعركة عبد الحق وولده فتأثرت بعد ذلك لهم مرين وقتلوا جميعهم ومن تبقى منهم زج بهم في السجن ودفن رئيسهم وابنه إدريس أبو العلى في موضع يعرف بتافرطاست،⁴ ولم يؤثر مقتلها على بني مرين البتة إذ تولى أمرهم من بعده أبو السعيد عثمان سنة (614هـ/1217م) وأول ما قام به إثر ترأسه لهذا القبيل التحرك نحو عرب رياح أين قتل منهم الكثير،⁵ وارتكزت جهوده حول توسيع رقعة قبيلته على البوادي والأرياف.⁶

في هذه الفترة أخذت أحوال الموحدين تتأزم تدريجيا انطلاقا من سنة (615هـ/1218م) وبدأت بوادر الضعف والانحلال تظهر وتبرز للعامة، فاعتصم الولاة الذين لم يعد لهم سلطة على

¹ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 225. -ابن عذاري المراكشي، مصدر سابق، قسم الموحدين، ص266.

² ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص 29.

³ الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 6.

⁴ ابن مرزوق التلمساني، مصدر سابق، صص111-112.

⁵ مؤلف مجهول، الحلل الموشية...، مصدر سابق، ص 172.

⁶ محمد عيسى الحريري، مرجع سابق، ص 13.

البوادي والأرياف بالمدن وكثرت الفتن بين القبائل، ونبذ الكثير منهم طاعة الموحدين وانعدم الأمن في الطرقات وامتنع عامة الناس من دفع الضرائب وانقطع الحرث واشتد الغلاء.¹

استغل أبو السعيد عثمان التدهور الذي آل إليه الموحدين وأخذ يدعو قبائل المغرب الأقصى في الدخول تحت طاعته، وكان أول من بايعه من القبائل: هواره، زكارة، تسول، مكناسة، بطوية، قشتالة، سدراتة، بهلولة ومديونة فوضع عنهم مقدار معلوم من الخراج وألزم أهل فاس ومكناسة وتازا وقصر عبد الكريم بضريبة مالية،² يأتيونه بها كل سنة مقابل تأمينه لطرقاتهم ويدفع عنهم أذى غاراته،³ وفي سنة (620هـ/1223م) غزى بلاد فاذا وانقادت بعدها تحت لوائه، وبعد سنتين من هذا هاجم قطاع الطرق من قبائل العرب والبربر بفحص أزغار.⁴

هذه الانتصارات المتتالية أجبرت الموحدين على إنتهاج سياسة جديدة اتجاه منافسيهم في الملك، فعملوا على مهادنتهم دون مواجهتهم عسكريا ومهادتهم إن استلزم ذلك وفي سنة (637هـ/1239م) قتل أبو السعيد،⁵ وبايع بعده أشياخ بني مرين أخاه أبو معرف محمد الذي انتهج نفس منهج أسلافه محاولا بذلك إقامة كيان لهم ففتح الكثير من جبال المغرب وقلعها.⁶

وفي سنة (642هـ/1245م) جهز له الخليفة الموحدي السعيد بن المأمون جيشا يتألف من عشرين ألف مقاتلا (20000 مقاتلا) مكونا من قبائل العرب والمصامدة والروم (الإفرنج)، فتم اللقاء بين الفريقان بموضع يعرف بصخرة أبي بياش انهزم به بني مرين وقتل أميرهم أبو المعرفة

¹ ينظر: ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص 36. - محمد المنوني، ورقات عن حضارة المرينيين، مطبعة النجاح الجديدة، ط 3، دار البيضاء، المغرب، 2000، ص ص 11-12.

² أورد ابن عذارى المراكشي أن أول بلاد فتحتها مرين هي رباط تازا، على يد الأمير أبو يحيى ابن عبد الحق المريني، ولما استقر هذا الأخير برباطها قرع الطبول، ونشر البنود وصلته ببيعات أشياخ القبائل. ينظر: ابن عذارى المراكشي، مصدر سابق، قسم الموحدين، ص ص 390-391.

³ ينظر: ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص 37. - مؤلف مجهول، الحلل الموشية...، مصدر سابق، ص 172.

⁴ ينظر: الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 10. - محمد عيسى الحريري، مرجع سابق، ص 14.

⁵ مات أبو السعيد مقتولا على حين غفلة ليلا، على يد علج من عبيده رباه صغيرا، فضربه في نحره بحربة (أي أداة حديدية حادة لها استعمالات عدة كالصيد، والقتال في المعارك). كانت وفاته سنة (638هـ/1240م)، وقيل سنة (637هـ/1239م). كانت أيام إمارته على قبائل بني مرين أربعة وعشرون سنة. ينظر: ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص 38. - مؤلف مجهول، الحلل الموشية...، مصدر سابق، ص 172.

⁶ محمد عيسى الحريري، مرجع سابق، ص 15.

على يد أحد زعماء الفرنج يدعى أبو ضربة،¹ فانسحب بعدها الجيش المريني إلى الجبال بمنطقة تازا لأيام ثم خرجوا نحو القفار لتجنب حشود الموحدين، وعلى الرغم من الانتصار الذي حققه الموحدين إلا أنهم لم يستطيعوا استرجاع أريافهم وبواديهم التي استحوذ عليها بني مرين، وبعد قتل أبو المعروف تولى أبي يحيى بن عبد الحق أمر بني مرين وأول ما قام به هو تقسيم البلاد والمناطق التابعة له بين عشائر بني مرين.²

سعى أبو يحيى جاهدا لإقامة دولة فعلية تضاهي دولة بني حفص في المغرب الأدنى وبني عبد الواد في المغرب الأوسط، وليتم له ذلك خلع طاعة بني عبد المؤمن معترفا بسلطة بني حفص وبهذا الاعتراف أضفى على أعماله العسكرية هالة من الشرعية، فتح من خلالها مكناسة سنة (643هـ/1246م) واستولى على فاس سنة (646هـ/1249م) كما بايعه أهلها ثم تبعها أهل تازا، سلا ورباط الفتح واستولى على نواحيها وأقام فيها الدعوة الحفصية.³

كما انتزع من الموحدين سجلماسة سنة (653هـ/1256م)،⁴ لكنها خرجت عنه وألحقها يغمراسن إليه فيما بعد، وبقيت هذه المدينة بين الكر والفر لفترة طويلة وأصبحت معتركا لهاتين القبيلتين، وهذا ما ستم معالجته لاحقا.

ظل أبو يحيى طيلة سنة (656هـ/1256م) وجزء من سنة (657هـ/1258م) يعمل على تثبيت أقدام بني مرين في سلا ورباط الفتح وسجلماسة حتى توفي،⁵ وبوفاة أبو يحيى انتهى بنو مرين من مرحلة الاستيلاء على المدن الكبرى للمغرب الأقصى وبدأت مرحلة بناء صرح الدولة من خلال الاستيلاء على مراكش عاصمة الموحدين.⁶

¹ ينظر: ابن مرزوق التلمساني، مصدر سابق، ص 112. -القلقشندي، ج 5، مصدر سابق، ص 195. -الناصر، ج 3، مرجع سابق، ص 11.

² ينظر: القلقشندي، ج 5، مصدر سابق، ص 195. -عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 227.

³ محمد عيسى الحريري، مرجع سابق، ص ص 17-18.

⁴ ينظر: القلقشندي، ج 5، مصدر سابق، ص 196. -محمد عيسى الحريري، مرجع سابق، ص ص 17-18.

⁵ توفي سنة (656هـ/1258م) وقيل أنه توفي في السنة التي تليها بقصره في فاس، دفن بجانب الشيخ أبي محمد الفشتالي، حسب ما أوصى به، داخل باب الجيزيين أحد أبواب عدوة الأندلس. ينظر: ابن مرزوق التلمساني، مصدر سابق، ص 115. -الناصر، ج 3، مرجع سابق، ص 19.

⁶ محمد عيسى الحريري، نفس المرجع، ص 26.

3. 2. 3 تأسيس الدولة المرينية:

بعد وفاة أبو يحيى تمت البيعة لابنه عمر فانقسم حينها أمر بني مرين بين مؤيد ومعارض لحكمه، ولشدة اضطراب الأمور بفاس طيلة الأربعة أشهر قدم عمه يعقوب من رباط تازا لتهدئة الأوضاع وفض هذا التآزم، فألتقت حوله مشايخ بني مرين وجموع من مؤيديه فلم يرضوا إلا به حاكما لهم وتم له ذلك سنة (657هـ/1258م).¹

وجد يغمراسن لهذا الشقاق فرصة لضرب المرينيين والقضاء عليهم فجمع جيشا من قومه وانضمت إليه قبائل توجين ومغراوة، فالتقى الجمعان سنة (657هـ/1258م)،² وفي سنة (658هـ/1259م) جددت البيعة ليعقوب بعد وفاة عمر واجتمع شمل بني مرين مرة أخرى، وانتظموا تحت طاعته وأخذ بعدها في افتتاح أمصار المغرب الأقصى، من جملة ذلك استرجاعه سلا من أيدي النصارى.³

انحسر نفوذ الموحيدين هذه الفترة في المنطقة الواقعة بين وادي أم الربيع ومراكش، أما نفوذ بني مرين فقد وصل ما بين ملوية وأم الربيع وسجلماسة وقصر كتامة، تخوف المرتضى حينها من النفوذ والقوة التي وصل إليها بني مرين بفضل جرأة وحنكة أميرهم يعقوب، فسارع بإرسال هدية معية شيوخ الموحيدين يطلب من خلالها المهادنة والموادعة، فقبل أمير بني مرين بهذا مقابل أن يكون واد أم الربيع هو الحد الطبيعي الفاصل بين ملك بني مرين والموحيدين،⁴ ثم عقد الصلح مع بني زيان وتفرغ بعدها لإصلاح الأوضاع الداخلية.⁵

وعليه تعتبر المعاهدات التي تمت بين الأطراف المتصارعة في المغربين الأوسط والأقصى بمثابة توزيع النفوذ فيما بينهما.

¹ ينظر: ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص 88-89. -ابن مرزوق التلمساني، مصدر سابق، ص 115.

² ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص 89.

³ القلقشندي، ج 5، مصدر سابق، ص 196.

⁴ ينظر: ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص 94. -محمد عيسى الحريري، مرجع سابق، ص 26-30.

⁵ الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 24.

لم يدم الصلح الذي تم بين الموحيدين وبني مرين طويلا فسرعان ما التقى جيش المرتضى¹ ويعقوب سنة (659هـ/1260م) انتصر فيها بني مرين ولقد رجحت المصادر التاريخية سبب هزيمة الموحيدين في واقعة أم الرجلين² إلى غدر بني جابر، وفي سنة (660هـ/1261م) سار جيش يعقوب نحو مراكش ونزلوا بمقربة من باب المدينة، كان خلالها المرتضى معتمدا داخل قصره وقيل أن جيشه خرج لقتال بني مرين في معارك كبيرة وكثيرة بقيادة أبي دبوس دامت شهرين³، يقول في هذا الشاعر عبد العزيز:⁴

في عام ستمئة وستين سار لمراكش سلطان مرين
فوقف المنصور في كليز مبرزا في أحسن التبريز
وعاد فيها المتضما محصورا ذا أرق في قصره مقصورا
ودارت الأعراب بالأسوار واعتمدوا فيها على الحصار.

انسحب يعقوب وجيشه من مراكش إثر مقتل ابنه عبد الله ابن يعقوب متوجها إلى فاس فدخلها سنة (661هـ/1262م)، وأدرك المرتضى حينها خطورة الموقف فأرسل ليعقوب يعزيه في ابنه وتعهده له بدفع ضريبة سنويا.⁵

لم تتوقف جهود بني مرين في الاستيلاء على مراكش إذ تم لهم ذلك عند قدوم أبي دبواس فارا من المرتضى إلى يعقوب،⁶ طالبا منه العون والمناصرة فاستجاب له مقابل اقتسام الأراضي

¹ ضم جيش المرتضى مشايخ الموحيدين من سفيان والخلط والأثبخ، بني جابر وبني العاصم وقواد الروم والأغزاز والمصامدة، بقيادة يحيى بن عبد الله بن واندن. **ينظر:** ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص 96.

² **أم الرجلين:** يوجد بواد أم الربيع جزر مرتفعة ينقسم الوادي بينهم قسمين، فسميت الواقعة بواقعة أم الرجلين. **ينظر:** ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص 95-96.

³ ابن عذاري المراكشي، قسم الموحيدين، مصدر سابق، ص 428.

⁴ ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 303.

⁵ محمد عيسى الحريري، مرجع سابق، ص 32.

⁶ يرى ابن أبي زرع أن سبب فرار ابن دبوس من المرتضى هو أنه علم بالمراسلات السرية التي كانت تتم بينه وبين مرين، ورغبة أبي دبوس القصوى في انتزاع عرش الموحيدين منه. **ينظر:** ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص 109.

التي يسيطر عليها بعد أن تم الاتفاق،¹ وعندما تمكن أبي دبوس من دخول مراكش وصله خبر ما حققه يعقوب، فبعث له يهنئه ويذكره على ما تم الإتفاق عليه فتكرر لتلك الوعود فغضب حينها يعقوب ونهض إليه بجيش ضخم سنة (666هـ/1268م) عازما على غزو مراكش وانتزاعها منه.² علم الخليفة الموحي الجديد حينها أنه ليس بمقدوره مجابهة بني مرين فأسرع بإرسال هدية مع الشيخ أبي العباس أحمد بن مخلوف الهسكوري يتعهد من خلالها الوفاء لما تم الاتفاق عليه سابقا، فرضى يعقوب وعاد إلى فاس،³ خلال هذه الفترة وصلت لأبي دبوس مبايعة يغمراسن يقول له: "إياك أن تطمع بني مرين فيما لديك فأنا أكفيك شرهم، وأنا وأنت يد واحدة في حربهم".⁴ شعر خلالها أنه في موقف يسمح له المواجهة ونقض العهد فخرج يوسف لحصار مراكش مرة ثانية، ولم يرفعه عنها إلا بعد قيام يغمراسن بشن غارات على أطراف المغرب خاصة ملوية كاستجابة منه لمطلب أبي دبوس، وفي منتصف سنة (666هـ/1268م) هزم يعقوب يغمراسن في معركة دارت أحداثها بواد تلاغ.⁵

بعد انتهاء يعقوب من حربه مع يغمراسن تحرك في شعبان من نفس السنة بجيشه وهو عازم على الإطاحة بعرش الموحدين، بعد بلوغه واد أم الربيع أباد كل ما جيء أمامه فأحرق الزرع وخرب العمران وأغار على القبائل المؤيدة للموحدين من عرب الخلط وصنهاجة، فاضطربت الأحوال بالمنطقة وانقطعت الموارد عن العاصمة مراكش، واجتمع على إثر هذا أشياخ من قبائل العرب والمصامدة على أبي دبوس وقالوا له: "كم تقعد عن حرب بني مرين وتحين عن لقاءهم؟ أما ترى

¹ اتفق أبي دبوس مع يعقوب على إعانته، فأمدده السلطان يعقوب بالجيش، والعدة من الآلة الكفاية، والمال. **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 238. -الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 25.

² **ينظر:** ابن عذاري المراكشي، مصدر سابق، قسم الموحدين، ص 449. -عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 238. -الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 25.

³ ابن عذاري المراكشي، مصدر سابق، قسم الموحدين، ص 451.

⁴ ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص 112.

⁵ **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 238 -239. -ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، 115. -ابن عذاري المراكشي، مصدر سابق، قسم الموحدين، 451. -الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 25 -26. -محمد عيسى الحريري، مرجع سابق، ص 33 -34.

بلادنا قد خربت؟ وأموالنا قد نهبت؟ وحريمتنا قد سبي؟ فأخرج لجهادهم عسى أن يكون السبب لبعادهم".¹

اعتز أبو دبوس بعدها بقولهم هذا وخرج للقائهم من موضعه -مراكش- بجيش جرار، فتظاهر أبو يوسف حينها بالفرار أمامه بغية إبعاده من مراكش حتى لا يستفيد من الإمدادات التي تصله منها ولا يعود للتحصن بها في حال هزمه، وفور نزول أبي دبوس بواد غفو أغار عليه يعقوب وضيق عليه أشد تضيق وعندما أراد الفرار كعادة أجداده لم يجد سبيلا، وجيء برأسه إلى يعقوب فسجد شكرا لله وكان ذلك في الثاني من محرم سنة (668هـ/1270م).²

وبدخول يعقوب مراكش انتهت دولة الموحدين نهائيا بالمغرب،³ وانتصبت مرين دولة فعلية متخذة فاس عاصمة لملكهم والمغرب الأقصى نطاقا لدولتهم، وبعد قضائه على الموحدين واصل يعقوب جهوده بنفس الدرجة من القوة والكثافة، فراح يقوم بإخضاع كل المناطق الواقعة في مجالات المغرب الأقصى تحت دائرة سلطانه، كما استجاب السلطان يعقوب لأهل الأندلس وساعدهم في الإطاحة بالإفرنج وهزمهم أشد هزيمة قتل من جندهم أربعين ألف جندي، وتمكن من خلالها تملك رندة وطريف وجبل طارق وغير ذلك.⁴

على ضوء ما تم تقديمه يتضح أن يعقوب هو المؤسس الفعلي لدولة بني مرين ولقد تمكن بفضل مجهوداته من عمل صرح سياسي يخدم مصلحة البلاد وأهلها بعيدا عن أي توجه ديني أو عقائدي كما فعل الموحدين من قبله، وبهذا يكون قد أعطي للناس الحرية الكاملة في الانتماء للمذهب الذي يريدونه وهكذا أصبح السلطان مصدرا للسلطة السياسية لا الدينية.

¹ ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص116.

² الناصري، مرجع سابق، ج 3، ص ص 26- 27. -محمد عيسى الحريري، مرجع سابق، ص 35.

³ القلقشندي، ج 5، مصدر سابق، ص 197.

⁴ أحمد بن محمد المقرئ التلمساني (ت1041هـ)، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تح إحسان عباس، مج 4، دار صادر، بيروت، لبنان، 1968، ص 385.

بعد وفاة يعقوب¹ أخذ أهل الحل والعقد،² البيعة لولي عهده أبي يعقوب ثم جددت له البيعة للمرة الثانية،³ عند حضوره الى الجزيرة الخضراء بالأندلس،⁴ وسار السلطان الجديد على خطى والده وأجداده في تثبيت ملك دولته فأول ما قام به هو توطيد الوجود المريني بالأندلس على المستوى الإداري، فقام بتعيين أخيه أبي عطية واليا على الثغور الغربية وأوصاه بضبطها، كما عقد للشيخ أبي الحسن علي بن يوكاننتين القيادة الحربية وأمده بثلاثة ألف مقاتل وأعانه بالخيول،⁵ ثم عاد إلى المغرب أين قضى على الفتن والتمردات التي حدثت فترة غيابه.⁶

استمر الوجود المريني بالأندلس، وعمل ملوك غرناطة على توطيد علاقتهم بها أكثر فأكثر يقول في هذا المقري التلمساني: "لم يزل بني مرين يعينون أهل الأندلس بالمال والرجال وتركوا منهم حصّة معتبرة كم أقارب السلطان بالأندلس غزاة، فكانت لهم وقائع في العدو مذكورة، ومواقف مشكورة، وكان عند ابن الأحمر جماعة بغرناطة، وعليهم رئيس من بيت بني مرين يسمونه شيخ الغزاة".⁷

وعليه فإن بني مرين تمكنوا من إقامة دولة لها نظامها السياسي الخاص بعد القضاء نهائيا على الموحدين، أين شغلت حيزا جغرافيا من أراضيها -المغرب الأقصى- وعملت على توسيع رقعتها الجغرافية خارج هذا المجال في العديد من المرات، كما كانت لها أدوار كبيرة في الأندلس

¹ توفي يعقوب أبو يوسف في أواخر ذي القعدة سنة (680هـ/1286م) بعد مرض شديد بقصره في الجزيرة الخضراء الأندلس وحمل إلى رباط الفتح ودفن بشالة. **ينظر:** ابن الأحمر، روضة النسرین...، مصدر سابق، ص 21.

² **أهل الحل والعقد:** المقصود به هو عقد نظام جماعة المسلمين في شؤونهم العامة والسياسية، الإدارية، التشريعية والقضائية ونحوها، نشأ هذا المصطلح من قبل العلماء. أول من قام باستعماله هو القاضي أبي بكر الباقلاني (ت 403هـ)، أما أهل الحل والعقد في الدولة المرينية هم شيوخ الدولة ووزرائها وكبار رجالاتها. **ينظر:** عبد الله بن إبراهيم الطريفي، أهل الحل والعقد (صفاتهم ووظائفهم)، مطبعة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، السعودية، 1998، ص ص 21-26.

³ كانت البيعة للسلطان المريني تتم على مرحلتين الأولى يبايع فيه أهل الحل والعقد ولي العهد بيعة خاصة ثم يقدمونه للرعية يبايعوه بيعة عامة. **ينظر:** محمد عيسى الحريزي، مرجع سابق، ص 261.

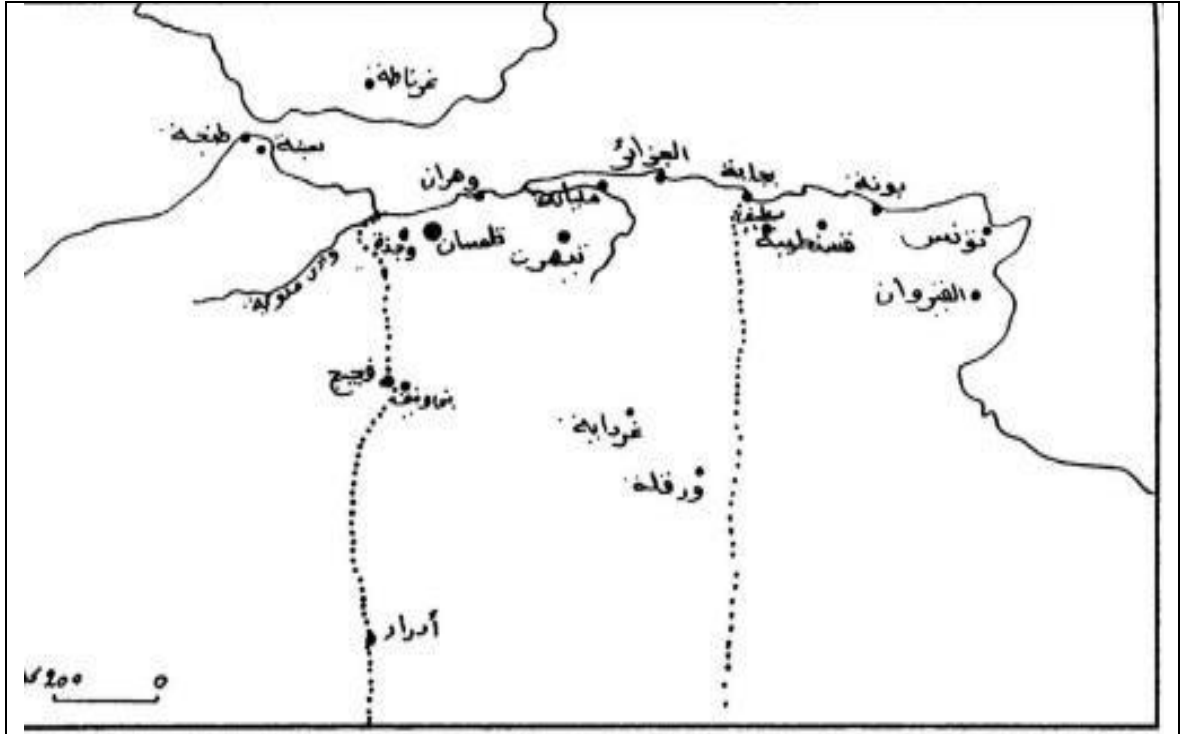
⁴ ابن الأحمر، روضة النسرین...، مصدر سابق، ص 21.

⁵ الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 66.

⁶ محمد عيسى الحريزي، مرجع سابق، ص ص 83-84.

⁷ المقري التلمساني، مج 4، مصدر سابق، ص 585.

وكان لسلطين مرين مواقف عدة في هذه المنطقة، برسم الجهاد ونصرة الإسلام والمسلمين من جهة، والاستحواذ على بعض أقاليمها وإخضاعهم داخل نطاق دولتها من جهة أخرى. وهكذا انقسمت تركة الموحدين في المغرب الإسلامي بين ثلاث دول رئيسية: الدولة الحفصية بإفريقية، الدولة الزيانية بالمغرب الأوسط والدولة المرينية في المغرب الأقصى وسعت كل واحدة من هاته الدول إلى توسيع نفوذها خارج نطاق ملكها بغية توحيد المغرب تحت رايتها. (الخريطة رقم: 01)



خريطة رقم: 01

حدود تقريبية لدول المغرب خلال القرن الثامن للهجري

عبد العزيز فيلالي، ج 1، ص 628.

3. 3 النظام العسكري:

يعد الجيش من أهم مقومات الدولة القوية ولقد اتسم الجيش المريني بنفس القوة التي كان يحضى بها الجيش الموحي وتوفرت له نفس العدة خلال المراحل الأولى من عمر الدولة،¹ وفيما يلي سيتم عرض النظام العسكري للجيش البري والأسطول البحري للدولة المرينية:

3. 3. 1 الجيش البري:

أخذ الجيش المريني يتطور تدريجيا على مستوى التسليح بحكم التطور التقني الذي عرفه الميدان العسكري بعد الفترة التي تلي القرن السابع للهجري خاصة على عهد أبو الحسن المريني إذ تمكن من التفوق على الجيوش التي كانت في صراع معه في المغرب الأوسط والأدنى،² غير أن هذه التطورات على الرغم من أهميتها، لم تمس البنية التقليدية للجيش باعتباره جيشا قبليا،³ وكان أول ظهور (نظامي) للجيش المريني خلال عهد الأمير أبي بكر بن عبد الحق إثر معركته مع بني زيان (647هـ/1250م)، وعليه فهو أول من جند الجنود وضرب الطبول ونشر البنود.⁴ يتألف الجيش المريني من جند نظامي وفرسان خواص، يتكون الأول من عناصر عدة لكل عنصر خصائصه الحربية ووظائفه العسكرية وأدواره الرئيسية وطرقه الخاصة التي يسير عليها خلال المعركة،⁵ من هذه الفرق:

3. 3. 1 بنو مرين:

ساهمت قبائل بني مرين بدور كبير في تثبيت ملك الدولة بالمغرب الأقصى والإطاحة بمحاولات التمرد على السلطة، فضلا عن حروب مرين الخارجية ضد مناوئها في المغرب الأوسط والأدنى، وفصلا عن أدوارها العسكرية في حركة الجهاد بالأندلس انضمت إليهم بني عبد الواد

¹ عبد الحق المريني، الجيش المغربي عبر التاريخ، مطبعة المعارف الجديدة، ط 5، الرباط، المغرب، 1997، ص 43.

² ابن الحاج النميري (ت 768هـ)، فيض العباب وإفاضة قدام الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، در وإع محمد ابن شقرون، دار الغرب الإسلامي، ط 1 بيروت، لبنان، 1990، ص 105.

³ أمحمد جبرون، مرجع سابق، ص 264.

⁴ ينظر: ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص 76-78. -الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 16. - عبد الفتاح مقلد الغنيمي، ج 5، مرجع سابق، ص 210.

⁵ النميري، مصدر سابق، ص 106.

خلال الفترة التي حققت فيها الدولة الزيانية لملك بني مرين على عهد أبو الحسن المريني، لكنها سرعان ما خرجت عنهم عندما أتيحت لهم الفرصة،¹ كما انضوت قبائل المغرب الأوسط من توجين ومغراوة داخل صفوف الجيش المريني وساعدتهم في العديد من المرات إثر شنهم الغارات على ملك بني عبد الواد.²

3. 1. 3. 2 العرب:

استقرت جماعات عربية منذ الفتح الإسلامي بعامة بلاد المغرب وتوافدت جماعات أخرى (قبائل العرب القيسية) خلال العهد الإدريسي توطنوا بنواحي مدينة فاس بعد بناءها،³ وانضمت جماعات أخرى خلال الهجرات الهلالية. بعد انتقال الشيعة الفاطمية إلى مصر.⁴ من القبائل العربية التي شاركت ضمن جيش بني مرين: بنو حسان، العاصم، بنو جابر، الخلط، رياح، سويد، الشبانات، العاصم بنو الأشبح، بنو عامر من بني زغبة وبنو سالم،⁵ ولقد انضمت عرب ديام والعطاف والحرث وحصين والثعالبة بقيادة ونزمار بن عريف بن يحيى السويدي إلى جيش أبو الحسن المريني أثناء حركته نحو تلمسان.⁶

3. 1. 3. 3 الغز (الأغزاز):

الغز هم قبيلة من الترك مواطنهم بأقصى المشرق دخلوا بلاد المغرب بعد استتباب الدعوة الموحدية في الغرب الإسلامي بقيادة قراقوش،⁷ كان أول ظهور لهم سنة (568هـ/1173م) ثم انضموا شيئاً فشيئاً إلى جيش الموحدين، وتقنضي مهمتهم على الرمي بالقسي التي كانت تسمى

¹ ينظر: الزركشي، مصدر سابق، ص 85. -شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص ص 205 - 206.

² ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص ص 115 - 119. -مبارك بن محمد الميلي، ج 2، مرجع سابق، ص ص 423.

³ ابن أبي زرع، الأتيس...، مصدر سابق، ص 46.

⁴ البشير بوقاعدة، الصراع العسكري...، مرجع سابق، ص ص 29 - 30.

⁵ محمد المنوني، ورقات...، مرجع سابق، ص 99.

⁶ مصطفى أبو ضياف أحمد، ج 2، مرجع سابق، ص ص 180 - 183.

⁷ عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 185.

قسي الغز ولهم مكانة مرموقة في الدولة خاصة في عهد الخليفة المنصور، ثم تراجعت تدريجيا فكونوا ما يعرف بالشرطة ومهمتهم تقتصر على معاقبة المسجونين ومرتكبي الجرائم.¹ أصبح الغز خلال العهد المريني من ضمن جندهم النظامي، وتكونت منهم فرقة خاصة بلغ عددها خلال عهد أبو الحسن المريني نحو ألف وخمسا مائة فارسا (1500)،² وكان يتم تمييز هؤلاء الأغزاز "بطبختاتهم ومزاميرهم وأعلامهم"، كتب على أعلام كل كتيبة شعار خاص بهم.³

3. 3. 1. 4 الأندلسيون:

مهمة الأندلسيين الرمي بقوس الرجل،⁴ يزيد عددهم عن ألفي فارس (2000) يعود وجودهم بالمغرب أيام المرابطين،⁵ أصبحوا أهم العناصر الأساسية في الجيش المغربي، انطلاقا من القرن الخامس للهجري إلى غاية ملك المرينيين مجالات المغرب الأقصى، ولقد امتاز هذا العنصر بالقوة والشجاعة والحنكة والولاء والجهاد في سبيل الإسلام.⁶

كان الفرسان الأندلسيين يرتدون أقبية مختلفة الألوان وبالرتايل التي على رؤوسهم وبالعصي الطوال والأقواس والرايات التي تحمل شعار كتيبتهم وخيولهم المبرقة والأجراس، وكانوا يتميزون عن غيرهم بالشواشي والقلانس المذهبة،⁷ أما عناصر الفرسان الخاص فهي تتكون من الوصفان وهم ممالك يسكنون حول القصر السلطاني وينزلون في السفر إلى جوانب محلته، يقومون بحراسة أبوابها (تحتوي على أربعة أبواب) ولا يسمحون بدخول هذه المحلة إلا للمسيحيين والوصفان،

¹ ينظر: رينهارت دوزي، تكملة المعاجم العربية، تر محمد سليم النعيمي، دار الشروق الثقافية العامة، ج 7، العراق، 1992، ص ص 273- 274. -عباس تركي، "بنية وتشكيل الجيش البري الموحي (515هـ- 660هـ/1121-1269م)"، مجلة الدراسات التاريخية العسكرية، (من ص 25 إلى ص 41)، الجزائر، جويلية 2019، ص 30.

² محمد المنوني، ورقات...، مرجع سابق، ص 99.

³ النميري، مصدر سابق، ص 106.

⁴ القوس (الإفرنجية): تتألف من المجرى (عمود)، وقضيب، وجوزة، ومفتاح، والقوس الإفرنجية أبلغ وأكثر من القوس العربية، لاسيما في الحصار والمواجهات البحرية. ينظر: علي بن عبد الرحمان بن هذيل الأندلسي (ت بعد 763هـ)، حلية الفرسان وشعار الشجعان، تح عبد الغني حسن، دار المعارف للطباعة والنشر، 1951، ص 212.

⁵ مؤلف مجهول، الحلل الموشية...، مصدر سابق، ص 91.

⁶ محمد المنوني، ورقات...، مرجع سابق، ص 100.

⁷ النميري، مصدر سابق، ص 106.

يقال لهم أيضا أهل الدوار ويعرفون كذلك باسم الخصيان،¹ ولقد كان السلطان يوسف أبو يعقوب يخلطهم بأهله وقتل على يد أحدهم.²

3. 3. 1. 5 الأعلاج:

هم ممالك (خدم) مسلمون يقدرون بخمسائة فارس من الرماة.

3. 3. 1. 6 العدويون:

مقرهم حول القصر السلطاني، تقتضي مهماتهم على تنفيذ أوامر سلطانية وتأديب كل من سولت له نفسه إصدار مخالقات في حضرة الملك.³

3. 3. 1. 7 الروم القشتاليون (المرتزقة الأوربيون):

التحقوا بالجيش الموحيدي أيام إدريس المأمون وظلوا حتى بعد وراثة المرينيين لملك الموحدين في نواحي المغرب الأقصى، فكانوا ضمن جيوش أبو يوسف يعقوب إثر حربه مع بني زيان سنة (670هـ/1272م)،⁴ قدر عددهم أيام أبو الحسن المريني بأربعة آلاف فارس أو أكثر (4000).

تقوم طائفة منهم بالحراسة في ظاهر القصر المريني بفاس الجديد، كما كانوا يركبون خلف ظهر السلطان في حروبه مع بني حفص وبني زيان ولا يستعين بهم في حروبه بالأندلس برسم الجهاد (ضد النصاري)،⁵ أما عن أسلوبهم في الحرب فهم يعتمدون على القتال بالزحف أي ترتب فيه صفوفهم ورماتهم وتسوى كما تستوي الصفوف عند الصلاة، وهو أوثق وأشد من طريقة قتال البربر المعتمد على الكر والفر.⁶

¹ ينظر: مارمول كريخال، ج 2، مصدر سابق، ص 173. -محمد المنوني، ورقات...، مرجع سابق، ص 100.

² ينظر: ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 388. -عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص ص 306-307. -ابن الأحمر، روضة النسر...، مصدر سابق، ص 21. -المقري التلمساني، ج 2، مصدر سابق، ص 336. -الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 86.

³ محمد المنوني، ورقات...، مرجع سابق، ص 100.

⁴ ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 309.

⁵ محمد المنوني، ورقات... مرجع سابق، ص ص 100-101.

⁶ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة...، مصدر سابق، ص 335. -عبد الحق المريني، مرجع سابق، ص

كانت هذه المكونات العسكرية -من القبائل وباقي الفرق- تتحرك وفق رغبات السلطان ونغيره بدرجات متفاوتة وحسب الظروف مشكلة مجتمعا صغيرا أشبه بقواعد المدن، بها أصناف الصناعات والتجارة وبها الجواري والمولدات بالإضافة إلى الخادمين والبعالين والجمالين والسقائين والخطابين وغلما المائدة ومحاسبي النفقات...¹ أما الخيام التي تنصب فتظهر كأنها مدينة كبيرة لهذا لا يستغرب وجود كل هؤلاء الأصناف من الصناعات والعاملين السابق ذكرهم، "فخيمته وحدها تظهر كأنها مدينة تحيط بها أسوار... ليست إلا من القماش... ذات أبراج في زواياها الأربعة، وتيجان أعمدة عالية، وتفافيح مذهبة، ورايات صغيرة متعددة الألوان".²

أما العنصر النسوي فقد كان وجودهن في المعركة ثابت وذلك لأدوارهن النفسية والاجتماعية التي يؤديهفن في الحروب.³

كان للجيش زي خاص يرتديه جميع أفرادها بما فيهم السلطان، يتميز هذا الأخير عن الجند بارتداء البرنس الأبيض الرفيع الذي لا يرتديه أحد آخر سواه، يتألف لباس الجيش من قبعات طويلة مصنوعة من الكتان الرقيق ذو العرض الضيق وفوقها يلقون احرمات على أكتافهم، ويرتدون السيوف على طريقة البدو ويحملون الأخفاف على أرجلهم ويشدون المهاميز فوقها،⁴ أما الرماة الذين يحملون الأسلحة النارية يرتدون ملابس قصيرة ذات أربعة أذيال تصل إلى الركبة، ويضعون فوقها سترات من الجوخ الأزرق أو بألوان مختلفة، وجميعهم يرتدون سراويل طويلة ضيقة في الأسفل تصل إلى الكاحل، ويضعون قمصان كبيرة فوق السراويل ولا تدخل فيها.⁵

¹ ينظر: حسن الوزان، ج 1، مصدر سابق، ص 161. -أحمد جبرون، مرجع سابق، ص ص 264 - 265.

² مارمول كريخال، ج 2، مصدر سابق، ص 173.

³ ينظر: النميري، مصدر سابق، ص 107. -مارمول كريخال، ج 2، نفس المصدر، ص 173.

⁴ محمد المنوني، ورقات...، مرجع سابق، ص 102.

⁵ مارمول كريخال، ج 2، مصدر سابق، ص 175.

كان للجيش المريني ديوان مكتوب وجعل لقادته درجات منها الأشياخ الكبار (يكون الواحد كمهم مقدم عن ألف جندي)،¹ والأشياخ الصغار (ويكون الواحد منهم مقدما على مائة جندي)،² ثم النقباء المنظمون للمواكب العسكرية لهم مرتبات شهرية مثل سائر أفراد الجيش (تتراوح بين ستة مثاقيل وستون مثقالا ذهبيا حسب الرتب العسكرية)، وتعطى لهم واجبات الجهاد بعد استخراج الخمس لبيت المال.³

3. 3. 2 الأسطول:

إلى جانب الجيش البري اعتمد المرينيون بشكل كبير على الأسطول البحري وأولوه عناية خاصة، نتيجة للتهديدات البحرية التي كانت تواجههم في سواحل الأندلس من قبل النصارى، فكان السلطان أبو الحسن المريني لا تمر سنة إلا وجهاز أساطيله التي استكثر في إنشائها برسم الجهاد ضدهم،⁴ من ذلك ما وقع للسلطان أبو الحسن المريني ضد نظيره ألفونسو الحادي عشر، إذ حشد المريني جنوده وعساكره من المتطوعة والمترتبة (الغير أوريبيين)، وجهاز القواد والأساطيل بقيادة محمد بن العباس بن تاحضرية وموسى بن إبراهيم البريتاني، فنشب بين الطرفين حرب بحرية عظيمة أسفرت عن تمزق أسطول مرين في البحر وكان ذلك سنة (743هـ/1342م).⁵

عمد سلاطين مرين على إقامة قواعد عسكرية لصناعة السفن أو الأجفان الحربية، من أبرز هذه القواعد قاعدتي رباط الفتح،⁶ وسلا، بالإضافة إلى قواعد سبتة، وطنجة،⁷ وأنفا، وباديس...

¹ كان مرتب الأشياخ لكل واحد منهم سنويا عشرون ألف مثقال من الذهب، يأخذها من قبائل وقرى وأرياف، وضياح، وقلاع، ويتحصل على أراضيهم نحو عشرين ألف وسق من الحبوب (قمح، وشعير، وغيرها من الحبوب الأخرى)، ولأشياخ الصغار هو نصف ما للكبار. **ينظر:** محمد المنوني، ورقات...، مرجع سابق، ص 102.

² **ينظر:** القلقشندي، ج 5، مصدر سابق، ص 203. - محمد المنوني، ورقات...، مرجع سابق، ص 101.

³ عبد الحق المريني، مرجع سابق، ص 43.

⁴ **ينظر:** ابن مرزوق التلمساني، مصدر سابق، ص 388 - 389. - أمحمد جبرون، مرجع سابق، ص 265.

⁵ لسان الدين ابن الخطيب، كناسة الدكان بعد انتقال السكان، (حول العلاقات السياسية بين مملكتي غرناطة والمغرب في القرن الثامن للهجري)، تح محمد كمال سيبانة، حسن محمود، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، مصر، ص 35.

⁶ **ينظر:** ابن مرزوق التلمساني، مصدر سابق، ص 389. - أمحمد جبرون، مرجع سابق، ص 265.

⁷ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 267.

وغيرها من القواعد العسكرية في سواحل المغرب الأقصى والأندلس التابعة لبني مرين، كان لكل قاعدة (ميناء) قائد يشرف على شؤون أسطولها وفوق مجموع القواد قائد أعلى يسمى الملند.¹

يعتبر أول ظهور للأسطول المريني وفق كرنولوجية كتاب الأنيس المطرب إلى سنة (673هـ/1275م)، إذ أمر السلطان أبو يوسف يعقوب، الفقيه أبو القاسم العزفي بتعمير الأساطيل للجهد، وإصلاح الأجفان وإعدادها لجواز المجاهدين،² ولقد تكرر جواز هذا السلطان على الأندلس للحرب ضد النصارى برسم الجهاد مرارا، ولعل أبرز ظهور للأسطول المريني في هذه المعارك هو معركة الزقاق سنة (679هـ/1280م) بغية رفع الحصار عن الجزيرة الخضراء،³ ولقد أحيط بالأسطول المريني القوات البحرية النصرانية لمنع السلطان من العبور نحو الأندلس وشق الطريق عنهم، تكون هذا الأسطول من اثنان وسبعين (72) جفنا (قطعة بحرية)⁴ ما بين كبار وصغار.⁵

حقق الأسطول المريني العديد من الانتصارات في الأندلس ضد النصارى سنة (740هـ/1339م)،⁶ وفي سنة (733هـ/1332م) وهو العام الذي حرر فيه الأسطول المريني جبل طارق، وسنة (770هـ/1368م) أين استرجع الجزيرة الخضراء، ولقد بلغ الأسطول المريني أقصى درجات القوى أيام أبو الحسن المريني،⁷ إلا أنه أخذ في التراجع آخر عهده، إذ غرق أسطوله في البحر بالكامل عند قدومه إلى الجزائر إثر هزيمته في إفريقية يضم نحو ست مائة سفينة لكنها ونجا هو بنفسه على لوح وهلك من كان معه من أعلام المغرب (نحو 400 عالم).⁸

¹ محمد المنوني، ورقات...، مرجع سابق، ص 108.

² ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص 313.

³ أورد صاحب العبر تاريخ المواجهة بين النصارى ومرين سنة (678هـ/1279م). **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 267.

⁴⁴ أورد عبد الرحمان ابن خلدون هذا الخبر قائلا: "وأوعز إلى البلاد البحرية لإعداد الأساطيل، بسبته، وطنجة، وسلا... ورأى ابن الأحمر ما نزل بالمسلمين في الجزيرة... أعد أساطيل سواحله من المنكب والمرية ومالقة... واجتمعت الأساطيل بمرقا سبته تتاهز السبعين". **ينظر:** ج 7، العبر...، مصدر سابق، ص ص 267-268.

⁵ ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص ص 331-332.

⁶ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص ص 345-346.

⁷ محمد المنوني، ورقات...، مرجع ساق، ص ص 109-110.

⁸ المقري التلمساني، مج 6، مصدر سابق، ص ص 214-215.

كان الأسطول المريني في عهد أبو عنان في غاية من القوى والضبط مجهزا بما كان يحتاجه من عدة (أسلحة ثقيلة) وقوات بشرية وفرق سريعة التدخل، وكان متفوقا فيما يبدو على الجيش البري،¹ من ذلك أحداث دخول مدينة تونس أين قاد الأسطول أنذاك محمد بن يوسف الأبكّم سنة (758هـ/1357م)،² وسوف نستعرض هذه الحركة في الفصل الموالي.

القطع التي كان يتكون منها الأسطول المريني: "الأغربة والطرائد والشياطي والسفينة الاستطلاعية والسلايلر والقوارب والسفائن التي تحمل الأفلاك والأملاك والشوانى والمراكب والخراقات".³

أما فيما يخص التخطيط الحربي والمعدات الحربية (آلات الحصار، والدفاع) سنذكرها في ثنايا ورقات الفصل الثاني، عند الحديث عن حركات بني مرين في مجالات المغربين الأدنى والأوسط.

وعلى ضوء ما تم تقديمه فإن العناصر التي تكون منها الجيش المريني، إلى جانب تفوق الأساطيل البحرية، مكنت الدولة من الانتصار في معارك عدة على أرض المغرب وسواحل الأندلس، فضلا عن أن هذا الجيش يعد أقوى الجيوش المغربية لكونه يجمع بين البنية التقليدية للجيش باعتباره جيشا قبليا والتطور التقني في الميدان العسكري واستعماله لأدوات عسكرية متطورة، إذ كان لمرين سبق في استعمالها مثل قوس زيار والبارود، ما يثبت ذلك الكتاب الذي بعثه الأمير أبي عبد الله ابن الأحمر يخبر السلطان المريني يعقوب يخبره بحال الأندلس ويثني على جند مرين، من نصها: "إلى الملك المؤيد... أما بعد فإن الله تعالى أيد دينه بالاتفاق والائتلاف... وأنعم على عباده بدولتكم السنية، وإظهار جنودكم المرينية الذين هم في حرب الأعداء أولو بأس شديد".⁴

¹ النميري، مصدر سابق، ص 108.

² ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 539. -ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية...، مصدر سابق، ص 174.

³ النميري، مصدر سابق، ص 108. لمعرفة شرح هذه القطع. ينظر: محمد المنوني، ورقات...، مرجع سابق، ص ص 110 - 111.

⁴ ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص ص 140 - 141.

3. 4 سقوط الدولة المرينية:

قاد الدولة المرينية سلاطين أكفاء تمكنوا من بسط نفوذهم على المغرب الأقصى وتملكوا أحواز من الأندلس، كما تواصل امتداد قوتهم منذ النشأة حتى أيام أبو الحسن وولي عهده أبو عنان، لكنه بانتهاء عهد هذا الأخير دخلت الدولة في طور الضعف والانحلال، وأخذت تتراجع تدريجيا نتيجة للوهن الذي أصاب جيشها بعد موقعتي القيروان وطريف،¹ وانقطع بعد هذه الأخيرة العبور المريني إلى الأندلس وفشل على إثرها المرينيون في إقامة دولة تضاوي ملك الدولة الموحدية،² من أهم عوامل التي أدت إلى سقوط الدولة المرينية نذكر:

3. 4. 1 عوامل اقتصادية:

بدأت الدولة المرينية خلال القرن الثامن للهجري تتجه نحو التدهور الاقتصادي، نتيجة تعرضها لكوارث عدة: مجاعات، قحط والأمراض الكثيرة، ففي سنة (723هـ/1323م) أصاب الدولة قحط شديد تسبب في ارتفاع الأسعار وانعدمت الأقوات فعجزت العامة عن مقاومته وبدأت المجاعة الشديدة،³ وفي سنة (749هـ/1348م) اجتاحت الطاعون الجارف المشرق والمغرب متسببا

¹ **موقعة طريف:** قامت هذه المعركة يوم الاثنين في السابع من جمادي الأول سنة (741هـ/1340م)، تعود خلفية هذه المعركة إلى مقتل ابن أبي الحسن أبي مالك على يد ألفونسو الحادي عشر في معركة دارت فيما بينهم بعد أن استنجد به ملك غرناطة، فتحرك على إثرها أبي الحسن لأخذ ثأر ابنه ورد الاعتبار للأندلس. ووضع حد لتوسعات ألفونسو وطمس رغبته في تملك غرناطة لكن الهزيمة كانت من نصيب المسلمين وقتل منهم الكثير وكان من بينهم أكابر المسلمين وعلمائها وتوفي أيضا والد لسان الدين ابن الخطيب وأسر فيها ابن السلطان وحريمه، وعلى الرغم من نجاة أبي الحسن وعودته إلى دار ملكه لكنه خسر الكثير من الذخائر والأموال. **ينظر:** لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تح محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، مج 4، ط 1، القاهرة، مصر، 1977، ص 323. - أبي الفلاح ابن العماد الحنبلي أبي الفلاح (ت 1089هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار المسيرة، ج 6، ط 2، بيروت، لبنان، 1979، ص ص 127 - 128. - شارل أندري جوليان، مرجع سابق، ص ص 230. - عبد الكريم حمانيث، سامية جباري، **معارك المسلمين في الأندلس، (معركة طريف - ريوسالادو - 741هـ - 1340م أنموذج)**، مج 5، ع 2، المجلة التاريخية الجزائرية (من ص 399 إلى ص 414)، الجزائر، 2021، ص 405 - 406.

² محمد المنوني، ورقات...، مرجع سابق ص 16.

³ **ينظر:** ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 413. - عبد الهادي بياض، الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك ودهنيات الإنسان في المغرب والأندلس (ق 6-8هـ/12-14م)، دار الطليعة، ط 1، بيروت، لبنان، 2008، ص 34.

في هلاك واسع للسكان وانهيار العمران، وقد أدى هذا الوباء إلى اندثار المدن وخراب المنشآت واندثار الطرق مما أضعف الدول والقبائل وسرع تفككها، كما تراجع النشاط الاقتصادي نتيجة النقص الحاد في السكان مما أفضى إلى تحولات ديموغرافية عميقة، وكان هذا الاضطراب في المغرب بمثابة نذير لما قد يصيب المشرق، حيث بدت ملامح الانهيار تتكرر في كلا المنطقتين.¹ كانت في الغالب الكوارث التي تصيب المغرب الأقصى، تتزامن مع إنتقال الحكم من سلطان إلى آخر، فألم بالدولة ضيق شديد يتمثل في ولاء الطاعون عقب تولي السلطان أبو زيان المريني أمر السلطة سنة (763هـ/1362م) وتفشى بشكل سريع في بعض المدن،² وهي مكناسة وتازا وفاس،³ وفي سنة (776هـ/1376م) أصيبت الدولة بمجاعة شديدة أدت إلى خرابها.⁴ تزامنت فترة التدهور الاقتصادي مع مرحلة ضعف الدولة المرينية، فبدأت آثاره تبرز وتترك بصمتها على طابع الحياة السياسية في الدولة منذ النصف الثاني من القرن التاسع للهجري.⁵

3. 4. 2 نزاع الوزراء والحجاب على الملك:

بعد هلاك السلطان أبو عنان عمت الفوضى في الدولة المرينية، نتيجة لنزاع الوزراء والحجاب وكتائب النصارى على الحكم، وتعددت المؤامرات والاغتيالات مما ساهم في اضعاف جهاز الحكم، وخطت الدولة خطوة نحو الانهيار والسقوط.⁶

أصبحت الفترة الأخيرة من عمر هذه الدولة تقتزن سياسيا بالوزراء المستبدين أكثر من اقترانها بالسلطين، ولقد كان أغلبهم صغار السن تتم حجابتهم من طرف وزرائهم،⁷ كما فعل الوزير الحسن بن عمر الفودودي الذي حجب السلطان أبي بكر السعيد أبي عنان في قصره، واستقل هو بأمر الدولة ولتخوفه من مطالبة إخوة السلطان الجديد بالعرش أمر بالقبض عليهم،

¹ عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة...، مصدر سابق، ص 27.

² عبد الهادي بياض، مرجع سابق، ص 35.

³ لسان الدين ابن الخطيب (ت776هـ)، نفاضة الجراب في علالة الإغتراب، تح وتقا السعدية فاغية، مطبعة النجاح الجديدة، ج 3، الدار البيضاء، المغرب، 1989، ص 61.

⁴ ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير...، مصدر سابق، ص 105.

⁵ محمد عيسى الحريري، مرجع سابق، ص 182.

⁶ ينظر: شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص 235 - محمد عيسى الحريري، مرجع سابق، ص 157.

- محمد المنوني، ورقات...، مرجع سابق، ص 17.

⁷ محمد عيسى الحريري، مرجع سابق، ص 157.

فإعتقل عبد الرحمان في قصبة فاس، واستدعى المعتصم الذي كان حاكما على سجلماسة والمعتمد والي مراكش رفض الحضور واعتصم بجبل هنتاتة في حامية وزيره عامر بن محمد.¹ كما استبد الوزير أبي عمر بن عبد الله الفودودي بالدولة بعد قتل السلطان أبي سالم وإنصب الموسوس -أخذ هاته التسمية نسبة إلا نقص عقله- أبي عمر تاشفين سلطان على بني مرين تمويها سنة (762هـ/1361م)، وقام الوزير أبو عمر بإبعاد الخطر من وضع سليمان بن داوود وزيرا بدلا منه.²

في فترة تولي السلطان أبو السعيد عثمان أمر الدولة دون سن البلوغ -لم يتعد سنه الستة عشرة عاما- كان للحجاب نفودا أكثر من الوزراء، وأول حجاب هذا السلطان: الفقيه أبو العباس أحمد ابي علي القبائلي، كان متصدرا على كبار رجال الدولة بيده جميع الخطط والوظائف السلطانية ومفاتيح أبواب القصر السلطاني.³

3. 4. 3 سياسة التوسع:

السياسة التوسعية التي انتهجها بني مرين أنهكت حتميا قوى الدولة وأضعفتها، لضياح الكثير من الإمدادات المادية والعسكرية وكانت هذه الخسائر من أهم أسباب ضعفها وإندفاعها نحو التفكك والانحلال، فعجزت عن حماية حدودها أمام أبو فارس في عهد السلطان أبي السعيد عثمان،⁴ بعد عزمه على أخذ الثأر منه منح بعض القبائل العربية من بني سليم الثائرة على دولته حق اللجوء للمغرب الأقصى والإستقرار وضمها إلى الجيش المريني لمحاربته بقيادة ابن عمه أبي عبد الله محمد بن أبي زكرياء صاحب بونة الثائر على أبي فارس،⁵ لكنه سرعان ما راح يرسل

¹ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص ص 396 - 397. -الناصري، مرجع سابق، ج 4، ص ص 3 - 4. -شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص 235. -محمد عيسى الحريزي، مرجع سابق، ص ص 157 - 158.

² ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 417. -الناصري، ج 4، مرجع سابق، ص 41.

³ محمد عيسى الحريزي، مرجع سابق، ص ص 182 - 183.

⁴ ينظر: الزركشي، مصدر سابق، ص 125. -عبد الرحمان ابن محمد الجيلالي، مرجع سابق، ج 2، ص 118. محمد عيسى مرجع سابق، 157.

⁵ عبد الفتاح مقلد الغنيمي، ج 5، مرجع سابق، ص 334.

الهدايا معلنا الانقياد والتبعية لبني حفص، بعدما تيقن بأنه وصل إلى عاصمته وسيتم تحيته ودولته بالقوة العسكرية.¹

فقدت خلالها الدولة المرينية الحرية السياسية وأصبحت تابعة للدولة الحفصية في المغرب الأدنى وهذا إن دل على شيء فهو يدل على ما آلت إليه الدولة من ضعف.

3. 5. 4 هجمات النصارى على المغرب الأقصى:

كان النصارى يتربصون الفرصة لإحتلال المغرب الإسلامي خاصة الجهة الغربية منه، نتيجة لضغائن قديمة أهمها مساندتهم المتكررة لمسلمي الأندلس في حروبهم مع النصارى، ولقد كان لإنصار القشتاليين في معركة طريف الدفعة القوية لإحتلال المغرب، ووضع حد لخطر الغزو المحتمل والقضاء على عمليات القرصنة المتفاقم، وكانت الأوضاع المزرية التي تعيشها الدولة المرينية في تلك الفترة، فرصة لا تعوض ففي سنة (799هـ/1394م) استحوذ هنري الثالث صاحب قشتالة على تطوان وقتل نصف أهلها، في حين كان المرينيون منشغلين بحصار تلمسان عاصمة أبناء عمومتهم من بني زيان،² واستولى البرتغاليون على سبتة سنة (818هـ/1415م) وقصر مسمودة (القصر الصغير) سنة (863هـ/1458م) ثم طنجة سنة (869هـ/1464م)، وهو التاريخ الذي انقرضت فيه الدولة المرينية بعد أن استمرت قرنين ونصف وسنتين من الزمن.³

¹ ينظر: ابن الشماخ، مصدر سابق، ص ص 116 - 117. - الزركشي، مصدر سابق، ص 126. - روبر برونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص ص 257 - 258. - محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 573. - عبد العزيز فيلاي، ج 1، مرجع سابق، ص 70. - محمد محمد أحمد إسماعيل، مرجع سابق، ص 181.

² شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص 249.

³ محمد المنوني، ورقات...، مرجع سابق، ص 17.

الخلاصة

تناول هذا الفصل الوضع السياسي في المغرب الإسلامي خلال الفترة الممتدة من القرن السابع إلى التاسع للهجريين، مسلطا الضوء على تداعيات سقوط دولة الموحدين وتأثيراتها على المشهد السياسي في المغرب الإسلامي، ومن أبرز هذه التداعيات قيام ثلاث قوى سياسية كبرى استحوذ كل منها على إقليم من أقاليم المغرب، ففي المغرب الأدنى انفصل بنو حفص عام (627هـ/1230م) بقيادة أبي زكريا، بينما انفصلت تلمسان في المغرب الأوسط بقيادة يغمراسن عام (633هـ/1236م).

تزامنا مع تلك التطورات تدهورت أحوال الخلفاء الموحدين في المغرب واستطاعت الدولة الحفصية من تثبيت ملكها في إفريقية والزيانية في المغرب الأوسط، على الرغم من الحروب الداخلية والخارجية، وتمكنت قبائل بني مرين من السيطرة على معظم مناطق المغرب الأقصى والقضاء على الموحدين نهائيا عام (668هـ/1269م) بعد استيلائهم على مراكش وإقامة دولتهم متخذين فاس عاصمة لهم.

الفصل الثاني: الصراع بين دول المغرب الاسلامي (ق7-9هـ)

أولاً: الصراع الحفصي الزياني

1. أسباب الصراع الحفصي الزياني
2. مظاهر الصراع

ثانياً: الصراع الزياني المريني

1. أسباب الصراع
2. مظاهر الصراع الزياني المريني

ثالثاً: الصراع الحفصي المريني

1. العلاقات الحفصية المرينية: التحالفات المبكرة
2. مظاهر الصراع

تمهيد

أفضى الفراغ السياسي الذي خلفه انهيار الموحدين في بلاد المغرب الإسلامي إلى بروز ثلاث قوى سياسية متنازعة فيما بينها، تمثلت في الدولة الحفصية، الزيانية والمرينية، حيث سعت كل منها إلى ترسيخ نفوذها وتأكيد مشروعيتها حكمها في مجالات المغرب مستندة إلى ادعاء امتلاك الشرعية لقيادة المنطقة، وقد تميزت العلاقات بين هاته الدول بطابع تصادمي، وفي خضم هذا المشهد المتوتر شكل المغرب الأوسط بؤرة للصراع باعتباره مركز النقل الاستراتيجي للتحكم في مجال عامة المغرب الإسلامي، لهذا أقحمت الدولة الزيانية في دوامة من النزاعات المستمرة مع القوتين الشرقية والغربية، إذ سعت كل من الدولة الحفصية والمرينية إلى إخضاع هذا الإقليم باعتباره شرطاً جوهرياً لتحقيق الهيمنة الإقليمية الكاملة، وقد عبر السلطان الحفصي أبو زكريا عن هذا التوجه حين اعتبر الوجود الزياني عائقاً جغرافياً واستراتيجياً يحول بينه وامتداد سلطته غرباً.

وفي المقابل لم تكنف الدولة الزيانية بالاصطفاف في موقع دفاعي بل انخرطت بدورها في مشروع توسعي مضاد اتخذ طابعاً عسكرياً واضحاً، تمثل في محاولاتها المتكررة لتأمين حدودها وتوسيع مجالها الجغرافي وفرض نفوذها على قبائل المغرب الأوسط على غرار توجين ومغراوة، فضلاً عن مواجهتها المفتوحة مع الحفصيين والمرينيين، وقد بلغت هذه السياسة التوسعية ذروتها في عهد السلطان أبو تاشفين الأول الذي تمكن لفترة وجيزة من السيطرة على تونس، غير أن هذا الامتداد لم يلبث وتراجع بفعل الهجوم المريني العنيف على تلمسان، لتتكرر بعدها محاولات مماثلة خلال فترات لاحقة من الحكم الزياني.

بناءً على ما سبق يهدف هذا الفصل إلى دراسة الخلفيات التاريخية للصراع بين دول المغرب الإسلامي، واستجلاء دوافعه المباشرة وغير المباشرة ورصد مظاهره العسكرية والسياسية وتحليل نتائجه وتداعياته، من خلال طرح التساؤلات التالية: ما هي الدوافع العميقة التي حركت هذا الصراع؟ وما أبرز تجلياته السياسية والعسكرية؟ وإلى أي مدى تمكنت هاته الدول من تحقيق طموحاتها في فرض الهيمنة الأحادية على مجالات المغرب؟

أولاً: الصراع الحفصي الزياني

ظهرت علاقات مبكرة بين الدولتين الزيانية والحفصية نتيجة لكون كل واحدة منهما ترى نفسها الوريث الشرعي لتركبة الموحدين، لهذا كانت لهما الرغبة في التوسع وعدم الاكتفاء بحدودهما فنجد في المقدمة السلطان أبو زكريا منذ تقلده أمر بني حفص يطمح في الاستيلاء على المغرب الأوسط وإخضاع بني زيان تحت سلطته، لتتسنى له فرصة ملك كامل أقاليم المغرب فيما بعد والانتصاب على عرش الخلافة الموحدية في مراكش ثم التوجه إلى الأندلس لاحقاً، وهكذا تصبح دولته تضاهي دولة الموحدين،¹ كما كان للسلطين الذين جاءوا من بعده نفس الطموح إذ قام السلطان أبو فارس بشن الكثير من الغارات على الحدود الشرقية للدولة الزيانية وأخضعها في العديد من المرات، إلى أن تمكن من بسط سلطانه على المغرب الأوسط لمدة من الزمن.²

من الجهة الأخرى قام السلطان يغمراسن بترك وصية لابنه يحثه فيها على التوسع شرقاً،³ وفعلياً عمل باقي السلطين من بعده بها وتحقق الأمر -التوسع- في العديد من المرات خاصة في عهد السلطان أبو تاشفين الأول،⁴ والسلطان أبو حمو موسى الثاني حيث قام هذا الأخير بشن

¹ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 390. -محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 141.

² ينظر: التنسي، مصدر سابق، ص 257. -الزركشي، مصدر سابق، ص 126-128. -ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 116-117. -روبار برونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص 257. - محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 573. -عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 70-71. -محمد محمد أحمد إسماعيل، مرجع سابق، ص 181.

³ يقول نص الوصية: "... يا بني إن بني مرين بعد استفحال ملكهم واستيلائهم على الأعمال الغربية وعلى حضرة الخلافة بمراكش، لا طاقة لنا بلقائهم إذا جمعوا الوفود مددهم، ولا يمكنني أنا القعود عن لقائهم لمعرفة النكوص عن القرن التي أنت بعيد عنها. فأياك واعتماد لقائهم، وعليك باللياذ بالجدران متى دلفوا إليك، وحاول ما استطعت الاستيلاء على ما جاورك من عمالات الموحدين وممالكهم يستفحل به ملكك، وتكافئ حشد العدو بحشدك ولعلك تصير بعض الثغور الشرقية معقلاً لذخيرتك". ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 123.

⁴ عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 43.

العديد من الحملات على بني حفص وتمكن من توسيع رقعة نفوذه شرقا وكذلك غربا،¹ سيتم استعراض فيما يلي أسباب ووقائع أهم الحملات التي شنّها بني حفص على بني زيان، وكذلك أهم الحملات التي شنتها هذه الأخيرة على الأولى.

1. أسباب الصراع الحفصي الزياني

من بين الأسباب التي أدت إلى دخول الدولتين الزيانية والحفصية في الصراع -السياسي العسكري- إلى جانب الرغبة القصوى في التوسع خارج نطاق ملكهما ووراثة عرش بني عبد المؤمن:

1. 1 التبعية الزيانية للموحدين:

كان يغمراسن منذ توليه الحكم (633هـ/1236م)،² تابعا للموحدين متقلدا لهم الطاعة والولاء من خلال تبادل السفارات والهدايا خاصة خلال عهد الرشيد الذي أخذ على عاتقه تقوية هاته العلاقات بين تلمسان ومراكش ليكون له يغمراسن خير عون لمجابهة خطر بني مرين،³ ففي سنة (639هـ/1242م)⁴ وصلت يغمراسن هدية من الخليفة الموحي الرشيد دون أبي زكريا فأثار هذا الموقف حفيظة بني حفص وسلطانهم،⁵ واستمرت علاقات الود والتحالف بين بني زيان والموحدين - حتى عهد الخليفة السعيد،⁶ فأقلق هذا التحالف أبي زكريا واعتبر تقاربهم تهديدا له

¹ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، مرجع سابق ص 107. -محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 455.

² ينظر: يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 111. - التتسي، مصدر سابق، ص 123.

³ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، 107.

⁴ أورد عبد الرحمان ابن خلدون أن السنة التي أرسلت فيها الهدايا ليغمراسن هي سنة (637هـ/1240م). ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، نفس المصدر، ص 107.

⁵ ينظر: ابن عذاري المراكشي، مصدر سابق، قسم الموحدين، ص 361. - يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 112.

⁶ الخليفة السعيد: هو أبو الحسن علي بن أبي العلي إدريس بن أبي يوسف المنصور ابن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، بويع يوم وفاة أخيه في العاشر من جمادي الثاني سنة (640هـ/1243م)، توفي سنة (646هـ/1249م)، كانت مدة خلافته نحو الخمس سنوات. ينظر: ابن عذاري المراكشي، مصدر سابق، قسم الموحدين، ص 359.

وبناء على ذلك قرر التحرك إلى تلمسان والدخول مع بني زيان في صراع عسكري،¹ إذ لطالما اعتبر سلطان بني حفص يغمراسن حاجزا يحول بينه وبين ملك الموحيدين، وكان يرى انه إذا تخلص منه يفتح الطريق أمامه نحو مراكش.²

1. 2 دور القبائل العربية والبربرية في تأجيج الصراع بين الدولتين الحفصية

والزيانية:

استعان يغمراسن في بناء دولته -إلى جانب قبيلة بني عبد الواد- بالقبائل البربرية والعربية، وانقسمت هذه القبائل بين مؤيد ومعارض ومنها من تذبذبت في مواقفها بين الولاء والعداء حسب ما تقتضيه مصالحها، وكان لهذه القبائل دور في سير الأحداث بالمغرب الأوسط حيث قام البعض منها بالخروج عن طاعة السلطة وتحريض سلاطين الدول المناوئة لبني زيان لتقوم في المقابل بشن حملات ضدها، ويعود سبب العلاقات الفاترة بين بني زيان وقبيلتي توجين ومغراوة إلى تنافسهم الدائم على الأراضي الخصبة والمراعي ورفضهما الدخول في طاعتهم مما أدى إلى دخولهم في حروب معهم.³

كما لم تنفك هاتين القبيلتين من تقديم المساعدة للقوى الخارجية التي هي على عداء مع الدولة الزيانية، كما لم تنفك هاتين القبيلتين من تقديم المساعدة للقوى الخارجية التي هي على عداء مع الدولة الزيانية، من مظاهر ذلك مشاركتهم لبني حفص في الاستيلاء على تلمسان سنة (640هـ/1242م)،⁴ إذ وفد لى السلطان الحفصي رؤساء بني توجين ومغراوة: عبد القوي بن عباس وولد منديل بن محمد يستصرخونه ضد يغمراسن وتوعدهم بالطاعة والانقياد له والانضمام معه في حركته للسيطرة على تلمسان وجمع زناطة تحت سيادته، قويت بذلك آمال أبي زكريا فأخذ في الاستعداد لحربه ضد يغمراسن خاصة وأن الأعراب المنضوية تحت سيادته قررت الانضمام لجيشه كدباب وسليم ورياح وزغبة وهوارة وقرفة وثوبة.⁵

¹ ينظر: أمبروسيو هويثي ميراندا، مرجع سابق، ص 509. -روبار برونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص 60.

² محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 142.

³ عبد العزيز فيلاي، ج 1، مرجع سابق، ص 17.

⁴ التنسي، مصدر سابق، ص 127.

⁵ ينظر: يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 112. -زهيرة لكحل، مرجع سابق، ص 144 - 145.

كما تعد قبائل بني زغبة أقوى سند لأبو حمو موسى الثاني في حروبه لكنها هي الأخرى قامت بالانسحاب من جيشه أثناء مواجهته مع أبو العباس أحمد وانضموا إلى صفوف هذا الأخير، فانهزم أبو حمو حينها هزيمة نكراء بسبب خيانة هاته القبيلة،¹ وفي سنة (866هـ/1462م) وفد على السلطان الحفصي أثناء حركته إلى تلمسان جموع من عرب السويد وبنو يعقوب والذواودة وبنو عامر معلنين له الطاعة والرغبة في الالتحاق بجيشه أثناء شن حملته على بني زيان، وفي سنة (870هـ/1466م) جاء الأعراب من بني سويد وبنو عامر يستنهضون السلطان أبو عمر عثمان ويدعونه للخروج على صاحب تلمسان لسوء سيرته، وواصلت العرب من ذواودة أسلوبها في الخروج عن السلطان الزياني ومساعدة بني حفص والالتحاق بجيوشهم أثناء شن الغارات سنة (871هـ/1467م) أيضا.²

1. 3 التدخل في الشؤون الداخلية:

تسبب احتضان الدولة الزيانية للخارجيين عن السلطة في فتور العلاقات بين الدولتين الأمر الذي ساعد على احتدام الصراع، فقد سبق وأن احتضنت الدولة الزيانية سنة (682هـ/1283م) الأمير أبو زكريا ابن إسحاق إبراهيم، كما احتضنوا سنة (768هـ/1270م) الأمير إبراهيم ابن أبي زكريا ابن أبي عبد الله الحفصي الذي طلب المساعدة من بني زيان ضد ابن عمه صاحب قسنطينة مطالباً بالعودة إلى بجاية.³

وقصد إضعاف الدولة الزيانية قامت الدولة الحفصية بدعم الخارجيين عن سلطانهم هي الأخرى وتشجيع المطالبين بالعرش، وفي سنة (767هـ/1366م) قام السلطان أبي العباس أحمد الحفصي بتحريض أبي زيان بن عثمان،⁴ في حربه ضد أبو حمو موسى الثاني وساعدوا هذا

¹ ينظر: ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية...، مصدر سابق، ص 185-186. -محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 456-457. -محمد محد أحمد إسماعيل، مرجع سابق، ص 180.

² ينظر: الزركشي، مصدر سابق، ص 157. -روبار برونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص 291. -محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 632. -عبد العزيز فيلاي، ج 1، مرجع سابق، ص 73.

³ بسام كامل عبد الرزاق شقدان، تلمسان في العهد الزياني، إش هشام أبو رملة، رسالة ماجستير في التاريخ، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2002، ص 116.

⁴ التجأ أبو زيان بعد خروجه من تلمسان إلى تونس عند الحاجب ابن تافراجين (تافراكين) والسلطان أبي إسحاق إبراهيم، وعندما استرجع أبو عبد الله الحفصي بجاية، قام واستولى على تدلس وبعث بعدها إلى أبو زيان ليؤليه

الأخير سنة (788هـ/1386م) عندما قام ابنه أبو تاشفين عبد الرحمان الثاني بخلعه وأمدوه بالجيش وتمت اعانته على الدخول إلى تلمسان للمرة الثانية سنة (790هـ/1389م).¹

كما قام سلاطين بني حفص بالتدخل في الشؤون الداخلية للدولة الزيانية بشكل مباشر وأصبحوا يعزلون ويولون على الحكم من أرادوا، من ذلك خلع السلطان أبو فارس عبد الواحد وولى مكانه ابن الحمراء.² فكان لهذه التدخلات الأثر الكبير على أمن الدولة سواء حفصية أو زيانية وسهل وقوعهما في يد الخطر الإسباني لاحقا.

1. 4 تحريض المنشقين على السلطة:

قام المنشقين عن السلطة الحفصية بتحريض سلاطين بني زيان من أجل الوصول إلى الحكم، حيث جاء وفد من قبائل المشايخ الحفصيين مستجدين بالسلطان الزياني ضد سلطان بجاية وقسنطينة وعلى الفور بدأ الهجوم الزياني على أملاك بني حفص، استطاع خلالها أبو حمو موسى الزياني من محاصرة بجاية وضمها لملكه بعض الوقت، وعلى الرغم من رفعه الحصار عنها إلا أنه استطاع الاستيلاء على جبل ثابت عام (713هـ/1313م).³

خلال سنة (729هـ/1328م) وفد على السلطان الزياني حمزة بن عمر، وبعده عبد الحق بن عثمان المنشق على أبي فارس عبد العزيز يدعوانه إلى شن حملة ضد الدولة الحفصية مع تأكيدهم لمساندة القبائل العربية في حربه مع بني حفص.⁴

هذه المدينة، وبهذا لن يتسنى لبني زيان استردادها (جعله بمثابة درع حماية في وجه غارات بني زيان المتكررة على بجاية)، هذا الأمر لم يعجب أبو العباس أحمد واعتبره تهديدا له ولولايته في قسنطينة، فقام بسجنه عند عبوره قسنطينة لاستخدامه في وجه بني عمه عندما تتاح له الفرصة. **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص ص 171-172. - محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص ص 456-457.

¹ **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص ص 193-194.

² **ينظر:** التتسي، مصدر سابق، ص 251. - الزركشي، مصدر سابق، ص 126.

³ محمد أحمد إسماعيل، مرجع سابق، ص 178.

⁴ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص ص 142-145.

2. مظاهر الصراع

سيتم معالجة وقائع الحملات بين بني زيان وبني حفص ونتائجها على الصعيد السياسي والعسكري في الورقات القادمة.

2. 1 الاستيلاء الحفصي على الدولة الزيانية:

وجه بني حفص في العديد من المرات جيوشهم نحو مجالات توطن الدولة الزيانية لأسباب عدة، وفيما يلي سيتم عرض أهم هذه الحملات حسب الترتيب الكرونولوجي:

2. 1. 1 الحملة الحفصية على تلمسان (640هـ/1243م):

يتضح من خلال دراسة شخصية يحي أبو زكريا أن منذ تقلده حكم المغرب الأدنى سنة (625هـ/1238م) كانت له الرغبة القوية في ملك كامل بلاد المغرب الإسلامي وبسط سلطانه عليها، وما آخر شروعه في هذا هو انشغاله بحربه مع بني غانية، ولقد أورد عبد الرحمان ابن خلدون هاته النوايا التي كان يسمو إليها قائلا: "كان أبو زكريا منذ استقل بأمر إفريقية واقتطعها عن بني عبد المؤمن كما ذكرناه متطاولا إلى ملك الحضرة بمراكش والاستيلاء على كرسي الدعوة"¹، لتحقيق ذلك سعى إلى استمالة بعض أمراء زناتة عن طريق الترغيب والمراسلة للتحالف معه، بهذا يجد السبل ليتدارك بهم نقصه في العصبية الدموية والانتصاب على عرش الخلافة الموحدية في مراكش.²

خرج أبو زكريا من إفريقية في شوال سنة (639هـ/1242م) بعساكره إلى تلمسان وبعث قبله عبد القوي ابن العباس التوجيني وأولاد منديل بن محمد، لتحريض زناتة وأحلافهم من العرب لالتحاق بجيش أبي زكريا ونصرته في حربه مع يغمراسن،³ قبل بلوغه تلمسان نزل بمليانة ومنها راسل يغمراسن للدخول في طاعته فامتنع عن ذلك.⁴

¹ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 390.

² محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 141.

³ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 107.

⁴ ينظر: الحميري، مصدر سابق، ص 136. - عبد الرحمان بن محمد الجيلالي، ج 2، مرجع سابق، ص 88.

اختلفت المصادر التاريخية في عدد الجنود المشاركة في جيش أبو زكريا فلقد أشار البعض أن عددها نحو ستة وأربعين ألف فارسا (46000 فارس)¹، بينما أورد يحيى ابن خلدون أن عدد الرماة بلغ نحو اثني عشر ألف رام (12000 رام) دون الركبان،² أما التنسي فذكر أنه يوجد ثلاثون ألف رام (30000 رام)،³ وابن عذاري أقر بأن عدد الفرسان التي ترمي فقط بالنبال تتجاوز العشرة آلاف رام،⁴ أما ابن أبي زرع ذكر أن عدد الرماة بلغ نحو أربعة وعشرين ألف رامي (24000 رام)،⁵ في حين لم يحدد عبد الرحمان ابن خلدون عدد الجنود الكامل بل أشار بأنها "عساكر ضخمة وجيوش وافرة"،⁶ وكذلك الحميري: "فتحرك إليه من تونس في عساكره وحشوده"،⁷ على الرغم من أنه نقل عن ابن قنفذ.

اجتمعت جيوش بني حفص في محلة المنصورة من الرماة وكانت عساكر العرب مقسمة كل زعيم يقود جماعته ويرحلون بالتناوب لقلة موارد المياه في تلك النواحي،⁸ وتمادت جيوش أبي زكريا في المشي،⁹ حتى نزلت تلمسان سنة (640هـ/1243م)،¹⁰ اعتمدت خطة أبي زكريا الحربية

¹ ينظر: الزركشي، مصدر سابق، ص 29. -ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 59. -ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية...، مصدر سابق، ص 109.

² يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 112.

³ مصدر سابق، ص 127.

⁴ ابن عذاري المراكشي، مصدر سابق، قسم الموحدين، ص 361.

⁵ ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص 61.

⁶ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 107.

⁷ الحميري، مصدر سابق، ص 135.

⁸ ابن عذاري المراكشي، مصدر سابق، قسم الموحدين، ص 361.

⁹ أورد محمد لعروسي المطوي أن الأعراب عندما أصابهم الوهن وقررت الكف عن متابعة السير قام السلطان الحفصي بترغيبهم من خلال تقديم العطايا لهم بعد إلحاق تلمسان لملكه. ينظر: مرجع سابق، ص 142.

¹⁰ اختلفت المصادر التاريخية حول تاريخ نزول أبو زكريا بجيوشه تلمسان حيث أورد عبد الرحمان ابن خلدون أن نزوله تلمسان كان سنة (639هـ/1242م) وأيده في هذا ابن الشماخ، أما صاحب البغية فحددها سنة (640هـ/1243م) يقول في هذا الصدد: "نزلها يوم الأربعاء التاسع والعشرون لشهر الله المحرم فاتح سنة أربعين وستمئة"، من مؤيديه ابن أبي زرع، وابن قنفذ القسنطيني، والزركشي، أما التنسي فلقد انفرد بتحديد نزول أبو زكريا تلمسان سنة (645هـ/1248م). ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، ج 7، مصدر سابق، ص 107. -ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 59. -يحيى ابن خلدون، العبر، مج 1، مصدر سابق، ص 112. -ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر

على تقسيم جيوشه وأمر رماته بالرمي دفعة واحدة ليكون حجم الخسائر البشرية أكبر،¹ وكان أهل بني زيان يخرجون لحربهم كل يوم قبل بلوغهم تلمسان ثم يولون أدبارهم، لكن بعد دخول جنود بني حفص المدينة واستلائهم عليها اعتصم الأهالي داخلها محجوزين ملازمين بيوتهم وبالغت جيوش أبي زكريا في التتكيل بأهلها تأديبا ليغمراسن،² ثم دخل بعدها بني حفص تلمسان من باب كشوطة.³ رأى يغمراسن أنه ليس بمقدوره مجابهة صفوف الحفصيين والتصدي لحربهم فلم يجد حلا سوى مغادرة تلمسان رفقة أهله،⁴ وأمواله وذخيرته،⁵ بعد تمكنه من إيجاد السبل لذلك من أحد أبواب تلمسان،⁶ واتجه إلى الجبال للاحتماء بها،⁷ بينما تمكن السلطان الحفصي من الاستيلاء على

سابق، ص 61. - ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية...، مصدر سابق، ص 109. - الزركشي، مصدر سابق، ص 29. - التتسي، مصدر سابق، ص 127.

¹ بسبب كثرة السهام التي كانت ترمى من قبل رماة بني حفص قيل أن القط على الرغم من صغر حجمه إلا أنه كان يصاب بأزيد من عشرين سهما، وقيل أيضا أن الفروج (صغير الدجاجة) أصابه عدد كبير من السهام ولقد وصفها ابن عذاري وكأنها سحائب أطار. **ينظر:** ابن عذاري المراكشي، مصدر سابق، قسم الموحد، ص 361. - التتسي، مصدر سابق، ص 127.

² **ينظر:** الحميري، مصدر سابق، ص 136. - عبد الرحمان بن محمد الجيلالي، ج 2، مرجع سابق، ص 88. ³ ورد اسم الباب في كتاب تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية باسم: باب كشوط (دون التاء)، أما ابن زرع فنذكر اسم الباب الذي دخل منه أبو زكريا بجيوشه لتلمسان (باب إيلان). **ينظر:** الزركشي، مصدر سابق، ص 29. - ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص 61.

⁴ ذكر ابن عذاري المراكشي أن يغمراسن أثناء فراره من جيوش بني حفص خلف وراءه أحد حريمه، فعاد إليها وأخرجها بنفسه على بغله وقيل أنه حملها وخرج بها. **ينظر:** ابن عذاري المراكشي، مصدر سابق، قسم الموحد، ص ص 361-362.

⁵ **ينظر:** يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 112. - ابن أبي زرع الفاسي، الذخيرة...، مصدر سابق، ص 61.

⁶ ذكر التتسي أنه خرج من باب علي بمساعدة العرب الذين هم في صفوف جيش أبي زكريا، أما ابن خلدون فنذكر أنه خرج من باب العقبة وأيده في ذلك يحيى ابن خلدون. **ينظر:** التتسي، مصدر سابق، ص 127. - عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 108. - يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 112.

⁷ ذكر التتسي أنه التحق إلى جبل ورنيد أما يحيى ابن خلدون فقال: "فانحاز إلى جبل بني يزناسن وقيل إلى ترمي من جبل بني ورنيد...". أما عبد الرحمان فنذكر أنه التجئ إلى الصحراء وأيده في ذلك الزركشي. **ينظر:** التتسي، مصدر سابق، ص 127. - يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 112. - عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 108. - الزركشي، مصدر سابق، ص 29.

تلمسان وعاث بعسكره فيها فسادا حيث قتل نساءها وأطفالها ونهب الأموال،¹ وبعد بلوغه خبر مغادرة صاحبها رفع عن المينة الحصار وأفرج عن أهلها وأقام بها سبعة عشر يوما، ثم قفل راجعا إلى عاصمته بإفريقية.²

بعد تمكن أبو زكريا من الاستيلاء على تلمسان خيل له أنه انتصر نهائيا على يغمراسن لكن الصعوبات باشرت في الظهور أمامه من الوهلة التي ضم فيها تلمسان إلى حضرته، يقول عبد الرحمان ابن خلدون في هذا الصدد: "ولما تجلى عشاء تلك الهبة وحسر تيار الصدمة، وخمدت نار الحرب، راجع الموحدون بصائرهم، وأمعن الأمير نظره فيمن يقلده أمر تلمسان والمغرب الأوسط، وينزله بثغرها لإقامة دعوته الدائلة من دعوة المؤمن والمدافعة عنها. واستكبر ذلك أشرافهم وتدافعوه وتبرأ أمراء زنانة منه ضعفا عن مقاومة يغمراسن، وعلموا بأنه الفحل الذي لا يجده أنفه، ولا يطرق غيله، ولا يصد عن فريسته"،³ فموقف أبي زكريا لم يكن جيدا وكان الأمر أشد تعقيدا مما كان يتصوره خاصة وأن كل من أمراء زنانة وأكابر الموحدون لم يقبلوا الولاية على تلمسان،⁴ وسبب ذلك يعود إلى:

- خوفا من يغمراسن الذي لم يتم القضاء عليه بصفة نهائية وظل متربصا لهم في الجبال والفيافي ومنتظرا الفرصة للإطاحة بجيش الحفصيين وكل من ناصرهم، وبالفعل استطاع أتباعه اقتحام معسكرات الحفصيين.
- استحالة تنازل الزناتيين عن سيادتهم بتلمسان وتسليمها إلى أحد أتباع أو أفراد الأسرة الحفصية.

¹ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 108. - الحميري، مصدر سابق، ص 136.

² ينظر: ابن عذاري المراكشي، مصدر سابق، قسم الموحدون، ص 362. - ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص 61. - الحميري، مصدر سابق، ص 136.

³ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 108.

⁴ محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 143.

لم يجد حينها أبي زكريا حلا آخر إلا التنازل وقبول التفاوض مع يغمراسن نفسه فقال حينئذ: "ليس لها إلا صاحبها"،¹ وفي المقابل تأكد يغمراسن بأن الكثير من سادة العالم الإسلامي ودوله شرقا وغربا أقدموا على الطاعة والمبايعة لأبي زكريا خليفة،² فلم يجد حلا سوى الدخول تحت لوائه وعلى هذا الأساس بعث السلطان الزياني بوالدته سوط النساء³ إلى أبو زكريا لتقديم مراسيم البيعة نيابة عنه، فاقتبلها راضيا عن ولدها واغتتمت حينها سوط النساء الفرصة وقدمت للسلطان اقتراحا مفاده:

– طلب العفو لولدها والسماح له بالعودة إلى رئاسة قومه من بني عبد الواد مقابل اعترافه بالسلطة الحفصية، والانفصال نهائيا عن الخلافة الموحدية في مراكش مع ذكر اسمه في الخطبة.⁴

وعلى هذا الأساس تمت المصالحة وأذن له بالرجوع إلى بلده لينتصب يغمراسن على تلمسان من جديد،⁵ مقابل دفع إتاوة كل سنة،⁶ وبعد تهذيب الأوضاع استعد أبو زكريا مغادرة تلمسان الحفصية -أصبحت حينها تحت نفوذه- والعودة إلى عاصمته،⁷ لكنه في أثناء طريقه وسوس له بعض من أعيانه -وزرائه- بإمكانية استبداد يغمراسن عليه خاصة وأن هذا الأخير على قدر كبير من الدهاء والتدبير والحق على ملك بني حفص، ونصحوه بأن يعين منافسين له من زناطة وأمراء المغرب الأوسط، وبناء على ذلك قلد كل من عبد القوي بن عطية التوجيني العباس بن منديل المغراوي وعلي بن منصور الملكشي على قومهم ووطنهم ونصبهم أمراء بمراسيم سلطانية

¹ التنسي، مصدر سابق، ص 128.

² عبد الرحمان بن محمد الجبالي، ج 2، مرجع سابق، ص 90.

³ يقول عبد الرحمان ابن خلدون في هذا: "ووفدت أمه سوط النساء للاشتراط والقبول فأكرم وصلها وأثنى جائزتها وأحسن وفادتها ومنقلبها...". ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 108.

⁴ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، نفس المصدر سابق، ص 108. - روبر بارونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص 60. - محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 143. - عبد الرحمان بن محمد الجبالي، ج 2، مرجع سابق، ص 90.

⁵ ينظر: ابن عذاري المراكشي، مصدر سابق، ص 362. - الحميري، مصدر سابق، ص 136.

⁶ التنسي، مصدر سابق، ص 128.

⁷ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 108. - محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 144.

وعهد إليهم بذلك،¹ وجاء ببني سليم إلى نواحي بونة فأسكنهم بها إلى الجريد وغمرهم بالأموال وجعلهم حاجزا يحول بينه وبين أخصامه الموحدين في مراكش.²

يبدو من خلال ما تم تقديمه أن خطوة أبي زكريا في ضم ملك بني زيان تحت سلطته لتتسنى لهم فرصة القضاء على الموحدين بمراكش ووراثته ملكهم لم تكن ناجحة بالقدر الذي كان يتوقعه، وفشلت بصورة غير مباشرة على الرغم من أنه استولى على تلمسان وأرعب أهلها وضيق على سلطانها، ومن الواضح أن هزيمة يغمراسن وإعلان التبعية للسلطة الحفصية كان شكليا فقط وليس سوى موقف أملت عليه الظروف، وما يؤيد ضعف هاته الحملة أكثر على الرغم من إعلان التبعية هو إرجاع يغمراسن لمنصبه وتنصيب منافسين له من بني زناتة في المغرب الأوسط لجعلهم في مستوى نفوذ يغمراسن بغية اختزال حركته الانفصالية.

أبقى بني زيان على تبعيتهم لبني حفص بعد وفاة السلطان أبي زكريا،³ وكانوا يرسلون أبنائهم وكبار رجال دولتهم لتأكيد الولاء والطاعة للسلطان أبي عبد الله محمد المنتصر بعد أن خلف والده،⁴ لتأخذ بذلك العلاقات طابع الهدوء النسبي، والقصد بالهدوء النسبي هنا أن العلاقات كانت متذبذبة بين الفترة والأخرى لأن بني زيان كانوا يترصدون الفرصة والظروف التي تطرأ على الدولة الحفصية لإخضاع المناطق الشرقية تحت نفوذهم، دون أن ننسى أن الطاعة لبني حفص كانت ظاهرية فقط و يظهر ذلك جليا في الامتيازات التي كان يحظى بها بني زيان والمتمثلة في حرية التصرف بشؤون المغرب الأوسط كما كان الوضع على عهد الموحدين، ومن أجل تصفية

¹ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 108. - عبد الرحمان بن محمد الجليلي، ج 2، مرجع سابق، ص 90. - عبد الله طويلب، "العلاقات السياسية بين الدولتين الزيانية والحفصية"، دورية كان التاريخية، ع 18، (من ص 31 إلى ص 43)، الجزائر، ديسمبر 2012، ص 32. - محمد أحمد إسماعيل، مرجع سابق، ص 168.

² عبد الرحمان بن محمد الجليلي، ج 2، مرجع سابق، ص 90.

³ توفي أبي زكريا يحي ليلة الجمعة يوم السابع والعشرون من جمادي الثاني سنة (647هـ/1249م) ودفن بجامع بونة بالقرب من ضريح أبي مروان اليحصبي، أحد الرجال الصالحين ثم نقل تابوته بعد ذلك إلى قسبة قسنطينة وكان عمره تسعا وأربعين سنة دامت خلافته عشرين سنة ونصف سنة. ينظر: ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية...، مصدر سابق، ص 114. - ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 60. - الزركشي، مصدر سابق، ص 32.

⁴ محمد أحمد إسماعيل، مرجع سابق، ص 170.

الجو السياسي أكثر بين السلطة الحفصية في المغرب الأدنى والدولة الزيانية التابعة لهم في المغرب الأوسط، عمل يغمراسن على توثيق العلاقات عن طريق المصاهرة.¹

تقدم يغمراسن لخطبة ابنة الأمير أبي إسحاق إبراهيم بن أبي زكريا،² لولي عهده أبي السعيد عثمان وأرسل للإتيان بها وفدا مهما من تونس على رأسه ابنه أبي عامر سنة (681هـ/1283م)، وخرج يغمراسن لاستقبال موكب العروس إرضاء لأبيها وإكراما لها وحماية الموكب من غارات بني توجين ومغراوة، فلقى يغمراسن الموكب بمليانة لكن عند عودته توفي برهيو من وادي الشلف، فكتب حينها ابنه أبي عامر الخبر وأكمل السير حاملا جثمانه -على أساس أنه مريض- إلى أن التقى بأخيه أبي السعيد عثمان وأعلن حينها خبر وفاته.³

بايع حينها الناس ابنه أبي السعيد عثمان وفور دخوله تلمسان بايعه العامة والخاصة وقد انتهج أبو السعيد عثمان سياسة أبيه القائمة على حسن التدبير وجمع كلمة قومه، كما عمل على مسالمة بني مرين فبعث بأخيه محمد إلى السلطان المريني يعقوب بن عبد الحق المريني الذي كان حينها بالأندلس سنة (684هـ/1285م) فهادنه وسالمة.⁴

ولقد تمكنت الدولة الزيانية في عهد السلطان أبو السعيد عثمان من توجيه عساكرها شرقا -على أملاك بني حفص- عملا بوصية أبيه،⁵ ففي سنة (686هـ/1287م) تمكن من حصار

¹ عبد العزيز فيلاي، ج 1، مرجع سابق، ص 24.

² **أبي إسحاق إبراهيم**: هو الأمير أبي إسحاق إبراهيم ابن أبي زكريا ابن الشيخ أبي محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص عمر، قام بثورة ضد أخيه المستنصر أين تغلب عليه هذا الأخير وأجبره على الخروج من البلاد واللجوء إلى الأنندلس، أين ظل يترقب الفرصة حتى يعود إلى إفريقية ويستولي على عرش أخيه، فتم له ذلك بعد أن خلع ابن أخيه الواصل نفسه وبايعه، كان ذلك سنة 678هـ. **ينظر**: ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية...، مصدر سابق، ص 137. - الزركشي، مصدر سابق، ص ص 42- 43. - محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 229.

³ **ينظر**: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 122. - يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 116. - التتسي، مصدر سابق، ص 138.

⁴ **ينظر**: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 123. - عبد الرحمان بن محمد الجيلالي، ج 2، مرجع سابق، ص 218.

⁵ **يقول نص الوصية**: "... يا بني إن بني مرين بعد استفحال ملكهم واستيلائهم على الأعمال الغربية وعلى حضرة الخلافة بمراكش، لا طاقة لنا بلقائهم إذا جمعوا الوفود مددهم، ولا يمكنني أنا القعود عن لقائهم لمعرة النكوص عن القرن التي أنت بعيد عنها. فإياك واعتماد لقائهم، وعليك باللياذ بالجدران متى دلفوا إليك، وحاول ما استطعت

بجاية، ويعتبر هذا الحصار أقدم حصار لمدينة بجاية الحفصية من طرف بني زيان وسيكرر هذا الحدث في العديد من المرات وتمت هذه الحركة بتوجيه من صاحب مدينة تونس العاجز عن إزاحة أحد أقربائه من تلك العاصمة الإقليمية (الحفصية الشرقية).¹

أخذ حينها أبي عصيدة،² على عاتقه فور توليه أمر إفريقية إعادة جمع أشلاء دولته من الجهة الغربية تحت السلطان أبو السعيد عثمان مؤيدا الحصار الذي فرضه بني مرين على تلمسان،³ على الرغم من محاولة بني زيان التوسع شرقا إلا أن سلطانها أبي السعيد عثمان ظل تابعا للحفصيين (اسميا) إلى غاية الاستيلاء المريني وفرض الحصار الطويل،⁴ واستغاث حينها عثمان بن يغمراسن بأمير بجاية أبو زكريا الحفصي الذي أجابه وقدم له المساعدة لكنه سرعان ما انهزم أمام جيوش مرين.⁵

ولدواعي أمنية قامت الحفصيتين الشرقية والغربية بتمتين روابطها مع يوسف أبو يعقوب المريني وراحت تساعد في إحكام الحصار على تلمسان، ولما علم أبو زيان بذلك قطع الدعوة

الاستيلاء على ما جاورك من عمالات الموحدين وممالكهم يستفحل به ملكك، وتكافئ حشد العدو بحشدك ولعلك تصير بعض الثغور الشرقية معقلا لذخيرتك". ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 123.

¹ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 125. - روبر بارونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص 135.

² **أبي عصيدة**: هو ابن أبي زكريا يحي بن المستنصر بالله بن المولى أبي زكريا بن المولى عبد الواحد بن أبي بكر بن الشيخ حفص عمر، بويغ سنة (694هـ/1295م)، يروى أنه لقب بأبي عصيدة نسبة إلى أنه عندما قتل الوثائق بن المنتصر وأبنائه، فرت إحدى الجوارى وقد اشتملت على حمل منه إلى رباط هذا الولي ووضعت في بيته فسماه الشيخ عنه وأطعم يومها الفقراء عصيدة الحنطة فتلقب بأبي عصيدة. ينظر: ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 83. - ابن أبي دينار، مصدر سابق، ص 133.

³ يحي بوعزيز، مرجع سابق، ص 61.

⁴ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، مصدر سابق، ج 7، ص 292. - الناصري، ج 3، مصدر سابق، ص 79.

⁵ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، مصدر سابق، ج 7، ص 458.

الحفصية على منابرهم.¹ وبذلك ينتهي الدور الأول من تاريخ الدولة ويتلوه عهد السيطرة المرينية على تلمسان عاصمة بني زيان.

2. 2 التوسع الزياني شرقا:

عانت الدولة الزيانية وأهلها الكثير نتيجة الحصار الطويل الذي فرضته الدولة المرينية على عهد سلطانها يعقوب،² لكن الأمور ساءت أكثر إثر وفاة عثمان بن يغمراسن بعد خمس سنوات من الحصار،³ وعلى الرغم من صعوبة الظروف التي كان يعيشها أهل الدولة إلا أنهم أظهروا بسالة وشجاعة ظلوا يقاتلون ويتصدون لمحاولات بني مرين في إخضاعها وضمها تحت سلطتهم، إلى جانب أمراء بني زيان الذين عملوا على تحقيق استقلالهم واسترجاع كيان الدولة من جديد.⁴

في سنة (706هـ/1307م) قتل أبو يعقوب يوسف على يد أحد فتيانه يدعى لاسعادة ثم من بعدها انسحب المرينيين من المغرب الأوسط إثر اتفاق تم بين عامر بن عبد الله بن يوسف المريني ومحمد بن عثمان بن يغمراسن الزياني،⁵ وتمكن أبو زيان⁶ مع أخيه أبي حمو خلال هذه المرحلة من استرجاع كيان الدولة وإصلاح ما أفسدته الحروب،⁷ وبعد وفاة السلطان خلفه أخوه أبي حمو موسى الأول بن عثمان سنة (707هـ/1307م)،⁸ الذي عمل فور اعتلائه عرش الحكم

¹ محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص ص 290 - 291.

² ابن أبي زرع، الأنيس ... مصدر سابق، ص 386.

³ عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 28.

⁴ يحي بوعزيز، مرجع سابق، ص 61.

⁵ **ينظر:** ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص ص 388 - 390. - محمد عيسى الحريري، مرجع سابق، ص 219.

⁶ **أبي زيان محمد:** هو أبي زيان محمد بن أبي سعيد عثمان بن يغمراسن بن زيان، بويغ بعد وفاة أبيه سنة (703هـ/1303م) وكانت له مع بني مرين مواجهات مذكورة حاول خلالها الدفاع عن دولته وحرمة غير أن أيامه لم تطل وتوفي بعد أربع سنوات من توليه أمر بني زيان. **ينظر:** التنسي، مصدر سابق، ص 141.

⁷ أورد التنسي أن من قام بالترميم هو أبو حمو لأن أبو زيان مات أيام الحصار. **ينظر:** التنسي، نفس مصدر ، ص 145. - عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 29

⁸ **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 131. - يحي ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص ص 126 - 127. - التنسي، مصدر سابق، ص 142.

على دعم الدولة التي جاهد يغمراسن طويلا في سبيل إبرازها كدولة مستقلة بالحكم،¹ وشرع في إعادة نفوذ الدولة على المناطق والأقاليم التي خرجت على طاعة بني زيان خاصة الشرقية منها،² فطرد محمد بن عطية الأصم عن نواحي الونشريس وراشد بن محمد عن نواحي شلف ثم ضم الإقليمين إلى بلاده، واستعمل عليهما مولاه سامح على بلاد مغراوة، و محمد ابن عمه يوسف على مليانة، وولى على توجين يوسف بن حيان الهواري، وضم متيجة، والمدية، وغيرها...³ وضرب بنو زيان السكة ونقشوا عليه عبارة "ما أقرب فرج الله".⁴

كما عمد بني زيان على عقد الصلح مع بني مرين واستطاع أبو حمو أيضا من ضم مدينة الجزائر سنة (712هـ/1312م) بعد استسلام صاحبها ابن علان،⁵ وأخذ يوجه سياسته التوسعية نحو نطاق ملك بني حفص مستغلا انقسام الدولة إلى مملكتين -بسبب النزاع على الحكم- وسيطرة الوزراء على السلاطين الضعفاء،⁶ فحاصر بجاية لكنها امتنعت عنه ورغم فشل الحصار إلا أنه استطاع الاستيلاء على جبل ثابت عام (713هـ/1313م) وبناء حصن ليشن الغارات من تلك الجهات يسمى حصن تامزيدكت.⁷ (الخريطة رقم: 02)

¹ يحي بوعزيز، مرجع سابق، ص 61.

² عبد العزيز فيلاي، مرجع سابق، ج 1، ص 29.

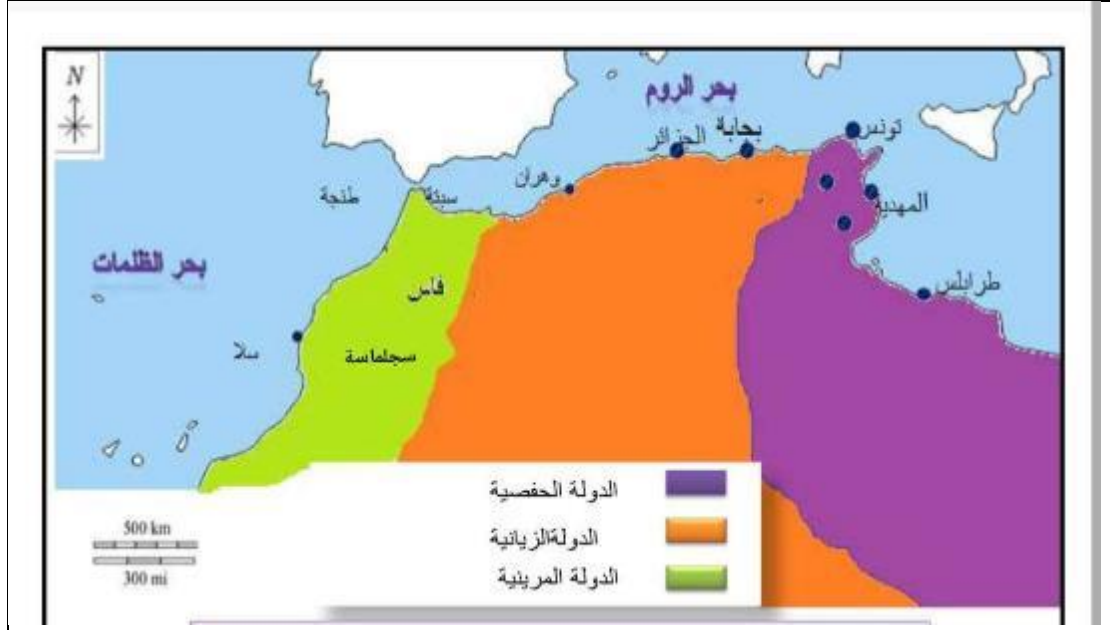
³ **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، مصدر سابق، ج 7، ص 132. - يحي ابن خلدون، مصدر سابق، مج 1، ص 129. - التنسي، مصدر سابق، ص 145-146. - يحي بوعزيز، مرجع سابق، ص 62. - عبد العزيز فيلاي، ج 1، مرجع سابق، ص 29.

⁴ عبد الوهاب بن منصور، ج 1، مرجع سابق، ص 148.

⁵ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 131-132.

⁶ **ينظر:** محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 292. - عبد العزيز فيلاي، ج 1، مرجع سابق، ص 29. - محمد محمد أحمد إسماعيل، مرجع سابق، ص 174.

⁷ **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، مصدر سابق، ج 7، ص 146. - محمد محمد أحمد إسماعيل، مرجع سابق، ص 178-179.



خريطة رقم 02:

حدود تقريبية لدول المغرب الإسلامي خلال عهد أبو حمو موسى الأول

من اعداد الطالبة

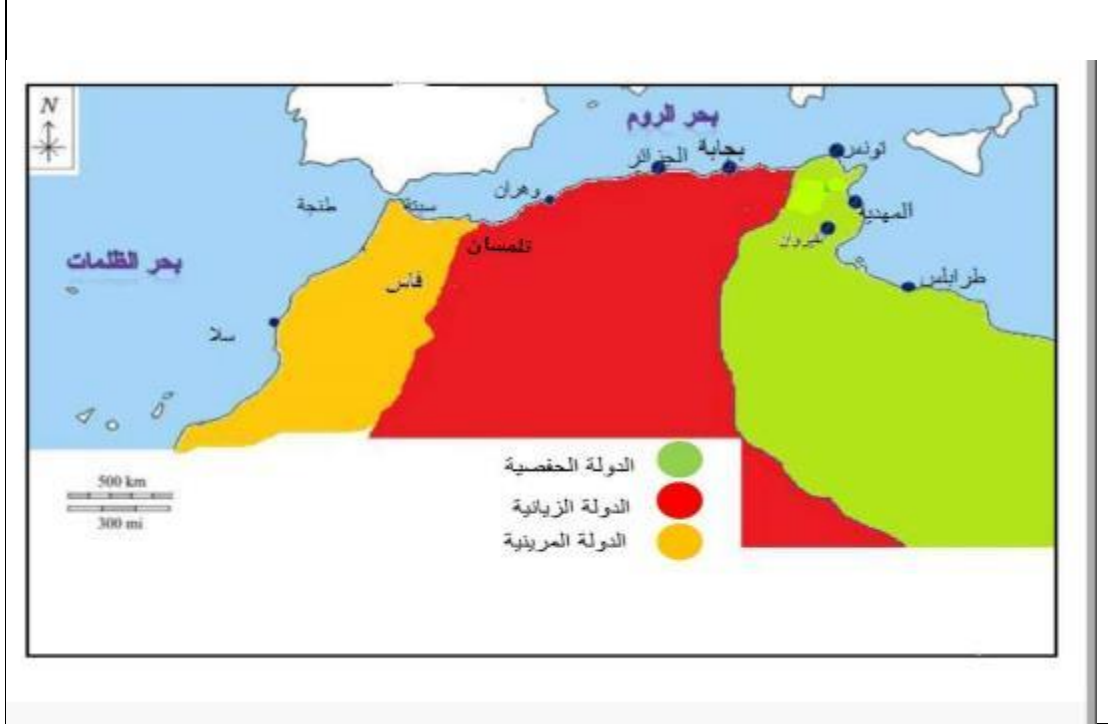
استمر الضغط الزياني على الجهة الشرقية في عهد أبو تاشفين رغبة منه في التوسع شرقاً على حساب الدولة الحفصية، وبالفعل تمكن من الوصول إلى أوج اتساع للدولة الزيانية، من تلك الجهات، يقول في هذا الشأن التنسي: "ممهّد الأرضين... فاستولى على البدو والحضر... وثاقب عداة شرقاً... إلى أن بلغت أيامه أقصى مداها"¹ من أمثلة تلك الحركات التوسعية حصار بجاية سنة (719هـ/1319م) وعاود الكرة سنة (721هـ/1321م)، كما حاول حصار قسنطينة لكنها امتنعت عنه، وفي سنة (729هـ/1339م) وفد على السلطان الزياني حمزة بن عمر، وبعده عبد الحق بن عثمان المنشق عن أبي فارس عبد العزيز يدعوانه لشن حملة ضد الدولة الحفصية مؤكداً مساندة الأعراب له في حربه مع بني حفص، فاستجاب سلطان بني زيان لهما.²

جهز جيشاً من زناتة بقيادة يحيى بن موسى، اجتمع في هذا الجيش ثلاث عناصر معادية للسلطان الحفصي هي: محمد بن أبي عمران، وحمزة بن عمر، وعبد الحق بن عثمان، وتمكنت

¹ التنسي، مصدر سابق، ص 150.

² عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص ص 143-145.

جيوش بني زيان من الدخول إلى مدينة تونس وأقامت بها نحو أربعين يوما، ثم سلم القائد الزياني مقاليد الأمر لابن أبي عمران وحمزة، وقفل راجعا بجيوشه سنة (730هـ/1330م) بعد أن أخذوا الولاء والطاعة من أعيان تونس والجباية، كما حاصر في طريقه بجاية وقسنطينة حصارا شديدا فاشتد الغلاء، حاول خلال تلك الظروف أبو حفص عمر المحاصر بقسنطينة إبرام الصلح مع أبو تاشفين لكنه رفض ذلك.¹ (الخريطة رقم: 03)



خريطة رقم: 03

الحدود تقريبية لدول المغرب الإسلامي أثناء حملة أبو تاشفين الأول

من اعداد الطالبة

لم يجد أبو بكر الحفصي في هذه الظروف حليفا له أقوى من بني مرين لصد مساعي بني زيان التوسعية فقام بإرسال وفد إلى فاس يتضمن ابنه أبي زكريا وحاجبه أبو محمد بن تافراجين، أين استقبلهم أبو السعيد عثمان بحفاوة رفقة ابنه أبو الحسن واستجاب السلطان المريني لمطالبهم قائلا: "والله لا بذلن في مظاهرتكم مالي وقومي ونفسي ولا سيرن بعساكري إلى تلمسان فأنازلها".²

¹ عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 43.

² الزركشي، مصدر سابق، ص 68.

قام بني مرين وبني حفص بتعزيز التحالف الجديد عن طريق المصاهرة التي لطالما رغب فيها منذ سنة (721هـ/1321م)، إذ أرسل السلطان أبو السعيد قائد أسطوله بسببة طالبا يد إحدى بنات صاحب طرابلس محمد بن أبي عمران، لابنه لكن هذا الأخير لم يستجب له.¹

استعد أبو السعيد عثمان لمنازلة بني زيان فخرج بجيش جرار من فاس رفقة الوفد الحفصي سنة (730هـ/1330م)، وعند وصوله إلى وادي ملوية بلغه خبر استرجاع أبي بكر الحفصي لمدينة تونس من أحد مناوئيه الداخلين، في حين كان وفد العروس فاطمة أخت الأمير أبي زكريا في الطريق إلى فاس، فخرج لاستقبالها إكراما لأبيها لكنه توفي في الطريق قبل الوصول إلى فاس.²

بعد وفاة أبو السعيد عثمان ازداد التقارب الحفصي المريني لهذا جهاز أبو الحسن المريني جيشا لنحو تلمسان وقام بحصارها سنة (737هـ/1336م) بعد جهد جهيد استولى عليها وقتل سلطانها أبو تاشفين بن يغمراسن،³ ثم ألحق بجاية وقسنطينة تحت طاعته وغرناطة في الأندلس وأخذ يضم أحواز الدولة الحفصية تدريجيا.⁴

ظهر بعد ذلك نمط جديد في العلاقات الزيانية الحفصية لاشتراكهم في عدااء بني مرين ويظهر ذلك جليا في احتضان بني حفص للأمير أبو حمو موسى الثاني بعد هروبه من بني مرين ورفضوا تسليمه، كما قدم الحاجب محمد بن تافراكين الدعم الكامل له وأكرم نزله،⁵ وساعده على الرجوع إلى تلمسان فدخل أبو حمو موسى الثاني تلمسان سنة (760هـ/1359م) وأعانه على ذلك الحاجب ابن تافراجين واقتعد على عرش الدولة بعد أن تمت مبايعته (بيعة الخلافة)،⁶ وهذا مطلع

¹ محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 343-344.

² الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 117.

³ **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 148. -الزركشي، مصدر سابق، ص 72. -أحمد جبرون، مرجع سابق، ص 268.

⁴ ابن الأحمر، تاريخ الدولة الزيانية...، مصدر سابق، ص 31.

⁵ أورد التنسي أن السلطان أبي إسحاق بن يحيى بن أبي زكريا (750-770هـ/1350-1369م) من احتضن أبو حمو موسى دون ابن تافراكين. **ينظر:** التنسي، مصدر سابق، ص 167.

⁶ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 163-164.

القصيدة التي أنشدها بعد عودته إلى حاضرتة يحكي فيها ما قاساه لاستعادة العاصمة وإحياء الدولة من جديد:¹

جرت أدمعي بين الرسوم الطواسم لما شطحتها من هبوب الرواكم
وقفت بها مستفها لخطابها وأي خطاب للصلاد الصلادم
ومنها:

وجبت الفيافي بلدة بعد بلدة وطوعت فيها كل باغ وباغم
جئت لأرض الزاب فاضت مدمعي تذكرت أطلال الرسوم الطواسم
وشبكت عشري فوق رأسي بها مخبرا غير الربى والمعالم
بدل السلطان أبو حمو موسى جهودا حثيثة لإعادة إحياء الدولة الزيانية مستهدفا تعزيز سلطته وتوسيع نفوذه في منطقة المغرب الأوسط،² بالاستفادة من تأييد قبائل المعقل المقيمة في المناطق الحدودية الغربية، كما تلقى أيضا ولاء مدن رئيسية مثل وجدة، ندرومة، هنين، مستغانم، تمزگران والبطحاء،³ ولتعزيز الأمن والاستقرار داخل مملكته قام بالقضاء التام على النفوذ المريني في المغرب الأوسط بعد أن كانوا يسيطرون على كل من مدينة وهران، الجزائر، مليانة، المدينة، إلى جانب المناطق الشرقية كجبل الونشريس، نواحي الشلف، متيجة وجبال تيطري.⁴

بعد أن تمكن أبو حمو من إحكام السيطرة على الشؤون الداخلية توجه نحو تحقيق طموحات أسلافه في التوسع شرقا، مستغلا حالة الاضطراب داخل الدولة الحفصية ساعيا إلى بسط نفوذه على المملكة الحفصية الغربية،⁵ وتهيأت له الفرصة عندما ورد إليه نبأ مقتل والد زوجته الأمير أبي عبد الله محمد حاكم بجاية على يد السلطان أبي العباس صاحب قسنطينة، الأمر الذي دفعه

¹ مؤلف مجهول، زهر البستان...، ج 2، مصدر سابق، ص ص 40-44.

² أطلق عليها اسم دولة بني زيان بعد أن كانت تسمى بدولة بني عبد الواد. **ينظر:** يحي بوعزيز، مرجع سابق، ص 69.

³ **ينظر:** يحي ابن خلدون، ج 2، مصدر سابق، ص 189. -عبد الحميد حاجيات، مرجع سابق، ص 92.

⁴ **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 164. -يحي ابن خلدون، ج 2، مصدر سابق، ص ص 3-7. -التنسي، مصدر سابق، ص 169. -عبد الحميد حاجيات، مرجع سابق، ص 92-93.

⁵ محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 455.

إلى إعداد حملة عسكرية الهدف منها التآثر واستعادة نفوذه في المنطقة، فقاد جيشا كبيرا ضم العديد من الجنود والقبائل وفرض حصارا مشددا على بجاية،¹ وفي المقابل أطلق السلطان أبو العباس سراح أبي زيان محمد بن أبي سعيد عثمان الذي كان سجيناً، واستعان به لقيادة جيشه نظراً لشعبيته الكبيرة بين القبائل التي كانت تشكل الركيزة الأساسية لقوة أبي حمو موسى، خاصة قبيلة بني زغبة التي كانت حليفاً رئيسياً له في معاركه.²

تحققت خطة السلطان الحفصي،³ بعد أن تخلت هذه القبائل عن أبو حمو وانضمت إلى صفوف أبي العباس الحفصي وأبي زيان بن عثمان، "فانهزموا أمامهم وتركوها بأيديهم فمزقوها بالسيوف. وعان العرب على البعد انتهاب الفساطيط فأجفلوا وانقض المعسكر بأجمعه... فهلك الكثير منهم وكانت من غرائب الوقائع"،⁴ فلم يكتفي أبو العباس بذلك فقط بل توجه إلى مدينة تدلس، وأخضعها تحت ملك المملكة الحفصية الغربية.⁵

نتيجة لفشل أبو حمو موسى الثاني في الاستيلاء على بجاية وتوسيع رقعة دولته شرقاً عمد على إيجاد حليفاً له ضد أبي العباس أحمد بعد أن سيطر على بجاية وقسنطينة، لهذا أخذ يتقرب من أبي إسحاق إبراهيم سلطان الحفصية الشرقية الذي كان على قدر من العداوة مع أبو العباس أحمد بسبب مقاسمة النسب والسلطة، وعندما يتحقق هذا التحالف يصبح أبو العباس في مواجهة الخطر من الجهتين -الحفصية الشرقية من تونس شرقاً وتلمسان غرباً- لهذا طلب أبو حمو من عبد الرحمان ابن خلدون وهو ببسكرة تقريبه من أبي إسحاق صاحب تونس.⁶

¹ عبد الرحمان ابن خلدون، التعريف، مصدر سابق، ص 107.

² **ينظر:** ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية...، مصدر سابق، ص ص 185- 186. -عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص ص 171- 172. -محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص ص 455- 456.

³ كانت الخطة في الأساس للوزير ابن تافراكين الذي فكر في احتجاز الأمير أبي زيان لديه في قابس عندما كان مسيطراً على أمور السلطة الحفصية من أجل المساومة مع بني زيان عند محاولة التوسع شرقاً على حساب دولتهم. **ينظر:** محمد أحمد إسماعيل، مرجع سابق، ص 180.

⁴ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 173.

⁵ **ينظر:** الشماع، مصدر سابق، ص 30. -محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص ص 459- 460.

⁶ عبد الرحمان ابن خلدون، التعريف...، مصدر سابق، ص 140.

تكنم غاية أبو حمو موسى في استرجاع عرشه من ابن عمه وضم بجاية إلى نفوذه والقضاء نهائيا على أبو العباس الحفصي، وبناء عن ذلك اتجه إلى محاربة أبو زيان طالبا من عبد الرحمان ابن خلدون المقيم ببسكرة تحت ضيافة صاحبها ضم أعراب الزواودة لصفه لمنع أبو زيان من الإفلات إلى الصحراء وطلب منه أيضا التكلم مع صاحب بسكرة لمناصرتة، استجاب صاحب بسكرة لهذه المطالب وسار صحبة عبد الرحمان ابن خلدون إلى بجاية وجهاتها، تأييدا لصاحب تلمسان صحبة طائفة من الزواودة¹ سنة (769هـ/1368م)، من ذلك رواية عبد الرحمان ابن خلدون التي يقول فيها: "...وسرنا مغربين إليه، حتى نزلنا المطفا قبله تيطري، وقد أحاط السلطان به من جانب التل، على أنه إذا فرغ من شأنهم سار معنا إلى بجاية وبلغ الخبر إلى صاحب بجاية أبي العباس، فاستألف من بقي من قبائل رياح، وعسكر بطرف ثنية القصاب المقضية إلى المسيلة وبينما نحن على ذلك اجتمع المخالفون من زغبة: وهم خالد بن عامر كبير بني عامر وأولاد عريف كبراء السويد ونهضوا إلينا بمكاننا من المطفا، فأجفلت أحياء الزواودة، وتأخرنا إلى المسيلة، ثم إلى الزاب. وسارت زغبة إلى تيطري، واجتمعوا مع أبي زيان وحصين، وهجموا على معسكر السلطان أبي حمو فقتلوه ورجع منهزما إلى تلمسان".²

عاود أبو حمو النهوض من تلمسان للإغارة على بجاية سنة (771هـ/1370م) أين وفدت عليه طائفة من الزواودة أولاد عثمان بن يوسف بن سليمان، والتقى بعبد الرحمان ابن خلدون ومن معه في البطحاء واتفق على معاودة اللقاء بهم في مدينة الجزائر،³ لكن ذلك لم يتم وانصرف أبو حمو عن ملاحقة ابن عمه، ومحاولة التغلب على أبو العباس أحمد وضم بجاية وما جاورها تحت دائرة نفوذه بسبب نهوض أبو فارس عبد العزيز بن أبي الحسن المريني إلى تلمسان تأديبا له، لأنه لم يكف عن مشاغبة دولته في الحدود الشرقية خاصة عندما كان مشغولا بالمنشقين عنه والمعادين لسلطانه، واستجابة لدعوة عرب بني سويد له بعد أن قبض أبو حمو على بعض رؤسائهم محمد بن عريف سنة (772هـ/1371م).⁴

¹ محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 460.

² عبد الرحمان ابن خلدون، التعريف...، مصدر سابق، ص 141.

³ نفس المصدر، ص 142.

⁴ محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص ص 461 - 462.

وعليه يمكن القول أن أبو حمو موسى منذ توليه أمر بني زيان إلى غاية وفاته لم ييأس من محاولة توسيع نطاق حدوده من الجهة الشرقية وظل يشن الغارات على ملك بني حفص ويحاصر بجاية كلما تتيح له الفرص، كما أنه لم يكف عن مشاغبة الدولة المرينية في حدودها خاصة عندما كان أبو فارس عبد العزيز مشغولا بمحاربة الخارجيين عنه.

3. 2 السيادة الحفصية:

دخلت العلاقات الحفصية والزيرية في صدام أعنف في عهد السلطان أبو عمر عثمان ووزرائه المتقدمين لسياسيته والمشجعين له على توحيد بلاد المغرب تحت حكمه بسبب اضطراب الأوضاع خاصة وأنه في المغرب الأوسط كثرت الاضطرابات والانقسامات داخل البيت الزيري، ففي السنة التي استولى فيها أبي فارس على مدينة الجزائر (813هـ/1412م) تولى شؤون تلمسان عبد الرحمان بن محمد الأول، الذي لم يبق في الحكم طويلا وتم خلع من طرف عمه في أوائل محرم (814هـ/1413م) فتدخل بني مرين وحرصوا عليه أخاه عبد الواحد، فخلعه في منتصف رجب من نفس السنة.¹

استطاع أبو مالك عبد الواحد استرجاع ملكه من الجهتين الشرقية والغربية، وتحسنت الأحوال بداية أيامه، وعمد على تمتين الروابط مع الدولة المرينية، لكن في الوقت الذي استطاع فيه أن يسد باب الخطر من الجهة الغربية بدأ يأتيه شرقا على يد بني حفص، لأن العلاقات الحفصية الزيرية كانت تسير نحو التأزم لينتج عنها هيمنة النفوذ الحفصي.²

تولى أبو فارس عبد العزيز (796هـ/837هـ - 1394/1433م)،³ أمر بني حفص بعد موت أبوه أبو العباس⁴ ويعتبر من ألمع سلاطين الدولة في العهد الثاني، أي بعد توحيد الدولة على

¹ محمد لعروسي المطوي، نفس المرجع، ص 570.

² عبد العزيز فيلاي، ج 1، مرجع سابق، ص 69.

³ أبو فارس: أبو فارس عبد العزيز ابن أبي العباس أحمد ابن أبي عبد الله محمد ابن أبي يحيى بكر ابن أبي يحيى زكريا ابن أبي إسحاق إبراهيم ابن أبي زكريا ابن أبي محمد عبد الواحد ابن أبي حفص. ينظر: الزركشي، مصدر سابق، ص 115.

⁴ ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية...، مصدر سابق، ص 189.

يد والده ولقد اعتمد في سياسته بعد مبايعته أن ألف بين إخوته واعتضدهم،¹ وزاد من تكليفهم ببعض المناصب فجعل أخوه إسماعيل رديفا له في الحكم وبعث بأحدهم أميرا على سوسة وأخوه الآخر على المهدية وأحل الآخرين محل الشورى، أما أخويه المنتصر صاحب توزر وأبو زكريا المتولي على نفطة فقد اضطرب أمرهما بعد وفاة أبيهما واضطرا إلى مغادرة حضرتهما، فالأول التحق ببني وشاح والثاني التحق بجبال نفزاوة.²

قضى أبو فارس في بداية حكمه على المتمردين واستقامت الأمور في عهده، من خلال جمع شمل دولته باسترجاع كل من طرابلس، بسكرة،³ قابس، الحامة، قفصة، توزر، نفطة، قسنطينة، بجاية والصحراء،⁴ كما ضم مدينة الجزائر سنة (814هـ/1410م) وتجاوزت سمعته حدود مملكته ووصلته الهدايا من غرناطة، فاس، مصر والحجاز كما تسابقت الدول النصرانية إلى إبرام المعاهدات معه.⁵

في هذه الظروف الملائمة لاحظ أبو فارس استتباب الأمن في بلاده فقرّر التدخل مباشرة في شؤون دولة بني زيان كمحاولة منه في توسيع دائرة نفوذه على المغرب الأوسط،⁶ مستغلا ضعف حكومة بني زيان وتراجعهم العسكري وكانت حجتة في ذلك سوء سيرة السلطان الزياني،⁷ على إثر ذلك تحرك إلى تلمسان لتخليص السكان من سلطانهم الظالم وإرجاع النظام إلى نصابه

¹ ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 113.

² محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 551.

³ الشماخ الهنتاتي، مصدر سابق، ص 32.

⁴ ابن أبي دينار، مصدر سابق، ص 125.

⁵ شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص ص 186-187.

⁶ **ينظر:** عبد العزيز فيلاي، ج 1، مرجع سابق، ص 70. - محمد محمد أحمد إسماعيل، مرجع سابق، ص 181.

⁷ يعود السبب الحقيقي وراء تحرك أبو فارس نحو تلمسان إلى قيام عبد الواحد بالسيطرة على فاس عاصمة بني مرين، إثر خلاف داخل البيت المريني واستجداد أحد الأطراف به فخافت الدولة الحفصية من استمرار الدولة الزيانية بالسيطرة على المنطقة الغربية وتواصل مد نفوذها شرقا لذلك تحرك أبو فارس نحو تلمسان، وخلعه وولى مكانه محمد أبي تاشفين المكنى بابن الحمراء **ينظر:** الزركشي، مصدر سابق، ص 126. - التنسي، مصدر سابق، ص 251.

وتحرك نحو تلمسان بأكثر من خمسين ألف فارس ودخلها سنة (827هـ/1425م) بعد حصارها واستولى على كل ما فيها بعد فرار صاحبها إلى فاس.¹

استقر أبو فارس في قصبته مدة من الزمن رتب خلالها شؤونها وجمع جبايتها بواسطة وزير الجباية، وأخذ في تدبر من يوليه أمرها، ولم يشأ أن يلحقها مباشرة بدولته بل اختار لها محمد ابن أبي تاشفين، وعقد له على تلمسان مقابل التبعية والخضوع لهن وتوجه بعد ذلك يريد المغرب الأقصى.²

على الرغم من صمت المصادر التاريخية المؤرخة لهاته الفترة عن ذكر السبب الفعلي لعدم ضم تلمسان وإلحاقها بالسلطة المركزية الحفصية، إلا أنه يمكن وضع فرضية تخوف أبو فارس من انقلاب بني زيان عليه إثر عبوره إلى مواطن بني مرين، وبالتالي يجد نفسه محاصرا بين الاثنين.

بدأ محمد ابن أبي تاشفين عهده تحت رعاية بني حفص لا يشق لهم طاعة ولا يرد لهم طلبا واستطاع بهذه السيرة تجنب الحرب معهم، كما استطاع كسب ثقة الرعية ووجد صفوفهم وهكذا تمكن من إخضاع جميع البلاد وسيطر على مقاليد الحكم، بعدها بدأ يتطلع إلى الانفصال عن السلطان الحفصي ففي سنة (832هـ/1429م) أعلن استقلاله عن السلطان أبي فارس من الرسائل وخطبت له في صلاة الجمعة والأعياد، واستعد أبو تاشفين لمحاربة أبو فارس وجمع حوله القبائل العربية والزناطية كما حصن عاصمته.³

وجه أبو فارس عساكره نحو تلمسان بقيادة صاحب قسنطينة العليج المعروف بجاء الخير معية السلطان الزياني المخلوع عبد الواحد،⁴ لكنهم انهزموا فرجع جاء الخير إلى قسنطينة خائبا

¹ عبد الرحمان بن محمد الجيلالي، ج 2، مرجع سابق، ص 118.

² ينظر: ابن الشماخ، مصدر سابق، ص ص 116-117. - الزركشي، مصدر سابق، ص 126. - محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 573. - عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 70. - محمد أحمد إسماعيل، مرجع سابق، ص 181.

³ عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 70.

⁴ لما توجه السلطان المخلوع عبد الواحد إلى فاس، حاول في حركة منه إرجاع ملكه بتلمسان لكنه فشل في ذلك فوجه حينها أحد أبنائه إلى تونس لطلب الشفاعة من سلطانها، فأكرم هذا الأخير ابن عبد الواحد وبعث معه رسالة

بينما عبد الواحد توجه إلى الجبال والأرياف مستصرخا القبائل العربية، فاستجاب له عدد كبير أين زحف بهم إلى تلمسان وتمكن من التغلب عليه وتملك تلمسان على الرغم من أنه استرجع عرشه دون مساعدة من بني حفص إلا أنه بعث ببيعته وتبعيته للسلطان الحفصي.¹

ومن المرجح أن هذا الموقف مرجعه عدم تقبضه على ابن أخيه الذي فر نحو الجبال المجاورة سنة (831هـ/1430م) وأخذ يجوب المناطق الشرقية والغربية بحثا عن الأنصار لاسترجاع عرشه، لهذا لم يطمئن وظل على ولاء للسلطة الحفصية حتى تكون في إعانته عند هجوم ابن أخيه.²

بقي ابن الحمراء في الجهة الغربية، ثم توجه إلى الشرق فدخل جبال برشك وتتس، وبقي هناك مدة ثم توجه إلى تلمسان مستجيشا بعربها، وتم له ذلك في الرابع من ذي القعدة سنة (833هـ/1432م)، بعد سنتين من تولي عبد الواحد الحكم، وأمر بإعدامه في اليوم التالي من دخوله إلى تلمسان.³ يقول في هذا الصدد أحد الشعراء:⁴

أنظر إلى الأطوار كيف تزول	والحالة العليا كيف تجول
الموت حتم والنفوس ودائع	والعيش نومو المنى تضليل
أودى سراج المجد وابن سراج	فلنور شمس المكرمات أفول
يهوى الفتى طول البقاء مؤملا	وله رحيلى ليس عنه قفول

عندما بلغ أبو الفارس خبر مقتل عبد الواحد وتولي ابن الحمراء عرش تلمسان قرر النهوض إلى عاصمة المغرب الأوسط للأخذ بثأر عبد الواحد، فحاصر تلمسان للمرة الثالثة وأجبر صاحبها على الفرار ليلا للقضاء على ابن الحمراء نهائيا، وأرسل صاحب المغرب الأدنى قائد جيشه نبيل

لأبيه يدعو فيها القدوم إلى حضرته، لكن ابن الحمراء ترصد به وقتله، وبهذا اشتد العداء أكثر بين السلطان الجديد لتلمسان وعمه، كما كانت تنقل إلى كلا الطرفين أمور توجب الحقد وتوجه عبد الواحد إلى تونس فوعده صاحبها بالنصرة له وإرجاعه إلى ملكه. **ينظر:** التنسي، مصدر سابق، ص 253.

¹ **ينظر:** الزركشي، مصدر سابق، ص 127. 128. -روبار برونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص 257.

² محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 587.

³ **ينظر:** التنسي، مصدر سابق، ص 255. -عبد العزيز فيلاي، ج 1، مرجع سابق، ص 71.

⁴ التنسي، مصدر سابق، ص 255.

ابن أبي قطاية لتتبع أثره حتى أدركه مختبئاً عند بني بزناسن (يقطنون في الجبال الواقعة في الغرب الشمالي لمدينة وجدة وشرق نهر ملوية) الذين قاموا بتسليمه تحت التهديد، فأخذه السلطان الحفصي معه إلى عاصمته وسجنه في قصبته إلى أن توفي هناك سنة (840هـ/1438م).¹

قبل رجوع أبو فارس إلى عاصمته أخذ يتدبر فيمن يتولى تلمسان من بعده فظل على رأيه الأول في عدم تنصيب شخص خارج البيت الزياني،² " فقال: ما أرى لها إلا أحمد العاقل"،³ وتم فعليا تعيين أبو العباس أحمد بن أبي حمو سنة (834هـ/1431م).⁴

3. 3 بني زيان بين الانفصال والتبعية:

امتاز أبو العباس أحمد المعتصم ابن أبي حمو موسى الثاني -العاقل- بالعدل ورجاحة العقل، بدأ عهده بإصلاح الإدارة وبناء الدولة وإعادة هيبته من جديد وبعد ثلاث سنوات من حكمه أحس أنه بإمكانه درأ خطر بني حفص فأسرع إلى خلع طاعتهم وقطع الدعاء لهم،⁵ بينما كان أبو فارس في أقصى الجنوب مشغولاً بنزول الفونصو الخامس بجربة سنة (837هـ/1436م).⁶

بعد انصراف النصاري من جربة توجه أبو فارس بعساكره إلى تلمسان للمرة الأخيرة وعندما بلغ أطراف الونشريس في الموضع المعروف باسم ولجة السدرة أصابه مرض أودى بحياته سنة (837هـ/1436م)، وكانت مدة خلافته إحدى وأربعين سنة وأربعة أشهر وسبعة أيام،⁷ استطاع أبو

¹ ينظر: الزركشي، مصدر سابق، ص 129. -روبار برونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص 257. -عبد العزيز فيلاي، ج 1، مرجع سابق، ص 71.

² محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 587.

³ ينظر: التنسي، مصدر سابق، ص 257. -محمد أحمد إسماعيل، مرجع سابق، ص 182 - 183.

⁴ ينظر: روبار برونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص 257. -عمار عمورة، مرجع سابق، ص 82.

⁵ عبد العزيز فيلاي، ج 1، مرجع سابق، ص 71.

⁶ ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 116 - 117.

⁷ ينظر: الزركشي، مصدر سابق، ص 130 - 131. -ابن أبي دينار، مصدر سابق، ص 126. -محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 591. -عبد العزيز فيلاي، ج 1، مرجع سابق، ص 72.

فارس خلالها الحفاظ على وحدة دولته وأكسبها سمعة في المشرق والمغرب والأندلس رغم المحاولات الانفصالية التي طالت بلاده خلال فترة حكمه، والمحاولات النصرانية للنيل من سيادته على أرضه.¹

وفي المقابل نجد فترة حكم أبو العباس أحمد العاقل -حكم نحو اثنين وثلاثين سنة- هي الأخرى فترة طويلة إذا ما قورنت بحكم سابقه سادها نوع من الرخاء الاقتصادي والهدوء النسبي، تعرض خلال فترة حكمه إلى ثورات وتمردات (القبائل الزناتية والعربية)، فضلا عن تنافس البيت الزياني على السلطة.²

وهكذا انتهى عهد السلطان أحمد العاقل الذي استطاع تحيية الوجود الحفصي من المغرب الأوسط والاستقلال بالحكم دون تدخل منهم، ومنذ وفاة السلطان أبو فارس -ظلت التبعية اسمية فقط- ولم يستطع السلطان أبو عمر عثمان الحفصي إلحاق المغرب الأوسط إلى نفوذه، كما كان الحال في عهد أسلافه (أبو زكريا وأبو فارس) لأنه كان مشغول بالحركات الانفصالية وحالات التمرد على السلطة من داخل البيت الحفصي، وعودة الأعراب إلى الانتفاض من جديد.³

على الرغم من أن أحمد العاقل لم يلتجئ إلى تونس مثل أسلافه فإن السلطان أبو عمر عثمان⁴ اعتبر حركة المتوكل تحديا لسلطنته، لهذا قرر الخروج إلى تلمسان اقتداء بجده أبو فارس وبالسُلطان أبي زكريا الأول لتوسيع رقعة نفوذه، وطبق ذلك سنة (866هـ/1462م) بجيش عظيم يضم جميع عرب إفريقية.⁵

واصل أبو عمر عثمان زحفه نحو تلمسان رغم وفاة واحد من أعظم وزرائه المخلصين له شيخ الموحدين محمد بن أبي هلال في قسنطينة، عند وصوله أرض بني راشد أقبلت عليه جميع

¹ محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص ص 588 - 589.

² **ينظر:** التنسي، مصدر سابق، ص ص 257 - 258. - عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 72.

³ محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 605.

⁴ أبو عمر عثمان: هو المولى أبي عبد الله محمد ابن أبي فارس عبد العزيز، بوع في اليوم الذي توفي فيه أخاه، بالرغم من صغر سنه وتلقب باللقب الذي كاد يصبح لقب تقليدي للعائلة الحفصية وهو (المتوكل على الله)، مكث على العرش أكثر من نصف قرن (مدة ثلاثة وخمسين سنة). **ينظر:** ابن أبي دينار، مصدر سابق، ص 127. - روبر بارونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص 271.

⁵ **ينظر:** الزركشي، مصدر سابق، ص 152. - شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص 188.

عرب السويد وبنو يعقوب والذواودة من بنو عبد الواد وبنو عامر معلنين الانقياد والطاعة فتقبلها منهم وقويت بهم صفوفه، وفرق قواده في أرض تلمسان لجباية الأموال، وعلى الرغم من برودة الطقس (تهاطل الثلوج)، إلا أن الزحف الحفصي ظل مستمرا حتى شارف على تلمسان وهددها بالحصار، فخاف المتوكل من عدم قدرته على صد السلطان الحفصي لهذا قام بإرسال وفد من الفقهاء وهم: الشيخ أبو العباس أحمد ابن الحسن، الفقيه أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن قاسم العقباني، أبو الحسن علي بن حمو ابن أبي تاشفين خال السلطان المتوكل على الله وتراموا على السلطان الحفصي للكف عن البلد وعدم حصارها مقابل التزامهم بالبيعة عن صاحبها ودخوله تحت طاعتهم، فقبل أبو عمر عثمان ذلك وعقدوا على أنفسهم عقدا بالبيعة وانصرفوا إلى بلادهم،¹ وقفل السلطان بعدها راجعا إلى حضرته في السابع عشر صفر من سنة (867هـ/1463م).²

عند وصول خبر سيطرة السلطان أبو عمر عثمان على تلمسان وتعيين محمد بن أبي ثابت نائبا له، شهدت مدينة تونس احتفالات استمرت لعدة أيام تعبيرا عن تأييد السكان لهذا التطور السياسي،³ لتستمر التبعية الزيانية للبيت الحفصي بعد ذلك بضع سنوات، أرسل خلالها محمد بن أبي ثابت هدية لأبو عمر عثمان صحبة قاضيه محمد بن أحمد العقباني مع رجل من بني عمه

¹ يذكر عبد الباسط بن خليل الملطي الرحالة المصري الذي كان متواجدا في تونس أن صاحب تلمسان بعث مع هذا الوفد بخط يده بأنه يعاهد أبو عمر عثمان بالطاعة، وبعث إليه بعدد من الدراهم والدنانير مضروب عليها اسم السلطان الحفصي، فتقبل السلطان ذلك بدون زيادة في الشروط وامتنع عن دخول تلمسان وحصارها، وكان قد وقع في عسكر عثمان الغلاء الفاحش وما كثر فيه من القلق والقيح والقال، وظهور بوادر الخلاف داخل الجيش وكثرة الثلوج وحدة الشتاء، ورغب السلطان نفسه في العودة ويبحث فقط عن ذريعة وحجة يحتج بها على رجوعه، ولهذا فما إن وفد عليه الشيخ أحمد بن الحسن ومن معه أجابه في الذي جاء بسببه وقفل راجعا إلى حضرته من جهة الصحراء في برد الشتاء، فتلغ الكثير من عساكره وما معهم من الجمال وغيرها. **ينظر:** عبد الباسط خليل الملطي (ت920هـ)، رحلة عبد الباسط خليل، تح روبر بارونشفيك، باريس، فرنسا، 1936، ص ص 17-18. -محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، 630. -محمد محمد أحمد إسماعيل، مرجع سابق، ص ص 183-184.

² **ينظر:** الزركشي، مصدر سابق، ص 153. -روبار برونشفيك، مرجع سابق، ج 1، ص 291. -محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص ص 629-630. -محمد محمد أحمد إسماعيل، مرجع سابق، ص ص 183-184.

³ عبد الباسط الملطي، مصدر سابق، ص 20.

أواخر جمادي الثاني سنة (868هـ/1464م)، صادف وصولها إفاقة السلطان الحفصي من مرضه وزينت الأسواق كلها بتونس وكان فرح كبير.¹

وبعد سنتين من إرسال هذه الهدية عادت لصاحب تلمسان نزعة الاستقلال بملكهم والتخلص من التبعية الحفصية، فخلع طاعة السلطان أبو عمر عثمان مستبدا بالحكم وناقضا البيعة،² وفد حينها على السلطان أبو عمر عثمان الأعراب من بني عامر وسويد وغيرهم يطلبون منه التحرك نحو تلمسان لسوء سيرة سلطانها ونكته للبيعة.³

استجاب السلطان لمطالب الأعراب وقام بمباشرة تجهيز الجيوش للتوجه إلى تلمسان، تواجد خلالها بعاصمته تونس أحد أفراد بني زيان وهو الأمير أبو جميل زيان بن عبد الواحد بن أبي حمو، فوقع الاتفاق بين السلطان الحفصي ووفود بني عامر وسويد على أن يعين لهم أبو جميل زيان ليحاربوا باسمه وليكون هو صاحب السيادة على تلمسان بعد الانتصار على المتوكل، على هذا الأساس جهز السلطان جيشا لأبي جميل وأعطاه كل ما يحتاجه (الآلة، الأخبية والأموال) وعين عليه محمد بن فرح الجبائي قائدا على هذا الجيش، وكتب إلى والي بجاية ابنه أبو فارس عبد العزيز ليرافقه من أجل شن حملته على تلمسان، وكانت خطته هي إرسال الجيش حتى يتجهز هو ويلتحق بجيش آخر، وهكذا خرج أبو جميل زيان من تونس في شهر شوال من سنة (870هـ/1465م) ملتحقا ببجاية في الشهر التالي خرج السلطان ملتحقا به.⁴

اعتمدت خطة المتوكل على كسر الركيزة التي يعتمد عليها أبو عمر عثمان أي الأعراب، وبالتالي عمل على استمالة قبائل العرب من ذواودة وغيرهم إلى جانبه بزعامة الشيخ محمد بن سباع، كما كان يوجد عنده محمد بن سعيد بن صخر شيخ بني سلين، على أمل منه أن يكون الأعراب حاجز يحول بينه وبين قدوم الجيش الحفصي، وأخذ يرأسلهم بالهدايا والأموال لكسب ودهم

¹ الزركشي، مصدر سابق، ص 155.

² محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 632.

³ **ينظر:** الزركشي، مصدر سابق، ص 157. - عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 73.

⁴ محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 634.

وبالتالي يؤازرونه في حربه ضد أبو عمر عثمان، لكن هذا الأخير سبقه وألحق هؤلاء الأعراب إلى صفه.¹

وصل أبو عمر عثمان تلمسان سنة (871هـ/1466م) وناصبها الحصار الشديد على عكس حملته الأولى وهدم الأسوار التي يحتمي بها صاحبها،² عندما شعر السلطان الزياني بصعوبة الموقف ومواصلة صاحب تونس في القتال في اليوم الرابع قام بإرسال وفد كبير من أعيانه لطلب وقف القتال والعفو، وكتب بخط يده بيعته وتبعيته للبيت الحفصي وسيادة حكمهم على بلاده بتاريخ الرابع عشر من ربيع الثاني (871هـ/1466م) ونصها: "شهد على نفسه عبد الله المتوكل عليه محمد لطف الله به ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأعطى ابنته بكر للمولى أبي زكريا يحيى ابن المولى المسعود دون خطبة"،³ ورجع أبو عمر عثمان بعروس حفيده الأمير أبي زكريا بن مسعود إلى عاصمته سنة (872هـ/1467م) بعد أن تأكد من طاعة السلطان الزياني.⁴

وعليه فإن هذه الحملة التي قام بها أبو عمر عثمان تختلف عن سابقتها، وذلك لأنه جهز جيوشه هذه المرة جيدا بالعدة والعتاد وألحق به أحد الوجوه الزيانية لاستمالة قبائل المغرب الأوسط التي أخذ يلاحق قادتها حتى خضعت له، ومن المرجح أن سبب خوض السلطان الزياني لهذه المعركة هو تخوفه من عدم قبول أبو عمر عثمان التفاوض وفتح باب الصلح بمجرد إعلان التبعية له، لكن ولحده القتال خاض تجربة طلب العفو مرة أخرى وعززها بالهدايا الثمينة وقدم ابنته زوجة لحفيد السلطان الحفصي دون حدوث خطبة مسبقة وكأنه قدم ابنته رهينة لهم.⁵

¹ بعد أن خرج أبو عمر عثمان من حضرته بعساكره فر من بين يديه محمد بن سباع وصاحبه محمد بن سعيد وما انضاف إليهما، ولحق السلطان الحفصي بالصحراء واجتاز جبل الأوراس، واستولى على بعض القلاع الممتعة، واستولى جيشه على أموالهم وتوغل في الصحراء قاصدا تلمسان، ووردت عليه بيعة المدية، ومليانة، وتنس، وأتته الأعراب بالجبايات والضيافات حسب تعبير الزركشي. **ينظر:** الزركشي، مصدر سابق، ص 157.

² روبر برونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص 291.

³ الزركشي، مصدر سابق، ص 158.

⁴ عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 73.

⁵ **ينظر:** محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 634. - عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 73.

ومع غياب النصوص التاريخية التي تروي سبب كف أبو عمر عثمان عن القتال على الرغم من جديته في تلك الحملة التأديبية التي شنّها ضد صاحب تلمسان خاصة وأنه نكث بعهده معه سابقاً، لا يمكننا وضع فرضيات اعتباطية.

ظلت الدولة الزيانية خاضعة للنفوذ الحفصي إلى أن توفي المتوكل على الله سنة (873هـ/1468م)، وبما أن أحاديث التنسي انقطعت قبل نهاية مدة حكم هذا العاهل أي السلطان فإن الغموض كثيراً ما يغمر الأخبار المتعلقة بتاريخ الدولة الزيانية عهد هذا السلطان ومن جاء بعده من الملوك، أما فيما يخص الصراع بين بني حفص وبني زيان فقد ظل قائماً إلى غاية سقوط الأندلس، فانفردت بعدها كل دولة للدفاع عن سيادتها وحمايتها من الخطر الإسباني، وفعلياً فإن المتضرر الأكبر من هذا الصراع الطويل هو الدولة الزيانية خاصة وأنها إلى جانب الخطر الحفصي الذي هدد بزوال دولتها في فترة مبكرة من تاريخها، كانت تعاني غرباً من غارات بني مرين أبناء عمها من زناتة.

ثانيا: الصراع الزياني المريني

الضغائن بين الدولتين الزيانية والمرينية قديمة لها جذور تاريخية ناشئة عن الجوار في الموطن ثم الملك، وعن المنافسة في الاستقلال برئاسة زناتة وتحقيق السيطرة الأحادية وبسط النفوذ، فكثرت الحروب بينهما،¹ وظلت العلاقات فيما بينهما يستحكم فيها العداء ولم تشهد الوضعية السياسية سوى فترات قليلة من السلام، وكان ذلك في الغالب مفروضا على بني زيان، فإذا ما وتتهم الفرصة لنقضه سارعوا إلى ذلك وعادوهم.

1. أسباب الصراع

من خلال تتبع الظروف التي أدت إلى قيام دول المغرب الثلاث: الدولة الزيانية والدولة الحفصية والدولة المرينية، فإننا على يقين تام أن السبب الفعلي والمباشر حول الصراع الطاحن بينهم هو محاولة كل واحدة منهم وراثة ملك الموحيدين، وتوسيع رقعة نفوذها على كامل المغرب. ولأن الدولة المرينية كانت أكثرهم جاهزية للحرب والهجوم العسكري نتيجة لكفاءة جيشها وقوته ومواظبتها على تطوير معداتها الحربية، خاصة وأنها أولى دول المغرب التي قامت باستخدام البارود في حربها أثناء حصاره لتلمسان، لهذا كان عدد حملاتها على الدولة الزيانية أكثر منها وهاته الأخيرة هي الأخرى لم تتوانى عن انتهاز أي فرصة لضرب حدود مدين الشرقية، فذهبت كل واحدة من هاتين الدولتين تأخذ بالأسباب لشن الحملات العسكرية على الأراضي الواقعة تحت نفوذ جارتها، من بين هذه الأسباب نذكر:

¹ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 282. -مبارك بن محمد الملي، ج 2، مرجع سابق، ص 422. -عبد العزيز فيلاي، ج 2، مرجع سابق، ص 23. - سيد عبد العزيز سالم، مرجع سابق، ص 781.

1.1 الموقف من الدولة الموحدية: منشأ الخلاف

بني عبد الواد بطن من بطون بني يادين الخمسة وبنو يادين هؤلاء كانوا في صراع مع بني مرين، وكانت الغلبة في الغالب لبني يادين لكثرة حشدهم وعددهم الأمر الذي دفع بني مرين للانتقال إلى مجالات الفقر في المغرب الأوسط، وبعد زوال دولة المرابطين وتغلب الموحدين على ملك هاته الأخيرة أصبح بنو عبد الواد من أخلص القبائل الموالية لهم في المغرب الأوسط من ذلك وقوفهم إلى جانبهم في صد زحف بني مرين، الذين أظهروا عدم الانقياد والطاعة لهم،¹ من مظاهر ذلك خروج المخضب بعساكره (نحو خمسمائة فارس) لاعتراض قافلة الموحدين المتوجهة إلى شمال محملة بالمال والسلاح، ولما علم عبد المؤمن بن علي بذلك استنفر أنصاره من زناتة وعلى رأسهم العبد الوادي أبي محمد عبد الحق بن معاد الزناتي لحرب بني مرين، التقى الجمعان في فحص حسون وانتهت بفوز قبيل زناتة وقتل المخضب،² وجاءوا برأسه لعبد المؤمن بن علي وكان ذلك سنة (540هـ/1145م).³

تصاعدت موجة العداء أكثر بين الطرفين لدرجة ارتحال بني مرين من المغرب الأوسط سنة (601هـ/1204م) في أعقاب حرب دارت بينهما بسبب امرأة، واستقروا عند مدخل المغرب الأقصى عند الجبل المطل على واد ملوية وظلوا هناك حتى دخلوا المغرب الأقصى بعد موقعة العقاب،⁴ ولأن العلاقة بين بني عبد الواد والموحدين مبنية على الولاء والتبعية خاصة وأنهم أعانوا في حروبهم ضد الخارجين عن السلطة من بني مرين،⁵ عزز بني عبد الواد ذلك التحالف من خلال تبادل السفارات والهدايا وتجديد الطاعة بين الفترة والأخرى،⁶ فاعتبرت الدولة المرينية هذا

¹ ينظر: محمد عيسى الحريري، مرجع سابق، ص 217. - إبراهيم حركات، مج 2، مرجع سابق، ص 88. - وسام لعرفة، فتحة شلوق، "الصراع بين دول المغرب الإسلامي وأثره على عمران الدولة الزيانية"، مجلة هيروودت للعلوم الإنسانية والاجتماعية، مج 8، ع 3، (من ص 314-334)، الجزائر، 2024، ص 317.

² في أيام المخضب دخلت قبائل من زناتة في بني مرين وانتسبوا في قبائلهم. ينظر: ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص 19.

³ الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 4.

⁴ محمد عيسى الحريري، مرجع سابق، ص 127.

⁵ شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص 203.

⁶ ابن عذاري المراكشي، مصدر سابق، قسم الموحدين، ص 360.

التحالف الموحيدي الزياني تأمر عليها وتهديدا لسلطانها، وعليه فلقد كان لهذه العلاقة الدور الأساسي في احتدام الصراع بين بني مرين وبني عبد الواد، وانتهجت الدولة المرينية نفس سياسة بني عبد الواد فأخذت تتربص لجارتها الشرقية بغية تسجيل موقف الولاء والطاعة للخليفة الموحيدي السعيد،¹ يتضح ذلك جليا عندما طلب الأمير أبي بكر عبد الحق سنة (646هـ/1248م) من الخليفة السعيد دخول تلمسان لإخضاعها بعد أن قطع سلطانها يغمراسن الطاعة والدعاء للخليفة الموحيدي إثر الاستيلاء الحفصي على ملك بني زيان قائلا: "ارجع يا أمير المؤمنين إلى حضرتك وأنا أكفيك أمر يغمراسن وأفتح لك تلمسان".²

ظل الموقف من الدولة الموحدية يلعب الدور الرئيسي في ارتفاع التوتر واحتدام الصراع بين الجارتين في المغرب الأوسط والأقصى -استخدام القوة العسكرية- فالدولة الزيانية ظلت تدعم الموحدين في حروبهم مع بني مرين، ففي سنة (647هـ/1241م) دعمت الخليفة المرتضى الموحيدي في حربه مع أبي يحيى بن عبد الحق بفاس، فطمع يغمراسن حينها بأن تكون تلك الحرب سببا في تملكه المغرب الأقصى، والتقى الجمعان بموضع يعرف بإسلي الواقع بالقرب من وجدة وانهزم فيها بني زيان، وتكرر اللقاء العسكري بين الطرفين لصالح الموحدين بعد استتجاد أبي دبوس بالسلطان يغمراسن لصد الحصار المريني على مراكش سنة (666هـ/1268م).³

وعليه فإن الحروب بين زيان وبني مرين المستمرة بحجة مساندة الموحدين في حركتهم ضد الخارجين والمنشقين عن سلطانها، كانت غايتها الأساسية إضعاف نظيرها من أجل بسط سلطانها على كامل تراب المغرب ووراثة ملك الموحدين وخروج يغمراسن من جميعها منهزما.

¹ شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص 203.

² الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 13.

³ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 115. -ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 305. - الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 26.

1. 2 العلاقات الزبانية ببني الأحمر:

نشأت دولة بني الأحمر¹ في ظروف معقدة وبشروط صعبة خاصة بعد استيلاء النصارى على مدن الأندلس، حيث سعت مملكة غرناطة إلى تمتين روابطها مع دول العالم الإسلامي مشرقه ومغرب، من أجل تحقيق التضامن والجهاد معهم أمام نصارى الأندلس، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ۚ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.²

تعتبر دولة بني مرين أكثر دول المغرب الإسلامي نصرة لبني الأحمر، وأول جيش مريني جاز إلى الأندلس برسم الجهاد كان سنة (661هـ/1263م) بقيادة عامر بن إدريس رفقة ثلاثة آلاف فارس (أمدّه يعقوب بالعدة والعتاد)،³ ولعل المساندة المستمرة التي قدمتها الدولة المرينية لبني الأحمر -إلى جانب الدافع الديني- تعود إلى تخوفها من إمكانية توغل النصارى إلى أراضيها

¹ دولة بني الأحمر (898/635هـ): آخر ملوك الأندلس أصلهم من أرجونة من حصون قرطبة، ينتسبون إلى سعد بن عبادة سيد الخرج الذي عاون الرسول في دار الهجرة، عندما أخذت قواعد الأندلس تتهاوى حاول محمد بن يوسف بن هود الجذامي جمع بقايا الأندلس وإقامة دولة له لكنه قتل قبل تحقيق ذلك. ثم نهض بعده محمد بن يوسف بن نصر... بن قيس بن سعد بن عبادة، وتسموا ببني الأحمر نسبة إلى جدهم بن نصر المكنى بالأحمر لشقرة فيه، واستمر هذا اللون يظهر في أفراد هذه الأسرة مثل محمد السادس الملقب في المصادر الإسبانية بالبرميخول (Bermejo). نجح محمد بن النصر في جمع بقايا مقاتلي لأندلس المسلمين، فانتقل إلى جيان ومن ثم إلى غرناطة أين تلاقت به الجنود والتف حوله الهاربين من أيدي النصارى وتأييد بعض زعماء الجنوب منهم: بنو اشقيلولة أصحاب جيان، وهكذا قامت دولة بني النصر أو بني الأحمر، وهي دولة غرناطة آخر معاقل المسلمين في الأندلس، وظل بني الأحمر يدافعون على ملكهم ويستعينون بإخوانهم المسلمين في المغرب (بني حفص، وبني زيان، وبني مرين) إلى غاية القرن التاسع للهجري، فترجع أمرهم واشتدت الفتن الداخلية، وعجز مسلمي المغرب من إعانتهم وإرسال الإمدادات المعتادة فأخذ الإسبان يتقدمون شيئاً فشيئاً يحتلون المدن ويتملكون حصونها، إلى أن تمكنوا أخيراً بعد تحالف فرديناند وإليزابيت من الاستيلاء على غرناطة عاصمة بني الأحمر سنة (1492هـ/1492م). ينظر: المقرئ التلمساني، مج 1، مصدر سابق، ص 447-448. -رابح بونار، المغرب العربي (تاريخه وثقافته)، دار الهدى، الجزائر، 2015، ص 480. -خليل إبراهيم السامرائي، عبد الواحد دنون طه، ناطق صالح مطلوب، تاريخ العرب وحضاراتهم في الأندلس، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط 1، بيروت، لبنان، 2000، ص 292.

² سورة آل عمران، الآية 103.

³ ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 303.

بحكم القرب الجغرافي ومن ذلك مهاجمة النصارى لثغور المغرب الأقصى سنة (668هـ/1270م) مستغلين انشغال يعقوب بفتح مراكش، ناشرين الخراب في أرضها وقتلوا رجالها وسبوا نساءها واغتصبوا أموالها وأشعلوا النار فيها، بالإضافة إلى محاولات بني مرين لتملك الأندلس كما فعل الموحيين سابقا.¹

اتخذ ملوك غرناطة مواقف متناقضة مع النصارى ودول المغرب فتارة يتحالفون مع بني مرين ضد النصارى، وتارة أخرى يتحالفون مع هاته الأخيرة ضد الأولى وتارة أخرى يتحالفون مع بني زيان ضد بني مرين،² ولقد تميزت العلاقات بين بني زيان وبني الأحمر بالتعاون³ والتحالف العسكري ضد الدولة المرينية من خلال شن الغارات على حدودها الشرقية لكي يكف سلطانها عن العبور إلى الأندلس ويلحق غرناطة لملكه.⁴

1. 3 دور قبائل المغرب الأوسط في تأجيج الصراع الزياني المريني:

تمثل القبيلة مصدرا للقوة وعن طريقها تقوى السلطة وبالقبيلة نفسها تنهار الدولة ويتلاشى سلطانها، لهذا سعت الدولة الزيانية إلى استمالة قبائل المغرب الأوسط إما بالسلم أو بالحرب، فهذه القبائل كانت تنحاز إلى الطرف الذي كانت له السلطة الأقوى على ساحة الأحداث بالمغرب من أجل الحفاظ على مناطق توطنهم واستمرارية ملك، وكان لقبائل المغرب الأوسط المتذبذبة في مواقفها بين الولاء والعصيان حسب ما تقتضيه مصلحتها الدور البارز في احتدام الصراع بين بني مرين وبني زيان، إذ شكلت قبائل المغرب الأوسط قوة عسكرية ثانية إلى جانب خطر بني حفص وبني مرين، لهذا عمل سلاطين بني زيان على إخضاع القبائل المناوئة لهم من خلال شن حملات عسكرية قصد تهذيب الأوضاع داخل دولتهم والتفرغ لصد الأخطار الخارجية، استفاد بني مرين

¹ الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 31.

² عبد الفتاح مقلد الغنيمي، ج 5، مرجع سابق، ص 165.

³ التعاون بين بني زيان وبني الأحمر حدث في فترة سلطنتين فقط من بني الأحمر هما أبو عبد الله محمد المكنى بالفقيه والثاني هو محمد بن السلطان بن الحجاج يوسف المعروف بالغنى بالله، وهذا التعاون لم يكن من أجل المصلحة الإسلامية وحركة الجهاد، بل كان هذا التعاون قائم للإطاحة ببني مرين. **ينظر:** عبد الفتاح مقلد الغنيمي، ج 5، نفس المرجع، ص 167.

⁴ **ينظر:** ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 335. - وسام لعراقة، مرجع سابق، ص 318.

من فتور العلاقة بين الدولة الزيانية وقبيلتي بني توجين ومغراوة، الرافضتان للخضوع والانقياد تحت لوائهم واعتمدوا عليهم في حربهم مع جارتهم الشرقية، من ذلك مساندة توجين لهم في موقعة إيسلي الثانية سنة (670هـ/1271م)، وموقعة خرزوة سنة (680هـ/1281م)،¹ بعد نقض يغمراسن طلب الصلح الذي بعث به يعقوب إليه، الذي اشترط عليه فيه عدم التعرض لبني توجين:²

فلتترك الناس إلى جهادهم مؤملين في حمى بلادهم
واقعد ولا تنهض إلى تجسين فإنها في العهد مع بني مرين.
أصر يغمراسن على الرفض مرة أخرى بقوله: "والله ما كففت عن تجين، ولو رأيت النفس في سجين، فليصنع ما بدا له. وليتأهب للحرب فهي أولا له".³ وقفت مغراوة أيضا إلى جانب بني مرين سنة (689هـ/1290م).⁴

حتى بني زغبة التي اعتمد عليها بني عبد الواد -كانوا حامية ومخزنا لهم-⁵ هي الأخرى قامت بالتحالف مع بني مرين، من ذلك ما قامت به بطون حميد وأولاد دياب من بني عامر بني زغبة سنة (748هـ/1347م) أثناء غزوة أبي الحسن على تلمسان، وفي سنة (750هـ/1349م) انضمت مع أبي الحسن المريني عند زحفه على تلمسان عدد من عرب سويد، الديالم، العطاف، الحرث وحسين بقيادة ونزار بن عريف بن يحيى السويدي ومن التف حوله من عرب الثعالب.⁶

1. 4 التدخل في الشؤون الداخلية وإبواء المنشقين عن السلطة:

ما ساهم في بروز العلاقات السياسية وتأثيرها العسكري بين الدولتين الزيانية والمرينية هو تدخل كلا الطرفين في الشؤون الداخلية، ودعم الخارجين عن السلطة سواء كانت قبيلة أو شخصية

¹ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 119. - الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 54. - مبارك بن محمد الملي، ج 2، مرجع سابق، ص 423.

² ابن أبي زرع، الأتيس...، مصدر سابق، ص 336.

³ نفس المصدر، نفس الصفحة..

⁴ عبد الفتاح مقلد الغنيمي، ج 5، مرجع سابق، ص 129.

⁵ شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص 103.

⁶ مصطفى أبو ضياف أحمد، ج 2، مرجع سابق، ص 180 - 183.

معينة،¹ من ذلك إيواء بني زيان لأولاد إدريس الخارجين عن يوسف أبو يعقوب² بعدما خرج عليه إدريس محمد بن إدريس بن عبد الحق في جماعة من بني³ بجبال ورغة⁴ من أحواز فاس، وانضم إليه في الشقاق أبو معرف محمد بن يعقوب فبعثت إليهم العساكر والبعوث والكتائب وتلطف في استئزال أخيه، فنزل عن الخلافة وعاد إلى طاعته وفر أولاد إدريس إلى تلمسان فقبض عليهم في الطريق، وأتى إليهم إلى رباط تازا فبعث أخاه أبي زيان لقتلهم وتم ذلك سنة (685هـ/1286م).⁵

في سنة (687هـ/1288م) خرج أبو عامر على أبيه ودعا لنفسه بمساعدة والي مراكش محمد بن عطو الجاناتي،⁶ وعندما سمع يوسف أبو يعقوب بذلك توجه إلى مراكش، وتمكن من هزيمته خارج هذه المدينة، فلاد أبو عامر بالفرار رفقة أبي عطو نحو تلمسان التي دخلها سنة (688هـ/1289م) فأواهم عثمان بن يغمراسن وأحسن موصلهم، وبعد أن عفى يوسف عن ابنه طلب من سلطان تلمسان تسليمه أبو عطو لكنه أبى عن ذلك،⁷ قائلا: "والله لا أسلمه أبدا ولا أبيع

¹ إبراهيم حركات، مج 2، مرجع سابق، ص 88.

² يوسف: هو يوسف بن يعقوب ابن عبد الحق الملقب بالناصر لدين الله ويكنى أيضا أبو يعقوب يوسف، بايعه الأشياخ والوزراء في الجزيرة الخضراء من بلاد الأندلس بعد وفاة والده مباشرة، وبعثوا إليه وهو بفاس، وجددت له البيعة أثناء قدومه إلى الجزيرة الخضراء، وبايعه العامة والخاصة كان ذلك سنة (685هـ/1268م). **ينظر:** ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 375. - ابن الأحمر، روضة النسر...، مصدر سابق، ص 21.

³ كان أبناء إدريس يباشرون بالثورة كلما انتقل الحكم لسلطان جديد في الدولة المرينية لأنهم يرون أنفسهم الأحق بالحكم من عمهم أبو يعقوب وأبنائه، لكون أباهم أكبر من هذا الأخير، وامتلك أولاد إدريس الحجة وأساليب الإقناع ومن ذلك عندما أرسل أبو يعقوب أخاه محمد اقتنع هو الآخر وانضم معهم في الشقاق. **ينظر:** الناصري، ج 3،

مرجع سابق، ص 23. - محمد عيسى الحريري، مرجع سابق، ص 83.

⁴ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 279.

⁵ ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 375.

⁶ بعد تولي يوسف أبو يعقوب الحكم عقد لأبي عطو محمد أمر مراكش وترك معه ابنه عامر عبد الله، ثم قفل راجعا إلى فاس فتمرد ولده عليه بمساعدة صاحب مراكش، وأعلن عصيانه على السلطة المركزية بفاس. **ينظر:** ابن أبي زرع، الأنيس...، نفس مصدر، ص ص 280-281.

⁷ **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص ص 281-282. - التنسي، مصدر سابق، ص 141. - الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 69.

حرمتي وأترك من استجار بي حتى أموت فليضع ما بدا له"¹ أغلظ الرسول في القول حينها فسطا به واعتقله يوسف وعزم على غزو تلمسان.²

في سنة (691هـ/1291م) خرج عمر بن يحيى بن الوزير الوطاسي،³ على السلطان المريني وسيطر على حصن تازوطة بعد أن فر منه صاحبه منصور بن عبد الواحد بن يعقوب إلى رباط تازا، ووجه أبو يعقوب يوسف جيشه بقيادة وزيره عمر بن السعود بن خرباش الحشمي لتأديب عمر وأخوه عامر، وتمكن من محاصرة الحصن رغم وفاة منصور ابن أخو السلطان أبو يعقوب يوسف الذي كان معه، وفر عمر باتجاه تلمسان بعد أن أخذ ما بالحصن من مال وسلاح وأمتعة وأعشار الروم التي كانت مخزونة به، وعزم أخاه على اللحاق به بعد أن يتمكن من صرف أتباعه إلى المرسى للعبور إلى الأندلس، لكن جيوش السلطان قبضت عليه وأرجعت الهاربين من أتباع أخيه.⁴

¹ ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 379.

² **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 282. -الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 69.

³ **بني وطاس:** لم يكن بني وطاس وبني مرين قبيلة واحدة بل كانوا قبائل متعددة ، ونسبهم دخیل في بني مرين، يقول ابن خلدون في نسبهم: " أنهم أعقاب علي بن يوسف بن تاشفين، لحقوا بالبدو ونزلوا على بني مرين"، فبني وطاس ينتمون إلى صنهاجة، وبالتالي فهم ينتسبون إلى المتونة (المرابطين)، ومن هذا قول صاحب الذخيرة: "... وإنما هم من صنهاجة من قبائل لمتونة من ولد وطاس بن معز بن يوسف بن تاشفين ملك المغرب بأسره، والأندلس بأسرها وبلاد القبلة إلى السودان، وخطب له على أزيد من ألفي منبر وبنو وطاس مجمعون على ذلك والقوم أعرف بأنسابهم، وسبب دخوله في قبائل بني مرين أنه لم انتقضت أيامهم وغلبهم الموحدون على ملكهم خرج جدهم وطاس بن المعز بن تاشفين فرأ بنفسه من تلمسان أمام عبد المؤمن بن علي أمير الموحدين القادمين عليهم، فلحق ببلاد الزاب ولجأ إلى أحياء بني مرين فاستجار بهم فأجروه، فلم يزل مقيما بين أظهرهم هو وبنوه وذريته من بعده في أحسن جوار وأعز دار إلى أن ظهر بنو مرين على الغرب وغلبوا الموحدين على ملكهم واستوطنوا بلادهم...".

ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 287، - ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص 22. - إبراهيم حركات، المغرب...، مج 2، مرجع سابق، ص 194.

⁴ **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، مصدر سابق، ج 7، ص ص 287-288. - محمد عيسى الحريري، مرجع سابق، ص 85.

كما قام أبو حمو موسى الأول (718/707هـ-1318/1308م)¹ بحماية النافرين على سلطان مرين عبد الحق بن عثمان، ووزيره رحو بن يعقوب الوطاسي وسهل لهم طريق العبور إلى الأندلس.²

كان للتدخل في الشؤون الداخلية وإيواء المنشقين عن السلطة الأثار الوخيمة تحولت فيما بعد إلى مواجهات حربية، كانت النصره فيها غالبا لصالح بني مرين نتيجة تفوقهم العسكري، وتواطؤ بعض قبائل المغرب الأوسط معهم.

2. مظاهر الصراع الزياني المريني

أدت الأسباب سالفه الذكر إلى احتدام الصراع بين الدولة الزيانية والمرينية، إذ لم تتوانى هاته الأخيرة عن تجهيز جيوشها في فترات مبكرة -قبل تشكلها كدولة مستقلة- وتوجيهها نحو نفوذ الأولى، في محاولة منها ضرب أمن واستقرار الدولة لتتسنى لها الفرصة لملك هذا المجال وما يليه لاحقا وفيما يلي ستمم معالجة أهم الحملات العسكرية التي جمعت بين الطرفين:

2. 1 الحملات المرينية خلال عهد يغمراسن:

بعد إعلان السلطان يغمراسن التبعية للدولة الحفصية (اسميا) وجه اهتماماته نحو الجهات الغربية من حدود دولته، بغية ضمها تحت نطاق ملكه فراح يزاحم بني مرين في نفوذهم على المغرب الأقصى، مبررا تحركاته العسكرية بالدفاع عن حصون الموحدين خاصة منها المتاخمة لبني عبد الواد،³ وفي المقابل لم تتوانى الدولة المرينية هي الأخرى من توجيه جيوشها نحو ملك بني زيان لتأديب يغمراسن.

¹ التنسي، مصدر سابق، ص 142.

² ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر....، ج 7، مصدر سابق، ص 136. -محمد عيسى الحريري، مرجع سابق، ص 103.

³ عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 23.

جدول رقم (1): الحملات المرينية ضد بني زيان خلال عهد يغمراسن

اسم الحملة	السنة	المكان	السلطان	المصدر
موقعة إيسلي	(647هـ/1280م)	وادي إيسلي (بالقرب من وجدة)	أبي بكر بن عبد الحق المريني	ابن أبي زرع، الذخيرة...، ص ص 76-78
موقعة أبي السليط	(655هـ/1257م)	بالقرب من تلمسان بموضع يعرف بأبي السليط	أبي بكر بن عبد الحق المريني	ابن أبي زرع، الذخيرة...، ص 83
موقعة تلاغ	(666هـ/1268م)	وادي تلاغ	يعقوب بن عبد الحق	عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، ص 118
موقعة إيسلي الثانية	(680هـ/1281م)	وادي إيسلي	يعقوب بن عبد الحق	ابن أبي زرع، الأنيس...، ص 310
موقعة خرزوزة	(680هـ/1281م)	خرزوزة	يعقوب بن عبد الحق	عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، ص 118

من إعداد الطالبة (بتصرف)

خرج يغمراسن من جميع هذه الحملات منهزما نتيجة لكثرة عددهم ووفرة مددهم وقوة شكمتهم، لهذا أوصى ولي عهده وهو على فراش الموت بمسألة بني مرين وإبرام المعاهدات السلمية معهم وتقادي الدخول معهم في حروب وتجنب الاعتداء على حدودهم الشرقية،¹ ويعود سبب أغلب هذه الحملات كما ذكرنا سابقا إلى انحياز يغمراسن للموحدين.

وتعتبر **موقعة إيسلي** أول حرب نظامية جمعت الطرفين المتصارعان، تعود خلفيتها إلى الفترة التي تلي فتح الأمير أبي بكر لمدينة فاس مباشرة، أين استخلف عليها مولاه السعود بن خرباش من أحلاف بني مرين، وأبقى على عسكر الموحدين في المدينة الذين ظلوا في خدمتهم،² استغلت حينها بقايا الموحدين في فاس غياب أبي بكر وقرروا الانقلاب بقيادة القاضي أبي عبد الرحمان المغيلي، حيث اتفقوا على قتل السعود وإعادة الولاء للخليفة المرتضى بعد مقتل الوالي

¹ عبد الرحمان ابن خلدون، ج 7، العبر...، مصدر سابق، ص 123.

² **ينظر:** ابن أبي زرع، الذخيرة...، نفس المصدر، ص ص 75-76. - الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 15.

وأعلنوا عودة فاس تحت حكم الموحدين وأرسلوا البيعة للخليفة، عندما علم أبي بكر بذلك وهو محاصرا لفزاز حينها أفرج عنها وتوجه لاستعادة فاس أين حاصرها لمدة تسعة أشهر.¹

في أثناء ذلك طلب المرتضى المساعدة من يغمراسن للاستيلاء على مناطق المرينيين فتوجه هذا الأخير نحو تازا بمساعدة قبائل زناتة، علم حينها أبي بكر بتحريك يغمراسن فترك فاس للدفاع عنها، والتقى الطرفان في وادي إيسلي بالقرب من وجدة عام (647هـ/1250م) حيث انتصر أبي بكر واستولى على ممتلكات يغمراسن، وبعد السيطرة على تازا عاد إلى فاس وأحكم سيطرته عليها، وهكذا يكون قد مهد لتوطيد حكم المرينيين.²

أما **موقعة أبي السليط** فكانت نتيجة انحياز يغمراسن للموحدين وتعهده أبي بكر بعد فوزه للحاق به فأوقفه عن ذلك أخاه يعقوب بن عبد الحق لعهد تأكد بينه وبين صاحب تلمسان، ولما قرب أبي بكر من الوصول إلى أحواز فاس بمكان يطلق عليه المقرمدة،³ بلغه جواز يغمراسن إلى سجلماسة ودرعة لمداخلة كانت له مع بعض أهلها وعروة أطمعته في ملكها، أسرع أبي بكر حينها إلى سجلماسة ووصلها يغمراسن بعده بيوم ونزل خارجها بباب تاحسنت، ودارت بينهما حرب تكافأ فيها الفريقان هلك فيها ابن أخ صاحب فاس سليمان بن عثمان بن عبد الحق، وبعد رجوع يغمراسن

¹ **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، مصدر سابق، ص 112. -ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 295. -الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 15. -محمد عيسى الحريري، مرجع سابق، ص 23. - عبد الفتاح مقلد الغنيمي، ج 5، مرجع سابق، ص 210.

² **ينظر:** ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص 76-78. -الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 16. عبد الفتاح مقلد الغنيمي، ج 5، مرجع سابق، ص 210

³ **المقرمدة:** منطقة تقع بين فاس وتازا تبعد عن فاس بثمانية وعشرين كيلو متر على فاس من الجهة الشرقية، ابتناها الصنهاجيين على ضفة نهر صغير. **ينظر:** مارمول كزبخال، ج 2، مصدر سابق، ص 179.

إلى تلمسان وعقد أبي بكر على سجلماسة ودرعة وسائر بلاد القبلة ليوسف بن يزكاسن،¹ واستعمل على الجباية عبد السلام الأوربي وكلف يحي القطراني بقيادة الجند،² ثم رجع إلى فاس.³

ببيع أبو يوسف يعقوب،⁴ بعد وفاة أخيه أبي بكر عام (665هـ/1267م) وسرعان ما واجه السلطان المريني يغمراسن الذي أرسل بيعته لأبي دبوس محرضا إياه ضد بني مرين قائلا: "إياك أن تطمع بني مرين فيما لديك فأنا أكفيك شرهم، وأنا وأنت يد واحدة في حربهم".⁵

استعد خلالها أبو دبوس للحرب وجمع مشايخ الموحدين والعرب لدعمه في مواجهة بني مرين، وفي سنة (666هـ/1267م) حاصر أبو يوسف مراكش، مما أدى إلى تدمير المناطق المحيطة بها وانتشار المجاعات وارتفاع الأسعار، وفي ظل تفاقم الأوضاع طلب أبو دبوس دعم يغمراسن الذي شن غارات على الحدود الشرقية للمغرب الأقصى، مما دفع يعقوب لترك الحصار والتوجه لملاقاته،⁶ التقى الجيشان في وادي تلاغ لهذا أخذت هذه المعركة اسم معركة وادي تلاغ

¹ أورد صاحب الذخيرة أنه أقدم عليها عامله يحي القطراني، وبعد وفاة أبي بكر قام بالدعوة لنفسه بسجلماسة، فأقام واليا عليها سنتين. **ينظر:** ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص 83-84.

² **ينظر:** ابن أبي زرع، الذخيرة...، نفس المصدر، ص 83. - الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 18-19.

³ بعد رجوعه إلى فاس ظل بها أيام ثم خرج إلى رباط الفتح فوصل إلى فزاة، ثم عاد إلى حضرته، وبعدها خرج للمرة الثانية إلى سجلماسة وعاد منها مريضا إلى فاس، وتوفي هناك بقصره في جمادي الآخر سنة (656هـ/1258م). **ينظر:** الناصري، ج 3، نفس المرجع، ص 19.

⁴ **أبي يوسف يعقوب:** هو يعقوب بن عبد الحق يكنى بابي يوسف، لقب بعدة أسماء منها: القائم بأمر الله، والمنصور، والمؤيد بالله، ببيع بالخلافة سنة (665هـ/1267م) بعد وفاة أخاه قام بافتتاح مراكش سنة (668هـ/1270م)، ورث ملك الموحدين بها، توفي بالجزيرة الخضراء أثناء جهاده بمعسكره، ونقل جثمانه لبر العدو، فدفن بشالة من سلا سنة (685هـ/1287م). **ينظر:** ابن الأحمر، روضة النسر...، مصدر سابق، ص 17-18. - القلقشندي، ج 5، مصدر سابق، ص 197.

⁵ ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص 112.

⁶ **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 115. - ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص 115.

في جمادى الآخر (666هـ/1267م) وكانت من أعنف المعارك التي جمعت بين القبيلتين، أين بلغ الحماس ذروته وشاركت النساء في تحريض الجند.¹

انتصر بنو مرين في المعركة نظرا لتفوقهم العسكري و قتل خلالها ابن يغمراسن أبو حفص عمر مع عدد من كبار عشيرته،² وأدى هذا الانتصار إلى تشتيت صفوف بني زيان، يصف ابن أبي زرع ذلك قائلا: "فلا ترى منهم إلا قتيلا أو جريحا أو خائفا شريدا"،³ وغنم فيها بنو مرين ذخائرهم -أسلحتهم وأموالهم- مما أجبر يغمراسن على العودة منهزما إلى تلمسان، وبعد هذه المعركة توجه يعقوب إلى فاس ومنها انطلق للاستيلاء على مراكش والقضاء على حكم الموحدين نهائيا سنة (668هـ/1270م).⁴

وفي سنة (670هـ/1272م) انطلق السلطان أبو يوسف يعقوب في حملة عسكرية باتجاه تلمسان، وعندما بلغ وادي ملوية أقام هناك عدة أيام أين انضم إليه ابنه عبد الواحد على رأس جيش كبير يضم قوات من: قبائل عرب جشم، جنود الأندلس، الأغزاز والروم.⁵

وبعد ثلاثة أيام استأنف تقدمه نحو تلمسان فعند وصوله إلى منطقة تافنة جاءه وفد من محمد بن الأحمر⁶ يطلب منه الدعم في معركته لنصرة المسلمين، استجاب حينها أبو يوسف لهذا النداء وقرر العبور إلى الأندلس بهدف الجهاد.⁷

¹ ينظر: الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 26. - مبارك بن محمد المليي، ج 2، مرجع سابق، ص 422.

² ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 115. - ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 305. - الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 26.

³ ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص 116.

⁴ ينظر: القلقشندي، ج 5، مصدر سابق، ص 197. - ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص 116.

⁵ ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 309.

⁶ محمد ابن الأحمر: محمد بن محمد بن يوسف بن النصر المعروف بأبي عبد الله ابن الأحمر ببيع يوم وفاة أخيه بحمراء غرناطة، وهو من قام باستدعاء أبي يوسف يعقوب إلى الجواز إلى الأندلس ليستنصره على الروم، مقابل إعطائه الجزيرة الخضراء وطريف وحصونها. ينظر: مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، در وتح عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت لبنان، 2007، ص 269.

⁷ ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 309.

في إطار حرص أبو يوسف يعقوب على تأمين حدوده الشرقية سعى إلى إبرام صلح مع يغمراسن بن زيان حاكم تلمسان، غير أن هذا الأخير رفض الصلح بشدة وأقسم أن لا يصالحه حتى يثأر لمقتل ابنه، فجاء رد صاحب تلمسان شديد اللهجة إذ قال لرسول أبو يوسف: "لن يكون بيني وبينه صلح، حتى لو أدى ذلك إلى موتي... لن أترك دم ابني يذهب هباء حتى أستوفي ثأري وألحق الخراب ببلاده".¹

نتيجة لرفض يغمراسن الصلح قرر يعقوب شن حملة تأديبية عليه فتوجه بجيشه نحو تلمسان والتقى به في وادي إيسلي، أين هزم يغمراسن وقتل ابنه فارس وأحرق معسكره واستباحته حرمة ودمرت مدينة وجدة، ولاحق يعقوب يغمراسن إلى عاصمته رغم وفاة وزيره عيسى بن ماسي واستمر في حصار المدينة لعدة أيام حيث انضم إليه أبو زيان محمد بن عبد القوي بن العباس بن عطية بجيش كبير عظم خلالها إجرام توجين.²

بعد فترة قرر يعقوب رفع الحصار بعد تأكده من عبور بني توجين إلى موطنهم محملين بالغنائم المأخوذة من أرض بني زيان،³ عقد مهادنة مع يغمراسن في عام (673هـ/1274م)،⁴ وهكذا حصل يغمراسن على فرصة لترتيب أوضاعه الداخلية وتوسيع نفوذه شرقا على حساب بني حفص، وبينما كان منشغلا بحربه ضد توجين تقدم السلطان يعقوب المريني نحو سجلماسة بجيش كبير من زناتة والعرب والبربر فاضا حصارا على المدينة -استمر الحصار لمدة سنة كاملة- إلى أن اقتحمها وانتزعها من بني زيان سنة (673هـ/1274م). قتل خلال هذا الهجوم القائدان عبد الملك بن حنينة ويغمراسن بن حماسة إلى جانب عدد من أمراء المنبات وهم حلفاء بني زيان من ذوي منصور والمعقل (من المغرب الأقصى ما بين ملوية ودرعة).⁵

¹ ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص 130.

² ينظر: ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 310-311. -الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 33.

³ ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص 132.

⁴ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 115.

⁵ ينظر: ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 312. -عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 114. -محمد عيسى الحريري، مرجع سابق، ص 41.

بهذا الحدث نقض يعقوب الهدنة مع يغمراسن الذي بادر هو الآخر بدوره إلى التحالف مع بنو الأحمر عن طريق عقده اتفاقا مع ابن الأحمر والنصراني ابن أدفونش، يهدف إلى شن هجمات على شرق ملك بني مرين لمنع يعقوب من إرسال قواته إلى الأندلس خشية من توسع يعقوب بعد إسقاطه للموحدين في المجالات التي كانت تحت نطاق نفوذ هذه الأخيرة، في سياق هذه التطورات أرسل يعقوب رسولا لتجديد الصلح مع يغمراسن، إلا أن هذا الأخير رفض قائلا: "لا صلح بيني وبينه أبدا، ولن يكون لي معه سوى الحرب وكل ما وصله من صليحي مع ابن الأحمر فهو حق، فقل له يتأهب للقائي ويستعد لقتالي ونزالي".¹

إثر ذلك قرر يعقوب التحرك عسكريا ضد يغمراسن،² وعند دخوله فاس راسل يغمراسن وجدد طلبه للصلح وإقامة الحجة عليه وقال فيما خاطبه به له: "إلى متى يا يغمراسن هذا النفور والتماذي في الغرور؟ أما آن أن تشرح الصدور وتنقضي هذه الشرور؟"،³ لكنه رفض للمرة الثانية.⁴

وفي سنة (679هـ/1280م) توجه يعقوب بجيشه نحو تلمسان حيث انضم إليه ابنه يوسف رغم وفاة ابنه إبراهيم في تافنا واستمر يعقوب في زحفه حتى وصل بالقرب من تلمسان بالموقع المعروف بالملعب،⁵ وهو ميدان لعب الخيال أين قام هناك بنهب ممتلكات العرب وسلب أموالهم تعاضمت قوة يعقوب بعد انضمام قبيلة توجين بقيادة أبو زيان بن عبد القوي، الذين ساعدوه في حربه ضد يغمراسن وبعد النصر عاد يعقوب إلى فاس عام (681هـ/1282م) بعدما اطمأن على انسحاب حلفائه إلى ديارهم، تاركا يغمراسن في ترقب للانتقام.⁶

¹ ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 335.

² عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 119.

³ الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 53.

⁴ **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 119. -الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 53.

⁵ أطلق عبد الرحمان ابن خلدون على هذه المعركة اسم: واقعة خرزوزة. **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 119.

⁶ **ينظر:** ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 337. -الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 54.

2. حملات أبو يعقوب يوسف على تلمسان:

لجأت الدولة المرينية أواخر القرن السابع للهجري إلى الحصار كأسلوب جديد من أجل إخضاع مجالات ملك الدولة الزيانية بالمغرب الأوسط باعتباره (الحصار) عملية حربية تمارسها قوة عسكرية لاخضاع موضع ما -سواء كان حصن أو مدينة- بهدف تحقيق غاية معينة، إذ يعبر الحصار في أحد جوانبه عن سياسة إنتقامية تمارس ضد بعض القوى العسكرية أو الكيانات السياسية على أعمال ارتكبتها في حق القوة المحاصرة، أو طريقا لتحقيق الطموحات التوسعية أو وبسط نفوذها على حساب ممتلكات غيرها سواء تم لها ذلك صلحا أو عنوة.¹

بناء على ذلك قامت مرين بتوجيه عساكرها صوب نفوذ بني زيان مستغلة الخلافات التي بدأت تتشب بينهما، على الرغم من أن السلطان عثمان استهل حكمه بتطبيق وصية أبيه من خلال مسالمة بني مرين، إذ أوفد على يعقوب وهو في الأندلس أخاه محمد بن يغمراسن يناشده السلم فاستجاب له وتم الصلح بينهما وتفرغ صاحب تلمسان بعدها لاسترجاع ممتلكاتهم شرقا، من خلال اخضاع المناطق الشرقية من بلاد توجين ومغراوة وما ورائها (الخارجين عن طاعته).²

في بداية حكم يوسف بن يعقوب (687هـ/1286م) بدأت العلاقات الزيانية المرينية تسير نحو التأزم، خاصة بعد إيواء عثمان لابنه أبي عامر ووالي مراكش محمد بن عطو ورفض تسليم هذا الأخير بعد أن تصالح مع ابنه، فأثار ذلك حفيظة صاحب فاس وعزم على شن حملة تأديبية نحو تلمسان.³

ولم تكن هذه الحملة الوحيدة التي وجهها يوسف بن يعقوب المريني صوب ممتلكات بني زيان بل تكررت حركاته، غالبا ما كانت تنتهي بالاستيلاء على أراضي واسعة من ملك بني زيان، والأخيرة قام فيها بفرض حصار طويل أدى بإزالة رسم الدولة الزيانية لمدة لا بأس بها من الزمن.

¹ البشير بوقاعدة، خطة الحصار...، مرجع سابق، ص 62.

² ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 123. -الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 69. عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 26.

³ ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 379.

جدول رقم (2): حملات أبو يعقوب يوسف ضد الدولة الزيانية

السنة	المكان	نص الرواية	المصدر
(689هـ/1290م)	تلمسان ونوحيا	"فسار نحوها وبقي يرتحل في أحوازها... فلم يخرج إليه أميرها... فحاصره وضيق عليه بالقتال"	ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 379.
(695هـ/1296م)	تلمسان ونواحيها (وجدة، ندرومة، تاورريت، مسيفة،	"ثم خرج من فاس... غازيا إلى تلمسان، ومر بوجدة... وتغلب على مسيفة والزغاوة وانتهى إلى ندرومة ونازلها"	عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج7، مصدر سابق، ص 290.
(696هـ/1297م)	تلمسان	"ثم أغزى تلمسان سنة ستة وتسعين وستمئة وبرز لمدافعتة عثمان... ونازلها أياما. ثم ألقع عنها"	عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج7، ص 291.
(697هـ/1298م)	تلمسان	"ثم دخلت سنة سبع وتسعين فيها غزا أمير المسلمين يوسف أيضا مدينة تلمسان"	ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 385.
(698هـ/1299م)	تلمسان وباقي أعمالها	"وجاء في الخامسة بجيوش تملأ الفضاء فاستولى على جميع أعمال تلمسان... وضيق بتلمسان تضيقا"	التنسي، مصدر سابق، ص 140.

من إعداد الطالبة (بتصرف)

رغم الحملات المتكررة والحصار الشديد الذي فرضه يوسف على تلمسان إلا أنه فشل في إخضاعها بسبب حصانة أسوارها وشجاعة سكانها، وهذا ما يؤكد التنسي في قوله: "وحرك عليه يوسف بن يعقوب المريني خمس مرات في كل واحدة من الأربع مقلولا".¹

شن السلطان يوسف أبو يعقوب حملته الأولى انطلاقا من مراکش سنة (687هـ/1290م)، تحت قيادة ابنه أبي عبد الرحمان، ثم توجه بعساكره من فاس إلى تلمسان تحصن عثمان حينها خلف أسوار المدينة ملتزما بوصية والده،² استخدم أبو يعقوب حينها المجانيق لحصار المدينة وبدأ

¹ التنسي، مصدر سابق، ص 140.

² ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 123. Charles- Emmanuel - Dufourcq, L'espagne Catalane et Le Maghrib aux XIIIe et XIVe secles, Presses universitaires de France, 108, Boulevard Saint-Germain, Parice, 1966, P 203.

في تخريب نواحيها ثم نزل في موقع ذراع الصابون وانتقل منها إلى تامت،¹ التي حاصرها ستة عشر يوما، قبل أن يتركها ويعود إلى حضرته.²

بعد هذه الحملة اتبع عثمان سياسة والده بالتواصل مع بني الأحمر وملك قشتالة،³ وهو ما أثار غضب أبو يعقوب يوسف فأخذ يتحين الفرصة للانتقام من عثمان وعندما تمكن يوسف من تهدئة الأوضاع في الأندلس إثر مصالحة ابن الأحمر (692هـ/1292م)،⁴ ووفاة ملك قشتالة (693هـ/1293م) رأى الفرصة سانحة للتحرك سنة (694هـ/1294م) خاصة بعد قدوم ثابت بن منديل المغراوي إلى يوسف،⁵ طالبا العون ضد عثمان أرسل حينها يوسف مبعوثا إلى هذا الأخير طالبا الشفاعة لثابت لكن عثمان أساء الرد ورفض الوساطة، فاعتبر يوسف ذلك مبررا لإطلاق حملة ثانية على تلمسان، فخرج بجيشه وغزا تاوريرت ووجدة ثم حاصر ندرومة لمدة أربعين يوما قبل أن يرفع الحصار.⁶

¹ ذكرت في العبر باسم تامة، وفي نسخة ثانية تامة. **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، نفس المصدر، ص 284.

² **ينظر:** ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 379. - عبد الرحمان ابن خلدون، العبر، ج 7، مصدر سابق، ص 284. - الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 69.

³ أرسل عثمان لملك قشتالة سغيرا يدعى ابن بربدي سنة (692هـ/1292م)، رد عليه ملك قشتالة بسفارة أرسلها مع رسول من كبار قومه الريك ريكس، ثم رد عليه بسفارة أخرى أرسلها مع سفير آخر يدعى الحاج مسعود من حاشيته ووصل يده بيده. **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 290.

⁴ قام محمد الفقيه ابن الأحمر بزيارة يوسف أبو يعقوب الذي التقى به في طنجة، قدم خلال هذه الزيارة ابن الأحمر هدية قيمة للسلطان المريني وهي مصحف عثمان بن عفان كان بنو أمية يتوارثونه بقرطبة، ثم خلص لبني الأحمر. **ينظر:** الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 75.

⁵ رافقه حفيده راشد بن محمد بن ثابت ومات جده في نفس السنة التي وفد فيها إلى صاحب فاس فكفله هذا الأخير هو وأهله وزوجه أخته، وبعد استيلاء يوسف على تلمسان للمرة الثانية وفرض عليها الحصار الطويل قام بتعيين عمر بن يفرن بن منديل على مغراوة والشلف، غضب لذلك ونهض لاسترجاع بلاد أسلافهم وقتل رئيسه الجديد، فاغتاظ السلطان لذلك ووجه جيشه نحوه وعندما استصعب على راشد الأمر أرسل طالبا الشفاعة، فتم الصلح بين الطرفين وعندما استرجع بني زيان ملكهم في المغرب الأوسط، رغب راشد مرة أخرى في تملك بلادهم وفشل كعادته، فلم يجد حل غير الفرار فتوجه نحو ملك بني حفص أين قتل هناك. **ينظر:** عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، (من صدر الإسلام إلى العصر الحاضر)، مؤسسة نويهض الثقافية، ط 2، بيروت لبنان، 1980، ص 230.

⁶ **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 290. - الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 76.

انطلق يوسف مجددا من فاس لحصار تلمسان سنة (696هـ/1297م) لكن عثمان تحصن خلف أسوار المدينة مما أجبر يوسف على الانسحاب بعد عدة أيام، وظل صاحب فاس محاصرا لها أيام ثم قفل راجعا إلى حضرته بعد أن أفرج عنها، وقضى مناسك عيد الأضحى برباط تازا أين أمر ببناء قصر به وكان دخوله لحضرته في السنة الموالية، عاد يوسف مرة أخرى سنة (697هـ/1298م) وعند بلوغه وجدة أمر ببناؤها، ثم اتجه نحو تلمسان بعسكره الذي حاوطها من كل جانب ونصب عليها القوس¹، ولما امتعت عنه أفرج عنها سنة (698هـ/1299م) وقفل راجعا إلى حضرته، وفي طريقه مر بوجدة وأنزل عليها الحامية من بني عسكر ابن محمد لنظر أخيه أبي بكر بن يعقوب كما كانوا بتاورريت، وأمرهم بشن الغارات بين الحين والآخر على تلمسان وأحوازها، وبالفعل تمكن أخاه أبي بكر من إخضاع بعض المناطق التابعة للنفوذ الزياني من تلك النواحي.²

في سياق استعراض الأحداث التي شهدتها المغربين الأوسط والأقصى في أواخر القرن السابع الهجري، يتضح أن العلاقة بين السلطان المريني يوسف بن يعقوب وسلطان الدولة الزيانية عثمان بن يغمراسن تميزت بالتوتر والعداء المتصاعد، فقد تمحور هذا العداء حول التدخل المباشر لصاحب تلمسان في الشؤون الداخلية للدولة المرينية ودعمه للعناصر المعارضة ليوسف، مثل توفير الملاذ لابن عطو ورفض تسليمه بالإضافة إلى تحالفه مع ملك قشتالة وتجاهله لطلبات صاحب فاس، ومنها رفضه لمطالبه عندما توسط لصالح القبائل المعارضة.

مثلت هذه التحركات استفزازا مباشرا للسلطان يوسف، الذي استغلها بدوره كذريعة لتوجيه حملة عسكرية نحو تلمسان، ورغم تكرار هذه الحملات إلا أن العداء الشخصي ليوسف اتجاه عثمان ظل قائما طالما أن تلمسان لم تخضع بشكل كامل لسيطرته، ولم يتم القضاء على حكم بني زيان نهائيا.

¹ الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص ص 76 - 77.

² ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 291. -الناصرى، ج 3، مرجع سابق، ص ص 76 - 77.

2. 2. 1 الحصار الطويل:

بعد رفع يوسف لحصاره عن تلمسان عام (698هـ/1299م) أمر أخاه أبو بكر المعروف بأبي يحيى بالتعاون مع قبيلة بني عسكر لشن غارات على المناطق المحيطة بتلمسان، وأمام تدهور الأوضاع بادر سكان ندرومة بطلب الأمان مقابل إعلان ولائهم ليوسف المريني وتبعهم في ذلك أهل تاونت، فأرسل أبو يحيى وفدا من المدينتين إلى يوسف منتصف شهر رجب من نفس السنة، أين اقتبل طاعتهم وتم خلالها التخطيط لحركة عسكرية نحو تلمسان بغية التخلص من حكم عثمان الذي كان قد أرهقهم بتعسفه وضعف حمايته.¹

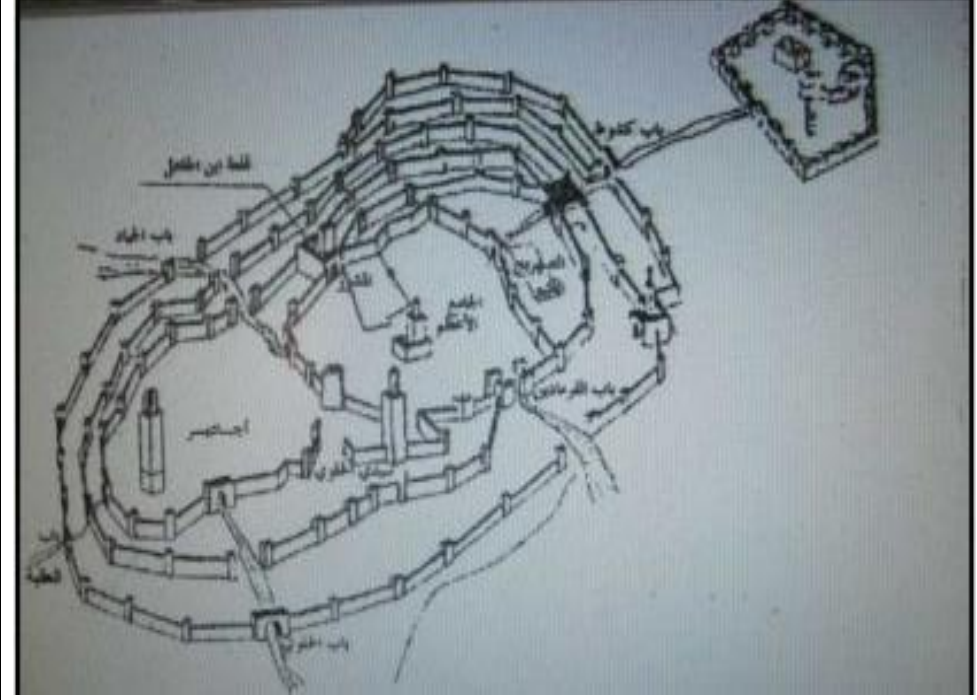
في شهر شعبان من نفس السنة تحرك يوسف بجيش جرار نحو تلمسان مستغلا انشغال صاحبها في حربه مع بني توجين ومغراوة، عندما علم عثمان بقدوم الجيش المريني عاد سريعا إلى العاصمة لتحسين نفسه داخل أسوارها، وبعد وصول يوسف إلى تلمسان في الثاني من شعبان نصب الحصار على المدينة بقوات كبيرة سعيا منه للقضاء على الدولة الزيانية، كما عمد يوسف على محاصرة المدينة وما جاورها من عمران بسور محكم وحفر خندق حولها، مغلقا بذلك كافة المداخل باستثناء أبواب صغيرة مخصصة لدخول قواته، مما جعل المدينة في عزلة تامة.²

كما أرسل يوسف جيوشه للسيطرة على الأراضي التابعة لبني زيان فاستولى على كل من: ندرومة، هنين، وهران، تاونت، مزعران، مستغانم وغيرها من المدن الاستراتيجية وفرض نفوذه على كامل المغرب الأوسط مع استمرار حصار تلمسان الذي شهد خروج قواته في مناوبات متتابة.³ (الشكل رقم: 01)

¹ ابن أبي زرع ، الأنيس...، مصدر سابق، ص 386.

² ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 292. -الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 79.

³ ينظر: ابن أبي زرع ، الأنيس...، مصدر سابق، ص 386. - شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص 226.



الشكل رقم: 01

مخطط يوضح معسكر الجيش المريني بالمنصورة لحصار تلمسان

بتصرف عن محمد عياش، مرجع سابق، ص 162

استتجد عثمان حينها بصهره صاحب بجاية من الدولة الحفصية فأرسل بدوره قوة كبيرة لدعم بني عبد الواد، ومع ذلك تعرض لهزيمة قاسية على يد الجيش المريني في معركة بجبل الزاب، سميت بمرسى الرؤوس لكثرة القتلى والرؤوس التي سقطت فيها، ونتيجة لتشديد الحصار والضغط أكثر على تلمسان، وتعزيز سيطرته على المنطقة قرر يوسف بناء مدينة جديدة بجوارها أطلق عليها اسم المنصورة.¹

¹ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 458. - عبد الرحمان ابن خلدون، تاريخ الدول الإسلامية بالمغرب، تح مختار حساني، دار الهدى، أم البواقي، الجزائر، 2015، ص 547.

بعد انقضاء خمس سنوات من الحصار توفي السلطان أبو السعيد عثمان سنة (703هـ/1304م)¹، وبويع بعده ولي عهده أبو زيان محمد بن عثمان واستمر حصار تلمسان لمدة ثماني سنوات وأربعة أشهر وبضع أيام.²

¹ قيل أنه شرب السم تقاديا من معرة غلبة عدوه عليه يقول في هذا الصدد عبد الرحمان ابن خلدون: "أخبرني شيخنا العلامة محمد بن إبراهيم الأبلبي...قال: هلك عثمان بن يغمراسن بالديماس، وكان قد أعد لشربه لبنًا، فلما أخذ منه الديماس وعطش، دعا بالقدر فشرّب اللبن ونام فلم يكن بأوشك أن فاضت نفسه. وكنا نرى معشر الصنائع أنه ذاق فيه السم تقاديا من معرة غلب عدوهم إياهم". **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، 127. الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 81.

² اختلفت المصادر التاريخية حول تحديد فترة حصار يعقوب لتلمسان، فلقد أورد صاحب الصبح الأعشى أنه تم حصار تلمسان نحو تسع سنوات، يقول في هذا الصدد: "وتماذى بهم الحصار تسع سنين"، وأيده ابن مرزوق في ذلك فيقول: "الحصار الطويل الذي بلغ مقدار تسع سنين"، أما ابن القنفذ القسنطيني فلقد ذكر أن مدة الحصار دامت نحو سبع سنوات، من قوله: "السلطان أبي يعقوب المريني وهو في حصاره العظيم لتلمسان بعد سبع سنوات"، وأيده في هذا ابن الأحمر، من قوله: "وأقام عليها إلى أن مات بعد أن ضيق على أهلها سبعة أعوام"، أما المقرئ التلمساني فحدد الفترة التي ظل فيها صاحب فاس محاصرا لتلمسان نحو العشر سنوات، يقول في ذلك: "نفّس الله على أهل تلمسان بعد حصار نحو العشر سنين"، أما عبد الرحمان ابن خلدون وأخاه يحيى ابن خلدون، والتتسي فلقد أوردوا مدة الحصار المريني لتلمسان نحو ثماني سنوات وثلاثة أشهر. **ينظر:** القلقشندي، ج 8، مصدر سابق، ص 91. - ابن مرزوق التلمساني، المناقب المرزوقية، در وتح سلوى الزاهري، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط 1، الدار البيضاء، المغرب، 2008، ص 298. - ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير...، مصدر سابق، ص 70. - ابن الأحمر، روضة النسر...، مصدر سابق، ص 50. - المقرئ التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، تح وتو وض مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، المعهد الخلفي للأبحاث المغربية، مطبعة فضالة، ج 2، المغرب، 1939، ص 336. - عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 128. - يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 125. - التتسي، مصدر سابق، ص 143.

إلى أن هلك يوسف أبو يعقوب سنة (706هـ/1307م)¹، وتولي أمر مرين من بعده أبو ثابت عامر بن عبد الله الذي بدأ على الفور الاتصال بصاحب تلمسان أبي زيان وأخوه أبي حمو لعقد الصلح،² من ضمن بنوده:

- رفع الحصار عن تلمسان واسترداد كل ما أخضعته مرين إلى طاعتها من بلاد المغرب الأوسط، مقابل مساعدته في القضاء على خصمه أبي سالم.³
- عدم التعرض لمدينة المنصورة وتخريبها.⁴

ذاق أهل بني زيان خلالها الجهد والشدة وغلاء الأسعار،⁵ فأصاب أهلها الجوع حتى اضطروا إلى أكل الجيف والقطط، الفئران والزواحف وغيرها.⁶ نظيرا للوقع الشديد الذي أصاب تلمسان، يقول أبو عبد الله محمد بن خميس في ذلك⁷:

سل الريح إن لم تسعد السفن أنواء فعند صباها من تلمسان أنباء
وفي خفقان البرق منها إشارة إليك بما تمنى إليك وإيماء

¹ قتل يوسف داخل حجرة يقصره في المنصورة التي ابتناها بتلمسان وهو مستلقيا على فراشه، على يد أحد فتيانه يدعى لسعادة كان لأبي علي الملياني، كان عاملا له على مراكش وكان السلطان يوسف في ابتداء أمره يخلط الفتيان (الخصيان) على حريمه وعياله، ويعود سبب قتله أن حدثت للسلطان رغبة في بعض الخصيان فاعتقل جملة منهم كان فيهم عنبر الكبير عريفهم، وحجب سائرهم فتخوفوا من ذلك وساءت نياتهم اتجاه السلطان، فسولت للسعادة الفتك به فحمل جثمانه إلى رباط الفتح ودفن به. **ينظر:** ابن أبي زرع، الأنيس، مصدر سابق، ص 388. -عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 306-307. -ابن الأحمر، روضة النسر...، مصدر سابق، ص 21. - الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 86.

² عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 309.

³ لما قتل يوسف ولى مكانه ابنه أبو سالم لكن أبو ثابت بن أبي عامر لم يرضى بهذا، فبعث لأبو حمو طالبا إعانتته بالطبول والرايات وإمداده بالجيش، وبعد تغلب أبي ثابت على عمه التزم بما وفى به ورفع عن تلمسان الحصار. **ينظر:** التنسي، مصدر سابق، ص 145.

⁴ محمد عيسى الحريزي، مرجع سابق، ص 93.

⁵ **ينظر:** التنسي، مصدر سابق، ص 142. - الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 86.

⁶ **ينظر:** ابن الأحمر، روضة النسر...، مصدر سابق، ص 50. - الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 85.

⁷ 86. - عبد العزيز فيلالتي، ج 1، مرجع سابق، ص 28.

المقري التلمساني، أزهار الرياض...، ج 2، مصدر سابق، ص 336-337.

تمر الليالي ليلة بعد ليلة ولالأذان إصغاء وللعين إكلاء
وإني لا أصبو للصباء كلما سرت وللنجم مهم كن للنجم إسراء
بعد رفع الحصار عن تلمسان سعى أبو زيان جاهدا لإعادة بناء دولته وإحياء نفوذها، فبدأ باستعادة المناطق والأقاليم التي خضعت لسيطرة المرينيين وبالأخص في الجهة الشرقية ففي سنة (706هـ/1308م) خرج من تلمسان برفقة أخيه أبو حمو متجها نحو بلاد مغراوة للانتقام، وقد نجح في إخضاع عدة مناطق من بينها شلف وجبل الونشريس والمدية و... ثم توجه إلى منطقة السرسو التي سيطر عليها العرب أثناء فترة الحصار حيث طرد منهم زناتة ومن بينهم السويد والديالم وبعض فروع بني يعقوب بن عامر، بعد ذلك توجه نحو منطقة توجين حيث دخلت تحت سلطته بقايا عبد القوي والجشم وكان يقودهم في تلك الفترة محمد بن عطية الأصم من بني عبد القوي، ثم عاد إلى تلمسان في عام (707هـ/1308م)¹ بهدف تحسين الأوضاع الداخلية إلا أن الموت أدركه في شهر شوال قبل أن يتمكن من تحقيق أهدافه،² وتولى أمر تلمسان من بعده أخاه أبو حمو موسى الأول (707-718هـ/1308-1318م).³

2. 3 حملة أبو السعيد عثمان (714هـ/1314م):

باشر أبو حمو موسى حكمه بإبرام اتفاقية صلح مع بني مرين بغية تأمين حدوده الغربية وذلك من خلال إرسال كبار وزرائه إلى السلطان أبي ثابت وتفرغ بعد ذلك للشؤون الداخلية،⁴ حيث

¹ ينظر: يحيى ابن خلدون، مصدر سابق، مج 1، ص ص 125-126. - عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 130. - حسين مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته، دار العصر الحديث، مج 2، ط 1، بيروت، لبنان، 1992، ص 134. - عبد العزيز فيلاي، ج 1، مرجع سابق، ص 29.

² يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 126.

³ التنسي، مصدر سابق، ص 142.

⁴ رأى السلطان أبو حمو أن يقوم بتخزين المؤن والحنطة حرصا منه أن يصيب أهله الجوع في حالة ما نبذت مرين الصلح وحاصرتهم. ينظر: التنسي، مصدر سابق، ص ص 145-146. - عبد العزيز فيلاي، ج 1، مرجع سابق، ص ص 40-41.

سعى لإخضاع المناطق الخارجة عن سيطرته في المغرب الأوسط مع توجيه قواته نحو الدولة الحفصية في محاولة لتوسيع نفوذه شرقاً.¹

في تلك الفترة تمرد عبد الحق بن عثمان ووزيره رحو بن يعقوب على السلطة المرينية ولجأوا إلى بني زيان طلباً للحماية، رحب أبو حمو بهذا الطلب بينما توفي خلال تلك الفترة السلطان المريني أبو الربيع وتولى أبو السعيد عثمان حكم المغرب الأقصى من بعده. طلب السلطان الجديد من أبو حمو تسليم المتمردين لكن طلبه قوبل بالرفض بل وساعدهم على الانتقال إلى الأندلس،² فأثار هذا التصرف حفيظة أبو السعيد الذي قرر غزو تلمسان.³

قاد أبو السعيد عثمان جيشاً كبيراً من فاس نحو تلمسان سنة (714هـ/1314م) برفقة أبناءه أبو الحسن وأبو علي، وخلال هذه الحملة دمر الجيش الأراضي الزراعية ونهب الممتلكات وقتل عدداً كبيراً من سكان وجدة في طريقه، وتحصن أبو حمو خلف أسوار المدينة كعادة أسلافه بينما تصدى سكان تلمسان للهجوم، فضيق أبو السعيد الخناق على المدينة وأحدث خراباً في ضواحيها قبل أن ينسحب نحو رباط تازا بعد حملة طويلة.⁴

بعد الانسحاب المريني من تلمسان استغل أبو حمو الفرصة لترسيخ سيطرته في المغرب الأوسط، من خلال إخضاع قبائل مغراوة والقضاء على إمارة الثعالبة في متيجة ونفي أمراءها إلى مناطق الشلف ومباشرة شن الغارات على الحدود الشرقية مستهدفاً بجاية وقسنطينة،⁵ وللتأكد من

¹ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 132. - يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 129. - التنسي، مصدر سابق، ص 146. - يحيى بوعزيز، مرجع سابق، ص 62. - محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 292. - عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 29. - محمد محمد أحمد إسماعيل، مرجع سابق، ص 174.

² عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 135-136.

³ الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 104-105.

⁴ ينظر: ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 399. - الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 105. - أحمد جبرون، مرجع سابق، ص 268.

⁵ ينظر: يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 128-129. - التنسي، مصدر سابق، ص 146-147. - يحيى بوعزيز، مرجع سابق، ص 63.

ولاء القبائل اتبع سياسة أخذ الرهائن من مختلف المناطق وأبقى بعضهم في تلمسان،¹ رغم نجاحات أبو حمو العسكرية لم يتمكن من السيطرة على ابنه الذي تمرد عليه سنة (718هـ/1318م) ونظم مؤامرة انتهت باغتياله.²

بعد هذه الأحداث توسعت الدولة الزيانية على حساب الحفصيين الذين تحالفوا مع بني مرين لمواجهة هذا التوسع وعززوا هذا التحالف من خلال المصاهرة كما ذكرنا سابقا، وفي المقابل أرسل أبو السعيد وفدا إلى تلمسان مطالبا بوقف الهجمات على الأراضي الحفصية ورفع الحصار عن بجاية، لكن طلبه قوبل بالرفض، كما تحدى أبو حمو بني مرين مرة أخرى، حيث شن حملات عسكرية بقيادة موسى بن علي على مناطق تازا وتاوريرت، مما أدى إلى هزيمة القوات المرينية قبل عودته إلى تلمسان.³

2. 4 حصار أبو الحسن المريني:

بعد وفاة أبو السعيد عثمان تعزز التعاون الحفصي المريني بفضل سياسة أبو الحسن المريني الذي سار على نهج والده في دعم أصهاره، وتجديده المطالبة بالوساطة لبني حفص لدى حاكم تلمسان،⁴ فأرسل له رسلا قائلا: "كف عنهم ولو لسنة واحدة، ليعلم الناس أنني دافعت عن صهري ويقدرها موقفي"،⁵ غير أن أبا تاشفين رفض مطلب أبي الحسن وأساء الرد بالكلام والأفعال بل سمح لخدمه بالتعدي على رسل السلطان المريني،⁶ وأخذ يحرك قواته باتجاه الغرب مهاجما

¹ عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 41.

² ينظر: التنسي، مصدر سابق، ص ص 148-149. - عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 41.

³ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 146. - يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 139. - يحيى بوعزيز، مرجع سابق، ص 63. - عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 43.

⁴ ابن مرزوق التلمساني، المسند...، مصدر سابق، ص ص 120 - 121.

⁵ الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 123.

⁶ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 146. - مزاحم علاوي الشاهري، الحضارة العربية الإسلامية (العصر المريني)، دار مركز الكتاب الأكاديمي، ص 39.

وادي صا، فكان هذا الرد بمثابة تهديد واضح لبني مرين باعتبار مطالبته بالوساطة تدخلا في شؤون الدولة وتهديدا لسيادة صاحب تلمسان.¹

2. 4. 1 وقائع الحملة:

أثار رد أبي تاشفين غضب أبي الحسن فقرّر الانتقام وسار سنة (732هـ/1332م) حتى وصل إلى تاسلت شرق تلمسان،² ثم أرسل جزءا من قواته بحرا لدعم صهره في حربه مع أبي تاشفين،³ ولتقليص قوة أبي الحسن راسل أبو تاشفين أخاه أبا علي حاكم سجلماسة، ليحرضه على التمرد ضد أخيه واعداد بدعمه عسكريا، في هذا الصدد يقول أبو الحسن المريني: "كنا خلال هذه الفترة ننازل أخاننا الممتنع بسجلماسة، محاولين إزاحة ضرره والتخلص من شره لما في ذلك من صلاح وفلاح، لعصيانه وتعاونه مع صاحب تلمسان على البغي والعدوان".⁴

ردا على تحركات أبي الحسن شن أبو تاشفين هجمات على الحدود الشرقية للمرينيين، ليجبر أبو الحسن التركيز على حماية حدوده وإخماد التمردات الداخلية والكف عن اكمال مخططاته لضرب مغربه الأوسط، وعند وصول أبو تاشفين إلى تاوريرت واجهه الجيش المريني بقيادة تاشفين بن أبي الحسن، أين هزم واضطر للعودة إلى تلمسان وفي سنة (734هـ/1334م) تمكن أبو الحسن من السيطرة على أخيه الذي كان قد تمرد عليه، ورغم توسلات أخيه رفض العفو عنه وأرسله مقيدا إلى فاس حيث تم سجنه لفترة ثم قتل خنقا.⁵ ويتضح من خلال تصرف أبي الحسن مع أخيه رغم رابطة الدم بينهما تناقضا مع ما نقلته عنه بعض المصادر بأنه "أعظم الملوك عفوا"،⁶ فتصرفه مع أخيه يعكس جانبا مختلفا عن صورته كسلطان متسامح.

¹ ينظر: يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 140. -عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص ص 45-46.

² عبد الرحمان ابن خلدون، ج 7، العبر...، مصدر سابق، ص 147.

³ عبد الحميد حاجيات، مرجع سابق، ص ص 20-21.

⁴ القلقشندي، ج 8، مصدر سابق، ص 93.

⁵ الناصري، ج 3، مرجع سابق، 120.

⁶ ابن مرزوق التلمساني، المسند...، مصدر سابق، ص 202.

بعد أن أعاد السلطان أبو الحسن المريني النظام إلى دولته واستقرت له مقاليد الحكم في المغرب الأقصى انطلق في حملة عسكرية باتجاه تلمسان سنة (735هـ/1335م)، خلال مسيرته بسط سيطرته على مدن استراتيجية مثل وجدة، ندرومة، هنين، تاسلة، وهران، تنس، والجزائر الشرقية، وعند بلوغه العاصمة التلمسانية تعذر عليه اقتحامها فاعتمد حيناه على استراتيجية سلفه -أبو يعقوب يوسف- وعليه قام بإعادة بناء مدينة المنصورة، التي اتخذها قاعدة حصينة لفرض الحصار على بني زيان.¹

استمر الحصار المفروض على تلمسان لأكثر من ثلاثين شهرا أبدى سكان المدينة خلال هذه الفترة مقاومة عنيفة،² ضد معدات الحصار المتقدمة التي استخدمها أبو الحسن بما في ذلك الآلات الحربية الثقيلة،³ وقد تمكن جيشه من اختراق أسوار المدينة، فيما توغلت بعض القوات من أسفل تلك الأسوار لشن الهجوم، أما داخل تلمسان فقد واجه أبو تاشفين ومن معه وزيره موسى بن علي وعبد الحق بن عثمان بن محمد بن عبد الحق وابناه عثمان ومسعود وابنا أخيه أبو زيان وأبو ثابت، القوات المرينية أمام باب القصر في مقاومة يائسة لكنهم في الأخير قتلوا جميعا واستولى

¹ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 340. - الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 124. - محمد بن رمضان شاوش، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، (جغرافيا- وتاريخيا- وفنيا- ومعماريا)، ديوان المطبوعات الجامعية، ج 2، الجزائر، 2011، ص 222. - بلال زيتوني، مرجع سابق، ص ص 230- 231.

² قتل أبو الحسن المريني من تلمسان (العامّة والحاشية) خلقا كثيرا وعلى الرغم من أنه لم يفصح عن عددهم إلا أنه قال: " وقتل منهم الزحام من إيساره الهدم والحسام"، وبعد أن أناخ بأهل الساكنة راح يدعو ما تبقى منهم إلى خلع طاعة أبو تاشفين والانقياد تحت لواءه، وكان الهدف من هذا هو إضعاف شكيمة جيش أبو زيان، وكف الأهالي عن الاعتصام خلف الأسوار، ومن ذلك قوله: "وأعلنا بالنداء أن كل من جاءنا هاربا، ووصل إلينا تائبا منحناه العفو، ومنحنا عنه الهفو...فتبادروا عن ذلك يتساقطون من الأسوار...". ينظر: القلقشندي، ج 8، مصدر سابق، ص 95.

³ ينظر: يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 141. - عبد الرحمان ابن خلدون، التعريف...، مصدر سابق، ص 101. - عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص ص 46- 47.

بعدها أبو الحسن على ممتلكاتهم وحروماتهم،¹ يذكر أن أبو الحسن اقتاد صاحب تلمسان أسيرا إلى فاس، حيث أمر بقطع رأسه وألقى بجثته في مزبلة المدينة.²

وهكذا أسدل الستار على الدولة الزيانية ليحل محلها حكم بني مرين في المغرب الأوسط.³

2. 4. 2 نتائج الحصار:

بعد استيلاء أبو الحسن على ملك بني زيان في المغرب الأوسط، اتجه بجيشه نحو إفريقية سنة (748هـ/1347م)،⁴ بعد أن عهد بإدارة المغرب الأوسط لابنه أبي عنان،⁵ ونجح في السيطرة على مجالات نفوذ بني حفص لكنه لم يستطع الحفاظ على حكمه للمغرب بأقاليمه الثلاث لفترة طويلة، إذ ثار عليه الأعراب اعتراضا على سياساته الجديدة وتمكنوا من هزيمة جيوشه وإضعاف نفوذه، وفي أعقاب هذه الهزيمة انتشرت شائعة وفاة السلطان أبو الحسن في إفريقية، مما دفع الطامعين في الحكم إلى التحرك وكان أولهم ابنه أبو عنان،⁶ الذي أعلن نفسه خليفة في تلمسان

¹ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 148. - يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 141. - ابن الأحمر، روضة النسر...، مصدر سابق، ص 52. - القلقشندي، ج 8، مصدر سابق، ص 96. - الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 126.

² حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 19.

³ بعد أن تمكن أبو الحسن المريني من ملك المغرب الأوسط، كفل أبناء أبو تاشفين وأنزلهم في قصوره، استعمل من واستعمل من توسم فيه الكفاءة، من ضباط وجنود، في جنده لتوسيع نفوذه، ولقد انضم تحت لوائه بني توجين وبني واسين وبني عبد الواد وسائر زناتة، فأُنزل منهم بقاصية السوس وبلاد غمارة، وأُرسل منهم إلى أعماله بالأندلس. ينظر: الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 126. - عبد الحميد حاجيات، مرجع سابق، ص 21-22. - عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 47.

⁴ أورد عبد الرحمان ابن خلدون، أنه خرج يريد إفريقية بعد قضاء منسك الحج سنة (749هـ/1348م). ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 355.

⁵ لسان الدين ابن الخطيب، كناسة...، مصدر سابق، ص 26.

⁶ أبو عنان: هو أبو عنان ابن أبي حسن ابن أبي سعيد ابن أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق، الملقب بالمتوكل. ينظر: لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة...، مصدر سابق، مج 2، ص 18. - ابن الأحمر، روضة النسر...، مصدر سابق، ص 27.

قبل أن ينتقل إلى فاس،¹ تاركا عثمان بن الجرار حاكما على تلمسان،² الذي سرعان ما انفصل عن طاعة أبو عنان وأعلن استقلاله،³ لكن لم يدم ذلك طويلا قياسا على قول عبد الرحمان ابن خلدون: "واستمسك بالبلد أياما يؤمل نزوع قومه إليه"،⁴ وهذا لمبايعة قبائل بني عبد الواد عثمان ابن عبد الرحمان بعد هزيمة أبي الحسن.⁵

سار السلطان الجديد مع حلفائه نحو المغرب الأوسط رفقة قبائل بني توجين ومغراوة،⁶ وعند وصولهم إلى أنكاد (أنجاد)⁷ اشتبكوا مع جيش ابن الجرار، فقتل هناك أخوه (قائد جيش ابن جرار

¹ عبد الرحمان ابن خلدون، التعريف...، مصدر سابق، ص ص 100 - 101.

² ابن جرار: هو عثمان بن يحيى بن محمد بن جرار بن يعلى بن تيدوكس بن طاع الله ابن علي بن يمل بن يزجن بن القاسم، من مشيخة بني عبد الواد كان يمتلك منصبا في الدولة وكلمته تسمع، ولقد بشر في السابق قبل واقعة القيروان أبي عنان بأن مصير الملك سيؤول إليه بعد مهلك والده في إفريقية التي لن يعود منها، وصادف ذلك أنه شاع خبر مهلك أبي الحسن المريني فصدق أبي عنان ما كان يتكهن به العراف العبد الوادي دون أن يتأكد من خبر وفاة والده، فأعلن عن نفسه سلطانا، وارتحل نحو حضرة أبيه لتهديب منصور ابن عبد الله الذي انتصب على فاس، وبعد تمكنه من ابن أخيه دانت له كافة مدين بالطاعة ما عدا الطائفة التي ظلت بإفريقية رفقة أبيه. **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص ص 368 - 369. يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 146. - محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص ص 400 - 401.

³ **ينظر:** عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 48. - محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 401.

⁴ العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 371.

⁵ **ينظر:** الزركشي، مصدر سابق، ص 85. - شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص ص 205 - 206.

⁶ عندما بلغوا شلف خرجت عن طاعتهم توجين ومغراوة، بعد أن توعدتا بني عبد الواد بالتأييد والمناصرة عند الحاجة إليهم. ومن ذلك قول يحيى ابن خلدون: "وانتهوا إلى الشلف ففيه إنخرلت مغراوة بدعوة علي بن راشد أميرهم بعد مقاسمة السلطانين المرحومين على التعاون والتعاوض في الخير والضرير وأخذت تجين ذات اليسار إلى وطنهم فانفرد هذا القبيل الأعز فجدا السير". **ينظر:** مج 1، مصدر سابق، ص 147.

⁷ التتسي، مصدر سابق، ص 161. ولقد أورد يحيى ابن خلدون أن موقع لقاء الفريقان كان في سكاك وهو وادي صغير في ملتقى نهر الصفصيف ويسر الذي يصب في نهر تافنا، أما أنكاد فهي منطقة غرب تلمسان، تقع بالقرب من وجدة، وعليه فإن الأصح سكاك. **ينظر:** يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 148.

(واعتقلوا من كان معه أما ابن الجرار،¹ فلقد طلب العفو والحماية فاسجيب له.²

استقر أبو السعيد وأخوه أبو ثابت على السلطة،³ وقسما المهام بينهما: أبو السعيد تولى الخطبة والسكة وأبو ثابت قيادة الجيوش،⁴ وبعد إبرامهما الصلح مع أبي عنان ركزا على استعادة الأقاليم المتمردة فأخضع أبو ثابت المناطق الشمالية ووهران،⁵ وإثر تجديد حركته نحو هذه الأخيرة بلغه قدوم الناصر بن أبي الحسن المريني إلى المغرب الأوسط⁶ معية بعض القبائل العربية التي هي على عدااء مع بني زيان، ونتيجة لهذه المستجدات طلب أبو ثابت المساعدة من أبي عنان،⁷

¹ ظلوا متتبعين لابن الجرار، واخذوا يبحثون عنه في كل ركن من أركان القصر إلى أن وجدوه مختبئاً في إحدى حجراته، فقاموا بتسريب الماء داخل تلك الحجرة إلى أن توفي غريقاً. **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 372.

² التنسي، مصدر سابق، ص 161.

³ **ينظر:** عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 48. - شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص 206

⁴ التنسي، مصدر سابق، ص ص 161-162.

⁵ يحي ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 153. **ينظر:** عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 49.

⁶ لما بلغ أبو الحسن المريني خبر ما حل بالمغربين الأوسط والأقصى وما تخلله من أحداث أثناء فترة تواجده بإفريقية، استنهض ابنه الناصر إلى المغرب الأوسط لاسترجاع ملكه رفقة يعقوب بن علي أمير ذواودة وعريف بن يحي أمير زغبة، ولقد أورد صاحب المناقب المرزوقية أنه عند قدومه إلى تلمسان برسم تقدي العزاء لأبو عنان إثر وفاة والدته، التقى بالسلطان أبو السعيد وأخاه أرغباه في "محاولة الصلح مع السلطان أبي الحسن، فأقامت بتلمسان ووجهت له، فجاء من تونس إلى الجزائر عازماً على هذا الصلح، فسعى على نقضه". **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 374. - ابن مرزوق التلمساني، المناقب...، مصدر سابق، ص 307. - عبد الحميد حاجيات، مرجع سابق، ص 26.

⁷ بعدما استصرخ أبو ثابت السلطان أبي عنان المنتقض عن أبيه راح يطلق سراح من أسره من بني زيان في سجون فاس ومعتقلاتها، وأعادهم إلى تلمسان رفقة المال والرجال. وقد فسر عبد العزيز فيلالي مساندة أبي عنان للقائد الزياني أبو ثابت في حربه مع أخيه الناصر: رغبته في القضاء على أبيه وأخيه والافراد بملك المغرب الأقصى. **ينظر:** يحي ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 153-154. - عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 49.

والتقى الجمعان في معركة دارت أحداثها بوادي ورك،¹ من سنة (1348هـ/750م) انتهت بانتصار أبي ثابت² في حين انسحب الناصر إلى بسكرة التي اتخذها مأوى إلى أن لحق بأبيه في الجزائر.³ في سنة (1350هـ/751م) خاض أبو ثابت معركة حاسمة في تيجريزين،⁴ قتل فيها الناصر وهزم الجيش المريني، انسحب حينها أبو الحسن اتجاه موطن بني سويد ومنها ارتحل إلى سجماسة رفقة ونزمار عن طريق الصحراء.⁵

أدت هذه الهزيمة إلى انهيار جيش مرين في حين استعاد بنو زيان نفوذهم وسيطروا على الأقاليم الشرقية بعد هذه الانتصارات، مؤكدين استقرار حكمهم بعد القضاء على أبي الحسن وابنه.

2. 5 حملة أبو عنان:

على الرغم من الجهود التي بذلها أبو السعيد وأخوه لتثبيت ملكهم والتصدي لأي تهديد خارجي ظل الخطر المريني قائماً نتيجة لفض الاتفاق القائم بين المرينيين الأقصى والأوسط على يد أبي عنان، فبعد أن تمكن من استعادة السيطرة والأمن في المغرب الأقصى،⁶ تطلع لتوسيع

¹ ورك: يقع بمنطقة الشلف من أرض العطاف. **ينظر:** عبد العزيز فيلالي، ج 1، نفس المرجع، ص 49.
² بعد انتصار أبو ثابت انصرف لتأديب مغراوة ثم عرج على وهران وأخضعها عنوة من نفس السنة، وبعد ذلك قفل راجعا إلى حضرته. **ينظر:** يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 154.
³ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 375.
⁴ ورد في كتاب البغية: تيجريزن، تقع بالقرب من شلف. **ينظر:** يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 156.

⁵ **ينظر:** التنسي، مصدر سابق، ص 162 - 163. - يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 156.
- عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 50.
⁶ بعد اللقاء الأخير الذي انهزم فيه أبي الحسن أمام بني زيان فر متجها إلى مغربه بنواحي سجماسة، ومنها ارتحل إلى مراكش، أين وفدت عليه مبايعات أهلها ودخلت في طاعته قبائل العرب، وجشم، وسائر المصامدة فتهايا بعد ذلك لاسترجاع ملكه من ابنه أبي عنان الذي ثار من حضرته فاس قاصدا مراكش لحرب أبيه، التقى الفريقان بامرغوست بالقرب من واد أم الربيع في آخر صفر من سنة (1350هـ/751م)، بعد هزيمة أبي الحسن فر إلى جبل هنتاتة رفقة صاحبه عبد العزيز بن محمد بن علي الهنتاتي فعاهده أهل هذا الجبل بالمدافعة والولاء والطاعة، وعلى إثر ذلك أخذ ولده يرص الجيوش لحصار أبيه واختزال رغبته في استرجاع ملكه قبل أن تنضوي جميع قبائل مرين تحت طاعته ويتحقق له ما يرغب ولضعف أبي الحسن وبقينه بعدم قدرته على مجابهة جيوش ابنه كتب له بولاية العهد مقابل مبلغ مالي وبعض الثياب، فلم يتحمل أبو الحسن ضعف شكيمته وفقدان ملكه فمرض أثناء ذلك، يقول عبد الرحمان ابن خلدون في هذا الخبر: "...وأوعز إليه بأن يبعث له مالا وكسي، فسرح

نفوذه على حساب جيرانه في المغرب الأوسط، مستندا إلى سياسة أسلافه التي اتخذها نهجا ومبررا لحركته المستقبلية،¹ من خلال استغلال رفض شفاعة أبي ثابت لقبائل مغراوة،² وموت علي بن راشد المغراوي كذريعة لغزو تلمسان عاصمة بني زيان وفي المقابل استعد الأخوان من بني زيان للحرب وعبأوا جيوشهم وقرروا التصدي لقوات أبي عنان خارج المدينة، ففي سنة (753هـ/1352م)³ خرج أبو السعيد بجيش كبير وعسكر في سهل بأنكاد قرب وجدة.⁴

وعليه فلقد التقى الجيشان في معركة حاسمة انتصر فيها أبو عنان،⁵ قتل خلالها عددا كبيرا من جنود بني زيان واستولت مرين على معسكراتهم وأموالهم وأسر أبو السعيد الذي أعدم في جمادى الأولى من نفس السنة، بينما فر أخوه أبو ثابت إلى تلمسان ومنها إلى الجزائر، حيث احتمى بقبائل المنطقة التي دعمت مساعيه لاستعادة العرش.⁶

بعد هزيمة أبو ثابت مرة أخرى في شلف انسحب مع بعض الأنصار وأفراد أسرته إلى تدلس من بينهم: أبو زيان محمد بن سعيد، وأبو حمو موسى الثاني، ووزيره يحيى بن داود، متوجهين جميعا إلى إفريقية، لكن عند وصولهم إلى وادي بجاية اعتقلهم أمير بجاية أبو عبد الله محمد بن

الحاجب ابن أبي عمر بإخراجها من المودع بدار ملكهم، واعتل السلطان خلال ذلك فمرض أوليائه وخاصته، واقتصد لإخراج الدم... فورم وهلك". وكان موته سنة (752هـ/1351م) في ربيع الثاني فرفع ولده أبو العنان جثمانه إلى شالة ودفن هناك بمقبرة سلفهم. **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 379-380. - الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 173-174. - عبد الحميد حاجيات، مرجع سابق، ص 28.

¹ عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 51.

² قتلت مغراوة بعض من بني عبد الواد غدرا فتوجه إليهم أبو ثابت بجيشه، فدخل تتس عنوة وتقبض على رئيسهم علي بن راشد وأودعه السجن، فقام هذا الأخير بذبح نفسه بنفسه في موضعه فانقرض بذلك ملك بن ثابت بن منديل، وخلال فترة الحصار كتب أبي عنان لأبو ثابت للكف عن مغراوة والإقلاع عنهم، فرد شفاعته. **ينظر:** يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 158-159. - التنسي، مصدر سابق، ص 163.

³ عبد الرحمان ابن خلدون، التعريف...، مصدر سابق، ص 101.

⁴ **ينظر:** يحيى ابن خلدون، مج 1 مصدر سابق، ص 160. - التنسي، مصدر سابق، ص 164.

⁵ انهزم جيش بني زيان بسبب انسحاب بعض القبائل، وعلى رأسها بني عامر. **ينظر:** يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 160.

⁶ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 381.

أبي زكريا الحفصي وسلمهم لبني جرار أعداء بني زيان، فقتل أبو ثابت ووزيره في رمضان من نفس السنة فيما نجح أبو حمو موسى الثاني في الفرار إلى تونس،¹ حيث استقبله الحاجب أبو محمد بن تافراجين بحفاوة، ومنحه مكانة رفيعة في مجلس سلطانه حيث يحل أعظم القوم وأشرفهم.²

وهكذا انتهى حكم بني زيان مرة أخرى على يد أبي عنان الذي اتخذ من تلمسان منطلقا لشن الهجمات على بني حفص، واستطاع في النهاية السيطرة على قسنطينة وبجاية، ومن ثم تونس.

2. 6 الحملات المرينية خلال عهد أبو حمو موسى الثاني:

بعد القضاء على الأخوان أبي السعيد وأبو ثابت سنة (753هـ/1352م) أصبحت الدولة الزيانية تحت نفوذ بني مرين وظلت على هذه الحالة من التبعية لمدة سبع سنوات، إلى أن تمكن أبو حمو موسى الثاني من استرجاع ملك أسلافه بتلمسان سنة (760هـ/1359م)،³ مستغلا بذلك حالة الضعف التي آلت إليها الدولة المرينية، بعد مقتل صاحبها أبو عنان سنة (759هـ/1358م)،⁴ واستبداد الوزراء بالحكم.⁵

¹ ينظر: يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 162. - مؤلف مجهول، زهر البستان...، ج 2، مصدر سابق، ص ص 14 - 15. - التتسي، مصدر سابق، ص ص 164 - 165. - عبد العزيز فيلاي، ج 1، مرجع سابق، ص ص 51 - 52.

² عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 162.

³ توجه أبو حمو موسى الثاني إلى تلمسان رفقة القبائل العربية، واحتلت جموعه ساحة تلمسان، التي كان عليها محمد ابن أبي عنان، ولقد تمكن أبو حمو وأحلافه من دخول تلمسان منتصرا على جند مرين في الثامن من ربيع الأول سنة (760هـ - 1359م). ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص ص 163 - 164. - مؤلف مجهول، زهر البستان...، ج 2، مصدر سابق، ص ص 61 - 63. - عبد الحميد حاجيات، مرجع سابق، ص ص 88 - 89. - شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص 206. - عبد العزيز فيلاي، ج 1، مرجع سابق، ص 54.

⁴ ينظر: مؤلف مجهول، زهر البستان...، ج 2، مصدر سابق، ص 39. - لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة...، مج 2، مصدر سابق، ص 21.

⁵ لسان الدين ابن الخطيب، نفاضة الجراب...، ج 3، مصدر سابق، ص ص 74 - 75.

اتسم عهد أبو حمو الذي دام أكثر من ثلاثين سنة بالنشاط العسكري المكثف، إذ قام بمحاربة المنشقين عن السلطة من أهل بلاده وتصدى لهجمات مرين غربا وبني حفص شرقا، كما قام بالإغارة على هاتين الجارتين كلما أتحت له الفرصة للتوسع.¹

الجدول (رقم 03): غزوات بني مرين خلال عهد أبو حمو موسى الثاني

السنة	المكان	القائد	المصدر
(760هـ/1359م)	تلمسان	مسعود بن رحو بن علي بن ماساي	يحيى ابن خلدون، مصدر سابق، ج 2، ص 47.
(761هـ/1360م)	تلمسان	السلطان أبو سالم	ابن الأحمر، روضة النسرين...، مصدر سابق، ص 56.
(765هـ/1364م)	تلمسان	أبو زيان القبي	مؤلف مجهول، زهر البستان...، مصدر سابق، ص 150 - 151.
(772هـ/1371م)	تلمسان	عبد العزيز المريني	عبد الرحمان ابن خلدون، التعريف...، مصدر سابق، ص 143 - 144.
(785هـ/1384م)	تلمسان	أبو العباس بن أبي سالم	عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، مصدر سابق، ص 189 - 190.

من إعداد الطالبة (بتصرف)

لم تكن هناك مواجهة مباشرة بين العساكر المرينية والزيانية، وهذا راجع إلى سياسة أبو حمو التي تعتمد على الانسحاب واللجوء إلى شيعته في الصحراء، ولقد أدى التنقل العسكري المريني المتكرر على عاصمة أبو حمو موسى إلى عدم استقرار الدولة الزيانية وتراجع قوتها، رغم محاولاته التوسعية واستعادة تلمسان كل مرة يتم فرض الحصار والسطوة عليها.

¹ ينظر: شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص 206. - عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 55.

2. 6. 1 حملة (760هـ/1359م):

بينما كان أبو حمو موسى ينظم دولته ويوسع نفوذه في المغرب الأوسط لجأ عرب السويد المهزومون في وادي ملال إلى بني مرين سنة (760هـ/1359م)، وحرصوهم على مهاجمة تلمسان، وعلى الرغم من أن السلطان أبو بكر السعيد كان رسمياً على رأس الحكم إلا أن السلطة الفعلية كانت بيد الوزير الحسن بن عمر الفودودي، الذي أرسل جيشاً قوامه تسعة آلاف جندي بقيادة مسعود بن رحو بن علي بن ماساي نحو تلمسان، وع¹ند اقتراب الجيش المريني من وادي زيتون انسحب أبو حمو إلى الجنوب نحو بني عامر في جمادى الأولى (760هـ/1359م) لعدم توفره على الموارد العسكرية الكافية، مما أتاح لابن ماساي دخول تلمسان دون مقاومة وبعد استقراره في تامحلت قام أبو حمو بتحريض عرب المعقل على تنفيذ غارات وقطع الطرق بين تلمسان وفاس مما أضعف موقف المرينيين.²

وفقاً لذلك أرسل ابن ماساي فريقاً بقيادة ابن عمه عامر بن عبد الله لمواجهة المعقل، لكنه قتل وهرب جيشه إلى وجدة، فأدى ذلك إلى إطاحة بني مرين بالسعيد وتباينهم في اختيار خليفة له حيث بايع البعض يعيش بن أبي زيان بينما دعم الوزير مسعود بن رحو منصور بن سليمان،³ وبعد إجماع الجيش على منصور سعى لعقد صلح مع أبو حمو وغادر تلمسان مما مكن أبو حمو العودة إليها بعد غياب دام خمسة وعشرون يوماً.⁴

2. 6. 2 حملة السلطان أبي سالم (761هـ/1360م):

بعد تولي السلطان أبي سالم الحكم في المغرب الأقصى قرر التحرك نحو تلمسان سنة (761هـ/1360م)، وبعد تقاوم الأوضاع مع السلطان أبي حمو الذي واصل هجماته على المناطق

¹ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 164. - عبد الحميد حاجيات، مرجع سابق، ص 94.

² ينظر: يحيى ابن خلدون، ج 2، مصدر سابق، ص 47. - مؤلف مجهول، زهر البستان...، ج 2، مصدر سابق، ص 81. - الناصري، ج 4، مرجع سابق، ص 5. - عبد الحميد حاجيات، مرجع سابق، ص 94.

³ يحيى ابن خلدون، ج 2، مصدر سابق، ص 48.

⁴ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 165. - مؤلف مجهول، زهر البستان...، ج 2، مصدر سابق، ص 85. - عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 56.

الشرقية التابعة لبني مرين، وما زاد من تصميم أبي سالم على هذا الغزو لجوء عبد الله بن مسلم الزردالي إلى تلمسان،¹ وعند اقتراب جيش أبي سالم من المدينة فر أبو حمو مع حلفائه من بني عامر والمعل جنوباً تاركين تلمسان للجيش المريني.²

عندما علم ابن الخطيب بسيطرة أبو سالم على تلمسان هنأ أبو سالم بقصيدة طويلة،³ يقول في مطلعها:

أطاع لساني في مديحك إحساني وقد لهجت نفسي بفتح تلمسان
كردة فعل احتل أبو حمو مناطق وطاط وملوية وكرسف وخشية من توسع أبي حمو على حساب نفوذ مرين، قرر أبو سالم العودة إلى المغرب الأقصى وترك تلمسان تحت حكم أبي زيان القبي حفيد السلطان السابق أبي تاشفين، لكنه سرعان ما استعاد أبو حمو المدينة بعد أن فر القبي نحو جبل الونشريس حيث لجأ إلى أولاد عريف من بني سويد.⁴

بعد غياب دام ثلاثين يوماً دخل أبو حمو تلمسان في رمضان وبدأ مباشرة في تجهيز جيشه لقمع تمرد القبي، حيث أقام في تاسلة وعسكر في البطحاء وانضمت إليه قبائل من بني عامر والمعل توجه بعدها نحو منداس، بينما انقسم أنصار أبي زيان إلى فريقين: أحدهما اعتصم في جبل الونشريس بقيادة محمد بن عريف، والآخر اتجه نحو الصحراء بقيادة أبي بكر بن عريف وحاصر أبو حمو قوات القبي وأرسل جيوشه لملاحقة أبي بكر الذي هزم وفر نحو الصحراء، بينما لجأ أبو زيان إلى قبيلة ذوي عبد الله من المعل في سهل أنكاد، في الوقت ذاته تمكن أبو حمو من القضاء على قوات بني مرين في الشلف وتحييد مغراوة وحلفائها.⁵

¹ يحي ابن خلدون، ج 2، مصدر سابق، ص 56.

² ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 166-167. -ابن الأحمر، روضة النسر... مصدر سابق، ص 56.

³ الناصري، ج 4، مرجع سابق، ص 34.

⁴ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 167. -مؤلف مجهول، زهر البستان...، ج 2، مصدر سابق، ص 147-148. -عبد الحميد حاجيات، مرجع سابق، ص 99.

⁵ عبد الحميد حاجيات، نفس المرجع، ص 100-101

في سنة (762هـ/1361م) تم عقد الصلح بين أبي سالم وأبي حمو،¹ لكن النزاع تجدد بعد أربعة أشهر عندما رفض أبو سالم تسليم وهران والجزائر، إثر ذلك قرر أبو حمو استعادة المدينتين بنفسه وتمكن بوساطة ونزمار من استعادة الجزائر بعد انسحاب القوات المرينية دخل أبو يعقوب والد أبي حمو الجزائر في ذي القعدة من نفس العام، وبعد أيام قليلة توفي السلطان المريني أبو سالم.²

تأزمت العلاقات مجددا بين الدولة المرينية والدولة الزيانية نتيجة لدعم أبو حمو موسى لبعض المتمردين على طاعة السلطان المريني من ذلك المتوكل على الله في سجلماسة، على إثر ذلك أرسل السلطان جيشا بقيادة حفيد أبي تاشفين الأول وبرفته ابن برغوث وعدد من وجهاء بني عبد الواد وعرب المعقل المواليين لبني مرين لمنافسة أبو حمو على العرش، فالتقى أبو حمو موسى بخصمه في عين الصفاء بجبل بني يزناسن، وبعد فشله في القبض عليه تبعه إلى جبل دبو في الجنوب ولكن دون جدوى فعاد أبو حمو إلى حضرته وأرسل وزيره ابن مسلم في مطاردة مستمرة إلا أن الأخير أصيب بالطاعون في بلاد عرب رياح، وتوفي في أواخر ذي القعدة من نفس العام.³

تمكن أبو حمو موسى من إخضاع العديد من المناطق المتاخمة لحدود دولته الشرقية التي كانت تابعة لملك بني حفص، وفي عام (766هـ/1365م) وجه اهتمامه نحو التوسع غربا مستغلا خلافه مع ونزمار بن عريف ومحمد بن زكراز اللذان كانا يقيمان في كرسيف ودبدو، فأرسل جيوشه إلى تلك المناطق أين أسرفوا في نهب المحاصيل وتدمير البنى العمرانية.⁴

¹ كان لشيخ قبيلة سويد بالمغرب الأقصى ونزمار بن عريف الدور في تحقيق هذا السلم، إذ قام بالقبض على القبي بتاورريت، إظهارا لحسن نواياه، وفي جمادي الثانية سنة (762هـ/1361م) وفد إلى تلمسان الفقيه أبو قاسم بن رضوان صاحب الإنشاء لأبو سالم لإتمام إجراءات الصلح، فكتبت العقود، وكان الحضور يضم جماعات من بني عبد الواد (فقهاء، وأرباب المشورة، والوزراء). **ينظر:** مؤلف مجهول، زهر البستان...، ج 2، مصدر سابق، ص 196-197.

² **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 167. -لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة...، ج 2، مصدر سابق، ص 29.

³ عبد الحميد حاجيات، مرجع سابق، ص 108-109.

⁴ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 170-171.

2. 6. 3 حملة عبد العزيز (772هـ/1371م):

أصبحت الأحداث التي جمعت بين سلطان تلمسان أبو حمو وعرب السويد،¹ مصدرا للاضطراب مما دفع الأخيرين اللجوء إلى السلطان عبد العزيز² في المغرب الأقصى،³ في محاولة منهم إفساد العلاقات بين بني مرين وبني عبد الواد،⁴ وكان السلطان المريني في الأساس ساخطا على أبو حمو لتحالفه مع بعض المنشقين عليه من عرب المعقل رغم مطالبة صاحب مرين المتكررة لأبو حمو بإنهاء هذا التحالف،⁵ وفي سنة (771هـ/1370م) قاد عبد العزيز حملة عسكرية إلى تلمسان مما أجبر أبو حمو على الاستشارة مع قادة دولته وكنتيجة للحلول المقترحة قرر مغادرة المدينة محمل بالذخيرة والمال متجها نحو الجنوب برفقة بني عامر وزغبة.⁶

دخل عبد العزيز تلمسان في عاشوراء عام (772هـ/1371م)، وأرسل وزيره أبو بكر بن غازي بن الكاس لمطاردة أبو حمو، وفعليا تمكن الوزير من هزيمة قوات أبو حمو في بلاد زناتة،⁷ فاضطر هذا الأخير إلى الفرار جنوبا، بعدما تم تجريده من ماله وعسكره وذخائره، وواصل عبد العزيز توسعاته في المغرب الأوسط إلى أن مرض وتوفي في تلمسان سنة (774هـ/1373م)، بعد

¹ شن أبو حمو الغرات على أراضي بني سويد، في صفر سنة (771هـ/1370م)، وتقبض على بعض رؤسائهم: محمد بن عريف. وخرب قلعة بني سلامة، التي كانت مقرا لهؤلاء الأعراب. **ينظر:** الناصري، ج 4، مرجع سابق، ص 57. - عبد الحميد حاجيات، مرجع سابق، 125.

² **عبد العزيز المريني:** كنيته أبو فارس بوبع في ذي الحجة من سنة (767هـ/1366م)، كانت مدة دولته ست أعوام وأربع أشهر، توفي بتلمسان، سنة (774هـ - 1373م)، ونقل جثمانه بفاس، فدفن بجامع قصره. **ينظر:** ابن الأحمر، روضة النسر...، مصدر سابق، ص 33. - الناصري، ج 4، مرجع سابق، ص 59.

³ انصرف أبو بكر بن عريف مع قومه وأحلافهم من الديالم والعطاف إلى ملك بني مرين بالمغرب الأقصى، وكان أخو أبو بكر ونزمار يحتل مكانة هامة في البلاط المريني. **ينظر:** عبد الحميد حاجيات، مرجع سابق، ص 126.

⁴ عبد الحميد حاجيات، نفس المرجع، ص 126.

⁵ **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 176. - الناصري، ج 4، مرجع سابق، ص 57.

⁶ **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، التعريف...، مصدر سابق، ص 143-144. - ابن الأحمر، روضة النسر...، مصدر سابق، ص 56.

⁷ أدركوه في قرية الدوس (الدوسن) بالقرب من نهار شدي، ببلاد الزاب. **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 177. - عبد الحميد حاجيات، مرجع سابق، ص 127.

ذلك غادر رجال دولته إلى المغرب الأقصى تاركين تلمسان تحت حكم الأمير إبراهيم بن أبي تاشفين الذي سرعان ما طرد على يد أحد موالى أبو حمو، عطية بن موسى وكانت عودة أبو حمو إلى تلمسان في جمادى الأولى من نفس السنة، بعد غياب دام سنتين قاسى خلالهما تحديات كبرى.¹

بعد استعادة أبو حمو للحكم أعاد تنظيم دولته مخضعا القبائل المتمردة كل من مغراوة،² توجين، بني عامر،³ والثعالبة،⁴ بمساعدة قبائل السويد، كما قسم مملكته بين أبنائه مما أثار خلافات

¹ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص ص 176-177. - عبد الرحمان ابن خلدون، التعريف...، مصدر سابق، 147. - يحيى ابن خلدون، ج 2، مصدر سابق، ص 230. - الناصري، ج 4، مرجع سابق، ص ص 57-58.

² وجه أبو حمو موسى جيشه بقيادة موله عطية بن موسى نحو مغراوة وتمكن من هزيمتهم مرتين فأخذ علي بن هارون المغراوي يتحالف مع من هم على عدا مع أبو حمو كخالد بن عامر ومن تبعه وخرج لملاقاة عطية للمرة الثالثة في رجب سنة (774هـ/1373م)، تمكنوا خلالها من حصاره فالتجأ إلى تنس بينما توجه خالد بن عامر رفقة أتباعه للاستيلاء على تلمسان، لكنه فشل أمام الجيش الذي أعده أبو حمو بقيادة ابنه أبو تاشفين وأحلافه الجدد من سويد. واصل أبو تاشفين مضايقته لمغراوة ونجدة عطية فاقتحم بلادهم وفر منهم خلق كثير نحو متيجة. وظل هو ووالده يضربان مغراوة بين الحين والآخر إلى غاية سنة (676هـ/1375م)، فانضوت بعدها المنطقة الشرقية تحت لواء أبو حمو. ينظر: يحيى ابن خلدون، ج 2، المصدر السابق، ص ص 255-261. - عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص ص 184-185. - عبد الحميد حاجيات، مرجع سابق، ص ص 132-133.

³ بعد إجلاء بني عامر من أراضيهم بالمغرب الأوسط وفشلهم في استدراج بني مرين لمساعدتهم قرر عبد الله بن سقير (أورد عبد الرحمان ابن خلدون اسمه ابن الصغير) العودة رفقة قومه إلى موطنهم، واسترجاعها بعد أن تمكن من استمالة أبي بكر بن عريف إلى صفه ومبايعة أبي زيان، وفي محرم سنة (777هـ/1376م) قام ابن سقير وأبو بكر بالزحف نحو مازونة لكن عطية بن موسى أطاح بهم وسلب طبل وأعلام أبو زيان، وباجتماع جيش أبي حمو مع جيش عطية بن موسى وأبي تاشفين تفرق من تحالف ضدهم، فعاد ابن سقير إلى المغرب الأقصى وأبو بكر بن عريف إلى الصحراء وأبو زيان إلى عرب الذواودة، وفي الثاني من ذي الحجة أطاح جيش أبو تاشفين ومن معه من بني سويد ببني عامر وقتل منهم خلقا كثير: كعبد الله ابن سقير وقام بإرسال رأسه إلى أبيه بتلمسان، وقتل العباس بن موسى بن عامر ومحمد بن زيان الولادي، وغيرهم. ينظر: يحيى ابن خلدون، ج 2، مصدر سابق، ص ص 301-307. - عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص ص 182-183. - عبد الحميد حاجيات، مرجع سابق، ص ص 135-136.

⁴ قام شيخ قبيلة الثعالبة سالم بن إبراهيم وخالد بن عامر وقومه بمبايعة أبو زيان بالجزائر ثم توجهوا إلى مليانة لكنها امتنعت عليهم وولوا أدبارهم إلى الجزائر، توفي في تلك الأثناء خالد بن عامر، وفي أواخر رمضان

داخلية حيث تطلع أبو تاشفين إلى حكم وهران، ونتيجة لذلك دبر اغتيال يحيى بن خلدون الذي كان وسيطا بينه وبين والده لينصب نفسه بعدها واليا على وهران والجزائر.¹

2. 6. 4 حملة أبو العباس بن أبي سالم (785هـ/1384م):

عندما استقرت الأوضاع في الدولة الزيانية شهد المغرب الأقصى اضطرابات داخلية بلغت ذروتها، حيث قاد السلطان أبو العباس بن أبي سالم حملة عسكرية ضد ابن عمه عبد الرحمان بن يفلوس ابن أبي علي عام (784هـ/1383م)،² وبعدما طال الحصار طلب ابن يفلوس النجدة من صاحب المغرب الأوسط أبو حمو الذي استجاب بإرسال ابنه أبو تاشفين لشن غارات على مكناسة، بينما هاجم هو منطقة تازا بهدف تضيق الخناق على أبي العباس وإرغامه على التراجع، غير أن خطة أبي حمو باءت بالفشل إذ استولى صاحب فاس على مراكش وقتل ابن عمه ما دفع أبو تاشفين وأبو حمو إلى الانسحاب.³

بعد توطيد الأوضاع في دولته توجه أبو العباس بجيوشه نحو تلمسان وعندما علم أبو حمو بذلك طلب العون من ابن الحمراء،⁴ فتوسط له هذا الأخير لأبو العباس لكن طلبه قوبل بالرفض واستمر في تقدمه إلى أن دخل تلمسان وكان ذلك سنة (785هـ/1384م) وفر أبو حمو

(778هـ/1376م) نهض أبو حمو لإخضاعهم بنفسه وعندما ضيق عليهم لم يجدوا سبيلا سوى إعلانهم الطاعة شريطة مفارقة ابن عمه أبو زيان ابن السعيد، وصرفه عن البلاد. **ينظر:** عبد الحميد حاجيات، مرجع سابق، ص 136-137.

¹ **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 188. - عبد الحميد حاجيات، مرجع سابق، ص 140.

² بعد تنصيب أبو العباس سلطانا على ملك مرين اتفق مع عبد الرحمان تقاسم ملك المغرب الأقصى والحد الفاصل بينهما هو آزمور، لكن عبد الرحمان لم يرضى بهذا وأراد توسيع دائرة نفوذه فنشأ بذلك نزاع بين أبناء العم، لتتكرر المواجهات العسكرية بين الطرفين قبل تاريخ (784هـ/1383م). **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 188. - الناصري، ج 4، مرجع سابق، ص 65. - محمد عيسى الحريري، مرجع سابق، ص 175. - إبراهيم حركات، مج 2، مرجع سابق، ص 65.

³ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 188-189.

⁴ كان لابن الحمراء الفضل في انتصاب أبو العباس سلطانا على بني مرين وهذا لما له من نفوذ داخل المغرب الأقصى، فكلمته تسمع وأوامره يمثل لها. **ينظر:** الناصري، ج 4، مرجع سابق، ص 68.

كعادته قبل ذلك إلى البطحاء ومنها إلى تاحموت،¹ ووفقا لرواية صاحب روضة النسرين كان أبو حمو يدفع جزية سنوية لأبي العباس خلال الحصار.²

ردا على حملة أبي العباس أطلق ابن الحمراء سراح موسى ابن أبي عنان إلى المغرب الأقصى، حيث استوزر مسعود بن رحو بن مسالي فاستولى على سبتة في ربيع الأول عام (786هـ/1385م) ثم دخل فاس واستقر بها، بعد علم أبو العباس بذلك سارع للعودة إلى حضرته،³ والانسحاب من تلمسان بعد أن خربها ليعود أبو حمو إليها لاحقا.⁴

شهد المغرب الأوسط أزمة سياسية بعد سنة (786هـ/1385م) وهي انقسام الدولة إلى حزبين: حزب أبو تاشفين الذي سيطر على العاصمة تلمسان،⁵ وحزب إخوته أبو زيان والمعتصم وعمير الذين بسطوا نفوذهم على المناطق الشرقية، وحاول أبو حمو تجاوز الأزمة عبر ترك أبو تاشفين في تلمسان والتوجه إلى الجزائر لجعلها عاصمة جديدة، لكن خطته فشلت بعدما أبلغ موسى بن يخلف عنها.⁶

¹ **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 189-190. - عبد الحميد حاجيات، مرجع سابق، ص 143.

² ابن الأحمر، روضة النسرين...، مصدر سابق، ص 57.

³ نزل أبو العباس بتازا أربعة أيام ثم خرج عنه رؤساء جيشه وأضرمت النار في معسكره، وتقبض عليه موسى ابن أبي عنان وبعث به إلى ابن الأحمر. **ينظر:** الناصري، ج 4، مرجع سابق، ص 69. - إبراهيم حركات، مج 2، مرجع سابق، ص 66. - محمد عيسى الحريري، مرجع سابق، ص 177.

⁴ **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 190-191. - الناصري، ج 4، مرجع سابق، ص 68-69.

⁵ كان أبو تاشفين هو الحلقة الأقوى في هذا النزاع بسبب نصرة قبيلة بني سويد له بعد أن خرب السلطان قصر المرادة معية قبائل بني عامر. **ينظر:** عبد الحميد حاجيات، مرجع سابق، ص 145.

⁶ نفس المرجع، ص 46.

اندلع صراع داخل البيت الزياني بين أبي حمو وابنه،¹ إذ إتحد أبو تاشفين مع بني مرين لقتل أبيه في معركة دارت أحداثها جبل ورنيد سقط فيها أبو حمو قتيلا برماح فرسانهم،² وجيء برأسه إلى أبو تاشفين، وقيل أن محمد بن يوسف بن علال وزير السلطان أبي العباس هو من قتل أبا حمو في موقع يسمى الغيران يبعد نصف يوم عن تلمسان.³

2. 7 عودة الهيمنة المرينية:

بعد وفاة أبو حمو موسى الثاني دخلت الدولة الزيانية مرحلة من الضعف حيث أصبح سلطانها أبو تاشفين تابعا للمرينيين بعد دعمهم له للوصول إلى العرش، فبدأ يخطب باسمهم على منابر تلمسان ويدفع لهم إتاوة سنوية، هذه الظروف لم ترض أبو زيان ابن أبي حمو والي الجزائر الذي سعى للإطاحة بأخيه أبو تاشفين واستعادة الحكم، وفي سنة (792هـ/1391م) تحرك نحو تلمسان بمساندة بني عامر من بني زغبة لكنه فشل بسبب انسحاب الأعراب الذين تم إغراؤهم بالمال، ورغم ذلك استمر أبو زيان في محاولاته مستندا إلى دعم أحياء المعقل لكنه اضطر لاحقا إلى الفرار جنوبا تقليدا لسياسة أبيه بعد طلب أبو تاشفين المساعدة من المرينيين.⁴

لأن مقاصد أبو زيان لم تتحقق راح يضع يده بيد صاحب المغرب الأقصى طالبا منه المساعدة "فتلقاه وبر مقدمه، ووعدته النصر من عدوه، وأقام عنده إلى حين"،⁵ ويعود قبول مطلب أبو زيان تراجع أبو تاشفين في ولائه لهم فدعموا أبو زيان بالجنود والمال، في الوقت نفسه وصل أبو زيان إلى تازا، ليعلم بخبر وفاة أبو تاشفين في ربيع الثاني من سنة (795هـ/1394م)،⁶ مما

¹ يعود عقوق أبو تاشفين لأبيه وكرهه لإخوانه إلى تفضيل أبو حمو لأبنائه عليه. ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 191.

² ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 194. - عبد الحميد حاجيات، مرجع سابق، ص ص 153 - 154. - عبد العزيز فيلاي، ج 1، مرجع سابق، ص 59.

³ ابن الأحمر، روضة النسر...، مصدر سابق، ص ص 54 - 55.

⁴ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 196. - عبد العزيز فيلاي، ج 1، مرجع سابق، ص 66.

⁵ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 196.

⁶ أورد عبد الرحمان ابن خلدون أنه توفي في رمضان من ذلك قوله: "وكان أبو تاشفين قد طرده مرض أزم من بهن ثم هلك منه في رمضان من السنة"، أما التتسي فقال: "وقضى نحبه على مريد ملكه سبع عشر ربيع الثاني"،

أدى إلى مبايعة ابنه أبو ثابت الذي قتل بعد فترة وجيزة على يد ابن الزاوية، غضب حينها المرينيون من هذا التحول فارجعوا أبو زيان إلى فاس، واستعادت مدين بذكر سيطرتها على المغرب الأوسط سنة (796هـ/1395م) بعد أن تم تنصيب أبو فارس عبد العزيز واليا على تلمسان، مما أدى إلى نهاية حكم الدولة الزيانية.¹

بعد وفاة أبو العباس المريني في نفس السنة أعيد أبو زيان إلى تلمسان كسلطان تحت إشراف المرينيين، أغرى أمير تلمسان الجديد، أنصار أخيه (أحياء بني عامر) يوسف ابن الزاوية بالمال وسلموه له،² فغادر على إثر هذا الحصار المحكم أبو زيان باتجاه الجهة الشرقية، أين تم التقبض عليه وقتله على يد محمد بن مسعود الوعزاني بتحريض من بني مدين سنة (805هـ/1404م).³

استمر التدخل المريني في شؤون الزيانيين وأصبح تعيين وعزل السلاطين يتم وفقا لمصالحهم، من ذلك تعيين أبو محمد عبد الله بن أبي حمو موسى الثاني سنة (801هـ/1400م)،⁴

وابن الأحمر قال: "ومات من وجع أصابه في بطنه في شهر ربيع الأول". **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، نفس المصدر، ص 197. -التنسي، مصدر سابق، ص 213. - ابن الأحمر، روضة النسر...، مصدر سابق، ص 58.

¹ **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، مصدر سابق، ج 7، ص 197. -رشيد بورويبة، موسى لقبال، عبد الحميد حاجيات، عطا الله دهينة، محمد بلقراد: الجزائر في التاريخ من الفتح إلى بداية العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 426.

² كان يوسف ابن الزاوية ينتظر الفرصة للاستيلاء على تلمسان وكانت قبائل العرب من أحياء بني عامر على نصرته لكنها خرجت عنه بعد أن أغدق عليهم أبو زيان بالمال فسلموا يوسف لثقة أبي زيان، وساروا به، وأرادت بعض أحياء العرب إنقاذه، فبادروا بقتله وحملوا رأسه إلى أخيه. **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 198.

³ **ينظر:** التنسي، مصدر سابق، ص ص 237-238. -عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 68.

⁴ بعد قضاء أبو زيان على يوسف ابن الزاوية، صفى له الجو وانصرف يهذب الأوضاع، كما تفرغ لبناء دولته وترميم ما دمرته الحروب، فأرجع لها مجدها من جديد، إلا أن هذا لم يعجب السلطان المريني، لأنه لن يرضى بأن تكون هناك دولة بالمغرب الأوسط تضاهي دولته فأخذ يعد العدة للإطاحة بعرش بني زيان. قام بني مدين بتوجيه أحد إخوة أبو زيان إلى تلمسان وهو أبو محمد عبد الله بن أبي حمو موسى الثاني سنة (801هـ/1400م) بعد أن جهزه بالجيش والمال، غادر على إثر هذا الحصار المحكم أبو زيان باتجاه الجهة الشرقية، أين تم القبض عليه وقتله على يد محمد بن مسعود الوعزاني بتحريض من بني مدين، سنة (805هـ/1404م). **ينظر:** عبد الرحمان

بعد أن جهزه بالجيش والمال،¹ ثم عزله وعين مكانه أخيه أبو عبد الله محمد ابن خولة وبعد وفاته في (813هـ/1411م)² شهدت الدولة صراعا على السلطة، ليتمكن المرينيون مرة أخرى من فرض سيطرتهم بتوجيه أبو مالك عبد الواحد للاستيلاء على تلمسان في سنة (814هـ/1411م).³

خضعت الدولة الزيانية بالكامل للهيمنة المرينية بعد وفاة أبو حمو موسى الثاني، مما جعل موقفها ضعيفا أمام نفوذ بني حفص الذين سيطروا على المغرب الأوسط، حيث وجهت الدولة الحفصية بعد الحاق ملك المغرب الأوسط اسميا نظرها إلى المغرب الأقصى.

ثالثا: الصراع الحفصي المريني

1. العلاقات الحفصية المرينية: التحالفات المبكرة

بعد انفصال بني حفص عن الدولة الموحدية وتأسيسهم سلطتهم في المغرب الأدنى كانت قبيلة مرين من بين القبائل التي أعلنت ولاءها لهم، فقد تعهدت للسلطان أبي زكريا بأن تكون في طليعة قواته العسكرية، ودعمت موقفها بارسال ولاء المناطق التي سيطرت عليها مثل مكناسة وتازا والقصر ومراكش،⁴ وفاس على عهد السلطان الجديد المستنصر.⁵

بالإضافة إلى إعلان الطاعة عززت مرين روابطها مع الدولة الحفصية من خلال تقديم الهدايا النفيسة والأموال الوفيرة وتبادل البعثات الدبلوماسية لتجنب أي عداء من طرفهم وضمن

ابن خلدون، العبر...، مصدر سابق، ج 7، ص 198. -التنسي، مصدر سابق، ص ص 237-238. -ابن الأحمر، روضة...، مصدر سابق، ص 59. -رشيد بورويبة وآخرون، مرجع سابق، ص 426. -عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 68

¹ ينظر: ابن الأحمر، روضة...، مصدر سابق، ص 59. -عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 68.
² حكم أبو عبد الله محمد ابن خولة المغرب الأوسط تحت نفوذ بني مرين وحمايتهم، وكان يرسل لهم الخراج.
³ ينظر: ابن الأحمر، روضة النسر...، مصدر سابق، ص 60. -رشيد بورويبة وآخرون، مرجع سابق، ص 427. -عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 69.

⁴ التنسي، مصدر سابق، ص ص 244-245.

⁵ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص ص 397-417.

⁶ الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 14.

الحصول على الدعم ضد خصومهم خاصة في مراكش،¹ ومن بين البعثات التي أرسلت كانت تلك التي بعث بها يعقوب بن عبد الحق في عام (665هـ/1266م)، حيث طلب الدعم العسكري من السلطان لمواجهة المرتضى،² ولقد حافظت مرين على ولائها الاسمي للدولة الحفصية، حتى بعد إسقاطهم لعرش الموحدين في مراكش.³

بناء على استقراء المصادر التاريخية التي تناولت هذه المرحلة، إلى جانب عدد من الدراسات الحديثة يمكن تحديد مجموعة من العوامل التي دفعت بالدولة المرينية إلى الاستمرار في إعلان ولائها للدولة الحفصية، وذلك في إطار رؤية سياسية ارتبطت بسياق شرعي وتاريخي ويمكن عرض هذه الأسباب على النحو الآتي:

أ. السبب الأول:

يعد أبو حفص عمر الهنتاتي الجد الأكبر للأسرة الحفصية وهو أحد القادة البارزين في دعوة المهدي بن تومرت وقد ساهم بشكل فعال في تأسيس الدولة الموحدية، ولهذا السبب اعتبر الناصري أن الدولة الحفصية تمثل امتدادا للشرعية الموحدية،⁴ وبما أن المجتمع في المغرب الأقصى ظل إلى حد بعيد محافظا على المبادئ العقائدية والسياسية التي أرسى أسسها الموحدون رغم تراجع بعض خلفائهم عن الالتزام بها فإن الدولة الحفصية استمرت في الدفاع عن هذه المبادئ، ومن هذا المنطلق سعت القبائل المرينية إلى إعلان ولائها للدولة الحفصية بهدف تعزيز شرعية تحركاتها العسكرية وكسب دعم السكان في المغرب الأقصى، فضلا عن تأمين تحالف سياسي مع سلطة إقليمية قوية قادرة على مجابهة قوة بني عبد المؤمن،⁵ نظرا للصراع القائم بينهما وبين المرتضى.⁶

¹ مارمول كريخال، ج 3، مصدر سابق، ص 25.

² ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، مصدر سابق، ج 6، ص 417. - عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 296. - ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص 114. - محمد عيسى الحريزي، المرجع السابق، ص ص 211-212.

³ الزركشي، مصدر سابق، ص 39.

⁴ الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 28.

⁵ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 417. - محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 186. - محمد عيسى الحريزي، مرجع سابق، ص 212.

⁶ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 417.

ب. السبب الثاني:

تخوف بني مرين من أن يشكل السلطان أبو زكريا تهديدا لهم خاصة بعد سيطرته على ملك بني زيان في عام (640هـ/1243م)¹، وتأيد بعض الشخصيات الأندلسية له.²

شهدت نهاية القرن السابع الهجري إحدى أصعب الفترات نتيجة تدهور الأوضاع في إفريقية وتعرضها لانقسامات،³ واحتدام الصراع بين المغربين الأوسط والأقصى وقد أدى ذلك إلى استيلاء المرينيين على حكم بني عبد الواد وفرض حصار طويل على تلمسان من سنة (698هـ/1299م)،⁴ لتنعكس هذه التطورات على العلاقات المرينية الحفصية سلبا حيث اتجهت نحو التوتر خاصة بعد دعم صاحب بجاية أبو زكريا لأصهاره من بني عبد الواد، الذين تلقوا دعما عسكريا من قوات عثمان بن يغمراسن ولكنهم انهزموا سريعا أمام قوات يوسف بن يعقوب وكثر عدد قتلهم بناحية تدلس، وفر من بقي منهم باتجاه بجاية أين تبعهم جيش مرين بقيادة أبو يحيى بن يعقوب أخو السلطان⁵ رفقة عثمان بن سباع، ولما بلغوا بجاية ضايقوا أهلها أيام وعندما استعصت عنهم تجاوزوها إلى تاكررت، وبلاد سدويكش أين عاثوا في جهاتها فسادا، ثم ولوا أدراجهم إلى تلمسان أين يوجد يوسف ابن يعقوب.⁶

قام أبو عصيدة صاحب تونس بمحاولة استغلال التوتر العلاقات بين صاحب بجاية وبني مرين للتقرب من الأخيرة، وتحريضهم على مهاجمة ملك بجاية وقد أرسل أبو عصيدة عدة سفارات

¹ ينظر: ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص 61. - الزركشي، مصدر سابق، ص 29.

² ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 394-395. - روبر بارونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص 75.

³ محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 291.

⁴ ينظر: ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 386. - عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 291. - التتسي، مصدر سابق، ص 140. - الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 79.

⁵ في تلك الفترة وفد على مرين عثمان بن سباع المنشق عن أبو كريا يدعوهم لاحتلال بجاية، "فأوسع له في الحب والكرامة ما شاء وبعث معه هذا العسكر". ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، تاريخ...، مصدر سابق، ص 547. - محمد عيسى الحريري، مرجع سابق، ص 212.

⁶ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، ج 6، العبر...، ص 458. - عبد الرحمان ابن خلدون، تاريخ...، ص 547. - روبر بارونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص 144. - محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 291.

وهذا إلى مرين كانت أولها بقيادة رئيس الموحدين أبو عبد الله بن أكمازير،¹ ثم سفارة أخرى في عام (703هـ/1304م)² برفقة الوزير أبو عبد الله بن يرزيكن محملة بهدايا ثمينة.³

ظلت قوات مرين تتردد على بجاية بتشجيع من صاحب تونس مما اضطر أبو البقاء خالد إلى انتهاج سياسة مشابهة، فأرسل وفودا تتألف من كبار رجال دولته إلى مرين، واستطاع بذلك على مدار ثلاث سنوات إحباط مساعي أبو عسيده، وهكذا سعت الحفصيتان الشرقية والغربية إلى تعزيز علاقاتهما مع مرين وتوطيدها، مما أدى إلى استعانة يوسف بن يعقوب بالأسطول الحفصي لفرض حصار محكم على تلمسان، وعندما علم أبو زيان بتعاون بني حفص مع المرينيين، أوقف ذكرهم في منابرهم وأعلن استقلاله عن دعوتهم.⁴

استمر السلام بين دولتي مرين وبني حفص حتى بعد وفاة السلطان يوسف أبو يعقوب أين انشغلت كل من الدولتين في إعادة ترتيب شؤونها الداخلية، وقد كانت الدولة الحفصية في تلك الفترة تعاني من انقسامات داخلية حادة، ما دفع السلطان أبو البقاء خالد إلى السعي لإعادة توحيد الدولة وتنظيمها،⁵ ومع ذلك لم تدم هذه الجهود طويلا إذ سرعان ما عادت الاضطرابات لتضرب

¹ في نسخة العبري أورد اسمه: أبو عبد الله بن الكجار. ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 459.

² توفي قبل هذه السفارة بثلاث سنوات صاحب بجاية أبو زكريا، وتم تعيين ابنه أبو البقاء خالد من بعده. ينظر: ابن قنفذ القسطنطيني، الفارسية...، مصدر سابق، ص 155. -روبار برونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص 144.

³ عبد الرحمان ابن خلدون، تاريخ...، مصدر سابق، ص 547.

⁴ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر....، ج 7، مصدر سابق، ص 297. -روبار برونشفيك، مرجع سابق، ج 1، ص 144.

⁵ كما ذكرنا في ورقات بحثنا الأولى أن الدولة الحفصية انقسمت إلى مملكتين، ولقد اجتهد أبو البقاء خالد في توحيدها لكن واجهته عدة صعوبات منها عدم استجابة أبو عسيده صاحب تونس للصلح، نتيجة لتأثير أبي اللحياني عليه، لكن بوفاة حليفه من مرين أبو يعقوب يوسف الذي كان يضرب بجاية بين الحين والآخر (لكنه توقف عن ذلك بعد السفارات التي قام بها أبو البقاء) فتح أبو البقاء قسنطينة، خاف حينها صاحب تونس من سطوه فساله، وكان شرط صاحب بجاية "أن من هلك منهما قبل صاحبه فالأمر من بعده للآخر والبيعة له، فتقرر الشرط وحضر الملأ والمشايخ من الموحدين ببجاية، ثم بتونس، فأشهدوا به على أنفسهم، وربط ذلك العهد". لما توفي أبو عسيده نكث رجال دولته، وشيوخ الموحدين العهد وقاموا بمبايعة أبي بكر بن عبد الرحمان المعروف بالشهيد، الذي انهزمت جيوشه أمام أبو البقاء فور اعتلائه العرش على مشارف مدينة تونس، وفي اليوم الثاني انهزم هو أمامه، فلم يجد حلا دون الفرار باتجاه أحد الضياع الواقعة خارج درب الخضراء شمال عاصمته، وعندما علم

البلاد من جديد بسبب بروز عدد من المنافسين على العرش، مستغلين تدهور سمعة أبي البقاء نتيجة انحراف سلوكه وانشغاله بالملذات واللهو، وتقصيره في إدارة شؤون الدولة.¹

إضافة إلى ذلك قام أبو البقاء بتصفية عدد كبير من رجال الدولة وزعماء القبائل العربية مما زاد من تفاقم الأوضاع،² ومن بين هؤلاء المنافسين البارزين: يحيى بن خالد بن السلطان أبي إسحاق إبراهيم،³ وأبي بكر الحفصي،⁴ وابن اللحياني،⁵ الذي تمت مبايعته في طرابلس بعد عودته من المشرق وتلقى بيعة رجال قبيلة الكعوب من بني سليم وأولاد أبي الليل، كما أرسل إليه أبو بكر الحفصي هدية عبر حاجبه تأكيداً على دعمه له في مساعيه للاستيلاء على تونس، فانطلق ابن

صاحب بجاية بموقعه أمر بقتله بعد أن دامت ولايته سبعة عشر يوماً. **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص ص 467-470. -الزركشي، مصدر سابق، ص ص 58-59. -محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص ص 307-309.

¹ ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 84.

² **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 471. -روبار برونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص 158. -محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 311.

³ كان يحيى بن خالد من أتباع أبو البقاء لكنه فر باتجاه أقصى الجنوب ملتحقاً بالمنصور بن مزني المتولي على مناطق الزاب وما حولها، كان هذا الوالي على خلاف مع حاجب أبو البقاء فتحالفا الطرفان ضدهما لكن المنصور فض هذا التحالف ورجع لطاعة أبو البقاء، نتيجة لاكتشافه ما يخططه يحيى إزائه فور انتصاره على السلطان الحفصي فتوجه بعد ذلك يحيى نحو تلمسان، وعلى الرغم من وفاة صاحبها بعد قدومه بأيام أمده السلطان الجديد (أبو حمو) بالجيش لتدويخ قسنطينة لكنها امتنعت عنه فياس من مواصلة العصيان، ولم يجد حينها ما يقوم بها سوى الرجوع إلى بني مزني ومناصرتهم، وعاش تحت كنفه بقية حياته. **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص ص 470-471. -روبار برونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص 158. -محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص ص 312-313.

⁴ عين أبو البقاء خالد على قسنطينة أخوه أبي بكر استجابة لنصح حاجبه ابن غمر الذي كان يكن له العداء، والغدر فأخذ هذا الحاجب يحرض والي قسنطينة الجديد على أخاه وبذلك أعلن نفسه خليفة وتلقب بالمتوكل على الله سنة (711هـ-1311م)، خاف حينها أبو البقاء من انقسام دولته مجدداً فوجه العساكر إلى قسنطينة لحد من شوكة أخيه بقيادة مولاة ظافر المعروف بالكبير "فانتهى إلى باجة وأناخ"، في المقابل عمل أبي بكر على إخضاع بجاية التي كانت تمثل قاعة الحفصية الغربية أيام الانقسام، لكنها امتنعت عنه بفضل قائدها الوفي لأبو البقاء كبير صنهاجة يعقوب بن خلوفاً المعروف بالمزور. **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص ص 472-473. -روبار برونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص 159.

⁵ ابن اللحياني: هو أبو يحيى زكريا ابن الشيخ أبو العباس أحمد بن الشيخ عبد الله محمد. **ينظر:** ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 85. - محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 315.

الحياني بعدها نحو تونس وأرسل في المقدمة أولاد أبي الليل برفقة شيخ دولته أبي عبد الله محمد المزدوي حيث وصلوا إلى المدينة في جمادى الآخرة سنة (711هـ/1311م)، في ظل تدهور حالته الصحية وعدم قدرته على مواجهة هذه التحديات، مما اضطر أبو البقاء إلى التنازل عن الحكم ومع ذلك ورغم تنازله، قام المزدوي باقتحام القسبة وقتله قبل وصول ابن الحياني إلى العاصمة والذي دخلها في الثاني من رجب، وتمت مبايعته في المحمدية ببيعة عامة واستبد بالحكم،¹ لكن طموحات أبي بكر الحفصي لم تتوقف عند هذا الحد، إذ ظل يترقب الفرصة للاستيلاء على تونس وبعد سلسلة من الأحداث المتلاحقة، نجح في توحيد ما تبقى من الدولة الحفصية باستثناء المهديّة وذلك في سنة (718هـ/1318م).²

خلال هذه الفترة لم تسجل المصادر التاريخية أي تواصل بين بني حفص وبني مرين حتى سنة (730هـ/1333م) حينما سيطرت جيوش بني زيان على مدينة تونس في هذه اللحظة الحرجة، استنجد أبو بكر الحفصي ببني مرين لصد هذا الخطر، كما ذكرنا سالفا واستمرت العلاقات بين بني مرين وبني حفص ودية طالما كان عدوهم المشترك بني زيان، يشكل تهديدا على كليهما.

2. مظاهر الصراع الحفصي الزياني

من خلال ما تم طرحه في ورقات البحث السابقة يتضح أن الدولة الحفصية تمكنت منذ نشأتها من إخضاع المغرب الأقصى (الخاضع لقبائل بني مرين) نتيجة سيطرتها الاسمية لفترة زمنية معتبرة، ولكنه بعد نجاح دولة بني مرين في تعزيز قوتها وتثبيت نفوذها في المغرب الأقصى سارعت إلى إنهاء تبعيتها للحفصيين، وبدأت في تنظيم شؤون دولتها والتحضير لبسط سيطرتها على المناطق التي كانت تحت نفوذ الموحيدين في المغرب والأندلس.

يرجع الدافع الأساسي لتحركات بني مرين نحو السيطرة على أراضي الدولة الحفصية في المغرب الأدنى، إلى طموحهم في توحيد بلاد المغرب بأقاليمه الثلاثة ولم يتحقق هذا الهدف إلا خلال حكم السلطان أبي الحسن المريني وابنه أبي عنان، رغم المحاولات اللاحقة التي بذلها

¹ ينظر: ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية...، مصدر سابق، ص 159. - الزركشي، مصدر سابق، ص 61. ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 85. - روبر بارونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص 159 - 160.

² ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 87 - 88.

السلطين المرينيون لاستعادة حركة أسلافهم وفرض سيطرتهم المطلقة على المغرب، إلا أن تلك المحاولات باءت بالفشل.

2. 1 استيلاء أبو الحسن على إفريقية:

بعد نجاح أبو الحسن المريني في فرض سيطرته على المغرب الأوسط وجه أنظاره نحو المغرب الأدنى مستهدفا القضاء على حكم بني حفص،¹ وما زاد عزمه على المضي قدما في خطته وصول الحاجب السابق للسلطان الحفصي أبي بكر أبو محمد عبد الله بن تافراجين،² محرضا إياه على غزو إفريقية.³

2. 1. 1 حركة أبو الحسن المريني العسكرية:

بدأ أبو الحسن المريني الاستعداد لحملته العسكرية على إفريقية حيث أقام معسكره بالقرب من تلمسان ووزع العطايا وأزال العقبات التي قد تعرقل تحركه،⁴ وفي صفر (748هـ/1347م) توجه نحو إفريقية تاركا ابنه أبو عنان واليا على تلمسان وأحوازاها سنة (747هـ/1346م)،⁵ وفي طريقه إلى إفريقية التحق به عدد من قادة القبائل وولاة الأقاليم التابعة للدولة الحفصية مؤيدين له، ففي وهران استقبله وفد ضم ابن مكي والي قابس، وابن يملول والي توزر وابن العابد والي قفصة

¹ لسان الدين ابن الخطيب، كناسة الدكان...، مصدر سابق، ص 26.

² التحق بابن تافراجين إلى تلمسان خالد ابن حمزة بن عمر وأخذ بدوره يحرض أبو الحسن المريني على غزو إفريقية. ينظر: محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 379. Tome Premier, La berbérie orientale sous les hafside des origines a la fin du XV^e siècle, thèse principale pour le doctorat és lettres présentée à la faculté des lettres d'Alger, Librairie d'Amérique et d'Orient, Adrien- Maisonneuve, Paris, 1940, p145.

³ ينظر: لسان الدين ابن الخطيب، رقم الحل في نظم الدول، المطبعة العمومية، تونس، 1898، ص 93- الزركشي، مصدر سابق، ص 82- محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 379.

⁴ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 520.

⁵ تسمى هذا العام في المغرب الأدنى بعام المتفقين يرجع صاحب الفارسية أن سبب هذه التسمية يعود إلى أنه كان في البلاد متفقين من أقارب الخليفة وهم أبو عبد الله، وولده عبد الواحد والأمير أبو عبد الله ابن خالد وأولاده الثلاثة الكبار فخرج هؤلاء الستة بسيوفهم بعد وفاة أمير المؤمنين طالبيين ملكية البلاد لكن القائد نبيل أوقفهم وكان يريد قتلهم، لكن بعد استيلاء أبي الحسن المريني على تلمسان أفرج عنهم وصرفهم إلى المغرب. ينظر: ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية...، مصدر سابق، ص 160.

وابن أبي عنان والي الحامة،¹ وابن الخلف والي نفطة،² بينما تخلف والي طرابلس ابن ثابت لبعد المسافة، ولكن نُيَّب عنه في تقديم التأييد والمبايعة، كما انضم إليه في الزاب يوسف بن منصور بن مزني وشيوخ عرب الزاودة برئاسة يعقوب بن علي.³

استمر أبو الحسن المريني في زحفه نحو الأراضي الحفصية الغربية ولم يواجه مقاومة تذكر باستثناء والي بجاية أبو عبد الله محمد بن أبي زكريا الحفصي الذي سرعان ما خضع للسلطان المريني نظرا لعجزه عن مواجهة جيوشه، وأرسل أبو الحسن محمد بن أبي زكريا وإخوته إلى الجهة الغربية من البلاد، حيث أنزلهم في ندرومة وأقطع لهم ما يكفي من إيرادات جبايتها وكلف عماله بالإشراف على جباية الأموال لصالحه، وعند وصول أبو الحسن إلى قسنطينة استقبله بنو حمو بن عمر بن أبي الليل ومشايخ قومه من قبيلة الكعوب، الذين أبلغوه أن أبو حفص عمر قد غادر مدينة تونس بصحبة بعض أولاد المهلهل بعد سماعه بقدوم أبي الحسن طلب بنو حمو من السلطان المريني تعزيزهم بالقوات للحاق بأبي حفص وجماعته فلبى طلبهم.⁴

وتم إرسال الجيش الأول نحو الجنوب حيث ألقى القبض على أبو حفص عمر في منطقة تسمى المباركة قرب جبل السباع،⁵ أما الجيش الثاني فتوجه نحو تونس بقيادة يحيى بن سليمان

¹ الحامة: مدينة قديمة تبعد عن قابس نحو خمسة عشر ميلا، تسمت بالحامة نسبة إلى ينبوع الماء الساخن الذي ينبع بالقرب من المدينة على بعد ميل، مكونا جدول يخترق المدينة من وسطها في قنوات عريضة، تقوم فوقها بنايات شبه غرق مفصول بعضها عن بعض تحت مستوى الأرض. **ينظر:** حسن الوزان، ج 1، مصدر سابق، ص 92.

² نفطة: مدينة قريبة من صحراء ليبيا تقع في الطريق المؤدية من بلاد البرابرة إلى السودان، امتاز سكانها في القديم بالثراء لكنهم تعرضوا للإفلاس نتيجة عمليات النهب التي حدث إثر ثوراتهم مع حكام تونس. **ينظر:** مارمول كريخال، ج 3، مصدر سابق، ص 169.

³ **ينظر:** الزركشي، مصدر سابق، ص 82. - محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 380.

⁴ **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 521. - محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 381.

⁵ وقعت معركة بالموضع المعروف بالمباركة بين السلطان الحفصي أبو حفص عمر والجيش المريني الذي قاده حمو بن يحيى رفقة أولاد حمزة بن عمر أحد زعماء الكعوب، كانت الهزيمة من نصيب أبو حفص عمر وعندما حاول النجاة بنفسه رفقة مولاه ظافر السنان تقبض عليهما حمو بن يحيى وقتلها ذبحا، وقام بإرسال رأسهما لأبي الحسن وهو بباجة متجها نحو تونس، أما من فر من جماعته تم القبض عليهم بواسطة صاحب قابس الذي أرسلهم مكبلين بالأصفاد إلى السلطان المريني، كان من بين هذه الجماعة مشايخ الموحدين: أبو القاسم بن عتو، وصخر بن موسى، وعلي بن منصور. **ينظر:** ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية...، مصدر سابق، ص 170. - عبد الرحمان

العسكري زوج ابنة السلطان المريني الذي دخل المدينة دون أي مقاومة تذكر استقبله حينها الوجهاء والعلماء والأعيان بحفاوة بالغة،¹ من بين كبار العلماء الذين حضروا استقباله: ابن عبد السلام، ابن عرفة، ابن عبد الرفيق، ابن راشد القفصي وابن هارون.²

في يوم السبت عبأ السلطان أبو الحسن موكبه لدخول تونس حيث اصطف جنوده على الجانبين لمسافة أربعة أميال، فركب أبو الحسن موكبه وسط جموع جيوشه وكان يحيط به كل من عارف بن يحيى كبير السويد من يمينه، وأبو محمد عبد الله بن تافراجين، والأمير أبو عبد الله محمد بن أبي زكريا من يساره، ولقد كانت تلك المسيرة مشهودة إذ شارك فيها كبار أعيان بني مرين وعدد كبير من قادتهم واحتشدت الجموع، وبعد دخول أبو الحسن المريني تونس ترك عسكره بقيادة يحيى بن سليمان لحماية المدينة، ثم توجه إلى القيروان لزيارة الأضرحة والتبرك بها ثم ارتحل بعدها إلى سوسة والمهدية والمنستير،³ قبل أن يعود مجددا إلى العاصمة في هذه الأثناء بدأ بترتيب شؤون دولته التي امتدت آنذاك من مصراتة شرقا إلى السوس الأقصى غربا ومن رندة في الأندلس شمالا، وهكذا أصبح المغرب بأسره تحت حكمه.⁴

2. 1.1 نتائج الاستيلاء المريني:

لم يدم استيلاء السلطان أبو الحسن المريني على ملك بني حفص طويلا بسبب سياساته تجاه حلفائه وكبار رجال الدولة، الذين كانوا يتوقعون أن يكافئهم بمناصب رفيعة بعد أن دعموه في حملته، ولكن ما حدث كان عكس توقعاتهم فقد أرسل حفصي بجاية إلى ندرومة وحفصي قسنطينة إلى وجدة وعين صهره أبو العباس الفضل واليا على بونة (عنابة) فقط، مما اعتبره خرقا للوعد الذي قطعه له بمساعدته على استعادة ملك أبيه، هذا الوعد هو الدافع وراء انضمام أبي العباس

ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 521. -محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 381-382. - شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص 185.

¹ ينظر: الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 156-157. -محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 382. -شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص 185.

² الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 157.

³ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 522. -الزركشي، مصدر سابق، ص 83. -الناصر، مرجع سابق، ج 3، ص 157. -محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 384.

⁴ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 358. -الناصر، ج 3، مرجع سابق، ص 157-158.

إلى أبي الحسن في حملته للاستيلاء على المغرب الأدنى من بني حفص، كما عين ابن تافراجين وزيراً على تونس ولكن قام بتجريدته من النفوذ والسلطة التي كان يتمتع بها في عهد السلطان أبي بكر، ما أدى إلى تفاقم العداء بينه وبين السلطان.¹

أثناء استقبال أبي الحسن لسفيري قشتالة ومالي لتهنئته بانتصاراته وتوحيده لبلاد المغرب كانت الأعراب في إفريقية² والقيروان تخطط للانقلاب عليه،³ إذ قام الأعراب بالبحث عن شخصية يقودون من خلالها ثورتهم فاختروا عبد الواحد اللحياني الذي كان مرافقاً لأبي الحسن في تونس،⁴ فتظاهر اللحياني بقبول مخططاتهم لكنه كشفها للسلطان المريني، الذي أمر بدوره اعتقال زعماء الكعوبيين وباشراً بمهاجمة مواقعهم، ورغم اعتقال أبي الحسن لزعماء الكعوبيين لم تنطفئ عزيمة الأعراب بل جمعوا أنصارهم وتحالفوا مع أولاد مهلهل الذين لجأوا إلى بلاد الجريد بعد هزيمتهم في معركة المباركة، ولإضفاء شرعية على حركتهم بحثوا عن شخصية ذات نفوذ يقاتلون تحت لوائها فاختروا أحمد بن السلام بن عثمان بن الخياط،⁵ استعد حينها الأعراب بزعامة ابن أبي دبوس

¹ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص ص 521-522. -محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص ص، 387-388.

² كان الأعراب من بنو سليم وبعض هلال لهم امتيازات فلقد منحهم سلاطين بني حفص الولايات والإقطاعات، فلما تملك أبو الحسن المريني إفريقية نزع لهم هذه الامتيازات وعوضها بأعطيات فرضها لهم من الديوان مثل بقية الجنود، وأنقص عنهم الجبايات بعد أن شكت إليه الرعية من أولئك الأعراب، فقبض أيديهم عن ذلك كله وتقدم إلى الرعايا بمنعهم منها، وعليه فإن هذه الإجراءات الجديدة لم يرضى بها العربان فتهاجروا لغيره الوضع الجديد، فأخذوا يغيرون على ضواحي تونس، ويستولون على كل ما وقع في يدهم من الأنعام التي تخص مرين من دواب ومواشي أبي الحسن، ولم أحس زعماء الأعراب بالخوف بعثوا لأبي الحسن وفداً يهنئونه بعيد الفطر ملتجئين الأعداء لما فعله البعض منهم، فقبل اعتذارهم وأحسن لقائهم. ينظر: الزركشي، مصدر سابق، ص 83. -الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص ص 158-159.

³ لسان الدين ابن الخطيب، كناسة الدكان...، مصدر سابق، ص 26.

⁴ ثار عبد الواحد اللحياني على السلطان أبي بكر واستطاع الاستيلاء على تونس لفترة قصيرة، ثم فر بعدها إلى تلمسان ملتجئاً عند صاحبها أبو تاشفين، وأثناء حصار أبو الحسن المريني لتلمسان انضم عبد الواحد له وأصبح من خاصته وقدم بدمعه بعد ذلك إلى تونس. ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 523.

⁵ ينظر: الزركشي، مصدر سابق، ص 84. -يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 144. -الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص ص 158-159. -محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 392. -عبد العزيز فيلال، ج 1، مرجع سابق، ص 48.

لمواجهة أبي الحسن ووقعت بين الطرفين معركة حاسمة سنة (749هـ/1348م) بالقرب من القيروان عرفت بمعركة الثنية انتهت بهزيمة السلطان المريني¹ ونهب معسكره،² وانضم إلى الأعراب في هذه المعركة الأميران أبو ثابت وأبو السعيد.³

بعد هزيمة السلطان أبي الحسن المريني لجأ إلى القيروان مصحوباً بآبن تافراجين إلا أن هذا الأخير غدر به سريعاً، حيث تحالف مع الأعراب وتعهّد بتوليّه حجابة سلطانهم الجديد أبي دبوس، لتكون أولى مهامه السيطرة على قصبة تونس أين تحصن بها أفراد من بني مرين، كان من ضمنهم: أبناء أبي الحسن، زوجاته، وعيان قومه، أمناء بيت المال وبعض من جنده إضافة إلى أبي سالم إبراهيم الذي انضم إليهم بعد سماعه بهزيمة السلطان وانسحاب جنوده قبل وصولهم إلى القيروان.⁴

أمام الوضع المتأزم وصعوبة النجاة لجأ أبو الحسن إلى سياسة اللين والإغراء لكسب ولاء القبائل العربية عبر تقديم المال، ونجح في استمالة أولاد مهلهل بينما فشلت قبيلة أولاد أبي الليل في التوصل إلى اتفاق داخلي حول عرض السلطان، ومع ذلك تواصل أحد زعمائهم قتيبة بن حمزة مع أبي الحسن سرا، حيث تفاوض معه مقابل الطاعة وتعهّد بتحرير أخويه أحمد وخالد اللذين أسرهما الكعوب في بداية النزاع.⁵

¹ يعود سبب هزيمة أبو الحسن هو انسحاب قبيلة زنات، وتوجين ومغراوة من صفوف جيشه، وانضمامها إلى أعراب الكعوب، وحكيم، ومهلهل، فاختل بذلك نظام الجيش. **ينظر:** محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 395.

² **ينظر:** ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية...، مصدر سابق، 170. -ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 97.

³ **ينظر:** الزركشي، مصدر سابق، ص 84. -عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 524. -التنسي، مصدر سابق، ص 159-160. -المقري التلمساني، نفح الطيب...، مج 6، مصدر سابق، ص 214. -الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 160. -روبار برونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص 199.

⁴ **ينظر:** ابن الشماخ، مصدر سابق، 97. - محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 396.

⁵ **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 525. - محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 397-398.

عندما علم ابن تافراجين بهذه التطورات فر إلى الإسكندرية،¹ تاركا تونس في حالة فوضى ومع رحيل أتباعه من المدينة خشية من عودة أبي الحسن، فتحت أبواب القلعة لمن كان معتصما بها وسيطروا على المدينة بانتظار قدوم السلطان المريني الذي دخلها في عام (749هـ/1348م)،² وشرع في إصلاح ما أفسدته الحروب، ورغم محاولات أبي دبوس استعادة تونس لم تكلل جهوده بالنجاح، وبعد فترة وجيزة، ألقت قبائل أولاد أبي الليل القبض على أبي دبوس وسلمته لأبي الحسن تأكيدا على ولائهم ولتعزيز هذا التقارب زوج أبو الحسن ابنه أبو الفضل بابنة حمزة بن عمر بن أبي الليل، ومع خضوع قتيبة بن حمزة والأعراب لأمير عنابة الفضل رشحوه كأمرير على بني حفص مما أشعل مجددا التوترات العسكرية.³

أمام هذا سئم أبو الحسن من النزاعات وقرر العودة إلى المغرب لاستعادة ملكه من أقاربه الذين استبدوا بالحكم فعليا فغادر تونس في شوال (750هـ/1349م) تاركا ابنه أبو الفضل حاكما عليها، ورغم تمكن أبي الحسن من العودة إلى المغرب الأقصى إلا أنه وصل منها بعد أن فقد أسطوله في البحر، وعلى الرغم من بعض الانتصارات انهزم في النهاية أمام ابنه أبو عنان،⁴ الذي كان يطمح هو الآخر إلى توحيد المغرب الإسلامي.

وهكذا يكون قد انتهى عهد السلطان أبو الحسن المريني الذي تمكن من توسيع رقعة نفوذ بني مرين من مصراتة إلى السوس الأقصى، وإلى الجزيرة الخضراء ورندة من عدوة الأندلس،

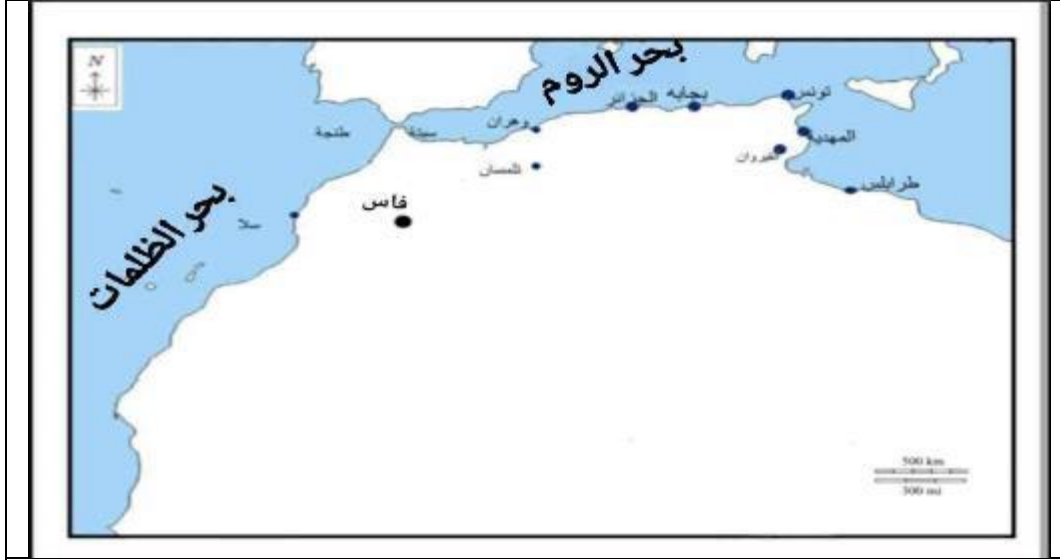
¹ يروي ابن بطوطة أنه اقتعد مع السلطان أبو الحسن المريني وسأله عن ابن تافراجين، فأجابته: "بما فعلت المغاربة معه. وإرادتهم قتله بالإسكندرية، وما لقي من أذيتهم، انتصارا منهم لمولانا أبي الحسن". **ينظر:** محمد بن عبد الله ابن بطوطة (ت 779هـ)، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تقد وتحر محمد عبد المنعم العريان، مر مصطفى القصاص، دار أحياء العلوم، ج 1، ط 1، بيروت، لبنان، 1987، ص 669.

² **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 426. -ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 97.

³ **ينظر:** الناصري، ج 3، مرجع السابق، ص 170. - روبر بارونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص 201.

⁴ **ينظر:** ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 98-99. -لسان الدين ابن الخطيب، كناسة الدكان...، مصدر سابق، ص 25. -الناصر، ج 3، مرجع السابق، ص 170.

ودخل المغرب بأسره تحت دائرة ملكه،¹ من ذلك قول صاحب المسند: "امتد ملكه زائداً على ملك من قبله من الجهات الأربع... ودخل في طاعته من الملك والممالك ما لم يتقدم لغيره فقد خطب له على منابر المغرب على الولاء وكثير من منابر قواعد الأندلس، وامتد ملكه في آخر المعمور بالمغرب إلى حدود برقة".² (الخريطة رقم: 04)



خريطة رقم: 04

أقصى اتساع للدولة المرينية خلال عهد أبو الحسن المريني

من إعداد الطالبة بتصرف عن ابن مرزوق التلمساني، مصدر سابق، ص 447.

استسلم أبو الفضل بسرعة للفضل الحفصي الذي أطلق سراحه ليعود إلى والده تحت حراسة الكعوب،³ وانتصب الفضل على عرش بني حفص متخذاً لقب المتوكل على الله وبدأ في ترتيب دولته، حيث عين أحمد بن محمد بن عتو حاجباً بالنيابة عن عمه أبي القاسم ومحمد ابن الشواش قائداً للجيش، إلا أن النزاعات بين الأخوين قتيبة وخالد أعادت الاضطرابات بالتزامن مع عودة ابن تافراجين وكبير أولاد أبي الليل عمر بن حمزة إلى إفريقية، سعى هذا الأخير للإصلاح بين الأخوين

¹ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، مصدر سابق، ج 7، ص 358. -العمرى، مصدر سابق، ج 4، ص ص 94-95. -روبار برونشفيك، مرجع سابق، ج 1، ص 193.

² ابن مرزوق التلمساني، مصدر سابق، ص 447.

³ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 529. -لسان الدين ابن الخطيب، كناسة الدكان...، مصدر سابق، ص 26. - الزركشي، مصدر سابق، ص ص 89-90.

ومع ذلك قرر زعماء أولاد أبي الليل إبعاد أبي القاسم بن عتو وتعيين ابن تافراجين مكانه،¹ إلا أن الفضل رفض ذلك بحزم قائلا: "لا سبيل إلى ذلك ، ولا يدخل لي بلدا"،² مما أدى إلى مقتل الفضل على يد أولاد أبي الليل، الذين سمحوا لابن تافراجين بالسيطرة على تونس في جمادي الأول عام (751هـ/1350م).³

تمكن ابن تافراجين من إقناع الأهالي والكعوب بمبايعة أبي إسحاق إبراهيم المستنصر بالله، الذي كان يبلغ من العمر ثلاثة عشر عاما وبدأ حاجبه بإدارة الحكم، حيث تلقى المبايعات من مختلف الجهات باستثناء ابن مكي الذي بدأ يحرض ضد السلطان الصغير، فاختار ابن مكي أبو زيد عبد الرحمان بن محمد بن أبي بكر الحفصي ليخوض حربه مع ابن تافراجين تحت اسمه وأخذ يشن الغارات على تونس، فقاد العليج ميمون جيشا لمواجهة ابن تافراجين ووقعت معركة هوارة في (752هـ/1351م)، حيث قتل قتيبة بن أبي الليل وعاولد أبو زيد الإغارة على إفريقية سنة (753هـ/1352م) بعد أن عين ابن مكي حاجبا له،⁴ وهكذا عادت الاضطرابات مجددا.

من خلال تتبع أحداث الدولة الحفصية بعد عودة ابن تافراجين، يتضح أن الصراع الداخلي كان بين الحجاب وليس بين السلطانين الحفصي الشرقي وقسنطينة.

¹ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 529-530. -الزركشي، مصدر سابق، ص 91. -روبار برونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص 201. -محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 413-414.

² ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 201.

³ أورد عبد الرحمان ابن خلدون وأيده ابن الشماخ أنه تم قتل الفضل بعد أن قبضوا عليه، بينما ابن القنفذ القسنطيني ذكر أن مقتله كان في ظروف غامضة، من ذلك قوله: "بويح له بعد وفاة أخيه الفضل -والله أعلم بكيفية ذلك"، أما حاجبه فلقد كان مصيره مثل سلطانه (القتل). ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 530. -ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 201. -ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية...، مصدر سابق، ص 173. -محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 415.

⁴ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر....، ج 6، مصدر سابق، ص 531-532. -الزركشي، مصدر سابق، ص 93. -ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 101-102. -روبار برونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص 207. - محمد محمد أحمد إسماعيل، مرجع سابق، ص 130-131.

2. 2 استيلاء أبو عنان على إفريقية:

أمام الأحداث الواقعة في الدولة الحفصية كان أبو عنان يرتب أمور دولته وبعد أن استتابت له الأوضاع وجه جيوشه نحو تلمسان وملكها، ومنها وجه أنظره نحو ملك بني حفص ليحقق الحلم الذي لطالما راود أسلافه.

2. 2. 1 إخضاع بجاية:

تحققت رغبة السلطان أبو عنان في توسيع نفوذه شرقا على حساب دولة بني حفص عندما قدم إليه الأمير أبو عبد الله بن أبي زكريا يحيى صاحب بجاية وهو في المدينة، ليهنئه بانتصاراته الأخيرة، (استيلائه على ملك تلمسان)¹، استقبل أبو عنان الأمير الحفصي استقبالا حافلا وخلال أحد لقاءاتهما اشتكى أبو عبد الله من رفض رعيته دفع الجباية ومن الفساد المتشفي، بالإضافة إلى النزاعات بين جنود الحامية في بجاية، هنا اقترح السلطان المريني عليه التنازل عن بجاية مقابل تعيينه واليا على مكناسة الزيتون، فوافق الأمير مكرها على هذا العرض وكتب بخط يده وثيقة التنازل، مما أتاح لعمال أبو عنان السيطرة على بجاية وتم إرسال وثيقة التنازل مع مولاه فارح والعامل الجديد على بجاية علي بن عمر الوطاسي من أولاد الوزير.²

في الواقع كان هدف أبو عبد الله من شكواه هو الحفاظ على سيطرته على بجاية وضواحيها عبر الحصول على دعم أبو عنان بالقوة والمال، إلا أن أبو عنان استغل ضعف موقف الأمير لصالحه وسارع لضم بجاية إلى ممتلكاته كتمهيد للاستيلاء على باقي أراضي بني حفص، لكن أهل بجاية رفضوا الخضوع للنظام الجديد مما أدى إلى اندلاع أعمال شغب واضطرابات عسكرية في المدينة، وكانت بجاية مسرحا لمواجهات دامية لقي فيها علي بن عمر الوطاسي مصرعه وقتل القاضي ابن فركان أحد الموالين للمرينيين، وعندما بلغ خبر الأحداث إلى السلطان أبو عنان وجه

¹ محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 420.

² ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 533. -الزركشي، مصدر سابق، ص

94. -محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص ص 421-422.

الالتهام إلى الأمير أبو عبد الله وأمر بسجنه، وفي عام (753هـ/1352م) أرسلت جماهير بجاية رأس مولى أبي عنان فارح إليه كعلامة على تمردهم.¹

لم تستقر الأوضاع في بجاية إلا بعد وصول الوالي الجديد حاجب أبي عنان محمد بن أبي عمر التميمي من أهل إفريقية أوائل عام (754هـ/1353م)،² بقدمه عوقب المتمردون وفر العديد منهم إلى تونس وبذلك أصبحت بجاية جزءا من دائرة نفوذ المرينيين بحلول عام (755هـ/1354م).³

2.2.2 الاستيلاء على قسنطينة:

بعد الحاق بجاية إلى ممتلكات بني مرين أصدر السلطان أبو عنان الأوامر إلى عامله محمد بن أبي عمر والمتمثلة في توجيه الجيوش نحو قسنطينة والاستيلاء على مواردها المالية، عندما وصلت هذه الأنباء إلى صاحب قسنطينة أطلق سراح الأمير الموسوس أبو عمر تاشفين من سجنه،⁴ مناديا به سلطانا على بني مرين وأعد له الجيش والمدد لمواجهة أخيه بعد عدة مواجهات بين الفريقين اضطر الأمير أبو زيد إلى تسليم الأمير تاشفين لأبي عمر، الذي أرسله بدوره إلى أبو عنان حيث تم حجره.⁵

استمر طموح أبو عنان في بسط نفوذه على بجاية وعقب وفاة عامله محمد بن أبي عمر تم تعيين عبد الله بن علي بن سعيد واليا جديدا عليها سنة (755هـ/1354م)، ليكمل مهمة توجيه القوات نحو قسنطينة، وفي ظل تصاعد الضغوط المرينية شعر الأمير أبو زيد بالخطر مما دفعه إلى مراسلة أخيه أبو العباس للتعاون لمواجهة التهديد المريني، وبالفعل نجح الأخوان في التصدي

¹ عبد الرحمان ابن خلدون، ج 6، العبر...، مصدر سابق، ص 533.

² **ينظر:** روبر بارونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص ص 207-208. -محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص ص 423-424.

³ **ينظر:** ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 102. -محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 424.

⁴ تم اعتقاله أيام واقعة بني مرين على ملك بني حفص وظل محتجزا بقسنطينة، كان معروف بالجنون عند قومه. **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر....، ج 6، مصدر سابق، ص 534. -محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 424.

⁵ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص ص 534-535.

لهذه الهجمات، بل وتمكن أبو العباس من تسجيل انتصار ساحق على جيوش بني مرين بقيادة موسى بن إبراهيم.¹

عندما استاء أبو عنان لهذه الهزيمة واعتبر أن استمرار الانتصارات الحفصية سيمنعه من تحقيق السيطرة على إفريقية التي لن تتم إلا بإخضاع جميع العمالات الحفصية وصولاً إلى العاصمة تونس، بناء على ذلك قرر أبو عنان قيادة حملة عسكرية بنفسه للقضاء على الحفصيين في قسنطينة، وبدأ بالتحضير لها لعدة أشهر وفي سنة (758هـ/1357م) انطلق باتجاه بجاية ومنها إلى قسنطينة حيث فرض عليها حصاراً شديداً، أين استسلم الأمير أبو العباس سريعاً بعدما شعر بالخيانة من أهله،² منح أبو عنان الأمان لأبو العباس واستضافه لفترة قصيرة قبل أن يرسله في أسطوله إلى سبتة حيث تم اعتقاله،³ يقول في ذلك المولى أبو يحيى زكريا:⁴

تفرقنا كمثـل بنات نعش ولاقينا من الأيام غيا
وما زالت بنا الأيام حتى تتابعنا متآلف الثريا

جاء هذا الاستيلاء نتيجة حتمية للصراعات الداخلية بين أمراء بني حفص فلم تكن هناك وحدة كافية لمواجهة الخطر المشترك بل انشغل كل أمير بمحاولة إقصاء نظيره، فبينما كانت قوات بني مرين تضرب قسنطينة، كان الأمير أبو زيد منشغلاً بمحاولة إزاحة عمه المستنصر عن حكم تونس بسبب سيطرة ابن تافراجين واستبداده بالسلطة لم يتمكن أبو زيد من تحقيق أي نجاح فعاد

¹ **ينظر:** روبر بارونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص 208. -محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص ص 425-426.

² لما نزل أبو عنان بجيوشه في السنة المذكورة محاصراً قسنطينة كان أبو العباس لا يفارق سور حضرته إلا وقت الوضوء، فقام أحد الرماة بترصد حركته ورماه بسهم "تخلل عرضاً في لوية عمامته تحت حلقة ودهشت الناس وسلمه الله"، ولقد ملأت جنود مرين الحضرة لكثرتها فتخوفت الأهالي من المصير المحتوم، وأخذت تتحيز إلى السلطان المريني متسللة من أجل حفظ أرواحهم. **ينظر:** الزركشي، مصدر سابق، ص 96.

³ **ينظر:** ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 103. -الزركشي، مصدر سابق، ص ص 96-97. -الناصر، ج 3، مرجع سابق، ص ص 201-202.

⁴ ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 103.

خائبا إلى العاصمة، أين وجد أخاه مسيطرا تماما بفضل دعم الرعية له نظرا لحكمته وانتصاراته المتكررة على بني مرين، أمام هذا الواقع لم يجد أبو زيد بدا سوى اللجوء إلى عنابة التي ظلت موالية له، ومن هناك أرسل إلى عمه يطلب العفو مقابل التنازل عن حكم عنابة،¹ وهذا ما أشار إليه الزركشي في قوله: "وتحول إلى الحضرة بمن بقي معه من خواصه فأوسعوا له المنازل واسنوا له الجرايات وأقام تحت نظرهم".²

2. 2. 3 استيلاء أبو عنان على مدينة تونس:

بعد استيلاء أبي عنان على قسنطينة،³ وصلتهبيعة صاحب بونة ونفطة وتوزر وقابس وغيرها، كما وفد إليه أولاد مهلهل أمراء بني كعب وأبي الليل يحرضونه على ضرب مدينة تونس فاستجاب لهم وتقبل بيعتهم، وعزم على ضم ملك المستنصر تحت نفوذه، واعتمدت خطته على استمالة ابن تافراجين، فبعث رسله له طالبا منه الدخول في طاعته وتقديم البيعة والتنازل على تونس، لكن طلبه هذا قوبل بالرفض.⁴

من خلال ما تم تقديمه سابقا نستنتج أن ابن تافراجين منذ بداية ظهوره على ساحة الأحداث في المغرب الأدنى كانت له الرغبة القصوى في ملك إفريقية، ولأنه لا ينحدر من أسرة بني حفص أخذ يرتب الأمور ويوجه سياسة الدولة بما يخدم مصالحه، وأصبح هو المتحكم الأول في مقاليد الحكم والأمر والناهي، ونجح في ذلك بعد أن أصبح من يتولى على العرش حكام ضعفاء وتدخلت قبائل الأعراب بصورة مباشرة في البيت الحفصي.

ولأن علاقته مع من كان على مرين قبل أبو عنان حسنة تمكن من خلق المشاحنات بين المغربيين الأدنى والأقصى بفضل حنكته ودرايته بمطامع أبو الحسن التوسعية، فحرضه على احتلال

¹ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 538. - الزركشي، مصدر سابق، ص 95-96. - محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 425-426.

² مصدر سابق، ص 96.

³ عقد أبي عنان على قسنطينة لمنصور بن الحاج خلوف الياباني من شيوخ مرين وأهل الشورى. ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون: العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 539. - الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 202.

⁴ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 539. - الزركشي، مصدر سابق، ص 97. - محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 427-428.

إفريقية، وبالفعل استجاب لمطالبه وتمكن من بسط سلطانه عليها ظنا منه أن الأمور ستصبح تحت يده بصورة رسمية، لكنه في المقابل قام سلطان مرين بتجريده من الامتيازات التي كان يحظى بها، لهذا تجنب التعامل مع أبو عنان برفض عرضه قياسا على تجربته الأولى مع أبيه واقتناعه بأن وجود بني مرين بإفريقية لا يخدم مصالحه، وأمام موقف ابن تافراجين السلبي الذي أبداه أمام أبو عنان إثر رفضه إعلان التبعية والطاعة فضلا عن رفضه التوسط له لإتمام المصاهرة بينه وبين ابنة أبي بكر الحفصي،¹ التي رفضت الخطبة قائلة: "بلغني أن فيه قلقا يمنع من عشرته"،² قرر أبو عنان توجيه جيوشه نحو تونس فقاد أسطوله محمد بن يوسف الأبطح مع بني الأحمر، وجعل على جيشه البري يحيى بن رحو بن تاشفين وبعض الوجوه من أولاد مهلهل سنة (758هـ/1357م).³

بعد وصول الأنباء إلى تونس سرح المستنصر ابن تافراجين مع أولاد الليل ومن انضم إليهم من الأعراب لملاقاة الجيوش البرية القادمة من قسنطينة،⁴ لكن الأسطول المريني كان أسبق وصولا إلى مدينة تونس، فاستولى عليها وخرج عنها ابن تافراجين فارا إلى المهديّة.⁵

¹ جدد أبو عنان طلب الزواج من بنت السلطان أبي بكر إذ أوفد مع الجيش -الذي سيستولى على تونس لاحقا- الفقيه المحدث ابن مرزوق التلمساني، فقام هذا الأخير بتجديد عرض الخطبة على والدتها، فقالت له: "خدا إن شاء الله يكون الحديث بمحضر القاضي وغيره"، والظاهر أن جواب الأم لم يكن إلا ملاحظة منها ووسيلة لتتمكن ابنتها من الإفلات والهرب وبالفعل في اليوم الموالي عندما رجع إليها ابن مرزوق فلم يجدها في المكان الذي وقف فيه عليها". ويذهب محمد لعروسي المطوي في تفسير ذلك الرفض قياسا على الأحداث لتلك الفترة إلى أنه موقفا سياسيا أملاه الشعور بالعزة ومخافة منها أن تصبح بمثابة جارية، أما أبو عنان فلقد وجد في هذا الرفض خدشا في هيئته وأمر بسجن ابن مرزوق لأنه لم يقبض على البنت (أراد الزواج منها غصبا). ينظر: ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية...، مصدر سابق، ص 174-175. -الزركشي، مصدر سابق، ص 87. -محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 430-431.

² ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية...، مصدر سابق، ص 174

³ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 539. -ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية...، مصدر سابق، ص 174.

⁴ ينظر: الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 202. - محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 429.

⁵ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 539.

استولت عساكر مرين على تونس في رمضان سنة (758هـ/1357م) ولحق ابن رحو بعسكره فدخل البلد وأمضى فيها أوامر سلطانه، وكتب له بالفتح وهو بقسنطينة "فعظم سروره"،¹ ثم أخذ يلاحق المستنصر² ومن معه من أولاد أبي الليل بدعوة من أولاد مهلهل تاركا على تونس ابن الأحمر وأهل الأسطول.³

باستيلاء أبو عنان على ملك بني زيان وبجاية وقسنطينة وتونس أصبح سلطانا على كل من المغرب الأقصى، الأوسط والأدنى،⁴ بذلك حقق الغاية التي كان يسمو إليها منذ أول يوم تربع فيه على عرش مرين.

2. 2. 4 نتائج الاستيلاء المريني:

على الرغم من أن أبو عنان تلقى المبايعات من مختلف أنحاء المغرب الأدنى أثناء وجوده في قسنطينة،⁵ بما في ذلك استقبال يعقوب بن علي أحد زعماء قبيلة رياح واستضافته البالغة لهم،⁶ إلا أن محاولاته لترسيخ نفوذه في مملكة بني حفص لم تكلل بالنجاح، إذ سرعان ما تمرد يعقوب بن علي عليه وأعلن العصيان نتيجة فرض أبي عنان عليهم الإتاوة ومطالبته بتقديم الرهائن كضمان للولاء والانقياد مما اضطرهم إلى اللجوء إلى منطقة الزاب، ولقد بذل أبو عنان جهودا لتتبعهم وتأديبهم غير أن تمركزهم في مناطق ذات تضاريس وعرة حال دون تحقيق هذا المقصد،⁷ فاكتفى بتدمير الحصون القائمة في منطقة الزاب ثم انسحب من تلك الجهات، وفي سياق ذلك بادر ابن

¹ الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 202.

² لما خرج المستنصر من حضرته توجه إلى الجريد وبقي ماکثا بها مع خالد بن حمزة. **ينظر:** الزركشي، مصدر سابق، ص 97.

³ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 540.

⁴ **ينظر:** لسان الدين ابن الخطيب، كناسة الدكان...، مصدر سابق، ص 28. -شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص 185.

⁵ وصلته بيعة يحي بن يملول، وبيعة علي بن خلف صاحب نفطة ووفادة ابن مكي مجددا الطاعة. **ينظر:** الزركشي، مصدر سابق، ص 97. - محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 431.

⁶ يقول الزركشي في ذلك: "وأضافهم بالبلد ضيافة خرجت عن الأمثال". **ينظر:** الزركشي، مصدر سابق، ص 97.

⁷ **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 540. -الزركشي، مصدر سابق، ص 98. -محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 432.

مزني والي بسكرة والزاب إلى إرسال موارد الجباية وتوفير المؤن اللازمة للعسكر، وهو ما قوبل من السلطان بتقدير بالغ تجلى في منحه الخلع له ولأفراد أسرته وذريته، فضلا عن إغداقه عليهم بالهبات قبل أن يتوجه مجددا إلى مدينة قسنطينة.¹

من قسنطينة عزم أبو عنان على تنظيم حملة عسكرية باتجاه تونس لمواجهة أبو إسحاق الحفصي وحلفائه من القبائل العربية، ومع ذلك فإن قوات بني مرين قد أرهقتها الحروب وتكدبت نفقات باهظة، فضلا عن طول المدة التي قضتها في حملات عسكرية متتابعة الأمر الذي ولد حالة من التذمر والخشية من مواجهة أخطار جديدة.²

نتيجة لذلك قرر قادة جيش مرين العودة إلى المغرب الأقصى وتواصلوا في هذا الشأن مع فارس بن ميمون الذي أبدى موافقته على العودة، بعد ذلك أبلغ شيوخ القبائل وقادة العسكر مقاتليهم بقرار العودة،³ وعند سماع هذه الأنباء من بقي في المعسكر نادى من بقي فيه: "المغرب؛ المغرب؛ فقال ما هذا؟ فأخبر فأمر بالرجوع إلى المغرب".⁴

بناء على هذه المعطيات كان قرار أبي عنان بالانسحاب إلى المغرب الأقصى اضطراريا خصوصا بعد أن علم بتدبير مؤامرات ضده من بعض رجاله بهدف اغتياله وتنصيب إدريس بن عثمان أبي العلاء مكانه، وعليه سارع أبو عنان إلى مغادرة المنطقة بعد أن بسط سيطرته على المغرب الأدنى لمدة سبعين يوما فقط، وما إن بلغ خبر انسحاب السلطان المريني إلى ابن تافراجين حتى عاد إلى تونس واستعاد السيطرة عليها وأخرج من تبقى من المرينيين.⁵

¹ الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 202.

² ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 540. -روبار برونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص 209. محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 432.

³ الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 203.

⁴ ينظر: الزركشي، مصدر سابق، ص 98. وفي رواية ابن قنفذ القسنطيني قيل: "المغرب الغرب". - الفارسية...، مصدر سابق، ص 175.

⁵ ينظر: محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 434. - محمد عيسى الحريري، مرجع سابق، ص 129.

في عام (758هـ/1357م) دخل أبو إسحاق إلى تونس وفي العام التالي استولى على المهديّة بعد تمرد أخيه أبو يحيى زكريا،¹ وفي عام (761هـ/1360م) توجه أبو إسحاق نحو بجاية مصطحبا معه ابنه أبو عبد الله، الذي قاد الجيش وانضم إليهم يعقوب بن علي واستطاعوا استعادة السيطرة على بجاية وإخراج المرينيين منها واستقروا فيها،² وفي نفس السنة قام أبو سالم المريني بالإفراج عن بعض الشخصيات الحفصية المحتجزة في المغرب الأقصى وأعادها إلى إفريقية ومنحها ولاية عدة مناطق، كان من بين هؤلاء أبو العباس الحفصي الذي أفرج عنه في سبّنة فتوجه إلى قسنطينة واستولى عليها.³

كما أرسل أبو عبد الله الحفصي والي بجاية السابق لاستعادة حكمه في المدينة إلا أنه لم يتمكن من السيطرة عليها إلا بعد عدة محاولات دامت خمس سنوات حتى نجح في ذلك عام (765هـ/1364م) بعد أن توحدت مملكة بني حفص تحت قيادة أبو العباس، الذي اتخذ لقب الخليفة المتوكل على الله وتمكن الحفصيون من استعادة أملاكهم من بني مرين.⁴

يبدو أن مشروع المرينيين لتوحيد المغرب الإسلامي تحت سلطة مركزية واحدة لم يكتب له النجاح رغم جهود السلطان أبو الحسن وابنه أبو عنان، ومن خلال تتبع الأحداث التاريخية يتضح أن رفض قبائل بني حفص ولا سيما القبائل العربية الخضوع لسيطرة بني مرين كان مرتبطا بسعيهم للحفاظ على استقلاليتهم التي تمتعت بها هذه القبائل في ظل حكم بني حفص.

بالمقابل سعت الدولة المرينية إلى تقويض هذا الاستقلال بفرض الإتاوات والمغارم التي كانت معتادة في مناطق نفوذه، ضف إلى ذلك أن العامل الجغرافي (بعد المسافة بين المغرب الأقصى والمغرب الأدنى) شكل عقبة أمام جهود توحيد البلاد، إلى جانب وجود بني زيان في المغرب الأوسط الذين تمكنوا بدورهم من التخلص من تبعية بني مرين خلال فترة حكم أبو الحسن

¹ الزركشي، مصدر سابق، ص 98.

² عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 542.

³ محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص ص 438 - 440

⁴ **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص ص 546 - 547. -روبار برونشفيك، ج

1، مرجع سابق، ص 209. - محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص ص 438 - 440. -محمد عيسى الحريري، مرجع سابق، ص 215.

وأبي عنان، وبعد وفاة هذا الأخير شهدت العلاقات المرينية الحفصية تحسنا كبيرا واستمرت هذه العلاقات الإيجابية خلال حكم السلطان أبي العباس، حيث لم تسجل المصادر التاريخية أي توتر ملحوظ بين الطرفين حتى عهد أبو فارس الحفصي، وعليه سنقوم في ورقات بحثنا القادمة معرفة أسباب تأزم العلاقات لاحقا وما إذا كانت هناك مواجهات عسكرية بين الطرفين، وما إذا كان للمرينيين أي فرصة للعودة إلى محاولة إخضاع بني حفص مجددا.

2. 3 عودة التبعية المرينية للدولة الحفصية:

في الفترة التي شهدت فيها دولة بني زيان في المغرب الأوسط تراجعاً عسكرياً وتقاقم الصراع الداخلي بين أفراد الأسرة الزيانية، وأصبحت دولة بني مرين في المغرب الأقصى مهددة بالضعف والإنقراض نتيجة تنصيب سلاطين ضعفاء على السلطة واستبداد الوزراء بالحكم، استعاد الحفصيون نفوذهم إذ تمكن السلطان الحفصي أبو العباس ومن بعده ابنه أبو فارس من بسط سيطرتهم على كامل المغرب الأدنى.¹

بعد أن استقر أبو فارس في حكمه ونجح في تهذيب أوضاع دولته قرر توسيع دائرة نفوذه باتجاه الغرب مقتدياً بسياسة أسلافه مثل أبو زكريا والمستنصر، وفي عام (827هـ/1425م) بدأ أبو فارس حملته نحو المغرب الأوسط وتمكن من إلحاقها إلى نطاق نفوذه،² وفكر في استغلال انتصاراته للتوجه نحو المغرب الأقصى بفضل قوة جيشه التي كانت تعد من أقوى الجيوش في المغرب الإسلامي آنذاك، فدب الرعب في نفوس أهل بني مرين إذ كان عبد الحق الصبي الصغير قد تربع على عرش الدولة المرينية تحت وصاية الوزير الوطاسي.³

عندما اقترب أبو فارس من العاصمة المرينية فاس ولم يفصل بينه وبينها سوى مسيرة يومين بعث إليه حاكمها رسالة يعترف فيها بسيادة بني حفص قائلا: "إن البلاد بلادكم، وإن السلطنة سلطنتكم، وجميع ما تأمروننا به نمتثل به"،⁴ فتقبل أبو فارس الرسالة وأرسل إلى صاحب

¹ شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص 186.

² ينظر: الزركشي، مصدر سابق، ص 125. - عبد الرحمان بن محمد الجيلالي، ج 2، مرجع سابق، ص 118.

³ روبر بارونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص ص 257-258.

⁴ الزركشي، مصدر سابق، ص 126.

فاس هدية عظيمة كما كافأه بهدية أكبر منها ثم عاد إلى تونس. وبعد عودته إلى حضرته أرسل عبد الله المريني وفدا إلى أبو فارس يحمل هدية ثمينة إعلانا للطاعة والولاء متعهدا بذكر اسم السلطان الحفصي على المنابر، كما لحقت به أيضا بيعة حاكم غرناطة،¹

وبذلك أصبح نفوذ بني حفص ممتدا على كامل الغرب الإسلامي واستمرت مرين في تبعيتها لبني حفص مثلما هي عليه دولة بني زيان في المغرب الأوسط ويروي الزركشي عن هذا الأمر قائلا: "في أوائل صفر عام 862 هـ، قدم لتونس الفقيه أحمد البنزرتي من مدينة فاس، وقدم معه رسولان: أحدهما من قبل صاحب فاس السلطان عبد الحق المريني، والآخر من قبل صاحب تلمسان أحمد بن حمو الزناتي".²

¹ ينظر: ابن الشماخ، مصدر سابق، ص ص 116-117. -الزركشي، مصدر سابق، ص 126. - محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 573. -عبد العزيز فيلال، ج 1، مرجع سابق، ص 70. - محمد عيسى الحريري، مرجع سابق، ص ص 215-216. -محمد محمد أحمد إسماعيل، مرجع سابق، ص 181. -حسن حسني عبد الوهاب، مرجع سابق، ص 120.

² الزركشي، مصدر سابق، ص 150.

خلاصة

يظهر تحليل الصراع بين دول المغرب الإسلامي خلال القرنين السابع والتاسع للهجرة أن الأهداف التوسعية كانت الدافع الرئيس وراء النزاعات، إذ سعت كل دولة إلى توسيع مجال نفوذها استنادا إلى أسس قبلية تدعي من خلالها أحقيتها في وراثة حكم الموحدين، أسهمت هذه التحولات في تكريس صراعات متكررة لم تحسم لصالح أي طرف بشكل نهائي.

عند دراسة هذا الصراع من الناحية التاريخية وأصول القوى المتنافسة يتضح أن بني حفص بحكم انتمائهم إلى قبائل مصمودة التي خرج منها مؤسس المذهب التومرتي -على أساسه قامت الدولة الموحدية- كانوا الأوفر حظا في إدعاء الشرعية السياسية وابقاءها، وقد أدركت الدولة المرينية هذه الحقيقة منذ نشأتها فسعت إلى استمالة وجهاء بني حفص وفقهائهم لتعزيز شرعيتها في مناطق نفوذ الموحدين بالمغرب الأقصى.

في المقابل مثلت الدولة المرينية القوة العسكرية الأبرز في إنهاء الحكم الموحيدي، حيث نجحت في فرض سيطرتها بفضل جيش منظم وإدارة مركزية متطورة متجاوزة نمطها البدوي السابق، على الجانب الآخر احتفظت الدولة الزيانية بعلاقات ولاء سابقة مع الموحدين، إلا أن موقعها الجغرافي في المغرب الأوسط جعلها محورا للصراع بين بني حفص وبني مرين حيث أدرك الطرفان أهمية السيطرة على هذه المنطقة كمدخل للتوسع.

ورغم تفوق بني حفص وبني مرين عسكريا لم يتمكنوا من القضاء على حكم بني زيان إذ ظلت الأخيرة قوة صامدة تتبنى سياسة توسعية قائمة على ضبط حدودها، وقمع اضطرابات القبائل المحلية مثل توجين ومغراوة وخوض مواجهات مستمرة مع القوى الإقليمية، وقد حققت الدولة الزيانية اختراقا مؤقتا بالسيطرة على تونس في عهد أبي تاشفين الأول، إلا أن التقدم المريني على تلمسان حال دون استمرار هذا التوسع.

في ظل هذا التوازن العسكري تعذر على أي من هذه الدول فرض هيمنة مطلقة على مجال المغرب الإسلامي، مما أدى إلى استمرار التنافس وتقاسم مناطق النفوذ في مشهد كرس هشاشة الاستقرار السياسي بالمنطقة.

الفصل الثالث: العمارة المدنية والدينية في المغرب الإسلامي (ق07-09هـ)

أولاً: العمارة الحفصية

1. الهياكل العمرانية المدنية
2. المؤسسات الدينية والثقافية

ثانياً: العمارة الزيانية

1. الهياكل العمرانية المدنية
2. المؤسسات الدينية والثقافية

ثالثاً: العمارة المرينية

1. الهياكل العمرانية المدنية
2. المؤسسات الدينية والثقافية

تمهيد:

تشكل العمارة الإسلامية في الدولة الحفصية والزيانية والمرينية تجسيدا متقنا للتفاعل الحضاري، الذي نتج عن تقاطع المؤثرات البيئية والاجتماعية والسياسية مع الإرث المعماري الموحد والأندلسي والتقاليد المحلية، وقد أثمر هذا التفاعل عن إبداع أنماط معمارية متفردة عكست الهوية الحضارية لتلك المدن الإسلامية، وتمثلت في منشآت متعددة الوظائف شملت القصور والمنازل ضمن الطراز السكني، والأسواق والقيساريات في الجانب التجاري، والمساجد والمدارس والزوايا في المجالين الديني والعلمي، وقد اتسمت هذه المنشآت بتخطيط محكم يهدف إلى تحقيق توازن بين تلبية الاحتياجات الحياتية للسكان وتوفير بيئة مستدامة قائمة على إدارة رشيدة للموارد الطبيعية.

يتناول هذا الفصل دراسة تاريخية وعمرانية معمقة لمختلف النماذج العمرانية التي تواجدت في دول المغرب الإسلامي خلال الفترة الممتدة بين القرنين السابع والتاسع للهجريين. وتهدف الدراسة إلى الإجابة عن تساؤلات جوهرية، من بينها: ما هي العوامل الرئيسية التي أثرت في صياغة العمارة المدنية والدينية في تلك الحقبة؟ وكيف يمكن تحديد السمات العامة التي ميزت التصميم العمراني في الدول الحفصية والزيانية والمرينية؟

أولاً: العمارة الحفصية (المدنية والدينية)

وجد بني حفص في مدن إفريقية العديد من المعالم العمرانية التي تعود إلى العهد الاغليبي¹، والصنهاجي والخرساني لكنهم لم يتأثروا بأنماطهم المعمارية، ولم ينساقوا حتى مع المؤثرات المعمارية المشرقية، بل تأثروا بالفن المغربي باعتبارهم ورثة الموحدين بإفريقية، والعمارة الأندلسية من خلال تتلمذهم على يد الفنانين الأندلسيين، الذين توافدوا على البلاط الحفصي بتونس² خاصة وبلاد إفريقية على العموم³.

ومما يجدر الإشارة له أن بني حفص لم يكونوا من عظام البناة أي أنهم لم يشيدوا الكثير من المباني على غرار الموحدين، بينما نجحوا في الإبقاء على مجموعات عمرانية ورثوها على سابقيهم⁴. من المنشآت المعمارية المدنية والدينية بإفريقية خلال العهد الحفصي -سواء شادوها أو رمموا ما ورثوه من سابقيهم- نذكر:

1. الهياكل العمرانية المدنية

أولى سلاطين بني حفص العناية بتشديد القصور لسكناهم التي وقف على تهيئتها فنانوا الأندلس، ونتيجة لاهتمامهم بالتجارة شادوا المنشآت التجارية ورمموا ما ورثوه من سابقيهم، في مختلف أنحاء البلاد الإفريقية وخاصة المدن الكبرى، من تلك البنى: الفنادق، الأسواق،

¹ البكري، ج 2، مصدر سابق، ص 215.

² شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص 198.

³ كانت مراكز توطن المهاجرين الأندلسيين في العاصمة تونس وبنزرت، نقلوا إلى البلاد الحفصية كل من: تقليدهم، صناعاتهم، حرفهم، معائشهم، وآليات البناء المتقنة. توافد على إفريقية الكثير من الأندلسيين نتيجة لسقوط بلدان عدوة الأندلس الواحدة تلو الأخرى، وكان من ضمنهم علماء ومفكرين ومهندسين وشجع سلاطين بني حفص على هذه الهجرات الأندلسية. ينظر: ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 8. -القلصادي، مصدر سابق، ص 26. - أحمد بن عامر، مرجع سابق، ص 74. -شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص 198. روبر بارونشفيك، ج 2، مرجع سابق، ص 296.

⁴ شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص 199.

والقيساريات،¹ فضلا عن تشييد المرافق لاحتياجات الأهالي كالحمامات للنظافة، والبيرماستات للتدوي، والمنازل للإسكان. وفيما يلي سيتم تقديم موجز عن البنى العمرانية المدنية للدولة الحفصية:

1. 1 العمارة السكنية الحفصية:

تعددت أنماط المساكن في العهد الحفصي فقد اشتملت على الخيام والأكواخ والمنازل الحضرية، حيث ارتبط كل نمط من هذه المساكن بظروف معينة ونمط حياة محدد.

1. 1. 1 المساكن (الدور أو المنازل):

من المساكن التي اتخذها أهالي الدولة الحفصية: الخيام التي كانت تستخدم أساسا من قبل السكان الذين يمتنون حياة التنقل والترحال، وقد صنعت من مواد محلية مثل الصوف الممزوج بالوبر، مما يمنحها مقاومة طبيعية للظروف الجوية، وقد اتخذت هذه الخيام شكلا مستطيلا يتيح سهولة النقل والتهئية،² وهو ما يعكس طبيعة الحياة التي تتطلب سرعة في الحركة والاستجابة للبيئة المتغيرة.

اشتهرت جزيرة جربة بنوع خاص من المساكن، تعرف بالاكواخ والتي كانت تبنى من أخصاص النخيل والزيتون والتفاح، تتواجد في المزارع الخاصة حيث يقوم كل مالك ببناء واحد أو أكثر لإيواء أسرته، كما يعد انتشار الأكواخ في جربة دليلا على ندرة المباني الدائمة مما يعكس طبيعة الحياة الزراعية والسكانية في الجزيرة،³ وعليه فإن القرية بإفريقية مختلفة عن المدينة في طبيعة عمرانها وبنيتها ووظائفها.⁴

أما في المناطق الحضرية مثل مدينة بجاية فقد تميزت المنازل بجودة بنائها، إذ كانت تشيد باستخدام تقنيات متقدمة ومواد بناء متينة، تناهز كوانينها في القسم المسكون من المدينة

¹ عبد الفتاح مقلد الغنيمي، ج 5، مرجع سابق، ص ص 97-99.

² روبر بارونشفيك، ج 2، مرجع سابق، ص 295.

³ ينظر: التجاني، مصدر سابق، ص ص 122-123. -القصادي، مصدر سابق، ص 122. -حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 93.

⁴ محمد حسن، المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي، جامعة تونس الأولى، أوربيس للطباعة، ج 1، تونس، 1999. ص 75.

ثمانية آلاف¹، وشيدت دور مدينة قسنطينة بالحجارة الضخمة المنحوتة، ولا يوجد بدار كبيرة أو صغيرة إلا و: "عتبة بابها حجر واحد، وكلك عضادات جميع الأبواب، وبناءها بالتراب وأرضها حجر صلد"²، ومدينة طرابلس "دورها جميلة بالنسبة لدور تونس"³، وهو نفس الأمر بالنسبة لمدينة المنستير⁴.

قدمت المصادر الجغرافية وصفا دقيقا لعمارة مدينة تونس السكانية خلال العهد الحفصي، حيث كانت المنازل مبنية من الحجارة المنحوتة بعناية أو الآجر ومزينة بفسيفساء وجص مصبوغ بألوان راقية مثل اللازورد⁵، لتعكس هذه الزخارف الفخامة والتطور التقني في البناء وتم استخدام الجبس المزخرف للتسقيف⁶، نتيجة لندرة الأخشاب التي حدت من استخدام الألواح الخشبية في البناء، مما أثر على جودة الأسقف والجسور التي كانت تبنى على عكس ما كان موجودا في فاس⁷.

تميزت المنازل الحضرية في العهد الحفصي بوجود طابق أرضي واحد في الغالب لكن ذلك لا يعني أنها ليست أنيقة⁸، ولقد امتازت بمداخل مهيبة تحتوي على بابين أحدهما يؤدي إلى الفناء الخارجي والآخر إلى المسكن الداخلي، وكان أكثر أبواب الديار التونسية معمول به عضائد

¹ ينظر: حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 50. -مارمول كريخال، ج 2، مصدر سابق، ص 377.

² الحميري، مصدر سابق، ص 481.

³ حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 77.

⁴ مارمول كريخال، ج 3، مصدر سابق، ص 67.

⁵ اللازورد: لون أزرق يستعمل كثيرا في دهن الزخارف الإسلامية، وبالأخص الخزف الفارسي. ينظر: عبد الرحيم غالب، موسوعة العمارة الإسلامية، جروس برس، ط 1، بيروت، لبنان، 1988، ص 330.

⁶ كانت تستعمل السقائف عادة عند التونسيين كقاعات للترفيه، واستقبال الضيوف. ينظر: روبر بارونشفيك، ج 2، مرجع سابق، ص 373.

⁷ ينظر: حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 77. -مارمول كريخال، ج 3، مصدر سابق، ص 22. -روبار برونشفيك، ج 2، مرجع سابق، ص 296.

⁸ حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 77.

من الرخام وعتبا -لوحان قائمان وثالث معترض عليهما مكان العتبة-،¹ فمن الأمثال الشائعة عندهم: "دور تونس أبوابها رخام وداخلها سخام"،² وأرضياتها معمولة من مربعات صغيرة مصنوعة من الإسمنت،³ أو مبلطة ببلاط لامع مما أضاف لمسة من الرقي، وكان السكان يتنافسون في تزيين مداخل بيوتهم بأفضل الزخارف لتعكس مكانتهم الاجتماعية ورفيهم الحضاري.⁴

ولقد كان مجموع ما بتونس وأرباضها من المنازل الآهلة بالسكان سنة (763هـ/1361م) سبعة آلاف مسكن (7000 مسكن)⁵، ولأن مدينة تونس قليلة المياه،⁶ تم صناعة السقوف على شكل متدرج - لحفظ الماء - أيام الأمطار وصرفها إلى الصحاريح،⁷ كما أكثروا من صناعة الصحاريح التي يجتمع فيها ماء المطر لهذا تضمنت كل دار صهريجاً.⁸

1. 1. 2 القصور:

ظهر مصطلح القصر (بمفهوم القرية الحصينة) بداية العصر الوسيط منذ العهد الأغلبي للدلالة على الحصون والأربطة والقلاع أو على مجموعة من منازل تتسع لعشر أسر، وعليه فهو عبارة عن مجال للسكن، أي قرية محصنة بجدار خارجي يحيط بمنازل متراسة قائمة حول باحة

¹ ينظر: البكري، مصدر سابق، ج 2، ص 215. - مؤلف مجهول، الاستبصار...، مصدر سابق، ص 120. - العبدري، مصدر سابق، ص 110. - ياقوت الحموي، ج 2، مصدر سابق، ص 61. - أحمد بن عامر، مرجع سابق، ص 31.

² البكري، ج 2، مصدر سابق، ص 215.

³ مارمول كربخال، ج 3، مصدر سابق، ص 23.

⁴ حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 77.

⁵ أصبح عددها وما يزيد عن عشرين ألف خلال عهد مارمول كربخال. ينظر: مارمول كربخال، ج 3، مصدر سابق، ص 20.

⁶ ينظر: عماد الدين أبو الفداء (ت732هـ)، تقويم البلدان، تص رينود، البارون ماك كوكين ديسلان، دار صادر، دار الطباعة السلطانية، بيروت، باريس، لبنان، فرنسا، 1860. ص 143. - مارمول كربخال، ج 3، مصدر سابق، ص 23.

⁷ مارمول كربخال، ج 3، مصدر سابق، ص 22.

⁸ ينظر: العبدري، مصدر سابق، ص 110. - ياقوت الحموي، مج 2، مصدر سابق، ص 59. - أحمد بن عامر، مرجع سابق، ص 75.

متوسطة لها مدخل وحيد ولدواعي أمنية انتشرت القصور في العديد من مجالات إفريقية، وأخذ مصطلح القصور في الانتشار ابتداء من القرن السادس للهجري، أي لما استقلت الاضطرابات السياسية والاجتماعية وتكثفت الأخطار الخارجية،¹ خاصة القسم الواقع في الساحل والجنوب الغربي، من ذلك منطقة أبة التي تضمنت تجمعات كبيرة من القصور تصل إلى مائة وخمسين قصرا، يوجد بالقرب منها قلعة سنان وصفها العمري بأنها: "قصر لا يعرف على وجه الأرض أحسن منه"،² تم بناؤها على قمة جبل منعزل عن بقية الجبال بارتفاع شاهق لا يمكن الوصول إليه إلا عبر سلم منحوت في الحجر يبلغ طوله مائة وتسعين درجة (190 درجة)، وتتضمن القلعة في أسفلها قصبة تحتوي على عين ماء.³

وفيما يتعلق بالأوصاف التي أوردها الرحالة والمؤرخ أبو محمد عبد الله التيجاني عن القصور الواقعة في شمال إفريقية كقصر زياد،⁴ الذي كان يقع بمحاذاة الساحل البحري يعرف في تلك الحقبة بدار مالك نظرا للعدد الكبير من العلماء الذين أقاموا فيه آنذاك، يتميز هذا القصر بتحسيناته القوية، كما أورد التيجاني وصفا لقصر أم الأصابع الذي يعد من المباني القديمة في المنطقة،⁵ أما قصر الجم فقد اعتبره العبدري "من عجائب البناء وأثار الاعتناء أمر يضيق عنه الوصف"،⁶ مما يشير إلى الإتقان الفائق في بنائه والعناية بتفاصيله إذ تم بنائه بحجارة بلغ طول الحجر منها خمس وعشرين شبرا (25 شبرا)، يرتفع عن الأرض بأربع وعشرين قامة،⁷ بالإضافة

¹ محمد حسن، ج 1، مرجع سابق، ص ص 65-67.

² العمري، ج 4، مصدر سابق، ص 66.

³ نفس المصدر، نفس الصفحة.

⁴ قصر زياد: قصر قديم المنشأ أسس في القرون الهجرية الأولى، بسبب تسرب أخبار توجب الخوف من البر والبحر، إذ كان الحراس يقضون معظم وقتهم في حراسة هذا القصر أو الحصن، وبذلك يكون قصر زياد هو مؤسسة عسكرية أكثر من كونها قرية صغيرة بها دور سكنية. ينظر: محمد حسن، الجغرافية التاريخية لإفريقية (من القرن الأول إلى القرن التاسع هجري، فصول في تاريخ المواقع والمسالك والمجالات)، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط 1، ليبيا، 2003، ص ص 145-147.

⁵ التيجاني، مصدر سابق، ص ص 66-67.

⁶ العبدري، مصدر سابق، ص 195.

⁷ مؤلف مجهول، الاستبصار...، مصدر سابق، ص 118.

إلى قصر المنارة الواقع غرب القيروان والذي بني من صخور منحوتة مشيد على شكل دائري متميز.¹

اتخذ سلاطين بني حفص سكنى القسبة لحصانتها،² وهي عبارة عن قصر عظيم غاية في التحصين، شيد إلى جانبه العديد من المرافق ما يجعل منه مدينة صغيرة، تقع في الجهة الغربية للمدينة،³ كان للسلطان أبو زكريا المساهمة في تجديد رسومها،⁴ وقام أيضا ببناء الكثير من القصور والبساتين،⁵ ولقد اتخذ الأمراء والأعيان سكنى القصور،⁶ والمنازل الفاخرة وتجهيزها بالأثاث الفاخر المتمثلة في كثرة الزرابي المفروشة على الأرض أو المعلقة على الحائط، والأدوات المنزلية اللازمة لحفظ المواد الغذائية وإعدادها،⁷ منها آنية الماء التي تصنع بتونس "من خزف تعرف بالريحية، شديدة البياض، في نهاية الرقة تكاد تشف، لا يعلم لها نظير في جميع الأقطار"،⁸ ومن الشخصيات المسرفة في اقتناء الأثاث، والتشييد التي أوردت ذكرها المصادر التاريخية: الوزير علي بن أحمد الغافقي المكنى بالخير.⁹

¹ العبدري، مصدر سابق، ص 195.

² العمري، ج 4، مصدر سابق، ص 66.

³ أحمد بن عامر، مرجع سابق، ص 129.

⁴ **ينظر:** ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية...، مصدر سابق، ص 109. - ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 57.

⁵ عبد الفتاح مقلد الغنيمي، ج 5، مرجع سابق، ص 97.

⁶ تواجد بتونس العديد من القصور يعود تاريخ بناءها إلى بني الأغلب. **ينظر:** البكري، ج 2، مصدر سابق، ص 214.

⁷ روبر بارونشفيك، ج 2، مرجع سابق، ص 296.

⁸ البكري، ج 2، مصدر سابق، ص 215.

⁹ **ينظر:** الزركشي، مصدر سابق، ص 42. - ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية...، مصدر سابق، ص 135. - ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 75. - محمد محمد إسماعيل، مصدر سابق، ص 409 - 410.

تم الاعتماد في بناء هذه العمائر على الحجر أو الآجر، والخشب المنقوش للتسقيف، والجص،¹ وتبليط الأرضية بالرخام،² خاصة وأن "دور تونس كلها رخام بديع"³ والمرمر، ولقد استعملوا هذا الأخير بإسهاب لتأطير أيضا المداخل وتبليط الصحن والأعمدة والأرضية،⁴ ويتوسط الصحن نافورات يتدفق منها الماء وسط حوض لتعرض مفاتنها على الأنظار وتبرد الهواء أيام الصيف.⁵

وإلى جانب ذلك أقاموا البساتين للأمرء والسلطين منذ بداية تثبيت ملكهم بمجالات إفريقية،⁶ مما يظهر تأثر بني حفص بتقنيات الفن المعماري الأندلسي،⁷ فقد كتب ابن سعيد في رسالة إلى إحدى الأعيان المهاجرين من إسبانيا فحواها إن السلطان الحالي أبو زكريا شيد المعالم وبني القصور واغترس الرياض والكروم على نمط أهل الأندلس،⁸ ويقول حسن الوزان عن تشييدات هذا السلطان: "وشيد بتونس في أعلى قسمها الغربي قلعة كبيرة وقصورا جميلة".⁹ من

¹ يعتبر الجص من أكثر المواد استخداما باعتبارها اقتصادية وخفيفة الوزن والاكثر سهولة في التنفيذ، بالإضافة إلى ذلك هذه المادة تتكيف مع العديد من أنواع الجدران والأعمدة والدعامات والأقبية، ولقد بدأ تطوير مهارة استعماله لجعله أكثر متانة وتم استخدامه على نطاق واسع خلال العهد الموحد. ينظر: Clémence- Marine Lacroix, L' empreint de l' Islam: L' architecture al- Andalus en Espagne reconquise, Architecture, aménagement de l' espace, dumas, 2020, p 54.

² ينظر: العمري، ج 4، مصدر سابق، ص 66. -القلشندي، ج 5، مصدر سابق، ص 102. -روبار برونشفيك، ج 2، مرجع سابق، ص 296.

³ ياقوت الحموي، ج 2، مصدر سابق، ص 61.

⁴ محمد محمد إسماعيل، مرجع سابق، ص ص 410 - 411.

⁵ روبار برونشفيك، ج 2، مرجع سابق، ص 296.

⁶ محمد حسن، المدينة...، ج 1، مرجع سابق، ص 73.

⁷ ينظر: ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 8. - العمري، ج 4، مصدر سابق، ص 66. - شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص 198. - أحمد بن عامر، مرجع سابق، ص 76. - روبار برونشفيك، ج 2، مرجع سابق، ص 296. - محمد حسن، ج 1، مرجع سابق، ص ص 73 - 153.

⁸ شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص 198.

⁹ حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 73.

أشهر القصور في العهد الحفصي: قصر رأس الطابية بالجهة الشمالية الغربية من المدينة الذي أتم بناءه المستنصر،¹ وقصر أبي فهر²، يقول حازم بن محمد حازم في وصفه:³

وانساب في قصر أبي فهر الذي لكل قصر في الجمال قد رزى
قصر تراءى بين بحر سليل وسجسج من الظلال قد ضفا
زيادة عن ذلك شيد السلاطين المتأخرين في القرن التاسع للهجري قصورا بديعة محفوفة
ببساتين، والرياض مثل: قصر باردو الذي بناه أبو فارس،⁴ وهو من القصور "الفخمة البهية
بمختلف النحوت والرسوم الحميلة".⁵

كما تضمنت مدينة بجاية قصورا جليلة يعود تشييدها إلى ملوك صنهاجة، تطل على البحر من خلال طاقات عالية مزودة بنوافذ حديدية وأبواب مزخرفة بنقوب فنية وأقواس منحنية، أما المجالس فكانت مزينة بزخارف دقيقة وشيدت جدرانها بالرخام الأبيض من الأعلى إلى الأسفل ونقشت بزخارف جميلة وزينت بالذهب واللآلئ وكتبت على جدرانها كتابات أنيقة وصورت فيها مشاهد فنية متقنة مما جعلها من أجمل القصور في طرازها المعماري وزخرفها الداخلي،⁶ ولقد ظل أحد هذا القصور الواقع بأعلى الجبل قائما حتى بعد سقوط الدولة الحفصية.⁷

1. 1. 3 الرياض والبساتين:

في ظل ازدهار الدولة الحفصية من خلال تأثرها بالحضارة الأندلسية والمغربية، ارتبطت البساتين والمنشآت المعمارية بتعزيز السلطة الحاكمة وإبراز القوة الاقتصادية والثقافية، من ذلك

¹ شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص 198.

² ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 68.

³ ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية...، مصدر سابق، ص 128.

⁴ ينظر: شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص 199. -إحالة العمري، ج 4، مصدر سابق، ص 71.

⁵ حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 77.

⁶ مؤلف مجهول، الاستبصار...، مصدر سابق، ص 130.

⁷ حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 50.

بستان أبي فهر الذي أمر بإنشائه المستنصر الحفصي سنة (650هـ/1253م)، يبعد عن المدينة نحو ثلاثة أميال،¹ إذ تعتبر فترة هذا السلطان أهم حقبة لتطور الرياض والبساتين.²

يقدم بستان أبي فهر صورة مفصلة عن التخطيط العمراني والزراعي المتقدم الذي ساد في تلك الحقبة، إذ تميز هذا البستان بتنوع النباتات والأشجار التي زرعت فيه، مما يشير إلى اهتمام خاص بالزراعة المتنوعة التي تشمل الفواكه والأشجار المثمرة وأصناف الأشجار البرية، والتي تعكس مزيجاً بين الجمال والفائدة الاقتصادية، فهذا التنوع الزراعي يشير إلى معرفة عميقة بتقنيات البستنة وتكييف الأنواع النباتية مع البيئة المحلية، كما استخدمت آليات حديثة في تلك الفترة لنقل المياه إلى البستان والتي تمثلت في قناة مائية قديمة (الحنايا)،³ تمتد بين زغوان وقرطاجنة،⁴ فرغ من بنائها سنة (665هـ/1267م).⁵

تجسد هذه القناة ابتكاراً هندسياً متميزاً في تصميم أنظمة نقل المياه، حيث تم توظيفها بطرق مبتكرة تشمل استخدام الأنفاق تحت الأرض والهياكل المعمارية الضخمة التي تدعم انتقال

¹ ينظر: الزركشي، مصدر سابق، ص 33. - العمري، ج 4، مصدر سابق، ص 67.

² ينظر: محمد حسن، المدينة...، ج 1، مرجع سابق، ص 73. - حسن حسني عبد الوهاب، مرجع سابق، ص 109.

³ هذه الحنايا رومانية المنشأ أخذ المستنصر على عاتقه ترميمها -تسمى حنايا أدريانوس- وقام بإجراء الماء المجلوب من عين زغوان على كل من البستان الذي اتخذته برأس الطابية، وبستان أبي فهر، ينظر: العمري، ج 4، مصدر سابق، ص 67. -شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص 199. -حسن حسني عبد الوهاب، مرجع سابق، ص 109. وقد قيل على ألسنة أحد مواطنيها أنه في عهد الرئيس المخلوع من شعبه زين العابدين بن علي قامت حرمه ليلي الطرابلسي، بتخريب جزء من معالم الحنايا للنبيش تحتها بغية العثور على كل ما هو ثمين.

⁴ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 404-405. -ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية...، مصدر سابق، ص 127. -ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 67. -العبدري، مصدر سابق، ص 110. -محمد حسن، المدينة...، ج 1، مرجع سابق، ص 75.

⁵ ينظر: ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية...، مصدر سابق، ص 127. كما أورد ابن الشماخ تاريخ: (666هـ/1268م). ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 67.

المياه عبر مسافات بعيدة،¹ يظهر هذا الفهم العميق للهندسة الهيدروليكية وكيفية توظيف الموارد الطبيعية لخدمة المشروعات الزراعية والعمرائية الكبرى، يقول فيها حازم بن محمد حازم:²

أجريت من عين ومن عين بها عينين قد عما البريا والبرى
وسقت في ملاوة ما ساق في دهر طويل كل جبار عتا
وكفرت طاعته لمؤمن طاعته لكافر فيما مضى

إلى جانب ذلك يعكس التصميم الفني للبستان اهتماما كبيرا بالجماليات، حيث احتوت حدائق البستان على أنواع متعددة من الزهور والأشجار المزهرة مثل الياسمين والنانج والريحان، مما أضفى على البستان طابعا جماليا خلابا،³ مما يبرز هذا الاهتمام بالجمال والترف في التخطيط الدقيق للمساحات الخضراء والمناظر الطبيعية، وهو ما يوضح تطور الذوق الفني خلال تلك الفترة.

لم يكن البستان مجرد مساحة زراعية أو مكان للترفيه بل شمل أيضا منشآت معمارية تعكس براعة في فن العمارة، من ذلك القبستان المشيدتان في طرفي الصهريج واحدة كبيرة وأخرى صغيرة، واللذان ارتفعتا على أعمدة المرمر وزينتا بالرخام المنقوش والخشب المنمق، تعكسان مستوى رفيعا من الإتقان الفني والهندسي، يبرز في هذه البنى استخدام مواد بناء متطورة وتوظيف تقنيات معمارية وزخرفية تعزز من القيمة الجمالية والوظيفية لهذه المنشآت،⁴ أما عن تحديد موقع رياض أبي فهر فلقد أكدت الدراسات التاريخية والحفريات الأثرية الأخيرة التي أجريت أن موقعه جنوب أريانة.⁵

¹ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، مصدر سابق، ج 6، ص 406.

² ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية...، مصدر سابق، ص 128.

³ **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 405. - العمري، ج 4، مصدر سابق، ص 72.

⁴ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 405.

⁵ **ينظر:** محمد حسن، المدينة...، ج 1، مرجع سابق، ص 75. - حسن حسني عبد الوهاب، مرجع سابق، ص 109.

قام الخليفة المستنصر أيضا بإنشاء هيكل معماري يعكس أوج التطور العمراني في تلك الحقبة عام (650هـ/1253م)، حيث أقدم على ربط قصوره الملكية ببساتين رأس الطابية من خلال جدارين متوازيين يمتدان على طول الطريق الذي بلغ عرضه نحو عشرة أذرع،¹ وقد صمم هذا الطريق بهدف توفير وسيلة آمنة لتتقل الحريم -حريم السلطان- بين القصور والبساتين بعيدا عن أعين العامة،² وذلك عبر بناء جدران بلغ ارتفاعها حوالي عشرة أذرع مما ضمن حماية بصرية كاملة خلال حركتهن.³

بعد سنة أمر المستنصر ببناء صرح معماري ضخم عرف لاحقا باسم قبة أسارك (للجلوس) وهي كلمة مصمودية (أمازيغية) تعني الساحة الواسعة،⁴ كان هذا الصرح إيوانا شاهقا تميز بتصميم معماري دقيق وتعددت مداخله، إذ احتوى الإيوان على ثلاثة أبواب رئيسية، صنعت من مصراعين خشبيين ضخمين لكل باب يتطلب فتحها وإغلاقها مجهود عدة رجال نظرا لحجمها، وكان الباب الرئيسي للإيوان يؤدي إلى سلسلة من السلالم العريضة المتجهة غربا، والتي كانت مصممة بطريقة تتيح الوصول إلى قمة الإيوان وبلغ عدد هذه الدرجات نحو خمسين درجة، أما الأبواب الجانبية فقد كانت تربط الإيوان بطريقين يؤديان إلى جدار القوراء الواسعة، وهي الساحة التي كانت تستخدم لاستقبال السلطان في المناسبات الرسمية واستعراض الجيوش والوفود وكذلك خلال الاحتفالات الدينية، يعكس هذا الصرح بشكل جلي عظمة الهندسة المعمارية في الدولة الحفصية ويجسد القوة والهيبة السلطانية التي كانت سائدة في تلك الفترة.⁵

¹ ينظر: عبد الرحمان، ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 405. -الزركشي، مصدر سابق، ص 34. -ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية...، مصدر سابق، ص 34. -ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 66. -ابن أبي دينار، مصدر سابق، ص 128. - أحمد بن عامر، مرجع سابق، ص 78.

² ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 405. -العمرى، ج 4، مصدر سابق، ص 72.

³ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 405.

⁴ ينظر: الزركشي، مصدر سابق، ص 34. -ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية...، مصدر سابق، ص 34. -ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 66.

⁵ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 405.

هذه المشاريع العمرانية والزراعية لم تكن فقط وسيلة للترف بل كانت أيضا وسيلة لعرض القوة والسلطة من خلال هذا التخطيط الحضري المتقن، إذ كان المستنصر الحفصي يسعى إلى ترك إرث معماري وحضاري يعكس مدى ازدهار دولته وتقدمها في مجالات الهندسة والزراعة والفنون، خاصة وأن هذا البستان اكتسب شهرة واسعة وترك أثرا دائما يعكس بناء مثل هذه الحدائق الفاخرة والمنشآت المعمارية المبهرة رؤية شاملة تسعى إلى التعزيز من مكانة الحكم الحفصي كقوة حضارية متقدمة بإفريقية خلال العصور الوسطى، وترسيخ الهيمنة السياسية من خلال استعراض القوة الفنية والهندسية، وفي الوقت نفسه تحسين نوعية الحياة للسكان وتقديم نموذج فريد في الابتكار والترف.

1. 2 المنشآت التجارية والفضاءات العامة: دراسة في البنى الاقتصادية والاجتماعية.

الأسواق، الفنادق، القيصارية، الفنادق، الحمامات، مارستانات:

تسعى هذه الدراسة إلى تقديم وصف عام لهذه المنشآت من منظور بنيوي ووظيفتها في تحقيق التوازن بين المتطلبات الاقتصادية والتنظيم الاجتماعي، مع التركيز على تأثير هذه البنى في تشكيل المشهد الحضري للدولة الحفصية.

1. 2. 1 الأسواق:

ساعد الموقع الجغرافي لإفريقية على تطور نشاطها الاقتصادي اعتمادا على الأسواق بشكل أساسي لكونها عنصرا حيويا ضمن البنية الحضرية للمدينة، ومركزا لتبادل وعرض السلع المحلية والمستوردة، تميزت الأسواق بتواجدها في مواقع مركزية وحيوية داخل المدينة، تتموضع في الغالب بمحاذاة المسجد الجامع ودار الإمارة كما تمتد في شوارع وأزقة المدن الرئيسية،¹ من ذلك أسواق مدينة القيروان، إذ اهتمدى عقبة ابن نافع الفهري عند تأسيسه لمدينة القيروان سنة (50هـ/651م)،² وتوزيعه الأراضي على جنده -لبناء مساكنهم- إلى ترك مساحة واسعة وسط

¹ ينظر: لحسن تاوشخت، عمران سجماسة، (دراسة تاريخية وأثرية)، مطبعة النجاح الجديدة، ج 2، ط 1، دار البيضاء، المغرب، 2008، ص 402. -روبار برونشفيك، ج 2، مرجع سابق، ص 373.

² حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ذ ص 87.

المدينة تمتد من المسجد الجامع إلى أطراف المعمورة، وسرعان ما أصبحت هذه الساحة سوق كبرى تضمنت مجموعة من المحلات لتصبح محورا رئيسيا للحركة الاقتصادية.¹

أما فيما يخص تونس عاصمة بني حفص فقد تميزت بتنوع أسواقها وتخصصها في مختلف الأنشطة التجارية، واعتمد تشكّلها المرفولوجي داخل المدينة وخارجها بتوزعها حسب نوعية السلع والمساحات المخصصة لكل بائع -حسب الخدمة والنشاط الذي تؤديه-،² فتمركزت وسط المدينة أين توجد ساحة كبيرة تحيط بها المتاجر،³ بمحادة جامع الزيتونة،⁴ تختص ببيع الحلي والشموع -تباع فيه ألواح الشموع لإنارة المسجد- والكتب والعطور،⁵ ويرجع بناء سوق العطارين إلى السلطان أبو زكريا يحي سنة (634هـ/1237م)،⁶ وقد بلغ عدد دكاكينه بالمدينة سبعمائة دكانا (700 دكانا) خلال عهد السلطان أبو يحيى أبي بكر،⁷ وتبقى حوانيت العطارين مفتوحة إلى ما بعد منتصف الليل.⁸

من الأسواق أيضا سوق الفلقة الذي هو بمحادة مدرسة المنتصرية،⁹ وسوق البلاغين جوفي جامع الزيتونة، ويوجد شماله سوق العزافين (وما زال المكان يحمل اسم زقاق العزافين)¹⁰

¹ كريم عاتي الخزاعي، أسواق بلاد المغرب (من القرن السادس للهجري حتى نهاية القرن التاسع الهجري)، الدار العربية للموسوعات، ص 21.

² أحمد بن عامر، مرجع سابق، ص 129.

³ مارمول كريخال، ج 3، مصدر سابق، ص 21.

⁴ **ينظر:** أحمد الطويلي، في الحضارة العربية التونسية، منشورات دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، تونس، ص 16. -شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص ص 195-196. -لحسن تاوشيت، ج 2، مرجع سابق، ص ص 402. -أحمد بن عامر، مرجع سابق، ص 98.

⁵ **ينظر:** حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 75. -شارل أندري جوليان، مرجع سابق، ج 2، ص ص 195-196. -لحسن تاوشيت، مرجع سابق، ج 2، ص ص 402. -أحمد بن عامر، مرجع سابق، ص 98.

⁶ **ينظر:** ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 56. -ابن أبي دينار، مصدر سابق، ص 127. -كريم عاتي الخزاعي، مرجع سابق، ص 30.

⁷ **ينظر:** ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 91. -محمد حسن، المدينة...، ج 2، مرجع سابق، ص 458.

⁸ مارمول كريخال، ج 3، مصدر سابق، ص 21.

⁹ الزركشي، مصدر سابق، ص 149.

¹⁰ محمد حسن، المدينة...، ج 2، مرجع سابق، ص 458.

وسوق الوراقين إذ أورد ابن الشماخ أن المولى أبو يحيى اللحياني قام ببيع الكتب التي جمعها السلطان أبو زكريا سلفا للوراقين وبيعت في دكاكينهم،¹ وسوق القماش الذي ضم عددا كبيرا من تجار الأقمشة وهؤلاء من أغنى سكان المدينة،² يصنع بهذه السوق القماش الإفريقي المكون من القطن والكتان معا، ومن الكتان وحده وهو أجمل كساوي المغرب.³

إلى جانب ذلك وجدت محلات السراجين والفرائين وبائعي الأشربة والعقاقير المحلاة بالسكر والفكاهيين واللبنانيين والخبازين وغيرها من الحرف التي تمارس في هذا السوق،⁴ أما دكاكين الحدادة والدباغة والخرازة المرتبطة بتجارة الدواب فيكون موضعها قرب أبواب المدينة،⁵ فسوق الحواتين مثلا يكون بمحاذاة باب بحر وسوق المراكض يقع في الربض الغربي بالمدينة.⁶

كما وقد فرضت الجباية على كل سوق من ذلك ما أورده الزركشي على قيمة جباية كل سوق خلال عهد السلطان أبو فارس. فيقول: "مجبى سوق الدهانة وكان قدره ثلاثة آلاف دينار ذهبا في كل عام... ومجبى سوق العطارين وقدره مائتان وخمسون دينار ذهبا... ومجبى سوق القشاشين وقدره مائة دينار ذهبا ومجبى سوق الصغارين وقدره خمسون دينار ذهبا، ومجبى سوق العزافين وقدره خمسون دينار ذهبا، ومجبى الصابون وقدره ستة آلاف دينار ذهبا".⁷

أما مدينة بجاية لم تقتصر محلاتها في عرض سلعها وتبادلها فقط بل كانت لها أدوار ثقافية واجتماعية مثل حانوت العلم الواقع بطرف حارة المقدسي، حتى أن ملكية هذه الدكاكين لم تكن حكرًا على تجار المدينة فقط بل امتلك التجار الأجانب حوانيت ومسكنًا، من ذلك التاجر

¹ ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 86.

² حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 75.

³ العمري، ج 4، مصدر سابق، ص 67.

⁴ ينظر: حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 75. -كريم عاتي الخزاعي، مرجع سابق، ص 30.

⁵ لحسن تاوشيت، ج 2، مرجع سابق، ص ص 402 - 403.

⁶ محمد حسن، المدينة...، ج 2، مرجع سابق، ص 458.

⁷ مصدر سابق، ص ص 116 - 117.

الأوربي لجنوي إبارنود درينزيو،¹ فضلا عن امتلاكها دور لصناعة المراكب والسفن،² وكانت الأسواق جميلة منسقة أحسن تنسيق،³ مثل ما هي عليه أسواق قسنطينة التي احتوت بدورها على العديد من الأسواق،⁴ تضمنت متاجر كثيرة نتيجة لتواجد العديد من التجار والصناع وارتباط تجارتها بمدن المغرب الأوسط والأقصى غربا وليبيا شرقا،⁵ يوجد من هذه الأسواق ما شيد خلال فترة الدراسة ومنها ما يعود تأسيسه إلى فترات زمنية سابقة قياسا على قول البكري: "وبها أسواق جامعة ومتاجر رابحة"،⁶ ومن المرجح أنها شيدت بالحجارة المنحوتة الضخمة على غرار جميع المنشآت القائمة بها.⁷

تظهر الأسواق في مدن إفريقية تباينا واضحا في خصائصها المعمارية وتنظيمها ففي تونس تم تشييد الأسواق على هيئة صفوف من الدكاكين المتقابلة، معتمدة في بنائها على الحجر والطوب ومزودة بأسقف خشبية،⁸ على الرغم من ندرته بتونس⁹ مما أضفى عليها طابعا متينا ومنظما.

أما في صفاقس فقد تميزت الأسواق بتصميمات هندسية أكثر تنوعا حيث أعطيت اهتماما خاصا للأبعاد الجمالية والوظيفية، فسوق الكامور مثلا بني على مستوى مرتفع عن سطح الأرض بنحو ثلاثين سنتيمترا تقريبا ويغطيه سقف مقوس يستند إلى دعائم خشبية، مما وفر حماية من العوامل الجوية، بينما في سوق الربع الذي يشبه سوق اليهود في القيروان نجد أن الأقواس المبنية

¹ فاطمة الزهراء شلية، "أسواق مدينة بجاية في العصر الوسيط، (460-915هـ / 1068. 1510م)"، المجلة

المغربية للمخطوطات، مج 16، ع 1، (من ص 67 إلى ص 98)، الجزائر، 2020، ص 81.

² مؤلف مجهول، الاستبصار...، مصدر سابق، ص 130.

³ حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 50.

⁴ الحميري، مصدر سابق، ص 480.

⁵ مارمول كربخال، ج 3، مصدر سابق، ص 11.

⁶ البكري، ج 2، مصدر سابق، ص 245.

⁷ مارمول كربخال، مصدر سابق، ج 3، ص 11.

⁸ ينظر: القلقشندي، ج 5، مصدر سابق، ص 102. - العمري، ج 4، مصدر سابق، ص 67. - شارل أندري

جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص 195. - كريم عاتي الخزعي، مرجع سابق، ص 77.

⁹ ينظر: حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 77. - مارمول كربخال، ج 3، مصدر سابق، ص 22.

بالحجارة والملاط تضفي على السوق طابعا تقليديا مميزا وتتكيف مع ضيق الممرات الداخلية،¹ ما يخلق جوا معماريا فريدا يناسب طبيعته الحضرية، لكن عدد دكاكينها ضئيل لتخوف التجار من الضرائب المفروضة عليهم من قبل سلاطين بني حفص والأعراب.²

أما اسواق المهدية فهي مبنية "بالصخر الجليل ولها بابان من الحديد لا خشب فيهما زنة كل واحد منهما ألف قنطارو طوله ثلاثين شبرا، وفيهما صور الحيوان وهي أعجب ما عمل في الإسلام"،³ وجميع منشآت المهدية مبنية بالحجارة صفحت أبوابها بالحديد،⁴ ومدينة سوسة بنيت أسواقها هي الأخرى بالصخر المحكم لكونها منشأة قديمة البناء،⁵ وجل مبانيها شيدت بالصخر المنحوت.⁶

هذه الاختلافات تعكس ليس فقط التنوع في البناء، بل أيضا التكيف واحتياجات الحياة اليومية وأنماط التجارة في كل مدينة خاصة وأن الأسواق في إفريقية خلال العهد الحفصي تشكلت كبنية أساسية داعمة للاقتصاد، ومراكزا للتفاعل الاجتماعي والثقافي (ملتقى العلماء)، مما أسهم في ترسيخ مكانة المدن الحفصية كمحاور تجارية حيوية على الصعيدين المحلي والدولي، كما كان له دور بارز في دفع عجلة التطور العمراني وتعزيز النشاط الحضري.

1. 2. 2 القيصاريات:

القيصرية مصطلح قديم مشتق من اسم قيصر أكبر ملوك عصره في أوروبا، كان الساحل الموريتاني بأكمله خاضعا في البداية لحكم الرومان ثم انتقل إلى سيطرة القوط وتضمنت كل مدينة من هذه المنطقة سوقا يطلق عليه هذا الاسم، وبما أن هذه الدار كانت تتعرض للسرقة أمر أحد القياصرة أن يكون بكل مدينة مكان محصن تحفظ فيه السلع التي يمكن أن تكون للامبراطور، مع

¹ كريم عاتي الخزاعي، مرجع سابق، ص ص 32- 77.

² حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 87.

³ مؤلف مجهول، الاستبصار...، مصدر سابق، ص 117.

⁴ التجاني، مصدر سابق، ص ص 322- 323.

⁵ البكري، ج 2، مصدر سابق، ص 208.

⁶ العبدري، مصدر سابق، ص 487.

سلع التجار حتى يهتم السكان الذين لهم مصلحة فيه اهتماما أكثر يمنع نهبه، ومن ثم جاء اسم قيصارية.¹

وعليه فالقيصارية هي عبارة عن سوق يمثل مركزا تجاريا ضخما مغلق بأروقة تحيط بصحن مكشوف يضم مجموعة من المباني المشتملة على: دكاكين، محلات تجارية، ورشات صناعية ومخازن، إضافة إلى مساكن تقع أحيانا فوق هذه المحلات وفنادق مخصصة لإقامة التجار الأجانب، وتباع في هذه القيصاريات أجود السلع.²

استمر وجود القيصارية خلال العهد الوسيط وأصبحت من أهم الأسواق التجارية والصناعية لكنها تختلف عن السوق العادي، حيث احتوت أروقتها على مجموعة من حوانيت حرفية ومعامل معدة للصناعة،³ ومن المؤكد أن مجالات إفريقية احتوت على قيصاريات على الرغم من أنه لم تعترضنا إشارات إلى وجودها بمدينة تونس، وهذا راجع لارتباطها بصورة مباشرة بالأسواق على الرغم من كون تنظيمهما مختلفا عن بعضهما، وفي المقابل أوردت المصادر وجود قيصارية بمدينة بجاية كان لأبو علي بن عزون السلمي بها حانوتا،⁴ يتاجر فيها الاقمشة والمنسوجات كالحرير والحنابل كما كان أهل بجاية لا يفتحون قيصريتهم إلا بعد العصر.⁵

¹ ينظر: حسن الوزان، ج 1، مصدر سابق، ص 241. -مارمول كريخال، ج 2، مصدر سابق، ص ص 149-150.

² ينظر: عبد الرحيم غالب، مرجع سابق، ص 320. -عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 135. روجيه لوطورنو، فاس قبل الحماية، تر محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ج 1، بيروت، لبنان، 1992، ص 549.

³ ينظر: كريم عاتي الخزاعي، مرجع سابق، ص 66. - إبراهيم فرغل محمد، "قيصاريات وأسواق مدينة تلمسان في العصر الزياني (633-962هـ/1235-1553م)"، مجلة كلية اللغة العربية بآيتاي البارود، ع 33، (من ص 10297 إلى ص 10343)، مصر، ص 10309.

⁴ ينظر: أبو العباس الغبريني (ت644هـ)، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة من بجاية، تح وتعد عادل نويهض، منشورات دار الأفاق الجديدة، ط 2، بيروت، لبنان، 1979، ص 250. -فاطمة الزهراء شلية، مرجع سابق، ص 82. -كريم عاتي الخزاعي، مرجع سابق، ص 66.

⁵ فاطمة الزهراء شلية، مرجع سابق، ص 82.

1. 2. 3 الفنادق:

ظهرت مؤسسة الفنادق كهيكل تجاري خاص بالأجانب بشكل واضح منذ الفترة الإسلامية الأولى لاسيما في المناطق التي تواجد فيها التجار، فوجدت مبان ذات أفنية صغيرة إحتوت على مخازن ودكاكين وغرف لمبيت التجار، وزاد الاهتمام بها بشكل كبير فيما بعد حتى أصبحت مؤسسة متعددة الخدمات تضم مجموعة من المنشآت إلى جانب مساكن لإقامة التجار وتخزين سلعهم، ولم تختلف الفنادق بإفريقية عما هو موجود بالمغرب، وعليه فإن تخطيط هذه المنشأة مشابه لما هو موجود بفاس وتلمسان لهذا سنكتفي في هذه الدراسة بذكر أسماء بعض الفنادق ومواقعها فقط.

كانت لسلطين بني حفص عناية خاصة بتشيد الفنادق،¹ إلى جانب ترميم وصيانة ما ورثوه من سابقهم لاسيما في عاصمتهم التي إحتوت على فنادق كثيرة،² تمركزت هذه الفنادق في الغالب خارج باب بحر على بعد نصف ميل من بحيرة قناة حلق الوادي، كان ينزل بها التجار الأجانب أمثال الجنوبيين والبنادقة والقطلونيين،³ وجميع منازلهم صغيرة لا يزيد عدده عن ثلاثمائة ريبض (300 ريبض).⁴

وهذه الفنادق عبارة عن رحاب مربعة الشكل محاطة كلها بجدران فيها العديد من المساكن، يتم الولوج إليها عن طريق باب واحد،⁵ كان بأحد هذه الفنادق "بقعة معدة للمعاصي مجباها للمخزن عشرة آلاف دينار ذهباً"،⁶ وهو فندق يباع فيه الخمر أمر السلطان أبو فارس سنة

¹ عبد الفتاح مقلد الغنيمي، ج 5، مرجع سابق، ص 99.

² ينظر: البكري، ج 2، مصدر سابق، ص 215. - عبد الفتاح مقلد الغنيمي، ج 5، مرجع سابق، ص 96.

³ ينظر: مارمول كربخال، ج 3، مصدر سابق، ص 20. - حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 74. - أحمد بن عامر، مرجع سابق، ص 29.

⁴ مارمول كربخال، ج 3، مصدر سابق، ص 20.

⁵ أحمد بن عامر، مرجع سابق، ص 129.

⁶ الزركشي، مصدر سابق، ص 116.

(801هـ/1400م) بتهديمه وشاد على موضعه زاوية للصلاة والعلم،¹ وهو نفس الأمر الذي قام به بمدينة قسنطينة -أي هدم الفندق وبنا في موضعه زاوية-² والواضح أن تهديم بئر المعاصي والبناء على مواضعها دورا للعبادة شائع لدى بني حفص، وذلك أن الأمير أبو زكريا أمر ببناء مدرسة بموضع الفندق الذي هو بإزاء دار غوري، وقام الداعي أحمد بن مرزوق المسيلي أيضا بعد أن تمت بيعته بتونس بقطع الخمر وهدم الفندق الذي تباع فيه وبني بموضعه جامعا للخطبة وصومعة.³

اتخذت الفنادق أسماء السلع التي تتخصص فيها لتشابهها مع الأسواق في تخصصاتها،⁴ من فنادق الحضرة: فندق الخضرة، فندق الملح وفندق البياض،⁵ ومن الفنادق أيضا فندق البقل، في جهة باب سويقة،⁶ ولقد أورد الزركشي ذكر موقعا لفندق بمدينة تونس موضعه فوق غابة شريك قبلى جبل زغوان،⁷ كما انتشرت الفنادق في المدن الساحلية بإفريقية مثل المهدية، بنزرت، سوسة والقيروان،⁸ وطرابلس التي ارتبطت تجارتها مع البنادقة، وبونة، وجربة، وصفاقس، وقابس،⁹ حيث يوجد في مرفأ فنادق كثيرة بالقرب من حي قشلة البحر، ووجدت عدة فنادق بمدينة بجاية لكثرة توافد التجار الأجانب إليها،¹⁰ فضلا عن كونها "ثانية تونس في الرتبة والحال، وجميع المعاملات والموجودات"،¹¹ لهذا شيدت فنادقها وجميع منشآتها تشييدا جيدا ووجدت الفنادق بسكيدة أيضا إذ

¹ ينظر: ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية...، مصدر سابق، ص 196. -ابن الشماع، مصدر سابق، ص 114.

- الزركشي، مصدر سابق، ص 116. - ابن أبي دينار، مصدر سابق، ص 146.

² ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية...، مصدر سابق، ص 196.

³ الزركشي، نفس المصدر، ص 47.

⁴ كريم عاتي الخزاعي، مرجع سابق، ص 60.

⁵ الزركشي، مصدر سابق، ص 116 - 117.

⁶ محمد بن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد في القديم والجديد، المطبعة التونسية، تونس، 1939، ص 70.

⁷ الزركشي، مصدر سابق، ص 136.

⁸ كريم عاتي الخزاعي، مرجع سابق، ص 60.

⁹ حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 98.

¹⁰ مارمول كربخال، ج 2، مصدر سابق، ص 377.

¹¹ العمري، ج 4، مصدر سابق، ص 68.

أمر أحد ولاية قسنطينة نظرا لمينائها الجيد ببناء منازل ومخازن للجنوبيين الذين كانوا يتوافدون على المدينة للإتجار.¹

1. 2. 4 الحمامات:

تعتبر الحمامات من المرافق الضرورية في معظم المراكز الحضرية لأنه يلبي حاجيات السكان -النظافة والطهارة- عرفت في الغالب بجمالية هندستها الزخرفية وحرص الحكام والسكان على حسن تدبير مجاريها المائية واتقان أحواضها وصهاريجها وتزيين مجالسها،² وهناك نوعان من الحمامات: حمامات طبيعية تحتوي على منابع المياه الساخنة مثل ما هي عليه حمامات قسنطينة،³ وميلة، والنوع الثاني من الحمامات إنشائية.⁴

تخطيط الحمامات بإفريقية مشابه لما هو موجود بباقي مدن المغرب لكن حمامات تونس تقتصر إلى المياه الجارية،⁵ لندرة المياه بالمدينة وكانت أقل حسنا وسعة من حمامات مدينة فاس، على الرغم من كونها أكثر تنسيقا وتسهيلا منها.⁶

ورث بني حفص عن سابقيهم في تونس ما يزيد عن خمسة عشر حماما (15 حماما)،⁷ فضلا عن ما شاده سلاطين الدولة الحفصية لتصبح على عهدهم أربعين حماما،⁸ منتشرة في دروب المدينة لأن أهالي العاصمة اهتموا كثيرا بالنظافة،⁹ وكانت مواقيت النساء في الغالب ليلا

¹ حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص ص 54-55.

² لحسن تاوשיخت، ج 2، مرجع سابق، ص 375.

³ بما أن قسنطينة أحد عواصم أمراء بني حفص، وامتلاكها العديد من الينابيع الساخنة، فمن الطبيعي أن يتم استغلالها من خلال توصيلها بالحمامات، ينظر: مارمول كربخال، ج 3، مصدر سابق، ص 11.

⁴ فتحة خروبي، "تطور عمارة الحمام عبر العصور، مجلة عصور"، ع 26-27، (من ص 160 إلى ص 178)، الجزائر، جويلية، ديسمبر 2015، ص 162.

⁵ مارمول كربخال، ج 3، مصدر سابق، ص 23.

⁶ حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 77.

⁷ البكري، ج 2، مصدر سابق، ص 215.

⁸ ابن أبي دينار، مصدر سابق، ص 10.

⁹ أحمد بن عامر، مرجع سابق، ص ص 75-76.

بناء على ما أشار إليه مارمول كربخال: "النساء إنما يذهبن إلى الحمام ليلاً"،¹ ويبدو أن الحمامات التونسية لم تتمتع بحضوة كبيرة لدى أهالي المدينة، على غرار سكان مدينة فاس،² من أشهر هاته الحمامات حمام الرميحي الذي كان موجوداً في القرن التاسع للهجري.³

تضمنت جميع مدن إفريقية على العديد من الحمامات،⁴ منها ما شاده سلاطين بني حفص ومنها ما يعود تواجدها إلى حقبة تاريخية سابقة، من ذلك مدينة القيروان التي امتلكت خلال القرن الخامس للهجري نحو ثمانين حماماً،⁵ ومدينة قابس،⁶ ومدينة المنستير التي كان بها العديد من الحمامات الكثيرة،⁷ كما كان لمدينة بجاية حمامات حسنة البناء.⁸

1. 2. 5 المارستانات:⁹

كانت الرعاية الطبية في مختلف العهود الإسلامية مصحوبة بإقامة مؤسسات لمداواة المرضى وعلاجهم، وفي فترة قوة الدولة صارت إفريقية بما في ذلك العاصمة تونس، بجاية،

¹ ج 3، مصدر سابق، ص 21.

² روبر برونشفيك، ج 2، مرجع سابق، ص 373.

³ **ينظر:** محمد بن الخوجة، مرجع سابق، ص 158. - أحمد بن عامر، مرجع سابق، ص 76.

⁴ العمري، ج 4، مصدر سابق، ص 68.

⁵ البكري، ج 2، مصدر سابق، ص 199.

⁶ الحميري، مصدر سابق، ص 450.

⁷ البكري، ج 2، مصدر سابق، ص 210.

⁸ **ينظر:** العمري، مصدر سابق، ج 4، ص 68. - حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 50.

⁹ **مارستانات: في الاصل البيمارستان:** البيمارستان بفتح الراء وسكون السين، كلمة فارسية مركبة من كلمتين (بیمار) بمعنى مريض أو عليل، و(ستان) مكان أو دار للمرضى، ثم اختصرت في الكلام فصارت مارستان، وهي أحد المنشآت العمرانية التي شيدها وطورها المسلمون، وأوقفوا عليها الأحباس الكثيرة وانتشرت في مختلف الاقطار العربية، يعود أول مارستان بإفريقية إلى عهد بنو الأغلب إلى جانب بيت الحكمة الذي أسسه الأمير إبراهيم بن أحمد الأغلبي. **ينظر:** عائشة رحيم، المؤسسات العلمية في العهد الحفصي - دراسة تاريخية -، إش عمر سي عبد القادر، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في تاريخ المغرب الإسلامي، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، (2017/2018)، ص ص 213 - 214.

وقسنطينة قبله للأطباء الأندلسيين والمغاربة من بينهم عدد كبير من رجال الحاشية، والجدير بالملاحظة أن أغلب هذه الفئة أجنب ولم يكن ضمنهم أي يهودي.¹

على الرغم من قلة تشييد هذه المنشأة بالدولة إلا أن سلاطينها أظهروا اهتماما لها، فازدهرت الأحياس على البيمارستانات حيث أقيم بتونس مارستان بناحية سيدي محرز، الذي لا يزال موجودا إلى يومنا هذا لكن معالمه تغيرت،² شيده السلطان أبو فارس عبد العزيز الحفصي استنادا إلى قول الزركشي: "أحداث المارستان بتونس للضعفاء والغرباء وذوي العاهات من المسلمين وأوقف على ذلك أوقاف كثيرة".³

من الأطباء الذين عملوا بهذا المارستان محمد الشريف الحسني الزكراوي المتوفى سنة (874هـ/1470م)،⁴ ونظرا لقلة الماء هناك أمر السلطان أبو عمر عثمان بناء سقاية بالقرب من المارستان،⁵ كما تواجد بمدينة بجاية مارستانات عدة وهي من الصروح المشيدة تشييدا جيدا كباقي العمائر الأخرى،⁶ ونفس الأمر بالنسبة لمارستانات مدينة تونس فمن المرجح أنه تم تشييدها كباقي المباني الأخرى بالحجر والآجر ومسقوفة بالأخشاب.⁷

2. المؤسسات الدينية والثقافية

عرفت إفريقية منذ مطلع القرن السابع للهجري نهضة ثقافية وأدبية كان لسلاطين بني حفص أدوار مهمة في انتعاشها، من خلال تقربهم للشعراء والأدباء وتقليد العلماء أسمى المراتب في الدولة، من ذلك السلطان أبو زكريا ابن أبي إسحاق الذي اشتغل بإبنتاء المدارس واقتناء الكتب

¹ روبر بارونشفيك، ج 2، مرجع سابق، ص 389.

² ينظر: أحمد عيسى بك، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، المطبعة الهاشمية، دمشق، سوريا، 1938، ص ص 279-280. -محمد محمد أحمد إسماعيل، مرجع سابق، ص ص 323-424.

³ مصدر سابق، ص 116.

⁴ أحمد عيسى بك، مرجع سابق، ص 280.

⁵ الزركشي، مصدر سابق، ص 136.

⁶ حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 50.

⁷ العمري، ج 4، مصدر سابق، ص 66.

وجمعها وضم أنواع العلوم لها بما في ذلك الوعظ،¹ والسلطان أبو فارس عبد العزيز كان "تقيا معتقدا للصالحين من أول نشأته، موقرا للعلماء مثبثا... ومن فضائله ملازمته لقراء العلم بمجلسه سفرا وحضرا".²

كما كان لمهجاري الأندلس دورا بارزا في النهضة الثقافية ومختلف المجالات الأخرى بما في ذلك العمران،³ فشيدت المدارس والمساجد والزوايا والكتاتيب، من ذلك وصف علي أبي الحسن القلصادي (ت891هـ) لمدينة تونس عاصمة بني حفص خلال القرن السابع للهجري: "وسوق العلم حينئذ نافقة، وينابيع العلو في اختلافها مغدقة، فلا عليك أن ترى مدرسة أو مسجدا إلا والعلم فيه يبت وينشر"،⁴ سوف نقتصر في هذه الدراسة على المساجد والمدارس بمدينة تونس خلال العهد الحفصي فقط، لأن المقام لا يتسع لذكر ما هو موجود في كامل مجالات نفوذ الدولة الحفصية:

1. المساجد:

كان لسلطين بني حفص عناية خاصة ببناء المساجد الجديدة واهتموا أيضا بترميم وتجديد المساجد التي تواجدت قبل عهدهم، وتزويدها باحتياجاتها حفاظا على القيمة الفنية والتاريخية والدينية لها وكان الاهتمام بتشيدتها منذ نشأة الدولة الحفصية،⁵ ولم يقتصر تشيد المساجد بالسلطين فحسب بل كان للوزراء والأمراء والعلماء عناية ببناؤها من ذلك ما ابنته الأميرة عطف زوجة أبو يحيى زكريا سنة (650هـ/1252م)،⁶ وهو جامع التوفيق ويطلق عليه أيضا جامع الهواء

¹ ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية...، مصدر سابق، ص 155.

² ابن الشماخ، مصدر سابق، ص ص 113-114.

³ ينظر: عبد الفتاح مقلد الغنيمي، ج 5، مرجع سبق، ص ص 97-99. -أحمد بن عامر، مرجع سابق، ص ص 65-66. -نور قطوش، "الوضع الثقافي للدولة الحفصية خلال القرن السابع للهجري"، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، مج 19، ع 1، (من ص 679 إلى ص 695)، الجزائر، جوان 2023، ص 685.

⁴ رحلة القلصادي، در وتح محمد أبو الألفان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1978، ص 115.

⁵ محمد محمد أحمد إسماعيل، مرجع سابق، ص ص 398-399.

⁶ ينظر: ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 63. -روبار برونشفيك، ج 2، مرجع سابق، ص 180.

لحسن مناخه وارتفاع موقعه،¹ وجامع باب بحر أسسه الداعي أحمد بن مرزوق المسيلي سنة (681هـ/1283م)،² وكان يسمى في بادئ الأمر **جامع الزيتونة** ثم غلب عليه اسم جامع باب بحر لوقوعه بمقربة من البحيرة المتصلة للبحر، وتجنباً أيضاً للخلط بينه وبين أقدم جامع بالمعمورة،³ ومن الجوامع الأخرى **جامع باب الجزيرة وجامع أبي محمد بربض باب سويقة**،⁴ والذي سعى في تأسيسه الشيخ أبو محمد عبد الله المرجاني بمشاركة بعض علماء عصره.⁵

وجامع سيدي يحي الذي أحدثه الشيخ يحي السليمانى سنة (810هـ/808م)، و**جامع التباين**⁶ من بناء السلطان أبو عمر عثمان الحفصي خلال القرن التاسع للهجري، أطلق عليه أيضاً اسمي: **جامع سيدي جعفر، وجامع النفاقة** لتعدد من الأئمة التي توالى عليه من آل بيت النفاقي⁷، و**جامع الجبيلة**،⁸ وغيرها من الجوامع الأخرى.

يعتبر **جامع الزيتونة والقصبة** من أبرز المعالم العمرانية الدينية البارزة بمدينة تونس تشهد على بصمة بني حفص، فالأول على الرغم من أن تأسيسه يعود إلى القرون الأولى من الفتح الاسلامي إلا أن الإضافات التي الحقها بني حفص ما زالت واضحة وظاهرة للعيان، أما المسجد الثاني فمن بناء أول مؤسس للدولة الحفصية، وفيما يلي سوف نقوم بدراسة هذين المعلمين تاريخياً وعمرانياً:

2. 1. 1 جامع الزيتونة:

أثبتت ثلة من المصادر الجغرافية على جمالية وروعة جامع الزيتونة من ذلك قول البكري: **"جامع مدينة الزيتونة رفيع البناء مطل على البحر ينظر الجالس فيه إلى جميع جواريه ويرقى**

¹ محمد بن الخوجة، مرجع سابق، ص 65-66.

² **ينظر:** الزركشي، مصدر سابق، ص 47. -ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 79.

³ محمد بن الخوجة، مرجع سابق، ص 68.

⁴ الزركشي، مصدر سابق، ص 151-152.

⁵ محمد بن الخوجة، مرجع سابق، ص 70.

⁶ الزركشي، مصدر سابق، ص 144.

⁷ محمد بن الخوجة، مرجع سابق، ص 76-77.

⁸ الزركشي، مصدر سابق، ص 140.

إلى الجامع من جهة الشرق إلى علي إثني عشرة درجة"،¹ والحميري: "جامعها مليح الصنعة حسن الوضع متقن البناء مطل على البحر"،² والعبدي يقول في وصفه: "من أحسن الجوامع وأتقنها وأكثرها إشرافاً"،³ وحسن الوزان: "ولمدينة تونس جامع كبير في غاية الجمال والسعة كثير المستخدمين عظيم الموارد"،⁴ ومارمول كربخال: "الجامع الأعظم بتونس مسجد واسع، له موارد وفيرة".⁵

يعتبر جامع الزيتونة من أقدم المباني التي تم تشييدها بمدينة تونس قيل أنه بني على يد والي إفريقية حسان بن النعمان سنة (79هـ/698م)، وأعاد ترميمه عبيد الله بن الحبحاب⁶ سنة (114هـ/752م)،⁷ وفي العهد الأغلبي أدخلت إليه زيادات وتحسينات فنية، من قباب مضلعة وأعمدة الرخام وزخارف وحجارتها منقوشة بكتابات -بالخط الكوفي- المرسومة حول قبة المحراب، كتب عليها اسم أمير المؤمنين المستعين بالله العباسي سنة (250هـ/868م).⁸

عند استفحال أمر الشيعة ببلاد المغرب عمدوا على طمس أي معالم وأثار لأهل السنة فقاموا بمحو النقوش المكتوبة حول سقوف صحن باب بهور،⁹ كان كل يوم جمعة تنشر على

¹ البكري، ج 2، مصدر سابق، ص 214-215.

² الحميري، مصدر سابق، ص 143.

³ العبدي، مصدر سابق، ص 110.

⁴ حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 76.

⁵ مارمول كربخال، ج 3، مصدر سابق، ص 22.

⁶ أورد كل من البكري، صاحب الاستبصار، الحميري وابن أبي دينار، أن عبد الله بن الحبحاب هو من شيد جامع الزيتونة. **ينظر:** البكري، المغرب في ذكر إفريقية والمغرب، (جزء من كتاب المسالك والممالك)، يطلب من مكتبة المثني، مطبعة الجزائر الحكومية، بغداد، العراق، الجزائر، 1857، ص 37. -مؤلف مجهول، الاستبصار،...، مصدر سابق، ص 120. - الحميري، مصدر سابق، 143. -ابن أبي دينار، مصدر سابق، ص 10.

⁷ **ينظر:** البكري، المغرب...، مصدر سابق، ص 37. -محمد بن الخوجة، صفحات من تاريخ تونس، تق وتح حمادي الساحلي و الجيلالي بن الحاج يحيى، دار الغرب الإسلامي، ط 1، بيروت، لبنان، 1986، ص 283.

⁸ **ينظر:** ابن أبي دينار، مصدر سابق، ص 10. -محمد بن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد...، مرجع سابق، ص 10. -حسن حسني عبد الوهاب، مرجع سابق، ص 113.

⁹ محمد بن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد...، مرجع سابق، ص 12.

صحته شقق الكتان المطبقة الموصولة حتى تضلل جميع الفضاء ذلك دأبهم حتى ينصرم فصل الصيف.¹

أما خلال العهد الحفصي فلقد توالى رعاية سلاطين الدولة بالمسجد الجامع فالمستصر بالله أضاف سنة (648هـ/1250م) الساقية بالجهة الشرقية وأجرى إليها الماء من عين زغوان،² كما قام ابنه يحيى الوائى أبو زكريا بالنظر في الابتاء وإضافة الزيادات لهذه المنشأة الدينية سنة (676هـ/1278م)، وجدد أبو يحيى زكريا اللحياني بعض سقوفها منها سقف رواق المحراب وجعل لببيت الصلاة عوارضا وأبوابا خشبية سنة (716هـ/1316م).³

بأشر أبو الحسن المريني خلال فترة إلحاقه إفريقية لنطاق ملكه بعملية نقل الماء للجامع من خلال "جمع الرصاص وعمله، عين الطيفور الذي ينتقل لوسط الجامع وموضع الميضاة"،⁴ لكنه توفي قبل أن يتم انجاز ذلك وقام أبو عمر عثمان ببناء ميضاة للوضوء في غاية الاتقان جوفي الجامع الأعظم بدرب عبد السلام، وأقام أبو فارس عبد العزيز خزانة بالجامع سنة (797هـ/1395م)،⁵ وعلى قياسه بنى أبو عمر عثمان سنة (841هـ/1437م) جناحا خاصا بالكتب المقصورة الشرقية من الجامع،⁶ تعرف بمقصورة سيدي محرز بن خلف ولقد تعرض الجامع لتحسينات عدة بعد العهد الحفصي.⁷ (ملحق رقم: 01)

¹ العبدري، مصدر سابق، ص 111.

² ينظر: ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية...، مصدر سابق، ص 117. -العبدري، مصدر سابق، 110. -ابن أبي دينار، مصدر سابق، ص 128. -محمد بن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد...، مرجع سابق، ص 13.

³ ينظر: الزركشي، مصدر سابق، ص 63. -ابن أبي دينار، مصدر سابق، ص 130. -محمد بن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد...، مرجع سابق، ص 13.

⁴ ابن مرزوق التلمساني، المسند...، مصدر سابق، ص 418.

⁵ ينظر: الزركشي، مصدر سابق، ص 116. -ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 126. -محمد بن الخوجة، صفحات...، مرجع سابق، ص 298. -محمد حسن، المدينة...، ج 3، مرجع سابق، ص 707.

⁶ ينظر: ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 124. -ابن أبي دينار، مصدر سابق، ص 150.

⁷ محمد بن الخوجة، صفحات...، مرجع سابق، ص 298.

2. 1. 2 جامع القصبة:

يقع في الجزء الجنوبي من القصبة الواقعة في الجانب الغربي من مدينة تونس، وقد تم الشروع في بنائه بأمر من مؤسس الدولة الحفصية أبو يحيى زكريا عام (629هـ/1232م)، وفي سنة (633هـ/1235م) فرغ من بنائه.¹

يتموضع المسجد داخل القصبة التي كانت تضم آنذاك مقر الحكم والقصر ومن هنا اكتسب اسمه جامع القصبة،² كما أطلق عليه أيضا اسم جامع الموحدين نسبة إلى أسلاف مؤسسه، وفي عام (650هـ/1253م) قام المستنصر بتركيب المقصورة بالجامع، وأضاف أبو عمر عثمان السبالة شرقي الصومعة سبيلا للعطشى.³

تم تصميم الجامع وفق الطراز الأندلسي من ذلك اتباع الطراز المتعارف عليه في بلاد المغرب والأندلس في تصميم صومعة المسجد،⁴ ذات الشكل المربع مع استخدام زخارف منحوتة مباشرة على الحجر بدلا من الأجر كما هو الحال في صومعة قصبة مراكش مع الفارق في الحجم،⁵ وتنقسم قاعة الصلاة الواسعة إلى سبع بلاطات وتوسع أساكيب، وهو ترتيب نادر في المساجد الإفريقية، تطل الجهتان الشمالية والشرقية على رواقين قائمين على أعمدة، يفتحان على صحنين وتغطي الجدران طبقة من الجص الأبيض وألواح حجرية وأخرى رخامية.⁶

¹ ينظر: ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية...، مصدر سابق، ص 109. - ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 56. - الزركشي، مصدر سابق، ص 26-27. - محمد أحمد إسماعيل، مرجع سابق، ص 399.

² ينظر: ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية...، مصدر سابق، ص 109. - ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 56.

³ ينظر: الزركشي، مصدر سابق، ص 136. - ابن أبي دينار، مصدر سابق، ص 128. - ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية...، مصدر سابق، ص 117.

⁴ ينظر: ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 56. - محمد بن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد...، مرجع سابق، ص 91.

⁵ شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص 198.

⁶ أوردت دراسة محمد أحمد إسماعيل أن رخامة المسجد جلبت من جامع منزل باشو بالوطن البيلي. ينظر: محمد أحمد إسماعيل، مرجع سابق، ص 399.

ولقد تعرض هذا المسجد إلى بعض أعمال الترميم خلال العهد العثماني، وفي سنة 1962م أجري عليه إصلاح شامل لما أدى إلى فقدان أصالته المعمارية الأولى. (ملحق رقم: 02)

2. 2 المدارس:

ظهرت المدارس كمنشآت تعليمية مستحدثة بالمشرق الإسلامي خلال القرن الخامس للهجري الحادي عشر ميلادي، نتيجة للصراعات المذهبية ذات الأبعاد السياسية والاجتماعية لهذا أخذت المدارس على عاتقها نصره المذاهب السنية أمام الفرق الدينية المختلفة ولاسيما الشيعية مما خلق جو من التنافس العلمي،¹ وتعد مدرسة البيهيفية المتواجدة بمدينة نيسابور أولى المدارس،² لكن الدراسات التاريخية أجزمت بأن مدرسة بغداد النظامية هي أولى المدارس الفعلية التي تأسست ببلاد المشرق على يد الوزير السلجوقي نظام الملك.³

أخذت المدارس في الانتشار تدريجيا وصولا إلى بلاد المغرب الإسلامي في القرن السابع للهجري،⁴ وتعتبر مدرسة الشماخين التي شادها السلطان الحفصي أبو زكريا يحيى سنة (633هـ/1235م) أول مدرسة نظامية ببلاد المغرب الإسلامي،⁵ كان الهدف من تشييدها الحفاظ على المذهب الموحي وترسيخه من خلال تكوين قاعدة مذهبية بإفريقية بعد أن تم التخلي عنه بالمغرب الأقصى، غير أن تثبيت المذهب المالكي ووقفه في وجه المذاهب الأخرى التي سعت إلى بسط نفوذها في بلاد المغرب بفضل جهود علماء المالكية في القيروان، أسهم في جعل هذه المدارس مراكز لتدريس المذهب المالكي وترسيخه.⁶

¹ ينظر: عبد الرحيم غالب، مرجع سابق، ص 358. -عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 141. -محمد حسن، المدينة...، ج 3، مرجع سابق، ص 707. -بوبة مجاني، "المدارس الحفصية: نظامها ومواردها"، مجلة العلوم الإنسانية، ع 12، (من ص 157 إلى 164)، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 1999، ص 158.

² عائشة رحيم، مرجع سابق، ص 104.

³ ينظر: عبد الرحيم غالب، مرجع سابق، ص 358. -محمد خوجة، تاريخ معالم التوحيد...، مرجع سابق، ص 171. - محمد حسن، المدينة...، ج 3، مرجع سابق، ص 707.

⁴ ينظر: عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 141. -محمد حسن، المدينة...، ج 3، مرجع سابق، ص 707.

⁵ ينظر: ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 56. -ابن أبي دينار، مصدر سابق، ص 127.

⁶ بوبة مجاني، مرجع سابق، ص 159.

أهم ما يميز مدرسة الشماعين من الناحية المعمارية مدرجها العالي الذي يصعد عن طريقه إلى المدخل، واحتواؤها على طابقين ولها عدة بنايات وأروقة وغرف قدر عددها بنحو ستة عشر غرفة،¹ أما فيما يخص التخطيط المعماري العام للمدارس في بلاد المغرب فقد كان يتسم بوجود صحن مكشوف تحيط به أربع حجرات متقابلة، والأركان الواقعة بين أضلاع هذا الشكل كانت تحتوي على المدخل، وفيها سلم يؤدي إلى الطابق العلوي حيث توجد مساكن الطلاب والأساتذة، عادة ما تكون هذه المدارس مكونة من طابقين، حيث يضم الطابق الأول غرفا متعددة للطلاب وبعض الغرف الأخرى المخصصة لمهام مختلفة، بالإضافة إلى قاعة كبيرة مخصصة لإعطاء الدروس أما الطابق العلوي فيستخدم غالبا لإقامة الطلاب،² وتطل نوافذه على الصحن الذي يتوسطه على الأرجح نافورة مثل ما هي عليه مدارس تلمسان وفاس.

من أشهر المدارس التي شيدت بتونس خلال العهد الحفصي: المدرسة التوفيقية، تم تشييدها من قبل الأميرة عطف زوجة السلطان أبو زكريا سنة (650هـ/1252م)،³ موضعها مصاقبا لزاوية الشيخ أبي القاسم الزليجي، طمست هذه المدرسة نهائيا ولم يبق منها أية أثر،⁴ والمدرسة المعرضية تأسست في حدود سنة (679هـ/1280م)⁵ على يد أبو زكريا يحيى ابن أبي إسحاق إبراهيم،⁶ ولقد كانت هذه المدرسة نموذجا واضحا لمدارس تونس الحفصية سواء في نظامها التعليمي (كانت مدة الدراسة خمس سنوات في الغالب)،⁷ أو تخطيطها المعماري الذي امتاز بالتأنق وكثرة استعمال الرخام والزخرفة، فضلا عن امتلاكها مسجدا للصلاة ومكان لإقامة الطلبة، أوقف

¹ عائشة رحيم، مرجع سابق، ص 111.

² لحسن تاوشخت، ج 2، مرجع سابق، ص 371.

³ ينظر: ابن أبي دينار، مصدر سابق، ص ص 127-128. -روبار برونشفيك، ج 2، مرجع سابق، ص 180. - محمد خوجة، تاريخ معالم التوحيد....، مصدر سابق، ص 173.

⁴ ينظر: إحالة ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 63.

⁵ روبار برونشفيك، ج 2، مرجع سابق، ص 377.

⁶ الزركشي، مصدر سابق، ص 51.

⁷ روبار برونشفيك، ج 2، نفس المرجع، ص 378.

عليها السلطان الأحباس ولما توفي أكمل ابنه أبو البقاء خالد غرض أبيه ورتب لها الأنفاق،¹ والجدير بالاشارة أن هذه المدرسة اندثرت نهائيا وشيد في موضعها المدرسة الخلدونية.²

من المدارس التونسية أيضا: المدرسة العصفورية، يعود تأسيسها إلى القرن السابع للهجري الثالث عشر ميلادي، أرجع محمد بن خوجة تأسيسها إلى الشيخ أبو علي بن موسى بن عصفور، ومدرسة سيدي يحيي يعود تأسيسها إلى سنة (747هـ/1347م) على يد الشيخ يحيي سليمان،³ ومدرسة سوق الفلقة أخذت هذا الاسم نسبة إلى وقوعها بالقرب من سوق الفلقة،⁴ ويطلق عليها أيضا اسم المدرسة المنتصرية نسبة لمؤسسها إذ شرع في بناءها أبو عبد الله محمد المنتصر،⁵ وأكمل بنائه أخاه أبو عمر عثمان سنة (841هـ/1437م)، أقام فيها القلصادي لمدة تتيف عن سنة، لا زالت هذه المدرسة قائمة إلى يومنا هذا بنهج الوصفان قرب سوق النحاسين، أكثر ما يميزها مدخل بابها الذي هو على شكل إيوان.⁶

والمدرسة الواقعة بدار صولة والمدرسة الجديدة الواقعة قرب دار سيدي محرز التي تأسست سنة (844هـ/1441م) على يد السلطان أبو عمر عثمان،⁷ وقد خصصت هذه المنشأة لاحتضان مرافق متعددة شملت فضاء لإقامة الشعائر الدينية: قاعة لتدريس العلوم الشرعية، بالإضافة إلى رباط أعد لإيواء الطلبة، كما أوقف عليها أوقافا مستدامة لضمان تلبية حاجات المقيمين فيها لا سيما من الغرباء، وألحق بها سماطا يوميا لتوزيع الصدقات على المحتاجين، إلى جانب تجهيزها بمرفق دائم لسقي الماء لفائدة العموم.⁸

¹ ينظر: ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية...، مصدر سابق، ص ص 155-156. -عاشة رحيم، مرجع سابق، ص 114.

² ينظر: إحالة، الزركشي، مصدر سابق، ص 51.

³ محمد خوجة، تاريخ معالم التوحيد...، مرجع سابق، ص 173.

⁴ ابن أبي دينار، مصدر سابق، ص 126.

⁵ ينظر: الزركشي، مصدر سابق، ص ص 136-137. -ابن أبي دينار، مصدر سابق، ص 126. -ابن الشماع، مصدر سابق، ص 120. -محمد خوجة، تاريخ معالم التوحيد...، مرجع سابق، ص 173.

⁶ القلصادي، مصدر سابق، ص ص 115-119.

⁷ ينظر: الزركشي، مصدر سابق، ص 139. -ابن أبي دينار، مصدر سابق، ص 127.

⁸ ابن الشماع، مصدر سابق، ص 122.

ومدرسة ابن تافراجين، ومدرسة عنق الجمل وأطلق عليها أيضا المدرسة العنقية أسستها الأميرة أمة الوحيد أخت أبي بكر، والمدرسة القائمة شرق باب القصبة -باب ينتجمي-¹.

انتشرت المدارس في جميع مدن إفريقية من ذلك مدرسة طرابلس التي أثنى على بنيتها المعمارية العبدري قائلا: "ومدرستها، فإن لها من حسن الصورة نصيبا، ومن اتقان الصنعة سهما مصيبا"²، ولقد احتوت أيضا مدينة بجاية على العديد من المدارس أين يكثر فيها الطلبة وأساتذة الفقه والعلوم.³

إلى جانب المدارس والمساجد شاد بني حفص الزوايا وهي نوع من المباني الدينية لا مئذنة لها ولا منبر تضم ميضأة وغالبا ضريح مؤسسها أو أحد رجال الله الصالحين، تقام فيها الصلوات الخمس ما عدا صلاة الجمعة والعيد،⁴ يعرفها ابن مرزوق التلمساني على أنها: "هي التي يطلق عليها في المشرق الربط والخوانق، والخانقات... والرباط في اصطلاح الفقهاء عبارة عن احتباس النفس في الجهاد والحراسة، وعند المتصوفة عبارة عن الموضع الذي يلتزم فيه العبادة... والظاهر أن الزوايا عندنا في المغرب هي المواضع المعدة لإرفاق الواردين وإطعام المحتاج من القاصدين..."⁵.

¹ ينظر: الزركشي، مصدر سابق، ص ص 139-142. -محمد خوجة، تاريخ معالم التوحيد...، مصدر سابق، ص 173.

² العبدري، مصدر سابق، ص 186.

³ حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 50.

⁴ عبد الرحيم غالب، مرجع سابق، ص 211.

⁵ ابن مرزوق التلمساني، المسند...، مصدر سابق، ص ص 411-413.

تصميم هذه الزوايا¹ قريب إلى مخطط المدرسة ذات الإيوانات منه إلى المسجد، وتدرجياً أضيفت لها قاعات خاصة لتأمين خدمات متعددة،² من بعض أسماء زوايا الدولة الحفصية: زاوية علي السفاح وهو علي بن أبي زيد عبد الرحمان بن عبد الواحد الأنصاري (ت726هـ/1326م)، كانت مهمة هذه الزاوية إستقبال عامة مهاجري الأندلس في سبعينات القرن السابع للهجري،³ وزاوية الشيخ سيدي أحمد بن عروس، أمر ببناءها السلطان أبي عبد الله المنتصر ابن أبي فارس،⁴ وزاوية سيدي فتح الله،⁵ والزاوية القائمة داخل باب خالد بمدينة تونس.⁶

ضف إلى ذلك الزاوية التي شاذها أبو فارس عبد العزيز بجانب باب بحر للعلم والصلاة عام (801هـ/1400م) محل الفندق الذي يباع فيه الخمر،⁷ وزاوية عين الزميت الواقع قرب كاف غراب بين باجة وتونس، شيدها السلطان أبو عمر عثمان وجعل بها جامعاً للصلاة ودروس العلم، وصرف لها الطعام والشراب وأوقف عليها ما يقوم بها وشيد أيضاً أبو عمر عثمان زاوية الفندق الواقعة فوق غابة شريك بين تونس والقيروان وحبس عليها أيضاً لمبيت أبناء السبيل،⁸ وزاوية سيجوم، من بناء أبي عبد الله ابن أبي فارس عبد العزيز، احتوت هذه الزاوية على جامعاً للخطبة ودرسا لقراءة العلم ورباطاً لسكنى طلبة العلم، وقراءة القرآن.⁹

¹ يوجد عدة أنواع من الزوايا منها ما هي بسيطة عبارة عن مجموعة من الأبنية المتلازمة منها مبيت الطلبة، وهي مكونة من عدة غرف حول صحن كبير وكتاب وغرفة تدريس والمكتبة والمساجد ومن ثم المرافق الأخرى اللازمة، وتكون الأراضي التي حولها حبساً عليها في الغالب للاتفاق منها، والثانية يطلق عليها زوايا المزار وهي التي تنوي أضرحة الأولياء الصالحين يقصدها العامة للتبرك، أما الأخيرة فشيدت من قبل المتصوفة وهي مكان لاطعام الفقراء والمساكين، وإيواء المسافرين وعابري السبيل. **ينظر:** عائشة رحيم، مرجع سابق، ص 184.

² عبد الرحيم غالب، مرجع سابق، ص 211.

³ عائشة رحيم، مرجع سابق، ص 185.

⁴ ابن أبي دينار، مصدر سابق، ص 126.

⁵ الزركشي، مصدر سابق، ص 141.

⁶ ابن أبي دينار، مصدر سابق، ص 151.

⁷ **ينظر:** ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية...، مصدر سابق، ص 196. -ابن الشماع، مصدر سابق، ص 114. -

ابن أبي دينار، مصدر سابق، ص 146.

⁸ **ينظر:** الزركشي، مصدر سابق، ص 136-144. -رحيم عائشة، مرجع سابق، ص 187-188.

⁹ ابن الشماع، مصدر سابق، ص 118.

ثانيا: العمارة الزيانية (المدنية والدينية)

تعاقب عل تلمسان مجموعة من الدول بثقافات وتوجهات سياسية مختلفة فهي قاعدة المغرب الأوسط ودار للأمم السابقة، كما ولقد أشارت الأستغرافيا التاريخية الى مدى التأثير السياسي والحضاري والجغرافي الذي لعبته حاضرة تلمسان، ليتم اختيارها كعاصمة لملك بني زيان.

وفي خضم الصراع العسكري السياسي بين دول المغرب الإسلامي -على المجال الجغرافي ووراثه عرش الموحدين- اتجه سلاطين الدولة الزيانية إلى التنافس مع جيرانهم فتطورت تلمسان سياسيا ونفقت بها الأسواق، وتوافد إليها التجار من جميع الأقطار فاتسعت اقتصاديا وازدهرت فكريا،¹ فاكتسب المجتمع التلمساني ثقافة واسعة أخرجته من طور البداوة إلى طور الحضارة ونمت عمرانها، باعتباره وسيلة لإظهار حضارة الدول ومدى تقدمها، إذ حرص يغمراسن بن زيان على البناء والتشييد وعلى نفس الخطى سار من جاء من بعده، من ذلك ما شاده أبو حمو موسى الأول من منشآت عمرانية وتحصينات عسكرية لدولته فأمنها وحصنها أيما تحصين،² وقام بتعمير القسبة،³ وبناء قصره المعروف باسمه، ثم تحول إلى قرية بهذا الاسم في الجنوب الشرقي من واد رهيو.⁴

كما كان أبو تاشفين هو الآخر "مولعا بتحبير الدور وتشبيد القصور"،⁵ فامتاز عصره بالنهضة العمرانية، حيث استقدم إلى جانب اليد العاملة والمهندسين المحليين أسرى النصارى

¹ ينظر: مارمول كربخال، ج 2، مصدر سابق، ص 300. -شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص 202.

² التتسي، مصدر سابق، ص 145.

³ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، ج 7، العبر...، مصدر سابق، ص 132. -التتسي، مصدر سابق، ص 146. - عبد العزيز فيلاي، ج 1، مرجع سابق، ص ص 41-117.

⁴ ينظر: التتسي، مصدر سابق، ص ص 146-147. -يحي ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص ص 128-129.

⁵ التتسي، مصدر سابق، ص 150

المهندسين وكذلك الأندلسيين فـ: "أغرى دولته بتشديد القصور واتخاذ الرياض والبساتين"¹ فأصبحت القصور والمنازل والبساتين على عهده جميلة يصعب تشييد مثلها من بعده.²

1. الهياكل العمرانية المدنية

تعكس الهياكل العمرانية المدنية في تلمسان خلال العهد الزياني تطور العمارة الإسلامية في المغرب الأوسط، حيث امتزجت الخصائص الوظيفية بالجمال الفني لتعبر عن الهوية الحضارية، وقد تنوعت هذه الهياكل بين المباني السكنية والقصور التي عكست من جهة أنماط العيش اليومي للسكان وتنظيمهم الداخلي المراعي للخصوصية الاجتماعية، ومن جهة أخرى عكست القصور مكانة الحكام وطموحاتهم، كما تمثل المنشآت التجارية والفضاءات العامة في الدولة الزيانية مكونا أساسيا في البنية الاقتصادية والاجتماعية، حيث شكلت الأسواق، الفنادق، القيصاريات، الحمامات والمارستات مراكز حيوية للتجارة والتفاعل الاجتماعي.

نسعى من خلال ورقات بحثنا القادمة إلى تقديم دراسة لجوانب العمارة المدنية الزيانية التاريخية والمعمارية مع التركيز على تقنيات البناء والأساليب المعتمدة للتزيين.

1.1 العمارة السلطانية والسكنية:

سيتم فيما يلي دراسة تاريخية وعمرانية تسلط الضوء على القصر السلطاني المشور، القصبة والمساكن التقليدية بتلمسان، مع التركيز على الخصائص المعمارية والفنية التي تميزت بها هذه المنشآت ودورها الوظيفي والاجتماعي في الدولة الزيانية.

1.1.1 القصور. المشور أنموذجا:

¹ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 142.

² ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 190-191. -عبد العزيز فيلاي، ج 1، مرجع سابق، ص 117.

كان السلطان يغمراسن في بداية عهده يقيم بالقصر الموحي القديم بتلمسان العليا (تاجرات) المجاور للجامع الكبير،¹ إلى غاية بنائه لصومعة المسجد الجامع،² فصارت المئذنة تطل على القصر وتشرف على صحنه، مما أدى إلى تهديد خصوصية السلطان، عندئذ اضطر إلى تغيير مقر إقامته، استجابة لهذا قرر السلطان نقل مقر إقامته إلى موقع جديد يضمن له مزيدا من الخصوصية ويليق بمقامه ويتماشى مع تقاليد السلاطين في ذلك الوقت.³

بعد دراسة دقيقة اختار السلطان جنوب المدينة موقعا لبناء قصره الجديد،⁴ وحصنه أيما تحصين فاتخذ القصر الجديد شكل حصن أو قصبة،⁵ أطلق عليه اسم المشور،⁶ لتمييزه عن القصر القديم، قام بتخطيطه على شكل مستطيل يبلغ طوله حوالي أربعمئة وتسعين متر (490 متر)، وعرضه مائتين وثمانين مترا (280 متر)، وبالتالي تبلغ مساحته الإجمالية مائة وسبع وثلاثين ألف ومائتين متر مربع (137200 متر مربع)،⁷ أصبح هذا القصر مقر الإقامة الرسمي للسلطان ولخلفائه من بعده حيث أنزل فيه أعضاء الحاشية وكبار رجال الدولة، كما كان يستقبل فيه السفراء الأجانب والوفود الرسمية، وكانت في قاعات هذا القصر تعقد المناسبات الرسمية وحفلات الاستقبال

¹ ينظر: شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص 209. -عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 114. Agrnés Charpentier, Michel Terrasse, Redouane Bachir, Ayed Ben Amara, Palais du Meshouar (Tlemcen, Algérie): couleurs des zellijs et tracés de décors du XIVe siècle, revue d' Archéométrie, 2020, p 266.

² ينظر: التنسي، مصدر سابق، ص 135. Willaim marçais et Georges Marçais, Monuments arabes de Tlemcen, Ancienne librairie thorin et Fils, Paris, La France, 1903. P 19.

³ ينظر: عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 114. Willaim Marçais, op.cit, p 19.

⁴ حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 20.

⁵ مارمول كريخال، ج 2، مصدر سابق، ص 299.

⁶ معنى المشور، المكان الذي يعقد فيه السلطان اجتماعاته رفقة وزراءه وكتابه وضباطه لمناقشة شؤون الدولة، والتشاور في أمور الرعية وقت السلم والحرب. ينظر: عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 115.

⁷ عبد العزيز فيلالي، ج 1، نفس المرجع، ص 115. بينما أوردت زهيرة صديقي في دراستها أن مساحة المشور تبلغ نحو ثلاث هكتارات (3 هكتار). ينظر: Zahira Seddiki, Lecture semiotique de la composition du zellige: Le cas du palais El Mechouair- Tlemcen, présentée pour l'obtention du diplôme du doctorat en sciences, option: architecture/ patrimoine, Université de Constantine 3, de l'architecture, (2021-2022), p 81.

مما جعله مركزا سياسيا واجتماعيا في تلك الفترة،¹ وفي سنة (717هـ/1317م) قام السلطان أبو حمو موسى الأول بإجراء توسعات معمارية في قصر المشور، من تلك الإجراءات إضافة معلمين جديدين: أحدهما قصر مخصص لإقامة الأمراء وكبار رجال الدولة والأعيان، والآخر مسجد خاص يؤدون فيه صلاة الجمعة والصلوات الخمس،² وفي سنة (850هـ/1447م) أدار عليه العاقل سورا، ولقد أصبح المشور خلال فترة الاحتلال الفرنسي مقرا للسلطات العسكرية الفرنسية.³

أحاط قصر المشور سور مرتفع واشتمل على مجموعة من القصور الصغيرة المبنية بأسلوب معماري متقن يزخر بزخارف فنية رفيعة إلى جانب القصر الرئيسي للسلطان، كما احتوى القصر على سقايات ونافورات وبساتين خلابة، وقد تضمن القصر بوابتين رئيسيتين: الأولى تقع في الجهة الجنوبية وتطل على البادية باتجاه الجبل، والثانية في الجهة الشمالية الغربية وتؤدي إلى وسط المدينة حيث كان يقيم رئيس الحرس بجوارها،⁴ إضافة إلى ذلك اشتمل على ساحات وشوارع ودروب، فضلا عن منازل كانت مخصصة للحاشية والكتاب والضباط والخدم، كما ضم المشور مجموعة من المخازن والمطامير التي كانت تستخدم لتخزين الحبوب والمؤن المختلفة، التي هي من صنع أبو حمو موسى الأول،⁵ مما يشير إلى نظام إمداد داخلي فعال يدعم استدامة القصر ووظائفه.

يتميز القصر السلطاني المشور بسمات معمارية متفردة تميزه عن بقية القصور والمباني، من خلال تصميمه الواسع وزخارفه الفاخرة حيث تغطي جدرانه وقاعاته بالرخام الفاخر والفسيفساء الملونة، بالإضافة إلى ذلك تلبط أرضياته بالجبس المتقن وتزين أسقفه بأخشاب مطلية بألوان زاهية، وتضاء القاعات بثريات نحاسية تحمل قناديل الزيت والشموع، كما تغطي معظم أرضيات القصر

¹ ينظر: شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص 209. -مبارك بن محمد الملي، ج 2، مرجع سابق، ص 487.

² عبد العزيز فيلاي، ج 1، مرجع سابق، ص 115.

³ مبارك بن محمد الملي، ج 2، مرجع سابق، ص 485.

⁴ ينظر: مارمول كربخال، ج 2، مصدر سابق، ص 299. -حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 20.

⁵ ينظر: يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 127. -التنسي، مصدر سابق، ص 145.

بالزليج الملون،¹ ويضم القصر أيضا حدائق تحتوي على أحواض من الزهور والأشجار المثمرة، إلى جانب نوافير المياه حيث تتماشى هذه العناصر مع التقاليد المعمارية التي تظهر في القصور السلطانية في فاس وغرناطة وتونس، مما يعكس التأثير الواضح للهندسة المعمارية الأندلسية على العمارة الزيانية وبالمقارنة مع القصر السلطاني، كانت مساكن رجال الدولة والبلاط المحيطة بالقصر الكبير والمسجد المجاور أصغر حجما وأقل زخرفة.²

ولا يزال هذا الصرح قائما بأسواره وبابه الداخلي والخارجي المعروفان باسم باب المشور، وباب التويته على الترتيب، لكن حدائقه ونافوراته والمسجد وشجرة الفضة والساعة النادرة طُمست معالمهم، ولم يبق منه إلا المسجد الذي بناه أبو حمو موسى الأول، وجدد بناءه العثمانيون ثم تحول خلال الاحتلال الفرنسي إلى كنيسة، ولم يبق من المعالم الإسلامية إلا مؤذنته التي لا زالت

¹ الزليج: الزليج وهي التسمية التي أعطيت للبلاط الخزفي في بلاد الغرب الإسلامي المنحدرة من الفسيفساء، ذات أشكال وألوان مختلفة يتم تجميعه حسب مخططات دقيقة بحيث تشكل لوحات زخرفية جميلة ذات تصاميم هندسية نباتية أو كتابية تستعمل بشكل أساسي لتبليط الأرضيات وكسوة الأجزاء السفلية للجدران وفي حالات نادرة لكسوة الأعمدة والعقود وحتى عتابات الأبواب والسلام، والرأي السائد لدى الباحثين الأوروبيين أن أصل الزليج يعود إلى بلاد الأندلس، وعليه فأقدم نموذج في هذه الأخيرة هو ذلك الموجود في قصر الحمراء والذي يعود تاريخه إلى عهد السلطانين يوسف الأول ومحمد الخامس (734-754هـ/1334-1354م)، أي معاصر لما هو موجود بفاس وتلمسان، في حين كانت هاته التقنية شائعة في العمارة الموحدية على غرار الجص، ومن قبلها كان في العمارة الحمادية إذ عثر على كمية معتبرة من البلاطات الخزفية أثناء الحفريات التي جرت في القلعة، ومن النماذج المهمة لاستعمال البلاطات الخزفية هي تلك التي كانت تزين الواجهة الجنوبية لمؤذنة جامع القلعة. ينظر: عبد الرحيم غالب، مرجع سابق، ص 216. - محمد لخضر عولمي، "أراء حول الزليج بالمغرب الإسلامي: ظهوره، صناعته وأنواعه"، مجلة منبر التراث الأثري، مج 1، ع 1، (من ص 97 إلى ص 103)، الجزائر، 2012، ص ص Georges Marçais, Poteries et faïences de la Qal'a des Beni- Hammad (XI. 98 -97 siècle), contribution à l'étude de la céramique musulmane, D. Abraham éditeur, Constantine, 1913, p. 10.- Beylié Général, Kalaa des Beni- Hamad une capitale berbère de l'afrique du nord au XI° siècle, Ernest leroux, Paris, 1909, p 81-84.

² عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 115.

تحافظ على زخارفها خاصة الجهة الجنوبية، مكتوب عليها بخط أندلسي عبارة: "اليمن والإقبال"، و"يا ثقتي يا أملي أنت الرجاء أنت الولي اختم بخير أملي".¹

1. 1. 2 القصة:

يقول عبد الرحمان ابن خلدون عن قصبة تلمسان التي عمرها أبو حمو موسى الأول: " وأنزل بالقصبة وهي الغور الفسيح الخطة تماثل بعض الأمصار العظيمة، اتخذها للرهن، وكان يبالغ في ذلك حتى يأخذ الرهن المتعددة من البطن الواحد والفخذ الواحد والرهن وتجاوز ذلك إلى أهل الأمصار والثغور والمشixe والسوقة فملاء في تلك القصبة من أبنائهم وإخوانهم، وشحنها بالأمم، وأذن لهم في ابتناء المنازل واتخاذ النساء، واختط لهم المساجد فجمعوا بها لصلاة الجمعة، ونفقت بها الأسواق والصنائع وكان حال هذه البنية من أغرب ما حكي في العصور عن سجن".²

يقدم قول عبد الرحمان ابن خلدون رؤية دقيقة لتطور القصبة في تلمسان، موضحا كيف تحولت هذه المنطقة من مجرد أداة للسيطرة السياسية إلى مجتمع متكامل ومدينة نابضة بالحياة، إذ استخدم أبو حمو القصبة في البداية كوسيلة لضمان ولاء القبائل والعشائر من خلال سياسة احتجاز الرهائن، ويجدر التنويه هنا أن هذه السياسة لم تكن محدودة بمجموعة اجتماعية واحدة، بل شملت كل شرائح المجتمع، من القبائل في البادية إلى سكان المدن، مروراً بالزعماء والمشايخ وعليه فإن التوسع في استخدام الرهائن يعكس مستوى عال من الحذر والحرص على تأمين الولاء من كل الفئات، مما يظهر مدى الشمولية والتعقيد في أساليب الحكم في تلك الفترة.

ومع مرور الوقت بدأ هؤلاء الرهائن - كانوا في الأصل مجرد ضمانات سياسية - في تأسيس حياتهم داخل القصبة بعد أن تم السماح لهم ببناء المنازل وتكوين الأسر، مما أدى تدريجياً إلى نشوء مجتمع سكني مستقر أدى هذا الاستقرار بدوره إلى ازدهار اقتصادي داخل القصبة، حيث نشأت الأسواق وازدهرت الحرف والصناعات، وبذلك تحولت القصبة من مكان ذو طابع عسكري

¹ محمد بن رمضان شاوش، ج 1، مرجع سابق، ص 202.

² عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 139.

وسياسي بحث إلى مدينة حقيقية ذات بنية اجتماعية واقتصادية متكاملة، ما يميز هذا التحول هو التناقض بين الهدف الأصلي لإنشاء القسبة والنتيجة النهائية التي أفرزتها تلك السياسة.

نصل إلى القول أن أبو حمو سعى في البداية إلى فرض السيطرة الكاملة على المجتمع من خلال احتجاز الرهائن، ولكن هذه السياسة أدت بمرور الوقت إلى إنشاء مجتمع مزدهر ومستقر داخل القسبة، وعليه فإن هذا التناقض يشير إلى أن السياسات التي قد تبدو في البداية قمعية أو قسرية يمكن أن تؤدي في النهاية إلى نتائج غير متوقعة وربما إيجابية على المدى البعيد، وأن تعقيد الديناميكيات الاجتماعية والسياسية والإجراءات القمعية في العهد الزياني، يمكن أن تؤدي إلى تحولات اجتماعية واقتصادية كبيرة، وعليه فإن هذه الرؤية تسلط الضوء على مرونة المجتمعات في التكيف مع الظروف القاسية وتطوير هياكل اجتماعية واقتصادية جديدة حتى في ظل الضغط السياسي، وبهذا يمكن أن تتحول أدوات السيطرة إلى عوامل تطوير حضري واجتماعي.

أما فيما يخص تحديد موضع القسبة فإننا قمنا في الفصل الأخير بدراسة المنشآت الدفاعية للدولة الزيانية، ومن خلال دراسة هذا الموضوع وجدنا أن تلمسان غير محصنة طبيعياً من الناحية الجنوبية -منطقة مكشوفة-، ولزيادة التحصينات أقيم بجانب باب كشوط الواقع من الناحية الغربية،¹ ستة أسوار، أي نفس الأسوار التي هي بإزاء القسبة التي أورد ذكرها العمري عندما تطرق للحديث عن مدينة تلمسان: "إنها منحرفة إلى الجنوب الشرقي من فاس، ولها ثلاثة أسوار، ومن جهة القسبة ستة أسوار".²

وبناء على ذلك فمن المؤكد أن القسبة تقع في الجهة الجنوبية الغربية لمدينة تلمسان.

1. 1. 3 العمارة السكنية في تلمسان: دراسة تحليلية للتمايز الاجتماعي:

نظراً لأن العمارة الإسلامية تتبع ضوابط مشتركة فإنها تتميز بتشابه واضح في السمات والعناصر المعمارية، مما يمنحها طابعاً موحداً عبر مختلف المناطق خاصة مع مدينة فاس، ولقد أوردت عدة مصادر جغرافية أن مدينة فاس تفوقت على تلمسان معمارياً - مبانيتها أكبر نظراً

¹ يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 20.

² العمري، ج 4، مصدر سابق، ص 104.

والأفضل قيمة وهندسة- من ذلك قول الحميري: "وفاس أكبر من تلمسان نظرا وأجل قدرا وأكثر خيرا ومالا وأعلى همة في المباني واتخاذ الديار الحسنة"¹ وقول مارمول كربخال: "وقد نظمت ... على غرار ما هو بفاس، لكن الدور ليست مبنية بنفس القدر من الجودة ولا النفقات"²، وحسن الوزان أكد ذلك قائلا: " دور تلمسان أقل قيمة بكثير من دور فاس."³

كان موضع المساكن التلمسانية على غرار ما هو موجود بفاس في محيط الحي الحرفي ويعد في مجمله أوسع الأحياء، موزع إلى حارات على شكل فضاءات تتواجد بها الخدمات الأساسية كالحمام والأفران والمسجد وبعض الدكاكين، كل حارة تشرف على عدد من الدروب ومن الأزقة النافذة والغير النافذة.⁴

تميزت مدينة تلمسان خلال العهد الزياني كما هو الحال في العديد من الحواضر الكبرى في بلاد المغرب بعدم تقسيم الأحياء السكنية إلى مناطق خاصة بالفقراء وأخرى بالأغنياء، بل كان الأغنياء والفقراء يقطنون في مناطق متجاورة، حيث كانت منازل الأغنياء مجاورة لمساكن الفقراء،⁵ ولقد أصبحت مدينة تلمسان على عهد أبو تاشفين الأول تضم ستة عشر ألف دار مسكونة (16000دار)،⁶ وبعد رفع الحصار الذي ضربه أبو الحسن المريني على تلمسان بلغ عدد الدور المسكونة ثلاثة عشر ألف دار (13000دار).⁷

¹ الحميري، مصدر سابق، ص 135.

² مارمول كربخال، ج 2، مصدر سابق، ص 298.

³ حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 19.

⁴ سيدي محمد النقادي، "التهيئة العمرانية بمدينة تلمسان من المرابطين إلى بداية الاحتلال الفرنسي (دراسة ميدانية)"، مجلة أفكار وأفاق، ع 3، (من ص 167 إلى 178)، الجزائر، (جانفي- جوان) 2012، ص 172.

⁵ عبد العزيز فيلاي، ج 1، مرجع سابق ص 119.

⁶ ينظر: مارمول كربخال، ج 2، مصدر سابق، ص 302. -مبارك بن محمد الملي، ج 2، مرجع سابق، ص 485.

⁷ حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 19.

ولأن طابع المنازل والقصور لم يختلف من حيث الشكل ونمط البناء عن تلك الموجودة في مدن المغرب الأقصى -فاس-،¹ وإفريقية والأندلس فقد التزمت هذه المباني بالضوابط والمعايير المعمارية للمدينة الإسلامية، وتشاركت في تصميمها وزخرفتها التي شهدت تطوراً ملحوظاً خلال العهد الزياني بفضل الامتزاج الثقافي المباشر مع الحضارة الإسلامية بوجه عام² والأندلس بصورة خاصة، وغالباً ما كانت المنازل بعيدة عن أسوار المدينة لضمان حرية حركة الجيش أثناء النزاعات، متتبعين بذلك تقاليد واستراتيجيات الموحديين في البناء وهذا لكي يسهل للجنود التنقل ومباشرة الدفاع عن المدينة أثناء فترات الخطر.³

يعد تصميم المنازل والقصور في تلمسان انعكاساً واضحاً للمكانة الاجتماعية والإقتصادية للأسرة، حيث تميزت الأسر الميسورة ببناء منازل عالية متعددة الطوابق باستخدام مواد بناء عالية الجودة، ولعلها تلك التي أشار إليها العبدري في رحلته: "وهذه المدينة بالجملة ذات منظر ومخير. وأنظارها متسعة ومبانيها مرتفعة"،⁴ في حين إكتفت الأسر ذات الدخل المحدود ببناء منازل من طابق واحد مع استخدام مواد بناء متواضعة.⁵

غالباً ما اتسمت المنازل التلمسانية بشكل مربع ذو واجهة خارجية تخلو من الزخارف الجمالية، حيث لم تكن النوافذ المطلة على الشارع شائعة وإن وجدت فإنها كانت صغيرة الحجم ومصممة للحفاظ على خصوصية النساء داخل المنزل، عوضاً عن ذلك كانت النوافذ تطل على فناء داخلي يتوسط المنزل، مما يضمن دخول الضوء والهواء دون تعريض الأسرة للكشف من الخارج، وقد تميزت أبواب المنازل التلمسانية بكونها مصنوعة من خشب متين مزودة بمسامير

¹ ينظر: الحميري، مصدر سابق، ص 135. -مارمول كربخال، ج 2، مصدر سابق، ص 302. -حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 19.

² عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 119.

³ ينظر: روجيه لوطورنو، فاس في عصر بني مرين، تر نقولا زيادة، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بيروت، نيويورك، لبنان، الولايات المتحدة الأمريكية، 1967، ص 40. -عبد العزيز فيلالي، ج 1 مرجع سابق، ص 120.

⁴ العبدري، مصدر سابق، ص 49.

⁵ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة...، مصدر سابق، ص 451-452. -عبد العزيز فيلالي، مرجع سابق، ج 1، ص 119.

حديدية ومطرقة باب (مقرعة) تستخدم لإشعار أهل الدار بوجود الزائر، كما كانت تتسم من الداخل بتصميم يوفر الراحة ويعكس المكانة الاجتماعية لساكنيها، حيث كانت الأبواب والنوافذ تفتح على فناء داخلي يعرف أيضا بالأسطوان، والذي كان يستخدم كمساحة اجتماعية لأفراد الأسرة خلال فصل الصيف.¹

أما المنازل التابعة للطبقة الميسورة فقد كانت تتميز بممرات مغطاة بخشب منقوش وأعمدة داعمة للسقف تنتهي بأقواس مزينة بالمقرصنات، وهي عناصر معمارية تشير إلى الرقي الاجتماعي للمالك علاوة على ذلك كانت الجدران السفلية مكسوة بالزليج الملون، بينما كانت الأرضيات مبلطة بالرخام مما يعزز من قيمة وجمالية المكان، وفي وسط الفناء كانت توجد نافورة تضيئ لمسة من الفخامة على المنزل حيث يتدفق منها الماء عبر قنوات مخصصة إلى صهريج يقع تحت الأرض، وفي حال احتوى المنزل على حديقة كانت النوافذ تطل عليها، بينما كانت المطابخ والسلالم ومساحات التخزين تقع عادة في زوايا مغلقة من المنزل مضاءة ومهواة عبر فتحات صغيرة.²

تميزت المنازل والقصور في تلمسان خلال فترة الدراسة بتطورها العمراني حيث احتوت على مراحض متصلة بقنوات صرف تقود المياه خارج المدينة، كما كانت جدران المنازل تطل على عادة من الداخل والخارج بطبقة من الطين الممزوج بالجير، مما يعكس تكيفا مع المناخ المحلي واحتياجات الصيانة، اتسمت هذه المنازل بأسقف منخفضة نسبيا وهو تصميم ربما كان يهدف إلى تعزيز العزل الحراري، خاصة تلك التي تخص الطبقات الثرية التي تميزت بالغرف الواسعة والأسقف المزخرفة بالخشب المنقوش، كما أحيطت أسطح المنازل بجدران مرتفعة تستخدم لنشر الغسيل وتجفيف الفواكه، وهو ما يعكس استغلال المساحات العلوية لتلبية الاحتياجات المنزلية.³

¹ عبد العزيز فيلالي، ج 1، نفس المرجع، ص 119. ولأن أوصاف المباني لمدينة تلمسان تتشابه إلى حد كبير لتلك التي هي بفاس. **ينظر**: روجيه لوطورنو، فاس في عصر بني مرين...، مرجع سابق، ص 42.

² عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص ص 119-120.

³ نفس المرجع، ص 120.

علاوة على ذلك كان من المعتاد بناء غرفة في أعلى المنزل فسيحة تعرف بالعلية والتي كانت تستعمل عادة للاستقبال،¹ ومنزه للنساء أو كمكان للاسترخاء مع إمكانية استخدامها لأغراض أخرى، في المقابل كانت الأسر الفقيرة تقطن منازل بسيطة تتألف عادة من طابق أرضي تبنى بمواد أولية محلية مثل الحجر والطوب، وتغطي بأسقف من القش والطين والنباتات المحلية التي قد تتعرض للحرق، وفعليا أثناء فترة الحصار الطويل الذي فرضه يوسف أبو يعقوب على مدينة تلمسان اقتلع الأهالي أسقف منازلهم واستعملوها للتدفئة، من ذلك قول عبد الرحمان ابن خلدون: "واستمر حصاره إياهم إلى ثمانية سنين وثلاثة أشهر من يوم نزوله، نالهم فيها الجهد... وخربوا السقف للوقود".²

كانت هذه المنازل أقل قدرة على مقاومة الظروف المناخية القاسية مثل الأمطار الغزيرة والثلوج خاصة وأن تلمسان أشد بلاد عدوة المغرب الأوسط بردا وتجلدا،³ وهذا ما يعكس الفجوة الاجتماعية بين الطبقات وغالبا ما كانت هذه المنازل تتجمع بشكل متقارب في الأحياء الشعبية والقصبة، ولقد كان سكان تلمسان يولون اهتماما كبيرا بزراعة الأشجار المثمرة والنباتات الزهرية في فناء المنازل وحولها مع تفضيل خاص لأشجار النارج والكروم والتفاح والإجاص، وهو ما يشير إلى التفاعل بين البيئة المحلية والعادات الاجتماعية،⁴ ويرى عبد الرحمان ابن خلدون أن زراعة النارج الذي لا طعم ولا منفعة فيه من توابع الحضارة "إذ لا يقصد بها في البساتين إلا أشكالها فقط ولا تغرس إلا بعد التفنن في مذهب الترف"،⁵ ولقد كانت في دار آل مرزوق شجرة النارج التي في وسط الدار، وبها أنواع أخرى غريبة من الفواكه: كالفرجل والرمان، وأنواع الفواكه والرياحين.⁶

¹ عبد الرحيم غالب، مرجع سابق، ص 288.

² عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 128.

³ ابن مرزوق التلمساني، المسند...، مصدر سابق، ص 222.

⁴ عبد العزيز فيلاي، ج 1، مرجع سابق، ص 120.

⁵ عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة...، مصدر سابق، ص 467.

⁶ ابن مرزوق التلمساني، المناقب...، مصدر سابق، ص 157 - 158.

أما المنازل الواقعة خارج أسوار المدينة فكانت تتميز بتصميمها الجيد وملاءمتها للسكن خلال فصل الصيف وقد أحاطت بها كروم معروشة منتجة لأنواع مختلفة من العنب، بالإضافة إلى وفرة أشجار الكرز والتين المعروف بحلاوته¹، وغالبا ما تضمنت إسطبلات للخيول والمواشي ومع ذلك كان هذا التصميم يجعلها عرضة للسرقات، حيث كانت المواد ذات القيمة مثل: التلاليس، والسروج، واللجام تسرق وتباع في أماكن مثل درب اليهود أو سوق منشار الجلد في تلمسان، من الأسر التي تعرضت لهكذا حادثة هي عائلة سيدي محمد بن أحمد بن شريف المليثي والد ابن مريم.²

فيما يتعلق بمنازل الطبقة الثرية والمتوسطة داخل المدينة فلقد كانت تغطي سقوفها بالقرميد، وكانت المنازل العالية تشكل تحديا اجتماعيا نظرا لإطلالتها على منازل أقل إرتفاعا، مما كان يؤدي إلى رفع الشكاوي قد تصل إلى هدم البناء في بعض الحالات، وذلك حفاظا على خصوصية الجيران وكرامتهم، وقد سجلت المصادر التاريخية حالة مماثلة عندما بنى السلطان أبو تاشفين الأول قصرا زوده بعلية تطل على دار ابن مرزوق والمنازل المجاورة مما أثار احتجاجا أدى إلى تدخل القضاء.³

ولقد ساهم الرخاء الاقتصادي الذي شهدته تلمسان في هذه الفترة إلى جانب التطور الحضري في تعزيز الاهتمام بتجميل المنازل وزيادة رفاهية السكان ومع ذلك لم يبق من هذه المنازل إلا القليل، بما في ذلك بعض المنازل الشهيرة مثل: دار السرور التي شادها أبو تاشفين الأول،⁴ والدار الكبرى التي تتصل بها دار تعرف بدار الإنجاصة، كما تتصل بهذه الأخيرة أيضا دار تعرف بالدار الجديدة كانت جميعها مملوكة لأبي زيد عبد الرحمان بن مجر وهو أحد أبرز تجار الصوف في تلمسان إذ كان مقصودا وترده التجارة من كل البلاد وسلاطين بني حفص وبني مريم، كانوا يلبسون ما يعمل بتلمسان من رفيع الصوف بما أنها اختصت بذلك كما امتلك ابن مجر عدة منازل

¹ حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 20.

² أبي عبد الله المليثي ابن مريم (ت بعد 1014هـ)، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908، ص ص 269-270.

³ عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 121.

⁴ التنسي، مصدر سابق، ص 150.

أخرى إلى جانب محلات ومخازن في درب شاكر،¹ ودار ابن المدور التي انتقلت ملكيتها لاحقا إلى آل مرزوق في القرن الثامن الهجري الموافق للرابع عشر ميلادي،² كما امتلك آل مرزوق بدورهم عدة منازل بارزة في درب مرسى الطلبة، بالقرب من باب العقبة، - بنى أول دار مرزوق التلمساني ولد فيها ابن مرزوق التلمساني الحفيد.³

لم يبق من هذه القصور والمنازل إلا البعض من مشور وقصر الأمراء بأكادير والقصر القديم الواقع على مقربة من الجامع الأعظم،⁴ وحاليا لا توجد أي آثار دال على وجوده، كذلك القصور التي بناها أبو تاشفين الأول وتفنن في تشييدها كدار الملك ودار السرور وأبي الفهر والصهرج الأعظم، لم يبق منها شيء إلا الصهرج الذي ظل قائما غرب المدينة على مقربة من باب كشوط -باب سيدي بوجمعة- ويطلق عليه أهل تلمسان اليوم صهرج مبدى.⁵

1. 2 المنشآت التجارية والفضاءات العامة: دراسة في البنى الاقتصادية والاجتماعية:

يتناول هذا العنصر دراسة تفصيلية لعدد من المنشآت الحيوية بما في ذلك الأسواق التي شكلت مراكز اقتصادية، والحمامات التي عكست أبعادا اجتماعية وصحية، والفنادق التي مثلت فضاءات استقبال للتجار والمسافرين، والمارستانات التي ارتبطت بالخدمات الصحية والعلاجية، من خلال تسليط الضوء على أساليب تصميمها.

1. 2. 1 الأسواق:

أثر الموقع الجغرافي المركزي لتلمسان بشكل كبير على استقرارها السياسي حيث جعلها عرضة للتهديدات الخارجية من الشرق والغرب على حد سواء،⁶ أما من الناحية الاقتصادية فكانت

¹ ابن مرزوق التلمساني، المناقب...، مصدر سابق، ص 188-189.

² عبد العزيز فيلاي، ج 1، مرجع سابق، ص 121.

³ ابن مرزوق التلمساني، المناقب...، مصدر سابق، ص 147-298.

⁴ عبد العزيز فيلاي، ج 1، مرجع سابق، ص 121.

⁵ ينظر: التنسي، مصدر سابق، ص 150. -عبد العزيز فيلاي، ج 1، مرجع سابق، ص 121.

⁶ شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص 202.

تلمسان تشكل نقطة محورية فهي "مدينة عريقة التمدن"،¹ وقاعدة تجارية بامتياز،² بفضل امتلاكها لشبكة الطرق التجارية الكبرى التي تربط بين الشرق والغرب مروراً بوادي شلف وصولاً إليها، ومن ثم إلى فاس فسجلماسة، كما أنها كانت جزءاً من مسار تجاري آخر يربط بين الشمال والجنوب مروراً بفجيج وتوات وصولاً إلى بلاد السودان،³ بالإضافة إلى ذلك سيطر إقليم تلمسان على عدد من الموانئ الهامة مثل ميناء وهران، المرسى الكبير،⁴ ومدينة هنين المقابلة لمدينة المرية في الأندلس،⁵ مما عزز من مكانتها وارتقت إلى مركز تجاري بارز وسوقاً عالمية نافذة،⁶ فلم ينقطع عنها التجار حتى في الأوقات العصيبة إذ كانوا يترددون فيها بمنتجات من بلاد السودان (العاج والذهب)،⁷ وكانت تلمسان تصدر مقابل ذلك الصوف والألبسة المصنوعة به،⁸ وتفننت نساء تلمسان بغزل الصوف قياساً على قول الحميري: "وتتخذ النساء بها من الصوف أنواعاً من الكنايش لا توجد في غيرها"،⁹ بالإضافة إلى الأسلحة والكتب.¹⁰

وساعد تلمسان في الارتقاء باقتصادها عامة وتجاريتها على وجه الخصوص بتنظيم أسواقها وساحاتها وأزقتها على نسق جيد بحيث كانت الدكاكين والحوانيت التابعة لأرباب الصناعة والتجارة مرتبة ترتيباً محكماً على غرار ما هو بفاس،¹¹ حسب البضائع والسلع المصنعة وكانت التربيعات

¹ يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 9.

² البكري، المسالك والممالك، ج 2، مصدر سابق، ص 259.

³ عبد العزيز فيلاي، ج 1، مرجع سابق، ص ص 87-88.

⁴ ينظر: أبو الفداء، مصدر سابق، ص 137. -حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 9.

⁵ أبو الفداء، مصدر سابق، ص 137.

⁶ ينظر: البكري، المسالك والممالك...، ج 2، مصدر سابق، ص 259. -شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص ص 201-202. -عبد العزيز فيلاي، ج 1، مرجع سابق، ص 134.

⁷ ينظر: مارمول كربخال، ج 2، مصدر سابق، ص 300. -شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص 202.

⁸ ابن مرزوق التلمساني، المناقب...، مصدر سابق، ص 189.

⁹ ياقوت الحموي، مج 2، مصدر سابق، ص 44.

¹⁰ شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص 202.

¹¹ نظراً لمكانة مدينة فاس التاريخية والسياسية والاقتصادية والحضارية على مر حقبات زمنية مختلفة، وارتقاءها في جميع المجالات بما في ذلك حرص الحكام الذين توالوا عليها بدءاً بآل إدريس وصولاً إلى بني مرين، الذين اعتنوا بهذه المدينة وارتقوا بها من طور البداوة إلى طور التحضر، أخذ ثلثة من الجغرافيين والرحالة هذه المدينة -

والرحبات التي يملكها التجار وأهل الصناعة موزعة على أحياء المدينة ودروبها وفي الأسواق العامة المتخصصة، كما تميزت مدينة تلمسان بحيوية اقتصادية لافتة بفضل تعدد المخازن والمصانع والأسواق التي كانت منتشرة سواء داخل المدينة أو في محيطها.¹

كان سكان تلمسان يميلون إلى التجارة والصناعة حيث منحوا هاذين النشاطين أهمية كبرى واعتبروهما من أكثر المهن احتراماً، ولم تقتصر المشاركة في هذه الأنشطة على العامة فقط بل كان للشيوخ والعلماء والفقهاء نصيب وافر فيها، حيث اشتهر العديد منهم بامتلاك مصانع للحياكة ودكاكين للخياطة وغيرها من المهن التي كانت تنتشر في الدروب والأزقة وخاصة في السوق الكبير المعروف بالقيصارية من هؤلاء: أبي زيد عبد الرحمان بن مجر، أحد أبرز تجار الصوف في تلمسان، الذي كان يمتلك سلسلة من المحلات ومخازن في درب شاكراً،² والشيخ المتصوف الخطيب أبو عثمان سعيد بن إبراهيم بن علي الخياط،³ الذي كان يمتن الخياطة،⁴ وأبو عبد الله الأكبر ابن مرزوق كانت له في حدائته حانوت بالقيصارية ينسخ فيها القرآن، ويبيع السلع.⁵

ترتكز الأسواق بشكل أساسي في وسط المدينة حيث توزعت عبر الساحات والشوارع ومنها سوق الخياطين والنساجين والعشابي والعطارين والصاغة، إلى جانب سوق الخضار، الفواكه، الحبوب ورحبة الزرع، وكانت المحلات التجارية تؤجر من قبل أفراد وأصحاب العقارات والمنازل وكذلك من الأوقاف والسلطات المحلية، وتراوح قيمة الإيجار بين ستة دنانير وستون ديناراً (6 و60 ديناراً) بحسب حجم المحل وموقعه، أما سوق الحدادين وأدوات النحاس والصباغين فكان يقع في الجزء الشرقي من المدينة، في حين انتشرت بعض الحرف الأخرى في مواقع مختلفة من تلمسان مثل سوق إسماعيل، سوق السراجين، القبابين،⁶ سوق الخبازين، سوق الحليب، سوق البردعين،

فاس- معياراً ومرجعاً مهماً تقاس عليه المدن الأخرى لتوثيق الفوارق. من بين هؤلاء حسن الوزان. **ينظر:** حسن

الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص ص 19- 77

¹ عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 134.

² ابن مرزوق التلمساني، المناقب...، ص ص 188- 189.

³ يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 53.

⁴ ابن مريم، مصدر سابق، ص 57.

⁵ ابن مرزوق التلمساني، المناقب...، مصدر سابق، ص 148.

⁶ عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص ص 134- 135.

سوق الخرازين، سوق النحاسين، سوق النخاسة،¹ سوق منشار الجلد،² سوق الكتب³ وسوق سيدي بوجمعة،⁴ وكانت الأفران المخصصة لطهي الخزف والفخار والقرميد والآجر تقع خارج أسوار المدينة خاصة في الشمال الغربي بالقرب من باب القرمادين وفي الجنوب الشرقي أمام باب عقبة.⁵

أما معاصر الزيتون فكانت تتركز خارج أسوار المدينة أين يزدهر غرس أشجار الزيتون والتي تستخرج منها كميات من الزيت،⁶ بينما الصناعات التي تعتمد على الماء،⁷ مثل المطاحن تقام على ضفاف وادي السفسف لطحن الحبوب، على مسافة لا تتجاوز فرسخا واحدا من المدينة،⁸ إضافة إلى طاحونة أخرى بالقرب من البرج المعروف باسم برج الطاحونة،⁹ كما أن الدباغين والصباغين كانوا يعتمدون على الوديان لغسل الصوف والجلود وصبغها ودباغتها واعتاد سكان بادية جبل ورنيد جنوب تلمسان على تزويد المدينة بالحطب والفحم والعسل والحليب وتشير الدراسات

¹ مختار حساني، تاريخ الدولة الزيانية، (الأحوال الاقتصادية والثقافية)، منشورات الحضارة، ج 2، الجزائر، 2009، ص ص 48-49.

² ابن مريم، مصدر سابق، ص 270.

³ ابن مرزوق التلمساني، المسند...، ص 460.

⁴ ابن مريم، مصدر سابق، ص 270.

⁵ عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 135.

⁶ مارمول كريخال، ج 2، مصدر سابق، ص 299.

⁷ يحظى المغرب الأوسط بموارد مائية مختلفة مثل: الأنهار والأودية، والعيون، والآبار، من ذلك نهر بمدينة تنس، ونهر تافنة، وكان هناك بإيسلي جدول ماء يسقي المزروعات، كما كان لتلمسان العديد من مصادر المياه كالأنهار الآتية من أعالي الجبال، والعيون الواقعة خارج المدينة، وكان بكل منزل في ندرومة بئر من الماء العذب. **ينظر:** مؤلف مجهول، الاستبصار...، مصدر سابق، ص ص 133-135. -حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص ص 12-15-20. -لخضر العربي، واقع الفلاحة في المغرب الأوسط على العهد الزياني (633-962هـ/ 1235-1554م)، إش محمد بن معمر، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط، جامعة وهران، الجزائر، (2017/2018م)، ص 64. -خيرة سياب، المياه ودورها الحضاري في بلاد المغرب الإسلامي، إش محمد بن عمر، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة وهران، (2013/2014م)، ص 72.

⁸ حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 20.

⁹ مارمول كريخال، ج 2، مصدر سابق، ص 299.

إلى أن أسواق الحيوانات كانت تقع خارج أسوار المدينة وفي ضواحيها مع وجود نظام حراسة لحماية الدكاكين والبضائع.¹

1. 2. 2 القيصارية:

أسس السلطان أبو حمو موسى الأول هذا السوق -القيصارية- في وسط مدينة تلمسان بمجاورة مسجد سيدي إبراهيم المصمودي، يتميز هذا السوق بجدار محيط يحتوي على عدة أبواب وسلام ويختلف عن الأسواق التقليدية بحجمه الكبير وتنظيمه الدقيق، بالإضافة إلى أروقته المغطاة التي تشبه المراكز التجارية الحديثة، ويتيح هذا السوق للزبائن شراء مجموعة واسعة من السلع مثل: الأقمشة، الحلي، العطور، المصنوعات الجلدية، الشموع، الكتب، النعال، والقناديل، مما يعكس تنوعا يشابه الأسواق الكبرى في الوقت الحاضر.²

بالإضافة إلى الدكاكين يحتوي سوق القيصارية على مخازن كبيرة تعرف بالفنادق وهي مخصصة لتجار الجملة لتخزين بضائعهم المستوردة قبل بيعها لتجار التجزئة في السوق، وغالبا ما كانت البضائع المحلية تباع بالمزاد العلني في المناطق المحيطة بالقيصرية أو في ممراتها، وكان يتم تنظيم عمليات البيع في ساحات الفنادق بواسطة سماسرة متخصصين في المزايدة بحضور مفتشي الجمارك، يقوم تجار التجزئة بشراء هذه السلع ثم نقلها إلى حوانيتهم داخل السوق.³

1. 2. 3 الفنادق:

تعد مدينة تلمسان مركزا تجاريا مهما،⁴ لهذا احتوت على عدد من الفنادق،⁵ كونه يعد من المؤسسات التي تدعم اقتصاد البلاد وتساعد على الارتقاء بالتجارة وتفعيل وتيرة ازدهارها،⁶ كان

¹ ينظر: مختار حساني، ج 2، مرجع سابق، ص 47. -عبد العزيز فيلالي، ج 2، مرجع سابق، ص 135.

² بسام كامل عبد الرزاق شقدان، مرجع سابق، ص 206.

³ عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 136.

⁴ ينظر: البكري، المسالك والممالك...، ج 2، مصدر سابق، ص 259. -عبد العزيز فيلالي، مرجع سابق، ج 1، ص 134. -شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص 201-202.

⁵ حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 20.

⁶ كريم عاتي الخزاعي، مرجع سابق، ص 61.

في الغالب يسكن الفنادق التجار الحاصلون على جواز الاتجار،¹ كالمسيحيين والقناصل خصوصاً ممثلي الشركات التجارية الأجنبية المتخصصة في عمليات الاستيراد والتصدير وإدارة وتنظيم التجارة وحماية مصالح التجار، وكانت هذه الفنادق تتمتع بنوع من الحصانة الدبلوماسية، مما يجعلها شبيهة بالسفارات في الوقت الحالي.²

كان هناك نوعين من الفنادق: عامة تابعة للدولة أو السلطة الحاكمة،³ وفنادق ذات ملكية عقارية خاصة ينزل بها المسلمون والجاليات المسيحية، لكن نزولهم يكون مؤقتاً بحيث إقامتهم تنتهي بانتهاء تصديرهم للبضائع،⁴ وكانت هناك فنادق خاصة منسوبة للجاليات المسيحية على شكل أحياء وسط المدينة أو خارجها وفي الغالب يعرف الفندق بأسماء النازلين فيه، وهم من يتولون إصلاح بنية الفنادق وتوسيعها وبناء الكنائس وترميمها بأنفسهم، ومع ذلك تشير أحد المعاهدات إلى أن بعض عمليات إصلاح وتوسيع الفنادق كانت تتم على نفقة دواوين الجمارك مما يدل على أن ملكية بعض هذه الفنادق قد تعود إلى الدولة.⁵

من بين أسماء الفنادق: فندق الشماعين،⁶ وفندق المجاري الواقع بالقرب من مسجد سيدي ابن البناء في رحبة الزرع،⁷ بالإضافة إلى وجود فندقين آخرين لم يتم ذكر اسميهما كانا مخصصين لتجار جنوة، والبندقية اللتان كانت تتوافدا بكثرة على مينائي وهران والمرسى الكبير حيث يتعاطون تجارة نافقة عن طرق المقايضة،⁸ وعندما أسس أبو يعقوب يوسف منصورته شاد بها الفنادق،⁹ بما

¹ مارمول كرخال، ج 2، مصدر سابق، ص 298.

² عبد العزيز فيلاي، ج 1، مرجع سابق، ص 136.

³ جهاد رحمة العقاب، برق الأغويني، "ظاهرة الفنادق في حاضرة تلمسان بين القرنين 3- 9هـ / 9- 14م من خلال وصف الرحالة والجغرافيين العرب"، مجلة البحوث التاريخية مج 6، ع 2، (من ص 231 إلى ص 251)، الجزائر، ديسمبر 2022، ص 242.

⁴ ينظر: مختار حساني، ج 2، مرجع سابق، ص 53.

⁵ جهاد رحمة العقاب، مرجع سابق، ص 243.

⁶ عبد العزيز فيلاي، ج 1، مرجع سابق، ص 136.

⁷ ابن مريم، مصدر سابق، ص 275.

⁸ حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 9.

⁹ ينظر: ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 387. -الناصر، ج 3، مرجع سابق، ص 80.

أنه استبحر عمرانها ونفقت أسواقها، وتوافد إليها التجار من كل الأقطار،¹ وعلى نفس الخطى شاد أبو الحسن المريني الفنادق،² بعد إحياءه لمدينة المنصورة وترميم ما تتلم منها بعد أن خربها آل زيان³، وشادوا بالعباد أيضا فندقا لإيواء الغرباء أسسهما أحد سلاطين بني مرين، "حسبما يقرأ في الرخامتين المنقوش عليهما أسماؤهم".⁴

ولأن وهران كانت بها التجارات الواسعة احتوت على سلسلة من الفنادق ومحلات النزول، رائقة البناء،⁵ ولقد كانت مهبط التجار القطلونيين والجنونيين لهذا وجدت بها دار تسمى دار الجنونيين لأنهم كانوا يقيمون بها.⁶

كانت الفنادق تبنى عادة بالقرب من الأحياء التجارية والأسواق وفي بعض الأحيان خارج الأحياء السكنية وبالقرب من أسواق المدينة وفي ضواحي تلمسان، يتألف الفندق عادة من طابقين أو ثلاثة طوابق حيث يخصص الطابق الأرضي للمخازن والدكاكين والإسطبلات والحمامات والأفران وقاعات المداولات والأحكام، كانت هذه المرافق تفتح على أفنية واسعة تتخللها مياه جارية وأشجار وفي بعض المباني كان هناك حانات خاصة بالتجار المسيحيين، أما الطابقان الأول والثاني كانا مخصصين لنوم وراحة التجار، يحيط بالفندق مساحات شاسعة تستخدم لتفريغ البضائع وتحميلها، مما يسهل على المسؤولين مراقبة حركة السلع وفرض الضرائب عليها ويمنع محاولات التهرب الضريبي، ولقد أكثر الزيانيون من إنشاء مكاتب الجمارك للتحكم بفعالية في حركة الصادرات والواردات ومن ثم السيطرة على ظاهرة التهريب والاحتيال.⁷

¹ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 293.

² ينظر: ابن مرزوق التلمساني، المسند...، مصدر سابق، ص 447. -كريم عاتي الخزاعي، مرجع سابق، ص 61.

³ العمري، ج 4، مصدر سابق، ص 103.

⁴ حسن الوزان، مصدر سابق، ج 2، ص 24.

⁵ مارمول كريخال، مصدر سابق، ج 2، ص 329.

⁶ حسن الوزان، مصدر سابق، ج 2، ص 30.

⁷ ينظر: عبد العزيز فيلاي، ج 1، مرجع سابق، ص 137. -كريم عاتي الخزاعي، مرجع سابق، ص 59.

يحيط بالفندق سور خارجي عال وسميك الجدران يفصله عن المباني الأخرى وله باب يغلق بإحكام لحماية التجار، على الرغم من عدم وجود معاهدات تنص على ذلك فإن الروح العدائية تجاه الأوروبيين لم تكن حادة بدرجة تثير القلق الأمني وربما يعود ذلك إلى احتكاك أهل تلمسان المستمر بالأوروبيين بحكم قرب بلادهم من أوروبا.¹

كان للفندق بوابون يراقبون رواده ويختارون عادة من يعرفون بالأمانة والصدق من أهل البلاد ولهم الحق في منع دخول أي شخص غير مرغوب فيه سواء كان من أهل المدينة أو من الأجانب، ما لم يكن لديهم تصريح من القنصل أو مرافقة من أحد المترجمين أو موظفي الجمارك حتى رجال الشرطة لم يكن يسمح لهم بدخول الفنادق إلا بعد التنسيق مع القنصل المعني الذي كان يتولى الإشراف على تسوية الأمور مع التاجر، وعلى الرغم من قرب فنادق الطوائف المسيحية المختلفة من بعضها إلا أنه كان من المحرم على تجار كل طائفة الانتقال إلى فندق طائفة أخرى، مما يعكس درجة التنظيم والضوابط التي كانت تطبق في ذلك الوقت.²

كما تضمنت داخل الفنادق متاجر خاصة يقوم التجار الأوروبيون بعرض بضائعهم من خلالها على الزبائن لاستكمال عمليات البيع عن طريق ما يعرف بجملة أو تجلية، كما كانت هناك مقبرة مخصصة للجالية المسيحية بالقرب من الفندق، إضافة إلى كنيسة يمارس فيها المسيحيون شعائرتهم وطقوسهم الدينية بحرية كاملة، حتى أن أصواتهم كانت تسمع خارج الكنيسة كانت هذه الكنائس بسيطة في تصميمها، تتكون من غرفة كبيرة لم تكن ذات ارتفاع أو علو كبير -لم يسمح لهم- وقد عرفت كنائس الجنوبيين والبنادقة باسم كنيسة القديسة مريم، بينما لم تمتلك الجمهوريات الإيطالية كنائس خارج الفنادق في تلمسان، كما كانت هناك أجنحة خاصة داخل الفندق مخصصة لإقامة القناصل، بالإضافة إلى بعض الغرف التي كانت تستخدم كسجون للتجار المخالفين الذين يصدر القناصل بحقهم أحكاماً، بالإضافة إلى ذلك استخدمت بعض غرف الفندق كنواد أو أماكن اجتماعية.³

¹ جهاد رحمة العقاب، مرجع سابق، ص 245.

² عبد العزيز فيلاي، ج 1، مرجع سابق، ص ص 137 - 138.

³ نفس المرجع، نفس الصفحة.

1. 2. 4 الحمامات:

توفرت مدينة تلمسان على العديد من الحمامات المنتشرة في دروبها،¹ المشهورة بنظافتها من ذلك قول العبدري: "وبها حمامات نظيفة"،² والوزان يقول في مدحها: "وبها كذلك عدة حمامات متفاوتة القيمة"،³ لكن إذا ما قورنت على ما هو موجود في مدينة فاس فهي غير مجهزة بوسائل الراحة مثلما عليه حمامات فاس، ولا بنفس القدر من الماء.⁴

من أسماء بعض الحمامات التي شادها بني زيان: الحمام الذي أورد العبدري ذكره في رحلته: "ومن أحسنها، وأوسعها، وأنظفها حمام العالية، وهو مشهور، قل أن يرى له نظير"،⁵ وحمام الطبول وحمام الصباغين الذي يطلق عليه أيضا حمام سيدي أحمد بن الحسن الغماري الواقع في الجهة الشمالية الشرقية من المدينة،⁶ في درب كانت به دكاكين الصباغين التي لا يزال البعض منها موجود، كما يعد هذا الحمام من المعالم التاريخية التي تتميز بتصميمها الفريد حيث يمتلك مدخلين رئيسيين الأول مقابل حي القران الصغير، والثاني يقع مقابل درب المسوفة ومسجد الشيخ السنوسي.⁷

تتألف بنية الحمام من قاعة مركزية مربعة الشكل تحيط بها ساحة ذات تخطيط هندسي دقيق يقع في وسط هذه الساحة حوض مائي محاط بجدار مكسو بالزليج، يعطوه نافورة تزود الحوض بالمياه عبر أنبوب مركزي، تحيط بالساحة أربعة أروقة اثنان منها مرتفعان عن مستوى الأرض بمقدار شبرين يستخدمان لخلع الملابس وتعليقها قبل الدخول إلى الحمام وكذلك للاستراحة بعد

¹ كان لكل حي من أحياء مدينة تلمسان حمام خاص به وتوفرت أيضا الحمامات في منازل الأغنياء، وفي القصور السلاطين والأمراء والوزراء، وغيرهم من رجال الدولة، وفي الفنادق والمدارس أيضا. ينظر: نفس المرجع، ج 1، ص ص 140 - 141.

² العبدري، مصدر سابق، ص 49.

³ حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 20.

⁴ مارمول كربخال، ج 2، مصدر سابق، ص 298.

⁵ العبدري، مصدر سابق، ص 49.

⁶ عبد العزيز فيلاي، ج 1، مرجع سابق، ص 140.

⁷ محمد بن رمضان شاوش، ج 1، مرجع سابق، ص 217.

الخروج منه بينما يعد الرواق الرابع المدخل الرئيسي المؤدي إلى الحمام الداخلي، ويعتمد تصميم سقف الأروقة على نظام عقود معمارية، حيث تحمل هذه العقود أقواسا ذات تصميم شبيهة بحذوة الفرس، يبلغ عددها ستة عشر قوسا موزعة على الجوانب الأربعة للساحة بمعدل ثلاثة أقواس لكل جانب مع أربعة أقواس إضافية في الزوايا، يعلو هذه الأقواس قبة مثمثة الأضلاع تتوسطها تخاريم مزخرفة تستخدم للإضاءة الطبيعية، شهد الحمام عبر الزمن العديد من التعديلات التي أدت إلى فقدان بعض مرافقه التقليدية وتشويه بعض عناصره الجمالية.¹

ولأن مدينة وهران بها من البنايات والمؤسسات ما تتميز به كل مدينة متحضرة،² احتوت على سلسلة من الحمامات وكذلك مدينة العباد التي هي بمثابة رباط لتلمسان من الجهة الجنوبية،³ احتوت على حمام سيدي بومدين المشهور الذي لا زال قائما إلى غاية الوقت الحاضر، له سقيفة تتكون من زاوية قائمة وقاعة مستطيلة الشكل يبلغ طولها ثماني أمتار وعرضها ستة أمتار، يتضمن ثلاثة غرف متوازية، مسقفة بسقف أسطواني الشكل.⁴

2. المؤسسات الدينية والثقافية:

شكل المغرب الأوسط خلال العهد الزياني وحدة ثقافية وحضارية متكاملة وعلى الرغم من الظروف السياسية المضطربة-الحروب الخارجية والثورات والتمردات الداخلية- التي شهدتها المنطقة، لم تكن عائقا على الحركة الفكرية وإنما على العكس كانت العلاقات الثقافية بين دول المغرب الإسلامي في نمو مطرد خلال هذا العصر.

تعتبر مدينة تلمسان من أهم المراكز العلمية لبلوغها درجة كبيرة من التطور الفكري والثقافي والعمراني، مما جعلها مركزا لاستقطاب واهتمام المشايخ والعلماء داخل المغرب وخارجه لما تتبناه من مكانة عالية نافستها أكبر الحواضر: مثل القيروان وبجاية ومراكش وفاس وقرطبة،

¹ نفس المرجع، نفس الصفحة.

² حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، 30.

³ **ينظر:** مارمول كريخال، ج 2، مصدر سابق، ص 323 - حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 24 -

محمد بن رمضان شاوش، ج 1، مرجع سابق، ص 234.

⁴ عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 140.

يرجع ازدهار الحركة الفكرية بالمغرب الأوسط إلى عناية سلاطين بني زيان بالفنون والآداب والعلوم بمختلف أنواعها خاصة الشرعية (الفقه، والحديث، والتفسير...)، وحرصهم الشديد على تشجيع العلماء والفقهاء والأدباء واستقبالهم من مختلف أقطار العالم الإسلامي: مشرقه ومغربيه ولاسيما العدو الأندلسية، من أولئك السلاطين نذكر: يغمراسن بن زيان،¹ وأبو حمو موسى الأول،² وأبو تاشفين الأول،³ وأبو حمو موسى الثاني.⁴

¹ يغمراسن بن زيان: كان كثيرا ما يشجع على الحركة العلمية و"يوتر العلماء الصالحين ويجالسهم"، و يستقدمهم إلى بلاده ويغدق عليهم بالمال والعطايا، فاستقر في عهده بتمسان أبو عبد الله محمد، وأخاه الشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن يخلف، أين "درس بها وانتفع به خلق لا يحصون"، وكان يعقد المجالس العلمية في قصره، ويهتم بالمذهب المالكي ويرعاه، كما كان على منافسة شديدة مع سلاطين المغربيين الأقصى والأدنى في اختيار الكتاب والأدباء والفقهاء وإدراجهم في المجالس العلمية والدواوين. **ينظر:** يحي ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 110. - أحمد بابا التنبكتي (1036هـ)، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، عن وثق عبد الحميد عبد الله الهرامة، دار الكاتب، ط 2، طرابلس، ليبيا، 2000، ص 38. - عبد العزيز فيلالي، ج 2، مرجع سابق، ص 321.

² أبو حمو موسى الأول: أصبحت تلمسان على عهده من أهم الحواضر العلمية، يصفها الدكتور فيلالي "منارة للعلم"، تتبلو عناية هذا السلطان بالعلم والعلوم في تقربه من العلماء، من ذلك نذكر: ابني الإمام أبي موسى عيسى بن محمد بن عبد الله، وأبي زيد، وشاد لكل منهما منزلا، وأسس لهما مدرسة باسمهما، وهي أول مدرسة تم تشييدها بتمسان في بداية عهده، وكان أبو حمو يجالسهما كثيرا ويستمتع إلى نصحهما، وعلمهما، واختصهما في الفتوى والشورى. **ينظر:** يحي ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص ص 71-72. - التنبكتي، مصدر سابق، ص 291. - عبد العزيز فيلالي، ج 2، مرجع سابق، ص ص 321-322.

³ أبو تاشفين الأول: كان مولعا بالعلم وأهله، قرب إليه الفقيه أبو موسى عمران المشذلي البجائي (ت 745هـ-1345م)، يعتبر من أكبر علماء وصلاح تلمسان "مشهور بالعلم والصلاح في جميع البلاد"، من أعرف أهل عصره بالمذهب المالكي، فأكرم السلطان أبو تاشفين نزله وولاه التدريس في مدرسته الجديدة فدرس بها الحديث، والفقه والأصول والفرائض والمنطق، والجدل. **ينظر:** التنسي، مصدر سابق، ص 151. - ابن مريم، مصدر سابق، ص 294. - التنبكتي، مصدر سابق، ص 351. - عبد العزيز فيلالي، ج 2، مرجع سابق، ص 322.

⁴ أبو حمو موسى الثاني: كانت له عناية خاصة بالآداب وفروعها، لاسيما الشعر من ذلك قول المقرئ: "يقرض الشعر ويحبه أهله"، امتاز بشخصية ذات سمات أندلسية تظهر جليا في ثقافته وسلوكه وطموحاته، برز بصفة خاصة في النثر والشعر، يقول التنسي في هذا الصدد: "وله في النثر الرائق، والشعر الفائق، ما ارتفعت صنعته من بلاغة الملوك ومن العلم العقلي والنقلي ما جلا نوره عن الدنيا مدلهما الحلو"، وكانت له مجالس خاصة يحضرها كبار العلماء والشعراء، يتم خلالها مناقشة القضايا العلمية، والدينية (الفقه، والسيرة النبوية)، كان له تأليف حسن في السياسة، لخص فيه "سلوك المطاع" لابن ظفر، وأضاف عليه جملة من نظمه، ووقائع وأحداث جمعته بسلاطين بني مريم وغيرهم، وصنفه برسم ولي عهده أبي تاشفين سماه: "نظم السلوك في سياسة الملوك". ازدهر عصر أبو حمو موسى منذ بداية توليه العرش الزياني، بحلة إيمانية تعطرت باحتفاء ديني ذو طابع شعبي ورسمي،

ونتيجة لاهتمامهم بالحركة الفكرية شادوا مؤسسات علمية ودينية، نذكر منها:

2. 1 المساجد:

اعتنى سلاطين بني زيان بتشييد المساجد وترميم ما تنظم منها باعتبارها من أبرز المعالم الإسلامية وأجملها، من ذلك قول العبدري: "ولها جامع مليح متسع"¹ وحسن الوزان: "توجد بتلمسان مساجد عديدة جميلة صينة"² يقول مارمول كربخال عن مساجد تلمسان: "ويوجد عبر المدينة كلها عدد كثير من المساجد الفخمة ذات الموارد الكبيرة، وهي مجهزة بجميع ما يلزم"³ بلغ عددها نحو الستين مسجدا وتأثرت المساجد بنظام المدارس في التعليم منذ منتصف القرن الثامن الهجري وأصبحت الدولة تتدخل في تعيين الأساتذة والمدرسين فيها.⁴

تعتبر المساجد من أهم المعالم المعمارية الإسلامية فهي لا تقتصر على العبادة فحسب وإنما تم اتخاذها مركزا للتعليم والدراسة،⁵ منذ منتصف القرن الثامن للهجري وأصبحت الدولة هي من تتدخل في تعيين المدرسين والأساتذة.⁶ من هذه المساجد:

2. 1. 1 المسجد الأعظم: (الشكل رقم: 02)

يطلق عليه أيضا اسم الجامع الكبير، يقع في تآكررت من تشييد يوسف بن تاشفين المرابطي في شهر جمادى الآخرة سنة (530هـ/1135م)، تم تحديد هذا التاريخ استنادا على ما

يتجسد في إقامة المحافل الكبيرة للمولد النبوي الشريف واستدعاء الناس كافة عامة وخاصة، واستمر الاحتفال بالمولد في مدته و"انتشرت في هضاب المعالي أعلامها"، من ذلك قول التنسي: "وكان يقوم بحق ليلة مولد المصطفى صلى الله عليه وسلم ويحتفل لها بما هو فوق سائر المراسم، يقيم مدعاة يحشر لها الأشراف والسوقة... والمسمع قائم ينشد أمداح سيد المرسلين وخاتم النبيين". ينظر: المقرئ التلمساني، أزهار الرياض...، مصدر سابق، ج 4، ص 249. -التنسي، مصدر سابق، ص 171-173. -يحي ابن خلدون، ج 2، مصدر سابق، ص 39-47. -عبد العزيز فيلالي، ج 2، مرجع سابق، ص 323.

¹ العبدري، مصدر سابق، ص 48.

² حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 19.

³ مارمول كربخال، ج 2، مصدر سابق، ص 298.

⁴ عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 145.

⁵ حسين مؤنس، المساجد، عالم المعرفة، الكويت، 1981، ص 32.

⁶ نبيل شريخي، دور علماء تلمسان في الحياة السياسية والاجتماعية والعلمية في بلاد المغرب الإسلامي، (خلال القرنين 8 و9 هـ - 14 و15م)، نور حوران للدراسات والنشر والتراث، ط 1، دمشق، سوريا، 2023، ص 36.

وجد مكتوبا على حفريته العريضة بخط أندلسي عريض: "بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم تسليما هذا مما أمر بعمله الأمير الأجل... أيد الله أمره وأعز نصره وأدام دولته وكان إتمامه على يد الفقيه الأجل القاضي الأوصل أبي الحسن علي بن عبد الله بن عبد الرحمن بن علي أدام الله عزهم فتم في شهر جمادي الآخر عام ثلاثين وخمسائة".¹ وعلى الرغم من أن اسم الأمير الذي أمر ببناء هذا القسم قد تم محوه لاحقا لكن التاريخ بقي محفوظا مما يؤكد أن هذا العمل كان تحت إشراف أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين، وأن عملية محو الاسم تمت في عهد خلفاء الموحدين الذين خلفوا المرابطين في الحكم وفي عهد يغمراسن تمت إضافة الجزء الشمالي من بيت الصلاة والقبلة والصحن والمئذنة (الصومعة).²

كانت تؤخذ في هذا الجامع دروس العلم وممن درسوا في هذا الجامع: أحمد بن إبراهيم الوجد يحي عم محمد شقرون بن هبة الله بن إبراهيم،³ ولا يزال هذا الجامع قائما حتى يومنا هذا ويعد من أبرز معالم العمارة الإسلامية في المنطقة يتميز هذا المبنى بمخططه المستطيل، حيث يبلغ طوله حوالي ستون مترا (60 مترا) وخمسين مترا عرضا (50 مترا)، يغطي سطحه الذي يعلوه قبتان بارزتان بالقرميد الأخضر ومئذنة شامخة أضافها يغمراسن بن زيان،⁴ يصل ارتفاعها إلى خمس وثلاثين مترا (35 متر).⁵

يتكون الجامع من ثمانية أبواب موزعة على جهاته المختلفة في الجهة الجنوبية يوجد ثلاثة أبواب أولها باب ابن مرزوق، الذي سمي نسبة لقربه من ضريح سيدي ابن مرزوق في الروضة

¹ محمد بن رمضان شاوش، ج 1، مرجع سابق، ص 178.

² **ينظر:** التتسي، مصدر سابق، ص 135. -عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 146.

³ ابن مريم، مصدر سابق، ص 54.

⁴ **ينظر:** التتسي، مصدر سابق، ص 135. -شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص 209. -عبد العزيز

فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 114. -Willaim Marçais, op.cit, p 19.

-Richard Lawlass, Tlemcen, capital du maghreb central. Analyse des fonctions d' une ville islamique médiévale, In: Revue de l'occident musulman et de la Méditerranée, n° 20, (pp 49- 66), 1975, p 50.

⁵ محمد بن رمضان شاوش، ج 1، مرجع سابق، ص 176.

بغربي الجامع،¹ وكان يعرف سابقا بباب المدرسة التاشفينية لمجاورته بابها والباب الثاني هو باب الجنائز المخصص لدخول رجال الدين من أئمة ومؤذنين، والذي يؤدي إلى غرفة خلف المحراب تستخدم لإدخال الجنائز لأداء صلاة الجنازة، أما الباب الثالث فهو باب الضحية أين يذبح الإمام أضحيته يوم العيد، أما في الجهة الشرقية فهناك ثلاثة أبواب أخرى: باب الخرازين، أخذ هذا الاسم لقربه من محلات الخرازين ويعد أهم أبواب الجامع، وباب دار المساكين الذي يقع مقابل باب ملجأ الشيوخ والعجزة الفقراء والمساكين وباب سيدي أحمد بن الحسن الغماري، الواقع بالقرب من ضريح سيدي أحمد الواقع وضريحه في نفس مكان خلوته شرق الجامع الأعظم.²

بالإضافة إلى هاته الأبواب كان هناك باب رابع يعرف بباب سوق الغزل وقد أطلق عليه أيضا اسم باب النساء، حيث كان يستخدم لدخول النساء إلى الجامع يوم الجمعة أو صلاة العيدين، وفي الجهة الشمالية يوجد باب ابن سعد الذي يواجه مقامه مباشرة، وفي الجهة الغربية يقع باب دار الإمارة أو القصر القديم الذي كان مخصصا للسلطان وحاشيته يتم استخدامه في أيام الجمعة والأعياد نظرا لاتصال الجامع بالقصر القديم.³

يتميز الجامع الأعظم كغيره من الجوامع الإسلامية بقاعة صلاة كبيرة وفناء داخلي (صحن) تبلغ مساحته نحو أربعمئة متر مربع مفرش بمربعات كبيرة من الرخام، يحيط بالصحن أروقة من الجانب الشرقي والغربي كل منهما محمول على سوار يحتوي على ثلاث بلاطات أو أربع تحيط بالصحن من جوانبه الأربعة أبواب من الخشب متوسطة الشكل، بالإضافة إلى المئذنة وقاعة الصلاة فسيحة تحتوي على اثنان وسبعون عمودا ضخما من الحجر الصلب (72 عمود) تحمل أقواسا مقوسة خالية من الزخارف، يتألف من ستة بلاطات (6 بلاطات) وثلاثة عشرة ممرا (13 ممرا)، يعد الرواق الأوسط هو الأوسع والأكثر تميزا حيث يضم المحراب والقبتين والقبّة

¹ ينظر: القلصادي، مصدر سابق، ص 97-98. -محمد بن رمضان شاوش، ج 1، مرجع ساق، ص 176.

² ينظر: ابن مريم، مصدر سابق، ص 38. -محمد بن رمضان شاوش، ج 1، مرجع سابق، ص 176. -عبد العزيز فيلاي، ج 1، مرجع سابق، ص 146.

³ ينظر: محمد بن رمضان شاوش، ج 2، مرجع سابق، ص 176. -شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص 209.

الوسطى تتميز بزخارف محفورة بإتقان بينما القبة الأمامية الواقعة أمام المحراب تتميز بتصميم متعدد الأضلاع، حيث تحتوي على أقواس صغيرة متتالية كل قوس منها مكون من ثلاثة أجزاء تزين هذه الأقواس بزخارف تشبه التكوينات الجيولوجية المائية المتحجرة في قمة القبة تتشابك الأقواس بطريقة فريدة تحمل ألواحاً متلائة، وقد وضعت القبة على قاعدة مربعة مزخرفة بنقوش أندلسية أنيقة تحمل نقشا يشير إلى تاريخ تأسيس الجامع،¹ وكان كثيراً ما يأوي إلى هذا الجامع سيدي أحمد بن الحسن ليلاً تهجداً وقياماً في المقصورة خاصة بعد أن سكن أخاه بالدويرة التي هي بجذاء الجامع الأعظم.²



¹ محمد بن رمضان شاوش، ج 1، مرجع سابق، ص 177.

² ابن مريم، مصدر سابق، ص 33-34.

2. 1. 2 المسجد الجامع:

يعتبر من أقدم مساجد تلمسان يقع في أكادير، يعود تاريخ تأسيسه إلى ما قبل استيلاء إدريس الأكبر على تلمسان سنة (174هـ/790م)، تمت إعادة بنائه وترتيبه في العديد من المرات وصولاً إلى عهد بني زيان، حيث قام يغمراسن ببناء مأذنة لا تزال أثارها قائمة بتلمسان.¹

2. 1. 3 مسجد سيدي أبي الحسن:

أسسه السلطان أبو السعيد عثمان سنة (696هـ/1296م) نسبة إلى العالم أبي الحسن علي بن يخلف التنسي -من أفضل علماء عصره- يمتاز بسوره وتيجانه وسقفه ومحاربه الذي يعد من أجمل المحارب في العالم، يتكون من مشكاة سداسية الأضلاع مزينة بالمقرصات مستلهم من الهندسة المعمارية والزخرفة الغرناطية.²

وتحتوي الأوجه الأربعة للمئذنة الواقعة في الواجهة الشرقية على زخرفة ذات أشكال بديعة أما قاعة الصلاة فهي مربعة الشكل تبلغ مساحتها نحو مائة متر مربع، تحتوي على ثلاث أروقة وسقفها المصنوع من الخشب محمول على صفيين من الأعمدة المرمرية بتيجان مزخرفة تجمع بينها أقواس على شكل حذوة الفرس، أما المحارب الواقع في الجدار القبلي من الرواق الأوسط فهو مزخرف بأشكال حيوانية (بالجبس)، ما يزيد من جمالية هذا الجامع وتميزه عن باقي الجوامع أن جدرانه وقناطر رواقه مزخرفة كلها بتخاريم بديعة -ذهبت كلها ولم يبق منها إلا القليل- وزخارف الجدران لا تزال على أصلها ولم تتعرض لأي تغيير.³

2. 1. 4 مسجد أولاد الإمام:

أنشأه أبو حمو موسى الأول سنة (710هـ/1310م) من أجل الحاقه بالمدرسة القديمة التي شادها لابني الإمام القادمين من مدينة برشك،⁴ يبلغ ارتفاع مئذنة هذا المسجد حوالي سبعة

¹ ينظر: التنسي، مصدر سابق، ص 135. -عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص ص 145-146. Richard Lawlass, op, cit, p 50.

² ينظر: عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص ص 146-147. -علي شعوة، "المنشآت العمرانية للدولة الزيانية"، مجلة قيس للدراسات الإنسانية والاجتماعية، مج 1، ع 2، (من ص 40 إلى 56)، الجزائر، ديسمبر 2017، ص 46.

³ محمد بن رمضان شاوش، ج 1، مرجع سابق، ص ص 187-188.

⁴ يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 72.

عشر مترا (17مترا)، واجهاتها الأربعة مزخرفة على شكل رقعة الشطرنج فهي تحتوي على مربعات من الفسيفساء مختلفة الألوان جميعها تأخذ شكل المعين، تتألف قاعة الصلاة من ثلاث بلاطات تفصل بينها ثلاثة أروقة، بحيث يقع المحراب في المحور المركزي للرواق الأوسط، على الجدار الجنوبي الشرقي المواجه للقبلة، وهو موضع تقليدي في تصميم المساجد المغربية خلال العهد المرابطي والموحدي، يتميز المحراب بثلاث نوافذ مقوسة تتبع النمط المعماري السائد في تلك الفترة، يحيط بالمحراب إطار زخرفي يحتوي على بقايا من النقوش الجبسية التي تجمع بين الدقة والفخامة، وهي مشابهة في طرازها للزخارف التي تزين إطار محراب مسجد سيدي أبي الحسن.¹

ولقد فقد هذا المسجد طابعه الزياني ولم يبق منه إلا قبته التي تعلو المحراب² وهي مصممة على شكل مضلع متعدد الأضلاع ومزينة بتفاصيل متدلية من الجوانب مما يعكس مهارة حرفيي تلك الفترة، تعلو هذه القبة قبة صغيرة تحتوي على ستة عشر فتحة زخرفية، ويتميز هذا التصميم الفريد بوجود عمودين يحملان القبة، يربط بينهما قنطرتان مكستان حيث توضع إحدهما فوق الأخرى القنطرة العليا والتي لا يمكن للناظر من داخل البلاطات رؤيتها مزخرفة بتفاصيل مشابهة لتلك الموجودة في محراب مسجد سيدي أبي الحسن، بينما القنطرة السفلى مزينة بنقوش على هيئة سعف النخيل كما يظهر في محراب مسجد سيدي أبي مدين،³ سيتم تناول هذا لأخير بشكل أعمق عند استعراض أهم المنشآت الدينية والثقافية التي أنشأها سلاطين بني مرين في مناطق نفوذ الدولة الزيانية.

2. 1. 5 مسجد إبراهيم المصمودي: (الشكل رقم: 03)

أسسه أبو حمو موسى الثاني إلى جانب القبة والمدرسة والزاوية تكريما لوالده أبو يعقوب يحتوي المسجد على مأذنة مربعة الشكل وقبة مزينة بأخاديد تشبه قبة حمام الصباغين بتلمسان،⁴ هذا المسجد شبيه بجامع سيدي أبي مدين وسيدي الحلو يتألف من قاعة صلاة ذات أربع بلاطات وخمسة أروقة ومئذنة، وصحن ذي حوض مستدير للوضوء ونافورة تحيط به أروقة ليس بها زخرفة

¹ محمد بن رمضان شاوش، ج 1، مرجع سابق، ص 198.

² هوارية بكاي، مرجع سابق، ص 45

³ محمد بن رمضان شاوش، مرجع سابق، ج 1، مرجع سابق، ص 198.

⁴ عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 147.

فنية،¹ بخلاف الضريح الذي شاده أبو حمو موسى الثاني إكراما لعميه الأمير أبي السعيد الذي توفي في الحادي عشر من جمادي الأولى سنة (753هـ/1352م)، والأمير أبي ثابت الذي قتلوه قصاصا في ثالث عشر رمضان من سنة (753هـ/1352م)،² وأبيه الأمير أبي يعقوب إثر مرض أصابه بمدينة الجزائر، يقول صاحب زهر البستان عن حال السلطان أبو حمو إثر موت ولده: "فمنذ دفن أباه، وشيد عليه مبناه، لم يزل يبكي على فراقه، حتى كاد أن يضر، لما فيه من شدة احتراقه"،³ ولا يزال ضريح الأمراء الثلاثة قائم إلى يومنا هذا مزخرف بزخرفة عربية أصيلة،⁴ أما تسمية الجامع والضريح فتعود إلى الشيخ العالم الولي الصالح الزاهد أبو إسحاق إبراهيم بن محمد المصمودي التلمساني، الذي دفن في روضة آل زيان إلى جانب والد أبو حمو وعميه سنة (804هـ/1401م)،⁵ يوجد هذا الضريح خارج الباب الغربي من الجامع يتألف من صحن صغير، تحيط به أروقة محمولة قناطر مقوسة على أعمدة من المرمر وعلى البيت الذي دفن به الأمراء وسيدي إبراهيم، تحتوي جدرانه على زخرفة جبسية ذات أشكال هندسية على مساحات كبيرة من الجدران وخطوط عربية عادية، فيحين الرسم الكوفي موضوع على مساحات صغيرة وضيقة أما باب الضريح فهو مزخرف بفسيفساء مستحدثة العهد.⁶

¹ محمد بن رمضان شاوش، ج 1، مرجع سابق، ص 212.

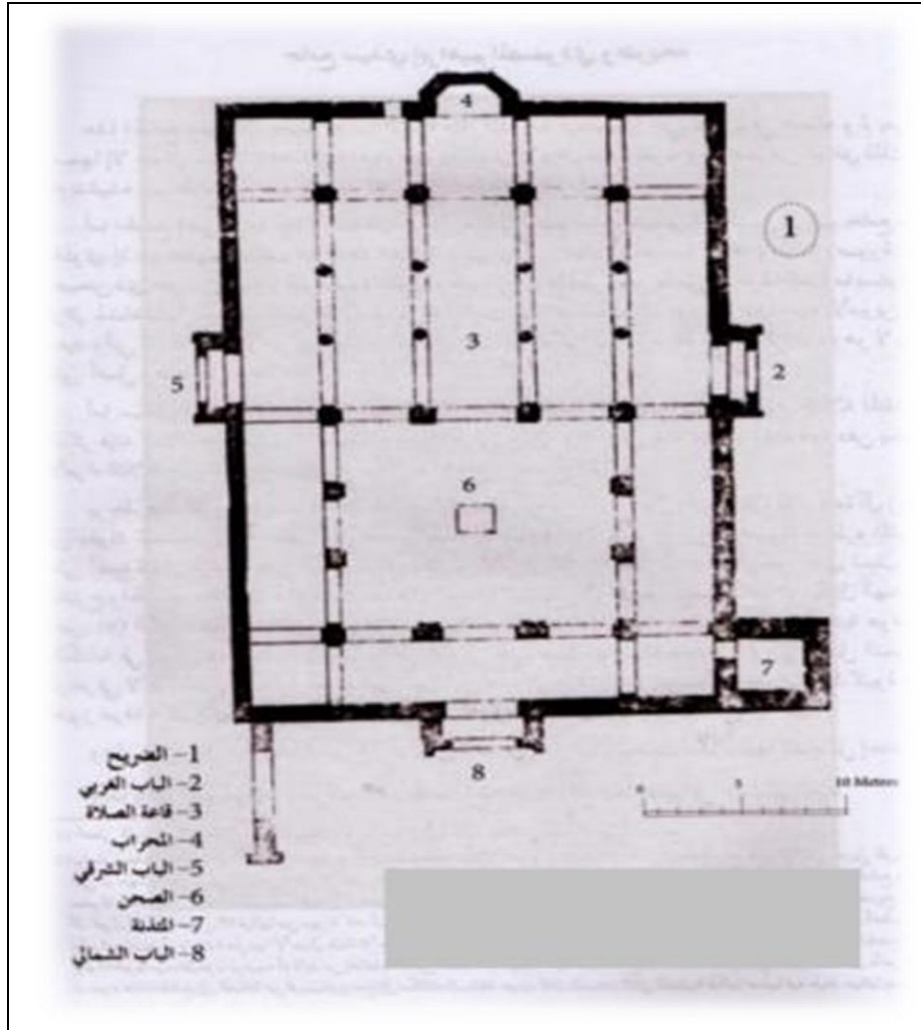
² التتسي، مصدر سابق، ص ص 164 - 166.

³ مؤلف مجهول، زهر البستان...، ج 2، مصدر سابق، ص ص 336 - 337.

⁴ محمد بن رمضان شاوش، ج 1، مرجع سابق، ص 212.

⁵ ابن مريم، مصدر سابق، ص ص 65 - 66.

⁶ محمد بن رمضان شاوش، ج 1، مرجع سابق، ص 212.



شكل رقم: 03

رسم تخطيطي للجامع سيدي ابراهيم المصمودي

بتصرف عن محمد بن رمضان شاوش، ج 1، ص 211

إلى جانب هذه المساجد توجد مساجد أخرى أوردتها المصادر التاريخية منها:
جامع تفرغينو الذي تم إهماله بعد أن كان مكانا يجتمع فيه الناس ويستعمل في أغراض
عدة إلى جانب الصلاة والتعبد، وتم إلحاق موضعه إلى القصر المعروف باسم قصر أبي قير
وشيد محله بعض الدور والمباني.¹

¹ ابن مرزوق التلمساني، المناقب...، مصدر سابق، ص 158.

وجامع الخراطين،¹ كان الفقيه أبو عبد الله محمد الشريف إمام لهذا المسجد،² ومسجد إيلان،³ وجامع الحلفاويين الذي أهمل لاشتغال الناس بأمر الجوع،⁴ ومسجد مرسى الطلبة، ومسجد حارة الرماة الذي أصبح يطلق عليه في عهد ابن مرزوق التلمساني الحفيد مسجد ابن جحاف وابن خزرورة، ومسجد العزلة الواقع بأعلى مدينة العباد⁵ ومسجد درب مسوفة.⁶

2. 2 المدارس:

ظهرت المدارس بتلمسان في مطلع القرن الثامن للهجري،⁷ احتوت مدينة تلمسان على خمس مدارس رئيسية مزخرفة،⁸ يقول حسن الوزان عن تلك المدارس: "خمس مدارس حسنة، جيدة البناء مزدانة بالفسيفساء، وغيرها من الأعمال الفنية، شيد بعضها ملوك تلمسان وبعضها ملوك فاس".⁹ من هذه المدارس التي هي من تشييد سلاطين بني زيان:

2. 2. 1 مدرسة ابنا الإمام:

أمر ببنائها أبو حمو موسى الأول للأخوين الفقيهين من برشك وهما عالمين جاء للاستقرار بتلمسان أحدهما كان يدعأبو زيد عبد الرحمان والآخر يسمى أبو موسى عيسى ابنا الإمام أبو

¹ ابن مريم، مصدر سابق، ص 33.

² القلصادي، مصدر سابق، ص 99.

³ ابن مرزوق التلمساني، المناقب...، مصدر سابق، ص 190.

⁴ ابن مريم، مصدر سابق، ص 33.

⁵ ابن مرزوق التلمساني، المناقب...، مصدر سابق، ص 154 - 155.

⁶ ابن مريم، مصدر سابق، ص 79.

⁷ عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع ساق، ص 141.

⁸ مارمول كربخال، ج 2، مصدر سابق، ص 298.

⁹ حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 19.

عبد الله محمد بن عبد الله بن الإمام والذي كان إماما وخطيبا بأحد مساجد برشك،¹ واتخذت المدرسة اسميهما وكلفهما بإدارتها والتدريس بها،² تقع هذه المدرسة داخل باب كشوط.³

2. 2. 2 المدرسة التاشفينية:

تقع بالقرب من الجامع الأعظم قام بتشييدها السلطان أبو تاشفين حيث جلب لها كبار المهندسين والفنانين والبنائين، وعندما وفد على تلمسان العالم الفقيه أبو عمران موسى المشذالي ولاء التدريس بها،⁴ وممن درسوا بها أيضا إبراهيم بن موسى المصمودي التلمساني، "فقرأ بها على العلامة خاتمة قضاة العدل بتلمسان سعيد العقباني ثم لبوبته المعروفة".⁵

2. 2. 3 المدرسة اليعقوبية:

قام ببنائها أبو حمو موسى الثاني سنة (765هـ/1364م) تخليدا لوالده أبي يعقوب استغرق في بنائها أكثر من سنة ونصف،⁶ ثم نقل رفات أبيه المدفون بباب إيلان إلى جوار عميه أبي السعيد وأبي ثابت إليها.⁷

اشترط أبو حمو موسى الثاني أن تمول هذه المدرسة من مصادر مال حلال وامتازت هذه المدرسة بجمال عمارتها وسعة فناءها، حيث تم بناؤها باستخدام تقنيات صناعية متقدمة واختار موقعها بعناية فائقة، زينت جدرانها بنقوش ملونة وأفرشت أرضيتها ببلاط الزليج المزخرف وأحيطت بزخارف متقنة من الصناعات الجبسية، بينما كانت زهورها المزخرفة تضيء عليها جمالا منقطع

¹ Jean- Joseph- Léandre, Bargés (1810-1896), Tlemcen, ancienne capitale du royaume de ce nom: sa topographie, son histoire, description de ses principaux monuments, paris, 1859, P 327.

² ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، التعريف...، مصدر سابق، ص ص 30- 31. -التنسي، مصدر سابق، ص 149.

³ ابن مريم، مصدر سابق، ص 126.

⁴ التنسي، مصدر سابق، ص 151.

⁵ التنبكتي، مصدر سابق، ص 55.

⁶ مؤلف مجهول، زهر البستان...، ج 2، مصدر سابق، ص 337.

⁷ ينظر: التنسي، مصدر سابق، ص 189. -نبيل شريخي، مرجع سابق، ص ص 37- 38. -عبد العزيز فيلال، ج 1، مرجع سابق، ص ص 144- 145.

النظير،¹ وقدم للتدريس فيها الشريف أبو عبد الله محمد بن أحمد بن علي بن يحيى بن القاسم بن حمود.²

وأنشئت بجوار المدرسة بساتين متنوعة جلبت لها أنواع من النباتات العطرية التي تنعش الأنظار بجمالها، كما صنع في المدرسة صهريج مستطيل الشكل، يحيط به حوضان من الرخام يتدفق منهما الماء بانسياب جميل، ولقد كانت هذه المدرسة من بين أجمل وأروع الأبنية المشيدة في فترة وجيزة وهي مهمة يعجز الكثير عن إتمامها في سنوات طويلة، وقد خصص لها السلطان أوقافا سخية وأقر رواتب للطلاب بحسب تخصصاتهم وأتم بناؤها على أكمل وجه.³

2. 2. 4 مدرسة الحسن أبركان:

شيد السلطان أحمد العاقل هذه المدرسة في زاوية الشيخ الحسن بن مخلوف أبركان بالقرب من مسجد عبد الله الشوذي الحلوي خارج باب تلمسان، وقد خصص لها أوقافا كبيرة، كما أعاد ترميم الأوقاف الموقوفة التي اندثرت، بالإضافة إلى استأنفه الوظائف التي توقفت، وزاد من مواردها مقارنة بالفترة السابقة، مما أدى إلى تحسين أوضاعها ونيل استحسان العامة.⁴

إلى جانب المدارس والمساجد شاد بني زيان الزوايا التي كان لها دورا في خدمة العلم وتعليمه، وأصبحت تنافس المدارس والمساجد ببلاد المغرب عامة وتلمسان على وجه الخصوص من بعض أسماء زوايا تلمسان نذكر:

زاوية أبو يعقوب، التي شادها السلطان أبو حمو موسى الثاني على ضريح والده،⁵ وزاوية سيدي الحلوي،⁶ وزاوية أبي زيد، وزاوية سيدي أبي مدين بالعباد، وزاوية السنوسي، وزاوية أبي عبد الله أحد كبار الأعلام وأشهرهم وألزم كل من يدخل زاويته بالالتزام بالسلوك السني والسلف

¹ مؤلف مجهول، زهر البستان...، ج 2، مصدر سابق، ص 336.

² التنسي، مصدر سابق، ص 190.

³ مؤلف مجهول، زهر البستان...، ج 2، مصدر سابق، ص 336.

⁴ التنسي، مصدر سابق، ص ص 258-259.

⁵ عبد العزيز فيلاي، ج 1، مرجع سابق، ص 149.

⁶ ابن مريم، مصدر سابق، ص 33.

الصالح، وزاوية ابن البناء بتلمسان،¹ وزاوية الشيخ الصالح الحسن بن مخلوف أبركان،² ولقد أورد ابن مريم أن أبو عبد الله سيدي أبو عزى التلمساني المهاجي، كانت له زاوية بوجدة، وأخرى بتلمسان وزاوية سيدي هني وهي زاوية كبيرة قصدها المتعلمون والمضطرون.³

ثالثا: العمارة المرينية

حرص المرينيون على تنشيط حركة البناء والتعمير في دولتهم باعتباره مظهرا من مظاهر الحياة الاجتماعية المتحضرة، وقد شملت حركة التشييد جميع جوانب الحياة: منشآت عمومية كالقنادق، الحمامات، المستشفيات، القناطر، الأسواق، القيصاريات، والحوانيت، ومنشآت دينية وثقافية كالمساجد، والمدارس والزوايا، وسكنية كالمنازل والدور،⁴ والسلطانية كالقصور والقصبة، ومدن جديدة،⁵ كالمدينة البيضاء بمحاذاة فاس العتيقة التي شادها أبو يعقوب يوسف سنة (674هـ/1275م)،⁶ ومدينة حمص التي ابتناها أبو السعيد عثمان المريني سنة (710هـ/1310م) بالإضافة إلى ريبض النصارى.⁷

بلغت دولة بني مرين خلال عهدي أبو يعقوب يوسف وأبو الحسن المريني أقصى درجة من الرقي والتقدم في مختلف المجالات خاصة في التشييد العمراني، فأبو الحسن لم يكتفي بالتعمير في المغرب الأقصى بل اشتملت حركة البناء والتشييد التي قام بها جميع مجالات ملكه في كامل

¹ عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 149.

² التتسي، مصدر سابق، ص 258.

³ ابن مريم، مصدر سابق، ص ص 27-28.

⁴ أورد ابن أبي زرع أن السيل الجارف الذي ضرب مدينة فاس سنة (725هـ/1325م) ضرب ما ينيف عن ألف ومائة دار (1100 دار). **ينظر:** ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 414.

⁵ محمد عيسى الحريري، مرجع سابق، ص 219.

⁶ **ينظر:** ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص 90. -ابن الأحمر، روضة النسر...، مصدر سابق، ص ص 19-20.

⁷ **ينظر:** العمري، ج 4، مصدر سابق، ص 89. -روجيه لوطورنو، فاس قبل الحماية...، مرجع سابق، ص 101. -هالة عبد الرزاق، أسواق فاس في العصر المريني، (646-869/1248-1465م)، مكتبة الثقافة الدينية، ط 1، القاهرة، مصر، 2013، ص 36.

بلاد المغرب كبنائه لمنصورة تونس¹ وتلمسان² وسبتة وبعض التشييدات في مناطق نفوذه بالأندلس،³ كمدينة البنية بمحاذاة لجزيرة الخضراء وتطاوين التي أسسها السلطان أبو ثابت المريني سنة (707هـ/1307م).⁴

نظرا لأن مدينة فاس عاصمة بني مرين كانت "في نهاية العمارة والصلاح"،⁵ جعلها ثلة من الرحالة والجغرافيين مرجعا ومعيارا لقياس مدى تحضر المدن الأخرى وارتقاءها بالعمارة، من هؤلاء حسن الوزان، كربخال والحميري كما أوردت الدراسات الحديثة أن الفن المعماري المريني امتاز باستعمال الطابية والآجر والحجر الغير منحوت والنقش على الخشب والجبس والأدهان والشماسيات الملونة والنحاس المموه وترصيع المنارات بالزليج، كما شمل الزخرف الثريات والمصنوعات الخزفية وغيرها.⁶

ولقد لعبت مواد البناء دورا أساسيا في مجال العمارة بصفة عامة ويذكر عبد الرحمان ابن خلدون أن أنماط البناء في المدن تتباين وفقا للعادات المحلية والتقاليد العمرانية التي تترسخ بين سكانها بما ينسجم مع طبيعة المناخ السائد والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية التي تميز كل مدينة من حيث الثراء أو الفقر، كما تتجلى هذه الفروقات داخل المدينة الواحدة، حيث يشيد بعض السكان القصور والمباني الفسيحة التي تضم عددا من الدور والبيوت والغرف الواسعة، وذلك استجابة لاحتياجاتهم الناجمة عن كثرة أفراد الأسرة والخدم والأتباع ويحرص هؤلاء على تأسيس هياكل مبانيهم باستخدام الأحجار وربطها بملاط الكلس، مع تزيينها بالأصباغ والجص والاعتناء بجمالية

¹ ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 96.

² ينظر: العمري، مصدر سابق، ج 4، ص 103. - عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 340. - حسن الوزان، مصدر سابق، ج 2، ص 19.

³ ينظر: ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص 91. - ابن مرزوق التلمساني، المسند...، مصدر سابق، ص 447.

⁴ محمد عيسى الحريزي، مرجع سابق، ص 320-321.

⁵ ينظر: مؤلف مجهول، الاستبصار...، مصدر سابق، ص 180. - الحميري، مصدر سابق، ص 34.

⁶ إبراهيم حركات، مج 2، مرجع سابق، ص 152.

التصميم والزخرفة، تعبيرا عن الرفاه والبذخ وإظهارا لمكانتهم الاجتماعية من خلال الاهتمام بتفاصيل المأوى ومساحته الفسيحة.¹

فيما يلي سيتم تقديم أهم المنشآت المرينية المدنية والثقافية والدينية في مجال المغرب الأقصى:

1. الهياكل العمرانية المدنية المرينية

سيتم تقديم في الورقات القادمة دراسة تاريخية وعمرانية للمساكن والفضاءات العامة التي تلبي احتياجات مختلف شرائح المجتمع المريني من أسواق، فنادق، قيصاريات وحمامات.

1. 1 العمارة السكنية:

اختلفت طرق بناء الدور السكنية من مدينة إلى أخرى، وذلك حسب الإمكانيات والظروف الطبيعية المحيطة بها من مناخ وتضاريس وتربة والمواد المتوفرة وحسب التطور التقني وثقافة المجموعات السكانية،² إذ اعتمد بني مرين في بناء العمارات السكنية -الدور- على استعمال الآجر أو الحجر المصق بالجير أو الاسمنت،³ ومعظم هذا الحجر مزدان بفسيفساء بهيجة،⁴ توزعت ضمن نطاقات متداخلة مع الأحياء التجارية والصناعية المتعددة، مما يعكس تكاملا وظيفيا واجتماعيا داخل النسيج العمراني للمدينة، وكانت المداخل الجانبية للمنازل ترتبط بالشوارع ولها فتحات صغيرة أو كوى في الجدران لتمكن السكان من التحقق على هوية الزوار قبل السماح لهم بالدخول، وهو ما يبرز أهمية الخصوصية في الثقافة المحلية لمدينة فاس المرينية وعامة بلاد المغرب،⁵ لذلك كان من المستحب الانفراد بالمساكن لصون الأحساب وحفظ الأنساب.⁶

¹ عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة...، مصدر سابق، ص ص 510 - 511.

² لحسن تاوشخت، ج 2، مرجع سابق، ص ص 395 - 398.

³ ينظر: مارمول كربخال، ج 2، مصدر سابق، ص 145. -إبراهيم حركات، مج 2، مرجع سابق، ص 152.

⁴ حسن الوزان، ج 1، مصدر سابق، ص 222.

⁵ روجيه لوطورنو، فاس في عصر بني مرين...، مرجع سابق، ص 92.

⁶ محمد بن علي الدكالي، الاتحاف الوجيز (تاريخ العدوتين)، تح مصطفى بوشعراء، منشورات الخزانة العلمية، ط 2، سلا، المغرب، 1996، ص 48.

أما الفناء الداخلي (عرصة الدار) فكان يلعب دورا مركزيا في تهوية المنازل وإضاءةها، إذ كانت المنازل تبنى حول ساحة مركزية مفتوحة تعتبر قلب المسكن يطلق عليها الصحن، مما يضمن عدم تعرض النساء للرؤية من الخارج،¹ وهو جانب أساسي في الحفاظ على الخصوصية العائلية في حال ما إذا كانت مساحة هذه الأفنية صغيرة يجدن النساء متنفسا إضافيا في الأسطح المصنوعة من طين مخلوط بالجير والرمل والإسمنت،² حيث اشتركت جميع المنازل الفاسية في تصميمها المسطح، مما يسهل نشر الغسيل والنوم فيه صيفا وبالتالي يوفر السطح مساحات خارجية آمنة ومفتوحة.³

لأن أهل فاس كان لهم "ولع ببناء القباب، فلا تخلوا دار كبير في الغالب من قبتين أو أزيد"،⁴ ولقد كانت منازل مدينة فاس في غاية الجمال والتنسيق من الداخل أفضل منها في الخارج لأن غرفها مبيضة ومزججة بمربعات صغيرة مرصوفة،⁵ وهو نفس الشيء بالنسبة للأفنية والأروقة القائمة على الآجر،⁶ والمكسوة في الغالب بالرخام أو الزليج، ويغطي هذا الأخير القوس الرابط بين كل عمود، أما القناطر الموضوعة بين الأعمدة الحاملة للطبقات العلية تصنع من الخشب تزين ببعض النقوش وأصباغ مختلفة الألوان، وقد اعتاد السكان على صبغ السقوف الخشبية بألوان زاهية مثل اللازورد والذهب.⁷

¹ ينظر: العمري، ج 4، مصدر سابق، ص 90. -روجيه لوطورنو، فاس في عصر بني مرين...، مرجع سابق، ص 42. -لحسن تاوشيخت، ج 2، مرجع سابق، ص 399.

² مارمول كربخال، ج 2، مصدر سابق، ص 145.

³ ينظر: حسن الوزان، ج 1، مصدر سابق، ص 222. -روجيه لوطورنو، فاس في عصر بني مرين...، مرجع سابق، ص 42.

⁴ العمري، ج 4، مصدر سابق، ص 90.

⁵ مارمول كربخال، ج 2، مصدر سابق، ص 145.

⁶ العمري، ج 4، مصدر سابق، ص 90.

⁷ ينظر: حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 222-223. -لحسن تاوشيخت، ج 2، مرجع سابق، ص

399. - Pirre Champion. Le Maroc et ses villes d art. (Tanger. Fes. Meknes. Rabar. - Marrakech).

H.L. Editur. Paris. France. prt 1. P 88

تتكون معظم المنازل من طابق أو طابقين مع إمكانية التوسع إلى ثلاثة أو أربعة طوابق،¹ ويعود ذلك إلى طبيعة التربة المتماسكة في المنطقة وتوفر خشب الأرز بكميات كبيرة، والذي يتميز بمتانته ومقاومته العالية للعوامل البيئية، إذ يمكن أن يستمر استخدامه في الأسقف لمدة تصل إلى ألف عام دون تعرضه للتلف أو التحلل ما لم يتعرض للمياه،² علاوة على ذلك كان من المعتاد بناء العلية تلك الغرفة الواقعة أعلى المنزل والتي كانت تستعمل عادة للاستقبال كمنزه للنساء أو كمكان للاسترخاء مثل ما هو موجود في تلمسان، وفي كل طابق من الطوابق شرفات كثيرة الزخرفة ذات أبواب واسعة، يصنع الأغنياء لها مصاريع من الخشب منقوشة نقشا في غاية الدقة تسمح هذه الشرفات بالمرور تحت السقف من حجرة لأخرى،³ بما أن ساحة الدار مكشوفة والحجرات قائمة في كل جوانبها، من ذلك قول العمري: "وصورة تفسير أبنية دورهم مجالس متقابلة على عمد من حجر أو آجر ورفاف مظلة على صحن الدار".⁴

إلى جانب مهارة المهندسين، زخرت مدينة فاس بموارد المياه،⁵ لكثرة العيون فيها،⁶ فضلا عن وادي فاس القادم من عيون صنهاجة الذي يخترقها،⁷ ولقد وزعت المياه على كامل المدينة،⁸ كما احتوت العديد من المنازل الفاسية على صهاريج مائية مستطيلة تتراوح أبعادها بين ستة إلى سبع أذرع عرضا (6 إلى 7 أذرع) ومن عشرة إلى اثنا عشر ذراعا طولا (10 إلى 12 ذراعا)، ويبلغ

¹ ينظر: حسن الوزان، ج 1، مصدر سابق، ص 222. -روجيه لوطورنو، فاس في عصر بني مرين...، مرجع سابق، ص 93.

² ابن أبي زرع، الأئيس...، مصدر سابق، ص 43.

³ حسن الوزان، مصدر سابق، ج 1، ص ص 222 - 223.

⁴ العمري، مصدر سابق، ج 4، ص ص 90 - 91.

⁵ ينظر: ابن أبي زرع، الأئيس...، مصدر سابق، ص 44. -ياقوت الحموي، مج 4، مصدر سابق، ص 230.

⁶ الحميري، مصدر سابق، ص 434.

⁷ ينظر: مؤلف مجهول، الاستبصار...، مصدر سابق، ص 180. -أبو الفداء، مصدر سابق، ص 133. -

الحميري، مصدر سابق، ص 434.

⁸ روجيه لوطورنو، فاس في عصر بني مرين...، مرجع سابق، ص 48.

عمقها حوالي من ست إلى سبع أشبار (6 إلى 7 أشبار)، تغطي هذه الصهاريج بمربعات الزليج الذي يمثل عنصرا زخرفيا تقليديا مما يعكس تطور تقنيات البناء والفن الزخرفي في تلك الفترة.¹

شيدت سقايات منخفضة على طول جوانب هذه الصهاريج مزخرفة بنفس نمط الزليج - ما يشير إلى اهتمام خاص بجماليات التصميم والانسجام بين العناصر الزخرفية - بالإضافة إلى ذلك تزين بعض الحمامات أو البرك ببلاطات من المرمر،² على ارتفاع يصل إلى نصف قامة، تعكس مدى تأثرها بالأساليب الأوروبية المعتمدة في تصميم النوافير المائية،³ وهو ما يظهر مدى التفاعل الثقافي بين الشرق والغرب، ويجدر بنا لإشارة هنا أن أغلب المنازل التي كانت بها حمامات خاصة بأعيان المدينة وأثريائها،⁴ تعتمد آلية عمل هذه الصهاريج على تدفق الماء من السقايات إلى الصهاريج عبر قنوات مغطاة ومبلطة، عندما تمتلئ الصهاريج الكبرى يصرف الماء عبر مجاري خاصة ليصب في بالوعات صغيرة، وهكذا يجري الماء تحت المراحيض - أكرمكم الله - ومن ثم يتدفق إلى النهر.⁵

تشير هذه البنية المائية إلى نظام فعال لإدارة المياه المنزلية، إذ لم يكن يقتصر على توفير المياه فقط بل تضمن أيضا تصريفها بشكل منظم وصحي، كما يلاحظ أيضا أن هناك عناية فائقة تبذل للحفاظ على نقاء وصفاء الماء في هذه الصهاريج، مما يظهر الأهمية التي أولاها المجتمع للنظافة والاستجمام،⁶ ويقتصر استخدام هذه الصهاريج إلا في فصل الصيف حيث تستخدم كأماكن للاستحمام من قبل الرجال والنساء والأطفال خاصة وأن تلك التي بالمدينة تحتوي على "صحن واحد لا خلوة فيها تستر بعض الناس من بعض".⁷

¹ حسن الوزان، ج 1، مصدر سابق، ص 223.

² ينظر: مارمول كربخال، ج 2، مصدر سابق، ص 146. -لحسن تاوشيخت، ج 2، مرجع سابق، ص 399.

³ حسن الوزان، ج 1، مصدر سابق، ص 223.

⁴ العمري ج 4، مصدر سابق، ص 91.

⁵ ينظر: حسن الوزان، ج 1، مصدر سابق، ص 223. -روجيه لوطورنو، فاس في عصر بني مرين...، مرجع سابق، ص 48.

⁶ حسن الوزان، ج 1، مصدر سابق، ص 223.

⁷ العمري، ج 4، مصدر سابق، ص 91.

كانت المنازل في مركز المدينة متلاصقة وأفنياتها صغيرة نسبيا بينما اتسمت المنازل في المناطق الخارجية،¹ بتباعدتها النسبي وبأفنياتها الأوسع،² والقسم الشرقي من عدوة الأندلسيين أكثر تحضرا وعمارة من القسم الجنوبي الذي يكاد يكون غير مسكون،³ مما يعكس الفروقات في الاستخدام الحضري بين قلب المدينة وأطرافها، وكانت منازل عدوة القرويين أحسن مما هو موجود بعدوة الأندلسيين لأن "طابعها الحضري أقل ظهورا: فالدور أقل ارتفاعا".⁴

يعد تصميم المنازل المرينية في المناطق الأخرى مشابهة تماما لما هو موجود بفاس من ذلك منازل مدينة سلا هي الأخرى لها أفنية وممرات مسقوفة على الطراز المحلي، مزدانة بعدة سوار، ولوحات من الأحجار الملونة والمرمر،⁵ وتبلغ ديار سلا نحو ثلاثة آلاف دار تقريبا.⁶

أما بخصوص منازل مدينة سجداسة فلقد توصلت البعثة الأمريكية سنة 1998م إلى الكشف عن تشكيلات عمرانية هامة ذات طراز مريني، مكونة من قاعدة جدران بناية زينت بعض واجهاتها بزخارف جصية ذات أشكال هندسية ونباتية مبنية بطابية المبلطة وبالأجر وبالحجارة، وكانت أرضيتها متهئية بالجير والحصى، بينما تشكلت أرضية أخرى مجاورة لها من أحجار مسطحة،⁷ كما تميزت دور سجداسة باحتواء كل دار على بستان مثل ما هو موجود بالصين،⁸ والتصاق المنازل ببعضها البعض،⁹ تتوزع حسب تنظيم الشوارع والأزقة وعدد السكان وانتماءاتهم

¹ بنيت خارج الأسوار مساكن ملاصقة في جنباتها وبساتينها، أضيفت إلى المدينة. **ينظر:** الحميري، مصدر سابق، ص 434.

² روجيه لوطورنو، فاس في عصر بني مرين...، مصدر سابق، ص 42.

³ حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص ص 247-248.

⁴ روجيه لوطورنو، فاس قبل الحماية...، ج 1، مرجع سابق، ص 207.

⁵ مارمول كربخال، ج 2، مصدر سابق، ص 135.

⁶ محمد بن علي الدكالي، مرجع سابق، 83.

⁷ لحسن تاوשיخت، ج 2، مرجع سابق، ص ص 398-399.

⁸ محمد بن عبد الله ابن بطوطة (ت 779هـ)، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تقد وتحم محمد

عبد المنعم العريان، مر مصطفى القصاص، دار أحياء العلوم، ج 1، ط 1، بيروت، لبنان، 1987، ص 136.

⁹ الحميري، مصدر سابق، ص 305.

القبلية ومكانتهم الاجتماعية والاقتصادية،¹ يقول البكري في وصفها "وفيها دور رفيعة ومبان سرية"،² وحسن الوزان: "مدينة متحضرة جدا، دورها جميلة".³

وإلى جانب المساكن السكانية شاد بني مرين القصور لسكنى السلاطين والأمراء،⁴ وبعض الأعيان، من ذلك القصر الملكي.⁵

1. 2 المنشآت التجارية والفضاءات العامة: دراسة في البنى الاقتصادية والاجتماعية:

ساعد الموقع الجغرافي لمدينة فاس عاصمة بني مرين على الارتقاء بتجارتها وتفعيل نشاطها الاقتصادي، فكانت تشد إليها الركائب وتقصدها القوافل من كل الأقطار، وتجلب إلى حاضرتها كل أنواع الثياب والبضائع والأمتعة،⁶ لكونها نقطة التقاء الطرق المؤدية إلى السودان الغربي من جهة،⁷ وإلى المدن الأندلسية من الطريق الممتد من الغرب إلى الشرق بين بحر الظلمات ووسط المغرب الأقصى من جهة أخرى.⁸

وما زاد من ثراء الدولة المرينية هو اكتساب مدينة فاس للعديد من المصادر المائية.⁹ اعتمدت الدولة المرينية في اقتصادها بالدرجة الأولى على الزراعة والرعي والتعدين بالإضافة إلى الحرف والصناعات، وما ساعد على تدفق وانتعاش تجارتها هو توفرها على العديد

¹ لحسن تاوשיخت، ج 2، مرجع سابق، ص 397.

² البكري، المسالك والممالك...، ج 2، مصدر سابق، ص 332.

³ حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 127.

⁴ محمد عيسى الحريزي، مرجع سابق، ص 58.

⁵ حسن الوزان، ج 1، مصدر سابق، ص 248.

⁶ الحميري، مصدر سابق، ص 434.

⁷ تربط فاس بالسودان الغربي عدة محاور (مراكش، والسوس الأقصى، ونول لمطة)، فمن فاس إلى سجماسة ثم إلى السوس الأقصى، ويمر بعد ذلك نول لمطة ويتقاطع مع الطريق الواصل بين سجماسة وبحر الروم عبر مكناسة وفاس. **ينظر:** هالة عبد الرزاق، مرجع سابق، ص 68 - 69.

⁸ هالة عبد الرزاق، مرجع سابق، ص 37 - 69.

⁹ **ينظر:** مؤلف مجهول، الاستبصار...، مصدر سابق، ص 180. - أبو الفداء، مصدر سابق، ص 133. - ياقوت الحموي، مج 4، مصدر سابق، ص 230. - الحميري، مصدر سابق، ص 434. - مارمول كربخال، ج 2، مصدر سابق، ص 158 - 159.

من المنشآت التجارية لعرض سلعها وأماكن لاستقرار فئات التجار الأجانب،¹ منها من تشييد بني مرين والبعض منها ورثوه على المرابطين والموحدين لأن مدينة فاس بلغت على أيامهم، "من العمارة والغبطة والرفاهية والدعة ما لم تبلغه مدينة من مدن المغرب"،² من هذه المنشآت: الأسواق، القيساريات، والفنادق، كما استعملت هذه الأخيرة إلى جانب الإقامة والمبيت في تخزين السلع وعرضها لتجار الجملة.³

إلى جانب المرافق التجارية احتوت المدن المرينية وخاصة فاس على العديد من الحمامات الموزعة على أحياءها والمستشفيات أو ما يطلق عليها خلال فترة الدراسة المارستانات، وفيما يلي سوف نقوم باستقراء وتقديم موجز لأهم المنشآت التجارية والفضاءات العامة للدولة المرينية، خاصة عاصمتها:

1. 2. 1 الأسواق:

اكتسبت أسواق المغرب الأقصى خلال العهد المريني شهرة واسعة نتيجة لأدوارها الاقتصادية والاجتماعية، لذلك أولت السلطة عناية خاص بتشييد الأسواق وترميم ما تتلم منها بسبب الحروب أو الكوارث الطبيعية، مثال ذلك السيل الذي أصاب مدينة فاس -المنبعث من وادي فاس- سنة (725هـ/1325م) فخرّب سوق الصباغين وسوق رملية وهدمت القنطرة الكبيرة التي عليها سوق باب سلسلة وهدم من الحوانيت أربعة وتسعين حانوتا (94 حانوتا)، ونظيرا لذلك أمر السلطان أبو سعيد عثمان بتجديد القنطرة، وبنيت الحوانيت عليها من الجانبين وأعيد تشييد سوق الصباغين.⁴

اختلفت خصائص الأسواق وبنائها تبعا لمواقعها وتنظيمها، فكانت الأسواق في مدينة مراكش مبنية بالآجر الفخاري الجيد وغالبا ما تكون أحياء الصنائع والمتاجر في السوق شبيهة

¹ هالة عبد الرزاق، مرجع سابق، ص 62.

² ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 47.

³ هالة عبد الرزاق، مرجع سابق، ص ص 62-63.

⁴ **ينظر:** ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 414. -الجزائري، مصدر سابق، ص 44. -الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 179.

بالقرى المغطاة بالقصب ومسقفة بالأخشاب والعيان، ولقد ورثت مريـن هذه الأسواق عن المرابطين،¹ والموحدين.²

أما أسواق مدينة فاس فتختلف في بنائها فمثلا سوق العطارين كان مغلقا على طرفيه ببابين، لا تقل متانتهم عن فخامتهم، أورد ابن أبي زرع وصفا لأحد هذه الأبواب التي شادها السلطان أبو السعيد عثمان بعد تجديد وبناء هذا السوق إثر الحريق الذي اندلع سنة (723هـ/1323م)، وعمل عليه بابا كبيرا مصفحا بالحديد، وبنا على رأسه سورا مشرفا فجاء شبيه بباب المدينة،³ ودكاكين هذا السوق كثيرة الزخرفة وسقوفها جيدة على الرغم من تواجده في زقاق ضيق وأسواق الجانب الشرقي من فاس كان أغلبها مبلط بالآجر والحجر، أما أسواق مدينة سلا فبنيت من الفسيفساء وأعمدة الرخام وبين أعمدة دكاكينها توجد أقواس على شكل حذوة الفرس.⁴

جرت العادة في بلاد المشرق الإسلامي أن تختص كل صناعة بسوق وكل سوق بصناعة، وعادة تكون هذه الأسواق حول المسجد الجامع نتيجة لاتصالها به وظيفيا وهو نفس الأمر المتعارف عليه في بلاد المغرب، وعليه فلقد احتوى المغرب الأقصى عامة ومدينة فاس باعتبارها عاصمة بني مريـن -كل من القديمة والجديدة- على العديد من الأسواق.⁵

اهتمت السلطة المرينية بتنظيم وبناء أسواق جديدة في عاصمتهم، إلى جانب تجديد ما ورثوه على الموحدين،⁶ فبنوا في فاس الجديد الأسواق من باب القنطرة إلى باب عيون صنهاجة،⁷

¹ كريم عاتي، مرجع سابق، ص ص 77-78.

² شب حريق بقيسارية مراكش سنة (607هـ/1210م) خلال عصر الخليفة الموحي الناصر وتمكنت النيران من حرق سقف الأسواق، فأمر الخليفة بـ: "جبر هذه الأسواق وإقامتها وإعادةها إلى ما كانت عليهم أحسن هيئتها فإنها كانت كالمرآة في وجه القصر تضفي به من أكنافه وكالورد العذب والمادة لتأتي مؤنه وجميع لباناته". **ينظر:** ابن عذاري المراكشي، مصدر سابق، قسم الموحدين، ص ص 257-258.

³ ابن أبي زرع، الأتيس...، مصدر سابق، ص 413.

⁴ كريم عاتي، مرجع سابق، ص ص 77-78.

⁵ العمري، ج 4، مصدر سابق، ص 90.

⁶ كريم عاتي الخزاعي، رجـع سابق، ص 68.

⁷ لحسن تاوشيخت، ج 1، مرجع سابق، ص 327.

لكنها اقتصرت على أمور بسيطة وذلك لأن الأسواق والمخازن والمصانع القائمة في المدينة القديمة كانت جمة النشاط وتكفي المنطقتين.¹

والجدير بالإشارة أن جل هذه المؤسسات التجارية الكبرى بما فيها الأسواق كانت متمركزة في عدوة القرويين باستثناء الفخاريين ومربيي المواشي.²

تمركزت أسواق فاس في مواقع إستراتيجية بالقرب من مسجد القرويين بعضها ملتصق بالجامع، وبعضها مقابل له،³ وقد أدى هذا القرب إلى نشوء أسواق متخصصة تلبي احتياجات المسجد والمصلين،⁴ على سبيل المثال برز سوق الشماعين الشهير بمدينة فاس كجزء أساسي لتوفير الشموع المستخدمة في الإضاءة خلال الصلوات الليلية.⁵

أمام الباب الرئيسي للجامع من الجهة الغربية يوجد دكاكين باعة الفواكه مباشرة والتي بلغ عددها حوالي خمسين دكانا (50 دكانا)،⁶ كما تخصص من نفس جهة باب الجامع الغربي أكثر من مائتي إسكافا يبيعون الأحذية (للنساء والرجال) وعدد آخر من الدكاكين لباعة الزهور، ويبيع فيها أيضا الليمون والبرتقال وجميع المشروبات وتقابلها دكاكين لبيع اللبن بأنواعه (اللبن الطري، والحامض، والزبدة)، وأكثر من ثلاثين محل يباع فيه القطن المغزول والغير مغزول.⁷

على شمال دكاكين القطن توجد محلات لبيع مستلزمات الخيل، وبعدهم مباشرة نجد دكاكين لباعة أغمدة السيوف والمواسي وأغطية صدور الخيل ثم بائع الملح والجبس ثم بائع الأواني يبلغ عدد دكاكينهم مائة دكان (100 دكان) ونحو ثمانين دكان لباعة الشكم واللجم والأحزمة والسروج والركابات.⁸

¹ روجيه لوطورنو، فاس في عصر بني مرين...، مصدر سابق، ص 27.

² روجيه لوطورنو، فاس قبل الحماية...، ج 1، مرجع سابق، ص 218.

³ حسن الوزان، ج 1، مصدر سابق، ص 233.

⁴ **ينظر:** كريم عاتي الخزاعي، مرجع سابق، ص 68. -هالة عبد الرزاق، مرجع سابق، ص 78.

⁵ **ينظر:** حسن الوزان، ج 1، مصدر سابق، ص 234. -الجزنائي، مصدر سابق، ص 116.

⁶ حسن الوزان، ج 1، مصدر سابق، ص 234.

⁷ مارمول كربخال، ج 2، مصدر سابق، ص 150 - 151.

⁸ حسن الوزان، ج 1، مصدر سابق، ص 235.

كما يوجد سوق القبايقية لوجوب الضوء،¹ وكان هناك دكاكين للكتبيين الذي تميزوا بتجارة الكتب والوراقين بلغ عددها ثلاثين دكانا (30 دكان)،² بما أن المساجد كانت تقوم بنفس أدوار ووظائف المدارس لنشر العلوم إلى جانب العبادات.³

بالإضافة إلى هذه الأسواق وجدت مكاتب العدول والمأذونين بالقرب من المسجد الجامع حيث بلغ عددها نحو ثمانين مكتبا، كان في كل مكتب عدلان يجلسان أمام منضدتين ويتوليان تحرير مختلف أنواع العقود سواء المتعلقة بالمجال الحضري أو الريفي ليتم التصديق عليها لاحقا من قبل القاضي،⁴ مما يعكس الدور المتكامل للمسجد في الحياة الاجتماعية والاقتصادية.

يبرز هذا الارتباط الوثيق بين الأسواق والمساجد في مدينة فاس من خلال الأبواب التي سميت بأسماء تلك الأسواق الحيوية فمسجد القرويين على سبيل المثال له أبواب تحمل دلالات تجارية وحرفية واضحة مثل باب النجارين،⁵ وباب الكتبيين الذي كان محاطا ببائعي الكتب والورق وباب الشماعين القريب من سوق الشماعين.⁶

كان لوجود الأسواق بالقرب من المساجد أثر مباشر على تنظيمها إذ كان يطلب من الباعة كنس الساحات التي في الغالب يباع فيها أنواع من الخضر والأعشاب،⁷ المقابلة للمساجد صباح يوم الجمعة وعدم عرض السلع فيها حتى تنتهي الصلاة،⁸ وحول هذه الساحة أكثر من مائة دكان (100 دكان) يباع فيه حلوى العسل والإسفنجة، وأزيد من ستين دكانا آخر للشوائين بجوارها عدة دكاكين يباع فيها اللحم والسمك المطبوخ وحلويات ومخبوزات، وبجوارها أكثر من خمسين دكانا يباع فيه الزيت والسمن ولعسل والجبن والزيتون، ومقابل لهذه الدكاكين أربعين محلا للجزارين، ولم تكن الأسواق مقتصرة على منطقة القرويين فحسب بل انتشرت أيضا دكاكين متفرقة عبر عامة

¹ ينظر: كريم عاتي الخزاعي، مرجع سابق، ص 68. -هالة عبد الرزاق، مرجع سابق، ص 78.

² مارمول كريخال، مصدر سابق، ج 2، ص 150.

³ حسين مؤنس، المساجد...، مرجع سابق، ص 32.

⁴ مارمول كريخال، ج 2، مصدر سابق، ص 150.

⁵ مؤلف مجهول، الاستبصار...، مصدر سابق، ص 181.

⁶ ينظر: الجزنائي، مصدر سابق، ص ص 75-108. -إبراهيم حركات، مج 2، مرجع سابق، ص 158.

⁷ ينظر: حسن الوزان، ج 1، مصدر سابق، ص ص 235-236. -مارمول كريخال، ج 2، مصدر سابق، ص 151.

⁸ هالة عبد الرزاق، مرجع سابق، ص 79.

المدينة (فاس الجديد وعدوة القرويين وعدوة الأندلسيين)¹ وفي الأجزاء القريبة من المدينة داخل السوق الخارجي،² وحول جامع الأندلس وإن كانت السوق القريبة منه تحتوي على الأشياء نفسها ولكن على مقياس أصغر،³ وهذا لأن سكان عدوة القرويين أكثر "تخوة في البناء واللباس والفراش والمطعم والمشرب، وأكثرهم صناع وتجار وسوقة".⁴

وعليه فلقد وجدت أسواق على شكل رواق كبير له أربعة أبواب تباع فيه المشاقة والخيط والقماش، وهناك زقاق آخر يبتدىء من الباب الغربي للجامع يؤدي إلى باب المدينة المفضي إلى فاس الجديد، يشتهر هذا الزقاق بكثرة الساحات والدكاكين التي تشكل مركزا مهما للحرف اليدوية والصناعات التقليدية، من بين هذه الحرف صناعة القرب المائنة المصنوعة من جلود الماعز حيث يتم إعدادها بعناية ودقة، بالإضافة إلى ذلك يضم الزقاق أكثر من خمسين ورشة حدادة متخصصة في تصنيع ركاب الخيل وغيرها من الأدوات الحديدية.⁵

كما يجاور هذه الورش مجموعة من الحرفيين المتخصصين في صناعة الدروع الجلدية الفاخرة والتي تتميز بجمالها ودقتها الفنية، وفي ذات المنطقة يوجد نحو خمسة وعشرين دكانا مخصصا لغسل الملابس في أحواض كبيرة، حيث تخضع الأقمشة لعمليات تنظيف دقيقة تجعلها بيضاء كالثلج، ومن الجدير بالذكر أن هناك حوالي مائتي دكان أخرى موزعة في مختلف أنحاء المدينة تؤدي نفس الوظيفة، بالقرب من هذا الزقاق تبرز المدرسة التي أنشأها السلطان أبو عنان،⁶ والتي تحيط بها مجموعة من الدكاكين المتخصصة في تذهيب وتزيين مختلف الأدوات الحديدية كالرقابات والمهاميز واللجم باستخدام تقنيات متقدمة تظهر مهارة الحرفيين في تزيين هذه المنتجات

¹ مارمول كربخال، ج 2، مصدر سابق، ص ص 151-152.

² كريم عاتي الخزاعي، مرجع سابق، ص 74.

³ روجيه لوطورنو، فاس في عصر بني مرين...، مرجع سابق، ص 41.

⁴ ابن أبي زرع، لأنيس...، مصدر سابق، ص 43.

⁵ **ينظر:** مارمول كربخال، ج 2، مصدر سابق، ص ص 152-153. -هالة عبد الرزاق، مرجع سابق، ص ص 80-81.

⁶ **ينظر:** حسن الوزان، مصدر سابق، ج 1، ص ص 25-226. -عبد الهادي التازي، مج 2، مرجع سابق، ص 360. -شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص 241.

بالذهب والزخارف الفنية ويشغلون نحو أربعين دكانا، ورغم جودة هذه الصناعات في فاس إلا أن تلمسان تتميز بتقديم منتجات مماثلة بمستوى رفيع.¹

يقابل هذا الزقاق زقاق آخر يحتوي على أكثر من ثمانين دكانا مخصص لصناعة أغذية السروج المصنوعة من الجلود،² وبالقرب من القصر الكبير وعلى جانبي القصبة تتواجد أربعون ورشة مخصصة لصناعة الإبر،³ إلى جانب خمسة عشر دكانا لصناعة الأمشاط وتنتشر محلات هاتين الحرفتين في أنحاء متفرقة من المدينة على بعد مسافة قصيرة توجد ساحة صغيرة محاطة بعدد من الدكاكين المتلاصقة، حيث تباع فيها السلع الأساسية مثل الدقيق والصابون وأدوات التنظيف المنزلية، كما تضم الساحة ستة عشر دكانا مخصصة لبيع الطيور الحية والمذبوحة وبالقرب من هذه الساحة يوجد منزل كبير يستخدم لبيع العبيد من الجنسين مساء، في هذه المنطقة تنتشر أيضا ورش صناعة الأخفاف والنعال المزخرفة، مما يبرز تنوع الأنشطة الحرفية التي تميز مدينة فاس.⁴

أمام الدكاكين المذكورة توجد اثنا عشر دكانا (12 دكانا) للمورسكيين من غرناطة وبلنسية، يتخصصون في صناعة الأسلحة النارية، يليها خمسون دكانا (50 دكان) تصنع فيها المكناس من سعف النخيل وتباع في المدينة وبجانبها عشرون دكانا مخصصة لصناعة المسامير، ثم يأتي سوق لبيع صوف وجلود الأغنام والبقر والماعز، كما توجد دكاكين تصنع القبعات من السعف والسلال الصغيرة وأخرى تنتج مشاقات وأمشاط حديدية حادة لإصلاح الكتان ونقش الصوف، وفي منطقة قريبة توجد ساحة كبيرة مليئة بدكاكين صقل المهاميز والركبات والمصنعات الحديدية، تليها دكاكين النجارين لصناعة المحاريث وعجلات العربات، وأخيرا تنتشر دكاكين لصناعة حذوات الخيل والبلغال بجوار محلات غسل الأقمشة.⁵

¹ مارمول كربخال، ج 2، مصدر سابق، ص 153.

² حسن الوزان، ج 1، مصدر سابق، ص 239.

³ ينظر: مارمول كربخال، ج 2، مصدر سابق، ص 153. -هالة عبد الرزاق، مرجع سابق، ص 81.

⁴ حسن الوزان، ج 1، مصدر سابق، ص 239.

⁵ مارمول كربخال، ج 2، مصدر سابق، ص 154.

ضمت مدينة فاس الجديد عددا من دكاكين الصاغة أين يعمل بها عدد كبير من اليهود، وكانت تحمل من فاس الجديد إلى المدينة القديمة لبيعها في سوق معد لهم بالقرب من سوق العطارين، فوجد هناك سويقة الذهبان المجاورة للصاغة، وبمدينة فاس حي الكغاطين أين اشتهر سكانه بصناعة الورق، كما ارتبطت بعض الأسواق في مدينة فاس بالنهر الذي كان يلعب دورا محوريا في دعم الأنشطة الصناعية، مثل دباغة الجلود وصباغتها وتبييض الخيوط حيث كان الحرفيون يعتمدون على المياه المتدفقة من النهر في عملياتهم.¹

وفي المجمل ضمت عاصمة بني مرين حوانيت متعددة وكثيرة أغلبها كانت قد بنيت خلال العهد المرابطي والموحدي، وصل عددها خلال عهد هذا الأخير إلى تسعة آلاف ومائتين وثمانين حانوتا،² وضمت مدينة سبتة خلال العهد المريني من الحوانيت أربع وعشرين ألفا (24000 حانوت).³

1. 2. 2 القيساريات:

تعتبر القيساريات جزءا مكملًا للأسواق إلا أن التنظيم العام للقيساريات يختلف كليا عن تنظيم وتخطيط الأسواق، وكانت بعض القيساريات تحتوي على حوانيت للتجارة وبعضها الآخر معاملا للصناعة منها صناعة النسيج،⁴ وعليه فلقد احتوت مدينة مراكش على قيسارية يعود تأسيسها إلى سنة (585هـ/1189م)،⁵ يقول صاحب كتاب الاستبصار في وصفها: "قيسارية عظيمة لم يبق في مدن الأرض أعظم منها".⁶

¹ هالة عبد الرزاق، مرجع سابق، ص 82.

² الجزنائي، مصدر سابق، ص 44. وقد أورد ابن أبي زرع أن عددها بلغ تسعة آلاف واثنان وثمانين حانوتا (9082 حانوتا). ينظر: ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 48.

³ محمد بن القاسم السبتي (ت بعد 825هـ)، اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار، تح عبد الوهاب بن منصور، ط 2، الرباط، المغرب، 1983، ص 36.

⁴ كريم عاتي الخزاعي، مرجع سابق، ص 66.

⁵ ابن عذارى المراكشي، مصدر سابق، قسم الموحدين، ص 257-258.

⁶ مؤلف مجهول، مصدر سابق، ص 208.

وبمدينة سبتة أيضا وجدت قيصارية تقع خلف الجامع الأعظم،¹ واحتوت مدينة سلا هي الأخرى على قيصارية عظيمة تم استحداثها خلال عهد الخليفة أبو يعقوب بعد أن أمر بإعادة تعمير المدينة عام (574هـ/1178م) إلى جانب القسبة المستحدثة -بها قصور وجامع وصهاريج الماء - والحمامات والفنادق، والدور السكنية.²

أما مدينة فاس فلقد احتوت على قيصارية،³ تختص في بيع الثياب القديمة أحذية وزينة رأس النساء، والأقمشة البالية وأغطية وزرابي... وهي عبارة عن دكاكين تكون مسورة تغلق ليلا.⁴

1. 2. 3 الفنادق:

بينما كانت السلطة الحفصية تسعى إلى الحد من مظاهر الفساد الأخلاقي في الفنادق عن طريق غلقها وتعويضها بزوايا أو مساجد، وفنادق تلمسان كانت تحظى بحصانة دبلوماسية مميزة مما جعلها تؤدي دورا شبيها بالسفارات في الوقت الراهن مثل ما تم الإشارة إليه سابقا، فعلى النقيض من ذلك فإن فنادق مدينة فاس -كما وصفها حسن الوزان- كانت تقتصر إلى أبسط متطلبات السكن اللائق، حيث كانت فنادقها تعاني من نقص حاد في الأثاث والمرافق الأساسية، إذ كان صاحب الفندق يزود المستأجر بغطاء وحصير فقط للنوم،⁵ ولم تكن هذه الفنادق توفر أي خدمات غذائية كما أنها لم تكن محصورة في خدمة التجار الأجانب كما في تونس وتلمسان، بل كانت مأوى لفئات متعددة من المجتمع بما في ذلك المشردين.⁶

¹ السبتي، مصدر سابق، ص 36.

² مؤلف مجهول، الاستبصار...، مصدر سابق، ص 140.

³ تواجد بمدينة فاس خلال العهد الموحي قيصاريتين أحدهما بعدوة القرويين والأخرى بعدوة الأندلس على وادي مصمودة. **ينظر:** ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 48.

⁴ **ينظر:** الجزنائي، مصدر سابق، ص 115. -مارمول كربخال، ج 2، مصدر سابق، ص 149-150. - كريم عاتي الخزاعي، مرجع سابق، ص 67. -روجيه لوطورنو، فاس قبل الحماية...، ج 1، مرجع سابق، ص 540.

⁵ حسن الوزان، ج 1، مصدر سابق، ص 231.

⁶ نفس المصدر، ص 231-232.

وفيما يتعلق بالسلوك الاجتماعي في المدينة فقد وصفت نساء فاس في تلك الفترة بأنهن "قليلات العفة"¹ نظرا لانخراطهن في سلوكيات غير أخلاقية،² وبحسب التقارير التي قدمها الوزان لم تخلوا فنادق فاس من النساء التي تمتهن نفس مهنة مومسات أوربا، وكان أزواجهن أيضا يطلق عليهم "الهيوى" يمارسون نفس مهنة زيجاتهم، كما كان لهم ترخيص قانوني يسمح لهم بشراء وبيع الخمر.³

كما أن المعاصي التي كانت ترتكب في سائر الفنادق بمدينة فاس، كانت السلطات على دراية تامة بها ولا تفرض عليهم أي عقوبات، لهذا وصف كربخال فنادق فاس ما عدا فندق الشماعين الذي هو على مقربة من الجامع الكبير بأنها: "ملاجئ للشياطين"،⁴ على الرغم من وجود دور عمومية "تمارس فيها البغايا مهنتهن بثمن بخس، تحت حماية رئيس الشرطة أوحاكم المدينة".⁵

على الرغم من ذلك كانت لفنادق فاس إلى جانب ما هو موجود في مدن المغرب الأقصى عامة خلال العهد المريني أدوار في تنشيط الاقتصاد لكونها مقصدا للتجار، ومركزا لتلاقي هاته الفئة من بقاع عديدة فكان الفندق أشبه ما يكون بمخزن أو سقيفة يخزن التجار فيها بضاعتهم،⁶ أما فيما يخص تنظيم الفنادق وما احتوت عليه من خدمات ومرافق، فهي مثل ما تم ذكره سابقا عن فنادق تلمسان.

وجد بمدينة فاس وحدها خلال العهد المريني العديد من الفنادق منها من شاده بنو مرين والبعض منها ورثوه على المرابطين والموحدين، إذ بلغ عدد الفنادق على أيامهم المعدة للتجار

¹ مارمول كربخال، ج 2، مصدر سابق، ص 176.

² روجيه لوطورنو، فاس في عصر بني مرين...، مرجع سابق، ص 109 - 110.

³ حسن الوزان، ج 1، مصدر سابق، ص 232.

⁴ مارمول كربخال، ج 2، نفس المصدر، ص 147.

⁵ حسن الوزان، ج 1، مصدر سابق، ص 247..

⁶ ينظر: روجيه لوطورنو، فاس في عصر بني مرين...، مرجع سابق، ص 41. -محمد عيسى الحريري، مرجع سابق، ص 327.

والمسافرين والغرباء أربعمائة وسبعة وستين فندقاً (467 فندقاً)،¹ وخلال العهد المريني وجد بفاس البالي مائتي فندقاً.²

من أشهر فنادق فاس وأهمها فندق الشماعين بعدوة القرويين قام بتجديده وإصلاحه أبو عبد الله الحدودي وأوقف عليه يوسف أبو يعقوب أحباساً،³ كان هذا الفندق من أهم مراكز التجمع لرجال المال والتجارة،⁴ حتى أن الخطيب أبو الفضل محمد بن الحسن المزوغني -خطيب جامع القرويين- كان يريد من السلطان أبو الحسن المريني أن يعطيه ثلاثة أحمال من الذهب لكي يقيم بهذا الفندق،⁵ ولقد قام السلطان أبو سعيد عثمان ببناء فندق لطلبة العلم بمحاذاة جامع الأندلس من الجهة الغربية سنة (721هـ/1321م).⁶

ونفس الشيء نجده بفاس الجديد منها ما هو موزع بجانب الجامع الأعظم ومنها ما هو موزع في الأحياء مثل ما هو موجود في الحي الثاني، وهذه الفنادق كانت ملكاً لكبار النبلاء، من أسماء بعض الفنادق الأخرى المشهورة بفاس: فندق الملجوم، فندق الغرباء،⁷ فندق الحدودي، فندق الزيت، فندق الرضاع شرق جامع القرويين،⁸ فندق التجار، فندق خنوسة،⁹ فندق اليهود بالقرب من باب عجيسة،¹⁰ فندق ابن حيون الملاصق لدرب ابن حيون من حومة بوطويل بعدوة

¹ ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 49.

² ينظر: حسن الوزان، ج 1، مصدر سابق، ص 231. -مارمول كربخال، ج 2، مصدر سابق، ص 147. -كريم عاتي الخزاعي، مرجع سابق، ص 63.

³ الجزنائي، مصدر سابق، ص 79.

⁴ ينظر: مارمول كربخال، ج 2، مصدر سابق، ص 147. -محمد عيسى الحريزي، مصدر سابق، ص 327.

⁵ كريم عاتي الخزاعي، مرجع سابق، ص 63.

⁶ ينظر: ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 412. -الناصر، ج 3، مرجع سابق، ص 112.

⁷ هالة عبد الرزاق، نفسالمرجع، ص 63.

⁸ عبد الهادي التازي، مج 2، مرجع سابق، ص 358-359.

⁹ هالة عبد الرزاق، مرجع سابق، ص 63.

¹⁰ روجيه لوطورنو، فاس قبل الحماية...، ج 1، مرجع سابق، ص 190.

القرويين،¹ وفندق التطاونيين الواقع بالقرب من جامع القرويين من الجهة الجنوبية من إنشاء بني مرين، وما يميز هذا الفندق هو السقف الخشبي لقبة المدخل المزدان بنقوش ممشوقة.²

إلى جانب هذه الفنادق انتشر على طول الطرق في أنحاء المغرب الأقصى نزل شبيهة بفنادق صغيرة، مهمتها خدمة المسافرين والمحافظ على أمتعتهم، وجدت على مسافات ثابتة مقدرة باثني عشر ميلا.³

فنادق فاس أجمل من فنادق مراكش⁴ التي تتمتع بالطراز الإفريقي وأجمل أيضا من الفنادق الأوربية، من حيث بنيتها المعمارية المتقنة التي تعكس مهارة في التصميم والبناء والتنظيم العمراني والمعماري الذي يهدف إلى تلبية احتياجات النزلاء والتجار، فهي كبيرة وحسنة البناء،⁵ هذا ما يؤكد حسن الوزن في قوله: "تتألف كلها من ثلاث طبقات، منها ما يشتمل على مائة وعشرين غرفة، ومنها ما يشتمل على أكثر من ذلك. وفي كل فندق صهريج وميضأة ببالوعات لا استفرغ القاذورات... وتفتتح كل أبواب الغرف على ممر".⁶

نستنتج مما ذكر بغض النظر عن السلوكات الغير أخلاقية التي كانت ترتكب داخل الفنادق، أن التكوين المعماري لهذه الفنادق يعكس مستوى متقدما من التنظيم المكاني، وإشارة إلى أنه تم تصميم هذه المباني لتستوعب عددا كبيرا من النزلاء مما يدل على ازدهار النشاط التجاري وحركة التجارة في المدينة وأنها كانت تستقبل أعدادا كبيرة من الزوار بشكل منتظم، خاصة وأنها احتوت على عدد الكبير من الغرف يفوق مائة وعشرين غرفة، مما يدل على أهمية فاس كمركز تجاري.

¹ الجزنائي، مصدر سابق، ص ص 70-114.

² روجيه لوطورنو، فاس قبل الحماية...، ج 1، مرجع سابق، ص 199.

³ محمد عيسى الحريري، مرجع سابق، ص 327.

⁴ احتوت مدينة مراكش خلال العهد الموحي على مجموعة من الفنادق الضخمة، منها فندق الأرنجة القريب من مسجد أبي يوسف، وفندق السكر قرب باب نفيس، وفندق المقبل الذي هبط فيه أبو العباس السبتي. ينظر: التبتكتي،

مصدر سابق، ج 1، ص 73. كريم عاتي الخزاعي، مرجع سابق، ص 61.

⁵ مارمول كربخال، ج 2، مصدر سابق، ص 147.

⁶ حسن الوزان، ج 1، مصدر سابق، ص 231.

وعلى الرغم من أن تلك الفنادق كانت تقتصر للأثاث وأماكن للأكل إلا أنها احتوت على مرافق صحية مثل الصهاريج والميضآت ببالوعات، وهو ما يعكس اهتماما كبيرا بالنظافة والصحة العامة، كما كانت هذه المرافق ضرورية لتلبية احتياجات النزلاء وضمان بيئة نظيفة وصحية، فالبالوعات تدل على وجود نظام متقدم لإدارة الفضلات، وهو أمر يدل على تطور ملحوظ في التنظيم الحضري والمعماري في حين يعكس تصميم أبواب الغرف المفتوحة على ممرات داخلية تنظيما داخليا فعالا، يسمح بالتنقل السهل والمرن داخل الفندق فمثل هذا التنظيم يسهم في تسهيل الحركة داخل المبنى ويوفر للنزلاء راحة وسهولة في الوصول إلى غرفهم.¹

أما مدينة سبتة فهي الأخرى احتوت على مجموعة من الفنادق بلغ عددها ثلاثمائة وستين فندقا (360 فندق)، من أفضل هذه الفنادق وأكبرها هو الفندق الذي شاده محمد أبي القاسم العزفي، يحتوي على اثنين وخمسين مخزنا ما بين هري (مخان الزرع) وبيت له بابين الأول مفضي إلى ساحته الواسعة والثاني يفضي إلى الشوارع، يليه في الكبر فندق غانم الذي أعد لسكنى الناس والتجار يعود تاريخ تأسيسه إلى العهد اللمتوني، ويعتبر فندق الوهراني أجمل الفنادق فنا وجمالا لما جمعه من حسن بدائع الجص والنجارة في بنائه،² وعند تأسيس أبو الحسن المريني المنصورة بسبتة شاد بها هي الأخرى الفنادق.³

¹ نفس المصدر، نفس الصفحة.

² ينظر: السبتي، مصدر سابق، ص 38. - كريم عاتي الخزاعي، مرجع سابق، ص ص 63-64.

³ ابن مرزوق التلمساني، المسند...، مصدر سابق، ص 447.

1. 2. 4 الحمامات:

أولى سلاطين الدولة المرينية العناية بتشديد وصيانة المرافق العامة التي تخدم مختلف طبقات المجتمع، مع الحرص على ترميم وإصلاح ما ورثوه عن المرابطين والموحدين، من بين هذه المرافق الحيوية تبرز الحمامات العامة التي انتشرت بشكل واسع في المدن المرينية المدعومة بتوفر مصادر المياه وتجهيزها بأفضل وسائل الراحة، فعند تأسيس المدينة الجديدة أول ما قام به أبو يوسف يعقوب هو أنه بنا بها حماما.¹

تعد مدينة فاس عاصمة بني مرين من أبرز المدن التي احتوت على عدد كبير من هذه الحمامات نحو ثلاثة وسبعين حماما (73 حماما)² خلال عهد المرابطين والموحدين، وبلغ عددها خلال عهد المرينيين نحو المائة،³ وعليه فإن الحمامات التي وجدت بمدينة فاس أغلبها من تشييد سابقها.⁴

تميزت هذه الحمامات بكونها مجهزة بأفضل وسائل الراحة وتوفرها على المياه التي لم تنقطع عنها البتة،⁵ من ذلك قول ابن السعيد الذي نقله العمري: "لم أرى قط حمامات في داخلها عين تنبع إلا بها"،⁶ فضلا عن أنها تميزت ببناء متقن وصيانة مستمرة، وعلى الرغم من تفاوت أحجامها إلا أن تصميمها كان متشابها حيث احتوى كل حمام على ثلاث قاعات رئيسية، بالإضافة إلى غرف صغيرة مرتفعة، يتم الوصول إليها عبر درجات محدودة يتم فيها تغيير الملابس.⁷

كانت القاعات الرئيسية تحتوي على صهاريج ضخمة تستخدم لتبريد الماء إذا كان ساخنا جدا، فالقاعة الأولى تكون باردة، ومن ثم ينتقل المستحم إلى القاعة الثانية التي تكون أكثر دفئا حيث يقوم الخدم بغسل وتنظيف الزبون، وأخيرا يدخل المستحم إلى القاعة الثالثة وهي الأكثر

¹ ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص 162.

² ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 48.

³ حسن الوزان، ج 1، مصدر سابق، ص 229.

⁴ روجيه لوطورنو، فاس في عصر بني مرين...، مصدر سابق، ص 49.

⁵ ينظر: حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 20. -مارمول كريخال، ج 2، مصدر سابق، ص 298.

⁶ العمري، ج 4، مصدر سابق، ص 92.

⁷ ينظر: حسن الوزان، مصدر سابق، ج 1، ص 229. - لحسن تاحوشيت، ج 2، مرجع سابق، ص 376.

حرارة، حيث يتعرض جسمه للتعرق لفترة من الوقت، في هذه القاعة يوجد مرجل محكم البناء يستخدم لتسخين الماء ويتم نقله بمهارة عبر دلاء خشبية، لكل مستحم الحق في الحصول على دلوين من الماء الساخن، وإذا رغب في المزيد أو احتاج إلى مساعدة إضافية كان يدفع مكافأة للخدم تسمى (بيوتشين) أو (بيوتشو)، ولصاحب الحمام مبلغا يسمى (كواطرين)، وعليه فلقد كان أهالي فاس ينفقون الكثير من المال على الحمامات أكثر ما ينفقون على أنفسهم¹.

يعتمد تسخين الحمامات على استخدام فضلات الحيوانات المجففة حيث كان الغلمان يجمعون هذه الفضلات من الأسطبلات وينقلونها إلى خارج المدينة، أين يتم تجفيفها لمدة شهرين أو ثلاثة قبل استخدامها كمحروقات، ولقد كانت هنا مواقيت محددة للنساء صباحا والرجال في المساء،² فعند دخول النساء إلى الحمام كان يتم تعليق حبل عبر عرض الباب للإشارة إلى أن الحمام مخصص للنساء، وإذا أراد أحد الرجال التواصل مع زوجته داخل الحمام كان عليه الاستعانة بإحدى العاملات الزنجيات لنقل رسالته.³

كان من المعتاد أن يتناول مرتدوا الحمامات الطعام ويمارسوا التسلية داخل الحمامات،⁴ بما في ذلك الغناء والمرح أما الرجال المحترمون وأصحاب المكانة الاجتماعية فكانوا يرتدون أزارا ولا يجلسون في القاعات المشتركة،⁵ لأن حماماتهم صحن واحد لا خلوة فيها،⁶ مفضلين الانفراد في حجرات خاصة مزخرفة ونظيفة مخصصة لاستقبال الشخصيات البارزة، تعود ملكية غالبية هذه الحمامات للمساجد والمدارس وكانت تؤجر مقابل مبالغ مالية مرتفعة، تصل أحيانا إلى مئة أو مئة وخمسين مثقالا حسب حجم وموقع الحمام.⁷

¹ حسن الوزان، ج 1، مصدر سابق، ص 229.

² مارمول كربخال، ج 2، نفس المصدر، ص 147.

³ حسن الوزان، ج 1، مصدر سابق، ص 230.

⁴ مارمول كربخال، ج 2، مصدر سابق، ص 147.

⁵ حسن الوزان، ج 1، مصدر سابق، ص 230.

⁶ العمري، ج 4، مصدر سابق، ص 91.

⁷ حسن الوزان، ج 1، مصدر سابق، ص 230.

أما حمامات سجلماصة فهي لم تكن مثالية مثل ما هي عليه حمامات مدينة فاس وهذا لبعدها عن المسجد الجامع لأن جلها تركز بالقرب من عيون المياه، ولقد رصدت حفريات البعثة الأمريكية لموسم 1988م وجود منشأة مكونة من غرفتين كبيرتين والعديد من الغرف الصغيرة، وعلى حوض في الوسط يتم تزويده بالماء عبر قناة وشيد الحمام من الطابية وضعت مباشرة فوق أساس من الرمال، ومع ذلك بقيت صامدة على الرغم من فيضانات واد زير التي ضربت المدينة مما يدل على أن منشآت سجلماصة صلبة، ومن المؤكد أن هذه الحمامات تعود فترة تشيدها إلى العهد المريني،¹ لأن تركيبة البنية المعمارية لسجلماصة بما في ذلك الحمامات سابقا -قبل عصر بني مرين- كانت رديئة قياسا على قول البكري: "رديئة البناء غير محكمة العمل".²

ضمت مدينة سبتة نحو اثنين وعشرين حماما عاما أبرزها وأكثرها شهرة حمام القائد الذي يعود تأسيسه إلى القائد أبو علي ناصح الذي أشرف على بنائه، يتميز بحجمه الكبير بحيث يمكن أن يستوعب مئات الأشخاص له سقف مرتفع وهوائه نقي كما تستند هيكلته على أعمدة من الرخام، بينما تغطي الأرضية ألواح رخامية ناصعة البياض، أما المسلخ -غرفة تغيير الملابس- فهو واسع وله مدخلان ويعلوه سقف مقبب بتصميم متقن يستند إلى أربع حنيات، ويوجد في مركز الصحن صهريج كبير مرتفع عن الأرض وفي وسطه عمود مجوف تعلوه طبقة رخامية، حيث يتدفق الماء من داخل العمود ليتجمع في الطبق ثم يتدفق ليمتلئ الصهريج.³

بالإضافة إلى حمام القائد تميزت سبتة بعدد من الحمامات الأخرى المكسوة بالرخام مثل حمام ابن عيسى وحمام اليانشتي وحمام عيود بالقرب من الميناء، وهذا الأخير شبيه بحمام القائد من حيث الضخامة والهندسة المعمارية، حيث يحتوي أيضا على أطباق رخامية ترتكز على أعمدة مجوفة في وسط الصهريج، كما يوجد في منطقة القصبة عشرة حمامات بارزة أهمها حمام القصر،

¹ لحسن تاوشت، ج 2، مرجع سابق، ص 376 - 376.

² البكري، المسالك والممالك...، ج 2، مصدر سابق، ص 333.

³ السبتي، مصدر سابق، ص 34 - 35.

والجدير بالذكر أن معظم منازل سبتة كانت تحتوي على حمام ومسجد، باستثناء القليل منها مثل منزل محمد بن القاسم الأنصاري السبتي الذي كان يضم حمامين ومسجدا.¹

1. 2. 5 المارستانات:

كان لسلاطين بني مرين ميل نحو الخير والاهتمام بشؤون الدين،² فغمرُوا دولتهم بالمدارس والزوايا والأربطة التي كانت بمثابة دور الرعاية الاجتماعية لايواء المسافرين وعابري السبيل خصوصا في الأماكن البعيدة عن العمران، وأوقف يعقوب أبو يوسف عليها الأوقاف الكثيرة،³ واهتم سلاطين بني مرين برعاية الشيوخ والضعفاء الذين ليس بمقدورهم النفقة على أنفسهم فخصصت لهم رواتب، وبنى أبو الحسن المريني دورا لإقامتهم،⁴ لرحمته بالشيوخ والأيتام⁵، وعلى نفس المنوال سار ابنه أبو عنان فشاد من الزوايا الكثير "لاطعام الطعام للوارد والصادر... وإجراء الصدقة على المساكين بكل بلد من بلاده".⁶

إلى جانب المدارس والزوايا شاد سلاطين بني مرين المارستانات إذ احتوت مدينة فاس على العديد من المارستانات،⁷ من ذلك المارستان الذي شاده السلطان يعقوب أبو يوسف مختص للمرضى والمجانين ورتب لهم الأطباء لتفقد أحوالهم، وأجرى على الكل المرتبات والنفقات وجميع ما يحتاجون إليه،⁸ كما شاد بالقرب من سوق العطارين وسوق الحنا بفاس مارستان للمجانين أطلق عليه اسم **مارستان سيدي فرج**، وعهد إدارته إلى أشهر الأطباء وأوقف عليه الأعباس الكثيرة من

¹ نفس المصدر، ص 35.

² الناصري، ج 3، مصدر سابق، ص 200.

³ ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص 91.

⁴ محمد عيسى الحريري، مرجع سابق، ص ص 326 - 327.

⁵ ابن مرزوق التلمساني، المسند...، مصدر سابق، ص ص 420 - 421.

⁶ ابن بطوطة، مج 4، مصدر سابق، ص 197.

⁷ ينظر: حسن الوزن، ج 1، مصدر سابق، ص 227. - مرمول كريخال، مصدر سابق، ج 2، ص 147.

⁸ ينظر: ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص 91. - الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 65.

العقار،¹ قام بتجديده السلطان أبو الحسن المريني ولما اتسعت أعماله أدخل عليه السلطان أبو عنان زيادات جليلة،² والمرستان المخصصة لمرضى الجدام الواقعة في شمال المدينة الغربي.³

ومارستات مدينة فاس لا تقل حسنا ولا سعة عن المدارس فهي مبنية كغيرها من المباني والعمائر بالآجر وسقوفها بخشب الأرز، وقرصنت بعض سقوفها بالقصدير والأصباغ الملونة وأرضيتها مبلطة بالرخام والزليج،⁴ من تشييد سلاطين الدولة ويتم تمويلها من مالهم الخاص وبها كان يحبس المرضى -من لهم أمراض عقلية- في حجرات خاصة، ومحل إقامة الغرباء لمدة ثلاث أيام لا أكثر وكانت موزعة داخل المدينة وخارجها.⁵

من بين أشهر المرستانات المرينية يبرز المرستان الذي بناه السلطان أبو عنان بمدينة سلا والذي يقع وسط حارة اليهود في حي باب حسين، هذا المرستان كان بناء ضخما يضم العديد من الغرف المخصصة لإقامة المرضى ومن لهم ضعف عقلي، وقد وفر له المياه نظرا للحاجة الماسة إليها حيث جلب الماء من السور الذي بناه والده السلطان أبو الحسن، كان موقع هذا المرستان سابقا فندقا للزيت، سكنه الشيخ العارف أبو موسى الدكالي ولا يزال بيته معروفا حتى اليوم، قام السلطان أبو عنان بتشيد المرستان المذكور وعين له أطباء مهرة، حيث كان يخصص لهم رواتب ومكافآت نظير ما يقدمونه من خدمات.⁶

وبذلك ازدهرت مهنة الطب كما ازدهرت سائر المعارف والعلوم في أقطار المغرب بفضل اهتمام السلاطين بها، ومع تدهور الدولة المرينية وضعفها توقفت العطاءات وانقطعت الإمدادات مما أدى إلى هجر المرستان وفقدان دوره الطبي وانعدام صلات السلاطين وجراياتهم، ونتيجة لذلك

¹ ينظر: أحمد عيسى بك، مرجع سابق، ص 284-286. -روجيه لوطورنو فاس قبل الحماية...، ج 1، مرجع سابق، ص 540.

² ينظر: ابن مرزوق التلمساني، المسند...، مصدر سابق، ص 415. -محمد عيسى الحريري، مرجع سابق، ص 326-287.

³ روجيه لوطورنو، فاس في عصر بني مرين...، مصدر سابق، ص 57.

⁴ العمري، ج 4، مصدر سابق، ص 90.

⁵ ينظر: حسن الوزان، ج 1، مصدر سابق، ص 228. -مارمول كربخال، ج 2، مصدر سابق، ص 147.

⁶ ينظر: محمد بن علي الدكالي، مرجع سابق، ص 74. -إبراهيم حركات، مج 2، مرجع سابق، ص 161.

تعرض المبنى للإهمال والتدهور حتى أشرف على الخراب، وفي نهاية المطاف تم هدمه وإعادةه إلى حالته الأصلية كفندق، وكان بابه شاهدا على جودة بنائه حيث يحتوي على نقوش تذكر بانيه السلطان أبو عنان وتسميته بالمرستان، وقد كتبت هذه النقوش على الزليج الأسود المثبت على تاج الباب المذكور إلا أنه محي عند بداية الاحتلال الفرنسي.¹

2. المنشآت العمرانية الدينية والثقافية

لم يكن اهتمام بني مرين بالعلم والعلماء أقل من اهتمام بني زيان وبني حفص حيث أولى سلاطين بني مرين هذا المجال أهمية بالغة، وسخروا لهم كافة الموارد المادية والبشرية المتاحة وحرصهم على استقطاب العلماء إلى مجالسهم وتأمين رواتب ثابتة لهم ومنحهم مناصب رفيعة في الدولة، بالإضافة إلى استشارتهم في القضايا الهامة والمشاركة في حلقات دروسهم.²

يعد السلطان أبو الحسن المريني من أبرز هؤلاء الحكام إذ عرف بحرصه على رعاية العلماء وتقديره لمكانتهم،³ وقام بجمعهم من مختلف الأنحاء إلى بلاطه الذي جعل منه مركزا لتجمع هذه النخب، وعلى نفس النهج سار ابنه أبو عنان الذي كان بحد ذاته عالما،⁴ يقول في هذا الصدد ابن الأحمر: "فقيهها يناظر العلماء الجلة فيصيب ويخطئهم، ومعرفته بالفقهاء تامة، وكان عارفا بالمنطق وأصول الدين، وله حظ صالح من العربية والحساب، وكان حافظا للقرآن عارفا بناسخه ومنسوخه، كثير التمثل بأبيه".⁵

لم تقتصر جهود السلاطين على دعم العلماء فحسب بل امتدت إلى تعزيزهم للمنشآت الدينية والثقافية لدولتهم من خلال تشييد العديد منها وتجديد وترميم ما ورثوه عن سابقهم، فملك كل مدينة من المدن المرينية مجموعة من المساجد والمدارس،⁶ لاسيما مدارس سبتة وسلا وفاس، وقد تميز عهد أبو الحسن المريني بحركة عمرانية واسعة شملت بناء المدارس والمساجد في مختلف

¹ ينظر: محمد بن علي الذكالي، مرجع سابق، ص 74. -إبراهيم حركات، مج 2، مرجع سابق، ص 161.

² الجزنائي، مصدر سابق، ص 29.

³ ابن مرزوق التلمساني، المسند...، مصدر سابق، ص 260.

⁴ النميري، مصدر سابق، ص 124.

⁵ ابن الأحمر، روضة النسر...، مصدر سابق، ص 27-28.

⁶ محمد عيسى الحريري، مرجع سابق، 322.

مناطق المغرب الأقصى، وتوسعت مشاريعه لتشمل تأسيس المدارس والمجالس العلمية في المناطق التي ضمها إلى حكمه كتلمسان والتي سنتطرق إليها لاحقا في الفصل الموالي، كما أشرف على مباشرة عمليات الترميم والصيانة في مساجد تونس،¹ وفيما يلي سوف يتم تقديم أهم المؤسسات الدينية والثقافية للدولة المرينية:

2. 1 المساجد:

شاد بني مرين العديد من المساجد الجامعة،² ومساجد الفروض -فضاءات صغيرة للصلاة-³ بعاصمتهم فاس وغيرها من المدن المرينية، كما قاموا بزيادات مهمة ببعض المساجد التي ورثوها من سابقيهم، وامتاز فنهم في هذه المساجد بالدقة وكثرة التزيينات والمقرنصات خصوصا حول المحراب،⁴ من هذه المساجد نذكر:

2. 1. 1 مساجد فاس:

وجد بمدينة فاس سبعمئة مسجدا (700 مسجدا)،⁵ خمسون منهم عبارة عن جامعا كبيرا في كل واحد منها سقاية من الماء الجاري مع أحواض كبيرة من المرمر وعدد من السواري

¹ ينظر: ابن مرزوق التلمساني، المسند...، مصدر سابق، ص 418. -محمد عيسى الحبري، مرجع سابق، ص 322-323.

² المسجد الجامع: هو أحد المؤسسات الأولى التي تشاد في المدينة الإسلامية وإحدى خصائصها المعمارية الأساسية التي تحتفظ بموضعها ومكوناتها لعدة قرون، لما تحضى به من صيانة وترميم وإضافات وتوسيعات باستمرار، واتخذ المسجد الجامع موقعه وسط المدينة ليتمكن الجميع من الوصول إليه، باعتباره نواة المدينة ومركزها السياسي والثقافي والاجتماعي والقضائي إلى جانب أدواره الدينية، وكان بنائه يتم وفق أربع شروط: اتخاذ جدار القبلة للخطيوط، وأن تخط أسس بيت الصلاة صقوفا متوازية لجدار القبلة على شكل أساكب وتقابلها بلاطات وتقام على الأعمدة أو الدعامات، وأن يزود الجامع بصحن له جدران سمكة فسيح يطل على بيت الصلاة. ينظر: لحسن تاوحشيت، مرجع سابق، ج 2، ص ص 362-363. -رضوان السائي، مدينة فاس (التراث العمراني والمعماري)، سليكي أخوين، ط 1، طنجة، المغرب، 2022، ص 115-116.

³ حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 323.

⁴ إبراهيم حركات، مح 2، مرجع سابق، ص 159.

⁵ بلغ عدد المساجد خلال العهد الموحي نحو سبعمئة وخمسة وثمانين مسجدا (785 مسجدا). ينظر: الجزنائي، مصدر سابق، ص 44.

لدعم القبة، فضلا عن ستمائة مسجدا (600 مسجدا) ليس بنائه بالروعة التي عليها الجوامع الأخرى، وجميع سقوف المساجد مغطاة بخشب الأرز المزخرف بعدة نقوش ونحوت ولها صوامع عالية شبيهة بأبراج المراقبة،¹ من هذه المساجد:

2. 1. 1. 1 مسجد القرويين:

بعد تأسيس مدينة فاس في عهد الأدارسة كان من بين المهاجرين القادمين من القيروان أسرة الفقيه أبو عبد الله محمد بن عبد الله الفهري القيرواني، لكن القدر لم يمهله طويلا وتوفي فور وصوله إلى المدينة تاركا خلفه ثروة طائلة لبنتيه فاطمة أم البنين ومريم، تميزت الأختان بالعلم والفطنة، فاتخذتا قرارا بإنشاء مسجدا جامعا في كلتا العدوتين سعيا لخدمة الدين والعلم.²

ابتدأت فاطمة أم البنين بشراء قطعة أرض من أحد أفراد قبيلة هواره لتكون موقعا لبناء المسجد وبعد إتمام عملية الشراء، شرعت في بناء المسجد مع توجيه قبلته نحو جامع الشرفاء، الذي كان قد أسسه الإمام إدريس الثاني، تم تشييد المسجد في رمضان من عام (245هـ/859م) باستخدام مواد البناء المحلية مثل الطابية والكدان، وتم حفر بئر في صحنه الصغير لتوفير المياه، تكون المسجد من أربع بلاطات واحتوت كل بلاطة على اثني عشر قوسا،³ وبلغ طول المسجد من الحائط الشرقي إلى الحائط الغربي مائة وخمسين شبرا (150 شبرا)، كما وضع المحراب في مقدمة البلاط المواجه للثريا الكبرى، بينما أقيمت صومعة في نهايته.⁴

بعد سيطرة قبائل زناتة على المنطقة قامت بتوسعة المسجد بشكل كبير مما جعله يفوق جامع الشرفاء في مراكش من حيث الحجم والأهمية، ونظرا لذلك تم نقل الخطبة إلى هذا المسجد

¹ مارمول كربخال، ج 2، مصدر سابق، ص 146.

² **ينظر:** ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 54-55. -عثمان عثمان إسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى، (عرب المغرب القدماء ودولة الأشراف الأدارسة وعصر أمراء زناتة الطراز الغربي القديم والطراز الإسلامي المبكر)، مطبعة المعارف الجديدة، الهلال العربية للطباعة والنشر، ج 1، ط 1، الرباط، المغرب، 1992، ص 267. -رضوان السائحي، مرجع سابق، ص 115.

³ على عهد بني مرين أصبح عدد الأقواس التي تحمل السقف، ثماني وثلاثين قوسا طولا، وعشرين عرضا. **ينظر:** حسن الوزان، ج 1، مصدر سابق، ص 224.

⁴ الجزنائي، مصدر سابق، ص 46.

الجديد، وكان الشيخ عبد الله بن علي الفارسي أول من ألقى الخطبة فيه ويروى أن الأمير حامد بن حمدان الهمداني الذي كان عاملاً لعبيد الله الشيعي على المغرب هو من قام بنقل الخطبة إليه، وفي عام (345هـ/965م) أضاف الأمير أحمد أبي بكر الزناتي للمسجد أربع بلاطات من الجهة الغربية وخمسة من الجهة الشرقية، وثلاث بلاطات أخرى من الجهة الداخلية حيث كان الصحن، وأضيفت بلاطتان في الجزء الغربي، وبلاطتان في الجزء الشرقي، وبلاط واحد في الجهة الداخلية.¹

بهدف تحسين ارتفاع الصومعة وتناسقها مع باقي البناء تم هدم الصومعة القديمة التي كانت منخفضة وبنيت صومعة جديدة بعرض كل وجه منها سبع وعشرون شبرا (27 شبرا)، ليلبلغ مجموع الأطوال في الجهات الأربع مائة وواحد وثمانين شبرا (181 شبرا)،² لتصبح الصومعة التي يؤذن عليها عالية جدا،³ وفتح بابها من جهة القبلة ونقشت عليها عبارة نصها: "بسم الله الرحمن الرحيم، الملك لله الواحد القهار، هذا ما أمر به أحمد بن أبي بكر بن أحمد بن أبي بكر بن أحمد بن أبي سعيد عثمان بن سعيد الزناتي، هداه الله ووفقه ابتغاء ثواب الله تعالى وجزيل إحسانه".⁴

بقيت الصومعة على حالها حتى عهد السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق الذي أمر بتغطيتها بطبقة من الجبس والجير، مع تثبيت المسامير بين أحجارها لتعزيز البناء في عام (688هـ/1290م)، كما أضيفت غرفة فوق باب الصومعة لتكون مبيتا للمؤذنين ونصبت الساعة المائية قبل ثلاث سنوات من تبييض الصومعة في القبة العليا إلى جانب ما كان هناك من ساعات رملية ومزاول شمسية واسطولايات، جعلت من صومعة القرويين قدوة مثلى لسائر مساجد مدينة فاس.⁵

¹ ينظر: ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 57. -الجزنائي، مصدر سابق، ص 47. -عثمان عثمان إسماعيل، ج 1، مرجع سابق، ص 266.

² ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 57.

³ حسن الوزان، ج 1، مصدر سابق، ص 224.

⁴ ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 57.

⁵ ينظر: الجزنائي، مصدر سابق، ص 51. -ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 57. -عبد الهادي التازي، جامع القرويين (المسجد والجامعة بمدينة فاس، موسوعة لتاريخها المعماري والفكري)، دار النشر المعرفة، مج 2، ط 2، الرباط، المغرب، 2000، ص 322.

في عام (717هـ/1317م) تم إنشاء جهاز لمراقبة الوقت من خشب الأرز، بعدما أهمل نظام مراقبة الأوقات وتم تثبيت هذا الجهاز في ركن الغرفة المطل على باب الصومعة من اليمين، احتوى هذا الجهاز على إناءين كبيرين من الفخار أحدهما أعلى من الآخر ثم ملئ الدلو العلوي وجعل في أسفله أنبوب من النحاس ورسمت خطوط على السطح السفلي منهما، وضعت الساعة في الطابق العلوي من المبنى بينما علق الأنبوب النحاسي في أسفلها.¹

زينت جدران الغرفة بالساعات والأشهر العجمية وعلقت ساعة مستطيلة على الجدار الخارجي، فتظهر أوقات الصلاة طوال الليل والنهار ولقد كانت الساعة مصممة لتعمل بواسطة الماء، حيث يتدفق الماء المخزن في الجهاز ما يسمح بتحديد الوقت المطلوب عبر ظهور العلامات في الجهاز وبعد الانتهاء من عملية القياس يعاد تشغيل الجهاز لليوم التالي، وفي عام (747هـ/1347م) جرى تجديد الساعة بواسطة محمد بن محمد بن العربي، حيث أدخلت تحسينات عليها لتصبح أكثر دقة وكفاءة، وفي عام (749هـ/1349م) قام المتوكل بزيارة الصومعة واستحسن عمل الساعة، فأمر بوضع علم أبيض على قمة الصومعة يستخدم نهاراً وسراج زاهر يستخدم ليلاً لتحديد أوقات الصلاة للأشخاص البعيدين عن المدينة الذين لا يستطيعون سماع الأذان.²

تمت توسعة جامع القرويين بشكل كبير حتى أصبح خلال العهد المريني من أكبر المساجد إذ بلغ محيطه نحو ميل ونصف الميل يحتوي على واحد وثلاثين باباً،³ جميعها كبيرة ومرتفعة، تبلغ مساحة المنطقة المغطاة في المسجد حوالي مائة وخمسين ذراعاً طولاً (150 ذراعاً)، وما يقارب

¹ ينظر: عبد الهادي التازي، مج 2، مرجع سابق، ص 323. -رضوان السائحي، مرجع سابق، ص 124.

² ينظر: الجزنائي، مصدر سابق، ص 52. -عبد الهادي التازي، مج 2، مرجع سابق، ص 324.

³ امتلك جامع القرويين أبواباً داخلية وأخرى خارجية أطلق على الأولى أبواب الرواح، تفصل قاعة الصلاة عن صحن مصلّى الجنائز تتواجد في جدار القبلة يمين المحراب، وأبواب الجامع عالية وكبيرة معظمها يصنع من أسفلهم "تقير من خشب مصفح بالرصاص"، اتخذت بعض الأبواب تسميات الأسواق المفتوحة عليها، من أبواب الجامع: باب النجارين من الجهة الغربية، وباب الشماعين، وباب الكتبين، وباب الموثقين، وباب مجلس القضاة للخصوم، وباب الأولياء الغربي، وباب الحفاة، وباب الساباط، وباب الخصة، وباب الصفر الشمالي، وباب الأصغر، وباب الخلوة... ينظر: الجزنائي، مصدر سابق، ص 78. -مؤلف مجهول، الاستبصار...، مصدر سابق، ص 181. -رضوان السائحي، مرجع سابق، ص 134 - 136.

ثمانين ذراعا عرضا (80 ذراعا)، وتحيط ببنائية الجامع من الجهات الشرقية والغربية والشمالية أروقة بعرض ثلاث وثلاثين ذراعا (33 ذراعا) وأربعين ذراعا طولاً (40 ذراعا) لكل منها.¹

تحت هذه الأروقة توجد مخازن تحتوي على الزيت وغيره من الاحتياجات الضرورية للمسجد، يتم إشعال تسعمائة مصباح (900 مصباح) في المسجد كل ليلة حيث يوجد لكل قوس مصباح خاص به، وفي الصف الأوسط من الأقواس وبالأخص تلك التي تؤدي إلى المحراب يوجد بها مائة وخمسين مصباحا (150 مصباحا)، كما توجد ثريات برونزية ضخمة تحتوي كل منها على ألف وخمسمائة مصباحا (1500 مصباح)، وقد صنعت من نواقيس المدن النصرانية التي فتحها سلاطين بني مرين،² يقول المزياتي في الثريا:

أنظر إلى ثرية نورها يصدع باللالاء سجد الغسق
وقال ابن عبدون:

كأنها في شكلها ربوة انتظم النور بها فاتسق³

2. 1. 1. 2 المسجد الجامع بعدوة الأندلسيين:

من تشييد مريم بنت محمد بن عبد الله الفهري القروي سنة (245هـ/859م) وهو جامع كبير متقن البناء لكنه أقل حسنا وسعة من جامع القرويين،⁴ إذ أقيمت الحوائط الخارجية جميعها بالطابية والآجر لبناء الدعائم والعقود وأركان المداخل، وكان البلاط فقيرا في نسبة الجير وكانت عقود بيت الصلاة في البلاط الأوسط من النوع المتجاوز كامل الإستدارة وذو ثلاثة مراكز وهو نوع فريد بالمغرب، حتى أسكوب المحراب ليس أكثر سعة من بقية الأساكيب بالمغرب الإسلامي، بينما

¹ عبد الهادي التازي، مج 2، مرجع سابق، ص 328.

² ينظر: حسن الوزان، مصدر سابق، ج 1، ص 224. -مارمول كربخال، ج 2، مصدر سابق، ص 146. -Pirre Champion, Prt 2, op,cit, p 58.

³ الجزنائي، مصدر سابق، ص ص 69 - 70.

⁴ ينظر: مؤلف مجهول، الاستبصار...، مصدر سابق، ص 180. -الحميري، مصدر سابق، ص 434.

البلاط المحوري المتجه نحو المحراب يكون أكثر سعة من بقية البلاطات وهذا دليل على أن التخطيط الحالي لا يلتزم خطة البلاطات والأساكيب الأصلية من العصر الأندلسي.¹

أسهم ابن أبي عامر في التوسيع فيه إذ كانت الصومعة خلال عهد زناتة على هيئة صومعة القرويين المربعة وسعة كل وجه منها ستة عشر شبرا (16 شبرا)، وفيها من الأدراج أربعة وسبعين درجة وارتفاعها سبعون شبرا (70 شبرا)، وفي أعلى هذه الصومعة قبة للجلوس المؤدنين ثم أضاف لها خلال عهد أبو عنان المريني صار من خشب ينشر فيه علم أبيض أوقات صلاة النهار، وفنار مسرج أوقات الليل.²

في عام (1295/695هـ) أمر السلطان ابن يعقوب يوسف بترميم المسجد بعد تدهور حال سقفه وتضرر عددا من سواريه، وقد تم تنفيذ هذه الإصلاحات وفق التصميم الحالي وفي عام (1307/707هـ) قام حفيده أبو ثابت عامر بجلب المياه إلى المسجد من العين الواقعة خارج باب الحديد بعد أن تضرر المجرى الذي أنشأه الناصر خلال العهد الموحدي، كما أصدر أوامر ببناء سقاية في الجهة الغربية من داخل المسجد.³

بالنسبة لتخطيط المسجد ومساحته فإن الهيئة التي استقرت عليها بعد أعمال الترميم التي قام بها يوسف أبو يعقوب المريني هي التي ظلت ثابتة، ويؤكد الجزنائي المؤرخ المعاصر لدولة المرينيين والذي وثق الأحداث حتى عام (1366/766هـ) على هذا الوضع بقوله: "وعدد بلاطاته من شرق إلى غرب خمسة عشر بلاط ومن قبله إلى جوف ثلاثة عشر بلاطا وفي طوله على هذا من قبله إلى الجوف مائتا شبرا وفي عرضه كذلك"،⁴ بناء على هذه المعطيات فإن طول جدار القبلة قد قسم إلى خمسة عشر بلاطة (15 بلاطة) تمتد من الشرق إلى الغرب، بينما يمتد عمق

¹ عثمان عثمان إسماعيل، ج 1، مرجع سابق، ص 276.

² الجزنائي، مصدر سابق، ص 93.

³ ينظر: الجزنائي، نفس المصدر، ص ص 93-94. -عثمان عثمان إسماعيل، ج 1، مرجع سابق، ص 284.

محمد عيسى الحريري، مرجع سابق، ص 323.

⁴ الجزنائي، مصدر سابق، ص ص 93-94.

المسجد من القبلة جنوباً إلى الجوف شمالاً ليشمل ثلاثة عشر أسكوباً (13 أسكوباً)، وهذا يشير إلى أن بيت الصلاة يأخذ شكلاً مربعاً وفقاً للأبعاد التي أوردتها الجزنائي.¹

أما منبر الجامع الموجود حالياً بمتحف البطحاء يبلغ طوله تقريباً مترين (197 سنتيمتراً) وأقصى ارتفاع له نحو مائتي وسبعة وسبعين سنتيمتراً (277 سنتيمتراً) وعمقه نحو ستة وعشرين ونصف سنتيمتراً (26.5 سنتيمتراً)، يبلغ طول الدرجة الواحدة من الداخل ستة وسبعين سنتيمتراً (76 سنتيمتراً) ومن الخارج ثمانين وثمانين سنتيمتراً (88 سنتيمتراً).²

2. 1. 1. 3 المسجد الكبير:

مسجد مغربي أندلسي في هيئته،³ يقع في المدينة البيضاء مما يلي القصور السلطانية من جهتها الشمالية،⁴ بالقرب من باب شالة وتحده في الجنوب الشرقي مقبرة تمتد إلى السور الأندلسي في مدخل حي مولاي عبد الله، ولقد كان الجامع الكبير في السابق أحد ملحقات القصر السلطاني الذي ابتناه بني مرين عند تأسيس المدينة البيضاء.⁵

يرجع تاريخ تأسيس الجامع إلى عام (677هـ/1278م) على يد السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني،⁶ أطلق عليه العديد من التسميات منها: الجامع الأعظم، الجامع الكبير، جامع المشور، جامع القصر.⁷ أشرف على عمارته وتصميمه أبي عبد الله بن عبد الكريم الحدودي

¹ نفس المصدر، نفس الصفحة.

² عثمان عثمان إسماعيل، ج 1، مرجع سابق، ص 316.

³ استخدم أبو يوسف يعقوب في بنائه أسرى إسبانيا إلى جانب العمال المحليين وهذا ما جعل بنايته مزيج بين الفن المغربي والأندلسي. **ينظر:** محمد المنوني، ورقات...، مرجع سابق، ص 28.

⁴ مارمول كرخال، ج 2، مصدر سابق، ص 156.

⁵ مها جمال صابر، رضوى عمر الفاروق، وهبة الله محمد فتحي، "المسجد الكبير بمدينة فاس الجديد في عصر الدولة المرينية (677هـ/1278م) دراسة تاريخية أثرية"، مجلة إتحاد الجامعات العربية للسياحة والضيافة، مج 21، ع 3، (من ص 208 إلى 232)، مصر، ديسمبر 2021، ص 213.

⁶ **ينظر:** ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص 162. - الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 89.

⁷ يتصل الجامع بالقصر الملكي بواسطة باب يؤدي إلى بيت الصلاة. **ينظر:** إبراهيم حركات، مج 2، مرجع سابق، ص 159. روجيه لوطورنو، فاس في عصر بني مرين...، مرجع سابق، ص 45. Pirre Chapon. Op.cit.

وأشرف على نفقاته والي مكناس أبو علي ابن الأزرق (خصص لهذا البناء دخل مكناسة)¹، كما خضع لعملية تجديد وصيانة خلال عهد أبو عنان المريني عام (778هـ/1378م)، وسنة (795هـ/1395م) خلال عهد أبو فارس المريني، إذ وجد بالجامع عند الجدار الواقع شمال قبلة الصف الثاني وقفية في إطار مستطيل منقوش عليها: "أنه أمر ببناء هذا السبع السلطان امير المسلمين المستنصر بالله، أبو فارس ابن أبي العباس أحمد بن أبي سالم... في 17 ربيع الأول، عام 798هـ/ 30 دجنيز سنة 1395م".²

2. 1. 1. 3. 1 التصميم المعماري للمسجد: (الشكل رقم: 04)

يتربع هذا الجامع على مساحة شاسعة مستطيلة الشكل يبلغ طولها أربع وخمسون مترا (54 متر)، وأربع وثلاثين متر عرضا (34 متر)، ويزيد عمقه بـ متر على عرضه بإدراج مقصورة الإمام، ويحتوي على بيت صلاة يشغل الجزء الجنوبي من المسجد، الذي يضم سبعة أساكيب وقبتان بالإضافة إلى صحنه المكشوف الذي تغطى أرضيته بالزليج الأبيض ويحيط بصحنه ثلاث مجنبات، يشغل أحدهم الجزء الشرقي من المسجد والأخرى الجزء الغربي، أما الثالثة فتشغل الجزء المتبقي من أضلاع هذا المستطيل المتناسق الشكل وهو الجزء الشمالي، كما يحتوي المسجد أيضا على جامع جنازي صغير ومئذنته مربعة،³ والقبة التي تسبق المحراب مزخرفة بزخارف جميلة جصية منحوتة.⁴

صنع أبو يوسف يعقوب للجامع ثريا تزن تسعة قناطير وخمسة عشرة رطلا عدد كؤوسها مائة وسبعة وثمانين كأسا (187 كأسا) من صنع المعلم الحجازي وقيل أن أبو يوسف أنفق في بناء الجامع وصنع الثريا ثمانية آلاف دينار ذهباً في سنة (687هـ/1288م) ولقد أنهى منبره المعلم الغرناطي الرصاع،⁵ والآن هو في حالة سيئة حيث أستبدل جانبه المطل على ناحية

¹ ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص 162.

² محمد المنوني، ورقات...، مرجع سابق، ص ص 28-29.

³ مها صابر وآخرون، مرجع سابق، ص 214.

⁴ Pirre Chapon. Op.cit. Prt 1. P 80.

⁵ ينظر: ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص 162. -الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 89. -إبراهيم حركات، مج 2، مرجع سابق، ص 159. -محمد المنوني ص 28.

المحراب بخشب مدهون حديث العهد، كما أن الجانب الآخر للمنبر ودرجاته اليوم حالتهم رديئة وتالفة يوجد هذا المنبر على غرار منبر جامع القرويين في متحف البطحاء بفاس، يبلغ طوله حوالي ثلاث أمتار (3.17 متر)، أقصى ارتفاع له ثلاثة أمتار (3.18 متر) وكان للمنبر مساند مزدوجة فقد منها الجزء الموجود على يسار الخطيب الذي يعتلي المنبر، وهو مكون من ثماني درجات ويبلغ عرضه ثماني وعشرين سنتيمترا (28 سنتيمتر)، وارتفاع القائم حوالي سبعة وعشرين سنتيمترا (27 سنتيمتر) وعمق جلسة الخطيب أي المقعد خمسة وسبعين سنتيمترا (75 سنتيمتر) ويبلغ عرض المنبر من الداخل سبعة وستين سنتيمترا (67 سنتيمتر)، ومن الخارج خمسة وثمانين سنتيمترا (85 سنتيمتر).¹

على غرار الجامع الكبير الذي شيد بفاس الجديد بنا بني مرين في مطلع القرن الثامن للهجري مسجدا آخر في الشارع الرئيسي وهو المعروف بالجامع الأحمر،² وقام أبو الحسن المريني بأعداد صومعة للمسجد الواقع بالمدينة البيضاء،³ ومسجد الشرايين،⁴ والجامع الجديد بالمدينة البيضاء،⁵ ومسجد الصفارين ومسجد حلق النعام، إذ يتميز كل منهما بضخامة الحجم بينما تتميز صومعتهما بارتفاع شاهق وجمال معماري متقن.⁶

ثمة مسجدان آخرين بنيا في القرن التاسع للهجري هما مسجد لالة غريبة شيده القائد عبد الله الطوفي حاجب أبي السعيد الثاني كان يسمى زمن بناءه مسجد السوق الكبير، ولا يزال معلقا أسفل منارة جامع الغريبة رخامة نقش فيها وقفية تحمل تاريخ 16 ذي القعدة عام

¹ مها صابر وآخرون، مرجع سابق، ص 220.

² هناك روايات تقر بأن امرأة حمراء أتت من تافالنت في عصر بني مرين كرس كل ثورتها لبناء هذا الجامع، لهذا أخذ اسم لالة الحمراء. ينظر: هوارية بكاي، مرجع سابق، ص 133.

³ ابن مرزوق التلمساني، المسند...، مصر سابق، ص 401.

⁴ Pirre Chapion, Op, cit, Prt1, P81.

⁵ محمد المنوني، ورقات...، مرجع سابق، ص 53.

⁶ ابن مرزوق التلمساني، المسند...، مصدر سابق، ص 401.

(810هـ/1408م)¹، **ومسجد الزهر** الذي شيده أبي عنان المريني سنة (759هـ / 13458م)، كما اضاف بني مرين مسجدين في عدوة القرويين، هما: **مسجد الوراقين، ومسجد أبي حسن**.²

حفلت مدينة سبتة بالكثير من المساجد³ بلغ عددها نحو ألف مسجداً وأعظم مساجدها وأشرفها على التحقيق **المسجد الجامع العتيق** والجامع الذي شاده أبو الحسن المريني بمنصورة سبتة المتصل بالقصر السعيد، وهو جامع حافل وصومعة حافلة ومساجد كذلك بها كثيرة،⁴ وفي سنة (673هـ/1275م) فرغ السلطان يوسف من بناء **جامع تازا** وعملت الثريا بالجامع المصنوعة من النحاس بوزن اثنان وثلاثون قنطارا (32 قنطارا) وعدد كؤوسها مثل ما أورده ابن أبي زرع نحو خمسمائة وأربعين كأسا (540 كأسا)، وقدرت الثرايا والكؤوس بثمانية آلاف دينار ذهبا (8000 دينار ذهبي) كما شاد أبو يوسف يعقوب إلى جانب القصبة بمكناسة جامعاً،⁵ وقام بتجديد بنائه ابو الحسن المريني الذي قام بتشديد العديد من المساجد **"بمدينة طنجة وسلا وشالة وما يقضي منه العجب، وبقصبة مدينة تازا وبمكناسة ومراكش"**.⁶

¹ **ينظر:** Pirre Chapion, op, cit, Prt 1. P 80 - محمد المنوني، ورقات...، مرجع سابق، ص ص 52-53. - هوارية بكاي، مرجع سابق، ص 133.

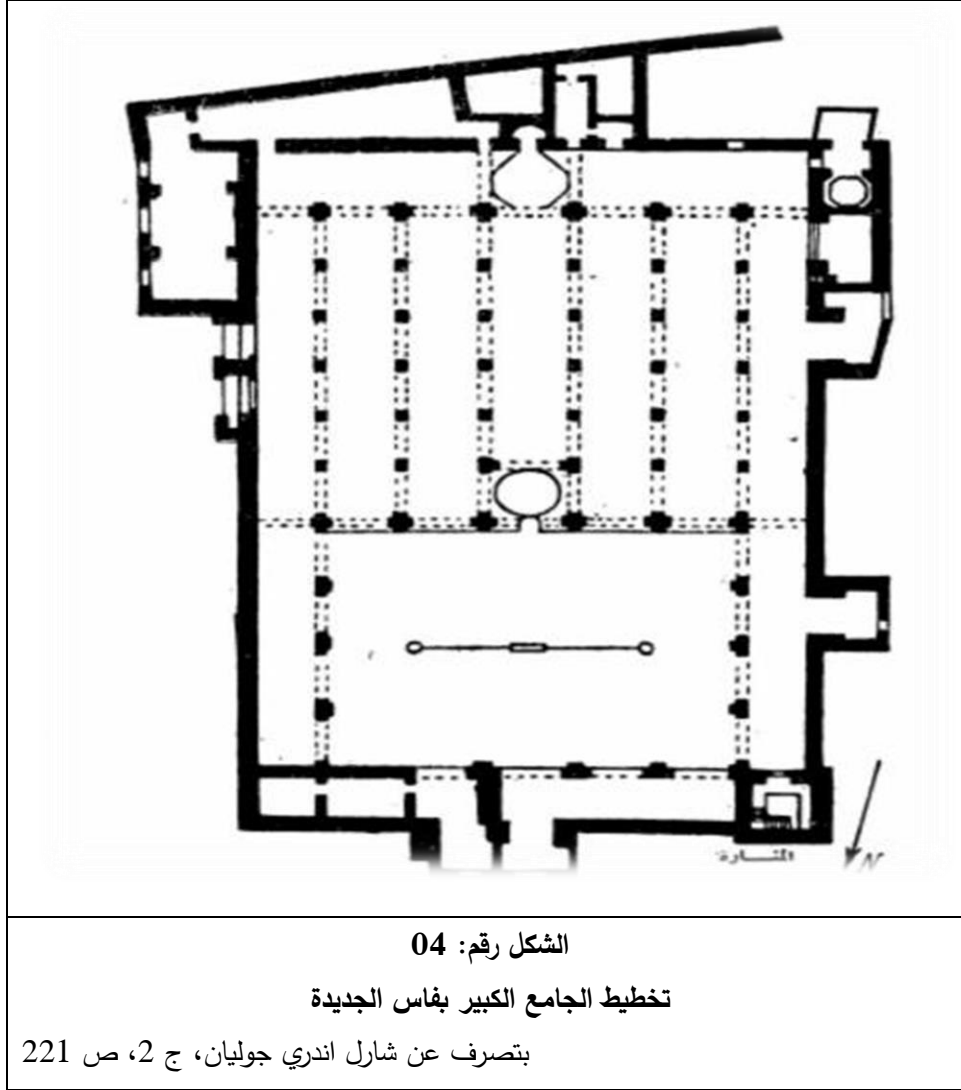
² **ينظر:** روجيه لوطورنو، فاس في عصر بني مرين...، مرجع سابق، ص 46. - محمد المنوني، ورقات...، مرجع سابق، ص 52.

³ للمزيد عن مساجد مدينة سبتة. **ينظر:** محمد العدل إبراهيم، مدينة سبتة ودورها السياسي و الفكري، (منذ الفتح الإسلامي وحتى نهاية دولة بني مرين)، نور حوران، ط 1، دمشق، سوريا، 2024، ص 70...

⁴ ابن مرزوق التلمساني، المسند...، مصدر سابق، ص ص 401-402.

⁵ ابن أبي زرع، الأنيس...، نفس المصدر، ص ص 322، 409.

⁶ ابن مرزوق التلمساني، المسند...، مصدر سابق، ص 402.



2. 2 المدارس:

أولى بني مرين اهتماما كبيرا بالمدارس باعتبارها شاهدا عمرانيا على عظمة الحضارة الإسلامية بالمغرب الأقصى التي تأثرت بالثقافات الأندلسية واكتسبت طابعا مرينيا مميزا، فقد وفر السلاطين المرينيون الموارد اللازمة لهذه المدارس ومتطلباتها حيث تكفلوا بتغطية نفقات الطلاب الذين كانوا يتلقون تعليمهم فيها على نفقة السلطان، ولقد كان اهتمام بني مرين بهذه المدارس جزءا من استراتيجيتهم لتدريس الفقه المالكي بهدف القضاء على مذهب الموحدين.¹

¹ ينظر: عبد الفتاح مقلد الغنيمي، ج 5، مرجع سابق، ص 277. -محمد عيسى الحريري، مرجع سابق، ص 324. - شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص 240.

أسس المرينيون مدارسهم وفق نمط جديد لم يكن معروفا في المغرب من قبل حيث تميزت بتقديم تعليم عالي التخصص، بالإضافة إلى توفير سكن داخلي للطلاب وكان ذلك تطورا ملحوظا مقارنة بالعصور السابقة التي كان فيها العلماء يلقون دروسهم في المساجد خاصة في مسجد القرويين،¹ وقام سلاطين بني مرين ببناء مدارسهم في العاصمة فاس وغيرها من مدن المغرب الأقصى مما ساهم في تعزيز الحياة التعليمية والثقافية في البلاد، إذ يوجد بفاس وحدها إحدى عشرة مدرسة،² كلها من تشييد بني مرين جيدة البناء كثيرة الزخرف بالزليج والخشب المنقوش بعضها مبلط بالرخام وبضعها بالخزف، وتحتوي كل مدرسة على عدة حجرات مبلطة بالطلاء الجيد يبلغ عددها مائة حجرة أو أكثر ويوجد ببعض المدارس ما هي أقل عددا،³ من هذه المدارس:

2. 2. 1 مدرسة الصفارين (الحفاويين):

تعد مدرسة الحفاويين أولى المدارس التي أنشأها بنو مرين عام (670هـ/1271م) بأمر من السلطان أبو يوسف يعقوب،⁴ على يد قاضيه أبي أمية الدولبي والمعدل محمد ابن الحباك هو من انفرد بتنصيب قبلتها،⁵ وقد ورد ذكرها في السجلات الوقفية القديمة باسم مدرسة الحفاويين، كما عرفت باسم المدرسة اليعقوبية وباسم مدرسة الصفارين وأورد لوطورنو ذكرها باسم مدرسة النحاسين لأنها كانت تقوم بين حوانيت المشتغلين بالقدر النحاسية.⁶

¹ ينظر: عبد الفتاح مقلد الغنيمي، ج 5، مرجع سابق، ص 277. - عبد الهادي التاري، مج 2، مرجع سابق، ص 355.

² أورد مارمول كريخال أنه يوجد بمدينة فاس مائتي مدرسة لتعليم القراءة، لكنه يقصد بهذا الكتاتيب التي يتم فيها تلقين الدروس. ينظر: مارمول كريخال، ج 2، مصدر سابق، ص 147.

³ ينظر: حسن الوزان، ج 1، مصدر سابق، ص 225. - مارمول كريخال، ج 2، مصدر سابق، ص 147.

⁴ ينظر: ابن أبي زرع، الذخيرة... مصدر سابق، ص 162. - الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 65. - شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص 241. - روجيه لوطورنو، فاس...، مرجع سابق، ص 28. - إبراهيم حركات، مج 2، مرجع سابق، ص 156.

⁵ الجزنائي، مصدر سابق، ص 81.

⁶ روجيه لوطورنو، فاس...، مرجع سابق، ص 28.

تقع هذه المدرسة قبله جامع القرويين،¹ يدخل الزائر إلى المدرسة عبر ممر أسطواني يؤدي إلى فناء (صحن) مستطيل الشكل يتوسطه صهريج مربع كانت تحيط به غرف الطلبة، أمام المدخل توجد قاعة للدراسة والعبادة مربعة الشكل ما تزال تحتفظ ببعض الزخارف الفنية البديعة، ويعد محراب هذه القاعة من أقوى محاريب مساجد فاس، كما كانت هناك خلوة بجانب قاعة الصلاة تحتوي على محراب خاص، وكانت مسكنًا للإمام محمد بن سليمان الجزولي وإلى يسار باب القاعة تلاحظ حجرة بارزة مغروزة في الجدار يقال إنها جلبت من مكة المكرمة، وتحتوي المدرسة على صومعة صغيرة، غير أن دخان سوق الصغارين قد أثر على ملامحها وألوانها.²

تضمنت المدرسة خزانة كتب علمية مهمة ضمنها عدد من الكتب التي كانت لدى اليهود والمسيحيين في مملكة قشتالة،³ وفي زاويتها ميضأة تحتوي على صهريج وعدة بيوت للوضوء ومنذ تأسيس المدرسة اليعقوبية، خصصت لها أوقاف كثيرة لتغطية احتياجاتها ومتطلبات نفقة طلابها ومجالسها العلمية وأجرى مرتبات المدرسين من جزية اليهود.⁴

2. 2. 2 مدرسة العطارين:

أخذت هذا الاسم نسبة إلى موقعها المقابل لسوق العطارين الشهير قام السلطان أبو سعيد بوضع حجر الأساس للمدرسة بنفسه عام (723هـ/1323م) بمشاركة نخبة من الفقهاء وأهل الخير استغرق بناء المدرسة عامين حيث جرت الأعمال تحت إشراف أبي محمد عبد الله بن قاسم المزوار، وقد عين السلطان طاقما إداريا يتكون من إمام ومؤذنين وموظفين للإشراف على المدرسة، كما قام بتخصيص أوقاف لتمويل العملية التعليمية ودعم الطلبة والفقهاء وهو ما يوثقه نص لوحة التحبيس المثبتة في أحد جدران المدرسة.⁵

¹ ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص 163.

² **ينظر:** عبد الهادي التازي، مج 2، مرجع سابق، ص 357. -شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص 241. -محمد عيسى الحريري، مرجع سابق، ص 324.

³ إبراهيم حركات، مج 2، مرجع سابق، ص 156.

⁴ **ينظر:** ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص 163. -الناصر، ج 3، مرجع سابق، ص 65.

⁵ **ينظر:** الناصري، مرجع سابق، ج 3، ص 112. -روجيه لوطورنو، فاس في عصر بني مرين...، مرجع سابق، ص 29. -عبد الهادي التازي، مج 2، مرجع سابق، ص 358.

تعد مدرسة العطارين معلما فنيا بارزا إذ تحتضن مكوناتها تحفا معمارية وزخرفية بالخشب المحفور والزليج المدهون، جعلت منها متحفا بديعا يعكس أسمى مظاهر الفن المغربي خصوصا صحنها وبيت الصلاة، كان كل جزء من المدرسة محط اهتمام خبراء الفن نظرا لروعة النقوش والخطوط والأقواس.¹

كان بالمدرسة ما بين ثلاثين وخمسين بيتا، عند الدخول إليها يظهر على اليمين سلم يؤدي إلى الطبقات العليا حيث تقع غرف الطلبة بينما يوجد على اليسار مكان للوضوء وفي الجهة الأمامية، يفضي المدخل إلى صحن المدرسة الذي تقابله قاعة الدرس التي تخلو من البلاطات التقليدية، وتتميز بوجود ثلاثة أقواس في الجهة الخلفية محمولة على عمودين رخامين وقد نقش على أحد الأقواس "قل هو الله أحد"، بينما حافظت تيجان الأعمدة على نقوشها الأصلية.²

يعتقد بعض الباحثين أن الجزء الخلفي من قاعة الدرس كان مخصصا لخزانة المخطوطات كما هو الحال في بعض المدارس التي تعود إلى نفس الحقبة، وتزين القاعة ثريا مثمثة الأضلاع نقش عليها قول الله تعالى: "الله نور السماوات والأرض"، بالإضافة إلى اسم مؤسس المدرسة السلطان أبو سعيد، غير أن التاريخ الكامل لنقش الثريا قد تعرض للتلف ولم يتبق منه سوى سنة سبعمئة، لكن التاريخ الصحيح مدون على اللوحة الرخامية التي تشير إلى إتمام البناء عام (725هـ/1325م) وتضم أيضا قائمة بالأوقاف المخصصة للمدرسة،³ إذ اشترى السلطان أبو سعيد عدة أملاك وأوقفها عليها.⁴

¹ ينظر: الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 112. -إبراهيم حركات، مج 2، مرجع سابق، ص 157. -عبد الهادي التازي، مج 2، مرجع سابق، ص 358. -روجيه لوطورنو، فاس في عصر بني مرين...، مرجع سابق، ص 29.

² عبد الهادي التازي، مج 2، مرجع سابق، ص 358.

³ نفس المرجع، نفس الصفحة.

⁴ الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 112.

2. 2. 3 المدرسة المصباحية:

أسس السلطان المريني أبو الحسن المدرسة المصباحية في عام (747هـ/1346م)¹، تقع في جوفي جامع القرويين بمدينة فاس بحي بوطويل واشتق اسم المدرسة من اسم الفقيه أبي الضياء مصباح بن عبد الله الياصوتي الذي كان أول من درس فيها،² يقول ابن مرزوق التلمساني في وصفه: "الإمام المعروف بالكراس، فإنه كان يستظهر في النقل بكراس يسردها في دولته كل غداة رحمة ونفع به"³، كما تعرف المدرسة في سجلات الوقف باسم مدرسة الخصة نسبة لوجود نافورة من الرخام الأبيض في وسط صحنها والتي أحضرها أبو الحسن من مدينة المرية بالأندلس إلى مدرسة الصهرج ثم نقلت إليها، حيث ما زالت موجودة إلى اليوم بأبعاد تبلغ 320 سنتيمتر طولاً أي حوالي 3 أمتار و105 سنتيمتر عرضاً أي ما يقارب متراً واحداً، يمكن الولوج إلى المدرسة عبر باب يقابل الباب الشمالي لجامع القرويين المعروف بباب الخصة، ومن الملاحظات التاريخية المثيرة للاهتمام أن هناك قطعة من الرخام كانت موضوعة بين جامع القرويين والمدرسة كان الطلاب يعبرون فوقها أثناء التوجه إلى الدروس مفضلين عدم ارتداء الأحذية.⁴

عند الدخول إلى المدرسة يلاحظ وجود منفذ على اليسار يؤدي إلى دار الوضوء، وكذلك إلى السلالم -تقود إلى الطابقين العلويين المخصصان لسكن الطلاب- يوجد في منتصفها مسجداً صغيراً يضم محراباً وكان يستخدم في فترات معينة كمقر لقاضي القضاة، يتضمن الطابق الأرضي للمدرسة عدداً من الغرف المخصصة لإقامة الطلاب، حيث يقدر عددها بحوالي سبعة عشر غرفة (17 غرفة) في الطابق السفلي، وما يقارب مائة غرفة (100 غرفة) في الطابق العلوي أي تحتوي على مائة وسبعة عشر غرفة (117 غرفة)، وعند المدخل الرئيسي يقع باب يؤدي إلى قبة الدرس والصلاة وهي قاعة تتوسطها سارية من الرخام وتحتوي على محراب مميز، على الرغم من أن

¹ ينظر: ابن مرزوق التلمساني، المسند...، مصدر سابق، ص 406. -الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 176.
² ينظر: الجزنائي، مصدر سابق، ص 111. -الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 176. -شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص 241. -إبراهيم حركات، مج 2، مرجع سابق، ص 157. -عبد الهادي التازي، مج 2، مرجع سابق، ص 359.

³ ابن مرزوق التلمساني، المسند...، مصدر سابق، ص 406.

⁴ عبد الهادي التازي، مج 2، مرجع سابق، ص 359.

المدرسة توفرت على أوقاف عديدة، إلى جانب جمالية بنائها واحتوائها على العديد من المرافق المجهزة أيما تجهيز، إلا أنها خربت وفقدت العديد من منشأتها مما أدى في الأخير إلى إغلاقها نهائياً.¹

2. 2. 4 مدرسة الصهريج:

تمت تسمية المدرسة بهذا الاسم نسبة إلى الصهريج المستطيل الموجود في صحنها من بناء السلطان أبو الحسن المريني على عهد والده أبو سعيد عثمان عام (721هـ/1321م)،² وربما لهذا نسب أحد الباحثين تشييد هذه المدرسة لأبو سعيد عثمان دون ابنه.³

تقع هذه المدرسة في الجهة الغربية من جامع الأندلس بمحاذاة مدرسة السبعيين، تم بناؤها وفقاً لأعلى معايير البناء من حيث الجمال والدقة إذ أنشأ حولها سقاية وداراً للوضوء وفندقاً لسكنى طلاب العلم، كما تم توفير المياه لهذه المنشآت من عين تقع خارج باب الحديد، بلغت تكلفة هذا المشروع ما يزيد عن مائة ألف دينار ذهبي (100000 دينار ذهبي)، وقام السلطان بنفسه ترتيب الفقهاء للتدريس في هذه المدرسة، وأسكن فيها طلاب العلم وقراء القرآن، وأجرى عليهم الأنفاق والكسوة وحبس عليها رباعاً كثيرة بالإضافة إلى ذلك أوقف عليها أوقافاً كثيرة لدعم المدرسة.⁴ ولقد أهملت هذه المدرسة إلى أن تم تجديدها لأول مرة على يد السلطان عبد الله الغالب السعدي عام

¹ ينظر: إبراهيم حركات، مرجع سابق، مج 2، ص 158. -عبد الهادي التازي، مرجع سابق، مج 2، ص 359. -شارل أندري جوليان، مرجع سابق، ج 2، ص 241.

² ينظر: ابن مرزوق التلمساني، المسند...، مصدر سابق، ص 405. -الناصر، ج 3، مرجع سابق، ص 176. -إبراهيم حركات، مج 2، مرجع سابق، ص 158.

³ محمد عيسى الحريري، مرجع سابق، ص 423.

⁴ ينظر: ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 412. -الجزنائي، مصدر سابق، ص 111.

(969هـ/1562م)¹، لكن هذه الإصلاحات مست المخطط الأصلي للمدرسة، لهذا أرجع البعض تشييد هذه المدرسة إلى السعديين،²

وفقا للدراسة الميدانية التي أجراها أحد الباحثين فإنه يتوسط هذه المدرسة صحن مستطيل الشكل يبلغ طوله اثنا عشر متر ونصف (12.5 مترا) وعرضه سبع أمتار (7 أمتار)، يمتد من المدخل إلى قاعة الصلاة، يحيط بهذا الصحن رواق من ثلاث جهات مقابلة لقاعة الصلاة يتم الوصول إلى الرواق عبر عقود مزخرفة بزخارف جصية محمولة على أعمدة، أما الرواق المواجه للمدخل فيتميز بفتحة أكبر (عقد كبير)، وتشغل قاعة الصلاة ثلث مساحة المدرسة، حيث يبلغ طولها أربعة عشرة مترا ونصف (14.5 مترا)، وأكثر من أربع أمتار عرضا (4.25 مترا) لا تحتوي هذا القاعة على عقود أو دعامات، وتتمتع باتصال مباشر بالصحن من خلال ثلاث فتحات ويوجد في منتصف جدار القبلة داخل قاعة الصلاة محراب مضع الشكل إلى جانبه فتحات مخصصة لوضع الكتب والمخطوطات.³

2. 2. 5 مدرسة السبعين:

بنيت هذه المدرسة على يد السلطان أبو الحسن المريني في الفترة ذاتها التي أنشئت فيها مدرسة الصهريج عام (721هـ/1321م)، واكتمل بناؤها في عام (723هـ/1323م)، تعد هذه المدرسة ملحقة بمدرسة الصهريج، كما يظهر في نقش التحبيس المشترك بينهما وعلى الرغم من أن حجمها صغير مقارنة بمدرسة الصهريج الذي لا يتجاوز نصف حجمها،⁴ وتتصل بهذه الأخيرة عبر باب يقع في الجدار الشرقي الجنوبي، ويفتح على قاعة الصلاة الخاصة بمدرسة الصهريج وسميت بمدرسة السبعين نظرا لكونها مخصصة للطلبة الذين يدرسون القرآن الكريم برواياته السبع،⁵

¹ إبراهيم حركات، مج 2، مرجع سابق، ص 158.

² العربي لقريز، مدارس السلطان أبي الحسن علي مدرسة أبي مدين نموذجاً، إش عبد الحميد حاجيات، رسالة ماجستير، قسم الثقافة الشعبية، شعبة الفنون الشعبية، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، (2000/2001م)، ص 37.

³ العربي لقريز، مرجع سابق، ص 35-36.

⁴ ينظر: عبد الهادي التازي، مج 2، مرجع سابق، ص 362. -العربي لقريز، مرجع سابق، ص 39.

⁵ إبراهيم حركات، مج 2، مرجع سابق، ص 159.

ورغم الإهمال الذي طالها إلا أنها تزخر بروائع الفن المعماري، حيث تحتوي على صحن مكشوف طوله عشر أمتار (10 متر) وثلاث أمتار عرضا (3 متر)، يحيط بالصحن رواق من الجهات الأربعة يفتح إليه من خلال ثلاثة عقود في الجهتين الموازيتين لقاعة الصلاة يتوسط هذا الصحن نافورة جميلة من الرخام المنحوت ومخططها لا يضاهي المدرسة الأولى.¹

2. 2. 6 مدرسة فاس الجديد (البيضاء):

أمر بتشبيدها السلطان أبو سعيد عثمان سنة (720هـ/1320م) فبنيت أحسن بناء وأتقنه، ورتب فيها الطلبة لقراءة القرآن والفقهاء لتدريس العلم وأجرى عليهم المرتبات والمؤن في كل شهر، وأوقف عليها الرباع والضياح الكثيرة،² تحولت هذه المدرسة خلال العهد العلوي إلى معهد للتخصص العلمي، على يد السلطان محمد بن عبد الرحمان كما كان يتخرج منها الموظفون الإداريين،³ أما فيما يخص موقع هذه المدرسة فهي تقع بالقرب من الجامع الكبير خارج القصر الملكي ثم تم إلحاقها فيما بعد إلى المشور.⁴

2. 2. 7 المدرسة البوعنانية بفاس: (الشكل رقم: 05)

تعد المدرسة البوعنانية من أبرز المعالم المعمارية التي تجسد روائع الفن الإسلامي في العهد المريني، وقد أنشئت بأمر من السلطان أبي عنان المريني الذي وضع حجر أساسها عام (751هـ/1350م) وفرغ من بنائها سنة (757هـ/1357م) على يد الناظر أبي الحسن بن أحمد بن الأشقر، وخصص لها أبو عنان أحباسا عديدة منها حماما ومنزلا مجاورا لها فضلا عن رحي

¹ ينظر: عبد الهادي التازي، مج 2، مرجع سابق، ص 362. -العربي لقريز، مرجع سابق، ص 39.

² ينظر: ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص ص 411 - 412. -الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 11. -إبراهيم حركات، مج 2، مرجع سابق، ص ص 156 - 157. -محمد عيسى الحريزي، مرجع سابق، ص 423. -عبد الهادي التازي، مج 2، مرجع سابق، ص 358.

³ إبراهيم حركات، مج 2، مرجع سابق، ص 157.

⁴ ينظر: محمد المنوني، ورقات...، مرجع سابق، ص 50. -إبراهيم حركات، مج 2، مرجع سابق، ص 157.

وفرن واصطبلات ودكاكين (أربع وسبعين دكاناً)، وذلك للإنفاق على طلبتها وقومتها وأساتذتها،¹ لأن نفقات هذه المدرسة كثيرة ولقد أنشد بيتين يعبران عن تكلفة هذه المدرسة الطائلة:

لا بأس بالغالي إذا قيل حسن ليس لما قرت به العين ثمن²

تقوم هذه المدرسة في القسم الغربي المرتفع من فاس وقد بنيت بهذه المدرسة دون غيرها قاعات كبيرة لتلقين الدروس،³ يتوسط المدرسة حوض مائي بديع التصميم مكسو بالرخام الفاخر، يخترقه مجرى مائي رفيع يتدفق عبر قناة ضيقة مغطاة بأرضية وحواف من الرخام والزليج، وتحيط بالصحن ثلاثة أروقة تتميز بجمالها الهندسي الفريد مدعومة بأعمدة مثمثة الأضلاع مثبتة بدقة في الجدران ومزدانة بتشكيلات لونية متقنة، كما تتميز الأقواس التي تربط بين هذه الأعمدة بكسوة زليجية مذهبة وتطعيمات بحجر اللازورد مما يعكس براعة ودقة الصنعة، أما السقف فقد تم تنفيذه بخشب منقوش بطريقة دقيقة ومنظمة، تعبيرا عن مستوى رفيع من الحرفية المعمارية خلال هذا العهد.⁴

أنشئ بين الأروقة والصحن حواجز خشبية مصممة بشكل شبابيكي تتيح حجب الرؤية من وإلى الحجرات المطلة على الأروقة، ما يمنح المكان خصوصية ووظيفة معمارية متميزة، وتغطي الجدران الداخلية للمدرسة زخارف زليجية متقنة تصل إلى مستوى يمكن لمسه بالأيدي، تزرع هذه الجدران بنقوش شعرية تجسد تاريخ تأسيس المدرسة وتثني على بانيها، كتبت بحروف سوداء كبيرة على خلفية بيضاء، مما يسمح بقراءتها بوضوح حتى من مسافات بعيدة وتعتبر الأبواب البرونزية للمدرسة مثالا على الدقة الفنية والزخرفية، بينما صنعت أبواب الحجرات من خشب منقوش بعناية

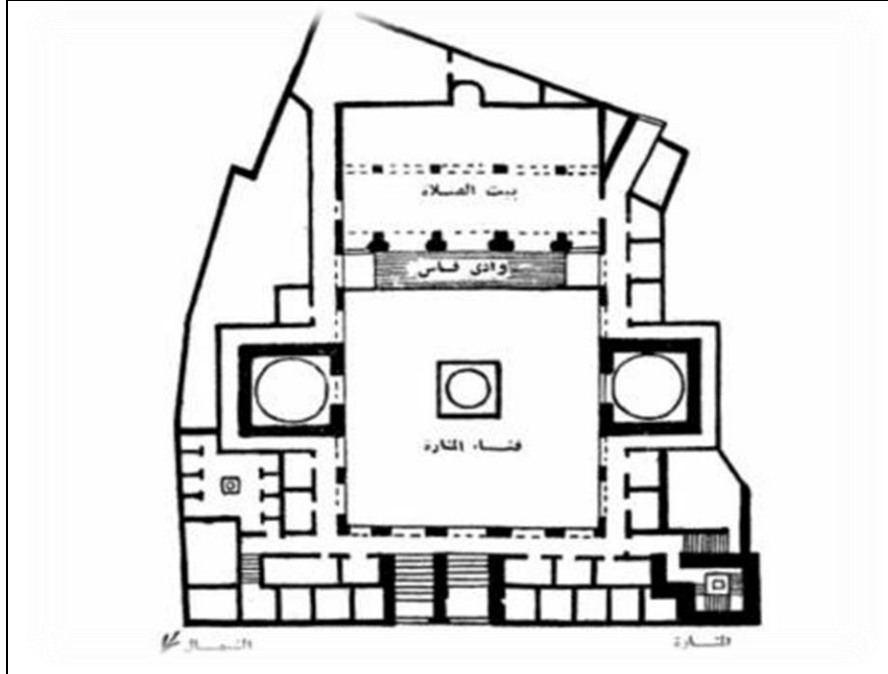
¹ عبد الفتاح مقلد الغنيمي، ج 5، مرجع سابق، ص 277.

² حسن الوزان، ج 1، مصدر سابق، ص 226. بينما أورد الناصري، بأن هذا البيت من الشعر أنشده أبو الحسن المريني، بعد رميه للرسوم المتضمنة للتنفيذات اللازمة في الصهرج قبل أن يقرأ ما فيها. **ينظر:** الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 177.

³ روجيه لوطورنو، فاس في عصر بني مرين...، مرجع سابق، ص 44.

⁴ **ينظر:** حسن الوزان، مصدر سابق، ج 1، ص ص 25-226. -عبد الهادي التازي، مج 2، مرجع سابق، ص 360. - شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص 241.

فائقة، وفي القاعة الكبرى المخصصة للصلاة يتجلى منبر رائع من تسع درجات، مصنوع بالكامل من الخشب والعاج، يعتبر تحفة فنية نادرة تبرز براعة فن النحت والزخرفة في تلك الحقبة.¹



الشكل رقم: 05

رسم تخطيطي للمدرسة البوعنانية بفاس (الطابق السفلي)

بتصرف عن شارل أندري جوليان، ج 2، ص 242

إلى جانب هذه المدراس أوردت المصادر ذكر أسماء أخرى لمدارس تقع في عدوة الأندلسيين، مثل **المدرسة الكبرى ومدرسة الوادي** وهي التي يشق في وسطها الواد الأعظم بالعدوة،² ولم يقف سلاطين بني مرين عند الاهتمام ببناء المدارس في عاصمتهم فاس فقط وإنما أنشأوا المدارس في سائر بلاد المغرب،³ فشاد أبو الحسن المريني العديد من المدارس بمدينة تلمسان خلال فترة اللاحق، وعلى نفس النهج سار ابنه وشاد المدارس بهذه الحاضرة فضلا عن المدارس التي شادوها في مجالات المغرب الأقصى منها:

¹ ينظر: حسن الوزان، ج 1، مصدر سابق، ص 226. -شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص 241.

² ابن مرزوق التلمساني، المسند....، مصدر سابق، ص ص 405 - 406.

³ محمد عيسى الحريري، مرجع سابق، ص 324.

2. 2. 6 المدرسة المرينية بسلا:

بنيت هذه المدرسة خلال العهد المريني عام (742هـ/1342م) إستنادا إلى لوح الحبوس بالجدار الغربي لقاعة الصلاة،¹ ولقد إبتدأ بنائها وفقا لما هو مكتوب على بابها نقشا في الخشب الذي هو فوق القوس:²

اقتضى أمر أمير المسلمين هذه السنة في احسن حين
لثلاث وثلاثين بها أسست والسبعمئين
اضرع الله في النصر له وادخلوها بسلام امينين

بنيت هذه المدرسة على يد السلطان أبو الحسن المريني،³ تقع وسط المدينة بالقرب من المسجد الأعظم وتعتبر من روائع الفن المريني، لأنها أفضل المدارس شكلا وأرفع المباني في تلك الفترة وأتقنها وضعا وإحكاما،⁴ وقد أودعها الصانع من بديع الصنائع ولا زالت معالمها قائمة إلى اليوم تشهد عن جمالية الفن المعماري المريني، وأوقف عليها عدة أوقاف ونقش اسمه وزين بالأصباغ على لوح رخامي كبير ثم ثبت على الجدار الجوفي منها.⁵

يتوسط المدرسة صحن مكشوف طوله ثماني أمتار ونصف (8.5 متر) وعرضه ما يقارب أربع أمتار (4.20 متر) يتوسطه حوض صغير ويحيط به من جهاته الأربعة رواق مثل ما هو موجود بسائر المدارس المغربية، تفتح على الصحن النوافذ الخلفية (يقارب عددها نحو العشرة نوافذ) لغرف الطلبة الواقعة في الطابق العلوي، التي يتم الولوج إليها عن طريق سلم يقع في النهاية الجنوبية لرواق الشرقي للصحن، خلف الصحن يوجد قاعة صلاة ذات شكل مستطيل وهي عبارة

¹ العربي لقرينز، مرجع سابق، ص 41.

² محمد بن علي الدكالي، مرجع سابق، ص 63.

³ ابن مرزوق التلمساني، المسند...، مصدر سابق، ص 406.

⁴ ينظر: النميري، مصدر سابق، ص 95. - الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 175.

⁵ الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 175.

عن ثلاث قاعات في قاعة واحدة الوسطى أكبر مساحة، قسمت هاته القاعات بواسطة عقدين وزينت أجزائها العلوية بالخشب المنقوش ومسقوفة بالقرميد الأخضر.¹

بلطت أرضية المدرسة بالزليج،² وأودع جوانبها من أنواع الزخارف والنقوش بالزليج،³ مكتوب عليها قصيدة تضمنت مدحا ودعاء للسلطان المريني وذكر محاسن المدرسة وجلها محي وظل منها ما بقي عن يسار الداخل لقبة المدرسة من أبيات هذه القصيدة:⁴

لقد شاد أركانني لفخر مؤبد بعزم أمير المسلمين المؤيد
أبي الحسن الأرضى المنيف الذي سما فاطس...نبي ظل لظل ممهد
تحولت هذه المدرسة إلى فندق ثم إلى محكمة شرعية إلى أن أبوابها تلاشت وسقوفها
خربت، فعملوا على تجديد معلمهما، لكن أعمال التجديد والصيانة أفقدتها أصالتها بعد أن شوهدت
بنيته.⁵

2. 2. 8 المدرسة البوعنانية بمكناس:

إحتضنت مدينة مكناس ثلاث مدارس مخصصة لتعليم الطلبة، من أبرزها تلك التي وضع حجر أساسها السلطان أبو الحسن المريني عام (745هـ/1345م)،⁶ واكتملت في عهد ابنه أبو عنان لهذا أخذت اسمه وتقع هذه المدرسة بالقرب من الجامع الكبير بمكناس، تتميز بمدخلها التذكاري الشاهق الذي يعلوه باب مغلف بالنحاس، إلا أن عمليات التجديد والترميم التي خضعت لها على مر العصور أدت إلى فقدانها لبعض من أصالتها وزخارفها الفنية.⁷

يأتي تخطيط المدرسة وفق النمط التقليدي للمدارس المغربية وعليه فصحنها مستطيل الشكل بأبعاد تصل إلى حوالي إحدى عشرة ونصف مترا طولا (11.53 متر) وسبع أمتار ونصف

¹ العربي لقريز، مرجع سابق، ص 41.

² ينظر: محمد بن علي الدكالي، مرجع سابق، ص 63. -العربي لقريز، مرجع سابق، ص 43.

³ الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 175.

⁴ محمد بن علي الدكالي، مرجع سابق، ص 63.

⁵ النميري، مصدر سابق، ص 95.

⁶ ابن مرزوق التلمساني، المسند...، مصدر سابق، ص 406.

⁷ هوارية بكاي، مرجع سابق، ص 138.

متر تقريبا عرضا (7.56 متر) يتوسطه حوض مربع يبلغ طول ضلعه ثلاثة أمتار، ويحيط بالصحن رواق من ثلاث جهات متصلة بقاعة الصلاة التي تقع في الجهة الجنوبية وتتميز هذه القاعة ببساطتها، حيث تخلو من العقود والغرف ويبرز محرابها عن جدار القبلة، أما الطابق الأرضي للمدرسة فيضم ثلاث عشرة غرفة مخصصة لإقامة الطلبة، بالإضافة إلى غرف أخرى مخصصة لأغراض مختلفة، بينما يخصص الطابق العلوي بالكامل لسكن الطلبة حيث تطل نوافذ غرفهم على الصحن، كما ترتبط المدرسة بدار الوضوء التي تقع في الجهة الغربية وتتميز بمساحتها الكبيرة واحتوائها على مجموعة من الغرف الصغيرة المخصصة للوضوء.¹

2. 2. 8 المدرسة المرينية الجديدة بسبتة:

تضمنت مدينة سبتة مدرستين الأولى اتخذت اسمها من اسم مؤسسها أبو الحسن علي الفاقي الشاري السبتي سنة (635هـ/1237م) وهي أقدم مدرسة بمفهومها الدقيق بالمغرب الإسلامي،² أما الثانية من تشييد السلطان أبو الحسن المريني، يقول الأنصاري السبتي في وصفها: "والمدرسة الجديدة العظيمة البناء المتسعة الزوايا ذات الصنائع العجيبة وأعمدة الرخام وألواح المتعددة الغالية الثمن".³

أسس السلطان أبو الحسن المريني مدارس أخرى من بينها **المدرسة العظمى** بمراكش،⁴ وشاد أيضا مدرسة في أسفي وأغمات وأزمور، اتسمت هذه المدارس بتصميمات معمارية فريدة لاعتمادها على أساليب بناء وزخرفة متقدمة، شملت استخدام الزليج المتقن والرخام المزخرف والأخشاب المنقوشة بعناية، كما تم توفير المياه النقية لهذه المؤسسات من خلال شبكات مائية متصلة بالأنهار وضمنت استدامتها عبر تخصيص أوقاف سخية لدعم أنشطتها.⁵

إلى جانب المدارس والمساجد شاد بني مرين الزوايا من أشهرهم زاوية تافرطست التي شادها السلطان يعقوب بن عبد الحق سنة (684هـ/1285م) على قبر والده وتصدف عليها

¹ العربي لقريز، مرجع سابق، ص ص 48-49.

² محمد العادل إبراهيم، مرجع سابق، ص 92.

³ السبتي، مصدر سابق، ص 28.

⁴ الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 175.

⁵ ابن مرزوق التلمساني، المسند...، مصدر سابق، ص 406.

"بمحرث أربعين زوجاً"،¹ والزاوية المتوكلية التي شادها أبو عنان على غدير الحمص، بنيت هذه الزاوية على قاعدة ثابتة احتوت على جامع للصلاة زين سقفه الخشبي بزخارف شتى، واحتوت على صهريج وكان في كل ركن من أركان الزاوية باب يشرع إلى دار وضوء، ويتصل بالزاوية دار معدة لنزول الواردين، وتقابلها دار معدة للطبخ للزاوية والدارين المتصلتين بها باب كبير من جهة الشرق، وبمقربة منه الصومعة - غاية في الإرتفاع - مبلطة بالزليج الملون ويتصل بالزاوية من جهة الغرب والجوف روض أريض لقдах الحسن مفيض.²

¹ ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 373.

² النميري، مصدر سابق، ص ص 208 - 209.

خلاصة

من خلال مضمون هذا الفصل يتضح أن العمارة المدنية والدينية في كل من الدول الحفصية، الزيانية والمرينية لم تشهد تطورا كبيرا إذا ما قورنت بالفترات السابقة خاصة عهد المرابطين والموحدين، ويبدو أن السبب الأساسي لذلك يعود إلى انشغال السلاطين بالصراعات الخارجية، بالإضافة إلى الاضطرابات الداخلية ومع ذلك لا يعني هذا أن المغرب خلال هذه الفترة لم يشهد حركة عمرانية مهمة.

لم يكن بني حفص معروفين بكونهم من كبار البنائين فلم يتركوا وراءهم مباني تستحق الإعجاب بالمقارنة مع ما خلفه الموحدون من قبلهم، فاقترصت جهودهم العمرانية في معظمها على الحفاظ على المنشآت التي كانت موجودة بالفعل، والتي ورثوها من الكيانات السابقة في منطقة إفريقية، وقد ركزت مساهماتهم في المقام الأول على المنشآت الدينية والتعليمية حيث قاموا بتشييد العديد من المساجد والزوايا والمدارس إلى جانب البساتين.

أما بني زيان فقد أولوا اهتماما خاصا للبناء والتشييد في مختلف المجالات لا سيما القصور والمساجد والبساتين، بالإضافة إلى ترميم المنشآت التي تضررت نتيجة الحروب، وبرزت هذه النهضة العمرانية بشكل خاص خلال فترة حكم السلطان أبو تاشفين الأول الذي شهد عصره نشاطا معماريا ملحوظا، بإستخدام المهندسين المحليين إلى جانب العمال وأسرى النصارى من المهندسين وكذلك الأندلسيين.

بالنسبة لبني مرين فقد كان لهم إسهام في بناء وتشييد مختلف المنشآت العمرانية سواء الدينية أو المدنية، خصوصا في عهد السلطان أبي الحسن الذي ترك العديد من الآثار المعمارية، سواء في المغرب الأقصى أو المجالات التي أدخلها ضمن نطاق ملكه وهذا ما سيتم تناوله بالتفصيل في الفصل التالي.

الفصل الرابع: انعكاسات الصراع على العمران: دراسة ثنائية الخراب والتشييد

أولاً: مظاهر الخراب العمراني (ق7-9هـ)

1. خراب عمران الدولة الحفصية
2. خراب عمران الدولة الزيانية
3. خراب عمران الدولة المرينية

ثانياً: المنشآت العسكرية في المغرب (ق7-9هـ)

1. المنشآت الحربية الحفصية
2. المنشآت الحربية الزيانية
3. المنشآت الحربية المرينية

ثالثاً: البناء والترميم

1. جهود سلاطين المغرب في الترميم والصيانة
2. المنشآت المرينية في المغرب الأوسط

تمهيد

شهد المغرب الإسلامي ما بعد الموحدين صراعات سياسية وعسكرية لمحاولة كل دولة من دول هذا النطاق توسيع نفوذها خارج مجالات حدودها، ولقد كان المصير المحتوم للعمران في ظل هذه الصراعات هو التخریب لمختلف البنيات العمرانية، وصورة ذلك تترجم بالضرورة محاولة المسيطر طمس أي شواهد أثرية دالة على وجود وكيونة الدولة، كمحاولة منه لإفقاد هذه الأخيرة هويتها (القمع الثقافي) فضلا عن ضرب الحالة المعنوية للمحاصرين وترهيبهم حتى يضعفوا عن مدافعتهم.

وبالموازاة مع الاضطرابات السياسية والصراعات العسكرية المستمرة في بلاد المغرب كان من الطبيعي أن يتوجه قادة القوى المتصارعة إلى تحصين دولهم، لتأمينها من ويلات الحروب وإفرازاتها باعتبارها من تقنيات الدفاع الإستراتيجية، فأغذت التحصينات العسكرية جزءا لا يتجزأ من التركيبة العمرانية للدولة وفق معايير وأسس جديدة (نظام هندسي دقيق، ومخطط دفاعي متين)، كما كان للمحاصر أدوار في تحصين النطاق المستولى عليه وترميم ما خربته آلاهم الحربية من بنى عمرانية كدلالة لإلحاق هذا الأخير إلى دائرة نفوذهم، ولم تقتصر سياسة السلطان المحاصر في عملية الترميم والتحصين فقط بل راح يشيد المنشآت الدينية والثقافية وبعض المرافق الأخرى، بغية ترك بصمته الخاصة في تصميم هذه المنشآت لتكون شاهدا على العظمة والقوة والتبعية.

إنطلاقا من هذا الطرح سنعالج في هذا الفصل إنعكاسات الصراع بين دول المغرب الإسلامي على الجانب العمراني، من خلال الإجابة عن التساؤلات التالية: ما مدى تأثير الحروب بين دول المغرب الثلاث على العمران؟ وما هي المناطق التي شهدت أكبر تدهور عمراني في ظل هاته الحروب؟ وهل ارتبط الخراب العمراني في المغرب الإسلامي بالصراع فيما بينهم فقط أم كانت هناك أسباب أخرى؟ وكيف وجه السلاطين طبيعة التشييدات العمرانية لخدمة الحرب والتقليص من حدة هذا الهدم؟ وماهي صور التعمير والبناء التي قام بها القادة المحاصرين في المناطق المستولى عليها؟

أولاً: مظاهر الخراب العمراني

بنتج كرونولوجيا صراع بين دول المغرب الإسلامي وأثره على البنى العمرانية فإن المتضرر الأول من حالة الحروب المستمرة هو المغرب الأوسط، وهذا ما رصدته النصوص التاريخية التي أرخت لتلك الفترة مقارنة مع المغربين الأقصى والأدنى، فغالبا ما كانت هذه الحملات العسكرية وسيلة لخراب المنشآت العمرانية بمختلف أنواعها، على الرغم من حصانة تلمسان الطبيعية (عاصمة هذا المجال)¹، ومناعة أسوارها.²

أما ما تعرضت له البنى العمرانية في المغربين الأقصى والأدنى فإن المتسبب الأول لخرابها هو النزاعات الداخلية بين القبائل المناوئة لهم خاصة العربية، بالإضافة للتصدعات داخل البلاط ومحاولة الولاة الأفراد بأقاليمهم، فضلا عن العوامل الطبيعية لكن هذا لا يقصي أن الصراع بين دول المغرب لم يكن له التأثير السلبي على البنى العمرانية، وفيما يلي سيتم عرض مظاهر الخراب التي طالت دول المغرب الإسلامي خلال الفترة الممتدة بين القرنين السابع والتاسع للهجريين بفعل الصراع.

1. خراب عمران الدولة الحفصية

يرتبط تطور العمران وتقلصه بالوضع السياسية والعسكرية، ولأن الدولة الحفصية مرت بفتن داخلية وانقسامات وحروب مع دول المغرب، فضلا عن خطر النصاري المتزايد في معظم مراحلها، أسهمت كل هذه الوقائع في بلورة واقع عمراني جديد اتسم بخراب بعض البنى العمرانية لكون وظيفة هذه الحروب لا يمكن أن تكون غير التخریب،³ والتي أدت بالضرورة إلى تراجع حركة البناء والتشييد على الرغم من نجاح سلاطين الدولة في محاولاتهم الحفاظ على بعض المجموعات العمرانية الموروثة عن سابقهم.

ولأن الدولة الحفصية حلت محل الدولة الموحدية في المغرب الأدنى، شهد هذا المجال حروبا في بداية تثبيت أقدامها باعتبار الدولة المستجدة تستولي على ملك الدولة المستقرة بالمطالبة

¹ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 102.

² ينظر: البكري، المسالك والممالك...، ج 2، مصدر سابق، ص 259. -العبدري، مصدر سابق، ص 48-49. -أبو الفداء، مصدر سابق، ص 137. -الحميري، مصدر سابق، ص 136.

³ غاستون بوتول، هذه هي الحرب، تر مروان القنوتاي، ط 1، بيروت، باريس، لبنان، فرنسا، 1981، ص 68.

"فيقع بينهم...حروب سجال تتكور وتتصل إلى أن يقع لهم الاستيلاء والظفر بالمطلوب"،¹ فبعد تغلب بني حفص على المجال عمد من بقي من الأشياخ الموحدين في إفريقية إثارة التصدعات والاضطرابات الداخلية، مما أدى إلى تنظيم حملات ضدهم فأسفر عنها عمليات النهب والتخريب لمنازل الموحدين بإفريقية.²

ونظرا لسياسة بني زيان التوسعية على حساب الدولة الحفصية عمد سلاطينها على توجيه الجيوش لمناطق نفوذ بني حفص، عملا بوصية مؤسس الدولة يغمراسن بن زيان التي تقول: "ولعلك تصير بعض الثغور الشرقية معقلا لذخيرتك"،³ لذلك عانت خلالها الثغور الشرقية للدولة الحفصية وطأت تمردات جيوش بني زيان التي لم تتوان عن ضرب تلك الجهات وشن الغارات بين الحين والآخر، خاصة بعد بناء العديد من الحصون بالقرب من بجاية التي أصبحت علامة حدودية للمغرب الأوسط الزياني في الجهات الشرقية.⁴

وعليه فلقد كانت أكثر المدن تضررا هي تلك الواقعة على حدود الدولتين منها مدينة قسنطينة التي لطالما وجهت بني زيان إليها قواتها بغية إخضاعها،⁵ من ذلك ما قامت به جيوش السلطان أبو تاشفين الأول بقيادة موسى بن علي سنة (726هـ/1327م)، يقول في ذلك عبد الرحمان ابن خلدون: "فنازل قسنطينة وأفسد نواحيها".⁶

كان لمدينة بجاية أيضا نصيب من تلك الحروب إذ أصبحت معتركا لهاتين القوتين باعتبارها من الأقاليم المتنازع عليها،⁷ من ذلك قول حسن الوزان: "وكان إقليم بجاية موضوع نزاع

¹ عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة...، مصدر سابق، ص 372.

² محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 177.

³ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 123.

⁴ بلال زيتوني، مرجع سابق، ص 9.

⁵ علال بن عمر، "قسنطينة في العهد الحفصي: محور صراع وتنافس بين دول المغرب الإسلامي"، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، جامعة الوادي، ع 3، (من ص 50 إلى ص 86)، الجزائر، ص 60.

⁶ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 144.

⁷ Douuminique Valérien, Frontières et territoire dans le Maghreb de la fin du Moyen Age: les marches occidentales du sultanat hifside, Correspondances (tunis), (pp 3-8), 2003, p5.

مستمر، يتبع تارة سلطة ملك تونس، وسلطة ملك تلمسان مرة أخرى¹، لهذا لم تتفق المصادر التاريخية والجغرافية على تحديد نطاق انتماء بجاية واعتبرها البعض قاعدة للمغرب الأوسط².

ولفرض السيطرة المطلقة على إقليم بجاية عمد سلاطين بني زيان على استعمال الحصار كأسلوب ردعي ومؤكد على الانتصار والفوز بتلك الثغور، ولأن صفة تدمير مظاهر العمارة ببلاد المغرب وتخريبها وحرقتها صفة رديفة لعديد حروب الحصار³، تأثرت البنى العمرانية لمدينة بجاية من وطأت الحصار خاصة وأنها تكررت هاته الحركة على الرغم من أنها مدينة حصينة ومنيعه⁴ من ذلك ما قام به عثمان بن يغمراسن من تدويخ لسائر أقطارها وأناخ عليها بعساكره⁵ فقطع جناتها وأحرق قراها⁶ كما قام أبو حمو موسى الأول بتكثيف تحركاته العسكرية تجاه هذا الإقليم أين اجتاحت قواته نواحيه وألحقت به دمارا واسعا⁷.

وكانت للدولة المرينية الدور في خراب عمران إفريقية على الرغم من صمت المصادر عن ذكر أي موضع تم تخريبه بسبب عمليات إلحاق هذا المجال إلى نطاق ملك بني مرين خلال عهد أبو الحسن المريني، وقيل أنه دخلها دون امتناع من أهلها⁸.

لكن في فترات أفول نجمه -أبو الحسن المريني- وتمرد الأعراب عليه عمد أوليائه المعتصمين بقصبة تونس تخريب منازل الحاشية⁹ بعد فرار ابن تافراجين إلى المشرق انتقاما منهم لرميهم بالمجانيق وهم محاصرين داخلها¹⁰ ومن الإشارات الدالة على تهديم آلات الحصار التي

¹ حسن الوزان، ج 1، مصدر سابق، ص 31.

² **ينظر:** أبو الفداء، مصدر سابق، ص 137. -القلقشندي، ج 5، مصدر سابق، ص 109. - الحميري، مصدر سابق، ص 80.

³ البشير بوقاعدة، خطة الحصار...، مرجع سابق، ص 408.

⁴ العبدري، مصدر سابق، ص 83.

⁵ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 125.

⁶ يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 118.

⁷ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 138.

⁸ الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 156-157.

⁹ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 526.

¹⁰ **ينظر:** ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 97. -ابن أبي دينار، مصدر سابق، ص 129.

ضربها ابن تافراجين معية أشياخ الموحدين، والخياط لأسوار المدينة أن أبو الحسن المريني اعتمد فور دخوله المدينة على إصلاح أسوار تونس.¹

وعلى الرغم من أن عبد الرحمان ابن خلدون لم يذكر تدمير بني مرين (عهد أبو الحسن) لمنشآت بني حفص ما عدا منازل الحاشية التي سبق ذكرها، إلا أنه أورد بعد خروجهم من البلاد أول ما قام به الفضل عند دخوله إلى الحضرة: "جدد ما طمسته بنو مرين من معالم الدولة".²

وإن كان تغلب أبو الحسن على إفريقية بدون امتناع من أهلها فإن ابنه أبو عنان ألحق تلك التخوم لنفوذه بالمطاوله والمكابرة، يقول ابن الشماع في هذا الشأن: "فدخل أهل الأسطول إلى تونس، وهلكوها"،³ وعمد أبو عنان على تخريب البنى العمرانية من منازل وقصور، بالتل والصحراء لتأديب المعارضين لسياسته الجبائية ورفضهم دفع الإتاوات، من ذلك ما قام به اتجاه شيخ بني رياح يعقوب بن علي في بلاد الزاب.⁴

كما كان لسلطين وأمراء بني حفص الدور في تخريب عمران المغرب الأدنى، نتيجة للصراع على السلطة وكثرة الفتن والحروب الداخلية التي أفضت إلى تقسيم الدولة،⁵ فانقسام الدولة وكثرة الحكام عليها تفضي فيما بعد إلى تشتت السلطة وانعدام الأمن والاستقرار السياسي، وملحقة ذلك هو تخريب البنى العمرانية لتلك المنطقة، ولقد أشار إلى ذلك أبو حفص عمر في خطبته التي ألقاها بجامع سيدي يحيى السليمانى حين قال: "من علامة خراب تونس أن يكون فيها سبع خطب"،⁶ من أمثلة ذلك إشارة عبد الرحمان ابن خلدون عن ما قام به أبو زكريا سنة

¹ ينظر: الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 162. -روبار برونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص 372.

² عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 529.

³ ابن الشماع، مصدر سابق، ص 104.

⁴ ينظر: الزركشي، مصدر سابق، ص 97. -الناصرى، ج 3، مرجع سابق، ص 202.

⁵ عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة...، مصدر سابق، ص 362.

⁶ ابن الشماع، مصدر سابق، ص 93.

(685هـ/1387م) إزاء قابس خلال فترة حصاره لها: "هدم ربضها وأحرق المنازل والنخل"،¹ ويضيف على هذا ابن قنفذ القسطنطيني: "فحاصرها وهدم كثيرا من منازلها".²

وعند استرجاع بني حفص لملكهم من أبو الحسن المريني قام المولى أبو العباس الفضل صاحب تونس سنة (750هـ/1349م) بضرب القصر الذي هو بمدينة تونس بالحجارة، لإخراج من كان به من بني مرين،³ والظاهر أن بني حفص اهتموا إلى الاستعانة بالحجارة كتقنية لإعاقة حركة العدو نحو المدينة، لهذا كانت تلجأ جيوشهم إلى الاستعانة بالحجارة الموجودة بضواحي الحصون لرميها على العدو، من الصور الدالة على ذلك أنه خلال فترة تمكن بني زيان من حصار تونس لبضعة أيام بقي بعض عساكرهم محاصرين لقسطنطينية وأوشكوا على تجاوز أسوارها، فنذ على المعتصمين عدتهم من الحجارة، حينها كان الشيخ خلف الله بن حسن بن القنفذ يقول: "من يأتي بحجر فله درهم"،⁴ وهنا يتضح مدى تأقلم بني حفص مع الحروب من خلال ابتكارهم لتقنيات جديدة تتماشى مع الإمكانيات المتوفرة آنذاك بغية الدفاع ومحاولة الصمود أمام جموح المحاصرين.

وبعد الإفراج عن أبو العباس في التخوم المرينية مقابل مساعدة السلطان أبو سالم في حربه على تلمسان توعده برده إلى بلاده، ولما تم له الاستحواذ على ملك بني زيان سرحه إلى إفريقية: "فانتهى إلى البلد فبقي في ساحته أياما، يغادياها القتال ويراوحها إلى أن تسلقوا الأسوار من رأس الطابية، وفر الأمير خالد ودخل من باب الجزيرة، فوجده مغلقا فكسره وكسر أقفاله".⁵

لم تقتصر عمليات التخريب على تونس والمناطق المجاورة لها بل امتدت إلى قسنطينة، التي تعرضت بدورها لأعمال الهدم نتيجة لسياسات بعض الأمراء الهادفة إلى تأديب حكامها، ومن بين هذه الأحداث ما أقدم عليه الأمير أبو عبد الله بتحريض من أحمد بن الكماد وبعض الأعراب، حيث قام بحشد قواته وسكان بلده في المدينة يوم الخميس السادس من ذي القعدة سنة (796هـ/1394م). وفرض عليها حصارا عسكريا فشلت الحركة وقطعت الأشجار واستخدمت

¹ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 450.

² ابن قنفذ القسطنطيني، الفارسية....، مصدر سابق، ص 149.

³ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 529.

⁴ ابن قنفذ القسطنطيني، الفارسية....، مصدر سابق، ص 162.

⁵ ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 108.

المقدوفات الثقيلة والمنجنوقات، وفي السنة التالية نفذت قواته عمليات تخريب استهدفت المباني والمحاصيل الزراعية والمنشآت المائية مما أدى إلى أضرار جسيمة لعمران المدينة.¹

ولأن الدولة الزيانية عمدت بناء الحصون كقاعدة عسكرية من جهات بجاية لضرب ملك بني حفص، فضلاً على أنه تم اعتبارها علامة حدودية تؤكد سطوتهم على تلك التخوم ونقطة هجوم جيوش بني زيان على الجهات الغربية للدولة الحفصية، عمد سلاطين بني حفص على تخريبها لإلغاء أدوارها العسكرية والتقليص من حركة جيوش بني زيان نحو ملكهم واسترجاع سيادتهم بتلك الجهات، من ذلك تخريب قوات بني حفص حصن أصفون،² فخرب وأنتهبت أقواته سنة (714هـ/1314م) أي في نفس السنة التي بني فيها،³ وفي سنة (732هـ/1332م) قام السلطان أبي بكر بتخريب حصن الياقوتة المقام في واد السمام.⁴

¹ ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية...، مصدر سابق، ص 191.

² أورده روبر برونشفيك باسم أزلفون. **ينظر**: روبر برونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص 162.

³ عبد الرحمان ابن خلدون، العير...، ج 6، مصدر سابق، ص 478.

⁴ روبر برونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص 180.

كما قام أبي بكر بتخريب حصن تامزديكت،¹ بمعونة من السلطان أبو الحسن المريني² الذي وجه له الإمدادات -العدة والرجال-³ وعقد عليهم لمحمد البطوي، وكانت أنطلاقة أساطيلهم من سواحل وهران ثم تقدم السلطان أبو بكر بكامل قواته نحو حصن تامزديكت، فاضطرت الحامية المتمركزة فيه إلى الانسحاب دون خوض مواجهة مباشرة، الأمر الذي أتاح له فرض حصار محكم على الحصن وانتهى بتفكيك بنيته الدفاعية وتخريبه بشكل منهجي، كما استولى على ما كان مخزنا بداخله من مؤن وسلاح ولم يكتفي بذلك بل عمد على محو معالمه العمرانية والرمزية، في خطوة تعبر عن رغبته في إنهاء دوره الاستراتيجي وإزالته من الوجود نهائيا، وبعد ذلك سار السلطان أبي بكر يسترجع المناطق التي خرجت عن نطاقه ودخلت في طاعة بني زيان، ولما بلغ مسيلة خرب أسوارها.⁴

¹ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 146

² نسبت بعض المصادر التاريخية تخريب حصن تامزديكت للسلطان أبو الحسن المريني، من تلك النصوص: نص التنسي، الذي يقول: "بعث رسلا أيضا متشفعا [أبو الحسن يقصد] للموحدين أصهاره [يقصد بني حفص]. فردت رسله أسوأ رد فكان ذلك سبب تحركه إلى تلمسان، فنزل تاسلا وأطال بها اللبث وأرسل إلى صهره [أبي بكر الحفصي] يقول شأنك وتاميزديت، فجاءها في جموع عظيمة. ففر الذين كانوا فيها فاستولى عليها وهدمها [يقصد هنا أبو الحسن]. وثار على السلطان أبي الحسن أخوه فرجع". نص التنسي هنا يؤكد أن أبو الحسن هو من قام بالتخريب، وما ذكره يحي ابن خلدون هو نص توافقي لما أورده التنسي إذ يقر أن أبو الحسن المريني هو من هدم الحصن معية أبو بكر الحفصي وبعض الحشود الإفريقية. يقول في هذا الصدد: "في سنة اثنين وثلاثين تحرك السلطان أبو الحسن مشرقا [يقصد هنا إلى جهات ملك بني حفص] فنزل تاسلة وأطال بها اللبث وأرسل صهره أبي يحي الموحّد يقول شأنك وتاميزديكت فجمع المذكور لها أهل إفريقية فلما قاربها فر من كان بها من القوات تقية ممن وراءهم وأسلموها بما فيها وذلك سنة ثلاثة وثلاثين فهدمها وقفل السلطان أبو الحسن إلى مغربه". فنص يحي ابن خلدون، والتنسي، يقران بأن من هدم تامزديكت هو أبو الحسن المريني وليس أحد غيره انتقاما لصهره، ومن بعدها قام بالتوجه إلى سجماسة لتأديب أخيه، على عكس عبد الرحمان ابن خلدون الذي أقر أنه كانت له نية المشاركة في ضرب حصن بجاية، لكن الأوضاع في دولته حالة بينه وبين ذلك واكتفى بتزويده فقط بالعدة والرجال، لذلك لم تتفق المصادر على تحديد تاريخ موحد لسقوط هذا الحصن. ينظر: التنسي، مصدر سابق، ص 155. يحي ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 141.

³ ينظر: التنسي، مصدر سابق، ص 155. -عبد الحميد حاجيات، مرجع سابق، ص ص 20- 21. -روبار برونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص 180.

⁴ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص ص 498- 499.

2. خراب عمران الدولة الزيدانية

يعتبر تخريب مختلف البنى العمرانية صورة نمطية ترافق الحروب،¹ فالهدم يعد من دلالات إثبات المنتصر لسيادته وبسط سلطانه على إقليم أو مجال تلك الدولة، ظنا منه أن التخريب معيار مادي وشاهد ميداني على الانتصار، فضلا عن الصبغة الانتقامية التي تخللت القادة العسكريين والحكام بغية التأثير على العدو وكسر عزائمه وتفريق صفوفه.²

فمن خلال تتبعنا للمصادر المؤرخة لمسببات الحرب ومخلفاتها بين دول المغرب الإسلامي، فإننا نجد سلاطين هاته الدول كانت توجه جيوشها انتقاما من منائئها، من ذلك قول عبد الرحمان ابن خلدون: "علم أن الحروب وأنواع المقاتلة لم تزل واقعة في الخليفة منذ براها الله وأصلها إرادة انتقام بعض البشر".³

فالانتقام عادة يكون بسبب الغيرة والمنافسة فحركة أبو يوسف يعقوب المتكررة نحو تلمسان غايتها الخفية الانتقام - وإن تعددت الأسباب الظاهرية- من سلاطينها التي لم تنفك تقحم نفسها في شؤون دولته، وتستقبل في بلاطها الخارجين عن سلطانه.⁴

وفي نفس الطرح نجد السلطان الحفصي أبو يحيى انتقاما من حركات بني زيان إزاء تخومهم من جهة الغرب، تحالف مع بني مرين التي أمدته بالعدة والرجال فدمر الحصون المشيدة على نطاق دولته، ثم أخذ في التقدم إلى آخر أعمال بني زيان في جهة الشرق بموضع يعرف باسم تاكليات فخر بمرانها.⁵

كما يعد الكره والحقد من العوامل النفسية التي دفعت بالقادة والملوك إلى طمس المعالم العمرانية للدولة أثناء عملياتهم الحربية، فنجد أن السلطان عبد العزيز المريني أثناء حركته على تلمسان وجد في حائط قصرها ثلاث أبيات من شعر أبو حمو:

¹ وهيبة الزحيلي، أثار الحرب في الفقه الإسلامي، دار الفكر، ط 4، دمشق، سوريا، 1992، ص 59.

² بلال زيتوني، مرجع سابق، ص ص 179-184.

³ عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة...، مصدر سابق، ص 334.

⁴ الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 54.

⁵ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص ص 335-336.

سكانها ليالي أمينا وأياما تسر الناظرينا
بناها جدنا الملك المعلى وكنا نحن بعض الوارثينا
فلما أن جلانا الدهر عمها تركناها لقوم آخرينا
فأمر عبد العزيز بتغييرها إلى:

سكانها ليالي خائفينا وأياما تسوء الناظرينا
بناها جدنا شيخ المعاصي كنا نحن شر الوارثينا
فلما أن جلانا السيف عنها تركناها غالبينا¹

تعكس تحركات السلطان عبد العزيز المريني بوضوح مقدار الحقد الدفين الذي كان يكنه لدولة بني زيان وسلاطينها، كما تبرز رغبته العارمة في القضاء على كل ما يمت بصلة إلى شواهد ملكهم في المغرب الأوسط حتى لو كان الأثر مجرد بيت من الشعر منقوشا على جدار، وقد سار السلطان عبد العزيز في ذلك على نهج أسلافه من سلاطين الدولة المرينية الذين دأبوا على تخريب العمران ومحاولة طمس الآثار التي ترمز إلى وجود الدول المنافسة لهم، ويتبين من ذلك أن الدافع النفسي المتمثل في رغبة الإنتقام الناتجة عن مشاعر الكراهية والأحقاد المتراكمة كان له دور حاسم في تغذية هذا السلوك، حيث سعى السلطان من خلاله إلى إثبات سطوته العسكرية وإظهار تفوقه وهيمته على خصومه، وقد انعكست هذه النزعات النفسية بوضوح على طبيعة الحرب ونتائجها ولا سيما ما خلفته من دمار واسع في البنى العمرانية.

لهذا استوجب ضبط وتقوية الكيان الداخلي للإنسان لأن الحرب لا تكسب في المعارك وإنما تكسب في قلوب الرجال والمحارب الفعلي هو البناء النفسي.²

من خلال تحليل هذه الوقائع يمكن معرفة مدى التأثير العميق للعوامل النفسية على مجرى الحروب ونتائجها، بالإضافة إلى الأهمية البالغة للبناء النفسي في تحقيق الاستقرار والسيطرة ومدى

¹ ابن الأحمر، روضة النسرین...، مصدر سابق، ص 56.

² محمد أبو القاسم، في المجال البيولوجي (التنظيم العسكري في الدولة المغربية)، دار ويلي للطباعة والنشر، مراكش، المغرب، 1998، ص ص 44-46.

تحكمه في ثنائية حركة الحفاظ على العمران وخرابه، فإذا كان أسلوب التهديم يشير للانتصار فإن صور تجنب نقيضه أي الهزيمة وعدم تقبلها يستقصي على صاحبه مواصلة الحرب والصمود خلف أسوار المدينة، وهذه العادة غالباً ما كان يعتمدها سلاطين بني زيان إثر أي انتكاسة عسكرية تقليداً لوصية يغمراسن.¹

ولقد تجاوزت الحروب زهق الأرواح وذهبت إلى التدمير المفتعل والإفساد المقصود للعمران في المدن التي يتم حصارها، إذ يمكن أن تحول بلاد بأكملها إلى أرض يعمها الخرب،² من ذلك نظم أبو عبد الله محمد بن خميس التي يصف فيها ما حل بمدينة تلمسان نتيجة لحروبها مع بني مرين:³

لعشرة أعوام عليها تجرمت	إذا مضى قيظ بها حاء إهداء
يطنب فيها عابثون وخرب	ويرحل عنها قاطنون وأحي
كأن رماح النهابين لملكها	قداح وأموال المنازل أبداء
فلا تبغين فيها مناخاً لراكب	فقد قلصت من ضلال أوفياء.

حتى المناطق التي يمر من خلالها الجيش المحاصر لم تسلم من الهدم، من ذلك ما حدث لمدينة وجدة الزيانية، والتي كانت تتعرض للتخريب كل مرة عبرت من خلالها عساكر بني مرين لبلوغ مدينة تلمسان.⁴

من المواضع التاريخية التي أوردت تخريب سلاطين المغربين الأقصى، والأندلس لعمران تلمسان، والمناطق الموالية لها أثناء حملاتهم العسكرية على ملك بني زيان:

¹ ولقد تجاوز سلاطين بني زيان ذلك من خلال إنهاء حياتهم عن طريق الانتحار بشرب السم تفادياً من معرة غلبة العدو عليهم. **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 123-127. الناصري، مرجع سابق، ج 3، ص 81.

² سون أتزو، فن الحرب، تق تع أحمد ناصيف، دار الكتاب العربي، ط 1، حلب، سوريا، 2010، ص 75.

³ لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة...، مصدر سابق، مج 2، ص 449.

⁴ **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 147-290. -ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص 132. -الناصر، ج 3، مرجع سابق، ص 76-33.

جدول رقم (04): المواضع التاريخية التي أوردت تخريب عمران المغرب الأوسط

السنة	المكان	القائد	نص الرواية	المصدر
(640هـ/1243م)	تلمسان	السلطان يحيى أبو زكريا الحفصي	"لما حلت عساكر الموحدين بساحة البلد، وبرز يغمراسن وجوعه نضحتهم ناشبة السلطان بالنبل، فانكشفوا ولادوا بالجدران، وعجزوا عن حماية الأسوار"	عبد الرحمان ابن خلدون، العبر، ج 7، ص 108.
(640هـ/1243م)	تلمسان	السلطان يحيى أبو زكريا الحفصي	"تحرك إليه من تونس في عساكره...حتى انتهى إلى تلمسان ونزل عليها...فكان بنو عبد الواد يخرجون كل يوم يطاردون العسكر... وانحجزوا في مدينتهم...وأغلقوا الأبواب فأحرق بعضها"	الحميري، مصدر سابق، ص 136.
(670هـ/1272م)	وجدة	السلطان أبو يوسف يعقوب المريني	"فوصل مدينة وجدة فوقف عليها حتى هدمت وعفا رسمها وجعل عليها سافلها ولم بقي لها رسما وتركها قاعا صفصفا"	ابن أبي زرع، الذخيرة، ص 132.
(871هـ/1466م)	تلمسان	السلطان أبو عمر عثمان الحفصي	وقدم بين يديه عسكر الحصار للبلد...قاتلهم أشد قتال ثم أمر بهدم الأسوار"	الزركشي، مصدر سابق، ص 157.
(673هـ/1275م)	نواحي تلمسان	السلطان أبو يوسف يعقوب	"أوغل في بلاد يغمراسن يخربها ويسبي أموالها حتى وصل تلمسان"	ابن أبي زرع، الأنيس، ص 310
(673هـ/1275م)	تلمسان	جيوش مرين بمعية قبائل توجين	"قطعوا الثمار والجنات وخربوا الرباع، وأفسدوا الزروع ورقوا القرى والضياع"	ابن أبي زرع، الأنيس، ص 311.
(680هـ/1281م)	تلمسان ونواحيها	أبو زيان بن عبد القوي التجيني جيوش السلطان يعقوب أبو يوسف	يدمرون ويخربون ويفسدون... وأكل زروعها، ونهبها، وخرب ربوعها"	ابن أبي زرع، الأنيس، ص 337.
(687هـ/1286م)	نواحي تلمسان	السلطان يوسف يعقوب	"فسار في نواحيها ينسف الآثار ويخرب العمران ويحطم الزرع"	عبد الرحمان ابن خلدون العبر، ج 7، ص 284.

الفصل الرابع: انعكاسات الصراع على العمران: دراسة ثنائية الخراب والتشييد

695هـ/ (1296م)	وجدة	يوسف أبو يعقوب	"ومر بوجدة، فهدم أسوارها"	عبد الرحمان ابن خلدون العبر، ج7، ص 290
702هـ/ (1303م)	جبل الونشريس	يوسف أبو يعقوب	"ودخل إلى جبل الونشريس وهدم حصونهم"	عبد الرحمان ابن خلدون العبر، ج7، ص 295.
من (698هـ- 1299م) إلى (706هـ- 1307م)	تلمسان	يوسف أبو يعقوب	"أمر السلطان أبو زيان لحينه يرم المتلثم من إبنية رياضه وقصوره"	يحي ابن خلدون، مج1، ص 126.
(714هـ- 1314م)	أحواز تلمسان	أبو السعيد عثمان المريني	"هتك أمير المسلمين أبو سعيد عثمان جميع أحواز تلمسان"	إبن أبي زرع، الأنيس، ص 399.
(714هـ- 1314م)	جبال بني يزناسن	أبو السعيد عثمان المريني	"هتك جبال بني يزناسن"	ابن أبي زرع، الأنيس، ص 399.
733هـ/ (1333م)	نواحي بجاية	أبو يحي الحفصي	"فلحقوا بآخر عملهم في المغرب الأوسط... فخرّبوا عمرانها وانتهبوا ما كان من الأقوات"	عبد الرحمان ابن خلدون، العبر، ج 7، ص 335.
735هـ/ (1335م)	تلمسان	أبو الحسن المريني	"فزلنا بساحه، وأقبلنا على كفاحه... حتى غدت جدرانهم مهدومة.... وهدمت أبراجهم الشواهد، وردمت حفائرهم والخنادق"	القلقشندي، ج 8، ص ص 94- 95.
735هـ/ (1335م)	وجدة	أبو الحسن المريني	"وخرب وجدة كما يأتي ذكر ذلك كله"	عبد الرحمان ابن خلدون، العبر، ج 7، ص 147.
772هـ/ (1371م)	الزاب	جيش بني مرين بقيادة أبي بكر إبن غازي، ووزمار بن عريف	"فسلكت على قصور بني عامر بالصحراء قبله جبل راشد...فانتهبوها وخرّبوها وعاثوا فيها"	عبد الرحمان ابن خلدون، العبر، ج 7، ص 177.
786هـ/ (1385م)	تلمسان	السلطان أبو العباس المريني	"ونزل على مرحلة من تلمسان... فأشار ونزمار على السلطان أبي العباس بتخريب هذه القصور وأسوار تلمسان إنتقاما"	عبد الرحمان ابن خلدون، العبر، ج 7، ص 177.

7، ص ص190-191.				
الزركشي، مصدر سابق، ص 157.	"قاتلهم أشد قتال ثم أمر بهدم السور"	أبو عمر عثمان الحفصي	تلمسان	(871هـ/1466م)

من إعداد الطالبة (بتصرف)

هذه النصوص التي ساقتها المؤلفات التاريخية تظهر مدى تأثير الحروب المستمرة والمعارك العنيفة على مختلف البنى العمرانية في مجال المغرب الأوسط عامة وتلمسان على وجه الخصوص، ضنا من الغازي أو قائد هاته الجيوش أنها مؤشرا لانتصاره، لكن هذه المعايير منافية تماما للحصار الناجح الذي يعتمد في الأساس على أخذ البلاد العدو سالمة، هو أفضل من تدميرها،¹ فمختلف العمليات التدميرية التي اعتمدها قادة الجيوش والسلطين لتفعيل الحصار في سلوك انتقامي، وما يصاحبها من أعمال رمي أسوار المدن وأبراجها وغيرها من أشكال العمارة، للتأكد من الاقتحام والاستحواذ على المدن والقرى،² من خلال المكابرة والمكاثرة أي باستخدام الأسلحة الثقيلة كالمجانيق والعردات أو تحميل الماء على السور حتى يهدم، أو برمي النار والنفط عليها لتحطيم حصونها وأبوابها،³ مثال ذلك إحراق أبو زكريا لأبواب المدينة لاختراقها وهي أولى عمليات التخريب للبنى العمرانية لدولة بني زيان.⁴

فبالأسلحة الثقيلة تعتبر أدوات فعالة لتحطيم حصون الأعداء وتسهيل مسار الجيوش في عمليات الاقتحام، كما تعد من الأدوات الجماعية التي تتطلب أكثر من جندي لاستخدامها بفعالية. ومن الطبيعي أن تشهد أسلحة الحصار الثقيلة تطورا مستمرا يتناسب مع الابتكارات العسكرية التي تطرأ على أنظمة التحصين، إذ يسعى المحاصرون دائما إلى تحسين وتحديث هذه

¹ سون أترزو، مصدر سابق، ص 75.

² البشير بوقاعدة، خطة الحصار...، مرجع سابق، ص 408.

³ محمد الناصري بن منكلي (ت بعد 778هـ)، الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب، در وتح نبيل محمد عبد العزيز أحمد، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، 2000، ص ص 378-379.

⁴ الحميري، مصدر سابق، ص 136.

الأسلحة لتتمكن من اختراق الجدران والأسوار العالية والحصون القوية، لتحقيق التفوق حتى وإن كانت تسبب أضراراً جساماً لجنود الخصم.¹

من أبرز آلات الحصار الثقيلة التي استخدمها القادة المحاصرين لمدينة تلمسان وأحوازها: المنجنيق،² الذي يعد واحد من أكثر الأدوات فتكاً وتدميراً ويقال أن أول من استخدمه هو النمرود بن كنعان، ولقد استخدمت مرين المنجنيق بمختلف أنواعه في حروبها مع بني زيان في العديد من المرات بغية هدم الحصون على الرغم من معاناة الجند في نقل هذه الآلات الضخمة،³ والغرض من تخريب الحصون هو تأكيد السيطرة على المدينة وإظهار قوة الفاتح، فضلاً عن أن تدميرها يؤدي إلى زعزعة استقرار البلاد وتعزيز الهيمنة وترسيخ شدة البأس،⁴ من صور ذلك ما قام به أبو يعقوب يوسف سنة (687هـ/1290م) إذ نصب على تلمسان المجانيق ثم سار في نواحيها ينسف الآثار ويحطم العمران ويخرب الزرع،⁵ وفي سنة (695هـ/1296م) قام بحركته نحو ندرومة ورمائها

¹ البشير بوقاعدة، خطة الحصار....، مرجع سابق، ص ص 89 - 90.

² **المنجنيق**: جهاز عرف بتنوع أشكاله وأحجامه حيث كان يأتي بأصناف متعددة منها الصغيرة والكبيرة، كما يتنوع من حيث التصميم والآلية فمنه ما يعتمد على البكرات ومنه ما يعمل بالدائرة التي تحتوي على كرات من الرصاص وفي بعض الأنواع يمكن أن يتحرك الرجال داخل هذا الجهاز دون الحاجة إلى عدد كبير من الجنود، وهناك أنواع أخرى تصنع بأقواس كبيرة مزودة بموترات، حيث تثبت قبضاتها على الأرض وتشد بأوتار قوية إلى قواعد المنجنيق فتدفع الحجارة في الكفة ثم يتم إطلاقها بقوة كبيرة. **ينظر**: ابن عبد الله الحسن العباسي (ت710هـ)، أثار الأول في ترتيب الدول، تح وتعد معبد الرحمان عميرة، دار الجليل، ج 2، ط 1، بيروت، لبنان، 1989، ص 365. -ابن أرنيغا الزركاش (ت867هـ)، الأنبياء في المناجيق، تح وتعد إحسان هندي، دار الكتب الوطنية، ط 1، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، 2013، ص ص 21 - 22.

³ **ينظر**: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 284 - 290. -ابن أبي زرع، الأنبياء...، مصدر سابق، ص 379. -مارمول كربخال، ج 2، مصدر سابق، ص ص 293 - 294. -الناصر، ج 3، مرجع سابق، ص ص 76 - 77.

⁴ علي بن أبي بكر الهروي (ت611هـ)، التنكرة الهروية في الحيل الحربية، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، مصر، ص 24.

⁵ **ينظر**: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 284. -ابن أبي زرع، الأنبياء...، مصدر سابق، ص 379.

بالمنجنيق،¹ والتخريبات التي تسببت فيها آلات الحرب إزاء حصن إيسلي من قبل يوسف أبو يعقوب، الذي ظل خاليا مدة من الزمن.²

من أنواع المناجيق التي استخدمها بني مرين لحصار مدينة تلمسان هو قوس الزيار،³ (ملحق رقم: 03) من شدة ثقله يحمل على أحد عشر بغلا، قام بصناعته مهندسين وصناع وتقربوا به للسلطان فأعجبه واعتمد عليه في حربه مع عثمان،⁴ وهو نوع من القوس وصفه عبد الرحمان ابن خلدون بأنه: "بعيدة النزع العظيمة الهيكل"،⁵ يقوم برمي سهم ضخّم الحجم يتراوح طوله بين ستين (60) ومائة وثمانين (180) سنتيمترا ووزنه بين اثنين (2) إلى ثلاث (3) كيلوغرامات، كما يتسم بتعقيده الميكانيكي وكونه آليا حيث يحتوي على جهاز متطور للإطلاق يتألف من قائمة طولانية تتركب عليها عارضة خشبية مائلة ذات مسننات كبيرة، وفوقها عارضة أصغر منها ذات مسننات صغيرة تتداخل معها ويوجد في أسفل العارضة نتوء معدني يشبه القفل، يستخدم لشد الوتر إلى الوراء وفق المدى المطلوب، كما يوضع السهم في شق طولاني يمتد على طول العارضة الخشبية، ويتم إطلاق الصندوق بالمنجنيق وعندما تصل النار من قطعة اللباد الموجودة في رأس السهم إلى النفط داخل الصندوق يشتعل ويسبب انفجارا للصندوق النحاسي فيتناثر إلى شظايا عديدة، تعرف هذه الصناديق النحاسية المنفجرة باسم صناديق المخاسفة.⁶ (ملحق رقم: 04)

في هذا الصدد يشير أحد الباحثين الى مدى ديناميكيته الفائقة في تخريب الأسوار والحصون إذ بإمكان قذائفه تجاوز الأسوار العالية والأسوار المتعددة والخنق المحفور بين تلك الأسوار.⁷

من الصور التي تفصح عن الضرر الذي ألحقه قوس زيار على البنى العمرانية، قول التنسي عند ذكره لأولى الأعمال التي قام بها أبو حمو موسى الأول بعد رفع الحصار: "أول ما

¹ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 290.

² مارمول كرخال، ج 2، مصدر سابق، ص ص 293 - 294.

³ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر....، ج 7، مصدر سابق، ص 291.

⁴ الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص ص 76 - 77.

⁵ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر....، ج 7، مصدر سابق، ص 291.

⁶ ابن أرنيجا الزركاش، مصدر سابق، ص ص 22 - 23.

⁷ البشير بوقاعدة، خطة الحصار...، مرجع سابق، ص 91.

بدأ به الملك... إصلاح ما تتلم من تلمسان"¹ ويقول يحيى ابن خلدون عن أسلحة الدمار التي أهلكت عمران تلمسان خلال فترة الحصار الطويل: "والمجنقات أشهر من أن نطيل الكتاب بشرحه"².

ولأن فترة حكم أبو حمو وابنه أبو تاشفين -خلال الفترات الأولى من بداية عهده- كانت تمتاز بالانتعاش الثقافي والعمراني والتفوق العسكري فقلت المواجهات العسكرية، وعلى الرغم من التحصينات العسكرية المنيعة التي امتازت به تلمسان، إلا أن السلطان أبو السعيد عثمان بن يعقوب تمكن من نفس أسوار زيان، يقول الناصري في هذا الصدد: "تهض إلى تلمسان... وتحصن أبو حمو بالأسوار وغلب السلطان أبو السعيد على معاقلها وسائر ضواحيها فحطمها حطما ونسفها نسفا"³.

عادت موجات الهدم للمنشآت العمرانية إلى الظهور من جديد بصورة مكثفة خلال عهد السلطان أبو الحسن المريني، إثر حركته لإزالة ملك بني زيان من المغرب الأوسط سنة (735هـ/1335م)⁴، يقول في ذلك القلقشندي صاحب كتاب الصبح الأعشى نقلا لنص الرسالة التي أرسلها أبو الحسن لسلطان مصر: "وجعلنا نقذفهم من حجارة المجانيق، بأمثال النيق، ومن كيزان النفط الموقدة، بأمثال الشهب المرصدة، ومن الساهم العقاره، بأمثال العقارب الجرارة، حتى غدة جدرانهم مهدومة"⁵.

إن استخدام أبو الحسن المريني للآلات الحربية بغية التفوق العسكري ونجاح عملية الاقتحام أسفر عنه تدمير للمنشآت العمرانية، وعظم خرابها وأثرها خاصة على القصور العظيمة والقباب الرفيعة التي تأنق أبو تاشفين في تشييدها⁶، فضلا عن تخريبه لأسوار تلمسان وجدرانها

¹ التتسي، مصدر سابق، ص 145.

² يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 1221.

³ الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 105.

⁴ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، التعريف...، مصدر سابق، ص 101. -يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر

سابق، ص 141. -عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص ص 46-47.

⁵ القلقشندي، ج 8، مصدر سابق، ص ص 94-95.

⁶ الناصري، مرجع سابق، ج 3، ص 125.

وأبراجها، وردمه لخنادقها،¹ ولأن وجدة على طريق خط سيره تغلبت عساكره عليها سنة (735هـ/1335م) فأوعز إليه بتخريب أسوارها، وأضرعوها في الأرض.²

وخلال فترة إلحاق أبو الحسن المريني نطاق بني زيان لسلطانه، انخفضت نسبة الخراب نسبيا -مقارنة مع فترة حصار أبو يعقوب يوسف- واعتمدت سياسته على التشييد والبناء خاصة المنشآت الدينية والمؤسسات التعليمية، وذلك لأن سلطان مرين قام بتشديد العديد من المرافق كتأكيد مادي منه لانتماء تلمسان وما ولاها لسلطانه، وهذا ما سنعرضه في ورقات بحثنا لاحقا.

وعليه فإن ظاهرة التدمير التي صاحبت حروب الحصار أثرت بشدة على العمارة الزيانية لكونها تترافق مع نتائج المعارك، وأصبحت جزءا ثابتا من استراتيجيات القيادات العسكرية بغض النظر عن أطراف النزاع ولم تكن أضرار الحصار تستثني أي نوع من أنواع العمارة، فقد تعرضت قصور تلمسان لموجات هدم على يد سلاطين مرين، ولعل أشدها وقعا هي التخريبات التي قام بها أبو العباس المريني إزاء قصور تلمسان وبساتينها وقسم كبير من أسوارها، انتقاما من أبو حمو موسى الثاني لتخريبه عمران المغرب الأقصى،³ ولقد كان لهذه الحركة تأثيرات سلبية وخيمة على حصانة المدينة وجماليتها ونالت من عظمتها ومجدها واستأصلت مظاهرها الحضارية، واعتبرها بعض الباحثين تاريخا فاصلا بين عهد عزها وقوتها وعهد ضعفها وانحطاطها،⁴ ولقد أدى هذا الوضع إلى تفاوت ملحوظ في مصير العمران بالمغرب الأوسط.

رغم الحروب التي قادها سلاطين بني حفص ومرين -كانت حركاتهم أكبر، ووقعهم على المغرب الأوسط أعظم- كانت هي المسؤول الأول عن التدمير الذي أصاب البنى العمرانية إلا أنها لم تكن السبب الوحيد وراء الاضمحلال والتراجع الذي عانت منه المنشآت، فلقد كان لسلاطين بني زيان اليد الطولاء في تخريب عمران المغرب الأوسط، لأن القبائل المتوطنة في هذا الأخير هي أحد علل الصراع الدامي المفتعل بين بني زيان والمغربين الأقصى والأدنى، لهذا عمل السلاطين

¹ القلقشندي، مصدر سابق، ج 8، ص ص 94-95.

² عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 339.

³ **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص ص 190-191. -الناصري، ج 4، مرجع سابق، ص ص 68-69.

⁴ عبد الحميد حاجيات، مرجع سابق، ص 144.

على إخضاعها من خلال التنظير العسكري الرامي إلى تخريب منشآتها العمرانية والأراضي الزراعية الواقعة تحت نفوذ هذه القبائل والمناطق الخارجة عن السلطة الزيانية، من مظاهر ذلك ما قام به يغمراسن لتأديب قبائل توجين المتحالفة مع مرين إثر موقعة خرزوزة أين زحف إلى بلادهم وتغلب عليها وخرب عمرانها.¹

وما قام به أبو حمو موسى الثاني سنة (670هـ/1369م) إزاء وهران،² حيث حاصرها بجيشه وأقام المعسكرات حولها، وعند امتناعها عن الخضوع شن عليها هجوما عنيفا أسفر عن هدم أجزاء من أسوارها وأسر عدد من المدافعين عنها، مما أدى إلى تراجع مقاومتها وانهايار تحصيناتها، كما كان للقبائل المناوئة لبني زيان أيضا أدوار تاريخية في تخريب البنى العمرانية للدولة الزيانية، من ذلك ما قام به يحيى بن علي أحد قواد بني مرين -تم تعيينه من قبل الحسن بن عمر قائدا على توجين- مستغلا انشغال بني زيان بتلمسان، وراح يشن الغارات في جهات هواره والبطحاء بمعية بعض العناصر من بني سويد وبني مرين وأخذ في الفساد والخراب.³

كما عمد بني زيان تحطيم أي منشآت عمرانية شادها السلاطين المحاصرين للدولة الزيانية بغية طمس أي شاهد عن ارتباط هذه الأخيرة بالسلطة المرينية في سلوك انتقامي، فبعد رفع الحصار الطويل على تلمسان عام (706هـ/1307م)،⁴ أول ما بدأ به أبو حمو هدم مدينة يوسف بن يعقوب،⁵ متجاهلا بذلك البنود التي اشترطها عليه بني مرين مقابل رفع الحصار،⁶ والتي تقتضي عليه: أن لا يدخلها وأن يبقياها على حالها و إصلاح مساجدها وقصورها عند الحاجة.⁷ ولقد أعاد أبو الحسن المريني إعمار مدينة المنصورة بعد تسعة وعشرين سنة ورمم ما تتلم منها جراء افتعال

¹ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 117.

² عبد الحميد حاجيات، مرجع سابق، ص ص 102 - 103.

³ مؤلف مجهول، زهر البستان، ج 2، مصدر سابق، ص ص 201 - 109.

⁴ ينظر: ابن مرزوق التلمساني، المناقب...، مصدر سابق، ص 298. -القلقشندي، ج 8، مصدر سابق، ص 91. -المقري التلمساني، أزهار الرياض...، ج 2، مصدر سابق، ص 336. -ابن الأحمر، روضة النسر...، مصدر سابق، ص 50.

⁵ التتسي، مصدر سابق، ص 145.

⁶ محمد عيسى الحريري، مرجع سابق، ص 93.

⁷ ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 390.

بني زيان حركة الهدم،¹ لكنه بعد رفع الحصار عن تلمسان تعرضت للهدم وتركوها قاعا صفصا، أنشد أحد الشعراء واصفا ما آلت إليه:

ديار بأكناف الملاعب تلمع وما أنا بها من ساكن وهي بلقع
ينوح عليها الطير من كل جانب فيصمت أحيانا وحيننا يرجع
فخاطب منها طائرا متفردا له شجن في القلب وهو مودع
فقلت على ماذا تنوح وتشتكى فقال على زهر مضى ليس يرجع²
لتصبح على عهد التنسي محرثا،³ عبر صاحب المسند عن تخريب المنصورة قائلا: "فاله
حسب من تسبب في خراب ذلك كله، وهو مجازيه، فلقد محا رسوما يفخر بها أهل الإسلام
ويعتز بها الدين ما بقيت الأيام".⁴

وتجدر الإشارة أيضا أن نوازع الانتقام التي دفعت بسلطين بني زيان إلى تخريب ما شاده
مرين في المغرب الأوسط من المرجح أنها شملت العمارة الدينية أيضا، فقياسا على تخريب أبو
حمو موسى الثاني للجامع المعروف بقصر تازورت بتازا،⁵ لا يستبعد أن يكون الجزء الذي خرب
من مئذنة جامع المنصورة هو من صنيع بني زيان،⁶ ومن المرجح أن دافع الانتقام لم يكن السبب
الوحيد لترجمة عمليات التخريب التي طالت المنشآت الدينية، بل مخافة أيضا من أن يعود بني
مرين لمحاصرة تلمسان واستغلال المنصورة مرة أخرى لخدمة الحصار، بما في ذلك المئذنة التي
كان يتم استعمالها كأبراج للمراقبة في حالة الحرب، خاصة وأن مئذنة جامع المنصورة قدر ارتفاعها
بين ثماني وثلاثين وخمس وأربعين مترا (33 و45 م)، وبذلك تكون هذه المئذنة ثالث أعلى المئذنة
في الغرب الإسلامي.⁷ (الملحق رقم: 05)

¹ التنسي، مصدر سابق، ص ص 155-156.

² محمد بن رمضان شاوش، ج 1، مرجع سابق، ص 222.

³ التنسي، مصدر سابق، ص 156.

⁴ ابن مرزوق التلمساني، مصدر سابق، ص 403.

⁵ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 462.

⁶ ابن مرزوق التلمساني، المسند...، مصدر سابق، ص 148.

⁷ ينظر: عبد العزيز لعرج، مدينة المنصورة المرينية بتلمسان، شركة ابن باديس للكتاب، ط 2، الجزائر، 2011، ص 155. - بلال زيتوني، مرجع سابق، ص 253.

3. خراب عمران الدولة المرينية

أصيب عمران المغرب الأقصى بنكسات عميقة أسفر عنها خراب العديد من المدن والقرى انطلاقاً من بدايات اقتحام القبائل المرينية لهذا المجال، فاضطر خلالها الأهالي هجر منازلهم ومداسرهم، ولقد كانت علة ذلك الاضطرابات السياسية وتوالي المواجهات العسكرية التي شنتها القبائل المرينية ضد آخر خلفاء الدولة الموحدية هي رغبة منهم في محو آثار بني عبد المؤمن،¹ فدفع ذلك بمدن المغرب الأقصى إلى حافة الانهيار، والخراب خاصة العاصمة مراكش،² إذ وجد على بعض القصور أبيات مكتوبة بالفحم:

ولقد مررت على رسوم ديارهم فبكيتهما والربع قاع صفصف
وذكرت مجرى الجور في عرصاتهم فعلمت أن الدهر منصف³

عبر ابن أبي زرع عن ما آل إليه المغرب الأقصى بعد دخول مرين إلى هذا المجال نقلاً عن الفقيه أبو العباس ابن جبر قائلاً: "لما دخلوا المغرب تفرقت قبائلهم في جهاته وأنحائه، وانتشرت فرقهم في جباله وبطحائه، وشنوا الغارات على قراه ومدنه، وضيقوا على قبائله فكان أحدهم لا يقدر أن يخرج من مسكنه... ففر الناس أمامهم يمينا وشمالا، ولجأوا إلى الجبال المنيعة لتكون لهم حصنا ومالا، وخلت المشاجر وقلت العمارة، ووقع الخوف في البلاد والطرق".⁴

كما كان للتمردات الداخلية نصيب من خراب العمران واندثار بعض المدن نهائياً فلم يعرف الوضع الأمني في المغرب الأقصى استقراراً كاملاً على امتداد فترة حكم بني مرين، بسبب تحركات هذه الأخيرة على المجال، لأنه لطالما كانت تقوم بتوجيه جيوشها على المتمردين والخارجين على

¹ الناصري، ج 3، مصدر سابق، ص 27.

² ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص 115.

³ مؤلف مجهول، الحلل الموشية...، مصدر سابق، ص 170.

⁴ ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص 27.

سلطانها، فضلا عن توالي الهجمات النصرانية على السواحل الشمالية وغارات بني زيان على الثغور الشرقية.¹

تجدر الإشارة هنا أن البنى العمرانية في مدن المغرب الأقصى الداخلية لم تتأثر بسبب الصراع العسكري السياسي بين دول المغرب إذا ما استثنينا العمليات التدميرية التي قام بها أبو حمو موسى الثاني، وهذا راجع لعاملين:

– **العامل الأول:** كانت حركة بني زيان وبني حفص على ملك بني مرين قليلة الحدوث نتيجة لحصانة مرين وقوتها العسكرية، فضلا عن أنها هي من كانت تبادر بالهجوم على الدولتين الزيانية والحفصية.

– **العامل الثاني:** المسارح التي دارت فيها رحى الحرب مع الدولة الزيانية،² كانت في الأغلب تتم في أحواز المغرب الأوسط الذي وصفه أحد الباحثين بأنه مسرحا للحروب ومنطقة عبور للمعارك،³ ووصفه آخر بأنه ساحة لخوض المعارك.⁴

وعليه فإنه في العديد من المرات تتم المواجهات العسكرية بين مرين ومناوئها الزيانيين على الحدود المتاخمة لمكلمها لهذا كانت المناطق الشرقية الأكثر تأثرا بالحرب، ومن صور ذلك حركة يغمراسن التخريبية أثناء عودته مهزوما أمام يعقوب أبو يوسف إذ مر في طريقه بتافرسيت

¹ حميد تيتاو، مرجع سابق، ص ص 526 - 528.

² رأينا في الفصل الثاني أن الحروب التي جمعت بني مرين ببني حفص قليلة مقارنة بالمواجهات العسكرية بينها وبين بني زيان، وهذا لأنها كانت في أول العهد تحت طاعتها ثم استقلت عنها بعد تثبيت ملكها، وعلى الرغم من أن العلاقات كانت متوترة على حد ما لكن المواجهات العسكرية الوحيدة التي تمت بين الطرفين هي على عهد أبو الحسن المريني وابنه أبو عنان، والفترة التي تلت هذا الأخير لم تسجل أي أحداث عسكرية جمعت الطرفين وصولا إلى عهد أبو فارس الحفصي، أين أصبحت مرين تابعة اسميا للدولة الحفصية.

³ عبد الحميد خالدي، العلاقات الثقافية بين المشرق والمغرب الأوسط من الفتح إلى نهاية الموحدين (دراسة تاريخية نقدية)، إش مختار حساني، أطروحة مقدمة لنيل دكتوراه دولة في التاريخ الإسلامي، جامعة الجزائر 1، الجزائر، (2007/2008)، ص 15.

⁴ بلال زيتوني، مرجع سابق، ص 138.

فانتسفها وعاث في نواحيها،¹ وفي سنة (666هـ/1267م) قام بشن الغارات على الجهات التي هي على حدود المغرب الأقصى وأضرمتها نارا.²

نظرا لأن تاورريت كانت آخر مناطق نفوذ مرين وأول أعمال بني زيان شرقا،³ أصبحت ميدان حروب عديدة،⁴ بين هاتين القوتين من ذلك المواجهة التي تمت بين أبو تاشفين وجيوش أبو الحسن المريني،⁵ فضلا عن ذلك كانت بالأساس من المناطق المتنازع عليها بسبب مطامح شتى أبرزها إخضاع قبائل الأعراب المتوطنة فيها،⁶ وامتلاك طرقاتها التجارية إذ تربط المغربين الأقصى والأوسط، فأضحى نصفها للسلطان يوسف ونصفها الآخر لعثمان بن يغمراسن.⁷

لم يرضي هذا التقسيم جموح الطرفان فدمر بني مرين القسم الكبير منها الخاضع لملك بني زيان، وردا على ذلك هاجم سلطان هذه الأخيرة ودمر النصف الذي يسكنه أعدائه،⁸ كما تمكن يوسف سنة (694هـ/1294م) إثر حركته لغزو تلمسان من أخضع تاورريت كاملة وطرد عاملها،⁹ وأثناء حملة أبو حمو موسى الثاني على بلاد مرين وتوعده بتخريب حصونها كان أول حصن وقع في يده هو حصن تاورريت فأمر بهدمه وخرابه.¹⁰

ظل هذا الحد لمدة تتيف عن خمسين سنة محلا للنزاع استبدل خلالها رؤساءها عشرة مرات، مما أسفر عن ذلك تضرر كبير في البنى العمرانية، نظرا لأنها كانت مسرحا لحروب

¹ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 112.

² **ينظر:** ابن أبي زرع، مصدر سابق، الأنيس...، مصدر سابق، ص 305. - عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 115.

³ **ينظر:** القلقشندي، ج 8، مصدر سابق، ص 94. - ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق 385.

⁴ حسن الوزان، ج 1، مصدر سابق، ص 349.

⁵ التنسي، مصدر سابق، ص 155.

⁶ مارمول كريخال، ج 2، مصدر سابق، ص 269.

⁷ الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 76.

⁸ حسن الوزان، ج 1، مصدر سابق، ص 349.

⁹ **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 290. - الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 76.

¹⁰ مؤلف مجهول، زهر البستان...، ج 2، مصدر سابق، ص 144.

الدولتين الزيانية والمرينية،¹ فضلا عن أن الجنود تقوم بالإغارة عليها بين الفترة والأخرى كمحاولة منهم لإثبات سطوتهم على تلك الجهات، من ذلك حركة السلطان أبو تاشفين إلى تاوريريت أين تمكن من التغلب على جيشها ثم قفل راجعا إلى دار ملكه بتلمسان،² ونتيجة لعسكرة هذه المنطقة هجرها سكانها بعد تاريخ (780هـ/1380م)،³ للابتعاد عن هذه المناطق الحدودية وانتقلوا إلى أماكن أكثر أمانا مثل ندرومة وتازا، فبقيت تاوريريت خالية موحشة،⁴ وعليه فإن طموح الدولتين الزيانية والمرينية في ملك هذا الحصن كان له عواقب وخيمة أدت إلى تدمير تاوريريت، وإفقادها للعديد من منشآتها العمرانية كالمساجد والقصور، وأسوارها المتينة التي تضررت كثيرا.

بتتبع خط سير الجيوش خلال فترات الحرب فإننا نجدها اعتمدت على المسالك التجارية لاحتياجها إلى محطات استراحة ومصادر التزود بالكلاء واقتناء ما يحتاجونه في الحروب البعيدة،⁵ فضلا عن احتياجهم لمصادر المياه،⁶ التي كانت من أولويات اهتمام الجيوش لتوظيفها في التدابير

¹ بلال زيتوني، مرجع سابق، ص 77.

² يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص ص 139 - 140.

³ مؤلف مجهول، زهر البستان...، ج 2، مصدر سابق، ص 144.

⁴ **ينظر:** حسن الوزان، ج 1، مصدر سابق، ص ص 349 - 350. -مارمول كريخال، ج 2، مصدر سابق، ص 269. -لحسن تواشخت، ج 2، مرجع سابق، ص 529.

⁵ لأن المجتمع المغربي تأقلم مع حالة الحرب أصبح يعتبرها مصدرا للكسب والمعاش فكانت حركات الجيش عبر المسالك التجارية فرصة للاغتناء وسوقا نافقة لعرض بعض التجار سلعهم وبيعها للجيش، فضلا عن تهريبهم للسلع وإدخالها للمحاصرين. **ينظر:** الحسين بو لقطيب، "أسلوب الإنتاج الحربي والتحول المعاق (حالة المغرب الوسيط)"، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجديدة، ع 2، (من ص 91 إلى ص 73)، دار المنظومة، المغرب، 2020، ص 83.

⁶ تم الاعتماد على الماء في الخطط الحربية أثناء المواجهات العسكرية والتحكم بمصادرها أو النكاية بها من خلال تلويثها أو نسفها وتدميرها، للتضييق على العدو لهذا كانت من أولى اهتمامات المحاصرين، من ذلك ما قامت به توجين إزاء مشاركتها مع مرين في ضرب تلمسان، وعليه عمد سلاطين بني زيان بعد ذلك على إخفاء قنوات المياه وتظهر أهمية حضور عنصر الماء في الحروب، خلال مسيرة جيوش السلطان أبو زكريا الحفصي نحو تلمسان، من خلال قول ابن عذاري المراكشي: "وكانت محلات العرب مقسمة... يرحلون قوما بعد قوم ويوما بعد يوم لأجل قلة الماء في تلك الجهات". **ينظر:** ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، 132. -ابن عذاري المراكشي، مصدر سابق، قسم الموحدين، ص 361. -الحسن العباسي، مصدر سابق، ص 364. -مارمول كريخال، ج 2، مصدر سابق، ص 299.

العسكرية وفق ما تقتضيه الظرفية الحربية،¹ لهذا كانت لسلطين بني زيان محاولات في قطع الطريق الرابط بين فاس وتلمسان.²

تقع مدينة سجماسة على الطريق الرابط بين المغرب والسودان من جهة وغانية من جهة أخرى،³ وكانت مسلکا للجيش الزيانية والمرينية أثناء فترات الحروب وأحد مسارحه، ولأن الدولة المرينية انتهجت سياسة التجويع إزاء الموحيدين عن طريق قطع المؤن والإمدادات حاولت السيطرة على مراكز التجارة ومسالكها لذلك عمدت على الحاق سجماسة،⁴ التي تعتبر محطة رئيسية للتجارة الصحراوية ولنفس الأسباب حاول بني زيان إلحاقها ضمن نطاق ملكهم.⁵

لكن في الأخير آل هذا الإقليم إلى ملك بني مرين سنة (672هـ/1275م)،⁶ بعد محاصرة يعقوب أبو يوسف لها،⁷ ولم تكن هذه الحركة الأولى التي قام بها هذا سلطان إزاء هذه المدينة ففي سنة (660هـ/1262م) فرض عليها الحصار وأحرقوها،⁸ وكانت سجماسة حينئذ "خالية من سكنى الأشراف"،⁹ ولقد تواصل الصراع على هذا الموقع حتى عهد أبو حمو موسى الزياني الثاني، إذ قام وزيره بشن الغارات على أحوازها حتى كاد يبلغها، من ذلك قول صاحب زهر البستان: "وحرقت المداشر وسهولها حتى كادت تبلغ سجماسة غاراته وتحرق البلد شرارته... وصاح بالخراب صيحة كلية".¹⁰

¹ بلال زيتوني، مرجع سابق، ص 137.

² **ينظر:** يحيى ابن خلدون، ج 2، مصدر سابق، ص 48. - عبد الحميد حاجيات، مرجع سابق، ص 94. - محمد عيسى الحيري، مرجع سابق، ص 158.

³ ياقوت الحموي، مج 3، مصدر سابق، ص 192.

⁴ لحسن تواشخت، ج 1، مرجع سابق، ص 108.

⁵ **ينظر:** ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 312. - يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 115.

⁶ أورد ابن أبي زرع أن فتحها تم سنة (773هـ/1274م، آخر يوم من صفر. **ينظر:** ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 312.

⁷ **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر، ج 7، مصدر سابق ص 114. - حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 121.

⁸ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 248.

⁹ محمد بن الصغير الوفراني (1130هـ)، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تص السيد هوداس، مطبعة بوردين وشركائه، باريس، فرنسا، 1988، ص 28.

¹⁰ مؤلف مجهول...، مصدر سابق، ص 116.

ولم يكن الخراب الذي أصاب المدينة بسبب نزاع القوى الكبرى عليها فقط بل أيضا بسبب الحملات التأديبية التي قامت بها مرين اتجاه المنشقين عن السلطة، ففي سنة (733هـ/1333م) هاجمها أبو الحسن المريني بعد خروج أخوه عنه، فقطع عنها الإمدادات وأحاط بعساكره حولها، وضيق الخناق على أهلها وحشد آلات الحصار في ساحاتها،¹ وخلال عهد أبو العباس أحمد بن أبي عباس نتيجة للفتنة التي قامت بينه وبين الأمير المعقل يوسف بن علي بن غانم، بعث إليه السلطان العساكر فهزموه وخرّبوا بيوته وبساتينه بسجلماسة.²

شهدت سجلماسة بعد هذا التاريخ تدهورا في بنيتها العمرانية بسبب الكوارث الطبيعية التي أصابت هذا الإقليم،³ فضلا عن غارات مرين المتكررة مما أدى إلى انتفاضة أهلها ضد عامل بني مرين،⁴ وكان رد مرين عنيفا حيث خربوا ما كان بها من العقار والأماكن.⁵

تشير المواجهات العسكرية بين القوى الزيانية والمرينية بغية الاستحواذ على هذه المدينة لمدة تتيف عن قرن من الزمن إلى مدى الضرر الذي أصاب بنيتها العمرانية، فضلا عن أن الحكام المرينيين الذين توالوا على سجلماسة كانوا طغاة،⁶ فتعرضت المدينة لتدمير العديد من المنشآت الحيوية والتحصينات العسكرية مما أسفر عنه تراجع في البنية العمرانية، ففقدت سجلماسة خلالها دورها التاريخي، واضطر العديد من سكانها مغادرتها بحثا عن أماكن أكثر أمنا، وبهذا آلت إلى الاندثار مع نهاية القرن الثامن للهجري وأصبحت خالية بعد أن كانت مدينة غاية في التحضر.⁷ ولأن سلاطين بني مرين كانوا غالبا ما يتدخلون في الشؤون الداخلية للدولة الزيانية بفعل تحريصات المنشقين عن سلطان هذه الأخيرة، وجه أبو حمو موسى الثاني عساكر بني زيان نحو المغرب الأقصى، فنسفه نسفا من خلال تخريب حصن تاورريت وأوطاط وكرسيف،⁸ كما خرب

¹ الناصري، مرجع سابق، ج 3، ص 120

² عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، مصدر سابق، ج 7، ص 188.

³ العمري، ج 4، مصدر سابق، ص 85.

⁴ حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 121.

⁵ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 462.

⁶ مارمول كرخال، ج 3، مصدر سابق، ص 154.

⁷ ينظر: حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 121-127. -لحسن تواشخت، ج 1، مرجع سابق، ص 113.

⁸ مؤلف مجهول، زهر البستان...، ج 2، مصدر سابق، ص 145.

قصر تازا الذي ابتناه السلطان يوسف أبو يعقوب وجامعه هناك وقصر مرادة بنواحي بطوية،¹ وممتلكات بعض الوجوه المرينية المعادية له، من ذلك ما قام به إزاء ونزمار بن عريف ومحمد بن زكراز الساكنان في كرسيف ودبدو سنة (766هـ/1365م)، وهذا ما أشار إليه عبد الرحمان ابن خلدون في قوله: "فانتهب أبو حمو الزروع وشمل بالتخريب والعيث سائر النواحي. وقصد محمد بن زكراز أيضا في معقل دبـدو... وجاس خلال وطنه، وشمل بالتخريب والعيث نواحي بلده".²

تعتبر العمليات التخريبية التي قام بها أبو حمو موسى الثاني رد فعل عن أفعال سلاطين بني مرين الذين تواتروا على ملكه خلال فترة حكمه، فضلا عن أسلافهم الذين نسفوا المغرب الأوسط نسفا منذ بداية عهد الدولة الزيانية، ومن المرجح أن سياسة التخريب التي انتهجها هذا السلطان الزياني هي السبب الذي دفع مؤرخي البلاط المريني إلى تدوين آراء مسيئة في حق هذا السلطان وينسبون إليه أبغض الصفات، فابن الأحمر وصفه بالبخل والفقر والحقير -أكرمكم الله- من ذلك قوله: "أما بخله فل يسمع لغيره من الملوك... لم يكن في بني زيان أحقر منه ولا أفقر"،³ بل وراح يقص القصص لإثبات حكمه عليه.⁴

صفوة القول أن الظاهرة التدميرية التي طالت عمران الدولة المرينية كانت في الأساس نتيجة لسلوك سلاطينها، من خلال حملاتهم التأديبية ضد مناوئهم والرافضين لدفع الضرائب منذ بداية تثبيت ملكهم في مجالات المغرب الأقصى، وذلك لأن الغالب على أهل المغرب الأقصى كثرة التنافس المفرط وقلة التغاضي والتهور والمفاتنة،⁵ الأمر الذي أدى إلى تصعيد الخراب باعتبار الظلم مخرب للعمران ونتيجة ذلك بالضرورة هو الفساد والانتفاض.⁶

ولأن الدولة الزيانية كانت على عدا مع هذا القبيل لم تتوان من ضرب حدودها كلما أتحت لها الفرصة مستغلة انشغالات مرين بحروبها الداخلية فخربت العديد من عمرانها، ومع ذلك عند مقارنة حجم الدمار الذي لحق بممتلكات بني زيان مع ما آلت إليه البنى العمرانية في الدولة

¹ عبد الحميد حاجيات، مرجع سابق، ص 142.

² العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 171.

³ ابن الأحمر، روضة النسر...، مصدر سابق، ص ص 57-58.

⁴ نفس المصدر، نفس الصفحة.

⁵ العمري، ج 4، مصدر سابق، ص 85.

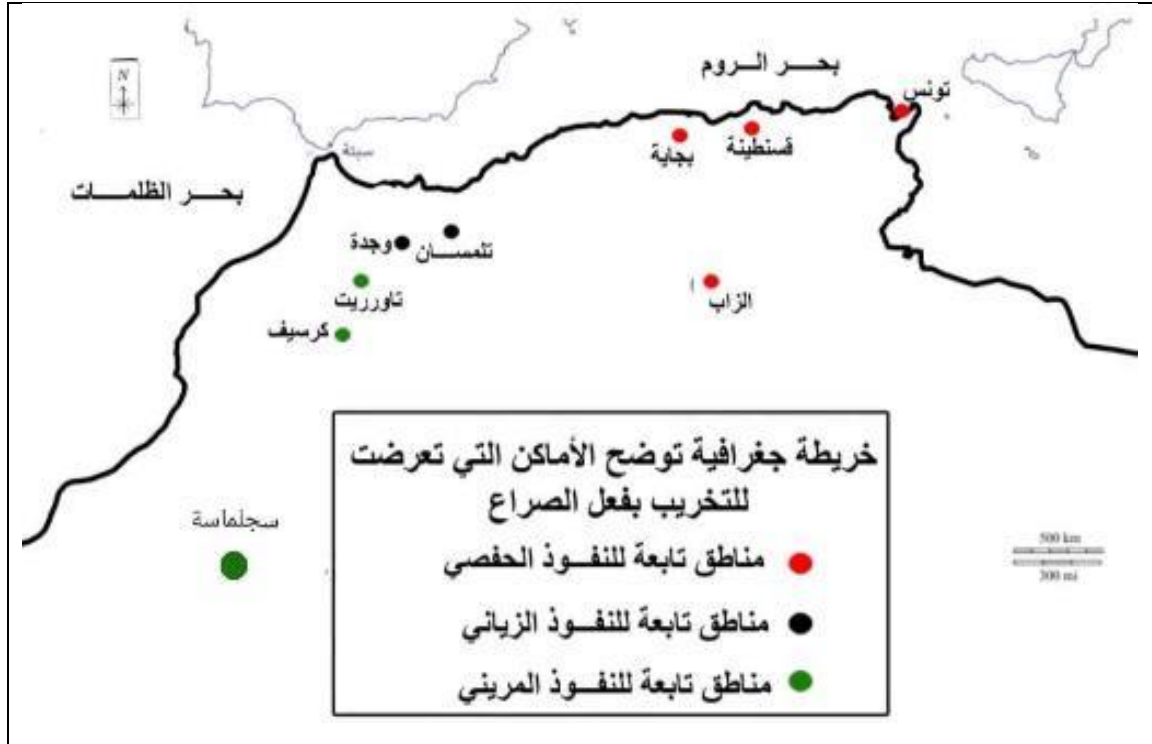
⁶ عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة...، مصدر سابق، ص 355.

المرينية بفعل القوى الخارجية يتضح أن الدمار الذي لحق بالأولى كان أكثر وأعظم، بينما كانت الدولة الحفصية في الغالب على وفاق مع بني مرين، لهذا لم تسجل المصادر التاريخية عمليات تخريبية للمنشآت العمرانية على يد هذا القبيل، حتى خلال فترات الفتور في العلاقات لم تكن هناك مواجهات عسكرية في مجالات الدولة المرينية، فمثلا أثناء حملة أبو فارس على مدينة فاس والتي تم استعراضه في الفصل الثاني لم تتم المواجهة بين الفريقان، وهذا لأن صاحب فاس اكتفى بمبايعته لتجنب الصدام العسكري.

يكشف تحليلنا لآثار الخراب الذي حاق ببلدان المغرب الإسلامي نتيجة الصراع السياسي والعسكري بين الدول الثلاث المتناحرة - الدولة الحفصية، الزيانية والمرينية- أن الدولة الزيانية كانت الأكثر تضررا، ويعزى ذلك إلى موقعها الجغرافي الذي جعلها ساحة رئيسية للمواجهات العسكرية طوال فترة عمر الدولة مما أدى إلى استنزاف عمرانها وتدهور بنيتها الحضرية، وباعتبار تلمسان عاصمة للدولة الزيانية ومركزا استراتيجيا، فقد كانت من أكثر المدن تعرضا للتخريب بفعل الحملات العسكرية المتكررة.

ولم يقتصر الدمار على تلمسان وحدها بل امتد ليشمل عددا من المدن الكبرى في عموم بلاد المغرب، لا سيما الواقعة في المناطق الحدودية أو تلك المدن المتنازع عليها بين القوى الثلاث -كانت معتركا- ومن بين هذه المدن: وجدة، كرسيف، تاوريرت، الزاب، سبلماسة، وقسنطينة، أما بجاية فقد تركز التخريب فيها على مواقع الحصون الزيانية التي شيدت في المنطقة والتي كانت هدفا رئيسيا خلال العمليات العسكرية، مما أدى إلى تدمير جزء كبير من منشآتها الدفاعية.

وفيما يتعلق بمدينة تونس عاصمة الدولة الحفصية فإن التدهور الذي أصاب بنيتها يعود أساسا إلى النزاعات الداخلية، ولا سيما الصراع بين القبائل المعارضة للحكم خصوصا القبائل العربية، بالإضافة إلى الانقسامات داخل البلاط الحفصي وسعي الولاة إلى الانفراد بأقاليمهم، ويعزى ذلك إلى أن تونس لم تكن ساحة رئيسية للمواجهات المباشرة بين بني حفص ونظيرتها في المغربين الأوسط والأدنى -الدولة الزيانية، الدولة المرينية- إذ لم يشهد تاريخها سوى ثلاث مواجهات وقعت بين الطرفين خلال عهد كل من أبي تاشفين الأول وأبي الحسن المريني وأبي عنان، على الرغم من ذلك وجدت بعض إشارات تاريخية دالة على وجود تخريب طال بنيتها بشيء بسيط بفعل حروبها مع بني مرين إذا ما قورن بجرمهم تجاه عمران بني زيان. (الخريطة رقم: 05)



خريطة رقم: 05

مدن المغرب الأكثر تعرضا للخراب بفعل الصراع (ق7-9هـ)

من اعداد الطالبة

ثانيا: المنشآت الحربية

يعد الأمن قيمة أساسية لنشأة المجتمعات واستمرارية استقرارها فمن شروط نشأة المدينة تشييد التحصينات لحماية وتنمية عمرانها،¹ ويتم ذلك من خلال تشييد الأسوار ورفعها وحفر الخنادق وسد الثغرات، فضلا عن قطع المواضع المشرفة عليها وتأمين المنافذ المؤدية إليها إلى جانب تنظيم الحراسة عبر توزيع الجنود في الأبراج وتعيين الحراس على الأسوار، وضبط مداخل المدينة لضمان أمنها وسلامتها.²

¹ ينظر: الجزنائي، مصدر سابق، ص 33. -محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، سلسلة عالم لمعرفة، ع 128، الكويت، أوت، 1988، ص 121.

² الحسن العباسي، ج 2، مصدر سابق، ص 321.

ولقد أضحت حركة العمران في مجملها خاضعة للتقلبات العسكرية فجل المنشآت التي ظهرت آنذاك كان سببها العامل العسكري،¹ نتيجة لمساعي قادة دول المغرب في استتباب الأمن داخل دولهم وحفظ النفس والمال والعرض، ولم يقتصر قادة المغرب على تحصين عواصمهم والمدن الكبرى فحسب بل امتدت جهود التحصين لتشمل المدن الصغيرة والقرى، وبذلك أصبحت الحصون والأسوار العالية رمزا للقوة والسيطرة حيث تم بناء هذه المنشآت وفق أحدث التقنيات المتاحة آنذاك، بما في ذلك استخدام المواد الصلبة كالحجارة الكبيرة والتصميمات المعمارية التي تضمن أكبر قدر من الأمان والمتانة، ولقد تنافس سلاطين دول المغرب على الإكثار من المنشآت العسكرية فاختطوا العديد من الحصون والأسوار العالية التي تتخللها أبراج مراقبة ومداخل محمية بأبواب حديدية ثقيلة، كما تم حفر الخنادق حول المدن ونحو ذلك من مظاهر العمائر الحربية الدفاعية.

1. المنشآت الحربية الحفصية

من المتعارف عليه أن بني حفص لم يشتهروا بالبناء والتشييد إذ اعتبر بعض مؤرخيها أن صفة التعمير من الأمور الغير مفيدة، فابن الشماخ مثلا عند ذكر صفات يحي أبو زكريا يحي الواصل أورد أنه: "مفرط التعسف مشغلا بأمور غير مفيدة كالبناء... فأدى ذلك إلى إتلاف المال"،² لهذا لم تكن لهم عناية ببناء التحصينات الدفاعية بشكل كبير إذا ما استثنينا عواصمهم وثغورهم البحرية وترميم وصيانة ما تتلم منها فقط، وكان في أغلب الأحيان يقوم بأعمال إصلاح السكان أنفسهم أو بعض القواد المحليين أو بواسطة أموال الأوقاف، ولقد كانت مواد بناء الأسوار والحصون متباعدة للغاية، على حسب ما هو متوفر في المنطقة المراد ترميمها.³

كما وقد اعتمد بني حفص بالأساس على أغلب التحصينات التي ورثوها على بني خرسان إذ عظم عمران مدينة تونس خلال عهدهم وأصبحت المدينة تشتمل على أسوار جيدة مبنية بالطوب،

¹ الحسين بولقطيب، "أسلوب الإنتاج الحربي والتحول المعاق (حالة المغرب الوسيط)"، مجلة كلية الآداب والعلوم

الإنسانية الجديدة، ع 2، دار المنظومة (من ص 73 إلى ص 93)، المغرب، 2020، ص 84.

² ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 75.

³ روبرت برونشفيك، ج 2، مرجع سابق، ص 87.

فضلا عن الدولة الموحدية التي ازدادت منشآتها العمرانية واستحكاماتها العسكرية، فأتقنت إلى حد بعيد فن التحصين كتشييد الأسوار وإحاطتها بالمدن لحماية ممتلكاتها وتأمين رعيته¹. وعليه فلقد اقتصرته جهود بني حفص في التشييد -العمارة العسكرية- على ترميم ما تتلم من الأسوار والأبواب خلال فترات الحروب فقط،² لهذا وصف بعض الجغرافيين مدينة تونس خلال العهد الحفصي بأنها: "مدينة جلييلة قديمة البناء"،³ وكان للعبدي وصف لما آلت إليه مدينة تونس وهيكلها العمراني خلال الفترة الأولى من حكم بني حفص من الانحدار والتلاشي، بعد أن كانت مركزا هاما للحكم والسلطة ومقرا ودار ملك لأهم ولاية بني عبد المؤمن الذين تمكنوا من استئصال خطر بني غانية: "وما زالت تونس -كلاها الله- دار ملك وضخامة، وهي الآن دار مملكة إفريقية على ضعف المملكة بها، وانتهائها على حد التلاشي"،⁴ من التحصينات العسكرية للدولة الحفصية:

1. 1 الأسوار:⁵

يعتبر السور من المباني والهياكل العظيمة وأحد الرموز البارزة التي تدل على فخامة الدولة ومناعتها وحماية ساكنتها،⁶ وعنصرا حيويا في سياسة البناء والتشييد فهو ليس مجرد بناء حجري بسيط فحسب بل كان له تنظيمات وتخطيطات دقيقة ومحكمة للدفاع العسكري والمدني، حيث يتم

¹ ينظر: أحمد بن عامر، مرجع سابق، ص ص 28- 29. -البشير بوقاعدة، خطة الحصار...، مرجع سابق، ص 189.

² روبر بارونشفيك، ج 2، مرجع سابق، ص 437.

³ أبو الفداء، مصدر سابق، ص 143.

⁴ العبدي، مصدر سابق، ص 112.

⁵ السور: "السور حائط المدينة، وجمعه: أسوار وسيران والسور أيضا جمع سورة، مثل: بسرة وبسر هي كل منزلة من البناء". ينظر: إسماعيل بن حماد الجوهري (ت398هـ)، الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية مرتب ترتيبا ألفبائيا وفق أوائل الحروف)، مر وعن محمد محمد تامر وأنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، مصر، 2009، ص 572.

⁶ ينظر: الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 176. -صبرينة نعيمة دحماني، الآثار الإسلامية العسكرية بمدينة تلمسان إحصاء وجرّد وتحليل (دراسة تمهيدية لوضع الخارطة الأثرية)، كنوز الحكمة، الجزائر، 2020، ص 18.

بناؤه بسمك محدد وارتفاع معلوم يتناسب مع نوعية السلاح وأساليب الدفاع والهجوم لضمان أداء وظائفه بقدر ما فرضته الضرورات الأمنية والدفاعية.¹

يتم إنشاء السور عادة في مواقع بعيدة عن الأحياء السكنية بمسافة معينة حفاظا على سلامة السكان واحترازا من الأخطار المحتملة إثر حروب الحصار، ويفضل بنائه على مرتفعات جبلية أو مواقع محاطة بمجاري مائية سواء نهر أو بحر حتى لا يصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة، فيصعب منالها على العدو ويتضاعف امتناعها وحصنها.²

كما يعد السور عنصرا مهما في سياسة البناء وتشديد العمران بفضل وظائفه المتعددة وأهمها الحماية من الأخطار التي تهدد السكان المحتميين بداخله، سواء كان ذلك داخل الحصن أو القلعة أو المدينة، ولهذا السبب رأى عبد الرحمان ابن خلدون أن المدن المسورة تتمكن من حماية سكانها حكاما ورعية وتكون حاجزا يصعب تجاوزه لمن يحاول اقتحامها والسيطرة عليها.³

تم اختيار مدينة تونس كعاصمة لبني حفص استنادا إلى أدوارها السياسية والاقتصادية عبر حقبات زمنية متفاوتة، فهي قاعدة إفريقية ومركزا أساسيا لها،⁴ وحضرة السلاطين الحفصيين.⁵ أوردت عدة مصادر جغرافية وتاريخية أن لها سور واحد يحيط على كامل المدينة، والجدير بالذكر أنه تم بناء سور المدينة من اللبن والطين باستثناء الجهة المقابلة للبحر شيدت بالحجارة، ولقد تم تخريبه في منتصف القرن الخامس للهجري من قبل زيادة الله بن الأغلب ثم أعيد بناءه من جديد،⁶ يقول الحميري عن سور المدينة: "ولها سور يدور بها"،⁷ وصاحب الاستبصار: "لها سور عظيم

¹ الحسين بولقطيب، أسلوب الإنتاج...، مرجع سابق، ص 84.

² عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة...، مصدر سابق، ص 433.

³ نفس المصدر، نفس الصفحة.

⁴ ينظر: العبدري، مصدر سابق، ص 113. -أبو الفداء، مصدر سابق، ص 143.

⁵ ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 36.

⁶ ينظر: أبي يعقوب أحمد اليعقوبي (ت284هـ)، البلدان، عن محمد أمين حفناوي، دار الكتب العلمية، بيروت،

لبنان، ص 187. -محمد حسن، المدينة...، ج 1، مرجع سابق، ص 162

⁷ الحميري، مصدر سابق، ص 143.

ويدور به حفير"،¹ والعمرى: "مدينة مسورة... ويستدير بها خندق حصين"،² وابن الشماع: "ولمدينة تونس سور يدور بها".³

كان يحيط بالسور من الداخل والخارج مجموعة من البساتين المثمرة،⁴ والمزارع الشاسعة وخلال عهد المنتصر شهدت المدينة امتدادا عمرانيا، من خلال بناء الأرباض فشاد أربعة منها في نواحي المدينة - اتخذت هذه الأبواب أسماء الأبواب المطلة عليها-⁵ وقد أضيف لها سور آخر خارجي بعد الحصار الثاني لبني مرين أحيط بالربضين: باب السويقة وباب الجزيرة اللذين يمثلان امتداد المدينة في اتجاه الجنوب والشمال،⁶ شاد هذا السور ابن تافراجين حاجب السلطان أبو إسحاق إبراهيم ابن أبي بكر،⁷ وهو أنذاك صغير السن فقام حاجبه بتدبير البلاد، وتحصينها إذ لم يسبق أحد من خلفاء تونس إليه في تحصين حضرة تونس بالأسوار فيسر الله الغاية التي عسرت على من قبله"،⁸ ولقد أورد ابن الشماع عما شاده بالتفصيل: "وشرع في بناء السور البراني المحيط بجميع أرباض تونس وحبس عليه نصف خراج الأرض، ونصف كراء المعاصر التي بداخله برسم إصلاح ما يحتاج منه حسبما مؤيد".⁹

عانت الدولة الحفصية من الحروب والفتن الداخلية الأمر الذي أدى إلى انقسام الدولة فأصبح لها ثلاث عواصم، والتي كانت على قدر كافي من الحماية والحصانة - بجاية وقسنطينة إلى جانب تونس-¹⁰ فالأولى كانت تحيط بها أسوار عالية متينة،¹¹ وصفها العمرى بأنها: "مدينة

¹ مؤلف مجهول، الاستبصار، مصدر سابق، ص 120.

² العمرى، مصدر سابق، ج 4، ص 66.

³ ابن الشماع، مصدر سابق، ص 36.

⁴ ينظر: البكري، المسالك والممالك...، ج 2، مصدر سابق، ص 214. -محمد حسن، المدينة...، ج 1، مرجع سابق، ص 162.

⁵ ينظر: حسن الوزان، ج 2 مصدر سابق، ص 74. -محمد حسن، المدينة...، ج 1، مرجع سابق، ص 163.

⁶ ينظر: روبر برونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص 372. -أحمد بن عامر، مرجع سابق، ص 29.

⁷ ابن أبي دينار، مصدر سابق، ص 130.

⁸ لسان الدين ابن الخطيب، رقم الحل...، مصدر سابق، ص 69.

⁹ ابن الشماع، مصدر سابق، ص 102.

¹⁰ عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة...، مصدر سابق، ص 362.

¹¹ حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 50.

قديمة مسورة أضيف إلى جانبها أدير عليه سور ضام لنطاق المدينة فصار به كالشيء الواحد¹، أما قسنطينة فهي الأخرى كانت محصنة تحصينا جيدا لأن أسوارها رومانية قديمة وسميكة وعالية مبنية بالحجر المنحوت المسود² وهي كما وصفها العمري: "بلد كبيرة متحضرة في غاية الحصانة والمنعة"³ وكان لأمرأ بني حفص عناية خاصة بها وعملوا على تحصينها من خلال ترميم ما تتلم منها من ذلك ما قام به أبو زكريا ابن أبي إسحاق لما ملك بجاية وقسنطينة، إذ اشترى دورا من الحضر وزادها في القصبه بغية إصلاح سور القصبه ومحاولتها⁴ (ملحق رقم: 06)

كانت أسوار الدولة الحفصية بسيطة وغير متطورة مقارنة مع ما تم تشييده في المغربين الأقصى والأوسط، من ذلك ما أشار إليه مارمول كربخال: "مدينة تونس غير حصينة ولا تحيط بها إلا أسوار قصيرة جدا، ولا سيما من جهتي الغرب والجنوب"⁵، وعليه فإن الأسوار الغير عالية تسهل للعدو اختراقها عن طريق التسلق، ومن المواضع التي أكدت صدق قول مارمول كربخال أن أبو العباس بعد الإفراج عنه بالمغرب الأقصى راح إلى تونس لاسترجاع الملك بالقوة، فتمكن منها بعد أن تسلقوا الأسوار من رأس الطابية⁶.

وعليه فإن الأسوار التي بنيت خلال عهد بني الأغلب زيد فيها خلال القرن الخامس للهجري، تناولها التجديد من خلال إضافة سور خارجي آخر خلال عهد بني حفص⁷ وفي مرحلة ما بعد الحفصيين تم ترميمها وصيانتها مرة أخرى خلال عهد الباي حمودة باشا الحسني سنة (1217هـ/1802م)، وأضاف لها الأبراج وكتب على أبوابها تاريخها باللغة التركية، ومحصل الكتابة: أمر بالبناء السلطان سليم خان الثاني في مدة الباي حمودة باشا "أول كريم أول همام نصره

¹ العمري، ج 4، مصدر سابق، ص 68.

² ينظر: حسن الوزان، مصدر سابق، ج 2، ص 55. -ابن سعيد المغربي، مصدر سابق، ص 142.

³ العمري، ج 4، مصدر سابق، ص 66.

⁴ ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية...، مصدر سابق، ص 148.

⁵ مارمول كربخال، ج 3، مصدر سابق، ص 23.

⁶ ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 108.

⁷ ينظر: لسان الدين ابن الخطيب، رقم الحل...، مصدر سابق، ص 69. -ابن الشماخ، مصدر سابق، ص

102. -ابن أبي دينار، مصدر سابق، ص 130. -روبار برونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص 372. -أحمد بن

عامر، مرجع سابق، ص 29.

الله إلى يوم القيام"، لكنها تعرضت للتهديم سنة (1357هـ / 1938م) لتوسيع المدينة وأبقي جزء منها كمعلم تذكاري.¹

1. 2 الأبواب: (الشكل رقم: 06)

تعتبر الأبواب أضعف النقاط التي تتخلل السور ومن خلاله يتم اختراق المدينة، لهذا اهتم قادة دول المغرب بتحصينها من خلال استخدام المداخل المنكسرة أو المنتثية، وذلك لأن الباب المنكسر من شأنه أن يمنع عملية الاختراق أو التسلل، وقد تم إلغاء تسقيف الأبواب وذلك لتسهيل عمليات قذف العدو بمختلف وسائل الرمي والقذائف سواء خشبية أو حجرية،² أو نارية، ويجدر التنويه هنا أن هاته الأخيرة لم يتم اعتمادها من طرف قادة بني حفص إلا في النصف الثاني من القرن الثامن للهجري الرابع عشر ميلادي، وكان استعمالها محدود وعلى نطاق ضيق، لكن فيما بعد أضحى بني حفص هم من يزودون مسلمي الأندلس بالمواد الحارقة كالبارود.³

أقيم على كل من سوري مدينة تونس أبواب مستقيمة أو متعرجة أو مسبوقة أحيانا بستار كانت تغلق في الليل وأوقات صلاة الجمعة أو عند تعرض المدينة إلى هجوم، يقول العبدري عن أبواب المدينة: "ولها أبواب عديدة وعند كل باب ربض متسع على قدر البلد المستقل"،⁴ من أبواب مدينة تونس:

1. 2. 1 باب المنارة:

أشارت الدراسات الحديثة أن تاريخ تأسيس هذا الباب يعود إلى عهد السلطان أبو يحيى زكريا، يفتح على الربض الجنوبي - ربض باب المنارة - الممتد من باب المنارة إلى غاية باب خالد غربا ومصلى العيدين،⁵ شكله مطابق تماما للطراز الموحي بأسسه المبنية بالحجارة السمكية والرقيقة بالتناوب، وكان تشييد هذا الباب تنمة لأعمال الترميم والتحصين التي قام بها أول سلطان

¹ محمد بن الخوجة، صفحات...، مرجع سابق، ص 392.

² البشير بوقاعدة، خطة الحصار...، مرجع سابق، ص 180.

³ روبر بارونشفيك، ج 2، مرجع سابق، ص 86.

⁴ العبدري، مصدر سابق، ص 110.

⁵ محمد حسن، المدينة...، ج 1، مرجع سابق، ص 165.

فعلي للدولة الحفصية بغية تعزيز البنية الدفاعية للعاصمة،¹ وفي سنة (627هـ/1229م) أضيف خارج هذا الباب مصلى، "وجعل له أبراجا وشرائف كأنه بلد صغير"،² قدرت مساحته بمساحة مدينة بنزرت.³

ولقد اندثر هذا المصلى تماما وحل محله رباطا للعسكر النظامي خلال عهد الحسينيين وقام أبو عبد الله محمد المنتصر ابن زكريا بتطوير المنطقة وتعميرها خارج هذا الباب، من جملة ذلك تشييده لربض مصاقب له يضم عددا من الكوانين بلغ عددها نحو ألف كانون (1000كانون)، وتجمعت دكاكين بعض الصناع والصيادين والعطارين والسراجون وغيرهم عند هذا الباب،⁴ الذي تعرض بعد الاستقلال إلى الهدم بغية توسيع الطريق، وموقع هذا الباب بمحاذاة المقر الحالي لوزارة الدفاع الوطني.⁵

1. 2. 2 باب سوقية:

يقع في الجهة الشمالية للمدينة يعتبر هذا الباب من أبواب تونس العتيقة، كان يسمى سابقا باب السقائين الجوفى، أرجع البكري سبب هذه التسمية إلى: "السقائين، لأن بئرا تعرف ببئر أبي القفار تقابله، وهي بئر كبيرة غزيرة عذبة الماء نميرة"،⁶ أما تسميته الحديثة -باب سوقية- نسبة إلى السوق الحرة التي أقيمت في النصف الأول من القرن الحادي عشر ميلادي بالقرب من سيدي محرز.⁷

ولقد أقيم على عهد المنتصر حيا خارج هذا الباب، ويضم حوالي ثلاث مائة كانون (300 كانون)، تجمعت على هذا الباب أيضا مجموعة من الدكاكين.⁸

¹ ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 57.

² الزركشي، مصدر سابق، ص 25.

³ محمود بن سعد مقديش، مرجع سابق، ص 546.

⁴ ينظر: حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 74. -أحمد بن عامر، مرجع سابق، ص 29.

⁵ ينظر: إحالة روبر برونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص 371. -أحمد بن عامر، مرجع سابق، ص 29. -

⁶ البكري، المسالك والممالك...، مصدر سابق، ج 2، ص 214.

⁷ روبر برونشفيك، مرجع سابق، ج 1، ص 371.

⁸ ينظر: حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 74. -أحمد بن عامر، مرجع سابق، ص 29.

1. 2. 3 باب بحر:

يقع هذا الباب في الناحية الشرقية قرب الباب الذي يعرف اليوم باسم باب فرنسا، يربط بين المدينة والميناء،¹ يرتفع عن سطح البحر بسبع أمتار. (ملحق رقم: 08)

2. 4 باب الجزيرة:

يقع في الجنوب الشرقي للمدينة وهو باب قديم لمدينة تونس، يعود سبب تسميته حسب ما أورده البكري إلى: "ينسب إلى جزيرة شريك ويخرج منه إلى القيروان، ويقابله الجبل المعروف بجبل التوبة، وهو جبل عالي لا ينبت به شيئاً"،² ولقد تعرض هذا الباب خلال عهد أبو العباس إلى التخريب من قبل هذا الأخير إذ قام بكسره وكسر أقفاله.³

1. 2. 5 باب قرطاجنة:

يقع في الجهة الشمالية الشرقية للمدينة يفتح على قرطاجنة الواقعة على بعد عشرة أميال، وقد اتصل هذا الباب على عهد البكري بالعديد من القرى العامرة بالبساتين التي تزود الحاضرة بالمنتجات الزراعية، فضلا عن إنتاج سواني المرج المروية بمياه الآبار الموجودة قرب الباب.⁴

من دلالات حصانة هذا الباب ومناعته هو بقاءه صامدا إلى غاية العهد الحفصي، كما وقد ارتبط اسمه بالاضطرابات السياسية والفتن الداخلية بين الولاة وحركاتهم العسكرية في محاولة منهم الاستحواذ على ملك الدولة الحفصية، من تلك الإشارات التاريخية اختراق أبو حفص عمر للحضرة من خلال هذا الباب ف قيل: "فلم يرع الناس عند الفجر إلا الضجيج فخرج المولى أبو العباس بجهة باب المنارة ف قيل له: أن الأمير عمر كسر الباب - أي باب قرطاجنة - ودخل منه

¹ روبر بارونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص 371.

² البكري، المسالك والممالك...، ج 2، مصدر سابق، ص 214.

³ ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 108.

⁴ ينظر: البكري، المسالك والممالك...، ج 2، مصدر سابق، ص 214. - محمد حسن، المدينة...، ج 1، مرجع سابق، ص 162.

فمضى"،¹ من بين الإضافات التي ألحقها سلاطين بني حفص لهذا الباب هو إقامتهم للساقية التي ببطحاء الشيخ سيدي مردوم داخل باب قرطاجنة وأوقفوا عليها العديد من الأوقاف.²

1. 2. 6 باب جديد:

استحدث هذا الباب أبو زكريا إثر مباشرته في تحصين العاصمة،³ كان هذا الباب محصنا ومكوعا بالحجارة والطوب، وقد رجح روبر بارونشفيك احتمالية احتوائه على بروج ذات جوانب مقطوعة،⁴ مثل ما هي عليه أبراج مدينة فاس يقع في جهتها الغربية، أضيف خلال عهد السلطان أبي فارس عبد العزيز أي في مطلع القرن التاسع للهجري سقاية خارج هذا الباب وأوقف عليها هي الأخرى أوقافا،⁵ ولقد تعرض هذا الباب إلى التخریب أثناء العهد العثماني ليتم تجديده لاحقا سنة (1183هـ/1769م)،⁶ ولا يزال هذا الباب قائما إلى غاية عصرنا هذا آخذا طابعه العثماني.

1. 2. 7 باب أبي سعدون:

استحدث هذا الباب في منتصف القرن التاسع للهجري، يطل على الربض الشمالي، أي على مقربة من باب السويقة،⁷ ولقد شاد أبو فارس خارج هذا الباب زاوية بحومة باردو "وجعلها منهلا للوارد من أي أفق كان يأوي إليها عشية إلا أن يشخص من هنالك سحرا وحبس عليها ما يقوم بها"،⁸ ولا زال هذا الباب قائما إلى يومنا هذا.

¹ ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 93.

² ابن أبي دينار، مصدر سابق، ص 132.

³ لم نجد أي إشارة في المصادر التي تم الاعتماد عليها في دراسة موضوع أطروحتنا نقول بطريقة مباشرة أن أبو زكريا هو من قام بتشيد كل من باب المنارة، وباب جديد بل وجد في مصادر متأخرة، أنه قام بتحسين المدينة فقط وأضاف على باب المنارة المصلى، في حين روبر بارونشفيك أقر أن أبو زكريا، هو من شاد البابين. **ينظر:** الزركشي، مصدر سابق، ص 117. - محمد بن الخوجة، صفحات...، مرجع سابق، ص 372.

⁴ روبر بارونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص 371.

⁵ الزركشي، مصدر سابق، ص 116.

⁶ محمد بن الخوجة، صفحات...، مرجع سابق، ص 372.

⁷ **ينظر:** روبر بارونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص 373. - محمد بن الخوجة، صفحات...، مرجع سابق، ص 373. - محمد حسن، المدينة...، ج 1، مرجع سابق، ص 165.

⁸ الزركشي، مصدر سابق، ص 116.

الفصل الرابع: انعكاسات الصراع على العمران: دراسة ثنائية الخراب والتشييد

أوردت إحدى الدراسات إستنادا الى وثيقة إسبانية مؤرخة بسنة 1535م، أنه بلغ عدد أبواب المدينة في الحقبة الأخيرة من العهد الحفصي نحو الأربعين بابا، البعض منها رئيسي والآخر ثانوي،¹ من تلك لأبواب: باب الميرويقي، باب القصبة، باب الخضراء،² وباب بنات³ وهو فتحة صغيرة بالقرب من القصر الذي شاه أبو زكريا لبنات ابن غانية اليتيمات وباب الأقواس وباب علاوة⁴ وباب الفلاق وباب المنصور،⁵ وباب جبيلة الواقع بين ببي برج الأونقي،⁶ وغيرها من الأبواب الأخرى.



الشكل رقم: 06

مخطط يوضح موضع الأبواب (تونس)

بتصرف عن شارل أندري جوليان، ج 2، ص 192

¹ محمد حسن، المدينة...، مرجع سابق، ج 1، ص 161.

² ينظر: محمد بن الخوجة، صفحات...، مرجع سابق، ص 391. -محمد حسن، المدينة...، مرجع سابق، ج 1، ص 161-166.

³ كان هناك أيضا باب يعود إلى القرون الأولى من الفتح الإسلامي يدعى باب النساء، وظل هذا الباب قائما إلى عهد البكري (خلال القرن الخامس للهجري)، ومن المؤكد أن هذا الباب يطل على البحر لأنه كان للروم سفن معدة من ناحية هذا الباب. **ينظر:** البكري، المغرب...، مصدر سابق، ص 37.

⁴ وجد خارج هذا الباب، مقبرة الزلاج التي دفن بها العديد من الأولياء الصالحين، والعلماء، من ذلك الشيخ الطبيب محمد الدهان المتوفى سنة (853هـ/1448). **ينظر:** القلصادي، مصدر سابق، ص 117.

⁵ روبر برونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص ص 371-372.

⁶ الزركشي، مصدر سابق، ص 136.

التصقت بأسوار المدينة من الخارج أبراجا لمراقبة الداخل والخارج ورمي وإصابة العدو في حالة حدوث هجوم، خاصة من الناحية المطلّة على ميناء حلق الوادي وقرطاجنة خوفا من الهجومات البحرية، لهذا تم إقامة المحارس والزوايا على ساحل تونس من جبل المنار (سيدي أبي سعيد) إلى جبل قبرص وشيدت سلسلة أبراج ربطت الساحل بالمدينة، من تلك الأبراج برج رأس الطابية شمال المدينة وبرج بوعبا شرقا يعود تشييده إلى القرن السابع للهجري،¹ والأبراج أيضا التي شادها أبي عبد الله محمد أبي عسيبة إذ كانت أيامه أيام هدنة وعافية وسلم لا حرب، غرست فيها الغرست وبنيت بها الأبراج،² والبرج الذي شاده أبو العباس أحمد ابن المستنصر ابن يحيى بعد اعتلائها عرش الدولة سنة (772هـ/1371م) شرق قرطاجنة للاحتراس ورفع التضيق عن قراها،³ وقام أيضا بإنشاء البرج الكبير شرقي منزل قمرت، وقد وضع عليه الحراس، وأجرى عليهم النفقات.⁴

1. 3 الحصون:

يشمل الحصن كل موضع حصين لا يوصل إلى ما في جوفه والجمع حصون، وحصن حصين من الحصانة،⁵ ويعتبر من أبرز المظاهر العمرانية في الحضارات التاريخية، إذ شيدت بغرض الأمن والحماية والاستقرار للسكان الذين يلجئون إليه ولصد الهجمات المحتملة، وتبنى الحصون على هيئة مبان حصينة تتخذ شكل مدن صغيرة وقلاع تحتوي على مطامير، محاطة بخنادق وأسوار عالية وأبواب ضخمة محكمة الإغلاق، مما يصعب على الأعداء اقتحامها.⁶

اهتم سلاطين المغرب ببناء هذه الحصون في مواقع إستراتيجية بعد دراسة دقيقة لطبيعة المنطقة والتضاريس المحيطة بها، إذ أخذوا في الحسبان عوامل عدة لضمان أن تؤدي هذه المنشآت

¹ محمد حسن، المدينة...، ج 1، مرجع سابق، ص 166.

² ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 83.

³ ابن أبي دينار، مصدر سابق، ص 132.

⁴ ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 111.

⁵ محمد بن مكرم ابن المنظور (ت711هـ)، لسان العرب، تح عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، مج 2، القاهرة، مصر، ص 902.

⁶ الهرثمي صاحب المأمون (ت بعد 200هـ)، مختصر سياسة الحروب، تح عبد الرؤوف عون ومحمد مصطفى زيادة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مصر، ص 56.

وظائفها الدفاعية بكفاءة عالية، فكانوا يدرسون طبيعة الأرض بشكل جيد مع مراعاة نوعية الأسلحة التي قد تستخدم في الهجوم على الحصون، وكذلك الأسلحة الدفاعية التي يمكن استخدامها لحمايتها، ولقد كان التخطيط لبناء الحصون يشمل تقييم جميع الاحتمالات والتوقعات المتعلقة بالهجمات المحتملة، وهذا التقييم ضروريا لترجيح كفة النصر على الهزيمة، لذلك كانت هذه الحصون غالبا ما تبنى في المناطق الداخلية وعلى الثغور وبالأخص في المواقع المرتفعة والوعرة،¹ والهدف من ذلك مراقبة السهول والوديان المحيطة بها مما يمنحها ميزة إستراتيجية في الدفاع ولزيادة فعالية التحصينات وضمان قدرتها على الصمود أمام الهجمات، كان من الطبيعي أن تزود هذه الحصون بالرماة المدربين بشكل جيد، وهؤلاء الرماة كانوا يشكلون خطا دفاعيا أساسيا وكانوا يدعمون باللوان مختلفة من الأسلحة الحربية الكفيلة بإفشال الهجمات.²

في إطار تعدد وظائف هذه الحصون لجأ بعض السلاطين في دول المغرب إلى بناء حصون احتياطية في مناطق وعرة، وكانت هذه الحصون تستخدم كملذات آمنة للأسرة الحاكمة في أوقات الأزمات والمخاطر، وكانت هذه الإستراتيجية تهدف إلى حماية الأسرة الحاكمة وضمان استمرار الحكم حتى في أصعب الظروف.³

أما فيما يخص الدولة الحفصية فإنهم اعتمدوا بالأساس على الحصون التي ورثوها من بني خрсان وبني عبد المؤمن، ولقد اتخذوا من **قصة المدينة** التي خلفتها لهم الدولة الموحدية حصنا والتي قام أبو زكريا الحفصي بتجديد رسومها، فهي عبارة عن مدينة مصغرة قادرة على الانعزال والاعتماد على الوسائل التي تتوفر بها لمدة من الزمن في حالة ما إذا طال الحصار،⁴ لهذا اعتمدت عليها حاشية السلطان أبو الحسن المريني وتحصنوا بها إثر حصار ابن تافراجين والخياط

¹ البشير بوقاعدة، خطة الحصار...، مرجع سابق، ص ص 190 - 191.

² **ينظر:** الهرثمي، مصدر سابق، ص 56. -البشير بوقاعدة، خطة الحصار...، مرجع سابق، ص 191. - بلال زيتوني، مرجع سابق، ص 210. -محمد بن حمو، **"الحصون والمحارس بضواحي تلمسان -دراسة إحصائية لبعض النماذج-**"، مج منبر التراث الأثري، مج 7، ع 1، (من ص 95 إلى ص 112)، 2018، ص ص 99-100.

³ البشير بوقاعدة، خطة الحصار...، مرجع سابق، ص 191.

⁴ روبر بارونشفيك، ج 2، مرجع سابق، ص 87.

لهم،¹ بالإضافة إلى حصن إقليبية الذي يعتبر من أمنع الحصون بإفريقية، يقع على مقربة من قرطاجنة وعليه فهو مطل على البحر،² وحصن المهديّة الذي يمتاز بأسوار عالية متينة أبوابها مصفحة بالحديد وله أبراج ضخمة،³ أحدث هذا الحصن العبيديين -الشيعية الفاطمية- وكانت له العديد من الأدوار التاريخية والسياسية في حقبات زمنية مختلفة وصولاً إلى بني حفص الذين أولوها عناية خاصة من ناحية الترميم والصيانة، وحصن بجاية.⁴

2. المنشآت الحربية الزيرية

فرضت الإضطرابات السياسية والموجهات العسكرية الدائمة على سلاطين بني زيان بناء شبكة من المنشآت الحربية، باعتبارها داعم أساسي في استراتيجيات الدفاع والتحصين، فلقد كانت طبيعة الصراع مع المرينيين والحفصيين عاملاً حاسماً في توجيه السياسة العمرانية نحو تشييد تحصينات عسكرية، من هذه المنشآت:

2. 1 الأسوار:

كانت تلمسان عاصمة بني زيان منذ القديم مطمحاً للأعداء نظراً لمكانتها الجغرافية والتاريخية، لهذا قامت مختلف السلطات السياسية والعسكرية التي مرت على المنطقة بتسيورها لضبط الأمن،⁵ بدأ بالمرابطين من أقادير،⁶ إلى الموحدين حيث شهدت تلمسان خلال عهدهم تطورا

¹ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 526. -ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 97. -ابن أبي دينار، مصدر سابق، ص 129.

² ينظر: ياقوت الحموي، مج 1، مصدر سابق، ص 237. -إحالة يعقوبي، مصدر سابق، ص 187.

³ حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 86.

⁴ ينظر: البكري، المسالك والممالك...، ج 2، مصدر سابق، ص 202. -حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 85-86. -أبو الفداء، مصدر سابق، ص 123.

⁵ صبرينة نعيمة دحماني، مرجع سابق، - سناء عطابي، الفقه وتنظيم المجال الحضري في المغرب الأوسط ما بين القرنين السابع والتاسع الهجري/الثالث عشر - الخامس عشر ميلادي: تلمسان نموذجا، إشعاع عمارة، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه في التاريخ الوسيط، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، الجزائر، (2018/2017)، ص 262.

⁶ خلال العهد المرابطي عقد يوسف بن تاشفين على أقادير لمحمد بن تين عمر المسوفي الذي أسس عليها قرية تكرررت والتي تعني المحلة بالمكان الذي عسكر فيه، كان يسكن فيها الجند وأصحاب السلطان وبضم تكرررت

هائلا في الحضارة والعمران واهتموا بتحسينها وتشيد الأسوار، وكان من أعظمهم اهتماما بذلك السيد عمران موسى ابن يوسف العشري ووليها سنة (656هـ/1258م) على عهد أبيه يوسف بن عبد المؤمن فشاد المباني والأسوار، حتى أصبحت تلمسان من أعز معاقل المغرب وأحصنها وأصبحت الناس تتوافد عليها للاحتماء بها خاصة بعد تخرب ابن غانية تاهرت الداخلية، ومدينة أرشكول الساحلية.¹

لهذا أجمعت ثلة من المصادر الجغرافية على حصانة مدينة تلمسان ومناعة أسوارها، من هؤلاء اليعقوبي الذي يقول: "وعليها سور حجارة وخلفه سور آخر حجارة"،² والبكري يذكر بأنها: "مدينة مسورة في سفح جبل شجرة الجوز"،³ بينما العبدري يقول: "سورها أوثق الأسوار وأصحها"،⁴ وأبو الفداء: "تلمسان مدينة مشهورة مسورة"،⁵ والحميري عبد المنعم: "ولها سور متقن الوثاقه".⁶

تم إنشاء هذه الأسوار بمواد متنوعة حسب الموقع والمواد المتوفرة في تلك المنطقة فبنيت ببعض الجهات بالآجر، وفي جهات أخرى يرتكز السور على قاعدة من الحجر الصلب وفي بعض الجهات يبنى بالرمال والطين والكلس المدكوك،⁷ وكان معظمها ذو ارتفاع عالي وقد أشار مارمول كربخال إلى ذلك قائل: "أسوار المدينة شاهقة محصنة"،⁸ بينما وصف حسن الوزان الأسوار بأنها: "في غاية الارتفاع والقوة"،⁹ والواضح أن الغرض من بناء هاته الأسوار بارتفاع عالي هو زيادة

إلى أقادير بعد فصل السور عنهما تكونت لنا مدينة تلمسان. **ينظر:** ياقوت الحموي، مج 2، مصدر سابق، ص 44. - يحي بوعزيز، مرجع سابق، ص 20.

¹ **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج7، مصدر سابق، ص 104-105. - يحي بوعزيز، مرجع سابق، ص 24-25.

² اليعقوبي، مصدر سابق، ص 196.

³ البكري، المسالك والممالك...، ج 2، مصدر سابق، ص 259.

⁴ العبدري، مصدر سابق، ص 48-49.

⁵ أبو الفداء، مصدر سابق، ص 137.

⁶ الحميري، مصدر سابق، ص 136.

⁷ عبد العزيز فيلاي، ج 1، مرجع سابق، ص 111.

⁸ مارمول كربخال، ج 2، مصدر سابق، ص 299.

⁹ حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 20.

الحماية لكي تصبح ذات فعالية أكثر ضد أي هجوم فتقلص من قابلية اختراقها وتسلقها، لأنه يتم القضاء على الدولة من خلال خرق سياجها.¹

أورد عبد العزيز فيلالي نقلا عن جون مارسيه أنه أحيط بمدينة تلمسان العديد من الأسوار بلغ عددها نحو السبعة، ولعلها كانت مضعفة ومتباعدة عن بعضها بمسافات قصيرة في حدودها الخارجية، ولقد كان لسلطين بني زيان عناية ببناء الأسوار وتشبيدها وترميم ما تلثم منها جراء الحروب، فيغمراسن بن زيان أمر ببناء الأسوار لتحصين مدينة تلمسان وأبو حمو موسى الأول فور اعتلاءه عرش بني زيان أكثر من بناء الأسوار،² والستائر،³ ولما مات وولي بعده أبو تاشفين زادها تحصيلا في الأقوات وتحصينا من الأسوار والآلات،⁴ فالأول قام بتشييد الأسوار من جهة باب كشوط الواقع في الناحية الغربية،⁵ نحو ستة أسوار مرتفعة ومزدوجة تعلوها أبراج وتدعمها حصون مربعة الشكل، والبعض من هذه الأسوار تتداخل في بعضها البعض بالقرب من القصبه،⁶ مما يشير بالضرورة إلى رغبة وتصميم مؤسسيها على جعلها قلعة منيعة يصعب اقتحامها وحصنها قويا يسهل الدفاع عنه ويصعب تجاوزه.

كان الهدف من تجهيز هذه التحصينات -الأسوار- بشكل متكامل تلبيبة لاحتياجات المدينة وأداء وظائفها العسكرية والإدارية والسياسية، ولأن الجهة الجنوبية من المدينة كانت مكشوفة ولا توفر حماية طبيعية، فقد تم تعزيزها بحيث تسيطر المرتفعات المحيطة على مسالكها مما يجعل الدفاع عن هذه المنطقة أسهل بكثير.⁷

¹ عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة...، مصدر سابق، ص 427.

² ينظر: التنسي، مصدر سابق، ص 145. -عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 40- 41.

³ الستائر: مفردتها ستارة وهي حيط قصير دون سور المدينة وقدامه يسمى أيضا الفيصل، يقول التجاني وهو يصف مدينة طرابلس: "جدد بناء سورها من جهة البر على يد عبد الرحمان بن حبيب... وتأخر بنائه من جهة البحر إلى ولاية هرثمة... تم زادا في إتقانه... أبو الفتح... ويحيط بهذا السور الآن فيصل آخر أقصر على العادة من ذلك يسمونه الستارة". ينظر: التجاني، مصدر سابق، ص 239- 240.

⁴ العمري، ج 4، مصدر سابق، ص 103.

⁵ يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر ساق، ص 115.

⁶ العمري، ج 4، مصدر سابق، ص 104.

⁷ عبد العزيز فيلالي، مرجع سابق، ج 1، ص 111.

حقيقة يصعب تصور أن المدينة كانت محاطة بهذا الكم الهائل من الأسوار، فنجد في هذا السياق عبد الرحمان ابن خلدون عند حديثه عن حركة العساكر المحاصرة للعاصمة، وعمليات التخریب والاختراق يستخدم عبارة (أسوارها)،¹ حتى مارمول كربخال والوزان عندما أوردوا ذكر المدينة استخدموا عبارة (الأسوار)،² والعمرى عدد أسوارها قائلاً: "لها ثلاثة أسوار، ومن جهة القصبة ستة أسوار بعضها داخل بعض".³

من المرجح أن هذه المصادر عندما أوردت ذكر الأسوار كانت تشير إلى تلك التي تحيط بالمساجد والقصبة ودار السكة والقصر الملكي (المشور) الواقع في الجهة الجنوبية للمدينة،⁴ أي الأسوار الثانوية التي هي داخل المدينة، لا السور المحيط على كامل المدينة، وربما الباحث جون مارسى عند تعداده لأسوار المدينة (سبعة أسوار) قام باحتساب الجديد والقديم منها، دون الأخذ بعين الاعتبار إلى تلك التي تم تخریبها واندثرت نهائياً، من ذلك السوران المحيطان بمدينة تلمسان القديمة والحديثة اللذين أمر يغمراسن بن زيان بهدمهما،⁵ والوارد ذكرهما من قبل ياقوت الحموي: "مدينتان متجاورتان مسورتان، بينهما رمية حجر".⁶

لكنه وفقاً لما أورده محمد بن رمضان شاوش فإن تلمسان كانت محاطة بسورين، داخلي وخارجي، تفصل بينهما مسافة لا تقل عن ثلاثمائة متر (300 متر)، ويشير إلى أن هذه المساحة كانت خالية من المنشآت باستثناء الأبراج الدفاعية التي صممت لمقاومة الهجمات وحماية المدينة أثناء الحصار،⁷ وعلى جانب آخر أشارت ثلة من المصادر الجغرافية التي أوردت ذكر المدينة وأسوارها عبارة: (مدينة مسورة) أو (سورها)،⁸ فالأولى تعني أنها تحتوي على سور واحد يحيط

¹ عبد الرحمان، ابن خلدون، العبر...، مصدر سابق، ج 7.

² ينظر: حسن الوزان، ج 2، ص 20. -مارمول كربخال، ج 2، مصدر سابق، ص 299.

³ العمرى، مصدر سابق، ج 4، ص 104.

⁴ حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 20.

⁵ ينظر: يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 20. -محمد بن رمضان شاوش، مرجع سابق، ج 1، ص 162.

⁶ ياقوت الحموي، مج 2، مصدر سابق، ص 44.

⁷ محمد بن رمضان شاوش، ج 1، مرجع سابق، ص 161.

⁸ ينظر: البكري، المسالك...، ج 2، مصدر سابق، ص 259. -أبو الفداء، مصدر سابق، ص 137. - الحميرى، مصدر سابق، ص 135.

بكمال المدينة والثانية مفرد أسوار، بينما يحي ابن خلدون أقر بشكل مباشر بأنها: "مؤلفة من مدينتان ضمهما الآن سور واحد".¹

والرأي الأرجح هو الذي قدمه محمد بن رمضان شاوش أي احتواء المدينة على سورين أحدهما داخلي والآخر خارجي، مثل ما هو موجود في مدينة تونس وفاس ومن خلال تحليلنا للمصادر المختلفة يتضح أن مدينة تلمسان كانت محاطة بنظام معقد من الأسوار يشمل أسوارا متعددة ومستويات دفاعية متقدمة (كل هيكل معماري محاط بسور)، مما يشير إلى أهمية المدينة الإستراتيجية وضرورة توفير حماية مكثفة لها بما في ذلك السور الضارب على كامل محيطها يتخلله أبراج للمراقبة، مما يدل على التخطيط الدفاعي المتقدم للمدينة عاكسا تطور البنى العمرانية وتكيفها مع متطلبات الدفاع خلال فترات الحصار والتهديدات العسكرية المباشرة.

من أبراج المراقبة العالية: برج القشقاش بني على ضفة وادي متشكانة، وبرج الطاحونة الواقع في جنوب المدينة تم بنائه لمراقبة الجهة الجنوبية وحمايتها وحماية الطاحونة التي تزود أهل المدينة بالقمح، وبرج إمامة الذي بني على شكل قلعة مرتفعة الواقعة في الشمال الغربي من المدينة، عان سكانها من حالة اللا استقرار نتيجة للهجمات العسكرية التي شنتها القوى الخارجية والمناوئين على المدينة، باعتباره الخط الدفاعي الأساسي لتلمسان.²

2. 2 أبواب عاصمة الدولة الزيانية (تلمسان): (الشكل رقم: 07)

تحتوي مدينة تلمسان على خمسة أبواب رئيسية واسعة،³ تمتد على جانبي كل منها مراكز حراسة كأبراج صغيرة مربعة الشكل لمراقبة المناطق المجاورة، يوجد داخل هذه الأبواب حجرات أين يقيم فيها الموظفون والحراس وجامعوا الضرائب (رجالا ونساء)، بالإضافة إلى بيوت لمزارعي

¹ يحي ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 20.

² عبد العزيز فيلاي، ج 1، مرجع سابق، ص ص 111 - 112.

³ ينظر: البكري، المسالك والممالك...، ج 2، مصدر سابق، ص 259. - يحي ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 19. - الحميري، مصدر سابق، ص 135. - Willaim marçais. Op. cit. p14.

المداخل،¹ تأسست هذه الأبواب بعد دمج المدينتين وأحيط بها سور واحد،² مصفحة بالحديد ومدعمة بحصون قوية للزيادة من صعوبة اختراقها، ولها مصاريع حديدية تغلق بها،³ وهذه الأبواب الرئيسية هي:

2. 2. 1 باب العقبة:

يقع في شرق المدينة وهو الباب القديم الذي بقي قائماً منذ تأسيس مدينة أكادير، بني بأحجار من بقايا الرومان.⁴

2. 2. 2 باب سيدي الحلوي:

يقع في شمال المدينة واتخذ أسماء عديدة مثل باب الزاوية نسبة إلى زاوية سيدي الحلوي وباب علي.⁵

2. 2. 3 باب القرمادين:

يقع في شمال غربي تلمسان ويعتبر الحصن الدفاعي الأساسي الذي يحمي مداخل المدينة من هذه الناحية التي تحتوي على المنية، والملعب الذي كان محطة لعساكر مرين من الجهة الغربية، ويبدو أن هناك أفران لصناعة الفخار والأجر والقرميد بالقرب من الباب لهذا تم تسميته الباب بهذا الاسم.⁶

¹ ينظر: حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 20. -مارمول كريخال، ج 2، مصدر سابق، ص 299. -عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 112.

² ينظر: يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 20. -الحميري، مصدر سابق، ص 135. -عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 112.

³ ينظر: حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 20. -عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 112.

⁴ ينظر: البكري، المسالك...، ج 2، مصدر سابق، ص 259. -الحميري، مصدر سابق، ص 135.

⁵ عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 112.

⁶ ينظر: ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 399. -الناصر، ج 3، مرجع سابق، ص 105. - أمحمد جبرون، مرجع سابق، ص 268.

2. 2. 4 باب كشوط:

أمر يغمراسن ببنائه وتحصينه بأبراج وأسوار عالية ومعناه باب الأكشاك وعرف فيما بعد بباب فاس والآن يسمى باب سيدي بوجمعة،¹ يقع في الجهة الغربية من المدينة في طريق المنصورة لهذا كان مدخلا لجيوش بني حفص أثناء حملاتهم العسرية على تلمسان،² دفن خارج هذا الباب الشيخ الفقيه سيدي أبي الحجاج يوسف بن إسماعيل الشهير بالزيدوري المتوفى سنة (845هـ/1441م).³

2. 2. 5 باب الجياد:

يقع في الجهة الجنوبية من المدينة،⁴ كانت خارج هذا الباب مقبرة ضمت الكثير من علماء تلمسان منهم أبو العباس أحمد، يقول صاحب البستان عن قبره: "وقبره مشهور بالمرج ما بين الأسوار وخارج باب الجياد وبقره من الخير ما يقصد للتبرك والدعاء عنده"،⁵ والشريف الحسني والشيخ يوسف السنوسي الحسني، وأبي عبد الله محمد الشريف إمام مسجد الخراطين،⁶ ولقد أورد ابن الخميس ذكره في مدح تلمسان:

وسح على ساحات باب جيادها ملث يصابي تربها ويصافح.⁷

كما أورد هذا الباب في قصيدة الثغري الذي مدح فيها السلطان أبو حمو، ووصف فيه مدينة تلمسان:

تاهت تلمسان بدولته في كل البلاد بحس منظرها الجلي

¹ ينظر إحالة: القلصادي، مصدر سابق، ص 101. -محمد بن رمضان شاوش، ج 1، مرجع سابق، ص 162.

² الزركشي، مصدر سابق، ص 29.

³ القلصادي، مصدر سابق، ص ص 100 - 101.

⁴ يحي ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 19 - 20.

⁵ ابن مريم، مصدر سابق، ص 28.

⁶ القلصادي، مصدر سابق، ص ص 99 - 100.

⁷ يحي ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 11.

راقت محاسنها ورق نسيماها فحلا بها شعري وطاب تغزلي
عرج بمنعرجات باب جياها وأفتح باب الرجاء المقفل.¹

الجدير بالملاحظة أن الأسماء القديمة لأبواب مدينة أكادير قد تغير بعضها بعد دمج مدينتي تلمسان القديمة والحديثة، خاصة من الناحية الجنوبية التي كانت تحتوي على ثلاثة أبواب: باب الحمام، باب وهب، وباب الخوخة،² وصارت تحتوي على باب واحد فقط، وقد اختفى البابان المتبقيان وأضيف للمدينة بابان جديان من جهة الشمال، والشمال الغربي لأسباب إستراتيجية وأمنية ولم يبق من الأبواب القديمة إلا باب العقبة في الشرق،³ ويبدو أن المدينة احتفظت بالأبواب الداخلية التي تربط بين المدينتين كما كانت في السابق، مثل باب أبي قرة في الجهة الغربية الذي أورد ذكره الحميري نقلا على البكري،⁴ وباب زيري وباب الرواح من الجهة الشمالية والغربية لمدينة أكادير.⁵

تشير بعض النصوص التاريخية إلى احتمالية إمتلاك مدينة تلمسان لعدد أكبر من الأبواب قد تصل إلى ثلاثة عشر بابا مثلما عددها أبو الفداء، لكنه لم يقم بتحديد مواقعها وأسمائها،⁶ ومن المحتمل أن هذه الأبواب قد اندثرت قبل عهد بني زيان، أو كانت ثانوية مخفية على شكل أنفاق صغيرة يستخدمها الجند ورجال الدولة عند الحاجة، مثل باب الأرواح الذي يقع في الشمال ويضم ممرات مغطاة بالأقواس توصل تآكرات بأكادير ولا يزال قائما إلى يومنا هذا،⁷ وقد رجح سيدي محمد نقادي أنه هو نفسه باب أبي قرة وحجته لذلك أنه الباب الوحيد بأكادير الموجود باتجاه الغرب.⁸

¹ القلصادي، مصدر سابق، ص 100.

² ينظر: البكري، المسالك والممالك...، ج 2، مصدر سابق، ص 159. -الحميري، مصدر سابق، ص 135.

³ عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 113.

⁴ ينظر: البكري، المسالك والممالك...، ج 2، مصدر سابق، ص 159. -الحميري، مصدر سابق، ص 135.

⁵ عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 113.

⁶ أبو الفداء، مصدر سابق، ص 137.

⁷ محمد بن رمضان شاوش، ج 1، مرجع سابق، ص 161.

⁸ سيدي محمد نقادي، الخطة العمرانية لمدينة تلمسان ودلالاتها الاجتماعية، كنوز للإنتاج والنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص 20.

2. 3 حصون الدولة الزيدانية:

تعكس الحصون الزيدانية امتداد المجال الحدودي للدولة وكان هذا المجال يؤول إلى التقصص عند تخريب هذه الحصون وإجفال الجيوش الزيدانية عنها بعد سيطرة العدو، يعرفه أبو حمو موسى الثاني: "أن يكون حصنا حصينا لا يرام... قد اشتمل على الماء، والاختزان والعدد والمكان، جعل فيه ذخائر وأموالك وأثاثك وأمتعتك وأثقالك... تسكن فيه أجود أجنالك وحمايك وقوادك، تشحنه بالرجال والرماة المرتجلة، والزعماء من الرجال... وليكن غرس ذلك الحصن ما يكون به الانتفاع مثل التين والزيتون وما قارب هذه الأنواع".¹

يشير هذا النص إلى توصيات أبو حمو موسى التي تركها لابنه يحثه فيها على اتخاذ الحصون كوسيلة دفاعية رئيسية مشددا على ضرورة حصانة المعقل وضمان قدرته على الصمود، بالإضافة إلى ذلك أوضح أبو حمو موسى أن الشرط الأساسي للحصن الفعال هو احتواؤه على ضروريات الحياة، مثل الغذاء والماء وغيرها من الموارد الأساسية التي تضمن استمرار الحياة داخله لفترات طويلة.

فالحصون الزيدانية لم تكن مجرد منشآت عسكرية فحسب بل كانت تلعب أدوارا متعددة في وقت السلم والحرب على حد سواء، فقد كانت تستخدم كأماكن إقامة للجيوش والمحاربين مما وفر لهم مكانا آمنا للراحة والتجهيز قبل وأثناء الحملات العسكرية، كما كانت هذه الحصون تعتبر ملاذا آمنا للسكان المدنيين في أوقات الحروب والنزاعات، حيث يمكنهم الاحتماء فيها والاعتماد على الموارد المتوفرة داخلها للبقاء على قيد الحياة.

تتمثل أهمية هذه الحصون أيضا في قدرتها على توفير الحماية والتسهيلات الضرورية للجنود والعامة، مما جعلها عنصرا حاسما في الاستراتيجيات الدفاعية والهجومية على حد سواء، وقد تجلّى ذلك بوضوح خلال فترات الصراع حيث كانت الحصون الزيدانية ملاذا حيويا يعتمد عليه الجميع من المحاربين إلى المدنيين لضمان الاستمرارية والبقاء في أوقات الأزمات.

¹ أبو حمو موسى، مصدر سابق، ص 154.

وبالموازاة مع التعريف الذي قدمه أبو حمو موسى فإن تلمسان تتطبق عليها جميع الأوصاف وشروط الحصن الحصين، فضلا عن ذلك أنه تم ذكرها باسم حصن تلمسان في إحدى مراسلات السلطان أبو تاشفين الأول لصاحب مصر سنة (725هـ / 1325م): "إنا كتبناه إليكم كتب الله لكم أنجح المقاصد وأرجحها، وأثبتها عزا وأوضحها من حصن تلمسان حرصها الله"،¹ ومن الحصون الأخرى للدولة الزيانية سواء من تشييد سلاطينها أو ورثوها من سابقهم:

2. 3. 1 حصن إيسلي:

يوجد به القصر المعروف بقصر إيسلي،² المحاط بالأسوار يعود تاريخ بنائه إلى عهد الرومان، بنيت هذه الأسوار من الحجر المنحوت ذات ارتفاع شاهق ومنيع، مكنته من تحمل المخاطر التي مرت عليه والتحديات العسكرية على مر حقبات زمنية متفاوتة، يقع هذا الحصن بين منطقتي أنكاد وإقليم تلمسان، واتخذ هذا الاسم -حصن إيسبي- نسبة إلى الوادي الذي هناك، استخدمه بنو زيان كقاعدة عسكرية لمواجهة هجمات عرب الصحراء في الماضي.³

كان واد إيسلي مسرحا لحروب بني زيان مع بني مرين نتيجة للاعتماد على عنصر الماء في الخطط الحربية وتسمت أول المعارك النظامية بين الفريقين بهذا الاسم،⁴ كان هذا الحصن مأهولا بالسكان الجدد الذين استقروا فيه، ولكن في فترة حكم يوسف أبو يعقوب تعرض للتخريب ودمرت جميع أسواره، وظل خاليا لعدة سنوات.⁵

ومع مرور الوقت عاد النشاط إلى الحصن عندما جاء النساك واستقروا فيه مما أعاد الحياة إلى هذا الموقع التاريخي، يعد حصن إيسلي أحد الشواهد الباقية على الحضارات التي مرت على المنطقة، بدءا من الرومان وصولا إلى العصور الإسلامية، إذ يظهر الحصن الهندسة

¹ القلقشندي، ج 8، مصدر سابق، ص 86.

² حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 12.

³ مارمول كربخال، ج 2، مصدر سابق، ص ص 293 - 294.

⁴ **ينظر:** ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص 76 - 78. -الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 16. -

عبد الفتاح مقلد الغنيمي، ج 5، مرجع سابق، ص 210.

⁵ مارمول كربخال، ج 2، مصدر سابق، ص ص 293.

المعمارية المتقدمة لتلك العصور من حيث استخدام الحجر المنحوت وتقنيات البناء المرتبطة بالفترة الرومانية، ومدى صموده إلى غاية فترة حكم بنو زيان.¹

ولقد لعب حصن إيسلي دورا محوريا في الدفاع عن المنطقة ضد الهجمات الخارجية وخاصة من عرب الصحراء، كما كانت الحامية الموجودة في الحصن مسؤولة عن مراقبة التحركات العسكرية وتأمين الحدود، مما جعله قاعدة إستراتيجية مهمة لحماية المنطقة.²

علاوة على ذلك يعكس هذا الحصن تأثير الحضارة الرومانية في المنطقة، حيث تم إعادة استخدام المواقع الرومانية القديمة وتكييفها مع الاحتياجات العسكرية والسياسية الجديدة لبني زيان.

2. 3. 2 حصن أصفون:

شيد هذا الحصن بالقرب من مدينة بجاية بأمر من السلطان أبو حمو موسى الأول بهدف تعزيز التوسع وضمان الهيمنة على المدينة، حيث تم تزويده بمختلف المؤن والحاجيات الضرورية على غرار بقية الحصون الأخرى ليكون قاعدة قوية تدعم الطموحات التوسعية للدولة الزيانية، ترجع أسباب بناء هذا الحصن إلى مطاردة كل من أبو حمو موسى وكاتبه عبد الله بن هلال لراشد بن محمد بن ثابت بن منديل الفار إلى شلف ثم إلى بجاية.³

وبعد ذلك أرسل سلطان بني زيان الجيوش بقيادة مسعود بن إبراهيم في حملة توسعية نحو الشرق قام خلالها بأعمال عسكرية واسعة النطاق امتدت إلى بلاد بونة سنة (714هـ/1314م)، وخلال الحملة تم المرور على قسنطينة أين أقاموا بها بضعة أيام ثم صعدوا إلى جبل ابن ثابت المطل على المدينة واستباحوه وواصلوا تقدمهم إلى أورار، حيث أشعلوا النيران في المدينة ودمروا كل ما مروا عليه وبنوا حصنا في موضع أصفون ليكون قاعدة لعمليات أبو حمو، تتم مهاجمة بجاية من خلاله حيث تجول القوات في ساحات المدينة، ثم تعود إلى هذا الحصن.⁴

¹ حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 12.

² نفس المصدر، نفس الصفحة.

³ ينظر: يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص ص 129 - 130. -التنسي، مصدر سابق، ص 147.

⁴ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص ص 137 - 138.

2. 3. 3 حصن تامزديكت:

اختلفت المصادر التاريخية في تسمية هذا الحصن فقد أطلق عليه أسماء مختلفة مثل قلعة تامزجرت¹ وتاميزديت² وتيمزرجت³ وتامزديكت⁴ وتيمزديكت⁵ والتي تعني جميعها (المصفاة) تشير النصوص التاريخية إلى وجود حصنين يتبعان لبني زيان يحملان نفس الاسم، أحد هذين الحصنين يقع في الجهة الغربية يعود وجوده إلى عهد يغمراسن بن زيان يقع بالقرب من وجدة، ولقد كان هذا الحصن بمثابة ملاذ يحمي فيه يغمراسن خلال الحملات العسكرية، ما يؤكد ذلك أنه لجأ إليه عند زحف الخليفة الموحي السعيد للانتقام منه⁶ لكنه خلال القرن العاشر للهجري فقد هذا الحصن مكانته العسكرية والتاريخية، بعد أن وقع في أيدي الأعراب يقول في هذا الصدد حسن الوزان: "فإنه أصبح شبه إسطل، لا يدخرون فيه سوى قمحهم ويزداع جمالهم، وقد هرب السكان من جراء تعسفاتهم".⁷

أما الحصن الآخر فيقع في الجهة الشرقية قرب بلدية القصر على بعد حوالي خمس وعشرين كيلومترا (25 كيلومترا) من مدينة بجاية على الطريق الوطني الرابط بين بجاية والعاصمة الجزائر،⁸ تم بناء هذا الحصن على أنقاض مدينة رومانية قديمة في عام (726هـ/1327م) على يد أبو تاشفين الأول، الذي استغرق بناءه أربعين يوما،⁹ خلال حملاته العسكرية المكثفة في المناطق الشرقية، مطلقا عليه اسم تاميزديكت تيمنا بالحصن القديم الذي كان لبني عبد الواد وقد عززه بقوة عسكرية قوامها نحو ثلاثة آلاف جندي، وأصدر أوامره إلى ولايته في بلاد المغرب الأوسط بتوفير

¹ ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 293.

² التنسي، مصدر سابق، ص 153.

³ ينظر: إحالة يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 113.

⁴ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 145. - يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 113.

⁵ حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 11.

⁶ ينظر: ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 293. - يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 113-114.

⁷ حسن الوزان، مصدر سابق، ج 2، ص 12.

⁸ ينظر: إحالة بلال زيتوني، مرجع سابق، ص 217.

⁹ ينظر: يحيى ابن خلدون، مصدر سابق، مج 1، ص 137. - التنسي، مصدر سابق، ص 153.

الإمدادات الغذائية، بما في ذلك الحبوب والأدم وسائر الضروريات حتى الملح لضمان استدامة موقعه الاستراتيجي.¹

يبدو أن تسمية الحصن بهذا الاسم كانت تعبيراً عن الانتصار الذي حققه بنو زيان على الخليفة السعيد الموحدي،² وأملاً في تحقيق أبو تاشفين انتصارات مماثلة في الجهات الشرقية وخاصة في بجاية، وقد نال الحصن الشرقي اهتمام المؤرخين بشكل أكبر من الحصن الغربي فقد تم بناءه على توصيات يغمراسن لابنه عثمان التي تقتضي على التوسع نحو الجهة الشرقية وتجنب الصدامات العسكرية المباشرة مع الدولة المرينية، ولقد كان مشروع التوسع العسكري لبني زيان في الجهات الحفصية قد بلغ ذروته في عهد أبو تاشفين الأول، إذ شهدت السنوات الثمانية الأولى من حكمه ضغوطات عسكرية مكثفة على الدولة الحفصية، استخدم أبو تاشفين هذا الحصن كقاعدة لضرب المناطق الشرقية للدولة الحفصية في سياق توسعاته العسكرية.³

2. 3. 4 حصن بكر:

يعود سبب بناء هذا الحصن إلى الفتنة الداخلية التي نشبت بين القادة الذين أرسلهم أبو حمو موسى لحصار بجاية بعد تصاعد التنافس بينهم، خاصة بعد عزل السلطان الزياني محمد بن يوسف عن مليانة، فدفع هذا الإجراء بمحمد إلى الانقلاب على أبو حمو من خلال انضمامه إلى قبائل بني توجين ومغراوة، مما أدى إلى تفاقم الفوضى والقتال ضد بني عبد الواد.⁴

تحت وطأة هذه الأحداث صرف أبو حمو اهتمامه مؤقتاً عن بجاية لملاحقة محمد، وبالفعل تمكنت قوات ابنه أبي تاشفين الأول من قتله بالرمح وتعليق جثته على شرفات المدينة في سنة (719هـ/1319م)، فحروب أبو حمو في المناطق الشرقية والصراع المستمر مع الحفصيين شغلاه عن إعادة بناء حصن أصفون المهدوم، فضلاً عن المشاكل الداخلية والتي أسفرت عن مقتله على

¹ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، مصدر سابق، ج 7، ص 144.

² ينظر: الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 13. -شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص 203.

³ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 144. -محمد أحمد إسماعيل، مرجع سابق، ص ص 178 - 179.

⁴ التنسي، مصدر سابق، ص 148.

يد أحد أبنائه وبدلاً من ذلك قام ابنه ببناء حصن بكر،¹ لنفس الأسباب التوسعية المذكورة سلفاً سنة (721هـ/1321م)، فكان هذا الحصن جزءاً من استراتيجياته العسكرية لحماية دولته من غارات بني حفص من الجهات الشرقية ونقطة هجوم على ممتلكات هذه الأخيرة، فضلاً عن تعزيز السيطرة على المناطق المتنازع عليها كجبابة وأحوزاها.²

2. 3. 5 حصن الياقوتة:

يقع هذا الحصن في مصب نهر الزمام بالقرب من بجاية أمر بتشبيده أبو تاشفين الأول وهو آخر حصن قام بتشبيده، إثر أحد حملاته على مدينة بجاية سنة (729هـ/1329م).³

وعليه فلقد كانت إستراتيجية بناء الحصون جزءاً من خطة سلاطين بني زيان لتأمين الحدود وتوفير قواعد متقدمة تدعم حملاته العسكرية، فالحصون التي بناها أبو تاشفين وسابقه لم تكن مجرد منشآت دفاعية، بل كانت رمزا للقوة والهيمنة العسكرية في وجه الأعداء الداخليين والخارجيين على حد سواء، كما يعكس اهتمام القادة بتأمين خطوط الدفاع وتحصين المواقع الإستراتيجية، فضلاً عن أنها كانت مراكز إدارية تساهم في تعزيز السيطرة على المناطق المحيطة بها، كما كانت هذه الحصون مراكز لجمع الضرائب وتوفير الخدمات اللوجستية للجيش، لكن معظم هذه الحصون تعرضت للتخريب نتيجة لحالة الحرب الدائمة التي عرفتھا الدولة الزيانية، وهناك من الحصون من ألغيت أدواره العسكرية، لعدم فعاليتها وليس نتيجة لتخريبها من طرف القوى الخارجية.

¹ يحي ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 131 - 132.

² عبد الفتاح مقلد الغنيمي، ج 5، مرجع سابق، ص 176.

³ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 145. -روبار برونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص 179.

2. المنشآت الحربية المرينية

كانت مدينة فاس في عهد الأدارسة عبارة عن عدوتين: عدوة القرويين وعدوة الأندلسيين،¹ أطلق عليها ثلة من الجغرافيين اسم فاس العتيقة،² أو فاس البالي،³ عند تملك المرابطين المغرب هدموا السور الفاصل بين المدينتين،⁴ وبعد تملك المرينيين المغرب الأقصى شاد أبو يوسف يعقوب المدينة البيضاء بمحاذاة فاس العتيقة عام (674هـ/1275م)،⁵ والثانية مدينة حمص (باسم المدينة السورية) لأنه كان يأوي بها الرماة المنتمين إلى هذه المنطقة من الشام بنيت بالملاح على يد أبو السعيد عثمان المريني عام (710هـ/1310م)، بالإضافة إلى ربض النصارى الذي يسكنه طائفة إفرنجية (ميليشيا مسيحية) مختصة بخدمة السلطان،⁶ قيل أنهم يتقاضون أجورا باهظة،⁷ ويطلق على هذه الثلاث المتخذات اسم فاس الجديدة.⁸

3. 1 الأسوار:

تميزت أسوار الدولة المرينية عن أسوار بلاد المشرق في أشكالها الغير منتظمة وشبه مستطيلة تتماشى وطبيعة الأرض المشيدة عليها إذ تكاد أن تكون كلها مشيدة على التلال،⁹ وكانت

¹ ينظر: مؤلف مجهول، الاستبصار...، مصدر سابق، ص 18. -ياقوت الحموي، ج 4، مصدر سابق، ص 230

² العمري، ج 4، مصدر سابق، ص 91.

³ مارمول كربخال، ج 2، مصدر سابق، ص 155

⁴ ينظر: الجزنائي، مصدر سابق، ص 41. -مؤلف مجهول، الاستبصار...، مصدر سابق، ص 180. -حسن الوزان، ج 1، مصدر سابق، ص 221. -مارمول كربخال، ج 2، مصدر سابق، ص 144.

⁵ ابن الأحمر، روضة النسر...، مصدر سابق، ص 19 - 20.

⁶ ينظر: العمري، ج 4، مصدر سابق، ص 89. -روجيه لوطورنو، فاس قبل الحماية...، ج 1، مرجع سابق، ص 101. -هالة عبد الرزاق، مرجع سابق، ص 36.

⁷ مارمول كربخال، ج 2، مصدر سابق، ص 156.

⁸ العمري، ج 4، مصدر سابق، ص 89.

⁹ حسن الوزان، ج 1، مصدر سابق، ص 221.

كثيرة الزوايا والمنعرجات الداخلية والخارجية كخطة حربية منهم غايتها استقطاب جند العدو للاختباء خلفها ثم تتم مفاجئتهم من فوق السور.¹

أثنت ثلة من المصادر الجغرافية على حصانة فاس التي تعتبر قاعدة بلاد المغرب الأقصى وقطبه،² فلعمري يقول: "وعلى كل من عتيقها وجديدها أسوار دائرة محصنة ذوات بروج وبدانات وجميع أبنيتها من الحجر والآجر والكلس موثقة البناء، ومشيدة الأركان... وتزيد فاس الجديد على فاس العتيقة في الحصانة والمنعة... بسورين"،³ وحسن الوزان وصفها وصفا دقيقا: "إن فاسا مدينة كبيرة جدا، تحيط به أسوار متينة عالية"،⁴ وفي موضع آخر يقول: "يحيط بفاس الجديد من جميع الجهات سوران في غاية الجمال والعلو والمتانة".⁵

وأشاد مارمول كربخال بسور فاس الجديد قائلا: "وله سور مزدوج متقن الصنع، ومحصن ببروج، على شكل قلعة يسكنه أكثر من ثمانية آلاف نسمة"،⁶ ويشير ارتفاع ومناعة أسوارها إلى رغبة مؤسسها في جعلها قلعة حصينة تكون كفيلة لردع الآلات الحربية، فضلا على أنها بنيت من الطين المفرغ بالقالب من التراب والرمل والكلس المضروب وهو أشد من الحجر ولا تؤثر فيه فيه المجانيق،⁷ فأصبح الاقتراب إليها يلقي الروح في نفس العدو الذي قد يقبل عليها ويحمله على الحذر.⁸

كما تظهر المعطيات الواردة في المصادر التاريخية أن فاس البالي كانت تتميز بضعف نسبي في بنيتها الدفاعية مقارنة بفاس الجديد، ويستدل على ذلك من توصيفها كمدينة غير قادرة

¹ عبد العزيز صالح، أسامة طلعت عبد النعيم، سعاد محمد حسن، شامل محمد حلمي عباس، "أنواع التحصينات والاستحكامات الدفاعية للمنشآت الحربية الإسلامية في شمال المغرب في عصري الموحدين والمرينيين"، مجلة البحوث والدراسات الأثرية، ع 10، مصر، (من ص 507 إلى ص 536)، مارس 2022، ص 510.

² ينظر: مؤلف مجهول، الاستبصار...، مصدر سابق، ص 180. - الحميري، مصدر سابق، ص 434.

³ العمري، ج 4، مصدر سابق، ص 90.

⁴ حسن الوزان، ج 1، مصدر سابق، ص 221.

⁵ ج 1، نفس المصدر، ص 281.

⁶ مارمول كربخال، ج 2، مصدر سابق، ص 156.

⁷ العمري، ج 4، مصدر سابق، ص 90.

⁸ روجيه لوطورنو، فاس في عصر بني مرين...، مرجع سابق، ص 33.

على تأمين دفاع فعال عن محيطها، نظرا لقابليتها العالية للتعرض للهجوم من مسافات قصيرة ومن اتجاهات متعددة، إضافة إلى افتقارها إلى منظومة تحصينية ملائمة سواء من حيث البنى الدفاعية الثابتة أو المساحات الاستراتيجية الكفيلة بتموضع المدفعية والوحدات القتالية المتخصصة.¹

ويعزى هذا الضعف إلى محدودية تحصينها وسهولة عزلها ميدانيا ما جعلها أكثر عرضة للحصار والاختراق العسكري،² وبما أن المدينة الجديدة محاطة بسورين فهذا يعني أن المدينة تملك سورا داخليا والآخر خارجي، الأول من المؤكد شاده أبو يوسف يعقوب إثر تأسيسه لهذه المدينة،³ كما تشير الدراسات المعمارية والتاريخية إلى أن السور الداخلي لمدينة فاس الجديد لا تزال بقاياه قائمة حتى يومنا هذا.⁴

وثق محمد المنوني بقايا السور لداخلي مشيرا إلى أنها تبدأ من جهة باب الجياف وتمتد عبر ممر بوطويل حتى نهاية سوق فاس الجديد بالقرب من البوابة المؤدية إلى بستان العمومي (جنان سبيل)، ثم يظهر هذا السور مرة أخرى أمام باب معمل السلاح الحسني ثم ينعطف خلف القصر الملكي ويحيط به من الخارج في شكل قوس ليتصل لاحقا بباب السمارين.⁵

3. 1. 1 الوصف المعماري والتفاصيل الهندسية للسور الداخلي: (الملحق رقم: 09)

بناء على الدراسة الميدانية التي قام بها الباحث محمد عياش يتميز السور الداخلي بسماكة تبلغ حوالي مترين (2 متر)، بينما يصل ارتفاعه إلى حوالي سبع أمتار (7 أمتار) في المتوسط وينتهي السور بشرفات هرمية يبلغ طولها حوالي تسعين سنتمترا (90 سنتيمتر)، وتشير هذه الدراسة

¹ مارمول كربخال، ج 2، مصدر سابق، ص 158.

² مؤلف مجهول، زهر البستان...، ج 2، مصدر سابق، 147.

³ ابن الأحمر، روضة النسر...، مصدر سابق، ص 20. -روجيه لوطورنو، فاس في عصر بني مرين...، مرجع سابق، ص 96.

⁴ ينظر: محمد المنوني، وراقات...، مرجع سابق، ص 44. -محمد عياش الاستحكامات المرينية من خلال مدينتي فاس الجديد، والمنصورة بتلمسان "دراسة تاريخية وأثرية"، إش صالح يوسف بن قرية، مذكرة ماجستير في الآثار الإسلامية، جامعة الجزائر، الجزائر، (2006/2005)، ص 57. -رضوان السائح، مرجع سابق، ص 62.

⁵ وراقات...، مرجع سابق، ص ص 44 - 45.

إلى أن عرض الدورية التفتيشية حوالي متر ونصف (1.5 متر) ويتقلص إلى متر وربع (1.25 متر) عند الأبراج، بينما يتقلص إلى تسعين سنتيمترا (90 سنتيمتر) عند الحائط الذي يعمل كحاجز خاص لطريق الدوريات بارتفاع خمسين سنتيمترا (50 سنتيمتر)، وعرض تسعين سنتيمترا (90 سنتيمتر)، كما تم تحديد أبراج دفاعية على طول السور حيث توجد على مسافة كل ثلاث وعشرين مترا (23 متر) في بعض الأحيان وست وعشرون متر (26 متر) في أحيان أخرى وتتراوح أبعاد جوانب الأبراج بين سبع ونصف إلى ستة أمتار ومائة سنتيمتر (7.5 إلى 6.10 متر) في بعض النواحي، بينما تبلغ في النواحي الأخرى حوالي أربع أمتار وثمانية مائة سنتيمترا (4.80 متر) وتبرز الأبراج حوالي مترين ومأتي سنتيمترا (2.20 متر) عن السور.¹

يمثل هذا السور جزءا أساسيا من البنية الدفاعية لمدينة فاس الجديد حيث كان يلعب دورا حيويا في حماية المدينة من الهجمات الخارجية، ويمثل هذا التحليل التفصيلي للمعمار والتصميم الهندسي للسور أهمية كبيرة في فهم كيفية تطور الأنظمة الدفاعية في العصر الوسيط بالمغرب الأقصى.

3. 1. 2 السور الخارجي: (الملحق رقم: 10)

يظهر هذا السور من الجانب الذي يقع غرب ساحة التجارة ويمر وراء الملاح إلى باب الجياف، ثم يحيط بالبلد الجديد مطلا على شارع الحرية وينعطف حتى يشرف على البستان العمومي إلى أن يتصل بباب السبع، ويلاحظ أن هيئة هذا السور تبدو على شكل مخروط عند نهاية شارع الحرية، كدلالة على أن هذا القسم من البلد أضيفت له زيادات مرينية ناشئة عن تكاثف السكان في هذه الناحية،² وبني بجوار باب السور الثاني من الجهة الغربية رواقا كبير جدا يحتوي على العديد من الحجرات الصغيرة لحرس المدينة والجند وعماله واصطبل كبير للخيول.³

لم تكن المسافة الواسعة التي هي بين السور الداخلي والخارجي بها منازل قصد إعطاء المدافعين مساحات تمكنهم من التنقل والعمل بسهولة إذا ما داهمهم الخطر، بينما كانت تزرع فيها

¹ محمد عياش، مرجع سابق، ص 57.

² محمد المنوني، ورقات...، مرجع سابق، ص 45.

³ حسن الوزان، ج 1، مصدر سابق، ص 282.

الأشجار والزهور وحتى الخضار على كافة محيطه، وتقوم بها بضع صناعات مهمة مثل صناعة الفخار، ومعاصر الزيتون وغيرها،¹ وكانت توضع بين سوري المدينة عدة طاحونات (عدها كربخال نحو 15 طاحونة).²

لم يهتم بني مرين بتشييد أسوار عاصمتهم فقط بل أولوا عناية ببناء الأسوار على المدن التابعة لدولتهم، من ذلك ما شاهده أبو الحسن في شالة -منطقة تابعة للرباط- فأحاطها بسور مخمس أعطى للرباط مظهرا من العظمى طوله ثلاث مائة متر (300متر) وعرضه ثمانين مترا (80متر) مبني من البلاط الغليظ المغطى بطلاء أبيض شيد عليه عشرين برجاً،³ وبناءه لسور مدينة سلا المعروف باسم سور الأقواس من المباني العادية والهياكل العظيمة التي تدل على فخامة الدولة وكمال قوتها مثل ما يقال على حنايا قرطاجنة ونحوها، وهذا السور مسوق من عيون البركة خارج مدينة سلا على أميال كثيرة، يأتي جريان الماء فوقه على استواء.⁴

3. 2 أبواب مدينة فاس:

أورد أبو الفداء أن لمدينة فاس (العتيقة والجديدة) ثلاثة عشر باباً،⁵ ولفاس الجديدة وحدها ثمانى أبواب موزعة توزيع شبه متساوي حسب الحاجة والمنطقة،⁶ وذلك لتسهيل حركة الداخلين والخارجين عبرها والاتصال بالمناطق الأخرى والمجاورة لها وبأرضيها،⁷ ولقد استخدمت مرين تصميمات معمارية للأبواب تتماشى والإستراتيجيات العسكرية الدفاعية لذلك كانت الأبواب هي الجزء الوحيد المصنوع من الحجر المقصوب في السور، مما يفضي على الباب قوة ومتانة إضافية يقع بين برجين لتوفير مستوى عالي من الحماية والتحكم في حركة الدخول والخروج، كما يؤدي هذا الباب إلى مجموعة من الممرات المتعرجة استخدمت للزيادة من تعقيد وإبطاء دخول الغازي

¹ روجيه لوطورنو، فاس في عصر بني مرين...، مرجع سابق، ص 40.

² مارمول كربخال، ج 2، مصدر سابق، ص 159.

³ شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص 240.

⁴ الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 176.

⁵ أبو الفداء، مصدر سابق، ص 133.

⁶ روجيه لوطورنو، فاس في عصر بني مرين...، مرجع سابق، ص 39.

⁷ البشير بوقعدة، خطة الحصار...، مرجع سابق، ص 181.

أو العدو للمدينة، بغية توفير الوقت الكافي لتنظيم ردود الفعل الدفاعية،¹ وكأن المدينة بدلت جهدها لإفشال من يأتيها من هناك حسب تعبير روجيه لوطورنو.²

غطيت معظم الأبواب بأقنية ذات زوايا بارزة تساعد على توزيع الضغط على الجدران بشكل أفضل مما يجعل الهياكل أكثر متانة واستقراراً،³ ولقد أورد مارمول كربخال أن لفاس الجديد: "بابان رئيسيان أحدهما يفضي إلى المدينة القديمة، والآخر يوجد فيه سقيفة، وحرس الملك، وهناك باب ثالث في الداخل أكثر، يسير بين حواجز السورين".⁴

3. 2. 1 أبواب فاس الجديد

سيتم فيما يلي عرض أبواب مدينة فاس الجديد والتي ارتبطت في الغالب بوظائف متعددة وحملت أسماؤها دلالات تاريخية واجتماعية، تعكس طبيعة التطورات السياسية للمدينة خلال الحقبة المرينية، من هذه الأبواب:

3. 2. 1 أبواب السور الداخلي:

من أبواب السور الداخلي لمدينة فاس الجديد:

1) باب السمارين: (الملحق رقم: 11)

هو أحد الأبواب الرئيسية والأكثر تحصيناً يقع في الطرف الجنوبي للطريق الكبرى،⁵ يؤدي إلى مدينة فاس الجديد، ابتناه بني مرين أيام تأسيس المدينة وكان يعرف سابقاً باسم باب عيون صنهاجة،⁶ نسبة إلى إحدى القبائل الأمازيغية الكبرى وتعود تسمية الباب باسم باب السمارين إلى وجود سوقاً للحرفيين كانوا يصنعون الصفائح الحديدية للخيول والدواب، وهناك روايات أخرى تربط الاسم بالحراس الليليين الذين كانوا يمضون ليلتهم في المسامرة وتبادل الأحاديث، يتميز هذا الباب

¹ جورج مارسويه، الفن الإسلامي، تر عبله عبد الرزاق، مر عاطف عبد السلام، المركز القومي للترجمة، ط 1، القاهرة، مصر، 2016، ص 229.

² روجيه لوطورنو، فاس قبل الحماية...، ج 1، مرجع سابق، ص 145.

³ جورج مارسويه، مرجع سابق، ص 229.

⁴ مارمول كربخال، ج 2، مصدر سابق، ص 158.

⁵ روجيه لوطورنو، فاس قبل الحماية...، ج 1، مرجع سابق، ص 103-154.

⁶ ابن الأحمر، روضة النسرين...، مصدر سابق، ص 20.

بقيته المعمارية الفاخرة والتي تتجلى في التشكيلات الزخرفية المتناغمة التي ميزت أبواب فاس عن باقي أبواب مدن المغرب الأخرى - ذات الوظيفة الدفاعية العسكرية¹.

ما يميز هذا الباب عن غيره هو مدخله المنعرج ذو السقيفة المقببة، ولا زالت واجهته الخارجية تحتفظ بجزء من أصلاتها المتشكلة من قوس كبير على شكل حذوة الفرس يتبعه قوس زخرفي متعدد الفصوص، يحيط بالباب برجان ضخمان على شكل مربع يبلغ طول ضلعهما خمسة أمتار (5 أمتار)، وارتفاعهما يصل إلى ثمانية أمتار (8 أمتار) وعمقهما يصل إلى عشرة أمتار (10 أمتار)، مما يعزز مناعته وقدرة دفاعه، وهو يفصل باب السمارين بين حي الملاح وفاس الجديد².

إذا كان هذا الباب يظهر في شكل قوسين بممر مستقيم فإن تخطيطه الأصلي كان يماثل باب محروق بفاس البالي، إذ يشتمل على ممر منكسر مكون من أربعة غرف اثنان منهما مفتوحتان لتوفير الضوء، واثنان تعلوهما قبتان اسطوانيتان من الحجار المصقولة وبنيت العقود الفاصلة بين هذه الغرف بالأجر المحمول على الخشب³.

(2) باب الوادي:

يقول ابن الأحمر: "ولما تم سورها بنى بها قصره والجامع الأعظم، والسوق الذي حده من باب القنطرة التي يقال لها الآن باب الوادي المصابقة لباب السبع.... وهذه المدينة يأتيها الوادي المعروف بوادي الجواهر..."⁴.

من خلال استقراءنا لهذا القول نستنتج أن هذا الباب يقع على حد سوق فاس الجديد مصاقبا لباب السبع والذي كان يعرف باسم باب القنطرة إلى أن تم تغيير اسمه خلال عصر ابن الأحمر، ومن المؤكد أن هذا الباب أخذ هذه الأسماء نسبة لوقوعه على مجرى مائي ومن المرجح أن هذا

¹ رضوان السائحي، مرجع سابق، ص 62.

² **ينظر:** محمد لموكي، العمارة الدفاعية بفاس المرينية (الشواهد المادية والموروثات الشعبية، إصدارات معهد الشارقة للتراث، ط 1، الإمارات العربية المتحدة، 2019، ص 105. -رضوان السائحي، مرجع سابق، ص 62.

³ محمد لموكي، مرجع سابق، ص 105.

⁴ ابن الأحمر، روضة النسر...، مصدر سابق، ص 20.

الواد أو النهر هو وادي الجواهر، وربما باب القنطرة هو نفسة باب الصرف الذي اتخذ هذه التسمية لقربه من دار السكة الواقعة بمحاذاة القصر الملكي والسوق، استنادا إلى قول حسن الوزان: "ويوجد بالقرب من القصر الملكي معمل ضرب النقود... ويقع بقرب دار السكة سوق"،¹ وهو نفس الوصف الذي قدمه ابن الأحمر لباب الوادي، يقول الجزنائي في هذا الصدد: و"كان يدخل منه إلى القصبة الموحدية ربما كان هو الباب الواقع بين قصر البطحاء وباب الشمس الذي يدخل منه إلى قصبة بو جلود، أو باب الشمس منه".²

3. 2. 1. أبواب الأسوار الخارجية:

من أبواب السور الخارجي لمدينة فاس الجديدة:

1) باب السبع: (الملحق رقم: 12)

أخذ هذا الاسم نسبة إلى صور السباع -الأسود- التي كانت مرسومة عليه وأصبح الباب فيما بعد يحمل اسم باب الدكاكين، يقع في شمال المدينة على مقربة من باب القنطرة إلى غرب المدينة، الواقع أمام مدخل دار المخزن ومنه يخرج إلى مشور المكينة وباب الساجمة (الساكمة)،³ وهو مدخل فاس الجديد من جهة المدينة القديمة.⁴

كان هذا الباب ضخما جدا على جانب منه زوجان من الأبراج المربعة مما جعله جديرا بأن يكون مدخلا إلى المدينة،⁵ ومن المؤكد أن باب السبع هو أحد الأبواب الرئيسية التي أورد مارمول كربخال ذكرها: "للمدينة الجديدة بابان رئيسيان... أحدهما يفضي إلى المدينة القديمة...".

¹ حسن الوزان، مصدر سابق، ج 1، ص 283.

² الجزنائي، مصدر سابق، ص 108.

³ **ينظر:** روجيه لوطورنو، فاس قبل الحماية...، مرجع سابق، ج 1، ص ص 144 - 145. -محمد لموكي،

مرجع سابق، ص 99. -رضوان السائحي، مرجع سابق، ص 64.

⁴ محمد المنوني، ورقات...، مصدر سابق، ص 46.

⁵ روجيه لوطورنو، فاس عصر بني مرين...، مرجع سابق، ص 37.

وهناك نهر آخر يسمى وادي فاس... ويدخل إلى فاس الجديد من الباب المؤدي إلى فاس البالي".¹

وتشير دراسة رضوان السائحي أن هذا الباب هو المقابل حاليا لباب القصر الملكي من جهة حي مولاي عبد الله يضم ثلاثة مداخل، كان في الأصل عبارة عن باب واحد ذو مدخل ملتوي وهو الموجود في الغرب وقد تم فتح الممر الأوسط عند ترميم الباب عام (1302هـ/1884م)، بينما تم فتح المدخل الواقع إلى الشمال بعد عام (1331هـ/1912م)، كما استفاد من ترميم نموذجي عام (1417هـ/1997م) وخضع لإضافات وإصلاحات لاحقة خصوصا عند بناء ساحة الحسن، يتكون حاليا من ثلاثة أقواس نصف دائرية محاطة ببرجين مبنية بالطوب الأحمر.²

(2) باب الجياد:

ويعرف أيضا بباب الجيف وتتطقه العامة باب الجياف نسبة إلى تكديس المخلفات، وفيها جياف الدواب -حمير وبغال- (أكرمكم الله)، يقع شرق باب السمارين.³

(3) باب الأمر: (الملحق رقم: 13)

من أقدم أبواب فاس الجديد شاده بني مرين خلال بناء عاصمتهم في الناحية الجنوبية منها يقع بين برجين مربعي الشكل، تشير دلالات تسمية هذا الباب -باب الأمر- القريبة للمعنى اللغوي الاصطلاحي، إما أنه كان بالقرب من ثكنات عسكرية تعطى فيه الأوامر أو نتيجة لخروج جثث الموتى من خلاله وقت الوباء الذي ضرب المدينة.⁴

لم يكن يعرف هذا الباب حركة باستثناء بعض المارة الذين يختارون الولوج إلى الحديقة التي أنشئت أمامه لأن هناك ممر آخر بمحاذاته، وعبره يمكن العبور إلى حديقة اللصيقة به في اتجاه المدينة الجديدة ويمكن الوصول أيضا إلى حي الملاح مباشرة، وقد تم إغلاقه قديما للعديد من المرات كان أولها مع استقرار اليهود بالمكان منذ بداية عهد بني مرين، وتم الإبقاء على باب

¹ مارمول كربخال، مصدر سابق، ج 2، ص ص 158 - 159.

² رضوان السائحي، مرجع سابق، ص 65.

³ محمد المنوني، ورقات...، مرجع سابق، ص 46.

⁴ رضوان السائحي، مرجع سابق، ص 66.

وحيد للملاح من جهة باب السمارين، ثم بعد استفحال الوباء الذي ضرب الملاح فيما بعد تم إغلاقه كإجراء وقائي ويعد المنفذ الوحيد لفاس الجديد من جهة الملاح على الخارج.¹

تشير الدراسات الحديثة أن الباب لا يزال في حالة لا بأس بها إذ تم ترميمه من طرف مفتشية الآثار سنة (1350هـ / 1931م)، لكن أحد برجى هذا الباب -الواقع على يمين الباب- تعرض للهدم نتيجة لوقوعه في منطقة شديدة الإنحدار ويتميز باب الأمر بنقوشه البسيطة تختلف عن تخطيط باب السمارين والسبع،² حيث تنحصر فتحته الرئيسية بين عقدين متتاليين تفصل بينهما أية قبوة ويتشكل مدخله من عقد مخموس، ويحمل هذا العقد مجموعة من الفصوص يبلغ عددها تسعا وثلاثين عقدا، في كل جانب تسعة عشر فصا إضافة إلى الفص الأوسط تعلوها مساحة مزخرفة بقطع الزليج الأخضر مغطى بطلاء أسود، أما الإفريز الذي يعلو هذه الزخارف فمبني بإطار من للأجر تتوسطه زخارف من الزليج، وفي أعلى الباب نجد ساترا من الطابية شبيهة بتلك الموجودة على مستوى السور.³

(4) باب الساجمة:

ينتسب تشييده إلى بني مرين وهو من الأبواب التي لم يتبقى منها أي أثر تدل على وجوده باستثناء البرجين اللذين كانا يدعمانه،⁴ إذ قام بتجديدهما الحسن الأول فجاء شبيها مع باب السبع الذي يوجد في الجانب الآخر للساحة في النقوش والزخرفة، وتشير المصادر التاريخية أنه كان مشكل من قوس قناة مائية تربط بين المشور القديم وقصبة شراردة ويشبه شكل واجهته الخارجية باب السبع.⁵

3. 2. 2 أبواب عدوة الأندلس:

سيتم فيما يلي عرض أبواب عدوة الأندلس:

¹ ينظر: محمد الملوكي، مرجع سابق، ص ص 100-107. - رضوان السائحي، مرجع سابق، ص 67.

² محمد عياش، مرجع سابق، ص 61.

³ محمد الملوكي، مرجع سابق، ص 344.

⁴ روجيه لوطورنو، فاس قبل الحماية...، ج 1، مرجع سابق، ص 144.

⁵ رضوان السائحي، مرجع سابق، ص 70.

(1) باب الفتوح:

من أوائل الأبواب التي بنيت بعدوة الأندلس كان في الأول يسمى باب القبلة لأنه منه يخرج إلى القيروان،¹ وبقي على حاله إلى غاية تخريبه من طرف المصلح دوناس بن حمامة بن المعز ابن عطية الصنهاجي وبعد وفاته في منتصف القرن الخامس للهجري، اقتسم ولداه الفتوح وعجيسة ملك فاس فكان فتوح بعدوة الأندلسيين وعجيسة بعدوة القرويين، وحدثت بين الأخوين حروب فبنى فتوح قصبة منيعة بالموضع المعروف بالكذان وأعاد بناء باب القبلة ونسب إليه فصار يدعى باب الفتوح من ذلك التاريخ،² وكان يوجد داخل هذا الباب زاوية.³

(2) باب الشيبوبة:

كان يقع بالقرب من باب الفصيل (النقبة) من عدوة القرويين اندثر هذا الباب وبقي اسم الحي المضاف إليه، ولقد كان هذا المكان مخصص للمجوس (عبدة النار).⁴

(3) باب الكنيسة (الخوخة):

يقع في الجهة الشرقية يقابل حارة المرضى ومنه يخرج إلى تلمسان،⁵ وكان قد بناه ناصر بن المنصور الموحي بعد تخريبه من قبل عبد المؤمن بن علي، خلال فترة ظهوره على ساحة الأحداث في المغرب جدد سور المدينة عام (610هـ/1214م) وسماه باب الخوخة.⁶

(4) باب الجيزين (الحمراء):

يقع عن يمين الخارج عن باب فتوح وهو منسوب إلى قبيلة كانت مستقرة قربها عند تأسيس المدينة، يوجد بهذا الباب ضريح الأمير عبد الحق المريني بإزاء قبر الشيخ الفقيه محمد القشتالي

¹ البكري، المسالك والممالك...، ج 2، مصدر سابق، ص 299.

² الجزنائي، مصدر سابق، ص 106.

³ ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 382.

⁴ ينظر: الجزنائي، مصدر سابق، ص 108. -ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 40.

⁵ ينظر: البكري، المسالك والممالك...، ج 2، مصدر سابق، ص 299. -ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 40.

⁶ ينظر: الجزنائي، مصدر سابق، 103. -ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 40.

تبركا به وهو من أوصى بذلك في حياته، ويوجد أيضا ضريح إبراهيم بن عبد الرحمان بن الإمام التلمساني نزيل مدينة فاس المتوفى سنة (797هـ/1396م)¹.

(5) باب حصن سعدون:

كان باب حصن سعدون تابع لأبواب عدوة الأندلسيين استنادا إلى قول البكري: "ولعدوة الأندلسيين من الأبواب... وباب حصن سعدون الجوفي"²، لكن ابن زرع أقر أن هذا الباب تابع لعدوة القرويين من ذلك قوله: "أدار الإمام إدريس رضي الله عنه سور عدوة القرويين وابتدأه من رأس عقبة عين علون... ثم هبط بالسور على عين دردورة حتى وصل إلى عقبة السعتر فصنع هناك بابا وسماه باب حصن سعدون"³.

وباب حصن سعدون هو باب الجيسة بني على مكان قوس ساباط حومة الحفارين فوق رحبة الزرع القديمة، الذي ابتناه الخليفة الناصر إثر تشييده للسور الذي خربه جده فوق باب العجيسة، وبقي هذا الباب إلى غاية الوجود المريني في المغرب الأقصى فخرّب كغيره من البنى العمرانية إثر حملات مرين لإخضاع هذا الإقليم، لكن السلطان أبو يوسف يعقوب أمر بترميم ما تلتئم منه ماعدا القوس الخارجي الذي لم يتعرض للهدم وبقية على حاله سنة (684هـ/1283م)⁴، ويقع بالقرب منه مقبرة باب عجيسة، تشرف على مقبرة سلاطين بني مرين.⁵

(6) باب الفوارة:

لا زال موضع هذا الباب معروف إلى غاية اليوم بهذا الاسم بأعلى رأس الزاوية في حومة المخفية حيث ضريح سيدي أحمد بن عبد الله يقع في جهة القبلة، ومنه كان خرج إلى سجلماسة، أطلق عليه أيضا باب زيتون ابن عطية لم يفتح منذ سنة (620هـ/1223م)⁶، ولقد أشار محققو

¹ ينظر: التبتكتي، مصدر سابق، ص 34. -ابن مريم، مصدر سابق، ص ص 63-64.

² البكري، المسالك والممالك...، ج 2، مصدر سابق، ص 299.

³ ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر ساق، ص 39.

⁴ الجزنائي لم يذكر هذا الباب، إنما المحقق هو من أورد ذكره، أخذنا عن ابن زرع الذي اعتمد عليه صاحب جني زهر الآس. ينظر: ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 39. -الجزنائي، مصدر سابق، ص 103.

⁵ روجيه لوطورنو، فاس قبل الحماية...، ج 1، مرجع سابق، ص 169.

⁶ ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 40.

كتاب جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس إلى أن زيتون ابن عطية يقع بين باب الجديد وباب الحمراء سواء داخل السور أو خارجه، مما يدل على أن الباب المذكور كان قريباً من هذه المنطقة، كما ذكر بعض المؤرخين أن باب الفوارة كان يقع أمام سور عرصة الكروني عند مدخل الزيتون، وهو ما تؤكد بعض الشواهد المعمارية في السور.¹

(7) باب سيدي بوجيدة:

يقع هذا الباب في رأس حجر الفرّج،² ومنه يخرج إلى بلاد غمارة وإلى الريف،³ كان يدعى في أول بنائه باسم باب أبي سفيان وسمي فيما بعد ببني مسافر، ولعل هذه التسمية الأخيرة نسبة إلى قبيلة عربية أو عشيرة تسكن بموضع هذا الباب فأضيف هذا الباب إليها.⁴

(8) باب المخفية:

قام بفتح هذا الباب إدريس الأول أمام باب الفرّج من عدوة القرويين.⁵ أشار البكري إلى وجود عدة أبواب في عدوة الأندلسيين من بينها باب أبي خلوف الواقع في الجهة الشرقية وباب الحوض في الجهة الغربية، حيث يقابل عدوة القرويين، كما ذكر باب سليمان الذي يقع في الاتجاه ذاته ويلاحظ من وصفه أن البابين الأخيرين كانا بمثابة منافذ استراتيجية، حيث استخدمهما سكان عدوة الأندلسيين للخروج إلى ساحات القتال.⁶

3. 2. 3 أبواب عدوة القرويين:

تمتاز عدوة القرويين بكثيرة الأنهار والعيون والبساتين والأرحاء، لها ستة أبواب:

¹ الجزنائي، مصدر سابق، ص 107.

² حجر الفرّج: مكان يقع بين عقبة الحبيل والجانب الغربي من طريق سيدي بوجيدة والنهر الكبير (وادي بوخرارب).
ينظر: الجزنائي، مصدر سابق، ص 109.

³ ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 40.

⁴ الجزنائي، مصدر سابق، ص ص 102 - 109.

⁵ نفس المصدر، ص ص 7 - 104.

⁶ البكري، ج 2، المسالك والممالك...، مصدر سابق، ص 299.

(1) باب إفريقية:

أول ما قام ببنائه إدريس بعدوة القرويين هو باب إفريقية يقع برأس عقبة عين علون،¹ قامت مرين بتجديده على عهد السلطان أبو عنان عام (760هـ/1359م)، ثم اتخذ تسمية باب علون نسبة إلى موضعه،² تبرز أهمية هذا الباب من خلال الصناعات الواقعة على مقربة منه فهو لا يقل أهمية عن باب فتوح.³

(2) باب الفرس:

قام بتشيد إدريس، موضعه في أول أغلان،⁴ بين باب حصن سعدون وباب الفصيل، وعليه فيكون موقع باب الفرس بآخر حومة فندق اليهودي، أو بحومة البليدة.⁵

(3) باب الحديد:

حدد ابن أبي زرع موقع هذا الباب قائلا: "ثم جاز النهر أيضا بالصور إلى عدوة القرويين وطلع به من النهر الكبير في أسف قلعة إلى عيون ابن اللصاد إلى الجرف، وصنع هناك باب سماه باب الحديد، وهو في أعلى القلعة مما يلي الجرف"،⁶ وعليه فلقد شيد الباب في أعلى القلعة عند عيون ابن اللصاد إلى الجرف وابن اللصاد في الغالب هي التي تسمى العيون، نسبة إلى الحومة الشهيرة، أما الجرف فهو المرتفع المطل عليها أين يقع ضريح سيدي الشاوي،⁷ يقع بالقرب من هذا الباب العديد من البساتين تسقى من نهر ينبع على بعد ثلاث فراسخ من هناك أي ما يقارب خمسة عشر كيلومترا (15 كيلومترا).⁸

¹ ابن أبي زرع، الأتيس...، مصدر سابق، ص ص 39-40.

² الجزنائي، مصدر سابق، ص 102.

³ رضوان السائي، مرجع سابق، ص 53.

⁴ ابن أبي زرع، الأتيس...، مصدر سابق، ص 39.

⁵ الجزنائي، مصدر سابق، ص 107.

⁶ ابن أبي زرع، الأتيس...، مصدر سابق، ص 40.

⁷ الجزنائي، مصدر سابق، ص 103.

⁸ مارمول كربخال، ج 2، مصدر ساق، ص 158.

وبهذا يكون قد توفر لهذا الباب موقعا استراتيجيا يعزز تحصينات المدينة ويشرف على المناطق المحيطة، مستفيدا من قربه من الموارد المائية التي ساهمت في ازدهار البساتين المجاورة.

(4) باب الفصيل:

أخذ أيضا اسم باب النقبة،¹ أما تسميته باب الفصيل نسبة لكونه يفصل بين العدوتين يقع هذا الباب على شفير باب الوادي الكبير، وهو الباب الذي يخرج منه إلى ما بين العدوتين.²

(5) باب المحروق:

أضيف هذا الباب في عهد الموحدين، كان يسمى باب الشريعة لأن به كانت شريعة العيد، أي المصلى الذي تؤدي فيه صلاة عيد الفطر وعيد الأضحى، ثم أخذ اسم باب المحروق نسبة إلى أحد الثوار يدعى الثائر العبيدي، والذي تم إحراق جثمانه المستأصل منه رأسه -المعلق على باب الشريعة- في اليوم الذي تم تشييد فيه الباب سنة (600هـ/1204م) فسمي منذ ذلك اليوم باب المحروق، وقيل أيضا أنه أخذ هذا الاسم نسبة إلى إحراق ابن الخطيب ووجود ضريحه على مقربة من هذا الباب، لكن هذا ليس بصحيح لأن الباب أخذ هذا الاسم قبل قرن وأربعة وسبعين سنة (174 سنة).³

كان هذا الباب محل تنفيذ للأحكام وقتل المناوئين للسلطة واشتهر بكثرة ما كان يعلق به من رؤوس الخارجين عن سلطان بني مرين،⁴ من ذلك ما قام به الأمير أبو بكر إزاء الأشياخ الموحدين الستة الذين سعوا في الفتنة وكانوا رؤساء للسيف، فقتلهم خارج هذا الباب.⁵

يصف روجيه لوطورنو بأن هذا الباب من بين أكثر أبواب فاس كآبة، سواء من حيث مظهره أو رمزيته، إذ يتميز بلونه الرمادي الداكن الذي تزداد قتامته بفعل العوامل الطبيعية حيث

¹ الجزنائي، مصدر سابق، ص 106.

² ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 40.

³ الجزنائي، مصدر سابق، ص 106.

⁴ **ينظر:** ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 377. -الجزنائي، مصدر سابق، ص 106. -روجيه

لوطورنو، فاس قبل الحماية...، ج 1، مصدر سابق، ص 186.

⁵ ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص ص 295 - 296.

تتعرض واجهته باستمرار للأمطار والرياح الغربية، مما يعزز مظهره الكالح، كما ارتبط هذا الباب تاريخياً بوظيفة عقابية، حيث كان يعلق عليه رؤوس الثائرين الذين قضت عليهم الجيوش السلطانية مما أكسبه رمزية مهيبة وجعله شاهداً على محطات دامية في التاريخ السياسي للمدينة.¹

6) باب الفرج:

يقع على بعد خمس مسافات من ضفة النهر،² وهو الذي يسمى الآن بباب السلسلة، ولقد اندثر هذا الباب منذ ألف سنة.³

3. 3 المحارس والمناظر:

يقول ابن مرزوق التلمساني في شأن المناظر والمحارس التي شادها أبو الحسن المريني: "أنشأ هذا المولى رضي الله عنه من المحارس والمناظر ما لم يعهد مثله في عصر من الأعصار. وحسبك أن مدينة آسفي وهي آخر المعمورة إلى بلد الجزائر، جزائر بن مزغان آخر وسطى الغرب وأول بلاد إفريقية، محارس ومناظر، إذا وقعت النيران في أعلاها تتصل في الليلة الواحدة أو في بعض ليلة وذلك في مسافة تسير فيها القوافل نحواً من شهرين، وفي كل محرس منها رجال مرتبون، نظار وطلاع، يكشفون البحر، فلا تظهر في البحر قطعة تقصد ساحل بلاد المسلمين، إلا والتنوير يبدو في المحارس يتحذر أهل كل ساحل من السواحل ساحلهم، فأمنت السواحل في أيامه".⁴

من خلال استقراءنا لهذه المادة الخبرية نستنتج أن صاحب المسند سلب الضوء على جهود السلطان أبو الحسن المريني في تعزيز الدفاعات البحرية وحماية السواحل من خلال إنشاء نظام متكامل من المحارس والمناظر، إذ أنشأ عدداً كبيراً من المحارس والمناظر بطرق غير مسبقة في العصور السابقة، مما يدل على التزامه الكبير بتعزيز الدفاعات البحرية، امتدت هذه المحارس

¹ روجيه لوطورنو، فاس قبل الحماية...، ج 1، مرجع سابق، ص 168.

² ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 40.

³ ينظر: الجزائى، مصدر سابق، ص 107. -رضوان السائحي، مرجع سابق، ص 59.

⁴ ابن مرزوق التلمساني، المسند....، مصدر سابق، ص 398.

والمناظر على طول الساحل، من مدينة آسفي حتى بلاد الجزائر -جزائر بن مزغان- مما يشير إلى نطاق الحماية الواسع الذي تم تحقيقه.

تعتمد فعالية هذا النظام على سرعة نقل الإشارات من خلال إشعال النيران لنقل التحذيرات بسرعة كبيرة، بحيث تصل الإشارات في ليلة واحدة أو جزء منها لمسافة تأخذ القوافل شهرين لقطعها، ما يعكس كفاءة النظام التحذيري، تتصل هذه المحارس ببعضها البعض مما يسمح بنقل الإشارات بسرعة وفعالية بهدف تحذير السواحل من أي خطر بحري وشيك، كما تم تعيين رجال متخصصين (نظار وطلاع) في كل محرس لمراقبة البحر والإبلاغ عن أي تهديدات، تتميز هذه المحارس بنظام مرتب ومنظم يعزز من قدرتها على العمل بكفاءة في مواجهة الأخطار المحتملة، ونتيجة لهذه الجهود شهدت السواحل في عهد أبو الحسن المريني أماناً واستقراراً.

إذ لم تظهر قطعة بحرية تقصد سواحل المسلمين إلا وتم التنبيه عليها مما يعكس فعالية النظام الدفاعي في حماية البلاد من التهديدات البحرية، كما ساهمت جهود أبو الحسن المريني في إنشاء المحارس والمناظر وتطوير نظام تحذير سريع وفعال في تعزيز الأمن والاستقرار على السواحل المغرب الأقصى.

يمكن اعتبار هذا النظام نموذجاً متقدماً للتنظيم الدفاعي يعكس تطور الفكر الاستراتيجي والعسكري في ذلك الوقت، وعليه فلقد وجدت العديد من المحارس والمناظر خلال العهد المريني منها: المحارس الواقعة في سفح جبل الفتح،¹ وتلك الواقعة على المنطقة الممتدة من طنجة وسبتة للحد من خطر النصارى لأنه لطالما قام ملوكها بشن الحملات ضد هاتين المدينتين، منها تلك التي شنّها ملك البرتغال إدوارد الأول سنة (841هـ/1437م) ضد مدينة سبتة،² وطنجة والأخرى التي قام بها ألفونسو الخامس بنفسه سنة (886هـ/1463م)،³ ومن المحارس والمناظر لطنجة

¹ ابن مرزوق التلمساني، المسند...، نفس المصدر، ص 392.

² الناصري، ج 4، مرجع سابق، ص 95.

³ ينظر: إحالة حسن الوزان، ج 1، مصدر سابق، ص 350

تلك الموجودة بجبل المنارة وأخرى بمرسى باب اليم وهي قديمة البناء يعود عهدها إلى عصر البكري.¹

كانت مدينة سبتة من أكثر المدن الساحلية تحصينا،² ولها من المحارس ثمانية عشر محرسا من المدينة إلى اثني عشر ميلا من خارجها من ناحيتي البحرين وما وراء ذلك إلى بلاد الريف وإلى طنجة لم يدخل تحت هذا العدد، وهذه المحارس لم يبق بتشييدها بني مرين بل وجدت منذ عهد المرابطين، من ذلك طالع الذي بأعلى جبل ميناء الناظور، يعد من أبرز المنشآت الدفاعية، وذلك لما يتمتع به من موقع جغرافي جيد يتيح له تغطية بصرية واسعة تشمل ضفتي البحر، إذ يمتد مجال رؤيته من سواحل بادس الواقعة في بر الريف شرقا إلى حدود القسيس قرب مالقة، وغربا إلى ما بعد طريف وصولا إلى منطقة شنيل من بر الأندلس، كما أن انضواءه داخل أسوار المدينة وخضوعه المباشر لسلطتها الإدارية والأمنية يجعله ذا دور حاسم في أوقات الاضطراب أو الحصار.³

بالاعتماد على ما سبق يمكن القول أن برج الطالع الواقع بمدينة سبتة شكل جزءا أساسيا من المنظومة الدفاعية التي فرضتها الضرورات العسكرية، فقد أتاح الموقع الاستراتيجي لهذه المنشآت التحكم في المعابر البحرية، وهو ما يعكس وعيا مبكرا بأهمية البعد الجغرافي في رسم ملامح الصراع الإقليمي.

3.3 حصون الدولة المرينية:

إن شبكة الحصون المشيدة لأهداف دفاعية أو هجومية في بلاد المغرب تنطوي ضمن المشاريع العسكرية التي تقتضي تهيئة المجال والظروف والإمكانات لتنفيذها، سواء عن رغبة ملحة منهم أو فرضتها عليهم الضرورة الأمنية والدفاعية، إذ قامت العديد من الحروب والمعارك بين مرين والدولتين الحفصية والزيرية - كانت هذه الأخيرة في حروب مستمرة مع مرين - فضلا

¹ البكري، المغرب...، مصدر سابق، ص 105.

² العمري، ج 4، مصدر سابق، ص 104.

³ السبتي، مصدر سابق، ص ص 32-33.

عن علاقاتها السياسية والعسكرية المتوترة مع الممالك النصرانية التي لطالما شنت هي الأخرى الغارات على سواحل المغرب الأقصى. من بين الحصون المرينية نذكر:

حصن تاورريت والذي كان ملكية مشتركة بين بني مرين والدولة الزيانية لكنه في الأخير أصبح ضمن نطاق نفوذهم، بعد أن تمكن القادة المرينيين من إخضاعها، ولقد شرع في إعادة تعميره السلطان يوسف أبو يعقوب سنة (695هـ/1290م) حيث ظل واقفا على بنائه بنفسه، وأحاط عليه سور متين وضع عليه أبوابا مصفحة بالحديد،¹ و**حصن أوطاط، حصن أكرسيف وحصن أرجو** الذي يعد من أمنع هذه القلاع وأشدّها بأسا في الكفاح،² بالإضافة إلى **حصون ذرعة**.³

كما اضطلع السلطان يعقوب أبو يوسف بمهمة تشييد أسوار مدينة سلا،⁴ وإعادة ترميم الأجزاء التي تعرضت للتلف جراء هجوم الأسطول القشتالي عليها سنة (670هـ/1272م)،⁵ وبعد انسحاب هاته القوات بادر السلطان إلى إقامة السور الغربي الذي يحاذي الوادي نظرا لافتقار المدينة إلى تحصينات في تلك الجهات، أين أشرف بنفسه على أعمال البناء الممتدة من دار الصناعة وصولا إلى البحر حتى استكمل تحصين السور وتعزيزه بما يليق بموقع المدينة وأهميتها الاستراتيجية،⁶ كما عمل أبو الحسن المريني خلال فترة حكمه على تعزيز تحصينات هذه المدينة من ذلك تشييده لسور الأقواس،⁷ ولقد تم الاعتماد على مجموعة من الحصون التابعة للمدينة من

¹ **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 290. -الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 76.

² مؤلف مجهول، زهر البستان...، ج 2، مصدر سابق، ص 144.

³ ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 307.

⁴ حظيت مدينة سلا بموقع جغرافي ممتاز جعلها قريبة من مضيق جبل طارق والأندلس دون أن تكون في الجوار المباشر للعدو، مثل ما هي عليه سبتة وطنجة، لهذا اتخذها المرابطين والموحدين وبني مرين لاحقا حصنا وقاعدة عسكرية برية وبحرية لمواجهة الأخطار النصرانية لاسيما أنها امتلكت منارة شاهقة. **ينظر:** مؤلف مجهول، الاستبصار...، مصدر سابق، ص 141. -محمد زنيبر، المغرب في العصر الوسيط (الدولة- المدينة- الاقتصاد)، تنس محمد المغراوي، مطبوعات النجاح الجديدة، ط 1، دار البيضاء، المغرب، 1999، ص 311.

⁵ **ينظر:** ابن أبي زرع، الذخيرة...، مصدر سابق، ص 94. -حسن الوزان، ج 1، مصدر سابق، ص 208.

⁶ ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 302.

⁷ الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 176.

أبرزها حصن تازا الذي يعود تأسيسه إلى عهد الموحدين، وحصن آخر داخل مدينة الرباط،¹ بالإضافة إلى حصن جبل الفتح، الذي قام بتجديد بنائه وتعزيز حمايته من خلال إحاطته بسور من جميع الجهات، ليصعب اقتحامه أو محاصرته، وقد دعم هذه التحصينات بإنشاء أبراج محصنة وأسكنها حاميات عسكرية دائمة، كما زودها بالمؤن بما في ذلك الذهب والقمح الذي كان يوزع شهريا على الجنود، وأحاطها بالمقاتلين الأشداء لضمان جاهزيتها في مواجهة أي تهديد.²

كما تعد مدينة فاس بحد ذاتها حصن منيع شاد عليها سلاطينها الأسوار المتينة والأبراج العالية وأحكمت أبوابها فأضحت قلعت منيعة يصعب اختراقها، أما تطوان التي تعني عين واحدة لكثرة العيون بها،³ ليست من إنشاء بني مرين بل من تشييد الأفارقة القدامى أعاد استحداثها أحد القادة الأندلسيين بعد وفادته مع ملك غرناطة إلى فاس، من خلال تشييده لحصن حصين أحاطه بحفير خنادق،⁴ لكن مارمول كربخال اعتبرها ليست بالقدر الكافي من الحصانة لئتم اعتبارها حصنا حصين لأن أسوارها منخفضة وخنادقها مملوءة يمكن اختراقها بكل سهولة، فضلا عن ذلك الحصن الموجود بجانبها صغير جدا، وأسواره مبنية بطريقة رديئة -من الطين- حتى الآلات الحربية من المجانيق والقذافات الموزعة على باب الحصن غير مركبة تستعمل فقط للتعليم.⁵

¹ البشير بوقاعدة، خطة الحصار...، مرجع سابق، ص 194.

² ابن مرزوق التلمساني، المسند....، مصدر سابق، ص 392.

³ مؤلف مجهول...، الاستبصار...، مصدر سابق، ص 136.

⁴ حسن الوزان، ج 1، مصدر سابق، ص ص 318-319.

⁵ مارمول كربخال، ج 2، مصدر سابق، ص 223.

ثالثا: البناء والترميم

في سياق الصراعات العسكرية التي شهدتها مجال المغرب الإسلامي كانت عمليات الترميم وإعادة البناء التي تلت فترات الحصار والتدمير جزءا من استراتيجية القوة والسيطرة على المناطق المغتصبة، إذ أن العديد من السلاطين الذين خضعت أراضيهم للقوة أو الحصار وجدوا أنفسهم أمام مسؤولية إعادة بناء ما دمر، وفي المقابل نجد السلاطين المتسببين في حالة الخراب يقومون بإعادة الترميم والاعمار ليس فقط لترسيخ قوتهم في المناطق التي احتلوها ولكن أيضا لتثبيت هيمنتهم السياسية والاجتماعية، لهذا سنعالج في ورقات بحثنا التالية جهود السلاطين في ترميم المنشآت الدفاعية والعمرانية لمعرفة دوافعهم وراء تلك العمليات، وما إذا كانت هذه الأفعال تعتبر مجرد مسعى لتعويض ما تم تدميره أو جزءا من سياسة أوسع لفرض السيطرة وبناء هياكل قوة جديدة.

1. جهود سلاطين المغرب في الترميم والصيانة

إن سلوك التخريب الذي صاحب الصراعات العسكرية بين دول المغرب الإسلامي ألزم قادة وسلاطين الدولة المتأثرة بحالة الخراب ترميم وإصلاح ما تتلم من الحملات العسكرية، من ذلك تجديد الفضل معالم عاصمته -تونس- بعد انسحاب بني مرين إلى مغربهم،¹ ولقد كان لهؤلاء جهود أيضا في ترميم بعض المدن وإصلاح أبوابها ففي عام (684هـ/1285م) أصدر السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني وهو بالجزيرة الخضراء أوامر لإصلاح باب الجيسة وتجديده، كما وقد أمر قبل ثلاث سنوات هدم السور القبلي لفاس البالي من عدوة الأندلس المصابقة لباب زيتون بن عطية إلى باب الفتوح وإعادة بنائه وترميمه،² ولأن حصن تاوريت كان محل نزاع بين بني مرين وبني زيان قام سلطان الأولى أبو سعيد عثمان بإعادة بناءه وشحنه برجال سنة (721هـ/1321م).³ ولأن الدولة الزيانية هي من تأثرت بهذا السلوك على غرار جارتها لأن أغلب المواجهات العسكرية التي نشبت كان المغرب الأوسط -مجال نفوذ الدولة الزيانية- ساحة لهذه الحروب،

¹ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 529.

² محمد عيسى الحريري مرجع سابق، ص 321.

³ ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق،

فضلا عن أن خراب العمران في المغرب الأقصى والأدنى ارتبط بالدرجة الأولى بالفتن الداخلية والنزاعات القبلية، فترتبت جهود سلاطين بني زيان على ترميم وإصلاح مختلف البنى العمرانية خاصة حظيرة المنشآت الدفاعية لتحسين البلاد والتقليص من الأخطار الخارجية، من الإشارات التاريخية الدالة على ذلك قول التنسي، عما أنجزه أبو حمو موسى الأول: "فلما انصرف كان أول ما بدأ به الملك أبو حمو. هدم مدينة يوسف ابن يعقوب، وإصلاح ما تتلم من تلمسان، وبنى الأسوار والستائر وحفر الخنادق"¹، لكن حركة مرين المتجددة تجاه عاصمته منعته من اكمال مشروع الترميم ليكمل ابنه عمليات التحسين والتشييد بعد وفاته،² كما كانت لأبو حمو موسى الثاني جهود في ترميم جزء من سور المدينة والمشور الذي دمره أبو العباس المريني،³ فأطلق مشروعا لتجديد وتوسيع سور القصر، ولتطبيق هذا المشروع اضطر السلطان إلى مصادرة العديد من المنازل المحيطة بالقصر والتي كانت متصلة به أو قريبة منه وأمر بهدمها لتوفير المساحة اللازمة لمخططه.⁴

لأن أهداف الحصار تختلف من قوة عسكرية إلى أخرى وتتفاوت نتائجها وتأثيراتها على مظاهر العمران، قام بعض القادة الذين أداروا عمليات الاستيلاء وفرضوا السيطرة على منطقة ما، بعد تحقيقهم لأهدافهم من التدمير -أي السيطرة والإلحاق- على إعادة بناء وترميم ما دمرته آلاتهم، في مسعى منهم لإحياء ما نسفوه على الرغم من أنهم واجهوا صعوبات في تنفيذ ذلك باعتبار "الهدم أيسر من البناء بكثير لأن الهدم رجوع إلى الأصل الذي هو العدم والبناء على خلاف الأصل"،⁵ من أمثلة ذلك تنفيد أبو يعقوب يوسف لهذا الإجراء في سياق حملته العسكرية التي استهدفت حصار تلمسان مقابل مدينة وجدة حيث أمر ببناء هذه الأخيرة وتحسين أسوارها، أين تم

¹ التنسي، مصدر سابق، 145

² العمري، ج 4، مصدر سابق، ص 103.

³ Willaim Marçais, op. cit, p 25.

⁴ عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص ص 115 - 116.

⁵ عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة...، مصدر سابق، ص 431.

تشبيدها بشكل محصن، بالإضافة إلى تشييده لقلعة وقصر ومسجد وحمام وعمرها بقبيلة بني عسكر، بزعامه أخيه الأمير أبي يحيا المكلف بمهمة شن الغارات على مدينة تلمسان وضواحيها.¹

كما عمل أبو الحسن المريني فور دخوله المدينة -تونس- بعد نكبته بالقيروان بإصلاح سورها وأحاطه بحفير،² والغاية من هذا التصرف -الذي يبدو كإصلاح بعد التدمير- تثبيت الحصار وفرض السطوة وهكذا يتمكن من تضيق نطاق الحصار.³

في المقابل فإن إعادة بناء وإصلاح بعض المنشآت بعد الحصار قد تعتبر خطوة إيجابية خاصة عندما يكون الحصار مبررا أو مشروعاً، أما إذا كان الحصار غير مبرر أو ناتجا عن أسباب غير مشروعة فإن جهود الترميم وإعادة البناء لا يمكن أن تعتبر تصرفاً إيجابياً بحد ذاته، بل تظل مجرد محاولة للتعويض عن الأضرار التي لحقت بالعمران، في هذه الحالة تصبح عملية الترميم واجبا أخلاقيا يفرض على المحاصرين مسؤولية تكفيرهم عن الأضرار التي تسببوا بها،⁴ من ذلك قول الحسن العباسي: "وإذا أراد استيفاء البلد فليأمرهم بعمارة ما خرب وغرس ما قطع من الأشجار".⁵

في ظل السياسة المتبعة من قبل قادة المغرب فإن حركة البناء والترميم كانت دلالات وشاهد مادي على إلحاق ذلك المجال إلى نطاق دولتهم، من بين هذه المنشآت التي شادتها القوى السياسية أثناء فترات الإلحاق لمجالات مناضيرها: الحصون التي أقامها بني زيان على حدود بني حفص، والمنصورة التي شادها أبو الحسن المريني بمدينة تونس فور دخوله إليها،⁶ من ذلك قول ابن الشماخ: "ولما دخل السلطان أبو الحسن تونس دخلها بجيوش لا تحصي فشرع في بناء

¹ ينظر: ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 385. -عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 291.

² ينظر: الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 162. -روبار برونشفيك، ج 1، مرجع سابق، ص 372. -محمد لعروسي المطوي، مرجع سابق، ص 398.

³ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 340.

⁴ البشير بوقاعدة، خطة الحصار...، مرجع سابق، ص ص 405 - 406.

⁵ الحسن العباسي، مصدر سابق، ص 357.

⁶ ابن أبي دينار، مصدر سابق، ص 128.

مدينة فوق سيجوم سماها المنصورة لسكنى من جاء معه من الجيوش"¹، وهذه المدينة اندثرت تماما ولا يوجد أي شاهد أثري بمدينة تونس حاليا دال على وجودها.

2. المنشآت المرينية في المغرب الأوسط

إذا ما قورنت حركة التشييد والبناء لدول المغرب الثلاث نجد أن وقع بنو مرين أكبر وأوسع من تأثيرها على بني زيان وبني حفص، وذلك يعود إلى النشاط الاقتصادي الكبير الذي شهدته فترة حكمهم، فضلا عن العناية الكبيرة التي أولها السلاطين لإبراز قوتهم السياسية ومكانتهم الاجتماعية بالإضافة إلى تعبيرهم عن الرقي والازدهار عبر المشاريع العمرانية التي شيدها، ولم تقتصر هذه الجهود على بناء المدن والمرافق في المغرب الأقصى فحسب، بل تعدتها إلى المغرب الأوسط أيضا، حيث كان لتلمسان نصيب كبير في هذه الحركة العمرانية.

في هذه الدراسة سيتم تناول مختلف المنشآت التي تم تشييدها في المغرب الأوسط في فترة حكم بني مرين، لمحاولة فهم الدوافع وراء هذه المشاريع الكبرى من خلال الربط بين الظروف السياسية وحاجة السلاطين لإبراز قوتهم في مواجهة المنافسات الداخلية والخارجية.

2. 1 المنصورة:

بتتبع كرونولوجيا الصراع بين بني زيان وبني مرين نجد أن الحرب بين الفريقين لم تتوقف البتة منذ التأسيس إلى غاية السقوط والاندثار نتيجة للعديد من الأسباب، فالسبب الرئيسي يتبلور في محاولة التوسع خارج نطاق الملك لفرض السيطرة الأحادية على عامة نطاق المغرب، لهذا لم يتوانى بني مرين من ضرب ملك بني زيان فأبو يعقوب يوسف وحده شن صوبها خمس حملات عسكرية، لكن الأخيرة كانت الأكثر وقعا وضرا لأنه حاول السيطرة عليها من خلال المطاولة بالحصار والتضييق،² في محاولة منه إنهاء وجود هذه الدولة وإزاحة رسمها فأدار على العاصمة

¹ ابن الشماخ، مصدر سابق، ص 96.

² عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 292.

وما اتصل بها من العمران سياجا من الأسوار، ثم أردفه بحفير وفتح عليه أبوابا لدخول عساكره إليها وأحكم حراستها،¹ "فلا يخلص إليهم الطير ولا يكاد يصل إليهم العيث".²

وبعد أن ضيق على تلمسان وضمن أنه لن يتمكن أحد من عساكرها الخروج منها ومحاربته اهتدى إلى بناء مدينة جديدة بمحاذاتها،³ حدد الناصري تاريخ تشييدها سنة (702هـ/1302م)،⁴ سماها المنصورة،⁵ تيمنا بالنصر ولا زال يطلق على موضعها هذا الاسم، بينما التنسي عندما تطرق للحديث عنها سماها مدينة يوسف،⁶ أما ابن أبي زرع والعمرى وابن الأحمر أوردوا ذكرها باسم تلمسان الجديدة.⁷

قام يوسف ببناء منصورته تدريجيا فبعد محاطة تلمسان بالسور شاد بمحاذاته فسطاطه وقبابه قصرا لسكانه واتخذ به مسجدا لصلاته وأدار عليهما سورا إلزامية للتحصين،⁸ (الملحق رقم: 14) ثم أمر الناس بالبناء حول ذلك مبينا لأهل تلمسان وسلطانها أنه مصرى على الفتح،⁹ ولن ينصرف عنها فشادوا مباني سكنية واسعة وقصورا ذات تصميم معمارى متقن، كما قاموا بتخطيط الحدائق وتوفير شبكات مائية،¹⁰ بالإضافة إلى ذلك شيدوا جامعا مخصصا للخطبة فوق الصهريج الكبير وأقاموا منارة ذات ارتفاع بارز وضعوا على قمته عناصر زخرفية مصنوعة من الذهب

¹ الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 79.

² عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 292.

³ يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 121.

⁴ الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 80.

⁵ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 293. وقال يحيى ابن خلدون: "وشرع سلطانهم أبو يعقوب يوسف بن عبد الحق في بناء منصورته". ينظر: يحيى ابن خلدون، مج 1، مصدر سابق، ص 121.

⁶ التنسي، مصدر سابق، ص 145.

⁷ ينظر: ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 387. -العمرى، مصدر سابق، ج 4، ص 103. - ابن الأحمر، تاريخ الدولة...، مصدر سابق، ص 69.

⁸ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 292. -الناصرى، ج 3، مرجع سابق،

ص 193.80 Willaim Marçais, op. cit,

⁹ محمد بن رمضان شاوش، ج 1، مرجع سابق، ص 70.

¹⁰ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 292-293.

بلغت قيمتها نحو سبعمائة دينار،¹ وقام السلطان يوسف أبو يعقوب بتشديد مرستان هناك،² وكانت الحمامات أيضا من ضمن المرافق التي شادها،³ وبعد إنهائه من ذلك أحاطها بسور "وصيرها مصرا، فكانت من أعظم الأمصار والمدن"،⁴

تقع المنصورة على بعد اثني كيلومتر (2 كيلوترا)⁵ غرب مدينة تلمسان وعلى بعد نصف كيلومتر من باب الخميس، يحدها من الشمال السكة الحديدية التي تحد الأسوار ومن الجنوب هضبة العطار ومن الغرب مدرسة الزراعة،⁶ والمنصورة مدينة مستطيلة يبلغ طولها ألف وثلاثمائة مترا (1300 متر) وسبعمائة وخمسين مترا عرضا (750 متر)، تتربع على مساحة تقدر بتسعمائة وسبعمائة وخمسة وسبعين ألف مترا مربعا (975000 مترا مربعا)، والتي تحدها الأسوار المشيدة بالطابوقة الممتدة على مساحة أربعة كيلومتر (4 كيلومتر).⁷

يتبلور اختيار يوسف أبو يعقوب هذا المجال لتشييد مدينته في تسهيل عملية حصار تلمسان، وضربها بين الحين والآخر بغية الإخضاع الكامل، ويجد كل ما يحتاج إليه من مؤن ولا يضطر بعدها للعودة إلى فاسه،⁸ ضف إلى ذلك قرب الموقع من عاصمة دولته -فاس- مما يضمن له خط رجعة آمن في حالة حدوث أي إخفاق عسكري، وهكذا يحمي ظهره من أي هجمات مفاجئة خاصة وأنه تمكن من إلحاق العديد من قبائل ومدن المغرب الأوسط إلى دائرة نفوذه،⁹ أما من الناحية الاقتصادية فإنه كان يرغب في شل الحركة التجارية لتلمسان عاصمة بني زيان وإغلاق

¹ ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 387.

² **ينظر:** عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 293. - الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 73. - إبراهيم حركات، ج 3، مرجع سابق، ص 160.

³ **ينظر:** ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 387. - الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 80.

⁴ عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 393.

⁵ أورد ويليام مارسيه أنها تقع على بعد خمسة كيلومتر من تلمسان. **ينظر:** Willaim Marçais, op. cit, p. 192

⁶ معروف بالحاج، "مدينة المنصورة الأثرية: ظروف نشأتها وعمرانها. عصور جديدة"، ع 2، (من ص 313 إلى ص 322)، تلمسان، الجزائر، 2011، ص 314.

⁷ **ينظر:** إبراهيم حركات، مج 2، مرجع سابق، ص 154.

⁸ **ينظر:** يحي بوعزيز، مصدر سابق، ص 40. - إبراهيم حركات، المغرب...، مج 2، مصدر سابق، ص 155.

⁹ ابن أبي زرع، الأنيس...، مصدر سابق، ص 386.

جميع المنافذ عليها خاصة وأنها تعتبر قاعدة تجارية بامتياز،¹ بفضل إستراتيجية موقعها الواقع ضمن شبكة الطرق التجارية الكبرى،² وامتلاكها لأهم الموانئ،³ وهكذا يسمح له الارتقاء بمدينته الجديدة من الناحية الاقتصادية، وبالفعل نفقت أسواقها ورحل إليها التجار بالبضائع من الآفاق فكانت إحدى مدائن المغرب التجارية.⁴

عند النظر إلى الخيارات الجغرافية الأخرى المتاحة نجد أن الجهة الشرقية كانت تحت تهديد مستمر من قبل الحفصيين الذين كانوا يسيطرون على تلك المنطقة، أما الجهة الجنوبية فهي منطقة جبلية وعرة يصعب إقامة مدينة كبيرة هناك، أما الجهة الشمالية فكانت عبارة عن منخفض تطل عليه مدينة تلمسان، مما يجعلها غير مناسبة من الناحية الدفاعية لذا كانت الجهة الغربية هي الأمثل لبناء المدينة الجديدة، حيث توفر موقعا استراتيجيا جيدا لحماية الدولة وضمان ازدهارها التجاري.

لكنه بعد رفع الحصار عن تلمسان تم هدم المدينة الجديدة وألغي دورها الاقتصادي والسياسي،⁵ وبقية على تلك الشاكلة حتى أعاد تعميرها أبو الحسن المريني،⁶ ورمم ما تتلم منها عام (1345/745م) ولقد تم ضبط هذا التاريخ بناء على الدراسات الأركيولوجية حيث تم العثور على عمود أثري على بعد مترين من الأرض من طرف أحد المستعمرين الفرنسيين سنة 1848م، صدفة خلال حفره لأساسات منشأة ستشاد على أنقاض المنصورة، نقش على هذا العمود: "الحمد لله ربي العالمين والعاقبة للمتقين أمر ببناء هذه الدار السعيدة، دار الفتح، عبد الله علي أمير

¹ البكري، المسالك...، مصدر سابق، ج 2، ص 259.

² ينظر: شارل أندري جوليان، ج 2، مرجع سابق، ص 202. - عبد العزيز فيلاي، ج 1، مرجع سابق، ص ص 87-88.

³ أبو الفداء، مصدر سابق، ص 137.

⁴ عبد الرحمان ابن خلدون، العبير...، ج 7، مصدر سابق، ص 293.

⁵ التنسي، مصدر سابق، ص 155-156.

⁶ ينظر: العمري، ج 4، مصدر سابق، ص 103. - حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 19.

المسلمين ابن مولانا أمير المسلمين أبي السعيد ابن يعقوب بن عبد الحق فكملت سنة خمسة وأربعين وسبعة مائة عرفنا الله خيرها".¹

يقول عبد الرحمان ابن خلدون، في سياق إعادة إحياء المنصورة: "واختط السلطان بغربي تلمسان البلد الجديد لسكانه. ونزل عساكره وسماه المنصورية. وأدار على البلد المخروب سياجا من السور ونطاقا من الخندق ونصب المجانيق والآلات من وراء خندقه وشيد قبالة كل برج من أبراج البلد برجاً على ساقية خندقه ينضح رماته بالنبل رماتهم، ويشغلونهم بأنفسهم حتى شيد برجاً آخر أقرب منه، وترفعشرفاته فوق خندقهم. ولم يزل يتقرب بوضع الأبراج من حد إلى ما بعده، حتى اختطها من قرب على ساقية خندقهم".²

من خلال استقراءنا لهذا القول نجد أن بناء أبو الحسن للمنصورة عن طريق إعادة إعمارها وترميمه لما شاده أبو يعقوب يوسف بعد حصاره لتلمسان والتضييق عليها يعكس دلالات متعددة، فهي لم تكن مجرد مدينة جديدة بل رمزا لإلحاق تلمسان إلى نطاق ملك بني مرين وإثبات سلطتهم وقوتهم في المنطقة، فضلا عن تعزيز شرعيتهم السياسية وتأمين نفوذهم في مجالات المغرب الأوسط، خاصة في ظل نزاعاتهم المتكررة، وإظهار التفوق الثقافي والعمراني على بني زيان.

وعليه فالغاية العسكرية لبناء وإحياء المنصورة من جديد تتضح جليا من خلال التخطيط والتحصين الدفاعي عن طريق إحاطة البلد المخروب،³ بالتحصينات لضمان الحماية وتأمينه للمدينة التي ينوي الشروع في ترميمها من الهجمات الزيانية المنضوية ضمن الإستراتيجية والتكتيك الحربي وهو نفس النهج والأسلوب الذي اعتمده يوسف إثر اختطاطه لمنصورته.

بالإضافة إلى ذلك فإن تأمين خط إمداد مستدام عبر بناء مدينة جديدة بجوار المدينة المحاصرة كان له دور حاسم في استمرار الحصار لفترة أطول، ويعتبر إعادة إحياء المنصورة جزء

¹ ينظر: محمد بن رمضان شاوش، ج 2، مرجع سابق، ص 222. -بلال زيتوني، مرجع سابق، ص ص 230-231.

² عبد الرحمان ابن خلدون، العبر...، ج 7، مصدر سابق، ص 340.

³ يقصد عبد الرحمان ابن خلدون بالبلد المخروب المنصورة التي شادها أبو يعقوب يوسف، التي خربت من قبل بني زيان، استنادا على قول الناصري: "وأحيا معالم المنصورة التي كان اختطها عمه يوسف... فأدار عليها سياجا من السور". ينظر: الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 124.

من إستراتيجية أكبر فحوا التحضير للتوسع على نطاق أكبر - في مناطق أخرى من بلاد المغرب، وهكذا فإن بناء أبو الحسن المريني المنصورية تعتبر خطوة إستراتيجية متكاملة تجمع بين الأبعاد العسكرية، والسياسية، والثقافية.

اشتملت منصورة أبو الحسن على خصائص متميزة من الناحية المعمارية واحتوت على العديد من المرافق كالمدارس والمساجد والقصور والحمامات، لكن المصادر لم تذكر أسماء بعض الحمامات التي أقامها آل مرين، وشاد أيضا مرافق أخرى من ذلك قول ابن مرزوق التلمساني: "وبني رضي الله عنه بلدين مستقلين أنشأ جميعهما بما اشتملتا عليه من جوامع وحمامات وفنادق وهما المنصورة بسبته، ومنصورة تلمسان، التي لم يرى الرءاؤون مثلها ولا وصف الواصفون مثلها".¹

بالاستناد إلى ما ذكره صاحب المسند ودراسة محمد بن رمضان شاوش التي تجمع بين النصوص التاريخية والدراسات الميدانية فإنه كان للمنصورة أربعة أبواب: باب فاس غربا، باب هنين شمالا، وباب الحجاز شرقا، وباب ربع من الجهة الجنوبية، لم يذكره صاحب المسند ولعله باب خارجي كان يصل القسبة بالفحص وجعل بني مرين عند كل باب من هذه الأبواب جامعا،² في حين أورد إبراهيم حركات أن للمنصورة التي شادها أبو يعقوب يوسف اثنا عشر بابا في شمالها ستة أبواب ونفس العدد كان كذلك في الجانب المقابل، وإلى أواخر القرن التاسع عشر كان لا يزال معظمها قائما.³

لم تقتصر سياسة أبو الحسن المريني التعميرية في بناء منصورته الجديدة فقط، بل تضم أيضا تلمسان والبعض من أحوازها فما أنشأ بمدينة تلمسان "فكان مما لا يعهد منه في سالف الأزمان ولا سبق شكله في قواعد البلدان".⁴

¹ ابن مرزوق التلمساني، المسند...، مصدر سابق، ص 447.

² ينظر: ابن مرزوق التلمساني، المسند...، نفس المصدر، ص 403. - محمد بن رمضان بن شاوش، ج 2، مرجع سابق، ص 223.

³ إبراهيم حركات، مج 2، مرجع سابق، ص 155.

⁴ ابن مرزوق التلمساني، المسند...، مصدر سابق، ص 402.

2.2 المنشآت الدينية والثقافية:

تعتبر القوة العسكرية وحدها غير كافية لتوطيد أركان الدولة بل يتطلب في بعض الأحيان الاعتماد على دعائم دينية لأنها "تذهب بالتنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية وتفرد الوجهة إلى الحق فإذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم لم يقف لهم شيء لأن الوجهة واحدة والمطلوب متساو عندهم"¹ وإلى جانب الدين وجب الارتكاز على دعائم فكرية وعلمية، يمثلها الفقهاء والطلاب وأهل العلم.

من هذا المنطلق فإن المنشآت العمرانية الكبيرة والتميزة مثل تلك التي شيدها بنو مرين في تلمسان تندرج ضمن هذا الإطار، فحتى إذا اعتبرنا أن هذه المنشآت بنيت لأغراض دينية كتقديس الفقهاء والأئمة الصالحين أو لتخليد ذكرى عالم معين، أو كجزء من النمو الثقافي الذي شهدته أقطار المغرب الإسلامي في تلك الفترة، فإنها لم تخل من الأبعاد السياسية التي تهدف إلى التأثير على مختلف الشرائح الاجتماعية وإظهار السلاطين كحماة للدين والعلم، وبالتالي يتم إزالة تلك الصورة السلبية التي تظهرهم كغزاة طامعين من نفوس العامة والتي رسمتها بالضرورة حشود جيوشهم وآلات حصارهم الحربية.

وعليه فإن اعتماد سلاطين بني مرين على العلم كأحد مظاهر دولتهم انعكس ضمناً في تشييدهم للعمائر وتنشيط حركة البناء، للتعبير عن رقي حضارتهم من جهة والسعى إلى توفير الشرعية التي كانوا يفتقرون إليها من جهة أخرى، ويعد السلطان أبو الحسن المريني من أبرز هؤلاء السلاطين حيث استفاد من الرخاء الاقتصادي الذي تمتعت به الدولة المرينية خلال عهده وكان بناء هذه المنشآت من مدارس، ومساجد، وزوايا... دلالة على ضم ملك بني زيان إلى دائرة نفوذهم ومحاولة التأثير على سكانها لكسب رضاهم وضمهم إلى مشاريعه التوسعية، من المنشآت الدينية والثقافية التي شادتها مرين على نطاق ملك دولة بني زيان:

¹ عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة...، مصدر سابق، ص 198.

2. 2. 1 المساجد:

شيد سلاطين بني مرين عدة مساجد في المغرب الأوسط، وامتاز فنهم في هذه المساجد بالدقة وكثرة التزيينات والمقرصنات وخاصة حول المحراب،¹ ولقد وجدوا في بناء هذه المساجد وسيلة للتعامل مع فئات المجتمع الزياني، من هذه المساجد:

2. 2. 1. 1 مسجد المنصورة:

يعود تاريخ بناء هذا المسجد خلال عهد السلطان المريني أبو يعقوب يوسف ولقد أشرف صاحب المسند بنفسه على تنمة بناء مسجد المنصورة أو الجامع الكبير كما سماه ابن أبي زرع الفاسي،² أي بعد أن تجمد إكماله بعد وفاة أبو يعقوب يوسف، يقع هذا المسجد وسط المدينة الجديدة اتخذ شكلا مستطيل يبلغ طوله حوالي مائة متر (100متر) وستون متر عرضا (60متر) واحتوى على أبواب عديدة أورد محمد بن رمضان شاوش عددها ثلاثة عشر بابا (13باب)، أربعة في الواجهة الشرقية ومثلهم غربا واثنان مصاقبين ليمين المحراب ويساره وواحد تحت المئذنة واثنين عند يمينه ويساره.³

كان لهذا الجامع قاعة صلاة تتألف من تسع بلاطات وثلاثة عشر رواقا (13 رواق) ومن صحن ذو الشكل المربع تبلغ مساحته تسع مائة متر مربعا (900 متر مربع) يتوسطه حوضا للوضوء، محاط بثلاث أروقة من جانبيه الشرقي والغربي، وواحد من جانبه الجنوبي.⁴

ولقد أشاد ابن مرزوق بهذا الجامع ووضعه في المرتبة الثانية بعد جامع قرطبة من حيث دقة التصميم وجمال الشكل وروعة الزخرفة مبديا إعجابه بالتنسيق المعماري الذي يميز الجامع

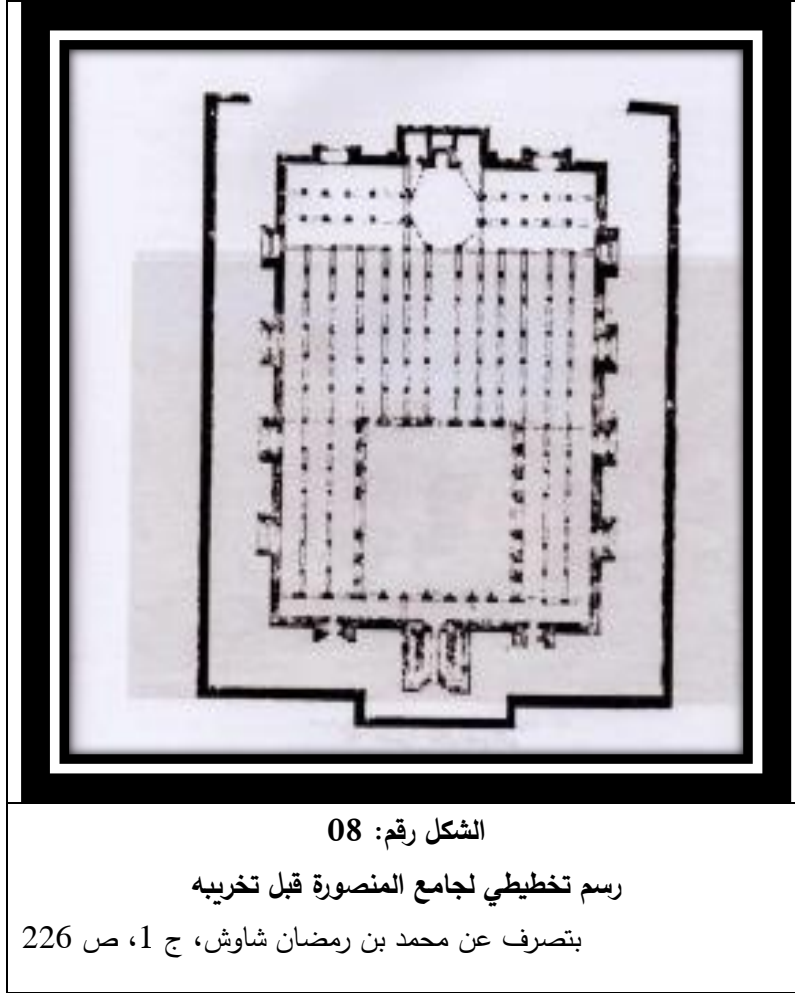
¹ إبراهيم حركات، مرجع سابق، مج 2، ص 159.

² ينظر: الأنيس...، مصدر سابق، ص 387. مريم سكاكو، سلاطين بني مرين في مدينة تلمسان (تشيد العمائر واستقطاب العلماء... أية علاقة)، دورية كان التاريخية، العدد الثامن والعشرون، (من ص 100 إلى ص 107)، الجزائر، جوان، 2015، ص 101.

³ ينظر: محمد بن رمضان شاوش، مرجع سابق، ج 1، ص 227. -فوزية سعاد بوجلابة، فائزة براهيمي، "السمات المعمارية والملاح الفنية للعمارة المرينية بتلمسان- دراسة أثرية"، حوليات جامعة قلمة للعلوم الاجتماعية والإنسانية، مج 16، ع 2، (من ص 475 إلى ص 490)، الجزائر، ديسمبر 2022، ص 480.

⁴ محمد بن رمضان شاوش، ج 1، مرجع سابق، ص 227.

مشيرا إلى تفوقه حتى على جامع الكتبيين في مراكش وأكد أنه يتميز بفخامة استثنائية، خصوصا في استخدام الرخام المجزع بدقة صنعه الذي يضفي على المكان طابعا فريدا، كما أبرز روعة منبره الذي يتفرد بزخارف دقيقة للغاية لا يتجاوز حجمها البندق أو الحمص،¹ إذ بني منبره بالحجارة الصلبة، يبلغ ارتفاعها الآن أربعين مترا بعد أن سقطت طبقتها العليا (كانت مكونة من رواق ذو أقواس منكسرة وأعمدة ممشوقة مشابهة للأعمدة للأندلسية والمغربية)، ولم تبقى منها إلا الطبقة السفلى، فإن هذه الطبقة تحتوي على أربعة أنواع من الزخارف، كل نوع منها مباين لصاحبه، أما مئذنة الجامع فإنها فريدة في نوعها، ولا تضاهيها أي مئذنة أخرى في العالم الإسلامي بشهادة الرحالة.² (الشكل رقم: 08)



¹ ابن مرزوق التلمساني، المسند...، مصدر سابق، ص 403.

² ينظر: ابن مرزوق التلمساني، المسند...، مصدر سابق، ص 402-403. -معروف بالحاج، مرجع سابق، ص 318.

2. 2. 1. 2 جامع وجدة:

بناه يوسف أبو يعقوب عام (696هـ/1297م)¹.

2. 2. 1. 3 مسجد سيدي أبي مدين: (الشكل رقم: 09)

يطلق عليه أيضا مسجد العباد بناه أبي الحسن المريني عام (739هـ/1339م) بالعباد الواقعة على بعد ميل واحد من جنوب تلمسان،² وهذا الموضع هو "مدفن الصالحين وأهل الخير، وبه مزارات كثيرة"،³ أوكل أبو الحسن المريني الإشراف على بناءه لابن مرزوق التلمساني وعمه وصنو أبي الصالح أبو عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق، ولقد أنفق أبو الحسن المريني المال الكثير في تشييده، مدخله مغطى بالفسيفساء يتوفر على خمس بلاطات وثلاث أساكيب (أورقة)، ومحراب مزخرف بالآجر والطين.⁴

أما سقفه فتألف من تكوينات هندسية دقيقة مزدانة بعناصر زخرفية خشبية محكمة الصنع، تتباين في توزيعها بين مختلف الاتجاهات، وقد نفذت وفق تقنيات الترصيع والتشكيل الخشبي المتقدم، أما المنبر فيتميز بتصميم معماري متقن مشيد من خشب الصندل ومطعم بالعاج والأبنوس المذهب، ما يعكس مستوى رفيعا من الحرفية في فن النجارة والزخرفة.⁵

بينما الباب الجوفي الذي يفتح على المدرج ينزل فيه إلى قبر الشيخ أبو مدين شعيب بن الحسن الغوث (ت 594هـ/1198م)،⁶ مصفح بالنحاس على كلا مصراعيه يتميز تصميمه

¹ ينظر: ابن أبي زرع، الأنيس...، 385 مصدر سابق، ص 385. -إبراهيم حركات، مج 2، المرجع السابق، ص 160.

² ينظر: مارمول كرخال، ج 2، مصدر سابق، ص 323. -حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 24. -محمد بن رمضان شاوش، ج 1، مرجع سابق، ص 234.

³ العبدري، مصدر سابق، ص 48.

⁴ ينظر: ابن مرزوق التلمساني، المسند...، مصدر سابق، ص ص 403 - 404. -إبراهيم حركات، مج 2، مرجع سابق، ص 160. -محمد بن رمضان شاوش، ج 1، مرجع سابق، ص 249. -مريم سكاكو، مرجع سابق، ص 101.

⁵ ابن مرزوق التلمساني، المسند...، مصدر سابق، ص 404.

⁶ ينظر: حسن الوزان، ج 2، مصدر سابق، ص 24. -محمد بن رمضان شاوش، ج 1، مرجع سابق، ص

المعماري وزخارفه المذهلة فهو مخرم بأشكال من النحاس الملونة،¹ يحتوي باب الجامع على قنطرة مقوسة على شكل حذوة الفرس لها كسور دقيقة غير ظاهرة في قمته، يحيط بالقنطرة إطار بديع مكون من ثلاثة أقسام منقوشة بزخارف نباتية - على شكل أوراق وأزهار - وله إطار ينقسم إلى قسمين رئيسيين، القسم الأول يتكون من حاشية عريضة ومدورة تحيط بالقوس وتمتد لأكثر من متر بعد انتهاء القوس أما الثاني فيتألف من زاويتين.²

نقش فيها النص التالي: "الحمد لله وحده، أمر بتشيد هذا الجامع المبارك مولانا السلطان عبد الله علي بن مولانا السلطان أبي السعيد عثمان بن مولانا السلطان أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق، أيده الله ونصره، عام تسعة وثلاثين وسبعمائة. نفعمهم الله به"، وتوجد فوق هذه الحاشية زخرفة هندسية مصنوعة من الأجر مزينة بصفحات من المينا السمراء وحواشي خضراء، تحتوي على خمسة نقوش وردية تحيط بنجوم خماسية فيشكل هذا التصميم إفريزا فخما للباب الكبير، الذي يتوج بطبقة من القرميد محمولة على صف من المساند المزدوجة ودائرة القنطرة مزخرفة بزخارف منتظمة تحتوي على ثلاثة ألوان الأبيض، الأصفر والأسمر.³

يتم الوصول إلى الجامع عبر درج مكسو بالرخام تعلوه قبة منفذة بأسلوب المقرص، تتميز بخصائصها الهندسية الفريدة وندرة نظائرها المعمارية، مما يعكس تطور تقنيات التشييد والزخرفة في العمارة الإسلامية،⁴ يمكن قراءة في سقف هذه القبة النص عند بداية القوس: "هذا ما أمر به مولانا أبو الحسن عبد الله علي"، والحاشية التي تحمل رسم النص مكونة من ست صفحات من الزليج المزخرف، أما زخرفة القبة الجبسية تعتبر من أجمل ما أنجزه فنانون المغرب حيث تضم طبقتين تحتويان على صفحات صغيرة مزينة بأقواس رشيقة، الجزء العلوي من القبة مزين بنقوش متدلّية مألوفة تحت هذه الزخرفة توجد حاشيتان تحتويان على خط كوفي بديع، تشكّان إطاراً أنيقاً لمداخلين يؤديان إلى غرفتين مخصصتين لتعليم القرآن الكريم للصبيان، بالإضافة إلى الباب

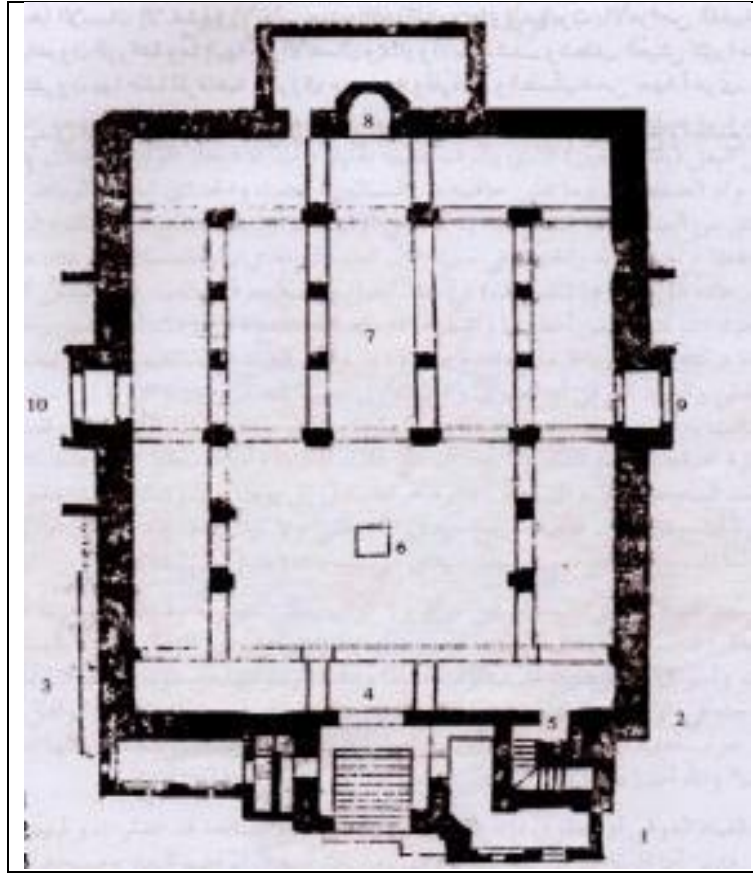
¹ ابن مرزوق التلمساني، المسند...، مصدر سابق، ص 404.

² مارمول كريخال، ج 2، مصدر سابق، ص 323.

³ محمد بن رمضان شاوش، ج 1، مرجع سابق، ص 245.

⁴ ابن مرزوق التلمساني، المسند...، مصدر سابق، ص 404.

الجوفي، يوجد بابان آخران متقابلان باب شرقي يصله بالحمام والمراحيض وباب غربي يصله بالمدرسة.¹



الشكل رقم: 09

مخطط جامع المنصورة

بتصرف عن محمد بن رمضان شاوش، ج 2، ص 226

2. 2. 1. 4 جامع القصبة:

شيد هذا المسجد في تلمسان على يد السلطان أبو الحسن المريني،² ويعد من أبرز المعالم المعمارية في المدينة لما يمتاز به من تصميم فريد يختلف عن المساجد المعتادة في تلك الحقبة، حيث يبرز بتوزيع دقيق للرواقين وتنظيم متقن للصحن، كما ينفرد المسجد بتوفير نظام مائي فعال،

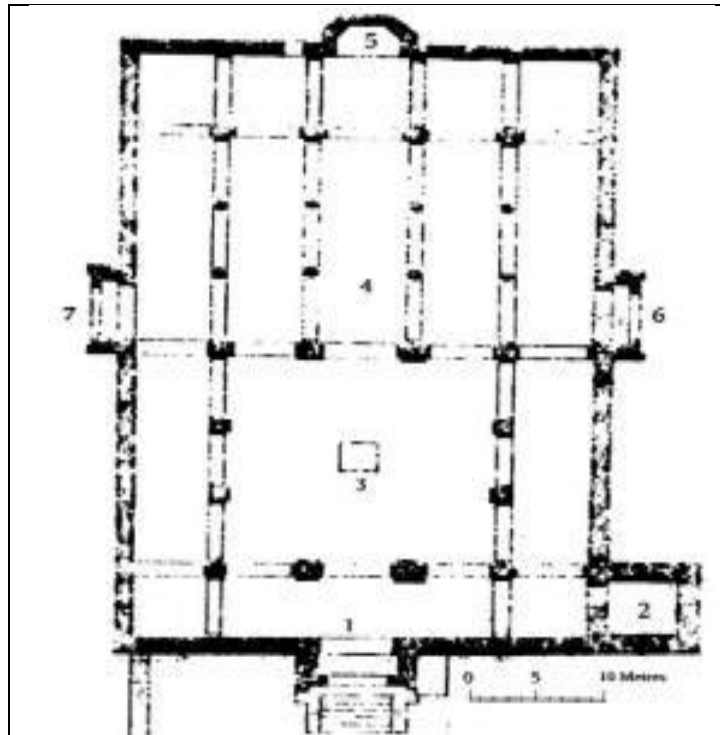
¹ محمد بن رمضان شاوش، ج 1، مرجع سابق، ص 245.

² إبراهيم حركات، مج 2، مرجع سابق، ص 160.

فضلا عن المساحات الواسعة التي تعزز من الراحة الوظيفية، والزخارف تشكل أبرز الملامح المميزة للثريات الفضية والصفراوية التي تضيف على المكان طابعا جماليا استثنائيا.¹

2. 1. 2. مسجد سيدي الحلوي: (الشكل رقم: 10)

يوجد هذا الجامع خارج أسوار مدينة تلمسان من جهة الشمال الشرقي، شيد تخليدا لذكرى المتصوفة أبي عبد الله الشونزي الإشبيلي المعروف بالحلوي بأمر من السلطان أبي عنان فارس سنة (754هـ / 1353م)، وهو شبيه إلى حد كبير بمسجد العباد.²



الشكل رقم: 10

مخطط لجامع سيدي الحلوي (تلمسان)

بتصرف عن محمد بن رمضان شاوش، ج 1، ص 261

¹ ابن مرزوق التلمساني، المسند...، مصدر سابق، ص 402.

² ينظر: محمد بن رمضان شاوش، ج 1، مرجع سابق، ص 260. -مريم سكاكو، مرجع سابق، ص 101. Michel Terrasse, Une brillante chpître de l' architecture marocine: La période mérinide, Hespérid- Tamuda LII (3), (p135- 150), Paris, 2017, p 144

2. 2. 2 المدارس:

قصد بني مرين من بناء المدارس إلى جانب التدريس هو تخصيص مكان لإيواء الطلبة يتولى الإشراف عليها مقدم يخضع لمراقبة القاضي بعد أن يتم اختياره من قبل الطلبة،¹ ولم يقتصر اهتمام مرين بتشيد المدارس في حضرته فاس فقط، بل شملت سائر المناطق التي خضعت تحت سلطتها بما فيها بلاد المغرب الأوسط، ومصير مدارس مرين بالمغرب الأوسط كان أكثر حفا من مدارس بني زيان، حيث لازال البعض منها إلى وقتنا الحاضر وإن تعرض جزء كبير منه للتلف بفعل الزمن والعوامل الطبيعية والإهمال من هذه المدارس:

2. 2. 2. 1 مدرسة سيدي أبي مدين: (الشكل رقم: 11)

يطلق عليها أيضا سم المدرسة الخلدونية شادها السلطان أبو الحسن المريني بعد ثماني سنوات من بناء الجامع الذي بجانبها عام (747هـ/1347م) خلال فترة استيلائه على تلمسان،² بمحاذاة جامع أبي مدين من الجهة الغربية،³ ولقد غلب عليها أيضا اسم المدرسة الخلدونية،⁴ تعد من أجمل مدارس المغرب الأوسط نتيجة لما تمتاز به من زخرفة وفن معماري ذو الأقواس المنكسرة، والآجر المدهون ولا تزال هذه المدرسة قائمة لليوم، من ذلك وصف حسن الوزان لها بأنها "مدرسة جميلة جدا".⁵

2. 2. 2. 1 الوصف المعماري للمدرسة:

يوجد لهذه المدرسة باب وحيد يؤدي إلى ساحة صغيرة تحتوي على قوس يحمل شكل حذوة الفرس، محاطة بمستطيل مغطى بزخارف فسيفسائية داخل مستطيل أكبر، توجد فوق الباب زخرفة تستند على دعامة صغير وعند الدخول يجد الزائر نفسه في ساحة مستطيلة بها حوضان واحد كبير محاط بشباك حديث وآخر صغير في وسطه نافورة ماء، والجدران مغطاة بزليج حديد ويوجد على جانبي الساحة رواقان يحمل سقفيهما عشر أعمدة خمسة في كل جهة، كذلك توجد أربعة

¹ إبراهيم حركات، مج 2، مرجع سابق، ص 155.

² **ينظر:** الناصري، ج 3، مرجع سابق، ص 125. - إبراهيم حركات، مج 2، مصدر سابق، ص 159.

³ ابن مرزوق التلمساني، المسند...، مصدر سابق، ص 406.

⁴ نبيل شريخي، مرجع سابق، ص 37.

⁵ مصدر سابق، ص 24.

أروقة صغيرة مقابل الباب وأربعة أخرى أمام القاعة المخصصة للدروس والصلوات، والبيوت المخصصة لسكن الطلبة تفتح على الرواقين ستة بيوت في كل رواق لكل منها باب مقوس ونافذة صغيرة لإدخال الضوء،¹ ومكان مخصص للمصباح والكتب، وعلى يسار الداخل يوجد درج يصعد إلى الطابق العلوي الذي يحتوي على بيوت مشابهة وعلى اليمين يوجد مرحاض بفناء صغير وأحواض ماء متصلة بساقية، يمتد ممشى مغطى بقناطر صغيرة بين الفناء وصحن المدرسة، في الجهة الجنوبية توجد قاعة كبيرة للدراسة والصلاة بسقف مغطى بقبة خشبية ونوافذ لدخول الضوء ومحراب مزخرف بالجبس.²

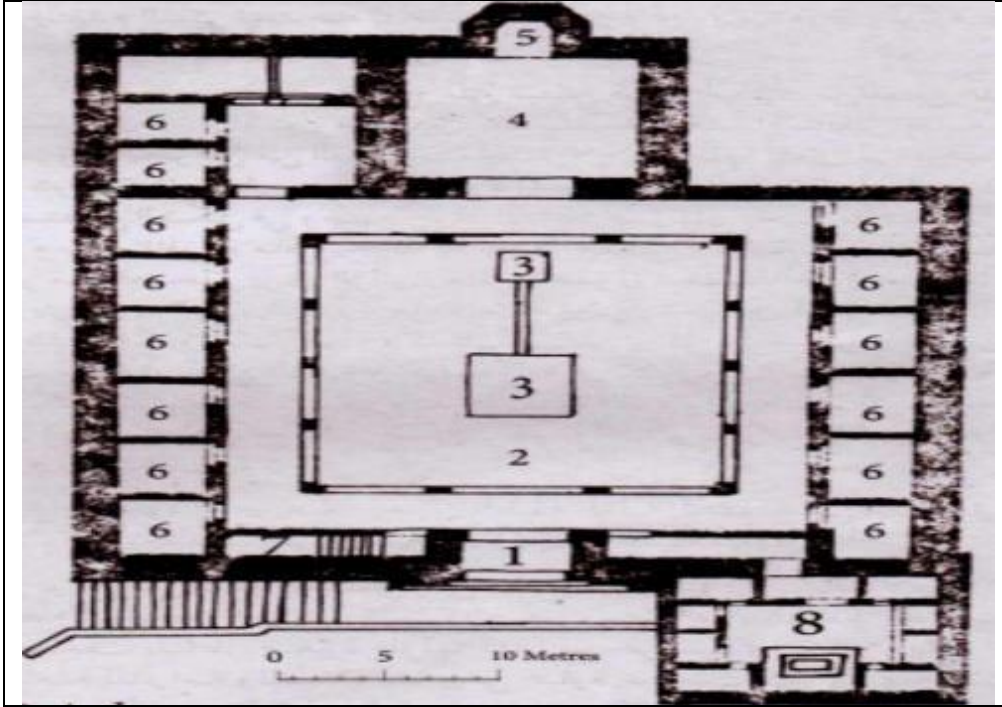
تحتوي المدرسة على زخارف ذات الطابع الأندلسي مع استخدام القيشاني والرسوم النباتية والزخارف الهندسية كما تحتوي القاعة على نقش خشبي بنص قصيدة في مدح مؤسس المدرسة:

بناني كي يقيم لدينا	الإسلام أمير المسلمين
أبو الحسن الذي فيها المزايا	تفوق النظم بالدم الثمين
إمام لا يعبر عنه وصف	بما أجرى به الأعمال دينا
سليل أبي سعيد ذي المعالي	أقر إلى الأمام بها عيونا
وقد سماه خالقه عليا	فأعلاه وأعطاه يقينا
أبانا بالمصلحات من دينا	وإيماننا يكون له معينا
لشهر ربيع الثاني لسبع	خلون من السنين وأربعينا
إلى سبع مئين فدام سعد	محوله مقاصده فنونا
وكان له الإله على اتصال	على مرضاته دأبا معينا. ³

¹ ينظر: محمد بن رمضان شاوش، ج 1، مرجع سابق، ص 257. -عبد العزيز لعرج، "مدرسة العباد (سيدي أبي مدين): نموذج للمدارس الإسلامية بالمغرب الإسلامية بالغرب العربي"، دراسات إنسانية، (من ص 129 إلى ص 157)، الجزائر، ص 136.

² عبد العزيز لعرج، مدرسة العباد...، نفس المرجع، ص ص 136 - 137

³ محمد بن رمضان شاوش، ج 1، مرجع سابق، ص 259.



الشكل رقم: 11

مخطط مدرسة سيدي أبي مدين (العباد)

بتصرف عن رمضان بن محمد شاوش، ج 2، ص 258

2. 2. 2. مدرسة سيدي الحلوي

أسست هذه المدرسة من قبل السلطان أبو عنان المريني أثناء استيلائه على تلمسان سنة (754هـ/1354م)¹ بالقرب من ضريح الولي الصالح أبي عبد الله الشوزي الإشبيلي أين يوجد المسجد، ولكن مدرسة الحلوي لم تكن لها شهرة واسعة مقارنة بالمدارس الأخرى المتواجدة بالمغرب الأوسط.²

¹ نبيل شريخي، مرجع سابق، 37.

² عبد العزيز فيلالي، ج 1، مرجع سابق، ص 144.

خلاصة

يتناول هذا الفصل تأثير الأوضاع السياسية والعسكرية على التطور العمراني في بلاد المغرب الإسلامي بين القرنين السابع والتاسع الهجري، حيث تسببت النزاعات بين بني حفص وبني زيان في استهداف المدن الحدودية مثل قسنطينة وبجاية التي تعرضتا لهجمات متكررة، ورغم محدودية تأثير المرينيين في تخريب عمران إفريقية فإن حملة أبي عنان المريني شكلت استثناء باستهدافها بعض الحصون والقصور عقابا للقبائل المتمردة الرافضة لدفع الإتاوات.

كذلك أثرت الحروب على البنية العمرانية للدولة الزيانية خصوصا تلمسان التي شهدت تدميرا لحصونها وأسوارها بفعل الأسلحة المتطورة، مثل المنجنيق وقوس الزيار، كما ساهمت الاستراتيجيات الانتقامية لقادة الجيوش في تدمير المدن والقرى، حيث لم تكن هذه الأضرار مقتصرة على الأعداء فحسب بل شملت أيضا التنافسات الداخلية بين القبائل والحكام، مما أدى إلى تفاوت في مصير العمران بين إعادة البناء والاندثار الكامل.

في المغرب الأقصى عكست فترة حكم بني مرين مظاهر دمار واسعة بسبب النزاعات الداخلية والحملات العسكرية، ما أدى إلى انهيار مدن رئيسة مثل تاوريرت وسجلماسة وخسارتها لوظيفتها الاقتصادية وساهمت التدخلات الخارجية والسياسات القمعية في تفاقم الأوضاع، مما دفع السكان إلى النزوح.

أما في المجال التحصيني فقد اقتصرت جهود الحفصيين على ترميم الأسوار في العواصم والمدن الساحلية معتمدين على التحصينات الموحدية والموروث الدفاعي لبني خرسان، ورغم إحاطة مدينة تونس بأسوار إلا أنها وصفت بأنها قصيرة وضعيفة، مما جعلها عرضة للاختراق، وقد شهدت بعض التحصينات تحسينات دفاعية لكنها لم تكن كافية لصد التهديدات.

في المقابل أبدى بنو زيان اهتماما ببناء التحصينات خصوصا في عهد يغمراسن بن زيان، الذي تبنى استراتيجية دفاعية متقدمة لحماية المدن من الأخطار الخارجية.

كما عكست الحصون المرينية أهمية الدفاع العسكري وهو ما برز في تحصينات فاس التي مثلت نموذجا متطورا في الهندسة الدفاعية، حيث اعتمد المرينيون على هذه المنشآت لضمان بقاء دولتهم في ظل الاضطرابات المستمرة.

تؤكد الدراسة أن النزاعات العسكرية في بلاد المغرب الإسلامي أدت إلى تدمير واسع للعمران، إذ أسهمت سياسات الهدم المتكررة في تضرر العديد من المدن، على الرغم من الجهود التي بذلتها الدول المتضررة لإعادة الإعمار، فإن عمليات الترميم غالبا ما كانت مجرد محاولة لتعويض الخسائر أكثر منها مشروعا استراتيجيا مستداما، وكانت الدولة الزيانية الأكثر تأثرا بهذه الصراعات، مما دفع سلاطينها لا سيما أبو حمو موسى إلى تنفيذ مشاريع تحصينية لحماية المدن، في المقابل عمد بعض القادة -الذين دمروا العمران- لاحقا إلى إعادة التعمير بعد فرض سيطرتهم.

ويختتم الفصل بتسليط الضوء على دور المنشآت العمرانية الكبرى في تعزيز شرعية الحكم، حيث اعتمد بعض السلاطين وخصوصا المرينيين، على البناء والتشييد كأداة سياسية ودينية لإبراز هيبتهم وترسيخ سلطتهم، ويتجلى هذا التوجه في المشاريع التي أنشأها بنو مرين في تلمسان التي لم تكن مجرد منشآت معمارية، بل عكست امتداد النفوذ المريني في المناطق الخاضعة لسيطرتهم، كما يظهر في إنجازات السلطان أبي الحسن المريني التي شكلت دليلا ماديا على الطابع السياسي والديني لحكمه.

نتائج الدراسة

نتائج الدراسة:

استناداً إلى ما طرح في هذه الأطروحة المعنونة بـ "الصراع بين دول المغرب الإسلامي وأثره على الجانب العمراني (ق 7-9 ق هـ)"، خلصت الدراسة إلى مجموعة من النتائج الأساسية التي تعكس التأثير العميق للصراعات السياسية والعسكرية على المشهد العمراني في المنطقة، والمتمثلة في:

- أدى انهيار الدولة الموحدية إلى إعادة تشكيل الخارطة السياسية للمغرب الإسلامي من خلال نشوء الدول الثلاثة: الدولة الحفصية في إفريقية، الدولة الزيانية في المغرب الأوسط والدولة المرينية في المغرب الأقصى، وعلى الرغم من استقرار هذه الدول لقرون إلا أن حدودها السياسية ظلت عرضة للتحويلات المستمرة بفعل الصراعات الإقليمية وإعادة توزيع موازين القوى.

- شكلت التنافسات السياسية والعسكرية بين هاتين الدولتين تجدد متواصل للصراع، حيث ارتكزت على دوافع توسعية مستمدة من الأسس القبلية التي قامت عليها، إلى جانب الطموحات المتكررة لوراثة الإرث السياسي للموحدين، غير أن هذه النزاعات لم تسفر عن هيمنة مطلقة لأي من الأطراف، مما أدى إلى إعادة تشكيل مستمر لمجالات النفوذ وفق منطق التوازنات المتغيرة.

- تميزت العلاقات بين الحفصيين والزيانيين بالصراعات الناتجة عن التنافس على المغرب الأوسط، إذ اتجه الحفصيون إلى فرض هيمنتهم الإقليمية في حين سعى بنو زيان وفق سياسة توسعية ممنهجة إلى الاستفادة من الفراغات السياسية لتعزيز نفوذهم شرقاً.

- أما الصراع الزياني المريني فقد ارتبط بالمنافسة على الزعامة والموارد الاستراتيجية خاصة في المناطق الحدودية مثل تلمسان ووجدة وسجلماسة، حيث شكلت هذه المناطق بؤراً متجددة للمواجهة العسكرية، وتمكنت السلطة المرينية في عدة مراحل من بسط نفوذها على المغرب الأوسط سواء من خلال السيطرة المباشرة على تلمسان أو عبر إخضاع بني زيان لسلطتهم بوسائل غير مباشرة.

- بالرغم من أن الدولة الزيانية كانت الحلقة الأضعف بحكم موقعها الجغرافي بين القوتين الحفصية والمرينية، فإنها استطاعت الحفاظ على وجودها السياسي عبر تبني استراتيجية دفاعية ذات طابع توسعي مكنها من تقليص التهديدات الخارجية.

- انعكس التوتر السياسي والعسكري بوضوح على العمران في المنطقة حيث أدت حروبها مع بني زيان إلى جانب الحروب الداخلية والتهديدات الصليبية، إلى تدهور تراجع حركة البناء فيالدولة الحفصية لاسيما في المناطق الحدودية مثل قسنطينة وبجاية، أما التأثير المريني على المجال العمراني في إفريقية فقد كان محدودا باستثناء ما خلفته حملة أبي عنان المريني من دمار لبعض المنشآت في سياق استراتيجي عقابي، كما اعتمد الحفصيون على انتهاج سياسة تدمير الحصون بوصفها إجراء دفاعيا لاحتواء الخطر الزياني.

- تعرضت البنية العمرانية الزيانية لاستنزاف ممنهج نتيجة للحصارات العسكرية المتكررة لاسيما في تلمسان، حيث لعبت التقنيات الحربية مثل المجانيق دورا حاسما في تقويض المنشآت المعمارية، كما أسهمت استراتيجيات العقاب والانتقام في إلحاق دمار واسع بالمدن والقرى سواء من قبل القوى المتصارعة أو في سياق النزاعات الداخلية.

- شهد المغرب الأقصى تأثيرا بالغا للصرعات المرينية على النسيج العمراني حيث تسببت الحملات العسكرية في انهيار مراكز حضرية رئيسة مثل تاويرت وسجلماسة، مما أدى إلى موجات نزوح واسعة للسكان، نتج عنها تفريغ المجال العمراني من وظائفه الاقتصادية والاجتماعية.

- افتقرت الدولة الحفصية إلى مشروع عمراني واضح المعالم حيث انحصرت جهودها في ترميم الأسوار والمدن الساحلية الموروثة من سابقهم، غير أن هذه التحصينات لم تكن كافية لمجابهة التحديات الأمنية المتعاقبة، وعلى النقيض من ذلك فرضت الحروب المستمرة مع المرينيين والحفصيين على الدولة الزيانية نمطا عمرانيا قائما على التحصينات المتينة، إذ برز بنو زيان في بناء القلاع والأسوار محولين العمران إلى أداة دفاعية محورية، وهو ما انعكس في شبكة الحصون التي شكلت خط الدفاع الأول ضد التهديدات الخارجية.

- شكلت العمارة الدفاعية إحدى الركائز الجوهرية في الاستراتيجية المرينية حيث لم تقتصر جهودهم على بناء الحصون في المناطق الحدودية، بل امتدت إلى تحصين العواصم الكبرى وهو ما يتجلى بوضوح في تحصينات فاس التي عكست مستوى عاليا من التطور الهندسي في مجال الدفاع العسكري.

- أكدت الدراسة أن الصراعات العسكرية بين دول المغرب الإسلامي كانت من بين العوامل التي أدت إلى إضعاف العمران -إلى جانب الكوارث الطبيعية والثورات والتمردات الداخلية والأخطار النصرانية- إذ أدى التدمير الممنهج للمدن والهياكل المعمارية إلى خسائر حضارية جسيمة، لم تقلح محاولات إعادة الإعمار المتقطعة في تعويضها بصورة مستدامة.

- أظهرت المعطيات أن العمران لم يكن مجرد انعكاس للتقلبات السياسية بل شكل أداة لإبراز الهيمنة السياسية والرمزية الدينية، كما يتجلى في المباني المرينية بتلمسان التي حملت بعدين سياسي وديني مؤكدة على نفوذ السلطة في مجال جغرافي ظل يشهد اضطرابات مستمرة.

الملاحق



الملحق رقم: 01

صورة لمئذنة جامع الزيتونة (تونس)

من تصوير الطالبة

الجهة الأمامية لمئذنة جامع القصبة



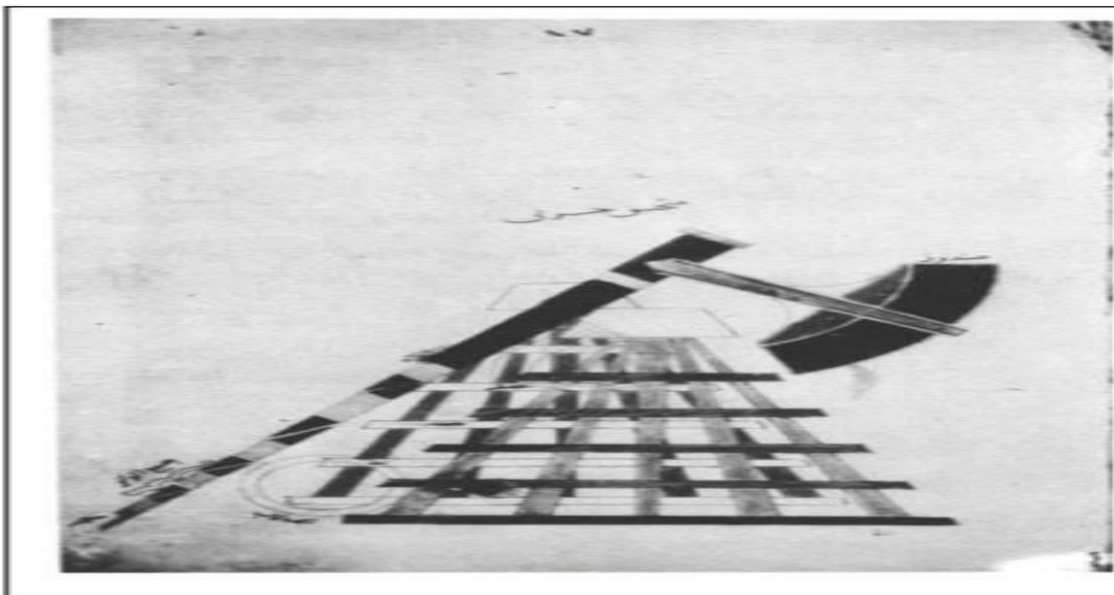
الجهة الخلفية لمئذنة جامع القصبة



الملحق رقم: 02

صورة لمئذنة جامع القصبة (جامع الموحدين)

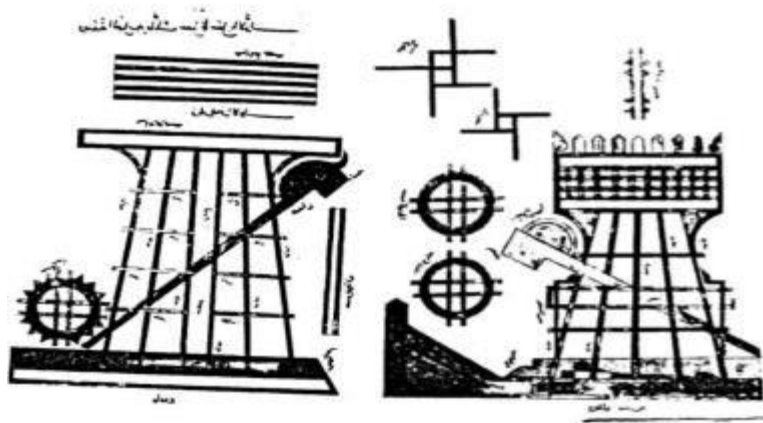
من تصوير الطالبة



الملحق رقم: 03

آلية شد قوس الزيار المستعمل في حصار تلمسان

عبد العزيز لعرج، مدينة المنصورة...، ص 324



الملحق رقم: 04

أشكال منجنيق الزيار من خلال كتاب الأنبي في المنجنيق

الزردكاش، مصدر سابق، ص ص 56 - 57.





الملحق رقم: 07

صورة لتفاصيل مدخل باب بحر (تونس)

من تصوير الطالبة



الملحق رقم: 08

صورة للسور الداخلي لمدينة فاس من الناحية الشرقية

محمد عياش، مرجع سابق، ص 189



الملحق رقم: 09

صورة للسور الخارجي لمدينة فاس من الناحية الشرقية

محمد عياش، مرجع سابق، ص 186



الملحق رقم: 10

صورة لتفاصيل باب السمارين (فاس الجديد)

محمد عياش، مرجع سابق، ص 202



الملحق رقم: 11

صورة لتفاصيل باب السبع من الناحية الخارجية (مدينة فاس الجديد)

محمد عياش، مرجع سابق، ص 196



الملحق رقم: 12

صورة لتفاصيل باب الأمر من الناحية الخارجية

محمد عياش، مرجع سابق، ص 207



صورة لـ سور المنصورة من الخارج



صورة لـ سور المنصورة من الداخل

الملحق رقم: 13

صورة لسور المنصورة المرينية

من تصوير الطالبة

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع

أولاً: المصادر:

1. ابن الأحمر إسماعيل (807هـ):

- روضة النسر في دولة بني مرين، المطبعة الملكية، الرباط، المغرب، 1962م.
- تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان، تحقيق وتقديم وتعليق هاني سلامة، مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى، بورسعيد، مصر، 2001م.

2. الإدريسي أبي عبد الله محمد (ع ق 6هـ):

- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، المجلد الأول، القاهرة، مصر، 2002م.

3. البكري أبو عبد الله (ت 487هـ):

- المغرب في ذكر إفريقية والمغرب، (جزء من كتاب المسالك والممالك)، مكتبة المثنى، مطبعة الجزائر الحكومية، بغداد، العراق، الجزائر، 1857م.
- المسالك والممالك، تحقيق وفهرسة جمال طلبة، دار الكتاب العلمية، الجزء الأول، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 2004م.

4. ابن بطوطة محمد بن عبد الله (ت 779هـ):

- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تقديم وتحقيق محمد عبد المنعم العريان، مراجعة مصطفى القصاص، دار أحياء العلوم، الجزء الأول، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 1987م.

5. البيدق أبي بكر بن علي (كان حيا في منتصف ق 6هـ):

- أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، المغرب، 1971م.

6. التجاني أبو محمد عبد الله (ت721):
 - رحلة التجاني، تقديم حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1981م.
7. التنبكتي أحمد بابا (1036هـ):
 - نيل الابتهاج بتطريز الديباج، عناية وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، دار الكاتب، الطبعة الثانية، طرابلس، ليبيا، 2000م.
8. التنسي أبي عبد الله محمد (ت899هـ):
 - تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، (مقتطف من نظم الدر والعقبان في بيان شرف بني زيان)، تحقيق محمود بوعياض، منشورات ANEP، الجزائر، 2010م.
9. الجزنائي علي (ت807هـ):
 - جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية، الطبعة الثانية، الرباط، المغرب، 1991م.
10. الجوهري إسماعيل بن حماد (ت398هـ):
 - الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية مرتب ترتيباً ألفبائياً وفق أوائل الحروف)، مراجعة وعناية محمد محمد تامر وأنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، مصر، 2009م.
11. ابن حزم الأندلسي علي (ت456هـ):
 - جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، الطبعة الخامسة، القاهرة، مصر، دون سنة.
12. أبو حمو موسى الزياتي الثاني (ت791هـ):
 - واسطة السلوك في سياسة الملوك، تحقيق وتعليق محمود بوتريعة، دار الشيماء للنشر والتوزيع، دار النعمان للطباعة والنشر، الجزائر، 2012م.

13. الحميري عبد المنعم (ت900هـ):

- الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، الطبعة الثانية، بيروت، لبنان، 1984م.

14. الحنبلي عماد أبي الفلاح (ت1089هـ):

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار المسيرة، الجزء السادس، الطبعة الثانية، بيروت، لبنان، 1979م.

15. الخطيب لسان الدين (ت776هـ):

- رقم الحل في نظم الدول، المطبعة العمومية، تونس، 1898م.
- نفاضة الجراب في علالة الإغتراب، تحقيق وتقديم السعدية فاغية، مطبعة النجاح الجديدة، الجزء الثالث، الدار البيضاء، المغرب، 1989م.
- كناسة الدكان بعد انتقال السكان، (حول العلاقات السياسية بين مملكتي غرناطة والمغرب في القرن الثامن للهجري)، تحقيق محمد كمال سييانة، حسن محمود، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، مصر، دون سنة.
- الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، المجلد الرابع، الطبعة الأولى، القاهرة، مصر، 1977م.
- اللحة البدرية في الدولة النصرية، تصحيح محب الدين الخطيب، المطبعة السلطانية، القاهرة، مصر، 1928م.

16. ابن خلدون عبد الرحمان بن محمد (ت808هـ):

- المقدمة، ضبط وفهرسة خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2001م.
- التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، دار الكتاب اللبناني، لبنان، 1979م.
- تاريخ الدول الإسلامية بالمغرب، تحقيق مختار حساني، دار الهدى، أم البواقي، الجزائر، 2015م.

– العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط خليل شهادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، الجزء السادس والسابع بيروت، لبنان، 2000م.

17. ابن خلدون يحي (ت788هـ):

– بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، مطبعة ببيير بونطانا الشرقية، الجزء الأول، الجزائر، 1903م.

– بغية الرواد، تقديم وتحقيق وتعليق عبد الحميد حاجيات، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزء الثاني، الجزائر، 2001م.

18. ابن خرداذبة أبي القاسم عبيد الله (ت300هـ):

– المسالك والممالك، مطبعة بريل، ليدن، هولندا، 1889م.

19. ابن أبي دينار محمد ابن أبي القاسم (كان حيا سنة 1100هـ):

– المؤنس في أخبار افريقية وتونس مطبعة الدولة التونسية بحاضرتها المحمية، الطبعة الأولى، تونس 1870.

20. ابن أبي الربيع شهاب الدين أحمد بن محمد (ت272هـ):

– سلوك المالك في تدبير الممالك، تحقيق عبد العزيز بن فهد بن عبد العزيز آل سعود، دار العاذرية للطباعة والنشر، الدار العربية للموسوعات، الرياض، بيروت، السعودية، لبنان. 2010م.

21. ابن ابي زرع علي الفاسي (كان حيا سنة 726هـ):

– الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، المغرب، 1972م.

– الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، المغرب، 1972م.

22. الزركاش ابن أرنبغا (ت867هـ):

– الأنيق في المناجيق، تحقيق وتقديم إحسان هندي، دار الكتب الوطنية، الطبعة الأولى، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، 2013م.

23. الزركشي أبي عبد الله محمد (ك حيا 894هـ):

- تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق وتعليق محمد ماضور، المكتبة العتيقة، الطبعة الثانية، تونس، 1966م.

24. السبتي محمد بن القاسم (ت بعد 825هـ):

- اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الطبعة الثانية، الرباط، المغرب، 1983م.

25. ابن سعيد المغربي علي أبو الحسن (ت 685هـ):

- كتاب الجغرافيا، تحقيق وتعليق إسماعيل العربي، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 1970م.

26. ابن شماع أبي عبد الله أحمد (833هـ):

- الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق وتقديم الطاهر بن محمد المعموري، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ليبيا، تونس، 1984م.

27. الشماع الهنتاتي أبي العباس أحمد (ت 833هـ):

- مطالع التمام ونصائح الأنام ومنجاة الخواص والعوام في رد القول بإباحة إغرام ذوي الجنايات والإجرام زيادة على ما شرع الله من الحدود والأحكام، تحقيق عبد الخالق أحمدون، منشورات وزارة الأفاق والشؤون الإسلامية، المغرب. 2003م.

28. الصيرفي علي بن داود (ت 900هـ):

- نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان (825/842هـ)، تحقيق وتعليق حسن حبشي، مطبعة دار الكتب والوثائق التاريخية، الجزء الثالث، مصر، 1973م.

29. العباسي حسن ابن عبد الله (ت710هـ):

- أثار الأول في ترتيب الدول، تحقيق وتعليق عبد الرحمان عميرة، دار الجيل، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 1989م.

30. العبدري أبي عبد الله محمد (ت بعد 700هـ):

- رحلة العبدري، تحقيق علي إبراهيم كروي، تقديم شاكراً الفحام، دار سعد الدين، الطبعة الثانية، دمشق، سوريا، 2005م.

31. ابن عذاري المراكشي أبو العباس أحمد (ت695هـ):

- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني، محمد بن تاوويت، محمد زنيير، عبد القادر رزمامة، دار الغرب الإسلامي، دار الثقافة، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، دار البيضاء، المغرب، 1985م.

32. العمري شهاب الدين أحمد (ت749هـ):

- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق كامل سلمان الجبوري ومهدي النجم، دار الكتاب العلمية، DKJ، الجزء الرابع، الطبعة الأولى، لبنان، 2010م.

33. الغبريني أبو العباس (ت644هـ):

- عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة من بجاية، تحقيق وتعليق عادل نويهض، منشورات دار الأفاق الجديدة، الطبعة الثانية، بيروت، لبنان، 1979م.

34. أبو الفداء عماد الدين (ت732هـ):

- تقويم البلدان، تصحيح رينود، البارون ماك كوكين ديسلان، دار صادر، دار الطباعة السلطانية، بيروت، باريس، لبنان، فرنسا، 1860م.

35. **القرماني أحمد بن يوسف** (ت1019هـ):
- أخبار الدول وأثار الأول في التاريخ، دراسة وتحقيق أحمد حطيط وفهمي سعد، عالم الكتب، مجلد الثاني، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 1996م.
36. **القلصادي أبي الحسن علي** (ت891هـ):
- رحلة القلصادي، دراسة وتحقيق محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1978م.
37. **القلقشندي أبي العباس أحمد** (ت821هـ):
- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب الخديوية، الجزء الخامس، الجزء السادس، الجزء الثامن، القاهرة، مصر، 1915م.
38. **ابن قنفذ القسنطيني أبو العباس أحمد** (ت810هـ):
- الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تقديم وتحقيق محمد الشادلي النيفر وعبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1968م.
- أنس الفقير وعز الحقيير، نشر وتصحيح محمد الفاسي، أدولف فور، مطبعة أندال، الرباط، المغرب، 1965م.
- الوفيات، تحقيق وتعليق عادل نويهض، دار الأفاق الجديدة، الطبعة الرابعة، بيروت، لبنان، 1983م.
39. **كربخال مارمول** (ت أواخر القرن 10م):
- إفريقيا، ترجمة محمد حجي، محمد زبير، محمد الأخضر، أحمد توفيق، أحمد بنجلون، دار النشر والمعرفة، الجزء الثالث، الرباط، المغرب، 1998م.
40. **المرادي أبي بكر محمد بن الحسن** (ت489هـ):
- الإشارة في تدبير الإمارة، تحقيق محمد حسن محمد إسماعيل وأحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 2002م.

41. المراكشي محي الدين عبد الواحد (كان حيا ق7هـ):
- المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ضبط وتصحيح وتعليق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة، الطبعة الأولى، القاهرة، مصر، 1949م.
42. ابن مرزوق التلمساني(ت781هـ):
- المسند الصحيح في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق ماريّا خيسوس بيغيرا، تقديم محمود بوعيداد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.
 - المناقب المرزوقية، در وتح سلوى الزاهري، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، المغرب، 2008م.
43. ابن مريم أبي عبد الله المليتي (ت بعد 1014هـ):
- البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908
44. المقري التلمساني أحمد (ت1041هـ):
- أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق وتقديم وضبط مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، المعهد الخلفي للأبحاث المغربية، مطبعة فضالة، الجزء الثاني، المغرب. 1939م.
 - نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، المجلد الرابع، دار صادر، بيروت، لبنان، 1968م.
45. الملزوي أبي فارس عبد العزيز (ت 668هـ):
- نظم السلوك في الأنبياء والخلفاء والملوك، المطبعة الملكية، الرباط، المغرب، 1963م.
46. الملطي عبد الباسط خليل (ت920هـ):
- رحلة عبد الباسط خليل، تحقيق روبر بارونشفيك، باريس، فرنسا، 1936م.
47. ابن المنظور محمد بن مكرم (ت711هـ):
- لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، المجلد الثاني، القاهرة، مصر، دون سنة.

48. ابن المنكلي محمد الناصري (ت بعد 778هـ):

- الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب، دراسة وتحقيق نبيل محمد عبد العزيز أحمد، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، 2000م.

49. مؤلف مجهول (ع ق 9هـ):

- تاريخ الأندلس، دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت لبنان، 2007م.

50. مؤلف مجهول (عاش خلال القرن 6هـ):

- الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، دار البيضاء، المغرب، 1985م.

51. مؤلف مجهول (عاش خلال ق 8هـ):

- الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار، عبد القادر ذمامة، دار الرشاد الحديثة، الطبعة الأولى، دار البيضاء، المغرب. 1979م.

52. مؤلف مجهول (ك ح ق 8هـ):

- زهر البستان في دولة بني زيان، تحقيق وتقديم بوزياني الدراجي، مؤسسة بوزياني للنشر، الجزء الثاني، الجزائر، 2012م.

53. نميري ابن الحاج (ت 768هـ):

- فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، دراسة وإعداد محمد ابن شقرون، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 1990م.

54. ابن هذيل الأندلسي علي بن عبد الرحمان (ت بعد 763هـ):

- حلية الفرسان وشعار الشجعان، تحقيق عبد الغني حسن، دار المعارف للطباعة والنشر، 1951.

55. الهرثمي صاحب المأمون (ت بعد 200هـ):

- مختصر سياسة الحروب، تحقيق عبد الرؤوف عون ومحمد مصطفى زيادة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مصر، دون سنة.

56. الهروي علي بن أبي بكر (ت 611هـ):

- التذكرة الهروية في الحيل الحربية، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، مصر، دون سنة.

57. الوزان حسن (كان حيا ق 10هـ):

- وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، الجزء الثاني، الطبعة الثانية، بيروت، لبنان، 1983م.

58. الوفراني محمد بن الصغير (1130هـ):

- نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تصحيح السيد هوداس، مطبعة بوردين وشركائه، باريس، فرنسا، 1988م.

59. ياقوت الحموي

- شهاب الدين أبي عبد الله (ت 626هـ): معجم البلدان، دار صادر، المجلد الثاني، بيروت، لبنان، 1977م.

60. اليعقوبي أبي يعقوب أحمد (ت 284هـ):

- البلدان، عن محمد أمين حفناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دون سنة.

ثانيا: المراجع باللغة العربية

1. أتزو سون:
– فن الحرب، تقديم وتعليق أحمد ناصيف، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، حلب، سوريا، 2010م.
2. إيتوري روسي:
– ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911م، ترجمة وتقديم خليفة محمد التليسي، الدار العربية للكتاب، الطبعة الثانية، الإسكندرية، مصر، 1991م.
3. أحمد عيسى بك:
– تاريخ البيمارستانات في الإسلام، المطبعة الهاشمية، دمشق، سوريا، 1938م.
4. أشياخ يوسف:
– الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة وتعليق محمد عبد الله عنان، تق سليمان العطار، المركز القومي للترجمة، الجزء الثاني، القاهرة، مصر، 2011م.
5. الباروني عمر محمد:
– الإسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس، مطبعة ماجي، طرابلس، ليبيا، 1952م.
6. بلعربي خالد:
– ورقات زيانية، (دراسات وأبحاث في تاريخ المغرب الأوسط في العهد الزياني)، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2014م.
7. بن الخوجة محمد:
– صفحات من تاريخ تونس، تقديم وتحقيق حمادي الساحلي و الجيلالي بن الحاج يحي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 1986م.
- تاريخ معالم التوحيد في القديم والجديد، المطبعة التونسية، تونس، 1939م.
8. بن رمضان شاوش محمد:
– باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، (جغرافيا- وتاريخيا- وفنيا- ومعماريا)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزء الأول والثاني، الجزائر، 2011م.

9. بن عامر أحمد:
 - الدولة الحفصية، (صفحات خالدة من تاريخنا المجيد)، دار الكتب الشرقية، تونس، 1974م.
10. بن منصور عبد الوهاب:
 - قبائل المغرب، المطبعة الملكية، الجزء الأول، الرباط، المغرب، 1968م.
11. بوتول غاستون:
 - هذه هي الحرب، ترجمة مروان القنواطي، الطبعة الأولى، بيروت، باريس، لبنان، فرنسا، 1981م.
12. بورويبة رشيد، موسى لقبال، عبد الحميد حاجيات، عطا الله دهينة، محمد بلقراد:
 - الجزائر في التاريخ من الفتح إلى بداية العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
13. بوعزيز يحي:
 - تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007م.
14. بولقطيب الحسين:
 - جوائح وأوبئة مغرب العهد الموحد، منشورات الزمن، الرباط، المغرب، دون سنة.
15. بونار رابح:
 - المغرب العربي (تاريخه وثقافته)، دار الهدى، الجزائر، 2015م.
16. بياض عبد الهادي:
 - الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك ودهنيات الإنسان في المغرب والأندلس (ق6- 8هـ/12-14م)، دار الطليعة، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 2008م.
17. التازي عبد الهادي:
 - جامع القرويين (المسجد والجامعة بمدينة فاس، موسوعة لتاريخها المعماري والفكري)، دار النشر المعرفة، المجلد الثاني، الطبعة الثانية، الرباط، المغرب، 2000م.
18. تاوشيت لحسن:
 - عمران سجلماصة، (دراسة تاريخية وأثرية)، مطبعة النجاح الجديدة، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، دار البيضاء، المغرب، 2008م.

19. تيتاو حميد:

- الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني - إسهام في دراسة انعكاسات الحرب على البنيات الاقتصادية والاجتماعية والذهنية - (869/609هـ - 1465/1212م)، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، دار البيضاء، المغرب، 2009م.

20. جبرون أمحمد:

- تاريخ المغرب الوسيط والحديث، (من الفتح الإسلامي إلى الاحتلال)، دار الأحياء للنشر والتوزيع، طنجة، المغرب، 2023م.

21. جلاب حسن:

- الدولة الموحدية (أثر العقيدة في الأدب) المطبعة والوراقة الوطنية، الطبعة الثالثة، مراكش، المغرب، 1995م.

22. جوليان شارل أندري:

- تاريخ إفريقيا الشمالية، (تونس الجزائر، المغرب الأقصى من الفتح الإسلامي إلى سنة 1830)، تعليق محمد مزالي البشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، الجزء الثاني، الطبعة الثانية، تونس، 1983م.

23. الجيلالي عبد الرحمان بن محمد:

- تاريخ الجزائر العام، دار الأمة، الجزء الثاني، الجزائر، 2009م.

24. حاجيات عبد الحميد:

- أبو حمو موسى الزياتي (حياته واثاره)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974م.

25. حركات إبراهيم:

- المغرب عبر التاريخ، من عصر ما قبل التاريخ إلى نهاية دولة الموحدين، المجلد الأول، دار الرشاد الحديثة، دار البيضاء، المغرب، 2000م.

26. الحريري محمد عيسى:

- تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس، (610هـ - 1213م/869هـ - 1245م)، دار القلم، الطبعة الثانية، الكويت، 1987م.

27. **حساني مختار:** تاريخ الدولة الزيانية، (الأحوال الاقتصادية والثقافية)، منشورات الحضارة، الجزء الثاني، الجزائر، 2009م.
28. **حسن محمد:**
- الجغرافية التاريخية لإفريقية (من القرن الأول إلى القرن التاسع هجري، فصول في تاريخ المواقع والمسالك والمجالات)، دار الكتاب الجديدة المتحدة، الطبعة الأولى ليبيا، 2003م.
 - المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي، جامعة تونس الأولى، أوربيس للطباعة، الجزء الأول، تونس، 1999م.
29. **حسني عبد الوهاب حسن:**
- خلاصة تاريخ تونس، (مختصر مدرسي يشمل ذكر حوادث القطر التونسي من أقدم العصور إلى الزمان الحاضر)، دارا لكتب العربية الشرقية، الطبعة الثالثة، تونس، دون سنة.
30. **الخزاعي عاتي كريم:**
- أسواق بلاد المغرب (من القرن السادس للهجري حتى نهاية القرن التاسع الهجري)، الدار العربية للموسوعات، دون سنة.
31. **خلاصي علي:**
- الجيش الجزائري في العصر الحديث، دار الحضارة، الطبعة الأولى، الجزائر، 2007م.
32. **خير هيكل محمد:**
- الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، دار البيارق، دار ابن حزم، سوريا، لبنان، دون سنة.
33. **دحماني صبرينة نعيمة:**
- الآثار الإسلامية العسكرية بمدينة تلمسان إحصاء وجرد وتحليل (دراسة تمهيدية لوضع خارطة الأثرية)، كنوز الحكمة، الجزائر، 2020م.
34. **الدراجي بوزياني:**
- القبائل الأمازيغية، (أدوارها - مواطنها - أعيانها)، دار الكتاب العربي، الجزء الأول، الجزائر، 2007م.

35. الدكالي محمد بن علي:
- الاتحاد الوجيز (تاريخ العدوتين)، تحقيق مصطفى بوشعراء، منشورات الخزنة العلمية، الطبعة الثانية، سلا، المغرب، 1996م.
36. دوزي رينهارت:
- تكملة المعاجم العربية، تر محمد سليم النعيمي، دار الشروق الثقافية العامة، الجزء السابع، العراق، 1992م.
37. الزحيلي وهيبة:
- آثار الحرب في الفقه الإسلامي، دار الفكر، الطبعة الرابعة، دمشق، سوريا، 1992م.
38. زغروت فتحي:
- النوازل الكبرى في التاريخ الإسلامي (من ذخائر التراث الإسلامي)، الأندلس الجديدة، الطبعة الأولى مصر، 2009م.
39. زنيبر محمد:
- المغرب في العصر الوسيط (الدولة - المدينة - الاقتصاد)، تن محمد المغراوي، مطبوعات النجاح الجديدة، الطلعة الأولى، دار البيضاء، المغرب، 1999م.
40. زينب نجيب:
- الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، تق أحمد بن سودة، دار الأمير، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 1995م.
41. سالم عبد العزيز:
- تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، 1999م.
42. السامرائي خليل إبراهيم، دنون طه عبد الواحد، مطلوب ناطق صالح:
- تاريخ العرب وحضاراتهم في الأندلس، دار الكتاب الجديدة المتحدة، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 2000م.
43. السائحي رضوان:
- مدينة فاس (التراث العمراني والمعماري)، سليكي أخوين، الطبعة الأولى، طنجة، المغرب، 2022م.

44. الشاهري مزاحم علاوي:
- الحضارة العربية الإسلامية (العصر المريني)، دار مركز الكتاب الأكاديمي، دون سنة.
45. شريخي نبيل:
- دور علماء تلمسان في الحياة السياسية والاجتماعية والعلمية في بلاد المغرب الإسلامي، (خلال القرنين 8 و 9 هـ - 14 و 15م)، نور حوران للدراسات والنشر والتراث، الطبعة الأولى، دمشق، سوريا، 2023م.
46. أبو ضياف أحمد مصطفى:
- أثر القبائل العربية في الحياة المغربية- خلال عصري الموحدين وبنو مرين - (524- 876هـ/1130-1472م)، دار النشر المغربية، الطبعة الأولى، دار البيضاء، المغرب، 1982م.
47. الطريفي عبد الله بن إبراهيم:
- أهل الحل والعقد (صفاتهم ووظائفهم)، مطبعة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، السعودية، 1998م.
48. الطويلي أحمد:
- في الحضارة العربية التونسية، منشورات دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، تونس. دون سنة.
49. عبد الرزاق هالة:
- أسواق فاس في العصر المريني، (646-869 / 1248-1465م)، مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى، القاهرة، مصر، 2013م.
50. عبد الستار محمد عثمان:
- المدينة الإسلامية، سلسلة عالم لمعرفة، العدد مائة وثمان وعشرين، الكويت، أوت، 1988م.
51. عثمان عثمان إسماعيل:
- تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى، (عرب المغرب القدماء ودولة الأشراف الأدارسة وعصر أمراء زناتة الطراز الغربي القديم والطراز الإسلامي المبكر)، مطبعة

- المعارف الجديدة، الهلال العربية للطباعة والنشر، الجزء الأول، الطبعة الأولى، الرباط، المغرب، 1992م.
52. العدل إبراهيم محمد:
- مدينة سبتة ودورها السياسي و الفكري، (منذ الفتح الإسلامي وحتى نهاية دولة بني مرين)، نور حوران، الطبعة الأولى، دمشق، سوريا، 2024م.
53. عز الدين عمر موسى:
- الموحدون في الغرب الإسلامي، (تنظيماتهم ونظمهم)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، دون سنة.
54. علي حسن حسن:
- الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، (عصر المرابطين والموحدين)، مكتبة الخانجي، الطبعة الأولى، مصر، 1980م.
55. عمورة عمار:
- موجز في التاريخ الجزائري، دار ربحانة، الطبعة الأولى، الجزائر، 2002م.
56. عنان محمد عبد الله:
- دولة الإسلام في الأندلس (عصر الموحدين)، مكتبة الخانجي، الجزء الخامس، القاهرة، مصر، 2001م.
57. عيد عاطف:
- قصة وتاريخ الحضارات العربية بين الأمس واليوم (تونس، الجزائر)، Editio Creps. INT، الجزء واحد وعشرين اثنان وعشرين، بيروت لبنان، (1998/ 1999م).
58. غالب عبد الرحيم:
- موسوعة العمارة الإسلامية، جروس برس، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 1988م.
59. الغنيمي عبد الفتاح مقلد:
- موسوعة تاريخ المغرب العربي (بني حفص وبني زيان وبني مرين وبني وطاس والسعديين وظهور الأشراف العلويين) دراسة في التاريخ الإسلامي، الجزء الخامس، مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى، القاهرة، مصر، 1994م.

60. فيلاي عبد العزيز:
— تلمسان في العهد الزياني (دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية)، موفم للنشر والتوزيع، الجزء الأول، الجزائر، 2002م.
61. أبو قاسم محمد:
— في المجال البيولوجي (التنظيم العسكري في الدولة المغربية)، دار وليلي للطباعة والنشر، مراكش، المغرب، 1998م.
62. لعرج عبد العزيز:
— مدينة المنصورة المرينية بتلمسان، شركة ابن باديس للكتاب، الطبعة الثانية، الجزائر، 2011م.
63. الملوكي محمد:
— العمارة الدفاعية بفاس المرينية (الشواهد المادية والموروثات الشعبية، إصدارات معهد الشارقة للتراث، الطبعة الأولى، الإمارات العربية المتحدة، 2019م.
64. مرعي خلف الله ابتسام:
— العلاقات بين الموحدين والمشرق الإسلامي (564هـ-936هـ/1130م-1529م) دار المعارف، مصر، 1985م.
65. لوطورنو روجيه:
— فاس في عصر بني مرين، ترجمة نقولا زيادة، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بيروت، نيويورك، لبنان، الولايات المتحدة الأمريكية، 1967م.
- فاس قبل الحماية، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ج 1، بيروت، لبنان، 1992م.
66. مارسويه جورج:
— الفن الإسلامي، ترجمة عبلة عبد الرزاق، مراجعة عاطف عبد السلام، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى، القاهرة، مصر، 2016م.
67. محمد أحمد إسماعيل محمد:
— الوزارة في إفريقيا في عهد الدولة الحفصية، (626-986هـ/1227-1574م)، مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى، القاهرة، مصر، 2015م.

68. المريني عبد الحق:
- الجيش المغربي عبر التاريخ، مطبعة المعارف الجديدة، الطبعة الخامسة، الرباط، المغرب، 1997م.
69. المطوي محمد لعروسي:
- السلطنة الحفصية ، (تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1986م.
70. مقديش محمود بن سعد:
- نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق علي الزواري ومحمود محفوظ، دار الغرب الإسلامي، المجلد الأولى، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 1988م.
71. المنوني محمد:
- حضارة الموحدين، دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى، المغرب، 1989م.
 - ورقات عن حضارة المرينيين، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الثالثة، دار البيضاء، المغرب، 2000م.
72. مؤنس حسين:
- تاريخ المغرب وحضارته، دار العصر الحديث، المجلد الثاني، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 1992م.
 - معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار راشد، 2004م.
73. ميراندا أمبروسيو هويثي:
- التاريخ السياسي الإمبراطورية الموحدية، ترجمة عبد الواحد أكميز، منشورات الزمن، الطبعة الأولى، دار البيضاء، المغرب، 2004م.
74. الملي مبارك بن محمد:
- تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تقديم وتصحيح محمد الملي، الجزء الثاني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، دون سنة.

75. الناصري أبو العباس أحمد:

- الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الجزء الثاني، الثالث والرابع، دار البيضاء، المغرب، 1954م.

76. نجار عبد المجيد:

- تجربة الإصلاح، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الثانية، هيرند فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، 1995م.
- المهدي بن تومرت حياته وأرائه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى بيروت، لبنان، 1983م.

77. نقادي سيدي محمد:

- الخطة العمرانية لمدينة تلمسان ودلالاتها الاجتماعية، كنوز للإنتاج والنشر والتوزيع، الجزائر، 2013م.

78. نويهض عادل:

- معجم أعلام الجزائر، (من صدر الإسلام إلى العصر الحاضر)، مؤسسة نويهض الثقافية، الطبعة الثانية، بيروت لبنان، 1980م.

ثالثا: المجالات والدوريات

1. بالحاج معروف:

- "مدينة المنصورة الأثرية: ظروف نشأتها وعمرانها"، عصور جديدة، العدد الثاني، (من ص 313 إلى ص 322)، تلمسان، الجزائر، 2011م.

2. بن حمو محمد:

- "الحصون والمحارس بضواحي تلمسان -دراسة إحصائية لبعض النماذج-"، مج منبر التراث الأثري، المجلد السابع، العدد الأول، (من ص 95 إلى ص 112)، 2018م.

3. بن عمر علال:

- "قسنطينة في العهد الحفصي : محور صراع وتنافس بين دول المغرب الإسلامي"، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، جامعة الوادي، العدد الثالث، (من ص 50 إلى ص 86)، الجزائر، دون سنة نشر.

4. بوجلابة فوزية سعاد، براهيمى فايزة:
- "السمات المعمارية والملاح الفنية للعمارة المرينية بتلمسان - دراسة أثرية"، حوليات جامعة قلمة للعلوم الاجتماعية والإنسانية، المجلد السادس عشر، العدد الثاني، (من ص 475 إلى ص 490)، الجزائر، ديسمبر 2022م.
5. بولقطيب الحسين:
- "أسلوب الإنتاج الحربي والتحول المعاق (حالة المغرب الوسيط)"، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجديدة، العدد الثاني، (من ص 91 إلى ص 73)، دار المنظومة، المغرب، 2020م.
6. تركي عباس:
- "بنية وتشكيل الجيش البري الموحد (515هـ - 660هـ / 1121 - 1269م)"، مجلة الدراسات التاريخية العسكرية، (من ص 25 إلى ص 41)، الجزائر، جويلية 2019م.
7. جمال صابر مها، عمر الفاروق رضوى، محمد فتحي وهبة الله:
- "المسجد الكبير بمدينة فاس الجديد في عصر الدولة المرينية (677هـ / 1278م) دراسة تاريخية أثرية"، مجلة إتحاد الجامعات العربية للسياحة والضيافة، المجلد الحادي والعشرون، العدد الثالث، (من ص 208 إلى 232)، مصر، ديسمبر 2021م.
8. حاج عيسى إلياس:
- "زنانة المغرب الأوسط: القبية والمجال"، مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية، المجلد الثالث، العدد الأول، (من ص 173 إلى ص 195)، الجزائر، جانفي، 2020م.
9. حمانيت عبد الكريم، جباري سامية:
- معارك المسلمين في الأندلس، (معركة طريف - ريوسالادو - 741هـ - 1340م أنموذجا)، المجلد الخامس، العدد الثاني، المجلة التاريخية الجزائرية (من ص 399 إلى ص 414)، الجزائر، 2021م.
10. خروبي فتية:
- "تطور عمارة الحمام عبر العصور، مجلة عصور"، العدد ستة وعشرون - سبعة وعشرون، (من ص 160 إلى ص 178)، الجزائر، جويلية، ديسمبر 2015م.

11. رفاعي عبد الوهاب سليمان علوه، إبراهيم الشعراوي أحمد، محمود إبراهيم عفيفي:
- "موقعة العقاب وبداية النهاية للحكم الإسلامي بالأندلس (609هـ/1212م)"، مجلة بحوث العلوم الإنسانية والاجتماعية-، العدد الرابع، (من ص 38 إلى 56)، مصر، أبريل 2021م.
12. سكاكو مريم:
- سلاطين بني مرين في مدينة تلمسان (تشديد العماير واستقطاب العلماء... أية علاقة)، دورية كان التاريخية، العدد الثامن والعشرون، (من ص 100 إلى ص 107)، الجزائر، جوان، 2015م.
13. شعوة علي:
- "المنشآت العمرانية للدولة الزيانية"، مجلة قبس للدراسات الإنسانية والاجتماعية، المجلد الأول، العدد الثاني، (من ص 40 إلى 56)، الجزائر، ديسمبر 2017م.
14. شلية فاطمة الزهراء:
- "أسواق مدينة بجاية في العصر الوسيط، (460-915هـ / 1068.1510م)"، المجلة المغربية للمخطوطات، المجلد السادس عشر، العدد الأول، (من ص 67 إلى ص 98)، الجزائر، 2020م.
15. صالح عبد العزيز، طلعت عبد النعيم أسامة، محمد حسن سعاد، محمد حلمي عباس شامل:
- "أنواع التحصينات والاستحكامات الدفاعية للمنشآت الحربية الإسلامية في شمال المغرب في عصري الموحدين والمرينيين"، مجلة البحوث والدراسات الأثرية، العدد العاشر، مصر، (من ص 507 إلى ص 536)، مارس 2022م.
16. صلاحي حسام:
- "الجيش الزياني ودوره في مواجهة التحديات الداخلية والخارجية، (633-962هـ/1235-1555م)"، مجلة الدراسات التاريخية العسكرية، المجلد الثاني، العدد الرابع، (من ص 51 إلى ص 67)، الجزائر، جويلية 2020م.

17. طويلب عبد الله:
- "العلاقات السياسية بين الدولتين الزيانية والحفصية"، دورية كان التاريخية، العدد الثامن عشر، (من ص 31 إلى ص 43)، الجزائر، ديسمبر 2012م.
18. العقاب جهاد رحمة، الأغويني برق:
- "ظاهرة الفنادق في حاضرة تلمسان بين القرنين 3-9هـ / 9-14م من خلال وصف الرحالة والجغرافيين العرب"، مجلة البحوث التاريخية المجلد السادس، العدد الثاني، (من ص 231 إلى ص 251)، الجزائر. ديسمبر 2022م.
19. غزالة العيد:
- "مساهمة العنصر الأندلسي في الجيش الحفصي"، مجلة قبس للدراسات الإنسانية والاجتماعية، المجلد الثالث، العدد الأول، (من ص 53 إلى ص 75)، الجزائر، جوان 2019م.
20. فرغل محمد إبراهيم:
- "قيساريات وأسواق مدينة تلمسان في العصر الزياني (633-962هـ / 1235-1553م)"، مجلة كلية اللغة العربية بايتاي البارود، العدد الثالث والثلاثون، (من ص 10297 إلى ص 10343)، مصر، دون سنة نشر.
21. قطوش نور:
- "الوضع الثقافي للدولة الحفصية خلال القرن السابع للهجري"، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، المجلد التاسع عشر، العدد الأول، (من ص 679 إلى ص 695)، الجزائر، جوان 2023م.
22. كربوع مسعود:
- "المرينيون من الطور القبلي إلى الطور السياسي - دراسة في الأبعاد التاريخية لهذا التحول -"، مجلة دفاتر المخبر، المجلد التاسع عشر، العدد الأول، (من ص 126 إلى ص 141)، الجزائر، ماي 2024م.

23. لعرافة وسام، شلوق فتية: "الصراع بين دول المغرب الإسلامي وأثره على عمران الدولة الزيانية"، مجلة هيروودوت للعلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد الثامن، العدد الثالث، (من ص 314 - 334)، الجزائر، 2024م.
24. لعرج عبد العزيز: "مدرسة العباد (سيدي أبي مدين): نموذج للمدارس الإسلامية بالمغرب الإسلامية بالغرب العربي"، دراسات إنسانية، (من ص 129 إلى ص 157)، الجزائر، دون سنة نشر.
25. لكل زهيرة، سبيع قادة: "دور قبائل المغرب الأوسط في الصراع بين دول المغرب خلال القرنين (7 - 8هـ / 13م - 14م) قبيلة بني توجين أنموذجاً"، مجلة عصور جديدة، المجلد العاشر، العدد الأول، (من ص 140 إلى 153)، الجزائر، مارس 2020م.
26. مجاني بوبة: "المدارس الحفصية: نظامها ومواردها"، مجلة العلوم الإنسانية، العدد الثاني عشر، (من ص 157 إلى 164)، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 1999م.
27. النقادي سيدي محمد: "التهيئة العمرانية بمدينة تلمسان من المرابطين إلى بداية الاحتلال الفرنسي (دراسة ميدانية)"، مجلة أفكار وأفاق، العدد الثالث، (من ص 167 إلى 178)، الجزائر، (جانفي - جوان) 2012م.
- رابعاً: أطروحات الدكتوراه و رسائل الماجستير
1. بكاي هوارية: - العلاقات الزيانية المرينية سياسياً وثقافياً، إشراف بوداوية مبخوتة مذكرة ماجستير في تزيخ المغرب الإسلامي، جامعة تلمسان، الجزائر، (2007/2008م).

2. بوقاعدة البشير:

- خطة الحصار العسكري في بلاد المغرب الإسلامي بين القرنين الرابع والثامن الهجريين (10-14)، إشراف جميلة بن موسى، أطروحة دكتوراه في تاريخ المغرب والمشرق الإسلامي، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، الجزائر، (2016/2017م).

3. تواتي حسين:

- الوظائف السلطانية في الدولة الزيانية -الكتابة أنموذجاً- (633- 791هـ/ 1236-1389م)، إشراف مبخوت بوداوية، مذكرة ماجستير في التاريخ الحضاري للمغرب الإسلامي، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، (2013- 2014م).

4. خالدي عبد الحميد:

- العلاقات الثقافية بين المشرق والمغرب الأوسط من الفتح إلى نهاية الموحدين (دراسة تاريخية نقدية)، إشراف مختار حساني، أطروحة مقدمة لنيل دكتوراه دولة في التاريخ الإسلامي، جامعة الجزائر 1، الجزائر، (2007/2008م).

5. رحيم عائشة:

- المؤسسات العلمية في العهد الحفصي -دراسة تاريخية-، إشراف عمر سي عبد القادر، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في تاريخ المغرب الإسلامي، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، (2017/2018م).

6. زيتوني بلال:

- الحروب في المغرب لأوسط وانعكاساتها على الأوضاع الاقتصادية والعمرانية خلال العهد الزياني (633/962هـ)، إشراف يوسف عابد، أطروحة دكتوراه، في تاريخ المغرب السياسي والحضاري في العصر الوسيط، جامعة قسنطينة، الجزائر، (2022/2023م).

7. سياب خيرة:

- المياه ودورها الحضاري في بلاد المغرب الإسلامي، إشراف محمد بن عمر، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة وهران، (2013/2014م).

8. شقدان بسام كامل عبد الرزاق:

- تلمسان في العهد الزياني، إش هشام أبو رملة، رسالة ماجستير في التاريخ، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2002م.

9. عباس قويدر:

- الجيش في العهد الزياني، (633-962هـ/1235-1554م)، إشراف خالد بلعربي، أطروحة دكتوراه في التاريخ الإسلامي، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، (2016/2015م).

10. العربي لخضر:

- واقع الفلاحة في المغرب الأوسط على العهد الزياني (633-962هـ/1235-1554م)، إشراف محمد بن معمر، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط، جامعة وهران، الجزائر، (2018/2017م).

11. عطابي سناء:

- الفقه وتنظيم المجال الحضري في المغرب الأوسط ما بين القرنين السابع والتاسع الهجري/ الثالث عشر - الخامس عشر ميلادي: تلمسان نموذجاً، إشراف علاوة عمارة، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه في التاريخ الوسيط، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، الجزائر، (2018/2017م).

12. عياش محمد:

- الاستحكامات المرينية من خلال مدينتي فاس الجديد، والمنصورة بتلمسان "دراسة تاريخية وأثرية"، إشراف صالح يوسف بن قرية، مذكرة ماجستير في الآثار الإسلامية، جامعة الجزائر، الجزائر، (2006/2005م).

13. لقريز العربي:

- مدارس السلطان أبي الحسن علي مدرسة أبي مدين نموذجاً، إش عبد الحميد حاجيات، رسالة ماجستير، قسم الثقافة الشعبية، شعبة الفنون الشعبية، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، (2001/2000م).

رابعاً: المراجع باللغة الأجنبية

1. Agrnés Charpentier, Michel Terrasse:

Redouane Bachir, Ayed Ben Amara, Palais du Meshouar (Tlemcen, Algérie): couleurs des zellijs et tracés de décors du XIVe siècle, revue d'Archéométrie, 2020.

2. Amel Bensalim:

Mztamorphosis in the Ifriqiyan Cocoon: Hafsid State Formation, Diplomacy, and transformation, 1220-1450, Athesis submitted to the graduate program in History in conformity with the requirments for the degree of master of Arts, Queen's University, Kingston, Ontario, Canada, August 2021.

3. Charles- Emmanuel Dufourcq:

L'Espagne Catalane et Le Maghrib aux XIIIe et XIVe siècles, Presses universitaires de France, 108, Boulevard Saint-Germain, Paris, 1966.

4. Clémence- Marine Lacroix:

L'empreinte de l'Islam: L'architecture al-Andalus en Espagne reconquise, Architecture, aménagement de l'espace, dumas, 2020.

5. Dominique Valérian:

Frontières et territoire dans le Maghreb de la fin du Moyen Age: Les marches occidentales du sultanat hafside, Correspondances, (pp 3-8), Tunis, 2003.

6. Dominique Valérian:

Frontières et territoire dans le Maghreb de la fin du Moyen Age: les marches occidentales du sultanat hafside, Correspondances (Tunis), (pp 3-8), 2003.

7. Georges Marçais:

Poteries et faïences de la Qal'a des Beni Hammad (XI siècle), contribution à l'étude de la céramique musulmane, D. Abraham éditeur, Constantine, 1913

8. Beylié Général:

Kalaa des Beni- Hamad une capitale berbère de l'afrique du noro au XI^e siècle, Ernest Leroux, Paris, 1909.

9. Jean- Joseph- Léandre, Bargés:

Tlemcen, ancienne capitale du royaume de ce nom: sa topographie, son histoire, description de ses principaux monuments, Paris, 1859.

10. Lawless Richard:

Tlemcen, capital du maghreb central. Analyse des fonctions d'une ville islamique médiévale, In: Revue de l'occident musulman et de la Méditerranée, n° 20, (pp 49- 66), 1975.

11. Michel Terrasse:

Une brillante chapître de l'architecture marocaine: La période mérinide, Hespéride- Tamuda LII (3), (p135- 150), Paris, 2017.

12. Mikel de Epalz:

Attitudes politiques du tounis dans le conflit entre Aragonais et français en Sicile de 1282, (Estratto da : XI congresso di storia della corona d aragona sul tema), Palermo -Trapani- Erice, Accademia di scienze lettere e arti .Palermo 1983

13. Pascal Buresi et Mehdi Ghouirgate:

Le Maghreb XI^e- XV^e siècle, Armand Colin, Le concours du Centre national de recherche scientifique dans le cadre et avec le soutien du projet IGAMWI, 2013.

14. Pierre Champion :

Le Maroc et ses villes d art. (Tanger. Fes. Meknes. Rabat.- Marrakech). H.L. Editur. Paris. France. prt 1.

15. Tome Premier:

La berbérie orientale sous les hafsiides des origines à la fin du XV^e siècle, thèse principale pour le doctorat ès lettres présentée à la faculté des lettres d'Alger, Librairie d'amérique et d'orient, Adrien- Maisonneuve, Paris, 1940.

16. Willaim marçais et Georges Marçais:

Monuments arabes de Tlemcen, Ancienne librairie thorin et Fils, Paris, La France, 1903.

17. Zahira Seddiki:

Lecture semiotique de la composition du zellige: Le cas du palais El Mechouair- Tlemcen, présentée pour l'obtention du diplôme du doctorat en sciences, option: architecture/ patrimoine, Université de Constantine 3, de l'architecture, (2021-2022).

الفهارس:

- 1- فهرس الأعلام
- 2- فهرس الأماكن والبلدان
- 3- فهرس القبائل
- 4- فهرس المحتويات
- 5- فهرس الأشكال
- 6- فهرس الخرائط
- 7- فهرس الملاحق
- 8- فهرس المحتويات

الفهارس:

1. فهرس الأعلام

أبو حمو موسى الأول, 85, 87, 89, 92,	إبراهيم ابن أبي زكريا, 135, 143, 498
147, 171, 186, 266, 269, 270,	ابن غانية, 36, 52, 53, 54, 55, 56,
271, 282, 288, 293, 297, 355,	57, 61, 390, 394, 498
367, 404, 429, 499, 507	أبو الحسن المريني, ك, ف, ص, ر, 67,
أبو حمو موسى الثاني, م, س, ع, 77, 79,	73, 102, 117, 118, 119, 120, 122,
85, 88, 89, 90, 91, 93, 95, 132,	123, 149, 188, 189, 190, 191,
135, 149, 151, 196, 197, 205,	193, 213, 214, 215, 216, 218,
207, 288, 294, 298, 299, 369,	219, 259, 273, 284, 317, 319,
370, 371, 373, 374, 377, 378,	323, 324, 325, 334, 335, 341,
402, 499, 511	342, 344, 345, 346, 347, 348,
أبو دبوس, 40, 114, 174, 499	355, 357, 359, 364, 368, 369,
أبو زكريا يحيى, 65, 83, 246, 261, 262,	370, 373, 374, 377, 392, 423,
381, 499	424, 426, 430, 434, 436, 437,
أبو زيان القبي, 197, 499	440, 442, 444, 498, 507, 511
أبو زيان محمد المستعين بالله, 100, 499	أبو العباس بن أبي سالم, 197, 203, 498
أبو عبد الله بن يريكن, 210, 499	أبو تاشفين الأول, 89, 90, 131, 132,
أبو عبد الله محمد بن عبد الله الفهري, 327,	148, 273, 277, 278, 288, 350,
499	354, 403, 405, 406, 407, 499,
أبو عصيدة, 209, 210, 499	507
	أبو ثابت عامر, 185, 331, 499
	أبو جميل زيان بن عبد الواحد, 160, 499

أبو عمر عثمان, 135, 153, 158, 159,	بر بن قيس, 77, 78, 499
160, 161, 162, 255, 257, 259,	حازم بن محمد حازم, 241, 243, 499
260, 263, 265, 363, 365, 499	الحسن بن فنون بن محمد, 78, 500
أبو عمران موسى المشذالي, 298, 499	راشد بن محمد بن علي, 66, 500
أبو عنان المريني, 331, 333, 446, 499	الزاب, 56, 73, 104, 106, 117, 150,
أبو فارس عبد العزيز, 63, 90, 152, 153,	152, 170, 183, 201, 211, 214,
160, 206, 255, 256, 259, 265,	226, 356, 364, 379, 471, 503
499	زكريا بن أحمد بن اللحياني, 71, 500
أبي إسحاق إبراهيم, 71, 83, 135, 143,	سليمان بن عثمان, 173, 500
151, 153, 211, 220, 262, 499	عامر بن عبد الله, 145, 185, 198, 500
أبي البقاء خالد, 71, 499	عبد الرحمان بن يعقوب, 71, 500
أبي السعيد عثمان بن جامع, 38, 499	عبد السلام الكومي, 34, 500
أبي العباس أحمد بن مخلوف, 113, 499	عبد العزيز المريني, ن, 197, 201, 360,
أبي عبد الله المزديوي, 71, 499	361, 500
أبي عزة زيدان, 81, 499	عبد الله الطوفي, 334, 500
أحمد أبي بكر, 328, 499	عبد المؤمن أبي جعفر عطية, 34, 500
أحمد العاقل, 99, 100, 157, 158, 299,	عبد الواحد الرشيد بن المأمون, 82, 500
499	عثمان بن يغمراسن, 85, 144, 145, 169,
أحمد بن الحسن الغماري, 286, 291, 499	181, 184, 209, 355, 500
إسحاق بن يوسف, 107, 499	عثمان بن يوسف, 81, 152, 500
الإمام الغزالي, 28, 29, 499	عدوان بن المهدي, 71, 500
الإمام المازري, 28, 499	عروج, 101, 500

علي بن راشد المغراوي, 195, 500

علي محمد بن نخيل, 56, 500

فاطمة أم البنين, 327, 500

المخضب, 105, 106, 164, 500

المرتضى, 32, 39, 40, 44, 111, 112,

165, 172, 173, 208, 500

مريم بنت محمد بن عبد الله, 330, 500

مسعود بن رحو بن علي بن ماساي, 197

مسعود بن رحو بن علي بن ماساي, 198

موسى بن إبراهيم, 57, 223, 500

ونزمار بن عريف بن يحيى, 118, 168,

500

يغمراسن بن زيان, 79, 81, 92, 145,

176, 266, 288, 290, 354, 396,

405, 449, 500

يوسف أبو يعقوب, 120, 144, 169, 179,

180, 185, 210, 276, 317, 331,

363, 364, 367, 378, 403, 426,

433, 440, 500

2. فهرس الأماكن والبلدان

إسبانيا, 40, 69, 75, 240, 332, 501	341, 386, 417, 418, 425, 428,
الإسكندرية, 50, 73, 218, 473, 477,	468, 470, 471, 473, 477, 479,
501	483, 501
إشبيلية, 34, 50, 501	أنكاد, 192, 199, 403, 501
إفريقية, ب, م, ت, 34, 46, 48, 52, 53,	أوطاط, 426, 501
54, 55, 56, 57, 58, 59, 60, 61, 62,	إيسلي, 168, 172, 173, 176, 367,
63, 65, 67, 69, 71, 73, 90, 123,	403, 404, 501
129, 137, 143, 144, 158, 191,	بجاية, م, 52, 57, 61, 66, 69, 70, 71,
192, 195, 209, 213, 216, 219,	75, 89, 105, 135, 136, 144, 146,
220, 221, 222, 223, 224, 225,	147, 148, 149, 150, 151, 152,
228, 234, 238, 240, 248, 249,	153, 154, 160, 183, 187, 188,
250, 254, 255, 258, 259, 264,	195, 196, 209, 210, 211, 214,
350, 354, 355, 356, 357, 359,	215, 221, 222, 223, 228, 235,
382, 383, 421, 423, 449, 452,	241, 247, 248, 250, 252, 254,
453, 463, 501, 511, 510	255, 264, 354, 355, 358, 359,
الأندلس, ف, 27, 30, 36, 37, 41, 42,	364, 379, 384, 393, 404, 405,
44, 46, 47, 48, 62, 67, 70, 100,	406, 407, 449, 468, 484, 501
101, 102, 107, 110, 114, 115,	بسكرة, 1, 56, 73, 152, 154, 194,
122, 123, 124, 125, 128, 132,	227, 501
143, 149, 162, 166, 167, 169,	بنزرت, 234, 252, 387, 501
170, 171, 175, 177, 178, 180,	بونة, 57, 127, 142, 215, 224, 404,
187, 215, 218, 234, 240, 256,	501
265, 270, 279, 312, 315, 317,	

,313 ,304 ,299 ,298 ,297 ,293	,169 ,111 ,110 ,109 ,106 ,99 ,99 ,111 ,110 ,109 ,106 ,99 ,99
,355 ,353 ,345 ,342 ,316 ,315	,203 ,188 ,187 ,181 ,173 ,170
,364 ,363 ,362 ,360 ,359 ,357	502 ,427 ,378 ,335 ,205
,370 ,369 ,368 ,367 ,366 ,365	,426 ,377 ,375 ,374 ,179 ,179
,392 ,382 ,379 ,375 ,374 ,371	502
,398 ,397 ,396 ,395 ,394 ,393	تلمسان, ح, ن, س, ق, ش, ت, ذ, 54, 48
,429 ,418 ,403 ,401 ,400 ,399	,88 ,85 ,84 ,83 ,82 ,81 ,80 ,79 ,67
,437 ,436 ,435 ,434 ,433 ,432	,101 ,100 ,99 ,98 ,96 ,93 ,92 ,90
,446 ,444 ,443 ,442 ,440 ,438	,131 ,129 ,128 ,118 ,105 ,104
,464 ,457 ,453 ,452 ,450 ,449	,138 ,137 ,136 ,135 ,134 ,133
,482 ,480 ,478 ,476 ,474 ,473	,144 ,143 ,142 ,141 ,140 ,139
,502 ,488 ,487 ,486 ,485 ,484	,155 ,154 ,153 ,152 ,149 ,148
513 ,511 ,508 ,507	,161 ,160 ,159 ,158 ,157 ,156
,49 ,40 ,34 ,28 ,خ, ر, ق, ل, تونس	,172 ,170 ,169 ,168 ,165 ,162
,69 ,66 ,65 ,63 ,62 ,61 ,60 ,58 ,53	,179 ,178 ,177 ,176 ,175 ,173
,131 ,124 ,100 ,91 ,76 ,73 ,71 ,70	,185 ,184 ,183 ,182 ,181 ,180
,149 ,148 ,144 ,143 ,138 ,135	,191 ,190 ,189 ,188 ,187 ,186
,161 ,160 ,159 ,158 ,155 ,151	,198 ,197 ,196 ,195 ,193 ,192
,212 ,211 ,210 ,209 ,196 ,193	,204 ,203 ,202 ,201 ,200 ,199
,218 ,217 ,216 ,215 ,214 ,213	,211 ,210 ,209 ,207 ,206 ,205
,226 ,225 ,224 ,223 ,222 ,220	,250 ,231 ,230 ,221 ,216 ,213
,235 ,234 ,231 ,230 ,228 ,227	,272 ,271 ,267 ,266 ,262 ,254
,250 ,248 ,246 ,240 ,237 ,236	,278 ,277 ,276 ,275 ,274 ,273
,257 ,256 ,255 ,254 ,253 ,252	,284 ,283 ,282 ,281 ,280 ,279
,315 ,301 ,265 ,262 ,260 ,258	,292 ,289 ,288 ,287 ,286 ,285

سبتة, 36, 41, 43, 48, 122, 123,	326, 355, 356, 357, 363, 379,
128, 204, 223, 228, 314, 315,	381, 382, 383, 384, 385, 386,
319, 322, 325, 335, 348, 424,	387, 388, 390, 391, 397, 428,
425, 426, 436, 467, 479, 503,	430, 449, 456, 458, 459, 464,
سجلماسة, 68, 89, 104, 110, 127,	465, 466, 467, 469, 473, 474,
173, 174, 176, 189, 194, 200,	475, 476, 478, 479, 502, 507,
245, 306, 307, 322, 359, 376,	508
377, 379, 419, 474, 503,	جربة, 69, 157, 235, 503,
صفاقس, 248, 503,	الجزائر, و, ز, ح, م, س, ع, ف, ش, 29,
صنهاجة, 50, 51, 66, 102, 170, 211,	31, 40, 60, 63, 66, 69, 70, 77, 80,
241, 304, 309, 413, 506,	82, 84, 87, 92, 100, 101, 104,
طرابلس, ق, 34, 54, 61, 71, 73, 74,	119, 123, 125, 142, 146, 150,
75, 88, 149, 154, 211, 214, 236,	152, 153, 154, 164, 166, 180,
264, 288, 395, 464, 467, 473,	183, 190, 193, 194, 195, 200,
503	202, 204, 205, 206, 248, 253,
طنجة, 43, 93, 122, 128, 180, 326,	254, 256, 258, 261, 270, 273,
335, 424, 425, 426, 475, 477,	277, 281, 283, 293, 295, 342,
503	354, 371, 373, 382, 393, 400,
فاس, ف, ر, 43, 44, 67, 107, 108,	405, 410, 423, 424, 433, 438,
109, 110, 112, 113, 114, 118,	445, 463, 464, 465, 466, 470,
127, 129, 148, 149, 154, 155,	471, 473, 474, 475, 476, 479,
169, 172, 173, 174, 175, 177,	480, 481, 482, 483, 484, 485,
178, 179, 180, 181, 184, 187,	486, 487, 488, 503,
189, 191, 192, 193, 194, 203,	حباية الرومية, 35, 500,
	حمام أبي بكر, 106, 500,

مراكش, 31, 40, 41, 47, 51, 53, 54,	204, 206, 229, 230, 236, 250,
55, 58, 59, 80, 110, 112, 113,	253, 254, 262, 270, 272, 274,
114, 127, 129, 132, 134, 137,	275, 279, 286, 300, 301,
141, 142, 165, 167, 169, 174,	302, 303, 304, 305, 306, 307,
175, 178, 179, 185, 194, 203,	308, 309, 310, 311, 312, 313,
208, 260, 307, 308, 309, 314,	314, 315, 316, 317, 318, 320,
318, 327, 361, 372, 439, 475,	321, 322, 323, 324, 326, 327,
480, 504,	328, 332, 335, 337, 338, 339,
المنصورة, ص, 138, 183, 185, 190,	340, 343, 344, 345, 376, 379,
284, 319, 370, 371, 399, 431,	389, 397, 399, 408, 409, 410,
432, 433, 434, 435, 436, 438,	411, 412, 413, 414, 415, 416,
439, 442, 457, 458, 461, 480,	417, 418, 419, 420, 422, 423,
482, 504, 507, 508, 513,	427, 433, 436, 444, 449, 453,
ندرومة, 81, 150, 179, 180, 182,	459, 460, 464, 466, 474, 477,
190, 214, 215, 281, 366, 375,	478, 480, 483, 488, 503, 508,
504,	513,
وجدة, 150, 157, 165, 172, 173,	قسنطينة, و, م, 52, 57, 61, 66, 70, 89,
176, 179, 181, 187, 190, 192,	91, 117, 135, 136, 142, 147, 148,
195, 198, 215, 362, 363, 364,	149, 150, 154, 155, 158, 196,
369, 379, 405, 429, 440, 504,	210, 211, 214, 215, 222, 223,
وهران, 75, 80, 100, 150, 182, 190,	224, 225, 226, 227, 228, 236,
194, 200, 203, 213, 279, 281,	248, 252, 253, 255, 261, 354,
283, 284, 287, 359, 370, 487,	357, 379, 385, 393, 404, 449,
488, 504,	453, 471, 482, 486, 487, 488,
	504,

3. فهرس القبائل

بنو عامر, 67, 88, 152, 160, 168,	الأشباح, 71, 505
195, 198, 199, 201, 202, 204,	أولاد أبي الليل, 71, 74, 211, 217, 218,
205, 206, 364, 505	219, 226, 505
بنو عبد الواد, م, 52, 77, 78, 79, 80,	أولاد عريف, 152, 199, 505
82, 83, 84, 85, 87, 88, 98, 100,	أولاد مهلهل, 74, 216, 217, 224, 225,
103, 104, 106, 117, 134, 141,	226, 505
150, 164, 168, 183, 192, 195,	بنو حفص, ب, ل, ث, 48, 49, 50, 51,
200, 201, 209, 406, 466, 505,	52, 55, 57, 61, 66, 67, 70, 73, 74,
509	76, 86, 89, 99, 110, 120, 132,
بنو مرين, ح, ع, 32, 48, 51, 55, 58,	133, 135, 136, 137, 138, 139,
68, 78, 80, 83, 89, 96, 98, 99,	141, 143, 146, 147, 149, 153,
102, 103, 104, 105, 106, 107,	155, 156, 157, 162, 166, 167,
108, 109, 110, 111, 112, 113,	176, 180, 191, 196, 200, 207,
114, 115, 117, 118, 124, 127,	210, 212, 213, 215, 216, 218,
129, 132, 133, 143, 144, 145,	219, 221, 222, 223, 224, 226,
146, 148, 149, 153, 154, 155,	228, 229, 230, 231, 234, 239,
162, 164, 165, 166, 167, 168,	240, 246, 249, 251, 252, 253,
170, 171, 172, 174, 177, 178,	254, 255, 256, 257, 264, 277,
186, 188, 191, 196, 197, 198,	350, 354, 356, 357, 358, 359,
199, 201, 202, 203, 205, 206,	369, 379, 381, 382, 385, 386,
207, 209, 212, 215, 217, 218,	389, 393, 399, 407, 430, 449,
222, 223, 225, 227, 228, 229,	479, 505, 509
231, 274, 275, 277, 279, 284,	بنو سليم, 127, 211, 505
288, 294, 300, 301, 302, 303,	

زغبة, 88, 118, 135, 151, 152, 168,	304, 305, 306, 307, 308, 309,
506, 193, 205,	310, 312, 314, 316, 318, 320,
سدويكش, 66, 71, 209, 506	322, 323, 324, 325, 326, 327,
عرب السويد, 67, 135, 159, 198, 506	330, 332, 334, 335, 336, 337,
العطاف, 118, 168, 194, 506	338, 339, 344, 345, 348, 355,
الكعوب, 67, 211, 214, 217, 219,	356, 357, 360, 362, 364, 367,
506	370, 371, 372, 373, 374, 376,
مرداس, 61, 506	377, 378, 379, 403, 409, 410,
مصمودة, 28, 36, 50, 98, 128, 231,	412, 413, 415, 416, 417, 419,
506, 315	422, 425, 426, 427, 428, 431,
مغراوة, 66, 67, 85, 87, 97, 98, 104,	435, 436, 437, 438, 444, 449,
111, 118, 134, 146, 168, 178,	463, 479, 480, 484, 505, 510,
180, 182, 186, 187, 192, 194,	توجين, 66, 85, 87, 97, 98, 104,
506, 195, 199, 202, 406,	111, 118, 131, 134, 143, 146,
	168, 176, 177, 178, 182, 186,
	191, 192, 202, 231, 363, 370,
	375, 406, 486, 506,
	الثعالبة, 100, 168, 187, 202, 506,
	ديالم, 118, 506,
	الذواودة, 67, 152, 202, 506,
	ذوي عبد الله, 199, 506,
	رياح, 67, 108, 118, 152, 200, 226,
	356, 506,

4. فهرس الخرائط

الصفحة	العنوان
116	الخريطة رقم 01: حدود دول المغرب خلال القرن الثامن للهجري
147	الخريطة رقم 02: حدود تقريبية لدول المغرب الإسلامي خلال عهد أبو حمو موسى الأول
148	الخريطة رقم 03: حدود تقريبية لدول المغرب الإسلامي أثناء حملة أبو تاشفين الأول
219	الخريطة رقم 04: أقصى اتساع للدولة المرينية خلال عهد أبو الحسن المريني
380	الخريطة رقم 05: مدن المغرب الأكثر تعرضا للخراب بفعل الصراع (ق 7-9هـ)

5. فهرس الأشكال

الصفحة	العنوان
183	الشكل رقم 01: مخطط يوضح معسكر الجيش المريني بالمنصورة لحصار تلمسان
292	الشكل رقم 02: رسم تخطيطي للجامع الأعظم (تلمسان)
296	الشكل رقم 03: رسم تخطيطي للجامع سيدي إبراهيم المصمودي
336	الشكل رقم 04: تخطيط الجامع الكبير بفاس الجديدة
345	الشكل رقم 05: رسم تخطيطي للمدرسة البوعنانية بفاس (الطابق السفلي)
390	الشكل رقم 06: مخطط يوضح موضع الأبواب (تونس)
401	الشكل رقم 07: مخطط مدينة تلمسان يوضح موضع الأبواب
439	الشكل رقم 08: رسم تخطيطي لجامع المنصورة قبل تخريبه
442	الشكل رقم 09: مخطط جامع المنصورة
443	الشكل رقم 10: مخطط لجامع سيدي الحلوي (تلمسان)
446	الشكل رقم 11: مخطط مدرسة سيدي أبي مدين (العباد)

6. فهرس الملاحق

الصفحة	العنوان
456	ملحق رقم 01: صورة لمئذنة جامع الزيتونة (تونس)
456	ملحق رقم 02: مئذنة جامع القصبة (جامع الموحدين)
457	ملحق رقم 03: آلية شد قوس الزيار المستعمل في حصار تلمسان
457	ملحق رقم 04: أشكال منجنيق الزيار من خلال كتاب الأنبيق في المنجنيق
458	ملحق رقم 05: صورة لمئذنة جامع المنصورة المريني المتضررة جراء الهجوم الزياني
458	ملحق رقم 06: صورة لسور القصبة (مدينة تونس)
459	ملحق رقم 07: تفاصيل مدخل باب بحر (تونس)
459	ملحق رقم 08: صورة للسور الداخلي لمدينة فاس من الناحية الشرقية
459	ملحق رقم 09: صورة للسور الخارجي لمدينة فاس من الناحية الشرقية
460	ملحق رقم 10: تفاصيل باب السمارين (فاس الجديدة)
460	ملحق رقم 11: صورة لتفاصيل باب السبع من الناحية الخارجية (مدينة فاس الجديدة)
461	ملحق رقم 12: صورة لتفاصيل باب الأمر من الناحية الخارجية
461	ملحق رقم 13: صورة لسور المنصورة المرينية

7. فهرس المحتويات

مقدمة: أ

26 الفصل الأول: الوضعية السياسية للمغرب الإسلامي (ق7-9هـ)

28..... أولاً: سقوط دولة الموحدين، دراسة في الأسباب

30..... 1. أسباب سياسية

36..... 2. أسباب عسكرية

41..... 3. أسباب دينية (نبد العقيدة التومرتية):

43..... 4. أسباب اقتصادية:

48..... 5. الأطماع الانفصالية:

49 ثانياً: إنعكاسات سقوط دولة الموحدين

49..... 1. قيام الدولة الحفصية

49..... 1. 1 نسب بني حفص:

52..... 1. 2 ظروف تأسيس الدولة الحفصية:

63..... 1. 3 الجيش الحفصي:

70..... 1. 4 أسباب سقوط الدولة الحفصية:

77..... 2. قيام الدولة الزيانية

77..... 2. 1 أصل بني عبد الواد:

79..... 2. 2 نشأة الدولة الزيانية:

84..... 2. 3 الجيش الزياني:

95..... 2. 4 سقوط الدولة الزيانية:

102 3. قيام الدولة المرينية

3. 1 أصل بني مرين ومواطنهم: 102
3. 2 دخول بني مرين الى المغرب الأقصى وبداية نشأة دولتهم: 104
3. 3 النظام العسكري: 117
3. 4 سقوط الدولة المرينية: 123

الفصل الثاني: الصراع بين دول المغرب الإسلامي (ق 7-9هـ) 130

- أولاً: الصراع الحفصي الزياني 132
1. أسباب الصراع الحفصي الزياني 133
1. 1 التبعية الزيانية للموحدين 133
1. 2 دور القبائل العربية والبربرية في تأجيج الصراع بين الدولتين الحفصية والزيانية: 134
1. 3 التدخل في الشؤون الداخلية: 135
1. 4 تحريض المنشقين على السلطة: 136
2. مظاهر الصراع 137
2. 1 الاستيلاء الحفصي على الدولة الزيانية: 137
2. 2 التوسع الزياني شرقاً: 145
3. 2 السيادة الحفصية: 153
- ثانياً: الصراع الزياني المريني 163
1. أسباب الصراع 163
1. 1 الموقف من الدولة الموحدية: منشأ الخلاف 164
1. 2 العلاقات الزيانية ببني الأحمر: 166
1. 3 دور قبائل المغرب الأوسط في تأجيج الصراع الزياني المريني: 167
1. 4 التدخل في الشؤون الداخلية وإيواء المنشقين عن السلطة: 168

2.	مظاهر الصراع الزياني المريني	171
2.	1 الحملات المرينية خلال عهد يغمراسن:.....	171
2.	2 حملات أبو يعقوب يوسف على تلمسان:.....	178
2.	2. 1 الحصار الطويل:.....	182
2.	3 حملة أبو السعيد عثمان (714هـ/1314م):.....	186
2.	4 حصار أبو الحسن المريني:.....	188
2.	5 حملة أبو عنان:.....	194
2.	6 الحملات المرينية خلال عهد أبو حمو موسى الثاني:.....	196
2.	7 عودة الهيمنة المرينية:.....	205
	ثالثا: الصراع الحفصي المريني.....	207
1.	العلاقات الحفصية المرينية: التحالفات المبكرة.....	207
2.	مظاهر الصراع الحفصي الزياني.....	212
2.	1 استيلاء أبو الحسن على إفريقية:.....	213
2.	2 استيلاء أبو عنان على إفريقية:.....	221
2.	3 عودة التبعية المرينية للدولة الحفصية:.....	229
	الفصل الثالث: العمارة المدنية والدينية في المغرب الإسلامي (ق 7-9هـ)	232
	أولا: العمارة الحفصية (المدنية والدينية).....	234
1.	الهيكل العمرانية المدنية.....	234
1.	1 العمارة السكنية الحفصية:.....	235
1.	2 المنشآت التجارية والفضاءات العامة: دراسة في البنى الاقتصادية والاجتماعية.	
	الأسواق، الفنادق، القيصارية، الفنادق، الحمامات، مارستات:.....	245

255	2. المؤسسات الدينية والثقافية.....
256	2. 1 المساجد:.....
261	2. 2 المدارس:.....
266	ثانيا: العمارة الزيانية (المدنية والدينية).....
267	1. الهياكل العمرانية المدنية.....
267	1. 1 العمارة السلطانية والسكنية:.....
278	1. 2 المنشآت التجارية والفضاءات العامة: دراسة في البنى الاقتصادية والاجتماعية:.....
287	2. المؤسسات الدينية والثقافية:.....
289	2. 1 المساجد:.....
297	2. 2 المدارس:.....
300	ثالثا: العمارة المرينية (المدنية والدينية).....
302	1. الهياكل العمرانية المدنية المرينية.....
302	1. 1 العمارة السكنية:.....
307	1. 2 المنشآت التجارية والفضاءات العامة: دراسة في البنى الاقتصادية والاجتماعية:.....
325	2. المنشآت العمرانية الدينية والثقافية.....
326	2. 1 المساجد:.....
336	2. 2 المدارس:.....

الفصل الرابع: انعكاسات الصراع على العمران: دراسة ثنائية الخراب والتشييد...351

353	أولا: مظاهر الخراب العمراني.....
353	1. خراب عمران الدولة الحفصية.....
360	2. خراب عمران الدولة الزيانية.....

372	3. خراب عمران الدولة المرينية
380	ثانيا: المنشآت الحربية
381	1. المنشآت الحربية الحفصية
382	1. 1 الأسوار:
386	1. 2 الأبواب:
391	1. 3 الحصون:
393	2. المنشآت الحربية الزيانية
393	2. 1 الأسوار:
397	2. 2 أبواب عاصمة الدولة الزيانية (تلمسان):
402	2. 3 حصون الدولة الزيانية:
408	2. المنشآت الحربية المرينية
408	3. 1 الأسوار:
412	3. 2 أبواب مدينة فاس:
425	3. 3 حصون الدولة المرينية:
428	ثالثا: البناء والترميم
428	1. جهود سلاطين المغرب في الترميم والصيانة
431	2. المنشآت المرينية في المغرب الأوسط
431	2. 1 المنصورة:
437	2. 2 المنشآت الدينية والثقافية:
438	2. 2. 1 المساجد:
444	2. 2. 2 المدارس:

452.....	نتائج الدراسة:
463.....	قائمة المصادر والمراجع:
493.....	الفهارس:
493.....	1. فهرس الأعلام.
496	2. فهرس الأماكن والبلدان
500	3. فهرس القبائل
502	4. فهرس الخرائط.
502	5. فهرس الأشكال
503	6. فهرس الملاحق.

الملخص:

تبحث هذه الأطروحة في أثر الصراع بين دول المغرب الإسلامي على البنى العمرانية خلال القرنين السابع والتاسع للهجريين، مبرزة انعكاسات التحولات السياسية والعسكرية على المجال الحضري. فقد أدى انهيار الدولة الموحدية إلى نشوء ثلاث قوى متنافسة: الدولة الحفصية في إفريقيا، الدولة الزيانية في المغرب الأوسط والدولة المرينية في المغرب الأقصى، حيث أسفر التنافس المدفوع بدوافع توسعية قبلية وطموحات وراثية الإرث الموحي، عن تخريب واسع النطاق للبنى العمرانية. غير أن تأثير الصراع لم يقتصر على التدمير فحسب، بل أفرز ديناميكيات جديدة في حركة العمران، حيث دفعت المتغيرات العسكرية السلاطين إلى تبني سياسات تحصينية وإصلاحية تهدف إلى احتواء آثار الحرب وإعادة تشكيل المجال الحضري وفق اعتبارات استراتيجية. كما انصب اهتمام القادة المحاصرين في تحصين النطاق المستولى عليه وترميم ما تعرض للتخريب، إلى جانب تشييد منشآت دينية وتعليمية ومرافق عامة، في سياق يعكس رمزية السلطة ويكرس سيادتها على المجال المستولى عليه.

تعتمد هذه الدراسة، على المنهج التاريخي لتحليل المصادر واستقراء المعطيات السياسية والعسكرية، للكشف عن تفاعل العمران مع مسارات الصراع، كما توظف المنهج الوصفي لدراسة المكونات المعمارية وتحليل المواد والتقنيات المستخدمة في البناء.

الكلمات المفتاحية: المغرب الإسلامي، الصراع، العمران، الدولة الحفصية، الدولة الزيانية، الدولة المرينية.

Abstract:

This dissertation examines the impact of conflict among the Islamic states of the Maghreb on urban structures during the 7th–9th centuries AH, highlighting the repercussions of political and military transformations on the urban landscape. The collapse of the Almohad state led to the emergence of three competing powers: the Hafsid state in Ifriqiya, the Zayyanid state in the Central Maghreb, and the Marinid state in the Far Maghreb. The competition, driven by expansionist tribal motives and ambitions to inherit the Almohad legacy, resulted in widespread destruction of urban structures. However, the impact of the conflict was not limited to destruction alone; it also generated new dynamics in urban development. Military shifts compelled rulers to adopt fortification and restoration policies aimed at mitigating the effects of war and reshaping urban spaces according to strategic considerations. Besieged leaders focused on fortifying the territories they had seized, restoring what had been damaged, and constructing religious, educational, and public facilities in a manner that reflected the symbolism of power and reinforced sovereignty over the occupied territory. This study employs the historical method to analyze sources and interpret political and military data, revealing the interaction between urban development and the course of conflict. It also utilizes the descriptive method to examine architectural components and analyze the materials and techniques used in construction.

Keywords: Islamic Maghreb, conflict, urbanism, Hafsid state, Zayyanid state, Marinid state

People's Democratic Republic of Algeria
Ministry of Higher Education and Scientific Research



University of Mohamed Khider-Biskra-

Department of Humanities

Serial number:

College of Humanities and Social
Sciences
Department of History

Registration No.: 07/PG/LMD/HIS/20

**The Conflict Among the Countries of the Islamic Maghreb
and its Impact on the Urban Aspect
in the century (7-9 h)**

Thesis Doctorat (L. M. D) Human Sciences-History

Specialty: History and Civilization of the Islamic Maghreb

Presented by:
Wissem Larafa

Supervision Professor
Fatiha Chelloug

Member of the Discussion committee

Name & Surname	Rank	Original University	Character
Messaoud Karbo	Professor	University of Mohamed Khider -Biskra-	President
Fatiha Chelloug	Lecturer -A-	University of Mohamed Khider -Biskra-	Supper & Rappt
Maghnia Gherdaine	Professor	University of Mohamed Khider -Biskra-	Examiner
Salem Karboua	Lecturer -A	University of Mohamed Khider -Biskra	Examiner
Ammar Gh-raysia	Professor	Hamma Lakhdar El Oued University	Examiner
Karim tayeb	Lecturer -A-	University of Batna 1	Examiner

University year: (2024/2025AD)